

الجمعية المصرية
للدراستات التاريخية

مركز البحوث والدراسات الاجتماعية
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الثورة والتغيير في الوطن العربي عبر العصور

أعمال ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

تحرير
عبادة كحيلية

الطبعة الأولى
٢٠٠٥

منتہی سور الازہکیۃ

WWW.BOOKS4ALL.NET

الجمعية المصرية
للدراستات التاريخية

مركز البحوث والدراسات الاجتماعية
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الثورة والتغيير فى الوطن العربى عبر العصور

أعمال ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

تحرير
عبادة كُحيلة

الطبعة الأولى

٢٠٠٥

**مركز البحوث والدراسات الاجتماعية
كلية الآداب - جامعة القاهرة**

**العنوان: ١ ش الشهيد عبدالهادى صلاح (الرامحة سابقاً)
بريد الأورمان - الجيزة
تليفون: ٧٤٨٥٤٢١ - ٧٤٨٦٤٣٤
فاكس: ٣٣٨٥٣٦٦**

المشاركون فى تأليف هذا الكتاب

أستاذ مساعد - كلية الآداب - جامعة المنصورة	ابراهيم العدل المرسى
أستاذ بكلية الآثار - جامعة القاهرة	جاب الله على جاب الله
أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة	رعوف عباس حامد
رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية	
أستاذ مساعد بكلية الآداب - جامعة القاهرة	سيد عشاوى
أستاذ بكلية الآداب - جامعة عين شمس	عادل حسن غنيم
أستاذ بكلية الآداب - جامعة حلوان	عاصم الدسوقى
أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة	عبادة كحيلة
سفير. مساعد وزير الخارجية سابقاً	عبدالله الأشعل
أستاذ بكلية التربية - جامعة القاهرة بالفيوم	عبدالله عزباوى
أستاذ مساعد بكلية التربية جامعة القاهرة بالفيوم	عبدالحمد حسين حمودة
باحث فى تاريخ وادى النيل	عبدالرحمن عوض
أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة	عبدالعليم أبو هيكل
أستاذ بكلية التربية - جامعة القاهرة بالفيوم	عبدالمنعم إبراهيم الجميعى
مدرس بكلية الآداب - جامعة أسيوط	عبدالناصر إبراهيم عبدالحكم
أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة	عطية القوصى
مدرس بكلية الآداب - جامعة القاهرة	عودة عبدالواحد جودة
أستاذ مساعد بجامعة قناة السويس	فطين أحمد فريد

أستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة	ليلى عنان
أستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة	محمد بركات الببلي
أستاذ مساعد بكلية التربية – جامعة عين شمس	محمد رفعت عبدالعزيز
أستاذ بكلية الآداب – جامعة طنطا	محمد مجدى الجزيرى
أستاذ بجامعة الأزهر	محمد محمود أبو غدير
أستاذ بكلية الآداب – جامعة عين شمس	محمود إسماعيل
مدرس بكلية الآداب – جامعة المنيا	نبيل السيد الطوخي

فهرس المحتويات

صفحة	الموضوع	تقديم
٩	عُبادة كُحيلة	

الباب الأول

مداخل نظرية

١١	الفصل الأول: في البحث عن قانون علمي لظاهرة الثورة..	الإشكالات والفروض
	عاصم الدسوقي	
١٩	الفصل الثاني: الفلسفة والثورة	محمد مجدى الجزيرى
٣٩	الفصل الثالث: دور الثورات في صناعة القانون الدولي	عبدالله الأشعل

الباب الثاني

الثورة والتغيير في العصور القديمة

٤٩	الفصل الأول: أوتو حيجال وأول ثورة تحريرية في العالم	جاب الله على جاب الله
٥٨	الفصل الثاني: الثورات المصرية في العصر الروماني	عودة عبدالواحد جودة (٣٠ق.م - ٢٨٤م)

الباب الثالث

الثورة والتغيير في العصور الوسطى

٩٤	الفصل الأول: مفهوم الثورة في الإسلام	محمد بركات الببلى
١٠١	الفصل الثاني: المهمشون في التاريخ الإسلامي.. رؤية	سوسيو تاريخية محمود إسماعيل

- ١١٢ الفصل الثالث: أول ثورة وتغيير في الدولة العربية الإسلامية
(ثورة الأمويين ضد خلافة الراشدين سنة ٤١ هـ / ٦١١ م)
عطية القوصي
- ١٢٧ الفصل الرابع: ثورة أهل البشرد في عهد الخليفة المأمون
(٢١٧:٢١٦ هـ / ٨٣١:٨٣٢ م) عبدالناصر إبراهيم عبدالحكم
- ١٤٩ الفصل الخامس: ثورة الدراهم في عهد إبراهيم بن احمد الأغلبى
(دراسة تحليلية لنص ابن عذارى المراكشي)
عبدالحميد حسين حمودة

الباب الرابع

الثورة والتغيير في العصور الحديثة

- ١٦٤ الفصل الأول: عنف الجياع. انتفاضات الخبز في مصر العثمانية
سيد عشمأوى
- ١٩٤ الفصل الثاني: دور الحرفيين في ثورة القاهرة الثانية إبان الحملة
الفرنسية على مصر
نبيل السيد الطوخى
- ٢٠٣ الفصل الثالث: انتفاضة عبدالقادر ودحبوبة. قراءة جديدة
عبدالرحمن عوض
- ٢٠٩ الفصل الرابع: الثورة العربية عام ١٩١٦ وثمارها الاقتصادية
والاجتماعية لبعض العشائر
عبدالعليم أبو هيكل
- ٢٢٨ الفصل الخامس: حركة الشيخ عز الدين القسام
عادل حسن غنيم
- ٢٤٨ الفصل السادس: الثورة من أزمة نادى تضباط الجيش حتى اجتماع
لجنة القيادة الأخير
فطين أحمد فريد

صفحة	الموضوع
٢٩٩	الفصل السابع: ٢٣ يوليو. انقلاب أم ثورة عبد المنعم الجميلى
٣٠٧	الفصل الثامن: تغيير قيم عائلة مصرية قبل ١٩٥٢ وبعدها ليلى عنان
٣١٢	الفصل التاسع: موقف الولايات المتحدة الأمريكية من العدوان البريطانى على ثورة عمان ١٩٥٧م إبراهيم العدل المرسي
٣٤٧	الفصل العاشر: رواد التحرر الوطن المصرى الحديث فى المنظور الشعبى "دراسة فى الإحصاء التاريخى" محمد رفعت عبدالعزيز
٣٨٢	الفصل الحادى عشر: الانتفاضة الفلسطينية من خلال رواية "حالم بفلسطين" لراندة غازى عبدالله عزباوى
٣٩٧	الفصل الثانى عشر: البعد الدينى والتاريخى للموقف الإسرائيلى من غزو العراق (الجذور والتداعيات) محمد محمود أبوغدير

تقديم

الثورة ظاهرة تاريخية ، تعود في أصولها إلى ماض بعيد ، ويحضرنا مثال ثورة إيبوير في عهد الدولة المصرية القديمة ، والثورة أيضاً ظاهرة مجتمعية ، أي أنها لا ترتبط بجانب معين من حياة الإنسان ، إنما هي ترتبط بجوانب حياته كلها. وليس لها مفهوم محدد متفق عليه بين الجمهور ، لكنها تعنى- على نحو عام - تغييراً كبيراً مفاجئاً في أوضاع قائمة ، يسفر عن أوضاع جديدة ، لم يكن ثم عهد بها .

ولما كانت الثورة تستمد أهميتها من اتساع مداها وعمق محتواها ، كانت الثورات التي أفضت إلى تغييرات سياسية واجتماعية ظاهرة ، هي الأوفر شهرة والأكثر تداولاً عند المؤرخين وغيرهم من المتقنين .

من هذه الثورات ، الثورة الفرنسية (١٧٨٩) والثورة الروسية (١٩١٧) والثورة الإيرانية (١٩٧٩) .

على أنه مما تجب ملاحظته أن هناك ثورات لم تكن تضم عناصر المجتمع وطبقاته كافة ، إنما كانت تضم بعضها دون غيرها ، مثل ثورة العبيد (سبارتاكوس) في القرن الأول قبل الميلاد ، وثورة الزنج (في بطائح العراق) في القرن التاسع الميلادي ، وثورة الفلاحين في ألمانيا في القرن السادس عشر .

ومع اعترافنا بأهمية هذه الثورات التي نجمت في سياق سياسي اجتماعي محدد، إلا أنه لدينا ثورات أخرى كان لها شأنها ، نجمت في سياق آخر وإن كانت له صلاته- تأثيراً وتأثراً - بهذا السياق (السياسي - الاجتماعي) مثل الكشوف الجغرافية ، والإصلاح الديني والإصلاح الديني المضاد ، والثورة للصناعية .

ولم نذهب بعيداً... ألم يكن اختراع الزراعة في مرحلة ما قبل بداية التاريخ، واختراع الكتابة في مرحلة ما بعد بداية التاريخ... ألم يكن كل من هذين الاختراعين ثورة بذاته، كان لها تأثيرها في مجريات حياة الإنسان في عصور التاريخ التالية؟؟

كذلك... ألم يكن لاختراع الحاسوب ، وما أفضى إليه من ثورة معلوماتية تأثير واضح في ظهور ما يعرف بالعلومة التي نعاني نحن في وطننا العربي من تبعاتها... ما أمر هذه التبعات!!.

كانت الثورة عبر العصور شغلاً للعديد من المفكرين في مجالات عدة بينها التاريخ، ووجدنا بينهم من تخصص فيها ، وأظهرهم عندنا حنة أرنت ومن هؤلاء من يرى في الثورة ضرورة للتقدم الإنساني (ماركس) ومنهم من يراها سلوكاً يصدر عن سيكولوجية الفوضى ، وهي سيكولوجية تشبه في تكوينها العقلية البدائية (نيتشه) .

هذا السجال الذي دارت رحاه في الحضارة الغربية ، شهدنا - وما نزال - مثيلاً له في حضارتنا العربية الإسلامية ، فمن مفكرينا من قال بحق الثورة ، ومنهم من جانبته (الإمام الغزالي) .

لما كان لهذا الموضوع - موضوع الثورة - أهميته القصوى ، فقد اختصته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بندوتها للعام ٢٠٠٣ بعنوان " الثورة والتغيير في الوطن العربي عبر العصور " ، والتأم عقد هذه الندوة بمقر الجمعية في الفترة ٢٢- ٢٤ من أبريل

(نيسان) ٢٠٠٣ وشارك فيها جمهور من المؤرخين وجمهور آخر من المهتمين بالدراسات التاريخية ، كما ترأس جلساتها نخبة من كبار المتقنين في طليعتهم محمود أمين العالم وطارق البشري والسيد يسين.

أزعم أن هذه الندوة عن "الثورة" حققت من النجاح ما حققته سابقتها عن "النقاء الحضارات" ، وليس من فضل في هذا النجاح إلا للجهود التي بذلها أعضاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ومجلس إدارتها ورئيسه الأستاذ الدكتور/ رعوف عباس حامد ، فلهم منى الشكر... وافز الشكر.

الشكر واجب كذلك لمركز البحوث والدراسات الاجتماعية بجامعة القاهرة ومديره الأستاذ الدكتور/ أحمد عبد الله زايد، فقد تفضل بطباعة هذا الكتاب والنفقة عليه، ليخرج في أبهى حلة وأجمل صورة، فجزاه الله عنا خير جزائه.

والله الموفق

مقرر الندوة
عبادة كُحيلة

الباب الأول مداخل نظرية

الفصل الأول

في البحث عن قانون علمي لظاهرة الثورة الإشكالات .. والفروض

عاصم الدسوقي (*)

البحث في التاريخ ليس مجرد جمع معلومات خاصة بموضوع البحث من مختلف المصادر والمراجع العامة، رغم أن جمع المعلومات يمثل الخطوة الأولى والأساسية في بناء البحث، إذ لا يمكن بدهاء كتابة التاريخ دون الاستناد إلى معلومات. كما أن كتابة البحث لا تقوم فقط على نقد المصادر التي يعتمد عليها الباحث وفق قواعد النقد المتعارف عليه، وإلا فإن البحث يصبح مجرد معلومات مصفوفة بعناية، وكأنه رسالة في المعلومات وليس رسالة في العلم. ولكن فوق هذا وذاك لا بد من أن يقوم البحث على اكتشاف العلاقات بين جزئيات الظاهرة موضع البحث تطبيقاً لقانون علمي قائم، أو للخروج من هذه العلاقات بقانون علمي يستخدم في تفسير الأشياء في الماضي والحاضر وتقديم تصور للمستقبل. وبهذه الخطوة يقترب التاريخ من دائرة العلم أو فلسفة العلم، لأن العلم يعني المعرفة المنظمة للظواهر الطبيعية أو الإنسانية وللعلاقة التي بينها، ودراسة العلاقات التي بين الظواهر تعني دراسة قوانين هذه الظواهر.

ولكن .. ما هي طبيعة القانون العلمي في موضوع التاريخ؟! أو كيف يبني القانون العلمي!؟

إن التصد بالقول بالقانون العلمي هنا التأكيد على نفي القول بالمصادفة في تكوين الظاهرة وتطورها من حال إلى حال، والتأكيد على أن حركة حوادث

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر كلية الآداب، جامعة حلوان، عميد كلية الآداب، جامعة حلوان سابقاً.

التاريخ لا تتم جزافاً هكذا، وإنما ثمة عوامل متشابكة ومتراكمة كل منها يؤدي إلى الآخر إلى أن يكتمل تبلور الظاهرة موضع الدراسة.

ولقد ذهب فلاسفة العلم مذاهب شتى في تحديد طبيعة القانون العلمي، يمكن حصرها في أربعة مذاهب كل منها يتناقض مع الآخر تماماً. وأول هذه المذاهب يقول أصحابه إن القانون كامن في العلاقات الداخلية للظاهرة، أي في ماهية الأشياء وصفاتها الجوهرية، وإن إدراك ما بين هذه الصفات من علاقات يوضح لنا أنها تجري على نسق مطرد، وهذا النسق هو ما يطلق عليه "القانون". وبعد إستخراج هذه القوانين، أي نسق العلاقات المطردة التي تصل الأشياء بعضها ببعض، يصبح بالإمكان أن نستخدم هذه القوانين في تفسير الأشياء دونما حاجة إلى إفتراض وجود قوة مطلقة مفارقة تسير الطبيعة من الخارج.

وأما المذهب الثاني فيقول أصحابه إن القانون غير كامن في العلاقات الداخلية للظاهر، وإنما هو مفروض على الظاهرة من الخارج ،ومن هنا يبدأ البحث عن العلاقات الداخلية للظاهرة بواسطة القوة المفارقة (القوة الإلهية) التي تسير الظاهرة ،لأن العلاقات الداخلية هذه بين الأشياء تعد آية من آيات العمل الإلهي وحكمته .

والمذهب الثالث يقول أصحابه : إن القانون ما هو إلا وصف لما تمت ملاحظته في الطبيعة من إطراد، دون أن يقتضي ذلك ضرورة حدوث الإطراد أو حتميته. وهذا يعني إنكار وجود السببية في الطبيعة، لأن القانون والحال كذلك يصف كيف تتحرك الأشياء على نحو معين دون أن يفسر لنا لماذا تتحرك على هذا النحو دون غيره من الأنحاء ،وبالتالي فأصحاب هذا المذهب يستبعدون كلاً من الحتمية (المذهب الأول) ،والقوة العليا المفارقة " الحكمة الإلهية" (المذهب الثاني).

وأما المذهب الرابع فإن أصحابه يعدون القانون مجرد تفسير اصطلاحي وأسلوب إجرائي في البحث، كما وضع لدى بعض أتباع الوضعية المنطقية ، والبرجماتييين وخاصة في القرن العشرين. فأتباع الوضعية المنطقية يرون أن القوانين العلمية عبارة عن أطر تساق فيها القضايا ،ومن هنا تكون السببية عندهم وسيلة أدائية لتنظيم سير البحث في كائنات الوجود الخارجي. ويقترب البرجماتيون من هذا الفهم حين يقولون : إن قوانين الطبيعة عبارة عن قواعد للسلوك نتوخاها عند استخدامنا لوقائع للعالم الخارجي.^(١)

وإذا كانت هذه المذاهب الأربعة تقصر معنى القانون العلمي على الظواهر الطبيعية فقط، فإن ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، جعل القانون (العلمي) ينسحب على الظواهر الاجتماعية، إذ انتهت به دراسته لهذه الظواهر إلى الكشف عن القوانين التي تخضع لها وتفسيرها، من حيث نشأتها وتطورها، وما يعرض لها من أحوال. وقد اهتدى من دراسته إلى أن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون، وبالتالي فإن للعلوم الإنسانية قوانين تشبه قوانين العلوم الطبيعية. وبمعنى آخر إنه رأى إمكانية دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية، كما تدرس ظواهر العلوم الأخرى للوقوف على طبيعتها وصفاتها والقوانين التي تخضع لها.

ومن هنا جاء قول ابن خلدون في تعريف التاريخ إنه "في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول السوابق من القرون، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق".^(٢)

وعلى هذا فلا ينبغي التفرقة بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الإنسانية (التجربة البشرية وتطورها) ، وبالتالي فإن المنهج العلمي ينبغي أن يكون واحداً بالنسبة للظاهرتين ، إذ لا فرق بين ظاهرة طبيعية يتم بحثها على أساس المشاهدة والملاحظة تنتهي باستخراج قانون منها ، وظاهرة إنسانية يتم بحثها باستدعائها من التاريخ، نخلص منها إلى قانون أيضاً. فالقانون العلمي في النهاية عبارة عن علاقة أو صلة أساسية ضرورية ومطرودة بين خواص معينة .. فقانون الجاذبية مثلاً يحدد علاقة الأجسام كلها بالأرض وهي علاقة حقيقية وأساسية ومطرودة ، وكذلك الحال بالنسبة للقوانين الاجتماعية كما سوف نرى ، والقانون لا يصنعه الإنسان وإنما يكتشفه حين يربط بين المتغيرات الكمية والتغير الكيفي النهائي. مع الاعتراف بأن السلوك البشري أكثر تعقيداً من حيث الاطراد وغير نمطي عكس الظاهرة الطبيعية.

وحيث أن "الثورة" ظاهرة إنسانية اجتماعية عرفتها المجتمعات البشرية نتج عنها تغيير في البناء السياسي والاجتماعي ، برزت على إثرها قوى اجتماعية متوارثت أخرى ،وقد تتكرر إذا ما دعت الظروف إلى ذلك .. فهل يمكن اكتشاف القانون العلمي لها ؟. إن الإجابة على هذا السؤال هو محور هذه المقالة التي تستهدف صياغة قانون علمي لظاهرة الثورة.

والحق إن هذه المحاولة هي نوع من الملاحظة في بحار صاخبة متلاطمة الموج ، لأن القانون ينبغي أن يقوم ابتداءً على حصر جميع الحالات التي ينطبق عليها (أي الثورة في موضوعنا) حتى تتحقق شمولية المعرفة التي هي أحد خصائص المعرفة العلمية. ولعل صعوبة حصر جميع حالات الظاهرة الاجتماعية-الإنسانية من وقائع التاريخ على مر العصور جعلت بعض فلاسفة العلم يذهبون إلى أن العلوم الاجتماعية Social sciences ليست علومًا أصلاً وأنها في أحسن الأحوال عبارة عن دراسة Study وأن "العلم" Science هو العلم الطبيعي فقط.^(٣)

ويستند هؤلاء الذين يرفضون دراسة الظاهرة الاجتماعية في ضوء قانون علمي إلى عدة ملاحظات يمكن تلخيصها فيما يأتي :

- أن الدراسات الإنسانية-الاجتماعية تستخدم مفاهيم كيفية (أي مصطلحات) غير مبنية على تجارب كمية مثل مصطلح الطبقة ، والمجتمع ، والديموقراطية ، والبورجوازية والليبرالية .. إلخ ، وكأننا هذه الألفاظ بسيطة المعاني يمكن ضبط مدلولاتها ضبطاً يمنع الاختلاف حولها ، أو يمكن تطبيقها في أي مجتمع وعلى أي فترة من فترات التاريخ ، أو يمكن معاملتها معاملة مصطلحات : حرارة وضوء وصوت وكهرباء.

- أن المفاهيم التي تخلص لها الدراسات الإنسانية هي مفاهيم ذاتية الدلالة أي خاصة بالحالة أو الحالات موضوع الدراسة ولا يمكن تعميمها.

- أن التغير في الحالة الاجتماعية أبطأ من التغير في الظاهرة الطبيعية وبالتالي من الصعب ملاحظته إلا على فترة زمنية طويلة، بينما الظاهرة الطبيعية يمكن إدراكها من واقع ملاحظتها على مدار زمني قصير ،ويمكن استعادتها في المعمل لمعرفة كيفية تكوينها وإعادة تركيبها عكس الظاهرة الاجتماعية-الإنسانية التي تحدث مرة واحدة ولا تعود ولا يمكن إعادتها ، إذ لا يمكن استعادة الحروب والمعارك والثورات وإعادة تمثيلها حتى تتكشف أسرارها.

- أن للإنسان إرادة حرة ويتمتع بحرية الاختيار تمكنه من تغيير المسنار السببي ، وهي خصوصية لا تتمتع بها الظاهرة الطبيعية . وبالتالي فإن قانون العلم الطبيعي عام ومطلق ، ولا يتغير بتغير المكان أو الزمان .

- أن العلم الطبيعي حتمي في نتائجه ، وأن ظواهره محتومة الوقوع أو ما يعبر عنه بالاحتمية Determinism، وهو أمر بعيد الحدوث في الظاهرة

الاجتماعية. وتبعاً لهذا الرأي فالتاريخ لا يمكن أن يكون إلا سرداً لا يدخله الاستدلال بالشواهد ولا بالتجارب العملية.^(٤)

ورغم وجهة تلك الملاحظات الاعتراضية على "علمية" الظاهرة الاجتماعية، إلا أن الباحث في تاريخية الظاهرة الاجتماعية يمكنه التوصل إلى قانون، يمثل حكماً كلياً عمومياً لا يقل في ذلك كثيراً عن أحكام الظاهرة الطبيعية، فالمؤرخ يفسر قيام ثورة ما كما يفسر الجيولوجي وقوع الزلزال، والقصد أنه يريد أن يثبت أن الثورة لم تقع مصادفة وإنما وقعت وفقاً لقانون معين حتى إذا لم يبلغ درجة الدقة التي تتصف بها العلوم الطبيعية.^(٥)

وفي هذا الخصوص يرى هرنشو أنه على الرغم من صعوبة استخلاص قوانين علمية من دراسة التاريخ على غرار دقة العلوم الطبيعية، فإن هذا لا يجرد التاريخ من صفة العلم، بل إن العجز عن بلوغ أغراض محددة في دراسة الأساطير (الميثولوجيا) مثلاً بسبب عدم دقة قوانينها لا يجيز نفي صفة العلم عنها، ويكفي في رأيه إسناد صفة العلم إلى موضوع ما إذا سعى الباحث إلى تأسيس بحثه على حكم نقدي بعيداً عن هوى النفس.^(٦)

على أن أول ما يصادفنا في صياغة قانون علمي للثورة إشكالية تعريف الثورة ذاتها للبحث عن تراكميتها الكمية. وتبدو المشكلة واضحة عندما تطلق جماعة ما على نفسها أو فرد يستولى على السلطة بأن ما قام به أو قامت به الجماعة "ثورة"، وينتقل هذا الوصف الكيفي إلى الدارسين دون وعي بحقيقة الظاهرة العلمية، مما ينتج عنه في النهاية خلط واضح بين "الثورة" علمياً وبين أية حركات أخرى من نوع الانتفاضة، أو الهبة، أو التمرد، أو العصيان.

لكن التعريف المعجمي للثورة يساعدنا على اكتشاف القانون العلمي لها.. فالمعاجم الغربية تتفق على تعريف الثورة Revolution بأنها تغير فجائي وأساسي وتام، وتغيير جوهري في النظام السياسي يتلخص في الإطاحة بحكومة قائمة وإقامة حكومة من المحكومين، والمصطلح مشتق من فرنسية العصور الوسطى اللاتينية Revolutio ومن الأصل اللاتيني Revolvere بمعنى الاستدارة في الاتجاه.^(٧)

أما في اللغة العربية فإن المعجم الوسيط الصادر من مجمع اللغة العربية في مصر (١٩٦٠) يعرف الثورة "بأنها تغيير أساسي في الأوضاع السياسية والاجتماعية يقوم به الشعب في دولة ما" ولكنه يضع أمام التعريف وبين قوسين

كلمة "محدثه". والمعنى أن المعاجم العربية السابقة لم ترد فيها الكلمة بهذا المعنى الإصطلاحي ،ففي مختار الصحاح تأتي كلمة "ثور (بتشديد حرف الواو) فلان الشر تنويراً : أي هيجه وأظهره". كما تأتي كلمة "ثور (بتشديد حرف الواو) القرآن: أي بحث عن علمه". وفي المصباح المنير كلمة "أثاروا الأرض: أي عمروها بالفلاحة والزراعة".

والخلاصة أن الثورة هي عملية الوصول إلى السلطة وتغيير البناء الاقتصادي-الاجتماعي القائم في المجتمع وإقامة علاقات اجتماعية جديدة. ولكن ما هو القانون العلمي للثورة ؟.

يمكن اكتشاف هذا القانون من واقع دراسة عينة من الثورات السياسية-الاجتماعية الكبرى التي قامت في التاريخ الحديث بحثاً عن التراكمات الكمية التي أدت إلى التغيير الكيفي أي الثورة. وهذه الثورات : الثورة الفرنسية ١٧٨٩ ،والثورة الروسية ١٩١٧ ،والثورة الصينية ١٩٤٩ ،والثورة المصرية ١٩٥٢ ،وثورات أمريكا اللاتينية (الجنوبية) في كل من بوليفيا ١٩٥٢ ،وكوستاريكا ١٩٥٣ ،وكوبا ١٩٥٩ ،وجواتيمالا ١٩٦٤. وإن متابعة حركة هذه الثورات من حيث أسبابها وتنظيمها وقيامها ونتائجها يحدد التراكمات الكمية المطلوب توافرها لبلورة الثورة ،نستطيع أن نلخصها في الشروط الخمسة الآتية :

١- وجود تناقض اجتماعي- سياسي بين السلطة القائمة وبين المحكومين، كأن تكون هناك مشكلة اجتماعية حادة بسبب عدم التوازن بين الأجور وبين الأسعار ،أو بسبب احتكار صنف اجتماعي معين للحكم وتتحية صفوات اجتماعية أخرى، ومن ثم الصراع بمختلف أشكاله وحسب مقتضى الحال.

٢- السلطة الحاكمة تعجز عن حل التناقض القائم وتسعى للاحتفاظ بزمام الأمور في يدها عن طريق إرضاء مختلف الأطراف ،ونقل التناقض إلى القوى المتنافسة معها، فتحاول استقطاب قوة ضد قوة ،أو تصفية أخرى ،أو اختراق قوة ثالثة وهكذا ،وتقديم تنازلات هنا وهناك فلا تتجح بل تزيد الأمور سوءاً ، ذلك أن الحلول الوسطى كما يقول جون ستيوارت مل ،لا تقدم أي حلول على الإطلاق.

٣- وجود جماعة "سياسية" سرية أو علنية ،حزب أو جبهة ،تسعى لحل التناقض القائم لصالحها، وفق ما تعبر عنه من مصالح القوى المشاركة.

٤- جموع الناس تتطلع إلى التغيير وتنتظره ياساً من الوضع القائم ،أو ما يعبر عنه بشرط "توفر حالة الثورة في المجتمع".

٥- اختيار اللحظة المناسبة، أو الظرف المواتي للاستيلاء على السلطة. وهذا الاختيار له حسابات دقيقة ويأخذ في الاعتبار عدة عوامل من حيث زمنه وتوقيته ومكانه حسب مقتضى الحال. وهذا يعني أن القيام بالعمل قبل اللحظة المناسبة المحددة يؤدي إلى إجهاض الثورة ، والتأخر عن القيام بها في اللحظة المناسبة من شأنه تفويت الفرصة أو كما يقال .. يكون العمل في غير أوانه .. ألا يقول المثل الشعبي "كل وقت وله أدان" ،أي النداء للصلاة في مواقيتها .. ليس قبلها وليس بعدها.

فإذا توافرت هذه الشروط الكمية في مجتمع حالة الثورة تقع الثورة حتماً ولا بد ،وتلك هي خلاصة متابعة عوامل الثورة في تلك البلاد والتي لم نجد بينها اختلافاً إلا في أسماء الثوار وتنظيماتهم ووقت قيام الثورة ومكانها . أما إذا لم يتوافر شرط أو اثنان فإن هذا لا يعني خطأ القانون، وإنما يعني أن تراكمات الحالة لم تكتمل بعد. أما إذا فشل الثوار في الاستيلاء على السلطة وتم اعتقالهم وتصفيتهم، فلا يجوز وصف ما قاموا به "بالثورة" اعتماداً على أن الثورة تقاس بالأهداف التي كانت ترمي إليها.

وبعد استخلاص القانون العلمي للثورة على هذا النحو يبقى أن يستخدمه الباحثون الذين يفكرون في دراسة ثورة من الثورات في أي مجتمع من المجتمعات وفي أي فترة من فترات التاريخ قديماً ووسيطاً وحديثاً ،أي أن على الباحث أن يهتدي بشروط هذا القانون في بحثه ابتداءً من تشخيص التناقض الاجتماعي القائم وانتهاءً بلحظة الاستيلاء على السلطة.

وفي هذا الشأن ينبغي التفريق بين ثورة التحرر الوطني من الاحتلال الأجنبي والثورة الاجتماعية أو ثورة التحرر الاجتماعي ،ذلك أن ثورة التحرر الوطني أو الاستقلال هي أقرب إلى الانقلاب ،لأن الذي يقودها عادة صفة اجتماعية طبقية، تتسلم مقاليد الأمور بعد النجاح في التخلص من الاحتلال ، ولكن لا تقوم بأي تغيير اجتماعي أساسي لصالح الطبقة الوسطى أو لصالح العمال والفلاحين، بل تحرص من خلال احتفاظها بألة التشريع على المحافظة على مكاسبها، فتفتح بذلك الباب لثورة التحرر الاجتماعي.

أما إذا نفينا صفة العلم عن الظاهرة الاجتماعية وذهبنا إلى أن التاريخ

مجرد دراسة Study وليس علماً Science ومن المستحيل أن يكون كذلك ،
فينبغي ألا نضيف في قولنا كلمة "علم" إلى الاجتماع ،أو إلى الاقتصاد وإلى
غيرهما من فروع العلوم الاجتماعية المتعارف عليها. لأننا عندما نقول بالعلم
في الظاهرة الاجتماعية فنعني البحث عن علاقات الأشياء والجزيئات بعضها
ببعض وترابطها، من أجل تحديد التراكمات الكمية المطلوبة كما سبقت الإشارة.

الهوامش

- (١) راجع : محمد فرحات عمر ،طبيعة القانون العلمي ،الدار القومية للطباعة والنشر ،
القاهرة ١٩٦٦. وأيضاً : زكي نجيب محمود ،المنطق الوضعي ،مكتبة الأنجلو المصرية ،
القاهرة ١٩٥٦.
- (٢) راجع : ابن خلدون ،المقدمة ،تحقيق علي عبد الواحد وافي ،لجنة البيان العربي ،
القاهرة ١٩٥٧.
- (٣) توفيق الطويل ،إشكالية العلوم الاجتماعية أنها ليست علوماً ،ندوة "إشكالية العلوم
الاجتماعية في الوطن العربي" ،المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ،القاهرة
١٩٨٦.
- (٤) زكي نجيب محمود ،أسس التفكير العلمي ،دار المعارف ،القاهرة ١٩٧٧. أنظر أيضاً:
جوزيف هورس ،قيمة التاريخ ،ترجمة نسيم نصر ،منشورات عويدات ،بيروت ١٩٧٤.
- (٥) أنظر : إدوارد كار ،ما هو التاريخ ،ترجمة ماهر وبيار عقل ،المؤسسة العربية
للدراسات والنشر ،بيروت ١٩٧٦. وأيضاً : عبد الرحمن بدوي ،النقد التاريخي ،النهضة
العربية ،القاهرة ١٩٦٣.
- (٦) أنظر : حسن عثمان ،منهج البحث التاريخي ،الطبعة الرابعة ،دار المعارف ،القاهرة
١٩٧٧.
- (٧) أنظر : Webster's, New Encyclopedic Dictionary , 1994

الفصل الثاني

الفلسفة والثورة

محمد مجدى الجزيرى (*)

تثير علاقة الفلسفة بالثورة بعض التساؤلات لكن أهمها أن الفلسفة بحكم طبيعتها العامة ثورية، بمعنى أنها لا تكتفي بالواقع الغفل الخام الذي يواجهنا ويتحدانا، بل أنها من البداية تتمرد عليه وتتجاوزه من أجل تعقيبه وتسويغ مشروعيته، فالواقع المعقول هو هدف الفلسفة وغايتها الكبرى، وليس ثمة فلسفة لو سلمنا بالأشياء علي نحو ما هي عليه بدلا من أن نخضعها لقبضة العقل، والوعي الإنساني لا يمكن أن يكون ثابتاً، بل إن طبيعته تقتضي التغير والتجدد الخلاق. وعلي هذا تتكشف طبيعته الدينامية، فهو في تغير دائم وانبثاق متصل، ليس مجرد واقعة جاهزة الصنع بقدر ما هو بمثابة استفسار أو وضع للسؤال، هو المطلب والأمل الذي يتطلع إليه الإنسان علي مدي حياته كلها، عن طريقه يؤكد ذاته ويتعالي علي عالمه الذي يرتبط به، ذلك أن الوعي الإنساني عندما يجد نفسه في مواجهة صريحة مع العالم الذي يحيا فيه فإنه يصبح عليه أن يتساءل؟ هل يمثل لهذا العالم ويقبله بالصورة التي هو عليها أم يحاول أن يتعرف علي حقيقته وماهيته.

والحق أن أهم ما يميز الإنسان ويحدد مكانته في سلسلة الوجود العامة قدرته علي التمييز بين الحقيقي والممكن، بين حقيقة الأشياء وإمكانها، وهي التفرقة التي نبه إليها كانط في كتابه "نقد ملكة الحكم" ويمكن أن نجدها أيضا عند أرسطو في تفرقة بين الوجود الفعلي والوجود بالقوة. فالتفرقة بين الحقيقي والممكن لا تصادفها ولا نجدها لدي الكائنات الأدنى من الإنسان، أما بالنسبة للكائنات الواقعة دون الإنسان، فإنها محصورة في عالم مدركاتها الحسية فحسب، تتلقى الدوافع المادية الواقعة عليها وتجبب عليها برود فعل، لكنها تعجز عن تكوين فكرة عن الأشياء الممكنة. وهكذا يمكن القول بأن الفلسفة بحكم طبيعتها ثورية، وهي أيضا بحكم طبيعتها تاريخية، لا تتوقف أو تتجمد عند نقطة معينه، مكانية أو زمانية، شأنها في ذلك شأن التاريخ سواء بسواء، ومن هنا يمكن أن

(*) أستاذ الفلسفة المعاصرة كلية الآداب - جامعة طنطا.

نتفهم طبيعة الدور الذي قامت به الفلسفة في التمهيد للعديد من الثورات العالمية كالثورة الفرنسية والثورة البلشفية.

وإذا كان يمكن مناقشة علاقة الفلسفة بالثورة في ضوء هذا المستوى، أقصد مستوى استشراف الفلاسفة للمستقبل ودعوتهم للثورة والتمهيد لها، فإن هذا المستوى الذي يصعب تجاهله لا ينبغي أن يجعلنا نتجاوز مفارقة الثورة. وبالتالي يمكن القول بأن موقف الفيلسوف من الثورة يتسم بالتوجس والحذر، فهو يبشر بها وينادي بالعديد من المبادئ التي قد تشكل منطلقات عامة لها، لكن الثورة متى تحققت، خصوصاً على أيدي المؤسسة العسكرية، فإنه كثيراً ما يتوجس منها ويتشكك في مصداقيتها، بل في تحديد أهدافها الحقيقية، وقد ينتهي به الأمر إلى أن يصطدم بها. فالغايات الأخلاقية التي تغلفت بها الثورة في بداياتها الأولى سرعان ما تتكشف حقيقتها على أرض الواقع، وهنا تتبدى إشكالية الثورة عند الفيلسوف، أعني بها إشكالية الازدواجية بين الثورة كامل وحلم وغاية وطموح وفكر والثورة كواقع وممارسة وتحقق فعلى وتطبيق.

وإذا كان ثمة ما يشبه التلاقي والتواصل بين الفلسفة والثورة - كما أوضحنا - فإن هناك أيضاً ما يؤكد الانفصال والقطيعة بل والعداء أيضاً، وتفسير ذلك بسيط للغاية فإذا كانت الفلسفة بحكم طبيعتها دعوة إلى العقلانية والاحتكام إلى معايير العقل في كل جوانب حياتنا، دعوة إلى تجاوز كل العناصر اللاعقلية في الوجود الإنساني، فإنها من هذا المنطلق قد تبدو معارضة لكل ثورة تشعل وتلهب المشاعر الإنسانية وتبتعد عن صوت العقل وأحكامه الباردة، لكن قدر الفلسفة أن تواجه كل المعطيات التي تجدها في طريقها حتى ولو بدت بعيدة كل البعد عن العقلانية.

وهنا تتبدى مفارقة الثورة بكل وضوح، فالمفارقة تتطوي على طبيعة الفلسفة الثورية وتبشيرها بالثورة على مستوى الدعوى والتنظير والرسالة من ناحية، ومخاوف الفلسفة وشكوكها تجاه التجسد الفعلي للثورة من ناحية أخرى، وفي ظل التوجس والحيرة والشك والارتياب يتولد الموقف النقدي تجاه الثورة. وهنا تتباين المواقف والرؤى في التعامل مع الثورة كحدث تاريخي وواقع فعلي، ولا تتباين المواقف بين الفلاسفة فحسب، بل تتباين مواقف الفيلسوف أو المفكر في تعامله مع مسار الثورة عبر تاريخها، قد يظل مؤيداً لها مدافعاً عنها، رغم كل الإحباطات التي قد يصطدم بها في تعقبه مسارها، وقد تتغير مواقفه من التأييد إلى التنديد، في ضوء مدى توفيقها أو إخفاقها في تحقيق الغايات التي

استهدفت تحقيقها في البداية قد يتلمس لها كل التبريرات الممكنة، لكنه سرعان ما يتحول إلى موقف الهجوم عليها والتدديد بها بل ورفضها أيضاً. وفي هذا الصدد يمكننا الاستشهاد ببعض النماذج الفلسفية التي عايشت تجربة الثورة وعبرت عنها، أيدتها في البداية لكنها سرعان ما انقلبت عليها في النهاية.

كان هيجل في بداية حياته من أشد المعجبين بالثورة الفرنسية، تأثر بها تأثراً عميقاً في صباه، فعندما كان تلميذاً في القسم اللاهوتي بجامعة توبنجن، واستمع إلى أنباء عن الثورة الفرنسية وصلت إلى ألمانيا هلّل لها في حماسه. واشترك معه في التهليل بها صديقه شلنج وصديقه هلدرلين. وعندما زار نابليون مدينة بينا بعد هزيمة الجيش البروسي في معركة بينا ١٨٠٦ تحدث هيجل عن هذا الحادث بحماسة بالغة، وكتب في إحدى رسائله: لقد رأيت الإمبراطور روح العالم، وهو يمتطي جواده ويجوب الشوارع. كان إعجاب هيجل عميقاً بالثورة الفرنسية التي نجحت في تجسيد فكرة الفردية المسيحية في شخص نابليون، ومن ثم حاول هيجل تبرير وجود نابليون واستنباطه من المبادئ الأولى لفلسفته. فالفكرة الأساسية التي اعتمدت عليها فلسفة هيجل هي التركيب بين عنصرين: العنصر التاريخي والعنصر الديني، وتأكيد ما بينهما من تواصل وتفاعل متبادل. واقتنع هيجل بأنه أول من أدرك هذه التبعية المتبادلة في ضوئها الصحيح، وبالتالي لم يبد التاريخ في مذهب هيجل مجرد مظهر لله، بل بدا ماهية الله في المقام الأول، فليس لله تاريخ فحسب، إنه هو التاريخ، أو بمعنى آخر لقد أصبح الله في فلسفة هيجل مرادفاً للتاريخ.

في كتاب "فلسفة التاريخ" كتب هيجل "لقد كشف الله في الدين المسيحي عن نفسه، أي عرفنا كيف نستطيع فهم ماهيته، بحيث يمكن القول بأنه لم يعد وجوداً خفياً ولا سراً، والآن بعد أن تيسرت معرفته على هذا الوجه أصبحت هذه المعرفة أمراً واجباً، ولا بد أن يجيئ الزمان لفهم مثل هذا النتائج الخصيب للعقل الفعال الذي يعرضه علينا تاريخ العالم". فإذا كان الفلاسفة المسيحيون قد أقاموا حداً فاصلاً بين ما أسموه عالم الطبيعة وعالم النعمة الإلهية، فإن هيجل لم يقبل هذا التعارض، وذكر أن أية نظرية تأملية صحيحة للتاريخ تكفي لإقناعنا بما في هذه القسمة من اصطناع. ففي التاريخ لا انفصال بين عاملي "الزمان والأبدية" إنهما منذ البداية متداخلان. وهكذا بدت دولة أو امبراطورية نابليون - في نظر هيجل - عبارة عن تحقق لعالم أو مملكة السموات المسيحي، فعن طريق قيام الثورة الفرنسية أمكن تحقيق الفكرة المسيحية لتصبح دنيوية على يد العقل، أو

بعبارة أخرى أمكن تحقق مركب الفردية - الذي يجمع بين الكلى والجزئي في شخصية نابليون، ومن هنا وجدنا هيجل في نهاية الفصل السادس من الفنومولوجيا يشير إلى نابليون قائلاً: هذا هو الإله المتجلي، هو الواقع، هو المسيح الحق.

لكن الثورة الفرنسية التي انبثقت تنادي بشعارات الحرية والإخاء والمساواة سرعان ما تحولت إلى الإرهاب. فالحرية المطلقة التي ارتبطت بها الثورة في البداية، والتي قصد بها تسامي الإرادة الفردية إلى مستوى الإرادة العامة، بدت في نهاية المطاف مجرد إرادة إنسان خاص، بدلاً من أن تكون إرادة مواطن، وهكذا تضاءلت الإرادة العامة إلى مستوى الإرادة الفردية، وإذا كانت الحرية بالنسبة للعبد تكمن في قهر القيود وكل مظاهر الاستعباد، بينما تتمثل الحرية بالنسبة للثوري في انطلاقه وتحقيق الإرادة الجماعية، فإن قادة الثورة الفرنسية عجزوا عن إدراك الصلة الحقيقية التي تجمع الإرادة الفردية والإرادة الجماعية، فالوعي الفردي لم يكن لديه الاستعداد لأن يتقبل التحديدات التي كان يفرضها عليه النظام الاجتماعي، ومن ثم تحولت حرية هذا الوعي إلى حرية هدامة لا تريد سوى ذاتها، ولا تقبل أي تنازل أو أي اغتراب عن الذات، ومن ثم فإن الحرية السلبية التي أرادت لنفسها التحقق على نحو مباشر، دون حاجة إلى وساطة أو أي اغتراب عن الذات، هي التي عملت على انحلال الفردية، وغلبة الموت وسيادة الإرهاب.

وعلى هذا النحو فإن الحرية المطلقة التي تنكر النظام الاجتماعي القائم والتي قصد بها في البداية تسامي الإرادة الفردية إلى مستوى الإرادة العامة سرعان ما تنكر ذاتها وتتحول إلى الحرية الذاتية التي ترد النظام الاجتماعي إلى نفسها، وهو ما يفسر تحول نابليون إلى طاغية. أصيب هيجل بخيبة أمل في الثورة الفرنسية، وأدرك أنها لم تحقق شيئاً ولم تغير من واقع المجتمع في شيء، إن تغيير الواقع أمر شاق عسير، والمفكر الثائر الذي يصل إلى هذه الحقيقة أما أن يرضى بأن يعوي مع الذئاب - كما صرح بهذا هيجل نفسه في فترة من فترات حياته وذلك في رسالة إلى أحد الأصدقاء في ٩ فبراير عام ١٧٩٧، وأما - وهذا أفضل أن يواصل التفكير من الداخل. فبدلاً من أن يتجه بثورته إلى تغيير الواقع المادي والاجتماعي، عليه أن يقنع - وقد لا يكون هذا من قبيل أضعف الإيمان بل أقواه - بثورة باطنية روحية، وهيجل كان ثائراً من هذا الطراز. ومن ثم فإنه بعد أن كتب في إحدى رسائله مبتهجاً بانتصار نابليون في

معركة بينا ١٨٠٦ "لقد رأيت الإمبراطور روح العالم، وهو يمتطي جواده ويجوب الشوارع، فإنه بعد ذلك قرر حكماً مختلفاً فلقد هزم نابليون ونفى، وأصبحت بروسيا القوة السائدة في ألمانيا، وبذلك انتقلت روح العالم إلى جزء آخر من الجسم السياسي.

وإذا كانت الثورة الفرنسية قد تركت تأثيرها العميق في فلسفة هيجل، فإننا لو انتقلنا إلى الثورة البلشفية عام ١٩١٧ وجدنا تأثيرها لا يقل أهمية في فكر وحياء نيكولا بيرديانف، بل لقد أفاض بيرديانف بصورة أكثر تفصيلاً وتحليلاً في مناقشته لظاهرة الثورة، فالثورة عند بيرديانف تعد ظاهرة مستمرة، في حياة المجتمعات الإنسانية، ففي كل العصور التاريخية كانت هناك ثورات .. في مصر القديمة، في اليونان، في روما.

ويعمل بيرديانف انفجار الثورات بقوله: "إن أمير هذا العالم يحكم المجتمع الإنساني وسيطر عليه بطريقة خاطئة زائفة، ولهذا فإنه أصبح من الطبيعي أن يحدث التمرد على سيطرته هذه بين الوقت والآخر".

ويعد بيرديانف الثورة بمثابة تحقيق لحكم الله، كما أنها من ناحية أخرى تتضمن في نظره لحظة أخروية، تتمثل في توقعها نهاية الزمان. لكنها على الرغم من هذا تمثل مرضاً يحل بالمجتمع الإنساني كله، فهي تحمل الدليل على انعدام القوة الإيجابية الخلاقة لإصلاح المجتمع بما تتضمنه من عنصر شيطاني مدمر، يتمثل في رغبات الانتقام والكراهية والحقد بما يجعلها كفيلاً بإعلان انتصار روح الهدم على البناء.

وقد تصبح الثورة حلمًا للجميع وحقيقة ينتظرونها متى انعدم فيها ذلك العنصر الشيطاني، ولكنه قد يكون من المستحيل مع هذا تجنب الثورة لذلك العنصر الذي قد ينفجر فيها في أية لحظة، فعلى الرغم من الأهداف والغايات النبيلة التي قد تدفع بالثورة إلى الانفجار .. إلا أنه سرعان ما تتحقق خيانة هذه الغايات والمبادئ السامية. وبالتالي تستحيل الثورة إلى عبودية واسترقاق للنفس الإنسانية. ففي الثورة يرغب الإنسان في أن يحرر نفسه كلية من الدولة ومن الأرستقراطية ومن البرجوازية .. من كل الأوثان والمقدسات الكاذبة. لكنه سرعان ما يخلق أوثاناً جديدة ومقدسات زائفة جديدة.

ومن هنا فإن الثورة التي قد تتفجر من أجل قضية الحرية سرعان ما تخون قضيتها، فتخلق أسطورة جديدة تتحرك من خلالها وتلزم الجميع بتقديسها،

باعتبارها كياناً موضوعياً قائماً بذاته. بل إن الثورة نفسها قد تتشخصن وتكتسب وجوداً حياً مستقلاً يقف في مواجهة المصائر الإنسانية. ومن هذا المنطلق تصبح الثورة ظاهرة مقدسة لها حق العبادة والتقديس وبالتالي ترتبط الحرية الإنسانية بذلك الإله أو المعبود الجديد. وواقع الأمر أنه لا وجود لأي شيء مقدس في العالم الموضوعي.

وينتقل بيرديائف بعد ذلك إلى مناقشة علاقة ميثافيزيقا الثورة بالزمان، فإذا كان الزمان ينطوى على مفارقة أساسية فإن هذه المفارقة تصل إلى ذروتها في علاقته بالثورة. فالثورة تتحقق في الحاضر والرجال الذين يصنعونها يخضعون لسحر الحاضر، ومع هذا فإن الثورة لا تعرف الحاضر بل لا يوجد أي حاضر بالنسبة لها، فهي لا تهتم ولا تتعلق إلا بالماضي والمستقبل وحدهما، وهي توجه رفضها وتمرد لها للماضي، فهي تفترض أنه من الممكن إعدام الماضي إلى الحد الذي لا يصبح له أي وجود. وهنا يكمن الخطأ الأساسي في نظرتها. فقد يكون من الممكن في رأي بيرديائف إعدام كافة الأشكال المتباينة من الظلم والاستعباد المنتمية إلى الماضي. وقد يكون من الممكن إعدام ونبذ كل ما ينتمي إلى الزمن التاريخي. لكنه من غير الممكن بل من المستحيل إلغاء وإبطال كل ما ينتمي إلى الزمن الوجودي الإنساني. فالإنسان يمكنه أن يعدم التاريخ لكنه لا يستطيع أبداً إبطال ما وراء التاريخ.

ويمضي بيرديائف في تحليله، فيلاحظ أنه شيئاً فشيئاً تبدأ الذاكرة في العودة ثانية إلى الثورة، ويبدأ بالتالي استدعاء الماضي إلى العقل، فالتاريخ لم يقم إلا على الذاكرة، وفقدان الذاكرة معناه نهاية التاريخ كلية. ومن ثم يصبح من العجيب والمدهش أن تختفي الذاكرة كلية خلال الثورة نفسها. فاختفاء الذاكرة فيها يؤدي بها إلى تنكرها لكل من أخلص لها وتطلع إليها وساعد في خلقها وبعثها، ومن هنا تبدأ الثورة في التخلص من هؤلاء الذين كان لهم الفضل في وجودها واحداً بعد الآخر. وخلال مرحلة الثورة نفسها وخصوصاً قرب نهايتها تتبدى مشكلة كتابة تاريخها بعد اختفاء ممثليها وقادتها الرئيسيين من على خشبة المسرح. وهو ما يعد ظاهرة تقليدية بالنسبة لكل ثورة، وتفسيرها في نظر بيرديائف يرجع بالدرجة الأولى إلى كونها تمثل مرضاً أو داءً يصيب الزمان نفسه، فالثورة لا تهتم إلا بعملية الانتقال وحدها وهي تقيم كل شيء طبقاً للخدمة التي قدمها لهذه العملية، ومن هنا كانت نظرتها التفاؤلية إلى المستقبل ونظرتها التشاؤمية إلى الماضي. وواقع الأمر أنه لا محل لمثل هذه النظرة، فالماضي

والمستقبل ما هما إلا بعدين من ذلك الزمان الواحد المتكامل الذى تمزق وتعرض للبتر على أيدي دعاة الثورة، وليس هناك أي أساس لا لنظرة متفائلة للماضى كما يرى المحافظون ولا لنظرة متفائلة للمستقبل كما يرى التقدميون دعاة الثورة. فالموقف التفاضلي عند بيرديانف لا يسمح به إلا في ضوء علاقته بما هو خالد أبدي وحده، وهو القادر على كسر حدة الزمان وسطوته.

ومع كل شروخ الثورة هذه إلا أنها تعد عملية حتمية وقدرية في نظر بيرديانف، وإذا كان أعداء الثورة كثيراً ما يتحدثون عن شروخها وأهوالها إلا أنهم لا يمتلكون أي حق في انتقادها والسخرية منها، بل إنهم السبب المباشر وراء انفجارها. والثورة بتحققها ونجاحها فإنها تقضى على الكثير من ألوان العبودية، كما أنها تحطم كافة أصنام ومقدسات الماضى الزائفة. وهي على هذا النحو تمتلك مبررات وجودها ومعناها الأصيل، بل إنها تعد لحظة هامة في مصير كل شعب. لكن الثورة مع هذا نادراً ما تنجح في خلق الإنسان الجديد، فهي في نظر بيرديانف لا تخلق إلا المجتمع الجديد فحسب، وهنا تكمن مأساة الثورة الحقيقية، فالإنسان الجديد هو ما ينبغي أن يحلم به الجميع. وهو أعظم وأكثر أهمية من خلق المجتمع الجديد. ومثل هذا الإنسان لا يمكن أبداً أن يصبح موضوعاً للصناعة أو ثمرة للتنظيم الاجتماعي. وظهور الإنسان الجديد هو بمثابة البعث الروحي الجديد الذى يحقق الانتصار على كل تموضع واغتراب للروح الإنسانية، وفي ضوء هذه الحقيقة يتكشف المفهوم الحقيقي للثورة التي آمن بها بيرديانف، فالثورة الأصيلة الحقيقية بالنسبة له هي وحدها تلك الثورة التي تؤدي إلى تغيير حقيقي في بناء الوعي وتغيير في الموقف الأساسى تجاه العالم الموضوعي.. وهذه الثورة هي وحدها الكفيلة بتحقيق الحرية، فهي ثورة الروح والضمير، أما كافة الثورات التاريخية الأخرى فإنها لا يمكن أن تحقق مثل هذا التغيير في الوعي، فهي تتحدد بالمصير والقدر وسلطان مملكة التموضع.

يقول بيرديانف في وصفه لتجربة الثورة الروسية "كانت مرحلة تجربة الثورة الروسية مرحلة من مراحل مصيرى الشخصى الخاص، ولم تكن شيئاً مفروضاً، فهي قد حدثت لي. على الرغم من أن موقفى منها كان موقفاً نقدياً. كما أنني قاومت مظاهرها الشريرة. والحق أن كل شخص مسئول عن الثورة متضمن فيها. وتأتي في المقام الأول تلك القوى الرجعية في النظام القديم. وأعتقد أن الثورة في روسيا كانت أمراً محتوماً وخليقاً بأن يحدث ولكنني لم

أتبين قط ألوانها الوردية، وإنما على العكس تنبأت أن قضية الحرية سوف تتعرض فيها للخطر".

من هنا كان ترحيبه بمقدم الثورة مع تحذيره في نفس الوقت مما قد يترتب عليها من نتائج مدمرة لقضية الحرية. فكانت مقالته الأولى التي نشرها في مستهل الثورة بعنوان "سقوط القيصرية الروسية المقدسة" حيث رحب فيها بسقوط القيصرية واعتبر هذا السقوط عملية عادلة ونتيجة محتومة لما حل بروسيا من تحلل وانهار سلسلة من الرموز التاريخية التي طالما حملت معنى مقدساً على الرغم من خيانتها حقيقة الواقع لا الواقع الذي تخيله أنصار الملكية المطلقة.

ومع هذا الموقف الثوري الذي اتخذه في بداية الثورة فإنه من جهة أخرى اعتبر مثل هذه العملية المحتومة من نبذ المظاهر والإدعاءات الكاذبة الزائفة لا يمكن أن تكون في حد ذاتها ضماناً لما تتطوى عليه الأشياء المقبلة من خير. ومع كل هذه الاعتبارات لاحظ بيرديائف أن العيب الرئيس للثورة الروسية لا يكمن في أنها أتت مبكرة بل لأنها أتت متأخرة جداً، كما أن شخصيتها قد اعتمدت إلى حد كبير على الظروف التي سببتها الحرب. فالثورة لم تخلع الملكية المستبدة خلعاً حقيقياً، ذلك أنها كانت قد تحطمت وانهارت من تلقاء نفسها. ولم يكن هناك تمهيد كاف للثورة بقدر ما كان هناك استغلال للحظة أفلت فيها زمام كل شيء. وهو ما يعد خير شاهد على طبيعة الثورة القدرية.

ولم يتوقف نشاط بيرديائف بعد الثورة الروسية، بل لقد شرع في تنفيذ خطة تعليمية واسعة النطاق، فألقى المحاضرات وعقد الندوات واستمر يقرأ الأبحاث في منزلة كل يوم ثلاثاء دون أي عائق، وكان من أهم تلك المحاضرات التي ألقاها محاضراته عن العلم والدين في قاعة المتحف الهندسي وكان عدد الحاضرين يومها يبلغ حوالي ألفين أغلبهم من العمال ورجال الجيش الأحمر.

وفي عام ١٩٢٠ انتخب بيرديائف أستاذاً للفلسفة بجامعة موسكو حيث واصل العمل بها لمدة عام، ألقى خلالها مجموعة من المحاضرات انتقد فيها الماركسية بصراحة وبلا أدنى عائق، هذا بالإضافة إلى اشتراكه اشتراكاً فعلياً إيجابياً في اتحاد الكتاب، وكثيراً ما كان يتدخل من أجل أعضاء الاتحاد للحصول على إذن بإطلاق سراح بعض أعضائه من السجن.

وفي عام ١٩٢٢ أنشأ الأكاديمية الحرة للعلم الأخلاقي، وضم لها ممثلين

لاتجاهات متباينة لا يوحد بينها سوى الاعتراف باستقلال القيم الروحية وأولويتها. وكان الهدف الرئيس من إنشاء الأكاديمية هو استمرارية العمل الثقافي وحشد كافة القوى الثقافية والفكرية الميسرة بعضها إلى بعض. ونظمت الأكاديمية سلسلة من المحاضرات والندوات في بعض القاعات التي أتاحت السلطات تأجيرها في ذلك الوقت. وكان من أهم المحاضرات التي ألقاها بيرديائف في الأكاديمية محاضراته عن فلسفة التاريخ وأهمية دوستوفسكي وتحليل فلسفة الحضارة عند شبنجلر كما بدت في مؤلفه انحلال الغرب. ونتيجة لبعض هذه المحاضرات ظهرت كلمة في صحيفة برافدا تقول إن بيرديائف قد استغل المؤسسة السوفيتية للدعاية الدينية وأن مثل هذه الأعمال يجب أن توقي فوراً. وعلى إثر هذه المقالة استدعي بيرديائف للتحقيق معه، فسألوه عن معنى العلم الأخلاقي وعما إذا كان يختلف عن العلم الطبيعي. وانتهت الحادثة بسلام.. إلا أنها تسببت في التمهيد في طرده من روسيا فيما بعد.

أما أهم المؤلفات التي كتبها بيرديائف في السنوات الأولى فهي كتابة "فلسفة عدم المساواة The philosophy of inequality" الذي انتهى منه في ربيع عام ١٩١٨، وفي هذا المؤلف تكشف اهتمامه العظيم بالحرية ضد نزعة المساواة الاجتماعية لا الروحية وهي النزعة التي أطلقتها الثورة والقائمة على أساس شعار سيادة الإنسان العادي والعقل الجمعي، فجاء هذا الكتاب تأكيداً بأن المصدر الوحيد للمساواة الاجتماعية الحقيقية إنما يوجد في الاعتراف بكرامة وقيمة الشخصية الإنسانية، ولما كانت البلشفية قد أنكرت هذه الحقيقة فإنه اعتبرها ظاهرة قبيحة ينبغي تجاوزها كلية. ومن ثم كان هذا الكتاب بمثابة بداية نضاله الأخلاقي ضد الضغوط كافة التي واجهته خلال فترة الثورة في ضوء إيمانه بالقيمة العليا للشخصية والحرية الإنسانية. وبالإضافة إلى هذا الكتاب كتب كتابين هامين الأول "معنى التاريخ" والثاني "دوستوفسكي".

وفي دراسة بيرديائف عن "معنى التاريخ" نجده قد اتجه إلى تناول أزمة النزعة الإنسانية ونظرية التقدم التاريخية ومشكلة الحضارة المعاصرة من خلال بحث ذلك الصراع والتقابل بين إرادة الحضارة وإرادة الحياة.

أما بالنسبة لمؤلفه عن "دوستوفسكي" فإننا نلاحظ اهتمامه بالكشف عن الجانب الروحي من تفكير هذا الروائي العظيم كما تبدى في أعماله الأدبية.

كان أول اعتقال لبيرديائف بعد الثورة عام ١٩٢٠ بتهمة انضمامه إلى

منظمة فوضوية تسمى "المركز التيكوي"، ولم يكن لبيرديانف علاقة مباشرة بهذه المنظمة وكانت صلته بها منحصرة في بعض معارفه المنضمين لها والذين اعتقل معظمهم بتهمة مناهضة الثورة، وأجريت المحاكمة على إثر هذه الاعتقالات، إلا أن قضيته نظرت على انفراد. وكان الوحيد من بين المعتقلين الذي حقق معه رئيس البوليس السياسى الشهير دزرزنسكى الذى كانت روسيا كلها ترتعد من مجرد ذكر اسمه. إلا أن بيرديانف بدلا من أن يتخذ موقف الدفاع عن نفسه فإنه اتخذ موقف المهاجم منذ البداية، فانفض قائلا لرئيس البوليس السياسى "أرجو أن تضع نصب أعينك أن كرامتى كمفكر وكاتب تقتضى أن أتكلم في صراحة وجلاء، واستمر يتحدث أكثر من نصف ساعة وهو يسوق الحجج على معارضته الدينية والفلسفية والأخلاقية للشيوعية، مؤكداً في الوقت نفسه رفضه القاطع لسياسة الحزب، وعندما انتهت الإجراءات قال له دزرزنسكى : ((سأطلق سراحك ولكن لن يكون في استطاعتك مغادرة موسكو دون تصريح)). ويعلل بيرديانف سبب الإفراج عنه في ذلك الوقت بأن النشاط العدائى للسلطة كان منصبا في البداية على الخصوم العسكريين والسياسيين أكثر من انصبابه على الخصوم المذهبيين، إلا أن هذا الموقف سرعان ما تغير عندما تكاثفت الأخطار من الداخل والخارج على السواء وأصبح للخوف اليد العليا، ومن هنا كان تحول الثورة إلى ثورة دموية أطاحت بكل شئ وقف أمامها.

وكان مما أثار بيرديانف بصفة خاصة تهافت أعضاء الطبقة المثقفة الثورية على احتلال المناصب الحكومية في الحكومة المؤقتة، مع السهولة الكبيرة التي تحولوا فيها إلى موظفين محترمين. وتحول المناضلين في سبيل الحرية بين يوم وليلة إلى انتهازيين مستغلين، وتكشفت له كل هذه الحقائق من خلال عضويته لفترة قصيرة في مجلس سوفييت الجمهورية، ذلك المنصب الذى بدا له غريباً إلى حد ما. إلا أنه أتاح له مع هذا أن يرى عن كثب كافة التيارات العميقة في روسيا الثورية.

وعاش بيرديانف بعد ذلك في طمأنينة نسبية، إلا أن هذا الموقف سرعان ما تغير في ربيع عام ١٩٢٢ بعد أن تألفت جبهة معادية للدين، وبدأت الاضطهادات المناهضة للدين، فكان من نتيجتها أن ألقى القبض عليه للمرة الثانية.

ونقل بيرديانف إلى السجن حيث حجز به لمدة أسبوع، وفي أثناء التحقيق معه أخطروه بأنه سوف ينفي من الاتحاد السوفيتي، وأظهر له المحقق وثيقة

جاء فيها أنه لو اجتاز حدود الاتحاد السوفيتي بعد نفيه فإنه سوف يضرب بالنار. ووقع بيرديائف على هذه الوثيقة، وفي حقيقة الأمر فإن قرار إبعاده لم يكن قائماً على أية أسباب سياسية بقدر ما كان قائماً على أسس أيديولوجية.

غادر بيرديائف روسيا عام ١٩٢٢ مع جماعة المنفيين من الكتاب والعلماء متجهين صوب برلين فوصلوها في شهر أكتوبر من العام نفسه. وكانت أول تجربة له في ألمانيا حينما اصطدم بالمهاجرين الروس حيث كانت الغالبية العظمى منهم تلقى المنفيين بالشك المطلق بل بالعداء الصريح، وألقى معظمهم الشائعات القائلة بأنهم من وكلاء البلاشفة المأجورين.

وكان المهاجرون يرون ضرورة قلب البلشفية عن طريق التدخل العسكري، أما بيرديائف فقد رأى أن الطريق الوحيد لإنقاذ روسيا إنما يكمن في إصلاحها من الداخل عن طريق عملية باطنية أليمة من التطهر والمعاناة. ومن هنا كان الخطأ الرئيس للمهاجرين في نظره يكمن في عدم مبالاتهم أدنى مبالاة بالنقد الصائب الوحيد للبلشفية، وهو النقد الصادر عن الاعتراف بالقيمة العليا للحرية الإنسانية - باعتبار أنهم لم يكونوا أكثر اعترافاً بالحرية من روسيا السوفيتية.

ولم تطل إقامة بيرديائف في ألمانيا إذ سرعان ما غادرها إلى باريس حيث استقر ومات بها.

على الرغم من اختلاف المنطلقات والظروف التاريخية بين هيجل وبيرديائف، لكنهما في نهاية المطاف اشتركا في نظرة نقدية تكاد تكون واحدة تجاه الثورة كحدث تاريخي سواء كانت الثورة الفرنسية أو الثورة البلشفية، بل إن موقف بيرديائف من الثورة الفرنسية يكاد يتوحد مع موقفه من الثورة البلشفية، فالثورة الفرنسية عند بيرديائف مثلها مثل عصر النهضة الأوروبية وعصر الإصلاح الديني وعصر التنوير انبعثت تتادي بشعارات الدفاع عن حقوق الإنسان وقيم الحرية والإخاء والمساواة، ولكنها سرعان ما انتهت إلى التكرار المطلق لكل حق ولكل حرية. وربما أمكن تفسير موقف الفيلسوف من الثورة كحدث تاريخي من ملاحظة أن مثل هذا التفسير يستمد دلالاته ومعناه من خلال نسق الفيلسوف أو مذهبه ككل. وقد يكون هذا النسق صريحاً في نزاعه الثورية، وقد يكون محافظاً في رفضه لها ورفضه كل تغيير عن طريق القوة المسلحة، وقد يكون مروغماً يوحي الثورة وهو في حقيقة الأمر بعيد عن طبيعتها وروحها، شديد المكر والدهاء في تعامله معها، وتطبيقاً لهذا نجد مذهب هيجل

ككل قد غلب عليه الطابع التبريري المحافظ، وليس أدل على ذلك من مقولة هيجل القائلة بنهاية التاريخ، فقد جمد هيجل التاريخ في لحظة محددة، هي لحظة تكشف أو تجلى المطلق في دولة بروسيا، وهكذا يمكن القول بأن موقف هيجل من الثورة الفرنسية يصعب معالجته بعيدا عن نسقه الفلسفي ككل، وهو نسق مكتمل مغلق على ذاته يتسم بطابعية المحافظ إلى حد كبير، هو ما يجعله مغايرا لمنهجه الجدلي الذي يؤكد الحركة والتطور والتغير، ومن ثم فإن الفيلسوف يصعب عليه أن يتعامل مع الثورة كحدث تاريخي منفصل عنه، وهو وإن لم يكن من صناعاتها، فإنه بمقدوره أن يخدع نفسه ويوهمها بصورة ما بأن إدراكه وتعلقه لها يشكل بعدا حيويا لا غنى عنه لكل ثورة، فالقراءة الفلسفية للثورة ليست جزءا من تراث الفيلسوف فحسب، بل هي جزء ضروري من تراث الثورة، وهكذا تتعدد الثورة الواحدة بتعدد القراءات الفلسفية، وكان الفيلسوف يريد أن يدمج نفسه ويذمغ الثورة بطابع فلسفته ليجعلها بعدا منها، ولعل هذا يفسر لنا أن القراءة الفلسفية للثورة غالبا ما تأتي محافظة، وهي لا تتعامل معها من خلال الواقع والمسار التاريخي بقدر ما تتعامل معها من خلال القالب الفلسفي والمنطق الفكري لتوجهات الفيلسوف وكان الفيلسوف يريد منذ البداية أن يجعل من عقله مركزا للكون وبالتالي مركزا للثورة، ومن ثم فإنه يصعب أن نتفهم موقف الفيلسوف من الثورة بمعزل عن نظرته الفلسفية العامة، خصوصا متى كانت هذه النظرة تؤكد سعي الفيلسوف إلى تأكيد وحدة مذهبه وتناسق عناصره وتكاملها بصورة يستحيل بمقتضاها تفهم أي عنصر على نحو مستقل عن بقية العناصر. وإذا كان فكر الفيلسوف لا يدعى منذ البداية اكتماله في منظومة فلسفية واضحة المعالم، فإن نقطة انطلاق الفلسفة كقيلة بتحديد موقفه من الثورة، وعلى سبيل المثال لم يكن بيرديائف من أصحاب الأنساق أو المذاهب الفلسفية الجامدة، لكن نقطة انطلاقه ارتبطت بتأكيد قيمة الشخصية الإنسانية إلى أبعد مدى.

ومتى انتقلنا إلى جورج سوريل وكتابه الهام "تأملات عن العنف" الذي أكد بمقتضاه دور العنف في حركة التاريخ، وأن التاريخ لا يخضع للعقل والمنطق بقدر ما يخضع لأهواء البشر وصراعاتهم ورغباتهم، لو أدركنا دلالة العنف عند سوريل استطعنا بالتالي تفهم نظرته للثورة الفرنسية التي اعتبرها من أروع النماذج الأسطورية التي تركت تأثيرها العظيم على التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، فقد تجلت في سلسلة من الحروب المجيدة لا تقبل التفسير عن طريق

العقل أو أي قانون للتقدم التاريخي، ومن ثم بدت أشبه بملحمة عظيمة ألهبت الروح الفرنسية بحماسة بالغة تكاد لا تفترق عن حماسة الشعور الديني، ولا شك أن نظرته هذه تلاقحت مع تمجيده للعنف، ففي مقدمة كتابه "تأملات عن العنف" اعترف سوريل بأنه ظل متيماً ومسحوراً بتطور الإضرابات المصحوبة بسلسلة من مظاهر العنف، ولا عجب في ذلك، فقد بدت لديه الإشتراكية كنظرية في الحركة النقابية أو الثورية، أو بالأحرى فلسفة للتاريخ الحديث، ومن ثم لم يحاول أن يقدم نظرية عن العدالة أو تصوراً جاهزاً بشأنها، كما إنه ابتعد عن الفكر الليوتوبي، بل وأدان كل فكر بعيد عن حركة الواقع، مكتفياً بتقديم خواتمه عن قوة الدفع وراء العدالة وقوة الدفع هي الحركة العمالية النقابية وحدها، وهي تتجنب منذ البداية صيغ وأكليسيهات المنظرين، فالحركة هي كل شيء وموت الحركة معناه موت العدالة والحياة، وبقاء الحركة يعني استمرارية المواجهة والصمود والتحدي. لكن الحركة دائماً مهددة، يهددها محاولات السياسة والفلسفة تجميدها في أطر وقوالب ونظريات، ويهددها أيضاً أصحاب الحركة ودعائمها عندما تمتصهم وتستقطبهم أحلام التسلط والوظيفة والقيادة.

وبالتعارض مع سوريل نجد "ريمون آرون" يرفض الثورة كعمل من أعمال العنف يتخذ صورة نضال مسلح يقوم به الشعب في وجه حكومته خروجاً على قوانينها مما يعرقل ممارستها لسيادتها، وإذا كان القرن العشرين قد شهد العديد من الثورات، فإن الثورة لا تعد إصلاحاً، بل هي صورة من صور العنف وهي في مجملها تقوم على عدة مبادئ سلبية.

- طغيان الحزب الشمولي الديكتاتوري كما حدث في روسيا وإيطاليا.

- تحطيم الديمقراطية الليبرالية كما حدث في ألمانيا ١٩٣٠.

- الاستبداد الاقتصادي.

- الدعاية.

- التسلط على عقول البشر.

فالثورة بمعنى التغيير الجذري للنظام القائم بالفعل لا تختلف عن الحروب، فهي تحطم وحدة المجتمع وتوسع السلطة المطلقة لقادتها، وفي نهاية المطاف لا تحقق شيئاً. ومن هنا كان رفض ريمون آرون لحركة التمرد الطلابي في فرنسا ١٩٦٨ التي اندفعت تؤكد أن العنف هو الوسيلة الوحيدة لإصلاح المجتمع

وإصلاح الجامعة، وهو ما أدى إلى انقسام المجتمع الفرنسي وتمزقه، وبالتالي انقسمت الحكومة الفرنسية على نفسها بين اتجاهين، اتجاه جورج بومبيدو الذى قرر إعادة فتح جامعة السوربون والإفراج عن الطلاب والعفو عن الأساتذة، واتجاه ديغول الذى رفض تقديم هذه التنازلات. ومن ثم أصبح الطريق ممهداً أمام أصحاب الفكر اليساري للقفز على السلطة وإبعاد الحكومة الشرعية.

وربما تساءل البعض، ما هو موقف الفكر العربي المعاصر من ظاهرة الثورة، خصوصاً وأن عالمنا العربي قد شهد العديد من الثورات، وبداية يمكن القول بأنه إذا جاز لنا أن نتحدث عن الفلسفة والثورة في العالم الغربي، فإنه ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن عالمنا العربي لم يشهد فيلسوفاً منذ ابن رشد، وإنما شهد رجال فكر، لديهم لمحات فلسفية واجتهادات فكرية، لكنها لا ترقى إلى المستوى الذى يجيز لنا أن نتحدث عن فلسفتهم، وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى بعض النماذج الفكرية في عالمنا العربي المعاصر في ضوء موقفها من الثورة من ناحية وفي ضوء نزعتها الثورية أو المحافظة من ناحية أخرى. وبصفة عامة يمكن القول بأن موقف الفكر العربي المعاصر من ثورة يوليو جاء لاحقاً للثورة وليس صانعاً لها، متحفظاً أحياناً، مرواغاً أحياناً أخرى، يحاول إن يتكيف معها بصورة ما، وأن تطلب ذلك أن يطوع مقولاته ومنطقاته الفلسفية لفكر الثورة، ومن ثم فقد ينزع ناحية تبرير الثورة وتسويغ مشروعيتها والدفاع عنها، لكنه قد يصطدم بها، ولا يملك الشجاعة الكافية لمواجهتها في العلن، مكتفياً بنقدها والهجوم عليها في جلساته الخاصة. وربما احتفى وراء مقولاته الفلسفية التي يصعب فك شفراتها ورموزها المغرقة في التجريد من قبل العامة.

كتب فؤاد زكريا في العدد الخاص الذى صدر من مجلة الفكر المعاصر في نوفمبر ١٩٧٠ في أعقاب رحيل الزعيم جمال عبد الناصر يقول "أن الفكر - في عهد التغيير الاجتماعي السريع ما بين ١٩٥٢ حتى وقتنا الحاضر - لم يكن هو الذى يصنع الحوادث، بل كانت الحوادث هي التي تصنعه. وكثيراً ما كان المفكرون، وهم يلهثون وراء الأحداث السريعة، يكتبون بتقديم عرض أو تبرير نظرى لها بعد أن تكون قد حدثت. ولما كان الواقع لا يعبأ كثيراً بالتفسير الذى يحدث لاحقاً ومبرراً له فحسب، فإن مجرى الواقع كثيراً ما كان يفاجئ هذا النوع من التفسير بتطورات غير متوقعة تدفعه إلى مراجعة مواقفه السابقة بصورة قد تصل إلى حد التناقض الصريح معها))

ولا شك أن التناقض الواضح والصريح بين بعض رموز الفكر العربي

المعاصر وثورة يوليو قد تجسد بصورة واضحة في تباين المنطلقات الفلسفية التي انطلقوا منها في تعاملهم معها، خصوصاً متى وضعنا في اعتبارنا مدى توفيق ثورة يوليو أو اخفاقها في تحقيق مبدأ الديمقراطية، بما يؤدي إليه من تقبل كل فكر حتى لو جاء مغايراً لفكر الثورة. وتصديقاً لذلك نجد أن الوضعية المنطقية التي انطلق منها فكر زكي نجيب محمود في تجاهلها البعد الاجتماعي والتاريخي ونزعتها العلمية المحافظة بدت إلى حد كبير بعيدة عن الفكر الثوري الاشتراكي الذي تبنته ثورة يوليو. وبالتالي فإن موقفه منها، حتى لو أيدها في العلن، وحاول تطويع نزعته الفلسفية لمتطلباتها، يشكل معضلة في تفهم حقيقة موقفه، وإن افصح عنه بصورة غير مباشرة في بعض كتاباته بإدائه الواضحة للحكم الفردي المطلق متى أصبح صاحب السلطان السياسي هو في الوقت نفسه، وبسبب سلطانه السياسي، صاحب الرأي لا أن يكون صاحب رأي. وعبد الرحمن بدوي بنزعته الوجودية وإيمانه المطلق بالحرية الإنسانية ورفضه للفكر اليساري لم يكن بمقدوره أن يتعاطف مع ثورة يوليو التي اصطدمت به فكان من ضحاياها عندما طبقت عليه قانون الإصلاح الزراعي. وعثمان أمين صاحب النظرة الجوانية المثالية لم يستطع أن يتعامل معها في ضوء دلالتها الثورية إلا من خلال نزعته الإصلاحية، ومن ثم بدت لديه مجرد امتداد للمفاهيم الأساسية لدى رواد الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي في الشرق العربي ومنهم محمد عبده ولطفي السيد وقاسم أمين، ومن ناحية أخرى إذا كانت النظرة الجوانية لا تقتصر على رصد الوقائع والمنجزات وما تحقق بالفعل، بل تتجه إلى البعد الجواني بما يتضمنه من مطامع ومثل عليا فإن الفلسفة الناصرية أو فلسفة ثورة يوليو بدت عند عثمان أمين مجموعة من المعاني الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، يمكن استكشافها في أقوال وبيانات عبد الناصر بالدرجة الأولى (صوت مصر في الفلسفة الثورية لعثمان أمين. الفكر المعاصر العدد ٦٩ نوفمبر ١٩٧٠).

وفؤاد زكريا بنزعته العقلية النقدية الواضحة أكد إيمانه العميق بالاشتراكية والعدالة الاجتماعية كسياسة رسمية لثورة يوليو، ومع إيمانه بالتعدد والتنوع الفكري، لكنه رأي أن هذا الإيمان لا ينبغي أن يمتد إلى الأسس والمبادئ الأولى للطريق الاشتراكي (كلمة عن المستقبل لفؤاد زكريا. الفكر المعاصر العدد ٦٩ نوفمبر ١٩٧٠) ومن ناحية أخرى أمن بضرورة مراجعة الفكر الاشتراكي الذي اعتمده ثورة يوليو بل وتعديله وإعادة النظر فيه إذا لزم الأمر من منطلق أن

الواقع لا يمكن أن يتجمد ويتحجر عند وضع معين (الفكر الاشتراكي والتحدى المعاصر لفؤاد زكريا مقال بالفكر المعاصر العدد ٤٤ نوفمبر ١٩٦٨).

أما يحي هويدى فقد تعاطف مع ثورة يوليو من خلال نزعه الواقعية التي تنصت إلى الواقع وتلتحم به، وترى أنه مهما كانت دقة الصورة الذهنية التي يعدها الفيلسوف المثالي في عقله، فإن الصورة التي تخرج من هذا الواقع لأبد أن تكون أكثر كمالا وتنوعا من الصورة الذهنية. ومن منطلق هذه النظر كتب يحي هويدى العديد من الدراسات عن ثورة يوليو لعل أهمها: حياذ فلسفي، الفلسفة في الميثاق، فلسفتنا فلسفة واقعية، فلسفة الدولة العصرية، فلسفة المقاومة مؤكداً تطابق الفلسفة الواقعية بالفلسفة الاشتراكية الثورية. وإذا كانت مواقف الفكر العربي المعاصر من ثورة يوليو قد تباينت منطلقاتها على النحو الذي تناولناه، فإن بمقدورنا أن نتعرف على حقيقة بعض الإدعاءات الثورية التي قد يتبناها المفكر في كتاباته من منطلق محاولته مواجهة التحديات التي تواجه عالما العربي المعاصر، وبالتالي إمكانية اكتشاف الحلول الثورية لها وهنا نأتي إلى نموذجين من فكرنا العربي المعاصر، الأول التزم بنزعة عقلية تنويرية رشديه على درجة كبيرة من التماسك والوضوح والاتساق، والثاني يعد كتاباته تحمل لواء ثورة فكرية وفلسفية كفيلا بيقظة الأمة واستنهاض الهمة رغم تناقضاتها الفادحة وتذبذب مواقفها وغموض اتجاهاتها. وتوضيحا لهذا نجد أن المتتبع للدراسات المتنوعة التي قدمها عاطف العراقي بدءاً من دراسته الرائدة "النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد" يمكنه أن يدرك بكل بوضوح المسار العقلي الذي ارتبطت به، فالنزعة العقلية النقدية وحدها دون غيرها هي التي انطلقت منها كتاباته، ومن هنا يقدم لنا عاطف العراقي نمودجا أصيلا للموقف العربي الثوري بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، فكتاباته واضحة لا تقبل المزايدة، اختلفت معها أو اتفقت. فهو مؤمن بالعقل، مدرك تمام الإدراك أنه لا تنوير بدون العقل، فالعقل يمثل التقدم، يمثل القوة الخلاقة المبدعة، ومن ثم فلا يمكن الحديث عن التنوير سواء في أوروبا أو في العالم العربي المعاصر دون القول بالركيزة الكبرى والأساس القوي للبناء لهذا التنوير، وهو العقل والعقل وحده.

ولا شك أن النزعة العقلية التي التزم بها عاطف العراقي قد جعلت كتاباته بمنأى عن التناقض، وبمنأى عن التلون الايديولوجي، لديه القدرة على مواجهة الحاضر واستشراف المستقبل. وبالتالي فإن فكر عاطف العراقي يتسم بنزعة ثورية تستهدف البحث عن الجذور العقلية في التراث الفلسفي كما تمثلت في

فلسفة ابن رشد بصفة خاصة، مع إمكانية تطوير هذه الجذور في تعاملنا مع مشكلات وقضايا عالمنا العربي المعاصر بغية التجديد والتحديث. ولأنه مفكر ثائر فقد اصطدم بالواقع إلى المدى الذي أدى به إلى الوقوف في ساحات المحاكم الجنائية متهما أو شاهداً.

فإذا انتقلنا إلى حسن حنفي لوجدنا كتاباته تؤكد الثورة والتغيير (التراث والتجديد - من العقيدة إلى الثورة) ومع ذلك فإنك سرعان ما تعجز عن التعرف على ملامح الثورة الفكرية التي ارتبطت بها. فلا مجال للترابط والاتساق في كتاباته، والطابع التوفيقى والتلفيقي هو أهم ما يميزها. وعلى حد رأي فؤاد زكريا فإن القارئ لحسن حنفي يصعب عليه أن يظل محتفظاً بقواه العقلية بعد أن يتراقص مع كاتبها في حلقة المتناقضات الجنونية التي تدور فيها معالجته للموضوع، وهي الملاحظة نفسها التي أوردها جورج طرابيشي، ولم يكتف بصورتها العامة بل تناول تفصيلاتها، فهناك تناقض في الموقف المنهجي وتناقض في الموقف من القضايا وتناقض في الموقف من الوقائع وتناقض في الموقف من الأشخاص. ومتى اتسمت كتابات حسن حنفي بكل هذه التناقضات أمكن لنا التساؤل إلى أي حد تتسم كتابات حسن حنفي بالثورية بعد كل هذا؟

والحق أن كتابات حسن حنفي رغم غزارتها وتنوعها وارتباطها بمشروعه الحضاري تبدو وكأنها مجرد تكريس مباشر لكل ما يصدم وعينا ويزيد حيرتنا ويبعدنا عن تلمس الطريق الصحيح لأزممتنا. ولعل هذا ما يفسر لنا ما تتطوى عليه من تناقضات حادة في نظر أصحاب الفكر الدينى من ناحية وأصحاب الفكر العلماني من ناحية. فالرجل يقدم نفسه كمفكر إسلامي ورجل فقه وتابع مخلص وتلميذ جاد في مدرسة المجددين العملاقة أمثال ابن حنبل وابن تيمية والأفغانى ورشيد رضا وحسن البنا، وهو يهدى مؤلفه الضخم "من العقيدة إلى الثورة" إلى علماء أصول الدين، ويعلن تأييده للثورة الإسلامية الإيرانية ويتعاطف مع جماعات الإسلام السياسي المتطرفة بتنظيماتها المسلحة، لكنه في نفس الوقت يقدم قراءة استشراقية غريبة للتراث الإسلامى، بل تراه يسخر مما تحويه كتب التراث من روايات أسطورية حتى لو تعلق الأمر بالعقيدة الإسلامية. في كتاباته هناك رغبة واضحة في إرضاء كل الأطراف، فهو يرضى التيار السلفي ويرضى التيار الماركسى ويرضى التيار الليبرالي، وبالتالي يصعب أن نتبين دلالة ثورية لكتابات تنزع ناحية التوفيق والتلفيق. وعلى نحو ما لاحظ محمود إسماعيل فإن حسن حنفي يعتقد في تفرد بحس ذاتي - لا مصدر معلوم

له - يتجاوز كل النظريات والرؤى والمناهج التي اصطنعها العقل البشري في رحلته الطويلة من أجل المعرفة. وبوسعنا القول بأن كتابات حسن حنفي من هذا المنطلق يغلب عليها الطابع المحافظ، فهي تركز لما هو قائم، لا تقدم طريقاً واضحاً للثورة الفكرية والعقائدية بفدر ما تقدم خليطاً مشوهاً من الأفكار، يصعب توحيدها وتنظيمها، وإذا كان هيجل قد وحد كل التناقضات في الروح المطلق، وأكد أن عصره يمثل قمة الأحداث التاريخية التي سبقته، ومن ثم أكد أن الفكرة المطلقة تحققت وتجسدت في دولته، دولة بروسيا. فإن كتابات حسن حنفي تبدو وكأنها تحاول أن تحتوى كل تناقض لتجعلنا نتساءل بعد كل هذا، أين موضع الثورية في كتابات تدور في نطاق الذات ولا تتفاعل مع حركة التاريخ، أين موضع الثورية في كتابات يرى السلفي فيها ما يرضيه ويرى التقدمي فيها ما يدعم فكره؟ أين موضع الثورية في القول بالشئ ونقيضه؟ هل يمكن أن تحل الذات الفردية محل الروح المطلق في احتواء كل التناقضات؟

وبعد. رأينا نماذج مختلفة من الفكر الفلسفي في موقفها من الثورة، ربما تكمن قيمتها في التعرف على بعض المؤشرات التي تمكننا من التعامل مع الثورة، لكن لا بد من توخي الحذر في الاعتماد عليها كلية، فهي في نهاية المطاف تكاد تدور في نطاق فكر الفيلسوف ومحاولته بصورة أو بأخرى أن يجعل من الثورة بعداً من أبعاد نظريته الفلسفية سواء كان موقفه منها بالرفض أو التأييد. لكن الثورة كثورة كثيراً ما تتجاوز ذلك الإطار أو القالب المحدود الذي يوهنا المفكر أو الفيلسوف بقدرته على إحكام قبضته عليه. ولعل مثل هذه الحقيقة تؤكد لنا أن المؤرخ العظيم هو الذي بمقدوره أن يتعامل مع الثورة شريطة أن يكون تعامله معها موضوعياً ومحايداً وعلى درجة كبيرة من العقلانية.

بعض مراجع البحث

مراجع عن هيجل

- إمام عبد الفتاح إمام. المنهج الجدلي عند هيجل ، دار المعارف، ١٩٦٨.
- روجية جارودي: فكر هيجل ترجمة إلياس مرقص، بيروت ١٩٧٣.
- زكريا إبراهيم: هيجل أو المثالية المطلقة. مكتبة مصر ١٩٧٠.
- فؤاد زكريا: هيجل في ميزان النقد مجلة الفكر المعاصر سبتمبر ١٩٧٠.
- وليد عطاري: الوعي في فلسفة هيجل، رسالة ماجستير إشراف يحي هويدى ١٩٧٥.
- ولترسييس: فلسفة هيجل ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. دار الثقافة للطبع والنشر ١٩٨٠.

- يحي هويدى: الثورة الهيجلية. مجلة الفكر المعاصر ١٩٧٠.
- Hegel. Lectures on the philosophy of History.

مراجع عن بيرديانف

- بيرديانف: العزلة والمجتمع. ترجمة فؤاد كامل. مكتبة النهضة العربية ١٩٦٠.
- بيرديانف: الحلم والواقع. ترجمة فؤاد كامل. الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠.
- بيرديانف: أصل الشيوعية الروسية. راشد البراوى. الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦.
- محمد مجدى الجزيرى. شهادة على عصر من بيرديانف إلى جوربا تشوف. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ٢٠٠١.
- Berdyaev: The Russian Revolution.
- Berdyaev: The End of our time.
- Berdyaev: The meaning of history.
- Berdyaev: Slavery and freedom.

مراجع عن جورج سوريل

- محمد مجدى الجزيرى. العنف والتاريخ عند سوريل. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية ٢٠٠١.
- Sorel, G. Reflections of violence.
- Sorel, G. The illusions of progress.

مراجع عن ريمون آرون

- ارنوسبير: ريمون آرون الكاتب الأخلاقي. نماذج من الفكر الفرنسى المعاصر. ترجمة كاميليا صبحى. دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩٨.
- شعبان عبد الله محمد. فلسفة ريمون آرون السياسية. رسالة دكتوراه إشراف نصار عبد الله، مصطفى كامل السيد.
- Aron, R. the industrial society.
- Aron, R The Elusive Revolution.
- Aron, R. An Essay on Freedom.

مراجع عامة

- مقالات بمجلة الفكر المعاصر سبتمبر ١٩٧٠ لكل من:

- فؤاد زكريا. كلمة عن المستقبل.
- زكريا إبراهيم. مفهوم الثورة في فكر عبد الناصر.
- يحي هويدي. شخصية القائد ووحده الفكرية.
- عثمان أمين. صوت مصر في الفلسفة الثورية.
- عبادة كحيلية. ماذا تعنى ظاهرة عبد الناصر.
- حسن حنفي. من العقيدة إلى الثورة.
- حسن حنفي. التراث والتجديد.
- محمد عاطف العراقي: التربة العقلية في فلسفة ابن رشد.
- محمد عاطف العراقي: الفيلسوف ابن رشد ومستقبل الثقافة العربية.
- محمد عاطف العراقي: ثورة العقل في الفلسفة العربية.
- محمد عاطف العراقي: العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر.
- محمد عاطف العراقي: ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة.
- محمد مجدى الجزيري: أقتعة حسن حنفي: مقال بمجلة إيداع، نوفمبر وديسمبر، ٢٠٠١.
- محمد مجدى الجزيري: عاطف العراقي. كلمة وموقف. دراسة بالكتاب التذكارى عن عاطف العراقي، تصدير فؤاد زكريا، دار الوفاء بالإسكندرية، ٢٠٠٣.
- محمد مجدى الجزيري: مقالات فلسفية في فكرنا العربي المعاصر، ١٩٩٤.
- محمد مجدى الجزيري: الأسطورة عند زكي نجيب محمود، دراسة بالكتاب التذكارى عند زكي نجيب محمود، دار الوفاء، ٢٠٠١.

الفصل الثالث

دور الثورات

في صناعة القانون الدولي

السفير عبد الله الأشعل (*)

يعرف تاريخ الأمم أنماطاً من الأحداث بعضها رتيب و بعضها الآخر يتسم بالقوة والعنف . ويكون له بالغ الأثر في حياة المجتمعات . وقد عرفت الإنسانية سلسلة طويلة من الثورات . وهي قفزات صنعت حضارة الإنسان في المجالات العلمية والتكنولوجية والصناعية والثقافية والسياسية كافة . ولذلك يجب أن نفرق في مجال الثورات السياسية بين الثورة والانقلاب من حيث أن كلا منهما أداة استثنائية لتغيير الحكم بغير الطريق المعتاد . والفارق عندنا يتحصل في أن الانقلاب أداة عسكرية لقلب النظام واستبداله بنظام جديد . وقد يقف الأمر عند هذا الحد . ولكن الثورة قد ترتبط بانقلاب . وكما حدث في مصر عام ١٩٥٢ . وقد تكون هبة شعبية عامة تستعلي على الواقع . وتشد المجتمع بعنف إلى الأمام ومثال ذلك في العصر الحديث الثورة الإيرانية الشعبية التي أطاحت بنظام الشاه . وأحلت محله حكومة الجمهورية الإسلامية عام ١٩٧٩ . ومثل هذه الثورات تؤدي إلى تغيير المجتمع تغييراً كاملاً . غير أن بعض الثورات الشعبية تنتهي عند حدود تغيير النظام ، فتحل ملكاً محل ملك آخر ، ومثال ذلك الثورات الشعبية في يوغسلافيا ورومانيا والفلبين وجورجيا وفنزويلا والبيرو وغيرها ، حيث أصرت الجماهير على استقالة رئيس الجمهورية وإجراء الانتخابات لتغيير النظام ، ولكن أثر هذه الأحداث محدود ولا يتعدى تغيير نظام ، كما لا يمتد إلى تغيير نمط الحياة وأسلوب الحكم .

وقد لعبت الثورات جميعاً في كل المجالات أدواراً متفاوتة في العلاقات الدولية والقانون الدولي . فلا شك أن الثورة الصناعية قد غيرت نمط المجتمع الأوروبي ، مما سمح له بانتهاج سياسات استعمارية خارج أوروبا ، كما أن

(*) مساعد وزير الخارجية سابقاً.

الثورات التكنولوجية وثورة وسائل الاتصال ونقل المعلومات ، قد أنتجت لنا ظاهرة العولمة التي أثرت على العالم كله في كل المجالات الإعلامية والثقافية والاقتصادية وغيرها .

أما الثورات السياسية ، فكان لها دور لا ينكر في صناعة القانون الدولي ، لا يقل عن دور الثورات التكنولوجية التي تركت بصمات واضحة على صفحة العلاقات الدولية . والحق أن عدد الثورات السياسية الكبرى في العالم كله محدود وأثارها متفاوتة ، و نكتفي في هذه العجالة بان نحلل آثار بعضها في بنية القانون الدولي المعاصر ، هادفين إلى تقديم نظرة عامة تغني عن تفصيل هذه الآثار ، والتي لا يتسع هذا المقام لإيرادها .

فإذا قصرنا تحليلنا على الثورات السياسية الكبرى في التاريخ المعاصر لتفافزت إلى أذهاننا أسماء ثورات عظيمة تبدأ بالثورة الأمريكية والثورة الفرنسية وكلاهما وقع في الغرب خلال حقبة لا تزيد على بضع سنوات . فضلا عن ثورات التحرر الوطني في أمريكا اللاتينية في أوائل القرن التاسع عشر . فإذاً بدأ القرن العشرون . صادفنا الثورة البلشفية في الإمبراطورية الروسية ، ثم الثورة الصينية التي قادها ماوتسى تونج ، ثم مجموعة ثورات التحرر الوطني في إفريقيا من الاستعمار والعنصرية التي بدأت في مصر وامتدت إلى إفريقيا والعالم الثالث . وسوف نلقى نظرة عاجلة على دور كل من هذه الثورات وآثارها على القانون الدولي .

أولاً: الثورة الأمريكية وإسهامها في القانون الدولي

تتحصل هذه الثورة في رفض المستعمرات البريطانية في العالم الجديد لسياسة الاستعمار البريطاني . وتصاعدت هذه الثورة حتى انتهت بتحرير هذه المستعمرات وإنشاء الولايات المتحدة الأمريكية . ويلاحظ أن الثوار هم أصلاً مهاجرون شكلوا إحدى طبقات المجتمع الأمريكي المبكرة . وهم مهاجرون أصلاً من أوروبا ومعظمهم من بريطانيا وأيرلندا . فكانت الثورة الأمريكية بمعنى ما ثورة داخلية لولا اختلاف الأقاليم بين الثائر والدولة الاستعمارية . وقد أرسى الثورة الأمريكية عدداً من القواعد التي تتصل بحق المستعمرات في الاستقلال ، وتكوين الدولة وهو أحد تجليات التمتع بحق تقرير المصير . كما أكدت هذه الثورة مبادئ تضمنها الدستور الأمريكي تعلق قضية الحرية والحكم الصالح ، وكلها أصبحت روافد هامة لصناعة مبادئ القانون الدولي في هذا الباب .

ويذكر في هذا الوقت المبكر . انه رغم اجتهاد الفقهاء في تكييف العلاقة بين الدولة المستعمرة ومستعمراتها . إلا أن فرنسا التي كانت تساند الثوار . قد أرست مبدأ هاماً وهو أن مساندة الثوار ضد مستعمر أجنبي لا يعد انتهاكاً لمبادئ العلاقات الدولية بين الأمم ، وأن حق المقاومة يمتد إلى حق الدولة الأخرى في مساندة هذه المقاومة . وعندنا أن أثر الثورة الأمريكية لا يقتصر على دراسة الحالة أو المبادئ التي أعلنتها ، ولكن أثرها امتد إلى ما تضمنه السلوك الأمريكي في الخارج من إصرار على استصحاب مبادئ الدستور الأمريكي لنصرة الحرية ، على الأقل من الناحية النظرية .

ثانياً: الثورة الفرنسية وإسهامها في القانون الدولي

تختلف الثورة الفرنسية عن الثورة الأمريكية في عدد من الملامح، منها أن الثورة الفرنسية كانت موجهة ضد الطبقة الحاكمة الأرستقراطية، فهي ثورة اجتماعية سياسية، وكانت أكثر جسارة ودموية في إعلان مبادئها وتتحصل هي الأخرى في قضية الحرية، حيث أصدرت إعلان حقوق الإنسان والمواطن، الذي يتسم بصبغة عالمية، كما رفعت شعار الحرية والإخاء والمساواة، نبراساً للعلاقات الدولية. ويكفي أن الثورة الفرنسية هي التي ابتدعت حق اللجوء السياسي، وأن اللاجئ لا يسلم، كما أن الجريمة السياسية لا يجوز المحاكمة عليها، بعد أن ظلت الجريمة السياسية منذ اتفاقية قاش ١٢٨١ ق.م بين رمسيس الثالث والملك حتوسيل ملك الحيثيين تركز على أن الاعتداء على الملوك والوزراء هي الجريمة التي يجب تسليم مرتكبيها والتعاون بشأنها بين الدول.

وهكذا يؤرخ بمساهمات الثورة الفرنسية في تطوير القانون الدولي لحقوق الإنسان ، حيث تعد الثورة إحدى المحطات الهامة في إنشاء هذا القانون ، ولا تزال مبادئ الثورة الفرنسية إضاءة مهمة لقضية الحرية . ولذلك عندما جاء نابليون إلى مصر ، ظن المصريون أنه قدم إليهم بأنوار الثورة لتسوقهم من ظلمات العصور الوسطى ، ولكنهم ذهلوا عندما فاجأهم باحتقار دينهم ، وامتهان الأزهر الشريف وتحطيم أنف أبو الهول ، رمز الحضارة الإنسانية . ثم زال عنهم العجب والغضب والذهول ، بعد أن قدم نابليون لمصر واحداً من أعظم التجليات الثقافية في تاريخها ، وهي كتاب ((وصف مصر)) ، بقلم علماء الحملة وكذلك فك طلاسم اللغة الهيروغليفية التي كانت فتحة عظيمها في مجال

الاكتشافات الأثرية الهامة . لهذا السبب التبس على المصريين الوجه الاستعماري والوجه الحضاري للحملة الفرنسية . فاحتفلوا بمرور مائتي عام على الحملة بشقها الحضاري دون الاستعماري ، حيث ذكرنا جهاد المصريين في صد الحملة و أبطال ثورتي القاهرة الأولى والثانية . أما الوجه الحضاري وما جاءت به الحملة من أدوات الحضارة الحديثة ، فكان ذلك بداية العقد الثقافي بين مصر وفرنسا.

ثالثاً: الثورة السوفييتية وإسهامها في القانون الدولي

قامت الثورة السوفييتية على أساس أيديولوجي مختلف ، هو تطبيق المثاليات الماركسية ، واختارت الإمبراطورية الروسية التي كانت حتى قيام الثورة تتسم بطابع العصور الوسطى في أمرين : أولهما ، سيطرة السواض الديني بسبب سطوة الديانة الأرثوذكسية . والأمر الثاني ، سيطرة العلاقات الإقطاعية على الإمبراطورية الزراعية . وكان واضحاً أن روسيا القيصرية قد أصبحت متخلفة بعدة قرون . عندما قامت المواجهة العسكرية بينها وبين اليابان ١٩٠٥ وهي المواجهة الوحيد خارج إطار المواجهات التقليدية مع الدولة العثمانية ، حيث كانت روسيا في كل هذه المواجهات جزءاً من التحالفات الغربية . وقد قامت الثورة البلشفية والحرب العالمية الأولى تقترب من نهايتها . ورغم أن روسيا كانت طرفاً رئيساً في الحرب إلى جانب بريطانيا وفرنسا . ألا أن إبرامها صلح برست ليتوفسك مع ألمانيا لم يكن كافياً لكي ينقذ ألمانيا من هزيمة ساحقة في الحرب العالمية الأولى. وقد أنتجت الثورة السوفييتية فقهاً قانونياً متكاملأ في مواجهة الغرب الذي حشد قدراته العسكرية والسياسية والقانونية لهزيمة هذا الفيروس الجديد الذي ظهر في فترة بالغة الحرج ، فضاغف أزمة النظام الرأسمالي في المجالات الاقتصادية والسياسية، وبشكل خاص في المجال الاجتماعي ، حيث كانت شعارات الثورة السوفييتية تلتقي عندها أشواق الطبقة العاملة وفي لحظة كانت فيها أوروبا تنن بسبب المظالم العمالية ، والاحتقان الاجتماعي وتوحش الحركة الرأسمالية الاستعمارية ، وتكاثر ضحايا الثورات الصناعية من العمال العاطلين . وارتفاع الفجوة بين العمال و أرباب الأعمال . ومما ساعد على قبول شعارات الثورة تلك الأرضية الصلبة من الفكر الاشتراكي الذي كانت تزخر به أوروبا منذ بدايات القرن التاسع عشر .

ومعنى ذلك أن أثر الثورة الشيوعية السوفييتية في القانون الدولي ، كان

يؤسس لنسق جديد يقوم على الحرية للطبقات المستغلة وللشعوب المغلوبة على أمرها ضد الاستعمار . وعلى تأكيد حق الشعوب في تقرير مصيرها . ومن الواضح أن كل الثورات قد التفتت على أرضية واحد، وهي قضية حرية الإنسان من كل أصناف القهر . ولكن الثورة الأمريكية انقلبت في جزء من شعاراتها على مبادئ الرئيس ولسن التي بشر بها . وقد ظل الاتحاد السوفييتي حتى نهايته، ورغم اتفاقه مع الثورة الأمريكية في المبادئ نفسها . هو العدو والمنافس الأكبر والمناهض الأساسي لقضية الحرية من وجهه النظر الغربية . ولكن موسكو وواشنطن التفتتا عند مسألة مشتركة ، وهي ضرورة تصفية الاستعمار الغربي ، والحلول محل الإمبراطوريات الغربية الآفلة ، وقد اتضح ذلك بشكل جلي بعد الحرب العالمية الثانية .

ومن البديهي أنه يصعب في هذا السياق أن نستعرض بالتفصيل مساهمة الفقه السوفييتي الذي أكد على عدد من المبادئ التي ساعدت دول العالم الثالث في قضاياها على المسرح الدولي . كما أن الاتحاد السوفييتي هو الذي ناصر هذه الدول وساعد بكل الطرق على تحريرها من الاستعمار الغربي ، كما أن تحرير هذه الدول وقع في إطار الحرب الباردة بين موسكو وواشنطن . ولسنا بحاجة إلى القول بأن الفقه السوفييتي كان يعمل على دعم السلوك السياسي السوفييتي ، وعلى سبيل المثال ، فإن الاتفاق السوفييتي الأمريكي على قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ قد وجد تفسيره في الفكر السوفييتي على أساس أن إسرائيل قد تحررت من الاستعمار البريطاني ، وأن يوم قيامها هو ذكرى استقلالها ، وأنه من المأمول أن تصبح إسرائيل سندا للسياسة السوفييتية في الشرق الأوسط، هذا التفسير هو نفسه القصة الإسرائيلية ، ولا يزال موقف الاتحاد السوفييتي ولقاؤه مع واشنطن عند مساندة إسرائيل لغزاً في الدراسات العربية . كما أفسح هذا الموقف لتفسير آخر هو أن الاتحاد السوفييتي يحاول أن يضلل الرأي العام العربي ، وأن يبرر موقفه بعد أن اتضح له أن إسرائيل هي قلعة الغرب ضد النفوذ السوفييتي في المنطقة العربية . ولكي يزيل التناقض بين ولاء اليسار العربي لموسكو . ومناهضة هذا اليسار للحركة الصهيونية ، إدعى الاتحاد السوفييتي أنه أساء التقدير عندما اكتشف العلاقة العضوية بين إسرائيل والولايات المتحدة .

والراجح لدينا أن مجرد وجود حزب ركح الشيوعي في إسرائيل لم يكن كافياً لإغراء موسكو أو إقناعها بأن إسرائيل قد أصبحت دولة شيوعية ، لأنه

حزب صغير من ناحية ، ولأن كل أوروبا الغربية الرأسمالية كان لديها أحزاب شيوعية وحركة يسارية متطورة ، دون أن يؤثر ذلك على التركيب الرأسمالي لهذه الدول . وفي إطار الاستراتيجية السوفييتية ، دعم الاتحاد السوفيتي حركات التحرر الوطني وثورات العالم الثالث جميعاً من منطلق واحد ، وهو إنها تناهض الاستعمار الغربي ، وخاصةً الولايات المتحدة أحياناً ، وأن اتساع رقعة هذه الثورات يعزز المكانة الدولية للاتحاد السوفيتي ولكننا لا نريد أن نخلط بين إسهام الثورة السوفييتية ، وبين إسهام الاتحاد السوفيتي نفسه في صناعة القانون الدولي ، غير إننا في هذه الحالة وجدنا من الصعوبة الفصل بين الأمرين ، لان مبادئ الثورة السوفييتية تجسدت في سلوك الاتحاد السوفيتي بصرف النظر عن دوافعه السياسية والأيدلوجية ، وعن خطته في إطار المواجهة العالمية مع الغرب ، والتي شملت جميع الساحات واستخدمت فيها جميع الوسائل ، لأنها كانت صراعاً على البقاء ، وليست صراعاً على سيادة نمط من أنماط السياسة والمجتمع . وعلى سبيل المثال لا يمكن الفصل بين مواقف الاتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة في مواجهة الغرب في كل القضايا التي تتصل بالعالم الثالث ، وبين اتجاهات الفقه السوفيتي الذي كان يقف لمساندة هذه السياسات السوفييتية، رغم أن هذا الفقه قد وجد الحرج في التوفيق بين بعض المبادئ وتطبيقاتها ، وخصوصاً فيما يتعلق بعلاقة الاتحاد السوفيتي بالدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية . فقد أعلن برجينيف مبدأ السيادة المحدودة لهذه الدول في مواجهة السيادة المطلقة التي تمارسها موسكو على هذه الدول ، حتى يبرر التدخل العسكري السوفيتي في المجر عام ١٩٥٦ للقضاء على ثورة إمري ناج وفي تشكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ للقضاء على ربيع براج . وقد شايعه الفقه السوفيتي، واهم أعلامه الأستاذ تونكين الذي ترجم كتابه " القانون الدولي العام " إلى عشرات اللغات .

كذلك لا يمكن التغاضي عن موقف الفقه السوفيتي المساند للسلوك السوفيتي في الأمم المتحدة ، حيث جعل هذا الفقه قرارات مجلس الأمن في مرتبة المعاهدات الدولية ، عندما كان الاتحاد السوفيتي لا يملك نفوذاً داخل الجمعية العامة في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين . ثم انقلب تماماً ، فقلل من أهمية قرارات مجلس الأمن ، رغم أن موسكو تتمتع بالفيتو داخله ، و أعلى من شأن قرارات الجمعية العامة منذ بداية السبعينيات وتوصياتها . عندما أصبحت دول العالم الثالث الموالية لموسكو تمثل الأغلبية الساحقة في الجمعية

العامّة ، وهو ما أحدث أزمة طاحنة بين الأمم المتحدّة وبين الولايات المتحدّة ، خاصّة في عامي ١٩٧٤-١٩٧٥ وهما عامان مشهودان في تاريخ الأمم المتحدّة من زاوية علاقة الولايات المتحدّة بالمنظمة الدوليّة .

رابعاً: مساهمة الثورة الصينية في القانون الدولي

قامت الثورة الصينية عام ١٩٤٩ بزعامة " ماوتسي تونج" في المناطق الريفيّة . وكانت لونهاً جديداً من الثورات الاجتماعيّة ، وتطبيقاً خاصاً متطوراً وملائماً للظروف الريفيّة للنظرية الماركسيّة ، حيث كانت الثورة البلشفيّة محاولة للتطبيق الحرفي لهذه النظرية في أوساط العمال ، مع ملاحظة أن البيئة النموذجية هي المجتمع الصناعي. وليس المجتمع الإقطاعي . وربما كان الفارق هو المسئول عن إخفاق التجربة السوفييتيّة في زمن قياسي ، بالإضافة إلى العوامل الأخرى الداخليّة و الدوليّة .

وقد انضمت الثورة الشيوعيّة الصينيّة إلى الثورة السوفييتيّة في التأكيد على قواعد القانون الدولي الخاص بالتححرر من الاستعمار الغربي وتقرير المصير . كذلك التأكيد على السيادة الدائمة للدول على ثرواتها الطبيعيّة ، وعندما حلت الصين الشعبيّة محل الصين الوطنيّة في الأمم المتحدّة ، وأصبحت عضواً دائماً في مجلس الأمن ، فإن تعزيزها لهذا الخط القانوني من الناحية السياسيّة كان أكثر وضوحاً . ورغم أن الاطلاع العربي على الفقه الصيني محدود ، كما أن فقهاء الصين لم ينشروا بشكل مكثف أبحاثهم بلغات دوليّة إلا أن ما توافر منها لا يشذ عن القاعدة ، إذا استثنينا ذلك الجدل القانوني الذي وقع بين الصين الشعبيّة والاتحاد السوفييتي في مرحلة ما سمي بالقطيعة بين عملاقي الكتلة الشيوعيّة في بداية الستينيّات ، بل والتنافس بينهما على قيادة الحركة الشيوعيّة العالميّة .

قد شدت الصين على حظر استخدام القوة في العلاقات الدوليّة ، وركزت على أولوية التسوية السياسيّة للمنازعات الدوليّة ومن المفهوم أنه عندما يركز الفقه الصيني على عدم التدخل في الشئون الداخليّة ، فانه يعنى أمرين الأول: أن هذه قاعدة من قواعد القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدّة . والثاني أن التمسك بهذا القاعدة كان رداً دفاعياً على الهجمة الأمريكيّة من خلال دعاوى حقوق الإنسان على الصين . خاصة عقب أحداث الميدان السماوي Tiananmen .

ولا بد من الإشارة إلى أن ضعف إسهام الفقه الصيني في حركة القانون

الدولي . يرجع بالإضافة إلى عامل اللغة ، وعدم الترجمة إلى اللغات الأجنبية . إلى أن الصين كانت في معظم الأحوال بعد اندماجها في المجتمع الدولي اعتباراً من ١٩٧١ تلتزم خطأ هادئاً في مواجهة الغرب . مما جعل الاتحاد السوفييتي هو المعرض للضغوط الغربية ، والحملة الضارية لاختراق الأسوار العقائدية والاجتماعية . ويفسر ذلك أن التركيز على الصين من جانب الغرب لم يكن بالحدة نفسها التي تعرض لها المجتمع السوفييتي . والدول الشيوعية في شرقي أوروبا .

خامساً: الثورة المصرية والقانون الدولي

من الناحية العملية، تنفرد الثورة المصرية بخصيصة هامة ، رغم أنها تنضم إلى ثورات العالم الثالث أو العالم غير الأوربي ، وذلك في أن هذه الثورة بدأت انقلاباً عسكرياً ، هدفه تغيير نظام الحكم ، ولكنها اتخذت عدداً من الإجراءات الاجتماعية والسياسية التي تجاوزت بها أن تكون مجرد أداة لاحتلال نظام محل نظام آخر. وبصرف النظر عن مدى سلامة الإجراءات التي اتخذتها الثورة ، فقد أدارت المجتمع المصري بأسره ، كما أدارت علاقات الدولة الخارجية ، وهذا كله يتطلب مراجعة شاملة لجوانب الفشل والنجاح في هذه التجربة التي لا نعتقد أنها محاطة بالحساسيات نفسها التي كانت تعانيتها في الماضي .

وقد أسهمت الثورة المصرية في تأكيد خط الحرية الذي بدأتها الثورات الأخرى ، ولكنها ركزت على حرية الوطن من الضغوط الأجنبية والاستعمار البريطاني على حساب حرية المواطن ، فأقامت نظاماً أحلت السيطرة السياسية لهذه النظم محل السيطرة الأجنبية ، وتعاملت مع المجتمع المصري بشكل يحتاج إلى مراجعة جذرية ، وسبب ذلك أساساً هو سيطرة العسكريين الصغار ، وعدم إدراكهم لقدرات المجتمع المصري ، وتقديم القوة المسلحة والسلطات البوليسية على جوانب العلاقات الأخرى ، فاختلفت معاني الوطنية بالولاء للحاكم ، كما روج مفكرو السلطة لنظرية غريبة ، وهي أن الحكم العسكري لا يزال مهماً ، مادامت المواجهة مع إسرائيل قائمة علماً بأن هذا الحكم العسكري هو الذي أسهم في تعميق الموقف في التعامل مع الصراع العربي الإسرائيلي .

ويتلخص إسهام الثورة المصرية في قواعد القانون الدولي في أن فكرة التأميم كانت تعد اعتداءً على الملكية الخاصة الأجنبية في الفقه الغربي ، ولكنها

أصبحت حقاً لشعوب العالم الثالث . كما ساهمت الثورة في التأكيد على بعض حقوق الإنسان المتصلة بالعدالة الاجتماعية ، وتأكيد سيادة الشعوب على ثرواتها الطبيعية . كما أسهمت الثورة فكراً وعملاً في مساندة حق تقرير المصير للشعوب ، فانضمت بذلك - مع الفوارق المعروفة - إلى خط الحرية الذي أكدته الثورات الأخرى .

سادساً: الثورة الإيرانية والقانون الدولي

تختلف الثورة الإيرانية عن الثورات الأخرى ، وتتميز بخصائص متعددة ، أولها : أنها ثورة اجتماعية دينية تدعو إلى التخلص من نظام سياسي علماني طبقي ، وإقامة نظام يطبق الشريعة الإسلامية على المذهب الشيعي الاثنى عشري ، وتعد في موازين العلاقات الدولية - وإن كان على مستوى أقل - انقلاباً ضخماً في السياسات العالمية . فإذا كانت الثورة السوفيتية ، وكذلك الثورة الصينية ، ثورتين ضد ظلم اجتماعي في الداخل وطغيان السيطرة الغربية في الخارج ، فإن الثورة الإيرانية تعتبر رمزا لهذين المعنيين صوب تعميق الممارسة السياسية الإسلامية ، وكان يمكن أن تكون ثورة إسلامية لإبراز العالم الإسلامي على الخريطة الدولية ، لولا أنها حصرت نفسها في المذهب الشيعي ، وأطلقت شعارات استغلت استغلالاً سيئاً ضدها ، كما أن هذه الثورة وجدت مقاومة العنف ، بسبب تهديدها لشبكة واسعة من المصالح ، ومحاولة ظهورها في منطقة شديدة الحساسية في وقت كانت الحرب الباردة فيه تتجه إلى التهدئة واتساع مساحات العمل المشترك بين موسكو وواشنطن ، فتحالف الجميع عليها ، كل لأسبابه و دواعيه .

وإذا كان من الملاحظ أن الثورات السابقة جميعاً لم تستخدم القوات المسلحة وإنما استخدمت الشارع ضد القوات المسلحة أحياناً ، والتي كانت أداة للقمع في يد السلطة البائدة ، فإن الثورة الإيرانية قد انضمت إلى الثورات الأخرى في التأكيد على المبادئ نفسها وهي : الاستقلال الوطني ، وإقامة علاقات دولية عادلة في المجالات السياسية والاقتصادية ، وحظر استخدام القوة في العلاقات الدولية . ولكن الثورة الإيرانية ربما لم تزل من شأن مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية ، خصوصاً بين الدول الإسلامية ، وهذا يشبه إلى حد ما - مع الفوارق العديدة - مذهب برجينيف المعروف بالسيادة المحدودة في إطار العلاقة بين موسكو وأوروبا الشرقية ، حتى يبرر تدخل موسكو العسكري والسياسي في

شئون أوروبا الشرقية .

والحق أن إسهام الثورة الإيرانية في تأكيد مبادئ القانون الدولي ليس واضحاً بالقدر الكافي . حتى على مستوى الكتابات الأكاديمية . وربما يرجع ذلك أساساً إلى أن الثورة تواجه - حتى رغم مضي ربع قرن على قيامها - محاولات قمعها ، وهي المحاولات نفسها التي واجهتها الثورة السوفيتية، عندما اضطرت لندن وواشنطن إلى الاعتراف بها بعد قرابة عقدين من الزمان. ولكنهما يكتان للثورة الإيرانية العداء لأسباب سياسية ودينية لا يتسع المجال للإفاضة فيها.

الباب الثاني

الثورة والتغيير في العصور القديمة

الفصل الأول

أوتوحيجال وأول ثورة تحريرية في العالم

جاب الله علي جاب الله^(*)

حوالي منتصف الألف الخامسة ق.م. وقد إلي جنوبي العراق شعب قدر له أن يلعب دوراً بارزاً، ليس في تاريخ حضارة العراق فحسب، وإنما في تاريخ حضارة الإنسان بصفة عامة، ولما كانت الشعوب السامية التي استوطنت بلاد الرافدين في مراحل تاريخية لاحقة قد أطلقت علي جنوبي العراق: تعبير "مات شوميرم" بمعنى "أرض سومر...." فقد تعارف الباحثون المحدثون علي تسمية هذا الشعب باسم "السومريين".

وقد نشب خلاف بين العلماء حول تحديد الأصول العرقية التي ينتمي إليها السومريون والموطن الأصلي الذي جاءوا منه، مما لا يتسع المجال لتفصيله، يكفي القول بأن البحث عن موطنهم الأصلي امتد من الخليج العربي جنوباً إلى وادي نهر السند شرقاً، وحتى المنطقة الواقعة حول بحر قزوين شمالاً.

تدل الشواهد الأثرية علي أنه مع نهاية الألف الرابعة ق.م. انتظم السومريون في وحدات مستقلة، ومع أنها كانت تعتمد في اقتصادها علي الزراعة إلا أن واحدها كانت أقرب إلى نظام المدينة منها إلي القرية، وبذلك يكون السومريون هم أول من دخل عصر الثورة المدنية، علي حد تعبير الباحث الكبير جوردون تشايلد، إذ أن المدينة كانت وحدة سياسية مستقلة بحكومتها وأرضها واقتصادها وعلاقاتها الخارجية، ولذلك عرفت بمصطلح دولة المدينة city state، وهو النمط نفسه تقريباً الذي عرفته دولة المدينة في اليونان Polis بعد ذلك بأكثر من ألف سنة.

(*) أستاذ الآثار المصرية كلية الآثار، جامعة القاهرة. مستشار وزير الثقافة للآثار.

تشير قرائن كتابية إلى أنه في بداية نشأة دولة المدينة في سومر، كان نظام الحكم يتسم بسمة ديمقراطية هي الأولى في التاريخ حسب علمنا ، وقد أطلق الباحث الأمريكي ثوركيلد جاكوبسن عليه تعريف الديمقراطية البدائية Primitive Democracy ، إذ كانت السلطة المطلقة في يدى مجلس عام من المواطنين الأحرار رجالاً ونساء ، ويمكن أن يسمى مجلس الكبار (الشيوخ) ، وكان يتألف أساساً من وجهاء المدينة وأعيانها ، وكان منوطاً به النظر في أمر الدولة من معاهدات وحروب بل واختيار ال "إن" بمعني السيد، والذي كان يتولى مهام المعبد الرئيسي لإله المدينة ، أهم مؤسسة دينية/ دنيوية في الدولة ، والى جانب ذلك كان هناك مجلس آخر يضم الأحرار من الفلاحين والصيادين والنجارين والحرفيين والكتبة وغيرهم.

مع مرور الوقت تأكلت سلطات هذين المجلسين حتى ندر السماع عنهما ، ومع ذلك فإن نظرية الحكم في دولة المدينة السومرية ذهببت إلي أن النظام الملكي عبارة عن منحة سماوية وهبتها الآلهة إلي المدن ، لذلك نقرأ كثيراً عبارة "عندما هبطت الملكية من السماء إلي الأرض" واقتضت هذه العقيدة أن المالك والملك الحقيقي لكل مدينة هو إلهها الرئيس ، أما الحاكم الأرضي مجرد " انسى " بمعني نائب أو وكيل الالهة ، نيظ به أن يدبر شئون الدولة ، وبعكس ما كان قائماً في مصر القديمة فإن الأنسى كان مجرد إنسان فان ، ولم يرق أبداً إلي مرتبة التآليه ، وكان أقصى ما يصبو إليه " الانسى " هو أن يرقى إلي " لوجال " بمعني " الرجل الكبير " والذي قد يترجم مع بعض التساهل بكلمة " ملك ". اعتمد الاقتصاد السومري في المجال الأول علي الزراعة ، ورغماً عن وفرة المياه التي كان يأتي بها الي سومر نهرا الدجلة والفرات وروافد هما ، فإن رى الأراضي لم يكن بالأمر الهين ، لاسيما إذا علمنا أن فيضانات النهرين تقع بين شهري أبريل ويونيو، وهو موعد غير مناسب لزراعة المحاصيل الشتوية أو الصيفية ، ولذلك برع السومريون في هندسة الري ،وبذلوا جهوداً مضنية لإنشاء نظام معقد من القنوات والخزانات والسدود ، لضمان الحفاظ على المياه وتوزيعها بالتساوي على الأراضي الزراعية . أضف إلى ذلك أن أرض سومر بحكم طبيعتها الجيولوجية وظروفها المناخية كانت تفتقر إلى المعادن والأحجار والأخشاب الجيدة ، ولذلك ازدهرت تجارتها، ووصلت إلي شاطئ البحر المتوسط غرباً وشرقى إفريقيا عبر الخليج العربي وبحر العرب جنوباً ، أو

مناطق بحر قزوين شمالاً، وغنى عن القول أنه في ركاب التجارة انتقلت الثقافة السومرية المتفوقة الى معظم هذه البقاع، بما في ذلك نظام الكتابة الذي كان للسومريين قصب السبق في اختراعه .

ربما كان أخطر ما قدمه السومريون للإنسانية وأهمه اختراع الكتابة والتي بدأت بعلامات تصويرية، ثم تحولت لظروف خاصة بمواد الكتابة في العراق القديم إلي علامات مجردة بعيدة كل البعد عن أصولها التصويرية ، وتعرف لدينا الآن بالكتابة السماوية ، وليس الآن هو مجال الدخول في جدل حول من كان له شرف السبق في هذا الاختراع : المصريون أم السومريون ، ولكن يكفي السومريين شرفاً أن كتابتهم انتشرت في كل أصقاع منطقة الشرق الأدنى القديم فيما عدا مصر ، إذ استخدمها الأكديون والبابليون والآشوريون في العراق ، كما استخدمها الإبلويون والأموريون والكنعانيون والفينيقيون في الشام ، واستخدمها الحيثيون في آسيا الصغرى ، والعيلاميون والفرس الأوائل في إيران ، بل وفي وقت من الاوقات كانت المسمارية هي وسيلة الكتابة الدولية، مما يفسر لنا العثور علي مئات اللوحات الطينية المكتوبة بالخط المسماري في الأرشيف الملكي بالعمارنة ، آخت آتون عاصمة اخناتون ، وإذا كانت شعوب الشرق الأدنى القديم ودوله تدين بشيء لشعب آخر ، فإنها تدين في المجال الأول للسومريين اختراعهم الكتابة.

أدرك السومريون بعقريتهم الفطرية مدى خطورة الكتابة، ولذلك حرصوا على تدريسها تدریسا منتظماً في مدارس مخصصة لهذا الغرض ، وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن عدد من هذه المدارس بين أطلال المدن السومرية بل وعثر على بعض الكتب المدرسية التي يعود تاريخها الي ما لا يقل عن ٢٥٠٠ق.م.

كانت المدرسة تعرف في اللغة السومرية بإسم " ايدوبا " ومعناها الحرفي " بيت الألواح " وكان يدير شؤونها ناظر يعرف بإسم "أوميًا" ، ويلقب بلقب شرفي هو " أبو المدرسة " ويعاونه في أداء وظيفته مايقابل لدينا " المدرس الأول " ولقبه السومريون " الأخ الأكبر " أما هيئة التدريس فكانت لها تخصصاتها فهناك مدرس اللغة السومرية ومدرس الرسم ... الخ . وتعبيراً عن مدى التصاق التلميذ بمدرسته فقد كان يوصف بأنه " ابن المدرسة " ، ولم تكن الصلة الروحية بين التلميذ ومدرسته لتقطع بعد التخرج، إذ أن المتخرج كان يوصف بأنه " ابن المدرسة في الأيام الماضية " .

ترك لنا أبناء المدارس القدامى هؤلاء من الكتبة آلاف النصوص المسمارية التي كشفت عن جميع نواحي الحياة السومرية : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والأدبية والطبية والفلكية والرياضية... إلخ. رغما عن أن السومريين ، مثلهم مثل كل شعوب الأرض قديماً وحديثاً ، كانوا يعتقدون بأنهم متميزون عن غيرهم من الأمم ، وأن مجتمعمهم مجتمع مقدس وثيق الصلة بسالم الآلهة ، إلا أنهم في الوقت ذاته أدركوا بثاقب فكرهم أنهم جزء من مجتمع بشري أوسع يستوطن جهات الكون الأربع (على حسب تعبيرهم) ولذلك ظهرت في كتاباتهم كلمة " نام لولو " التي تعطي معنى " البشرية " بمذلولها المجرد .

في ظل الرقي المدني الذي حققه السومريون تولد لدى المواطن العادى إحساس قوى بحقوقه الشخصية ، وحرص شديد على حريته ، وإصرار على مجابهة أية تجاوزات قد يتعرض لها سواء أكان ذلك من قبل حاكم أو رئيس في العمل ، أو أى مواطن آخر ، فلا غرابة إذن أن يكون سن التشريعات من أهم الخصائص المميزة لدولة المدينة في سومر ، وليس محض صدفة أن تكون أقدم قوانين معروفة لدينا يعثر عليها في العراق ، ونعنى هنا القوانين المنسوبة الى أور - نمو ، ملك أور فيما بين حوالي ٢١١٣ - ٢٠٦٩ ق.م .

وطبقاً لديباجة المقدمة لمواد تشريعاته ينص أور - نمو على أنه قصد من إصدارها القضاء على ناهبي ثيران المواطنين وأغنامهم وحميرهم ، وضبط نظم الموازين والمكاييل حتى لا يجرى التلاعب بها ، وحتى " لا يقع اليتيم فريسة للغنى " و "الأرملة ضحية للقوى" و "مالك الشئقل (الفقير) فريسة لمالك المنا (الغنى)".^(١)

أما في مجال الإبداع الفكري فقد خلف السومريون ثروة هائلة ، فاحتوى أدبهم على العديد من الأساطير والقصص الملحمية والتراثيل الدينية والمرثيات (لاسيما مرثيات المدن) وأقوال الحكماء والوثائق التاريخية وخلافه .

ومن القصص الملحمي عثر على ما لا يقل عن تسع منها ، ومن بينها قصة ايتانا سيد كيش الذي نجح في أول محاولة طيران ، إذ صعد إلى السماء على جناحي نسر لكي يحصل على نبتة الإنجاب لأنه كان محروماً من الأبناء ، وقصة اينمر كار سيد أورك الحافلة بالبطولات ، وكان ملكاً غازياً وصلت

فتوحاته إلى مملكة أراتا بجوار بحر قزوين^(٢) وقصة زيو سودرا الذي أنقذ العالم من الطوفان الذي كاد أن يهلك الحرث والنسل وبذلك يكون المقابل السومري ، لنبي الله نوح عليه السلام في التوراة والقرآن الكريم .

على أنه ربما كان أشهر هذه القصص جميعاً جليجاميش ، ذلك البطل المأساوي القلق الذي قضى عمره سعياً وراء أمل ، كان يعرف من البداية انه لن يتحقق ، ألا وهو قهر الموت والفوز بالحياة الأبدية ، وفي النهاية خاب مسعاه لأن الآلهة عندما خلقت الإنسان قدرت عليه الموت واحتفظت لنفسها بالحياة الأبدية .

كشفت النصوص السومرية عن قيم إنسانية سامية ومثل أخلاقية عليا، ففي نص ينسب إلى عهد أوركاينا الذي حكم مدينة لجش في منتصف الألف الثالثة ق .م وردت كلمة " أمارجي " " بمعنى " الحرية " وهو أول ذكر مدون لهذه الكلمة حسب علمنا .

وقيل عن الآلهة نانشة ربة المدينة نفسها أنها :

" تعرف اليتيم وتعرف الأرملة

تعرف ظلم الإنسان للإنسان

أم اليتيم

نانشة، التي تعنى بالأرملة

التي تهب العدالة لأفقر الناس (؟)

الملكة التي تأخذ اللاجئ في حجرها

وتجد ملاذاً للضعيف "

ومن أقوالهم المأثورة :

" القلب لا يسبب العداوة ، بل اللسان هو الذي يسبب العداوة "

" الكلمة الطيبة صديقة كل إنسان "

القلب الحنون يبني البيت أما القلب الحقود فيهدم البيت "

" الزوجة مستقبل الرجل والابن ملاذ الرجل والابنة خلاص الرجل "

وتضرع جوديا سيد لجش إلى ربه قائلاً :

" لا أم ، أنت أُمى

ولا أب لي ، أنت أبى "

أرجو ألا توهمنا الإنجازات الحضارية المذهلة التي حققها السومريون بأنهم عاشوا في الجنة الموعودة التي أبدعها خيالهم ، لأن مئات من النصوص الأخرى تلقي الأضواء على جوانب أخرى من حياة المدن السومرية ، جوانب من الخصومات والنزاعات والحروب والأخطار ، وهي أمور تصير مفهومة إذا ما أدركنا أن دويلات المدن لم تنتظم في دولة واحدة إلا نادراً ، ولذلك كثيراً ما احتدمت النزاعات بينها ، وهي نزاعات غالباً ما كان يحسمها حشد السيف ، وقليلاً ما حسمتها الاتفاقات التي سرعان ما كان يتم نقضها والرجوع عنها .

ومن ناحية أخرى فعلى العكس من مصر ، لم يتوافر للعراق حدود طبيعية تحميه من الغارات الخارجية ، بل كان البلد مفتوحاً ومعرضاً للأخطار من جميع الاتجاهات : فإلى الجنوب والغرب تمتد صحراوات شاسعة تتجول فيها جماعات بدوية خشنة الطباع ، فقيرة في موارد رزقها ، ولذلك كانت كثيراً ما تغير على التخوم الغربية لبلاد الرافدين ، تقتل وتدمر وتتهب ، وإلى الشمال توجد الجبال الوعرة بسكانها المتبريرين والطامعين في خيرات الأراضي الخصبة ، ولذلك كثيراً ما كانوا يهبطون عليها مثل الجراد يحرقون مدنها ويسترقون أهلها ويسلبون ثرواتها. حوالي ٢٢٥٠ ق.م تعرض وسط وجنوبي العراق لواحدة من تلك الغارات ، إذ هبطت جماعات من المرتفعات الشمالية ، فدخلت المدن السومرية وروعت مواطنيها وسلبت ممتلكاتهم ، إلا أنها لم تتسحب مرتدة إلى مرتفعاتها ، وإنما بدأت بحكم المدن وتسيطر على مقاديرها ، وطبقاً لمصدر تاريخي يعرف اصطلاحاً باسم " قائمة الملوك السومريين " فإن هذه الجماعات عرفت باسم الجوتيين ، وإن عهدهم المظلم استمر ٩١ عاماً وأربعين يوماً ، رزحت خلالها المدن السومرية تحت حكم جماعات بربرية لا نصيب لها من الحضارة ، فلا غرابة في أن نمت روح قومية بين أبناء المدن السومرية على اختلاف انتماءاتهم وتوحدت إرادتهم للتخلص من هذا الكابوس ، وبدأت بداية ثورة تحريرية لعلها الأولى في التاريخ .

تزعمت مدينة أورك (على نهر الفرات جنوب شرق مدينة السماوة حالياً) بقية المدن السومرية وقاد حاكمها المدعو أوتوحيجال حرب التحرير ضد

الطغيان الأجنبي ، ومن حسن الحظ أنه عثر على نص مسماري يكاد أن يكون فريداً من نوعه ، يمكن عن طريقه تتبع مراحل الحرب التحريرية من بدايتها حتى نهايتها .

طبقاً للنص لم ينطلق أتوحيجال إلى هذه الحرب تحقيقاً لمطمع شخص وانما بتكليف إلهي :

"أنليل (٣) ملك الأقطار كلها ، كلف (أتوحيجال) ، الرجل القوى ، ملك أوروك ، ملك أركان العالم الأربعة ، الملك الذي لا يقدر امرؤ على مخالفة أمره ، بتحطيم اسم جوتى" .

ثم يسوق النص المبررات التي جعلت أنليل يكلف أتوحيجال بتدمير اسم (ملك) جوتى ، لانه "ثعبان وعقرب الجبل ، الذي شهر سلاحه ضد (إرادة) الآلهة " والأخطر من ذلك ارتكب خطيئة كبرى لأنه نقل ملكية بلاد سومر إلى بلاد (أجنبية) ، ولعنا لازلنا نتذكر أن الملكية كانت منحة سماوية تهبط من السماء إلى أي من المدن السومرية طبقاً للإرادة الإلهية .

ولم تقتصر شرور الجوتيين على الآلهة وإنما امتدت لتشمل مواطني سومر قاطبة ، فقد " ملاً سومر بالعدواة ، وفصل الزوجة عن كان له زوجه ، وسلب الطفل ممن كان له طفل ، وأوجد البغضاء والعصيان في البلاد " .

وإذا كان التكليف بالشروع في حرب قد جاء إلى أتوحيجال من أنليل رب الأرباب السومريين ، فإن أتوحيجال لم يكن من الغفلة بحيث يخوض حرباً مثل هذه ضد عدو شرس مثل الجوتيين بمفرده ، وانما توجب عليه أن يطلب العون من بقية المدن السومرية لكي تقف معه ، ولأن كل مدينة كانت ملكاً لالهها الرئيس أو إلهتها الكبرى فقد توجه إليها مباشرة ، طالباً عونها وملتماً نصرها:

" توجه (أتوحيجال) إلى إنانا (٤) ملكته وابتهل ضارعاً : يا مليكتي أيتها اللبوة في المعركة ، يا من تهاجم الأقطار الأجنبية كلها ، لقد كلفتني أنليل بإعادة ملكية بلاد سومر فكوني حليفتي " بعدما ضمن أتوحيجال تأييد آلهة المدن السومرية الواحد بعد الآخر انطلق إلى المعركة " في ذلك المكان جمع الجوتيون قواتهم و أرسلوا الجيوش ضده إلا أن أتوحيجال الرجل القوى أوقع بهم الهزيمة وأسر قائدهم " .

رغم الهزيمة المنكرة التي ألحقها أتوحيجال بالجموع الجوتية إلا أن

تيريجان ملكهم تمكن من الهرب و" لجأ إلى مدينة دوبروم حيث عومل برفق (؟) ولكن لما كان أهل دوبروم يعرفون أن أوتوحيجال هو الملك الذي وهبه انليل القوة فإنهم لم يطلقوا سراح تيريجان ، وإنما سلموا مبعوث أوتوحيجال تيريجان وعائلته ، فقيده يديه بأطواق من خشب ، وعصب عينيه ، وجئى بتريجان إلى حضرة أوتوحيجال ، فألقى بنفسه على قدميه ، فداس أوتوحيجال بقدمه على رقبته ... وهكذا عادت الملكية إلى بلاد سومر" .

لقد نفذت الإلهة إرادتها وعادت الملكية مرة ثانية إلى مكانها الطبيعي : أرض سومر ، وتحقق حلم السومريين في الحرية ، وتخلصوا من نير الجوتيين، ثعبان الجبل وعقربه .

الهوامش

- (١) المنا = حوالي ٥٠٠ جم ويعادل ٦٠ شقيلاً
- (٢) والواقع أن هذه القصة تقدم لنا في أحد فصولها وصفاً لحلم الإنسان بعالم مثالي خال من الشرور :

" في يوم من الأيام لم يكن هناك ثعبان ولم يكن هناك عقرب
لم يكن هناك ضبع ولم يكن هناك سبع
لم يكن هناك كلب متوحش ولا ذئب
لم يكن هناك خوف ولا رعب
كان الإنسان بدون عدو "

- (٣) انليل (حرفياً سيد الريح) كان رب الهواء والعاصفة عند السومريين واحتل مكانة رفيعة في مجمع الآلهة السومرية حتى أنه كان يوصف بأنه " ملك الآلهة " و" ملك السماء والأرض " وكان هو الذي يعلن اسم الملك ويمنحه صولجان الحكم .
- (٤) كانت " إنانا " ابنة اله القمر " نانا " وعرفها الساميون بعد ذلك باسم " عشتار " وكانت تتجلى في كوكب الزهرة وكانت ربة للحرب والحب في آن واحد .

مراجع مختارة

- باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - ج١ - الوجيز في تاريخ حضارة، وادي الرافدين - ط٢ ، بغداد ١٩٨٦ .
- برنتيس ، بورهارد ، نشوء الحضارات القديمة - ترجمة جبرائيل يوسف كباس، دمشق

١٩٨٩

- صالح ، عبد العزيز ، الشرق الأدنى القديم - ج ١ - مصر والعراق - ط ٤ ، القاهرة ، ١٩٩٠ .
- عبد الواحد على ، فاضل ، "السومريون والأكديون" في نخبة من الأساتذة العراقيين ، العراق في التاريخ ، بغداد ١٩٨٣
- كريم ، ص . ن ، السومريون : تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم ، ترجمة فيصل الوائلي ، الكويت (بدون تاريخ)
- لويد ، سيتون ، آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي - ترجمة محمد طلب ، دمشق ١٩٩٣ .
- نخبة من الباحثين العراقيين ، حضارة العراق - ج ١ - بغداد ١٩٨٥
- Childe, G., **What Happened in History**, Penguin Books, 1946
- Gadd, C.J. " The Cities of Babylonia " ,in Cambridge Ancient History, 3rd ed., vol. I/2 , Cambridge 1971
- Heidel, A., **The Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels**, Phoenix Books, Chicago 1965
- Jacobsen Th., "The Sumerian King-list", **Assyriological Studies**, 11, Chicago 1939.
- "Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia", **Journal of Near Eastern Studies** , 2, 1943.
- Kramer, S.N., **Sumerian Mythology** , A Study of Spiritual and Literary Achievement in the Third Mellennium B.C., Harper Torchbooks, New York, 1961.
- **History Begins at Sumer**, Thames and Hudson , London 1961.
- **The Sumerians : Their History , Culture, and Character**, Chicago 1963.
- " Dilmun : Quest for Paradise " , **Antiquity**, 27,no.146, 1963.
- Roux, G . , **Ancient Iraq**, Penguin Books, 2nd ed.,1985.
- Saggs, H.W.F., **The Greatness that Was Babylon**, London 1962.

الفصل الثانى

الثورات المصرية فى العصر الرومانى

(٣٠ق.م - ٢٨٤م)

عودة عبدالواحد جودة^(*)

شاع لدى العامة أن الوطنية والقومية مترادفان، وأن أياً منهما إذا ذكرت تغنى عن الأخرى، بيد أن الواقع يبين أن لكل منهما معنى وإن كانا غير مختلفين. الوطنية مشتقة من الوطن أى لها مدلول مكانى، وأما القومية فمشتقة من القوم أى لها مدلول إنسانى. وتبرز الوطنية عندما يكون سكان أى وطن ينتمون إلى أرومة واحدة، كما هى الحال فى مصر الفرعونية^(١). وأيضاً عندما يشترك أهل وطن واحد على اختلاف أصولهم العرقية فى عمل مشترك. أما القومية فهى مرحلة تبرز إذا ما كان يسكن الوطن أكثر من جنس واحد كل منهم يشكل قومية، على سبيل المثال مصر فى العصرين اليونانى والرومانى التى كان يسكنها المصريون إضافة إلى اليونان والرومان وجنسيات أجنبية أخرى^(٢). وبالتالي شكل المصريون إحدى القوميات التى سكنت مصر فى العصر الرومانى. ومن هنا نتبين أنه على حين يمكن أن نطلق على ثورات المصريين على المحتلين فى العصر الفرعونى اسم الثورات الوطنية، فإننا نطلق على ثوراتهم ضد محتليهم فى العصر الرومانى اسم الثورات القومية، على اعتبار أن تلك الثورات عمل قومى مصرى.

تتقسم الثورات التى خاضها المصريون على مدار تاريخهم إلى ثورات داخلية ضد الطغاة من حكامهم من بنى جلدتهم، وإلى ثورات وطنية أو قومية ضد محتل أجنبى. وطالما أن العصر الرومانى قد شكّل فترة احتلال أجنبى لمصر، فلاشك أن الثورات القومية ضد سلطة الاحتلال الرومانى ستكون هنا بيت القصيد. وطالما أطلقنا على تلك الثورات اسم الثورات القومية المصرية فإن الدراسة سوف تقتصر على ثورات المصريين دون الدخول فى تفاصيل ثورات

(*) مدرس التاريخ القديم، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

السكندريين اليونان أصلاً، والتي اتخذت شكلاً آخر يختلف في كثير من سماته وملامحه عن ثورات المصريين. وإن كان بعض الباحثين يرى أنه عند اندلاع تمرد في مكان آخر من مصر نجد السكندريين على استعداد للانضمام والمساعدة^(٣)، فإن واقع الحال يؤكد أنه لم يحدث تعاون بين المصريين والسكندريين في ثوراتهم ضد الرومان، ويبدو أن ذلك كان أحد أهم أسباب فشل ثورات كلا من المصريين والسكندريين.

وثمة ملاحظة أخرى نود إضافتها ألا وهي أن المادة العلمية المتعلقة بتلك الدراسة قليلة وناقصة، ولعل ذلك ما أدى إلى إغراض الباحثين عن دراسة هذا الموضوع رغم أهميته.

عاش المصريون منذ أقدم العصور في الوادي والدلتا ظانين أن الموانع الطبيعية التي تتمتع بها مصر مانعتهم من الغزو الأجنبي، فكما هو معروف أن مصر تحميها الصحارى من الشرق والغرب ويحميها البحر من الشمال، وقد أشار تاكيتوس إلى أن مصر بلد يسهل الدفاع عنها، خاصة إذا ما تمت السيطرة على مدخلها، بيلوزيون في الشرق وفاروس في الغرب اللذين يوصفان بأنهما النقطتان الرئيسيتان للدفاع عنها من البر والبحر^(٤). وبالتالي نعم المصريون بالأمن في وطنهم مما منحهم الفرصة لتشكيل حضارة متجانسة رائدة دونما مؤثرات خارجية. بيد أن المصريين تبينوا فيما بعد فكرة الأمن الزائف داخل حدودهم، ذلك أن كثيراً من ملامح المجتمع الدولي القديم أخذت في التغيير بشكل سريع عن النمط الذي ألفه المصريون، وصارت بلاد الشام تعج بكثير من الهجرات الأجنبية التي تطلعت للوثوب على مصر مستغلة فترة الضعف التي كانت تمر بها مصر، في عصر الأسرة الثالثة عشرة^(٥). وبالفعل حدثت أول غزوة أجنبية لمصر، تلك التي حدثت في أوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد، وعرفت بغزوة الهكسوس^(٦). وشكلت تلك المحنة أول اختبار حقيقي للوطنية المصرية. تلك التي يبدو أنها لم تتأخر كثيراً بل تبلورت وأخذت تنمو في طبيعة في طرف قصي لم يتطرق إليها الاحتلال الهكسوسي، وشكل الأمير سقنرع من الأسرة السابعة عشر أول شهيد وطني مصري، ودليل ذلك رأس موميائه وقد كلفتها خمسة جروح. وحمل لواء المقاومة بعده ولداه كاموس وأحمس، وعلى حين اختفى الأول في ظروف غامضة كان أحمس الأول بطل التحرير^(٧).

تتبعه فراغنة الدولة الحديثة (١٥٧٥-٩٤٥ ق.م.) إلى فكرة الأمن الزائف، ورأوا أن موانع مصر الطبيعية لم تحمها من الغزو الخارجي، وبالتالي عمدوا

إلى إنشاء الإمبراطورية المصرية، وما استتبع ذلك من وجود أملاك خارجية لمصر، تحصل منها على ما ينقصها من موارد، ويتم فيها إجهاض الغزوات الأجنبية قبل وصولها إلى مصر، وبالتالي فإن قوى أجنبية مثل الميتان والحيثيين جربوا حظهم في الشام مع المصريين، أما شعوب البحر فقد وصلت إلى الحدود المصرية إلا أنه تم دحرها^(٨).

كانت ثانی الغزوات الكبرى التي استطاعت الولوج إلى مصر، كانت قوة آشور حيث بذل آشور حادون محاولتين لغزو مصر، أفلح في الثانية عام ٦٧١ ق.م في دخول منف. وأسس المصريون بأن الآشوريين غرباء، ولذا فإن كرامتهم منعتهم إلا الثورة التي تزعمها طهرقا آخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين في مصر، حقيقة أن ثورة المصريين لم تفلح في طرد الآشوريين، لكنها عملت على قض مضاجع المستعمرين الذين ظلوا في مصر حتى استطاع أبسماتيك الأول أمير سايس استغلال الظروف السيئة التي حاقت بدولة الآشوريين، وتخلص من النفوذ الآشوري وكون الأسرة السادسة والعشرين^(٩).

رغم النهضة في العصر الصاوي فإنها كانت أنشودة وداع لأمة أدت دورها الحضاري والسياسي في وقت ظهر فيه الغول الفارسي، وأسس قورش الأسرة الهاخمنشية، واجتاح آسيا الصغرى والشام وبابل، في وقت توفي أحسن الثاني ملك مصر، واستطاع الملك الفارسي قمبيز فتح مصر عام ٥٢٥ ق.م^(١٠).

أساء قمبيز إلى المصريين وإلى ديانتهم وبالتالي وفر منذ البداية مقوماً وسبياً أساسياً للثورة الوطنية المصرية، بيد أن أعمال الملك العظيم دارا الأول الطيبة مثل تسجيل التشريع المصري واحترام الديانة المصرية قد خدرت المصريين مؤقتاً. ومع ذلك ظلت جذوة الثورة الوطنية المصرية مشتعلة تحت الرماد، وقد شهد العصر الفارسي على الأقل أربع ثورات مصرية، دخل اليونان فيها طرفاً فاعلاً لمناصرة المصريين في ثوراتهم ضد الفرس عدوهم المشترك، ومن أبطال تلك الثورات أيناروس وأمون حر ونقتانبو^(١١).

في ظل تلك الظروف السابقة ظهر فيليب الثاني المقدوني صاحب مشروع توحيد اليونان والقيام بعمل مشترك للانتقام من الفرس، وكان من رأيه مساعدة مصر ضد الفرس^(١٢).

بعد اغتيال فيليب الثاني المقدوني آل عرشه وورث مشروع توحيد اليونان والقيام بعمل ضد الفرس ابنه الإسكندر الثالث المعروف بالإسكندر الأكبر.

ورغم صغر سنه أبدى الإسكندر براعة سياسية وحربية وبالتالي لم يتأخر كثيراً في القيام بحملته المنتظرة على الشرق. فعلاً هزم الفرس في موقعة سهل إسوس في آسيا الصغرى عام ٣٣٣ ق.م^(١٣). ثم نجده يتجه جنوباً ليجتاح بلاد الشام ثم يلج إلى مصر عام ٣٣٢ ق.م. ويقضى على الحكم الفارسي^(١٤).

ظن المصريون أن جيش الإسكندر الأكبر نجدة يونانية جاءت لمساعدتهم ضد الفرس، وبالتالي ساعد المصريون الإسكندر ورحبوا به حينما حل. ولم يفتن المصريون حينذاك إلى أن اليونان لم يأتوا هذه المرة حلفاء، وإنما ليفرضوا سيادتهم عليهم ويقيموا مكان الحكم الفارسي حكماً أشد بأساً وأطول بقاءً^(١٥). وصار فاتحة عصر جديد من حكم الأجانب اليونان لمصر دام قرابة الثلاثة قرون عرف بعصر البطالمة.

أقام البطالمة دولتهم في عام ٣٢٣ ق.م. واتخذ بطلميوس الأول سوتير منف عاصمة له حتى يتم بناء الإسكندرية، وبالتالي تودد إلى المصريين إلا أن سياسته اختلفت بعد أن انتقل للإقامة في الإسكندرية عام ٣١١ ق.م. وبالتالي ولى وجهه شطر بلاد اليونان وأهلها وأدار ظهره لمصر وأهلها^(١٦). ونزع عن المصريين صلاحياتهم كافة وأحل اليونان محلهم في مختلف الوظائف المدنية والعسكرية، ماعدا الدنيا منها فقد تركها للمصريين، وحرّم المصريين من قياداتهم المدنية. كذلك حرّم المصريين من الخدمة في الجيش إلا في أدنى مراتبه فصار الجيش يونانياً صرفاً، وبالتالي حرّم المصريين من أهم أسباب ثورتهم ونعنى بها القيادة وحمل السلاح. وبالتالي تحولت مصر وأهلها إلى مجرد أدوات إنتاج لإمداد البطالمة بأهم أسباب ثرواتهم التي غدت مضرب الأمثال، مما مكّنهم من متابعة سياستهم العالمية بإنشاء دولة كبيرة كل مكاسبها لليونان، ووقعت كل مغارمها على المصريين. وبذا توافر للمصريين أول مقومات الثورة على البطالمة ومرد ذلك كرامتهم الوطنية السلبية والخضوع لجنس غريب^(١٧).

ساهمت قوانين الدخل Nomoi Telenikoi التي أصدرها بطلميوس الثاني فيلادلفوس بماحوته من قوانين مالية، لم تدع شاردة ولا واردة من مصادر الدخل في مصر إلا وفرضت عليها ضرائب، ليس هذا وحسب بل إن كثيراً من مصادر الإنتاج في الزراعة والصناعة والتجارة خضعت لاحتكارات حكومية، كانت عقوبة من يخالفها تصل إلى الإعدام. وطالما أن عبء هذا التشريع المالى الكريه قد وقع كاملاً على المصريين مما أوقعهم في براثن الفاقة^(١٨). فقد توافر لهم سبب جديد للثورة على الحكم البطلمي. أضيف سبب جديد أدى إلى ضيق

المصريين بحكم البطالمة، يتمثل في تضييق البطالمة الخناق على رجال الدين المصريين طليعة القيادة الوطنية المصرية، بعد أن قضى البطالمة على نفوذ الارستقراطية العلمانية. حقيقة أن البطالمة احترموا الديانة المصرية وآلهتها، بيد أنهم فرقوا بينها وبين الكهنة، وبالتالي صاروا يضيقون الخناق على الكهنة بتعيين مراقب Epistates لكل معبد لمراقبة الموارد والمصروفات^(١٩). بل إن البطالمة صاروا يبيعون للكهنة المناصب الكهنوتية ذات الموارد^(٢٠). ومع ذلك يحسب للبطالمة الأواخر على الأقل أنهم أبقوا على حق المعابد فى حماية اللاجئين إليها asulia^(٢١). ولاشك أنه كان من شأن تلك الإجراءات التعسفية أن تدفع إلى بث الثورة فى نفوس الكهنة الزعماء الروحانيين للبلاد، وبالتالي إذكائها فى نفوس المصريين.

بالإضافة إلى كل ما سبق من أسباب كانت تدفع المصريين إلى الثورة فى العصر البطلمى، فإن بعض الظروف الطارئة كانت تفضى بهم أيضاً إلى التذمر، أو تكمل الصورة القائمة أصلاً قتامة مثل الأوبئة والمجاعات تلك الظروف، وبالتالي كانت تلك الأوضاع تفضى للتذمر. ولا ننسى دور موظفى البطالمة الذين أساءوا السلطات المخولة لهم فزادوا الطين بلة^(٢٢).

من المعروف أن الإسكندرية منذ إنشائها وعلى مدار عصر البطالمة والرومان لم تكن تعد جزءاً من مصر أو حتى تقع داخلها بل كانت توصف دائماً بأنها الإسكندرية المجاورة لمصر Alexandria ad Aegyptum، أما بقية مصر فكانت توصف بالوادي أو الأرض Chora^(٢٣)، وبالتالي فإن مملكة البطالمة كانت تتكون من الإسكندرية ومصر بالإضافة إلى ممتلكاتهم الخارجية. وقد أنشئت الإسكندرية مدينة يونانية زخرت بأعداد كبيرة من اليونان الذين شاركوا الملك البطلمى المقيم بين ظهرانيهم استغلال المصريين^(٢٤). وبالتالي لا يمكن أن نعتبر ثورات السكندريين على ملوكهم ثورات قومية تحريرية، بل نرجح أن ثورات أو شغب السكندريين كان لأجل الأسرة البطلمية لا ضدها، ورغم أن السكندريين قد عزلوا بعض ملوكهم أو طردوهم أو حتى قتلوهم، فلم يكن الهدف من ذلك التخلص من حكم البطالمة الذين غمروهم برعايتهم، وجعلوهم سادة فى بلد غير بلدهم، وبالتالي كانت ثورات السكندريين اليونان لتقويم سلوك ملوكهم^(٢٥). أما المصريون فكان لهم رأى آخر.

اندلعت ثورات المصريين على الحكم البطلمى لكل الأسباب السابقة وربما غيرها، وانقسمت ثوراتهم إلى نوعين من حركات المقاومة، أولها المقاومة

الإيجابية برفع السلاح والاشتباك مع قوات البطالمة من أجل الاستقلال وطرد البطالمة واليونان، أما المقاومة السلبية فلم يتطرق فيها المصريون إلى حمل السلاح في وجه البطالمة، إنما تمثلت في الإضرابات عن العمل والهروب من القرى، مما يعطل عجلة الإنتاج أو حتى تمنى زوال الاحتلال. لم تتأخر الثورات المصرية كثيراً عن بداية العصر البطلمي، وكذلك اختلطت أدوارها السلبية والإيجابية، ويكاد لا يمر عهد ملك من ملوك البطالمة دونما حدوث هوجة أو ثورة أو إضرابات أو هروب . ونتبين من وثائق زينون التي تعود إلى عصر بطلميوس الثاني وقوع اضطرابات بين المزارعين وفرارهم للاحتماء بالمعابد^(٢٦). بيد أنه لم يحدث في عصرى بطلميوس الأول أو الثانى ثورات مصرية مسلحة، ربما كان مرد ذلك هو كفاءة الإدارة البطلمية التي كفلت قدراً من عدالة توزيع ما تبقى للمصريين من نتاج جهودهم بعد استيلاء الدولة حقها، وكذلك يبدو أن الإجراءات المالية القاسية التي أدخلها بطلميوس الثانى لم تكن قد ظهرت آثارها بعد. كذلك لم تتوافر مقومات طبيعية لقيام ثورات مثل عدم حدوث نقص فى فيضان النيل. ولم يكن لدى الكهنة مبررات الثورة، وأن المصريين لم يمتلكوا السلاح.

عرف عهد بطلميوس الثالث يورجيتيس الثورة القومية المصرية، تلك التي حدثت خلال حربى السورى واضطرتة إلى هجران فتوحاته فى آسيا والعودة إلى مصر، وإن كنا لا نعرف تفاصيل هذه الثورة^(٢٧).

فى عهد الملك بطلميوس الرابع فيلوباتور العاشر اندلعت الحرب السورى الرابعة. اجتاح خلالها الملك السلوقى أنطيوخوس الثالث ممتلكات البطالمة فى جوف سوريا حتى وصل إلى جنوب رفح طامعاً فى غزو مصر. بسبب قلة الجنود المرتزقة فى الجيش البطلمى لجأ بطلميوس الرابع إلى تجنيد المصريين لأول مرة فى العصر البطلمى، وكون منهم فيلق الجيش، ولما كان المصريون لديهم من الدوافع للدفاع عن بلادهم ما لا يمكن حصره وبالتالي تفوقوا على جند السلوقيين المرتزقة وأحرزوا النصر^(٢٨).

كانت موقعة رفح نقطة تحول فى سلوك المصريين تجاه البطالمة، فقد أمدهم النصر الذى أحرزوه بما نقصهم منذ فترة، من إحساس بالعزة القومية امتلاكهم السلاح، وذكرهم بأيام ملوكهم الفراعنة القدامى الوطنيين، ولما كان نصر رفح نصراً للمصريين فإنهم لم يعودوا راضين عن وضعهم السابق بل تطلعوا إلى التمتع، إن لم يكن بكل خيرات بلادهم فببعضها. حقيقة أن البطالمة

اللاحقين صاروا يقدون على بعض المصريين خاصة الجنود والكهنة^(٢٩). إلا أنها لا يمكن أن تقارن بما نعم به اليونان.

كذلك ظهرت الدعاية السياسية القومية المصرية كإحدى طرق المقاومة السلبية على شكل نبوءات أشهرها النبوءة الديموتيقية المعروفة بنبوءة الفخرائي، تلك التي بشرت بظهور زعيم وطني يطهر البلاد من الأجانب ويحكمها^(٣٠). وبالتالي فقد ثارت طيبة تلك التي استطاعت الاستقلال لمدة عشرين عاماً (٢٠٥-١٨٦ ق.م) تتأوب خلالها على حكمها ملكان مصريان هما حورماخيس و عنخماخيس^(٣١). ويرى بعض المؤرخين أن السبب الأساسي لتلك الثورة هو التغيير في توازن القوى بين الملك والمصريين بعد موقعة رفح، ويرى آخرون أنها لم تكن ثورة قومية إنما مجرد تدمير من الأوضاع الاقتصادية^(٣٢). ويرى آخر أن خطر الثورة في عهد بطلميوس الرابع جاء من أن الجنود المصريين كانوا لا يزالون مدربين ويحملون السلاح^(٣٣).

ظلت الثورة مشتتة في عهد بطلميوس الخامس، ولاشك أنها صارت لها نتائج داخلية وخارجية سيئة، تمثلت في ضعف أداء الدولة الاقتصادية واضطرت الحكومة البطلمية إلى رفع القيمة الإسمية للعملة واتخاذ البرونز قاعدة لها، وأدت إلى فقدان البطالمة نفوذهم في بحر إيجه^(٣٤). وظلت الثورة متأججة خلال حكم بطلميوس الخامس حيث استطاع الملك البطلمي قمع الثورة وإعدام الثوار^(٣٥). ومع ذلك لجأ الملك إلى التهدأة وأصدر قرارين، الأول تضمن إعفاءات من الضرائب وتنازل عن متأخراتها والعفو عن الثوار والمسجونين. وتضمن الثاني منحا سخية وإعفاءات للمعابد والكهنة^(٣٦). إلا أن الثورة لم يتم القضاء عليها في الصعيد إلا في عام ١٨٦ ق.م عندما تم أسر عنخماخيس، وتم القضاء على الثورة في الدلتا عام ١٨٤ ق.م. وانتقم بطلميوس من الثوار^(٣٧).

توفي بطلميوس الخامس شاباً ليخلفه ابنه الطفل بطلميوس السادس. عانت مصر خلال حكمه النزاع الأسرى وفساد البلاط والتدخل الأجنبي الروماني والمشاكل الاقتصادية، فنشبت الثورات القومية المصرية، عندما اغتتم الزعيم المصري ديونسيوس بيتوسيرايبس فرصة النزاع الأسرى البطلمي للتخلص من الحكم البطلمي، فأشعل ثورة في الإسكندرية، وعندما فشلت فر إلى مصر وأشعل الثورة بها^(٣٨). وقد اشتعلت الثورة في منطقة طيبة حتى استطاع الملك القضاء عليها^(٣٩). ويحتمل أن الثوار المصريين قد لاقوا دعماً من النوبيين لأن بطلميوس السادس اهتم بحماية الحدود الجنوبية^(٤٠). ورغم أن بطلميوس السادس

قد أصدر عفواً في عام ١٦٣ ق.م. عن كل المشاركين في الثورة إذا ما ألقوا السلاح^(٤١)، ومع ذلك لم تهدأ الأمور تماماً، فعلى حين انصرف المصريون عن المقاومة الإيجابية بالثورة المسلحة استمرت المقاومة السلبية متمثلة في أعمال الإضرابات والصوصية^(٤٢). واتهم كثير من مزارعي الملك حوالى عام ١٥٧ ق.م. بالسلب والنهب^(٤٣).

أما بطليموس الثامن فقد بدأ عهده بإصدار قرار عفو عام ١٤٥ ق.م.^(٤٤) ومع ذلك لم تستقر الأمور ولجأ الفلاحون إلى الهروب من أراضيهم وقاموا بأعمال السلب والنهب^(٤٥).

أدى انقسام أسرة البطالمة إلى هروب بطليموس الثامن من مصر عام ١٣١ ق.م. ولم يعد إليها إلى في عام ١٢٧ ق.م.^(٤٦) وفي أثناء غيابه عمت الثورة القومية والفوضى البلاد^(٤٧)، وارتكبت الفظائع^(٤٨)، وانقسم المصريون إلى مؤيد للثورة أو معارض لها^(٤٩). وعلى ما يبدو أنه كان هناك فريق من المصريين يؤيد بطليموس الثامن فعلى ما يبدو أن قائد جيش بطليموس الثامن المدعو باوس كان مصرياً^(٥٠).

لم تخمد الثورة المصرية بعودة الملك عام ١٢٧ ق.م. وصلحه مع أخته كليوباترا الثانية، وإنما ظلت بعض المدن نائرة فأرسل الملك إليها حملات عسكرية^(٥١). ثم لجأ الملك إلى إصدار سلسلة من قرارات العفو عام ١١٨ ق.م. لمعالجة أسباب الثورة^(٥٢). حاول فيها استرضاء الكهنة، قادة الثورة، فمنحهم حق إدارة أرض المعابد وأعفاهم من الضرائب ومنح المعابد حق حماية اللاجئين^(٥٣). وإرضاء لجمهور المصريين، وقود الثورة، حظر سجنهم أو بيع مواشيهم لقاء الدين وإعفاءهم من إسكان الجنود في منازلهم^(٥٤). ومع ذلك لم تخمد الثورة طالما ظلت الأسباب التي أدت إلى ثورة المصريين منذ عصر البطالمة الأوائل، فعلى سبيل المثال نشبت ثورة في إحدى قرى الفيوم بسبب ظلم الموظفين^(٥٥). وثارت الاضطرابات في طيبة^(٥٦) ولم يستطع بطليموس التاسع القضاء عليها إلا بعد ثلاث سنوات وبعد أن دمر طيبة تدميراً شديداً^(٥٧). وظلت الثورة مشتتة في أرجاء مصر المختلفة^(٥٨).

يبدو أن المصريين قد أعرضوا خلال عهد الزمار وأولاده عن المقاومة الإيجابية بالثورات المسلحة، ولجأوا إلى المقاومة السلبية المتمثلة في هجرانهم العمل وبالتالي تدهورت الحياة الاقتصادية. ولكن يجب ألا ننساق وراء بعض

الآراء التي ترجع هدوء المصريين في عهد كليوباترا إلى أن تلك الملكة استطاعت اكتساب محبة المصريين^(٥٩). إلا إننا نرى أن السبب الحقيقي لذلك هو تعب المصريين من الثورة، وما جرته عليهم من خراب ودمار دونما التوصل إلى نتائج حاسمة.

أما فيما يتعلق بالثورات القومية في العصر الروماني فيجب الإشارة إلى أن مصر لم تسقط في حوزة الرومان بين يوم وليلة. إذ أن علاقات دبلوماسية بين مصر البطلمية والجمهورية الرومانية، تعود إلى عهد بطلميوس الثاني فيلادلفوس عام ٢٧٣ ق.م^(٦٠). إلا أن التدخل الروماني في مصر أخذ في الازدياد منذ عهد بطلميوس الخامس عندما نصب الرومان أنفسهم قضاة وحكاما بين ملوك العالم الهلنستى، ووضح التدخل الروماني في شئون دولة البطالمة أكثر في عهد بطلميوس السادس، عندما غزا أنطيوخوس الرابع السلوقي مصر مرتين ١٧٠، ١٦٨ ق.م.، وقد انسحب الملك السلوقي من مصر ليس خوفاً من جيوش البطالمة، إنما بسبب دائرة جايوس بوبيليوس لايناس عضو مجلس الشيوخ الروماني الذي رسمها حول الملك السلوقي وطلب منه الموافقة على الانسحاب من مصر قبل خروجه من الدائرة، وكان معنى استجابة الملك السلوقي لطلب الرومان أن نصبت روما من نفسها حامية لعرش البطالمة^(٦١). وليس أدل على مدى دفء العلاقة بين روما ودولة البطالمة وتدخل الرومان في شئون مصر من تلك العلاقة الحميمة التي نشأت بين كليوباترا السابعة واثنتين من كبار قادة الرومان هما يوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس^(٦٢). وطالما لم يكن أوكتافيوس من عينة سابقه فإن كليوباترا لم تستطع السيطرة عليه وبالتالي انتحرت، وأعلنها أوكتافيوس مدوية "لقد أضفت مصر إلى سلطان الشعب الروماني" *"Aegyptum imperio populi Romeni Adicie"*^(٦٣) وغدت مصر ولاية رومانية *Provincia*^(٦٤).

حافظ الرومان على أغلب النظم التي كانت سائدة في مصر البطلمية وتخدم أغراضهم إذ كان معلوماً عن الرومان المحافظة على الأوضاع التي كانت سائدة لدى المجتمعات التي خضعت لهم. وقد أبقى الرومان على تقسيم البطالمة لمصر إلى قسمين، الإسكندرية وبقية مصر^(٦٥). وبالتالي صار حاكم مصر الروماني يوصف بأنه حاكم الإسكندرية ومصر *Praefectus Alexandriae et Aegypti*^(٦٦). وقد ظلت الإسكندرية أيضاً في العصر الروماني مدينة يونانية تضم خليطاً من سكان عالم البحر المتوسط يغلب عليهم العنصر اليوناني إضافة

إلى بعض المصريين^(٦٧).

ومن المعروف أن السكندريين لم يسلسوا القياد لملوكهم البطالمة وبالتالي لم يكن متوقعا أن يسلسوه للحكم الرومانى الذى حل بساحتهم فى عام ٣٠ ق.م. وقد توافر للسكندريين منذ البداية الثورة ضد الحكم الرومانى. إذ إن الرومان لم يكتفوا بما حصلوا عليه من كرامة وثروات ملوكهم البطالمة الأواخر بل أنهم طمعوا فى الغنيمة كلها وضموا مصر إلى أملاك الرومان، وحرموا السكندريين من استقلالهم وملوكهم وثروتهم لصالح روما محدثة النعمة وإمبراطورها المتعطرس وشعبها الغوغائى. ولاشك أن أوكتافىوس عندما فتح مصر كان يعلم أن السكندريين شعب ميال إلى الشغب يثور لأتفه الأسباب، ولذا فقد وضع فى المعسكر الكبير الذى أقامه فى نيكوبوليس فرقة رومانية، هى الفرقة الثانية والعشرون التى عرفت باسم فرقة ديوطاروس Legio XXII Deiotariana ليس هذا وحسب بل أن الرومان على حين سمحوا لليهود الدخلاء على الإسكندرية بإقامة مجلس للشيوخ Gerosia فأنهم حرموا السكندريين من إقامة مجلس للشورى Boule^(٦٨). وبالتالي انصب حقد السكندريين على كل من الرومان وصنائعهم اليهود، وطالما أن الحامية الرومانية قوية وموجودة فى الإسكندرية ومصر، فإن أسلوب مقاومة السكندريين للرومان أنفسهم لم يتعد النوع السلبي من المقاومة، فلم تصل إلى المقاومة المسلحة. وتبين من أعمال السكندريين Acta Aelxandrinorum أو التى عرفت أيضاً بأعمال الشهداء الوثنيين، مدى ما كانت تكنه صدور السكندريين من حقد على الرومان وصنائعهم اليهود^(٦٩).

وطالما أن اليهود كانوا الجبهة الأضعف فإن السكندريين نفسوا عن حقدهم على الرومان تجاه اليهود، إذ كانوا ينتهزون أية فرصة للتحرش باليهود. وكثرت الصدامات بين السكندريين واليهود تلك التى كانت مزيجاً من التعصب العنصرى والسياسى^(٧٠).

لم يتأخر الصدام بين السكندريين واليهود، وتكرر مثل الصدام الذى حدث عام ٣٨م بمناسبة زيارة أجريبا هيروديس اليهودى ملك أيتوريا فى فلسطين وصديق الإمبراطور جايوس كاليجولا إلى الإسكندرية وما ترتب على ذلك من أضرار جسيمة حاقت باليهود^(٧١). إلا أن اليهود انتقموا لأنفسهم أثناء ثورتهم الكبرى (١١٣-١١٧م) والتى اشتعلت فى برقة ومنها انتقلت إلى قبرص ثم مصر، وذاقت مصر بسببها الأمرين من جراء اتباع اليهود سياسة الأرض المحروقة، والغريب أن تلك الثورة لم تمتد إلى الإسكندرية، إذ أن الثوار لم

يستطيعوا دخولها لنجدة بنى جلدتهم الذين نالهم أصناف العذاب على أيدي
السكندريين، وغيض الرومان الطرف عن ذلك نكاية في الثوار اليهود^(٧٢). كذلك
اتبع السكندريون أسلوباً آخر في نضالهم ضد الرومان، ونعنى به تأييد أي مدع
للعرش الروماني ليس حياً فيه إنما نكاية في الإمبراطور الجالس على العرش،
وربما تشجيعاً للثورة والتمرد والحروب الأهلية الرومانية التي ربما تخلصهم من
الحكم الروماني. فقد التفت السكندريون حول جرمانيكوس عندما زار مصر، ولا
يبعد أن بعض إشاراتهم كانت تشجعه على العصيان على عمه الإمبراطور
تيبيريوس^(٧٣). كذلك أيدوا فسبسيان في سعيه لتولى عرش الإمبراطورية عام
٦٩م، ولم يضع فسبسيان الفرصة قدماً إلى الإسكندرية حيث هتف به أهلها
إمبراطوراً، ومنحوه ما يحتاجه من وجهة ونفوذ^(٧٤). وبالفعل تولى فسبسيان
عرش الإمبراطورية^(٧٥).

كذلك أيدت أو حتى حرضت الإسكندرية الجنرال أفيدوس كاسيوس، قائد
الحامية الرومانية في سوريا، والذي قضى على ثورة الرعاة في الدلتا، على
إعلان نفسه إمبراطوراً عندما وصلته أنباء كاذبة عن موت الإمبراطور
ماركوس أوريليوس، فهتفت به إمبراطوراً، إلا أن أفيدوس كاسيوس لم يفلح في
الجلوس على عرش الإمبراطورية ومع ذلك عفا الإمبراطور الفيلسوف ماركوس
أوريليوس عن السكندريين.

لم يتوقف شغب السكندريين على الرومان عندما سلف ذكره، بل إنهم
برعوا في لمز حكامهم سواء البطالمة أو الأباطرة الرومان ونعتوهم بأوصاف
جارحة، فعلى سبيل المثال وصفوا البطالمة بأوصاف تهكمية، مثل بطلميوس
الثامن الذي نعتوه بالسمين Phoskon والشريـر Kekrogetes^(٧٦). كذلك وصفوا
زوجته كليوباترا الثالثة بلقب الحميراء Kokke^(٧٧). بل وأطلقوا على ابنه
بطلميوس التاسع لقب حمص Lathoros^(٧٨). أما بطلميوس الثاني عشر الذي
اشتهر بحبه للعزف على القيثارة، فقد وصفوه تهكماً بالزمارة auletes^(٧٩). وإذا
كانت تلك هي حالهم مع ملوكهم اليونان فلاشك أن ألسنتهم لم تغف تلك المرة
من لمز الأباطرة الرومان في إطار المقاومة السلبية، فبعد أن هتفوا بفسبسيان
إمبراطوراً وتولى العرش من الإسكندرية توقع منه السكندريون الكثير، إلا أنه
خيب ظنهم بفرض ضرائب جديدة وإحياء أخرى ملغاة، وعندئذ سألته
السكندريون بالسنة حداد شداد، ووصفوه بتاجر الأسماك المملحة Kubiosakty's
وغير ذلك من ألقاب السخرية، واستشاط فاسبسيان غضباً، وأخضعهم لضريبة

الرأس امتهاناً لهم، إلا أن ابنه تيتوس توسط لهم عنده فصّح عنهم وأعفاهم منها^(٨٠). ومع ذلك تعالت أصوات السكندريين "إننا نصفح عنه فهو لا يعرف كيف يتصرف تصرف الأباطرة"^(٨١). كذلك حمل الأدب السكندري المعروف بأدب الشهداء الوثنيين، كثيراً من الصفات اللاذعة للأباطرة الرومان ولم ينج سوى عدد قليل من أباطرة القرنين الأول والثاني من تشهير^(٨٢). فعلى سبيل المثال وصف الإمبراطور كلوديوس بأنه ابن لقيط لسالومي اليهودية وأنه مجنون^(٨٣). ووصف الإمبراطور كومودوس بأنه طاغية وأنه به نقائص مثل الطغيان والغدر والغلظة^(٨٤).

عندما زار الإمبراطور كاركلا الإسكندرية عام ٢١٥م، جرب معه السكندريون السخرية من الأباطرة، إلا أن كاركلا عصبى المزاج لم يرق له ذلك، وبالتالي عندما سخرُوا منه لتشبهه بالإسكندر الأكبر، وذكروه أنه قاتل أخيه جيتا أمر بالقبض على وجهائهم وأعدمهم، وأباح الإسكندرية ثلاثة أيام لجنوده مما أدى إلى تخريب المدينة^(٨٥).

أما بقية مصر chora فقد سكنها العنصر الوطني المصري بالإضافة إلى سكان المدن اليونانية الثلاث نقراطيس وبظلمية وأنطينوبوليس التي أنشأها الإمبراطور هادريانوس^(٨٦). إضافة إلى الجاليات اليونانية في عواصم المدن ويونان الريف، وكان الصنف الأخير من اليونان يعاملون معاملة المصريين^(٨٧). قبح المصريون، في أدنى الهرم السكاني في مصر الرومانية على الأقل اجتماعياً واقتصادياً. فلم يكن لحامل الجنسية المصرية أية امتيازات تذكر، إنما جلبت على حاملها شتى المغارم على اختلاف أنواعها، بداية من ضريبة الرأس المهينة وانتهاءً بكل ما يخطر أولاً يخطر على بال من ضرائب فرضت على كل ذى دخل، إضافة إلى الخدمات الإلزامية، سواء سخرة في العمل الزراعي بحفر قنوات الري وإصلاح الجسور والسدود، إضافة إلى الوظائف والمهام الإلزامية والشرفية، يضاف إلى ذلك ضياع الكرامة الوطنية المصرية، بسبب خضوع مصر والمصريين لحاكم أجنبي، تجبى إليه ثمرة كدهم، وليته من جنس المصريين ولا حتى يقيم بين ظهرانيهم مثل ملوك البطالمة، إنما كان خير مصر وجهود المصريين موجهة لرفاهية روما وأباطرتها^(٨٨). وبالتالي تهيأت الظروف لاندلاع ثورات المصريين بشقيها الإيجابي والسلبي.

لم تتأخر ثورة المصريين على الحكم الروماني كثيراً، فلم يكد يمضى عام على الفتح الروماني لمصر حتى هبت منطقة طيبة ثائرة في وجه الرومان، إما

بسبب تعسف جباة الضرائب الرومان المعروفين بكفائتهم المالية، أو محاولتهم فرض ضرائب جديدة لم يألفها المصريون من حكامهم البطالمة، خاصة الأواخر منهم الذين أفرطوا في منح المصريين إعفاءات ضريبية، أو حتى لمجرد الثورة في وجه حكامهم الجدد تجريباً لحظهم كما حاولوا مع البطالمة من قبل. وقد بلغ من خطورة تلك الثورة أن كورنيليوس جالوس أول حكام الرومان اضطر إلى أن يقود القوات الرومانية بنفسه ويزحف جنوباً لقمعها^(٨٩). ووردت معلومات أكثر تفصيلاً عن تلك الثورة في نصب أرساه الحاكم كورنيليوس جالوس تم العثور عليه في جزيرة فيلاي إلى جنوبي مصر، وهو مكتوب بلغات ثلاث المصرية واللاتينية واليونانية، ويحمل النص الهيروغليفي تاريخ ٢٠ برمودة من السنة الأولى من حكم قيصر (أوكتافيوس)^(٩٠)، وافتخر الحاكم بنفسه قائلاً "أنه قاهر طيبة في ١٥ يوماً، هزم خلالها العدو مرتين في معركة عامة. واستولى عنوة على خمس مدن هي بوسيرديس (غير معروفة) وكتبوس (فقدل) وكيراميكي (البلات) وديوسبوليس ميجالي (طيبة) وأفيون (الكرنك). وأسرى زعماء تلك الثورات. وقاد الجيش إلى ما وراء شلال النيل، وهو مكان لم تبلغه من قبل قوات الشعب الروماني أو ملوك مصر وأخضع طيبة، مصدر الذعر لجميع الملوك"^(٩١).

لم تقتصر الثورات المصرية في بداية العصر الروماني على طيبة، بل قامت ثورة أخرى شرقى الدلتا وبالتالي قاد كورنيليوس جالوس جزءاً من قواته حيث هاجم الثوار في هيرونوبوليس (تل المسخوطة) وقضى عليهم^(٩٢).

هكذا بدأ المصريون يجربون حظهم مع الحكام الرومان الجدد، فأعلنوا ثورتهم في طرف قصى بعيداً عن الإسكندرية حيث يتركز الحكم الروماني، اختاروا منطقة طيبة في أقصى الجنوب حيث معقل القومية المصرية، والتي كثيراً ما تارت على البطالمة بزعامة كهنة آمون^(٩٣)، ولذلك لا عجب أن سبقت غيرها من المدن المصرية إلى شق عصا الطاعة في وجه الغزاة الجدد^(٩٤). كذلك اندلعت الثورة في أقصى شمال شرقى الدلتا إلا أن انتباه الحاكم الروماني وكفاءة القوات الرومانية أدى إلى وأد الثورات قبل استفحاليها وانتشارها إلى أرجاء مصر. كذلك تعمد الحاكم الروماني كورنيليوس جالوس قيادة جيشه إلى ما بعد شلال النيل (الشلال الأول) وعلى ما يبدو أن الحاكم الروماني لم يكن يقصد من خلال ذلك إخضاع النوبة، لأن ذلك خارج إمكانياته خاصة وأن سياسة الإمبراطور أغسطس في الجنوب كانت تقتضى تأمين الحدود الجنوبية وعدم

التوسع والاكتفاء بمناطق حرام تعترف بالسيادة الإسمية الرومانية متاخمة لحدود الإمبراطورية، تجنباً للنزاع مع الدول القريبة منها^(٩٥).

ولاشك في أن الرومان والبطالمة قبلهم توخوا في سياستهم تجاه النوبة عدة أمور أهمها وقف غارات النوبيين على حدود مصر الجنوبية وتهديد الأمن، مما كان يعود بالضرر على مقومات الإنتاج، وثانيها قطع الصلات بين النوبة التي ظلت محافظة على تقاليد الحضارية والدينية الفرعونية، وبين جنوبي مصر خاصة طيبة، لأجل منع تحريض النوبيين للمصريين على الثورة. ومع ذلك فإن النوبيين لم يلتزموا بالصلح الذي عقده الحاكم الروماني كورنيليوس جالوس مع ملكهم تريتيكاس وانهزوا فرصة غياب الحاكم الثاني أيلوس جالوس بقسم كبير من الحامية الرومانية في الحملة على بلاد العرب، وأغاروا على جنوبي مصر بقيادة ملكتهم كنداكي، فخربوا فيله وألفانتين وأسوان وحملوا تماثيل أغسطس وأسروا الأهالي، مما اضطر بترونيوس ثالث الولاة الرومان إلى قيادة حملة لتأديب النوبيين وطاردتهم حتى بسلكيس (الدكة) ثم بريموس (حصن أبريم)، ثم وصل إلى نباتا عند جبل بركل قرب الشلال الرابع وعندها تفاوض مع الملكة كنداكي واشترط أن تعيد الأسرى والتماثيل وبعدها انسحب إلى بريموس وحصنها وأقام بها حامية، إلا أن النوبيين استخفوا بحامية الرومان في بريموس، فعاد بترونيوس وهاجمهم مرة أخرى وهزم النوبيين، وعندما أرسلت كنداكي سفارة تطلب الصلح حولها بترونيوس لمقابلة الإمبراطور أغسطس الذي كان يقضى الشتاء في جزيرة ساموس، حيث تم عقد الصلح وبالتالي هدأت الحدود الجنوبية^(٩٦).

والحق يقال إن مصر لم تعدم إبان العصر الروماني فترات انتعاش اقتصادي واستتباب أمن مما حدا بالمصريين إلى الهدوء وعدم الثورة : فقد بلغ من هدوء الأوضاع في مصر أن قام الإمبراطور تيبيريوس بسحب إحدى الفرق العسكرية الثلاث التي كانت مرابطة في مصر^(٩٧). وعلى ما يبدو أن الإمبراطور قد اشتهر بالحزم مع الموظفين فحرص على إنصاف رعيته درءاً لحدوث اضطرابات، فعلى سبيل المثال عندما أرسل إليه الحاكم الروماني أيميلوس ركتوس مقداراً من الغلال أكبر من المفروض جزية على مصر أرسل إليه الإمبراطور يذكره بأنه أرسله إلى مصر ليجز غنمها لا أن يسلمها^(٩٨). ويبدو أنه لأجل إنصاف رعيته تم في عهده استبدال نظام جباية الضرائب على يد محصلين حكوميين بنظام الالتزام المرهق. ومع ذلك فإن عهد تيبيريوس شهد

بداية العمل بنظام الخدمات الإلزامية مما أوقع بمصر أوخم العواقب فيما بعد^(٩٩). ومع ذلك لم يخلو عهد تيبيريوس من نذر الثورة، إذ تشير بعض الوثائق إلى أن الحاكم الروماني أفيليوس فلاكوس قد أصدر منشوراً في عام ٣٥/٣٤م حرم فيه على الأهالي حمل أو حيازة أسلحة وهدد فيه المخالفين بالإعدام^(١٠٠). ولتفسير دواعي إصدار هذا القرار يرى الكاتب اليهودي فيلون أن فلاكوس كان متحاملًا على اليهود، وأنه أمر بتفتيش منازلهم ومصادرة الأسلحة المخبأة بها إلا أنه لم يعثر فيها على شيء، بينما بعد فترة عثر على أكداش منها مخبأة في بيوت المصريين^(١٠١). ويتبين من إحدى الوثائق^(١٠٢)، أن فلاكوس قام بجولة في مصر حتى وصل طيبة في ٩ أغسطس عام ٣٣م وراعه كمية الأسلحة التي كان يحوزها الأهالي، وبالتالي عندما عاد إلى الإسكندرية - أصدر هذا المنشور عام ٣٥/٣٤م. ويتهم فيلون اليهودي المصريين صراحة "الذين كثيراً ما ثاروا على السلطات التي ارتابت في أنهم يدبرون ثورة جديدة"^(١٠٣). ويرى أحد الباحثين أن ذلك يبدو محتملاً، إذ أن المصريين بدأوا يضيقون ذرعاً بتعسف السلطات المحلية ووطأة الاحتلال الروماني^(١٠٤)، وصاروا يعدون للثورة، إلا أن فلاكوس عمد إلى إجهاضها بمصادرة أسلحتهم التي لم يستطع المصريون تعويضها على ما يبدو بسهولة بسبب مراقبة الحكومة الدقيقة، ولاشك أنه كان لتلك الإجراءات أثر في مجريات الأمور بتخلي المصريين مؤقتاً عن ثوراتهم.

شهد عهد الإمبراطور كاليجولا اندلاع الاضطرابات بين السكندريين واليهود بمناسبة زيارة أجريبا هيروديس اليهودي ملك أيتوريا في فلسطين للإسكندرية وما صاحبها من اضطهاد حل باليهود على يد السكندريين غض الوالى إيميلْيوس فلاكوس الطرف عنه، ربما إرضاء للإمبراطور الذى رفض اليهود قبول فكرة ألوهيته التى قبل السكندريون الوثنيون بها، فأخذ الإمبراطور جانبهم وانتهى الأمر بإرسال سفارتين واحدة سكندرية والثانية يهودية إلى روما لمقابلة الإمبراطور الذى بدأ أنه عازم على التكييل باليهود الذين لم ينقذهم من بطشه سوى اغتياله عام ٤١م^(١٠٥).

أما الإمبراطور كلوديوس (٤١-٥٤م) فقد انتهج سياسة أكثر تسامحاً تجاه اليهود فأصدر منشورين، أقر فى الأول حقوق اليهود فى الإسكندرية التى كانوا يتمتعون بها فى عهد كاليجولا. ومنح فى الثانى الحقوق نفسها لجالياتهم فى جميع أنحاء الإمبراطورية^(١٠٦). وبالتالي حاول اليهود رد الصاع للسكندريين فى ظل حكم إمبراطور يحذب عليهم وبالفعل حدثت اضطرابات وردت الإشارة

إليها^(١٠٧). وعندما هدأت الأمور أرسل اليهود والسكندريون سفارتين إلى الإمبراطور وكان أهم مطلبين هما طلب اليهود بحقوق المواطنة الكاملة في الإسكندرية مما كان سيهيأ لهم الحصول على المواطنة الرومانية، أما مطلب السكندريين فكان إنشاء مجلس شورى Boule لمدينتهم^(١٠٨).

وتجلت عبقرية الإمبراطور كلوديوس الدبلوماسية من رده على الطرفين فلم يلب طلب أي من الطرفين بل أنه أنذر كل من يرتكب أعمالاً عدوانية بأوخم العواقب، ومنى من يخلد إلى الهدوء بالنظر في طلبه بعين الجد^(١٠٩). وهكذا يبدو مما سلف أن السكندريين وحدهم الذين أثاروا الاضطرابات في عهدى كاليجولا وكلوديوس، ولا نسمع شيئاً عن نضال المصريين خلال تلك الفترة. ولاشك في أن مهاجمة السكندريين لليهود تندرج في باب نضالهم ضد الرومان، إذ أن اليهود كانوا صنائع الرومان وأنصارهم عند غزو الرومان لمصر، بل أن اليهود طمعوا في الحصول على امتيازات كثيرة في الإسكندرية في ظل حكم الرومان لم تكن لهم من قبل، وبالتالي صب السكندريون جام غضبهم على اليهود تفتيشاً عما يعتمل في صدورهم من حقد على الحكم الروماني، إذ أن مهاجمة اليهود أسلم عاقبة من مهاجمة الرومان أنفسهم، وبالتالي تحولت الكراهية العنصرية لليهود إلى كراهية سياسية أيضاً^(١١٠).

أما عهد نيرون (٥٤-٦٨م) فيتميز بأنه عهد هدوء في مصر، بل إنه اهتم بالإسكندرية، حيث أعاد تنظيم القبائل والأحياء بها^(١١١). بل إن المؤرخين القدامى يخبروننا بأنه عندما غربت شمس نيرون في روما وتخلي عنه الجيش وأحاطت به الأخطار فكر في الفرار إلى مصر، أو حتى مناشدة الشعب الروماني تعيينه حاكماً عليها^(١١٢). وعلى حين كانت سمعة نيرون في روما سيئة فإنه حظي بسمعة طيبة في مصر فقد وصفه المصريون في بردية بمناسبة عيد جلوسه على العرش بأنه "روح العالم الطيب، والإمبراطور المرتقب من الدنيا وأمل الدنيا ومصدر كل البركات، ولذا يجب أن نرتدى نحن سكان أوكسيرونخوس (البهنسا)، الأكاليل ونحصر الثيران لجميع الآلهة عرفاناً بجميلها"^(١١٣). ويصفه نقش يعود إلى منطقة الجيزة بأنه روح العالم الطيب^(١١٤). ووصفته بعض مسكوكات الإسكندرية التي تحمل صورته بأنه منقذ المعمورة^(١١٥). وطالما أن نيرون قد حظي بسمعة طيبة لدى كل من المصريين والسكندريين على حد سواء فاننا نجد عهده هادئاً يكاد لا يبدي أثراً لثورة اللهم إلا اندلاع ثورة اليهود في فلسطين عام ٦٦م تلك الثورة التي امتدت إلى

الإسكندرية ولم يكن منها اليهود سوى الخراب وتدمير معبدهم الكبير فى
أورشليم على يد تيتوس عام ٧٠م^(١١٦).

لاشك أن نيرون لم يحظ وحده من بين الأباطرة الرومان بالسمعة الطيبة فى
مصر، ولم يكن الوحيد كذلك الذى لم يشهد عهده ثورات قومية. فقد عرف
الإمبراطور تراجان كذلك بعدله حتى أنه أعاد إلى مصر أسطولاً محملاً بالقمح
لتخفيف آثار المجاعة التى ترتبت ' ' فاض فيضان النيل^(١١٧). ويبدو أن تلك
الأعمال الخيرة لبعض الأباطرة قد^{٥٢} — وعاء من الولاء لدى المصريين تجاه
شخص هذا الإمبراطور حتى أننا نجد المصريين يشاطرون الرومان التصدى
للثورة اليهودية الكبرى (١١٣-١١٧م) والتى اندلعت من برقة ثم انتقلت إلى
قبرص ثم إلى مصر، وارتكب اليهود خلالها الفظائع متذرعين فى ذلك بتدمير
معبدهم فى أورشليم عام ٧٠م. وفرض ضريبة الدينارين عليهم لصالح معبد
جوبيتر الكابيتولى وإغلاق معبد أونياس فى ليونتوبوليس (تل اليهودية) فى
مصر^(١١٨). وخلال تلك الأحداث بدت الحامية الرومانية فى مصر، والتى تم
سحب إحدى فرقها، غير قادرة على التصدي للثوار اليهود مما اضطرها إلى
التفهم إلى الإسكندرية، وعاث اليهود فساداً فى أرجاء مصر، وإزاء تآزم
الموقف اضطرت السلطات الرومانية إلى تعبئة الفلاحين المصريين على عجل
لمواجهة تداعيات الموقف الخطير. وإن كان الثوار اليهود قد هزموا الفلاحين
المصريين عند إقليم هيرومبوليس فإن مرد ذلك أنه تم تجميع الفلاحين على
وجه السرعة دونما تدريب أو تسليح جيد ودفع بهم إلى المواجهة مع ثوار
مصريين^(١١٩).

نتيجة لخطورة الأوضاع أرسلت السلطات المركزية الرمانية نجدة بقيادة
ماركيوس توربو الذى استطاع بفضل تعاون اليونان والمصريين مع الرومان
القضاء على ثورة اليهود، ومع ذلك ظلت الاشتباكات متفرقة فى أرجاء
مصر^(١٢٠). يبدو أن المصريين وقد أصابهم القدر الأكبر من الدمار على أيدي
السفاحين اليهود ظلوا يتذكرون أحداث تلك الثورة بعد مرورها بوقت كاف، بل
على ما يبدو كانوا فخورين بدورهم فى القضاء عليهم، وبالتالي كانوا يذكرون
الأباطرة الرومان بدورهم فيها، ففى رسالة من أحد مواطنى مدينة
أوكسيرونخوس إلى الإمبراطور سبتيوس سيفروس وابنه دركلا يذكرهما بأن
أهالى مدينته قاتلوا إلى جانب الرومان فى حرب اليهود^(١٢١).

ولأجل تبرير مسألة اشتراك المصريين إلى جانب الرومان فى قتال اليهود،

نحن لسنا من أنصار فكرة أن المصريين قد ألغوا الحكم الرومانى بطول العشرة، أو أن اشتراكهم فى قتال اليهود مع الرومان يدل على تبدل المواقع، وأن المصريين قد تحولوا إلى مدافعين عن الحكم الرومانى المنصف ضد ثورة اليهود الكفرة، كما يبدو من تفسير إحدى البرديات^(١٢٢). بيد أننا نتبين من واقع الحال أن ثورة اليهود الكبرى وإن انتهت فى يوليو/ أغسطس عام ١٧م إلا أنها تركت آثاراً بعيدة المدى فى نفوس السكان جميعاً، وتطلب إخمادها تكاتف جميع طوائف سكان مصر مع السلطات الرومانية، وكان لكل دوافعه فلاشك فى أن السلطات الرومانية كانت بحاجة إلى إعادة الهدوء والاستقرار إلى مصر حفاظاً على مواردها. أما اليونان بصفة عامة فى الإسكندرية أو الريف فلاشك أن موقفهم من اليهود معروف سلفاً، وقد تأثر يونان الريف خاصة كثيراً بثورة اليهود تلك التى كانت تجسداً لسياسة الأرض المحروقة وكانت أعمال اليهود الوحشية موجهة مباشرة إلى اليونان وبالتالي التزم اليونان جانب الرومان منذ البداية. وعندما ساءت الأوضاع اضطر الرومان إلى حشد قوات من الفلاحين المصريين إلا أنهم نالوا الهزيمة مع الرومان واليونان، ويرجح البعض ذلك إلى انعدام الحافز لدى الفلاحين المصريين إلى القتال بحماس إلى جانب سلطة الاحتلال الرومانية، بل إن بعض المصريين قد ساعدوا الثوار اليهود^(١٢٣). ومع ذلك، حقيقة أن المصريين كانوا يضيقون ذرعاً بالحكم الرومانى، إلا أنهم كانوا يكونون كراهية لليهود لا توصف، وبالتالي لا نتوقع أن المصريين نكايه فى الحكم الرومانى يتكاتفون كلية إلى جانب اليهود لإزالة الحكم الرومانى، ومن هنا يجب أن نضع فى الحسبان أن المصريين الذين ساعدوا اليهود كانوا أقلية ناقمة مقهورة، إما من الفلاحين الذين أرهقتهم الضرائب وفروا من مواطنهم anachoresis وانضموا إلى عصابات قطاع الطرق واللصوص، وبالتالي وجدوا فى ثورة اليهود فرصة للتخلص من الحكم الرومانى الظالم، وإما من مزارعى أراضى الدولة الذين فرضت عليهم السلطات الرومانية إيواء الجنود فى منازلهم وتقديم المؤن لهم^(١٢٤).

وفى ما عدا تلك الفئات الناقمة على الرومان لم يكن لدى جمهور المصريين من الدوافع ما تجعلهم يمدون يد العون لليهود فى ثورتهم، بل إن العداوة كانت مستحكمة بين الشعبين منذ أقدم العصور لأسباب دينية وعنصرية، إضافة إلى أن الثوار اليهود قد اتسموا بالحدق الدفين على غيرهم من الأقوام، وبالتالي تشير القرائن إلى أنهم بيتوا النية خلال ثورتهم الكبرى على إبادة الطوائف الأخرى

دون تمييز، وبالتالي تم إزهاق آلاف من الأرواح وتدمير ممتلكات كل من عدا اليهود، وبطبيعة الحال كان المصريون هم الطبقة الإجتماعية الأعرض والأكثر سكاناً والأقل في توافر عوامل الأمن، وبالتالي نالهم القسط الأكبر من انتقام اليهود، وكرد فعل لذلك انضموا إلى جانب الرومان لأجل القضاء على هوجة اليهود. ويبدو أن ذكرى الثورة اليهودية لم تمح من أذهان المصريين، حتى بعد مرور أعوام طويلة على القضاء عليها، فتشير إحدى الوثائق البردية إلى أن أهل أوكسيرونخوس كانوا لا يزالون يحتفلون بذكرى الانتصار على اليهود بعد مرور حوالي ٨٥ عاماً على القضاء على ثورتهم^(١٢٥).

لم يدم الوفاق والتعاون الطارئ طويلاً بين الرومان والمصريين بمناسبة الثورة اليهودية الكبرى، إذ سرعان ما ظهر التباين في وجهات النظر بعد زوال الخطر المشترك وبالتالي عاد كل إلى خندقه السابق، فالرومان هم السلطة الحاكمة المحتلة التي فرضت الضرائب والخدمات الإلزامية، تلك الأعباء التي أرهقت المصريين وبالتالي هيأتهم للثورة، بيد أنها لم تتدلج في عهدى تراجان أو هادريان بسبب جهودهما في وضع الأمور في نصابها، بل إن الجميع شغلوا بالقضاء على الثورة اليهودية مما صرفهم مؤقتاً عن الصدام معاً.

أما الإمبراطور أنطونينوس بيوس (١٣٨-١٦١م) فقد سلك تجاه رعاياه ذلك المسلك الطيب الذي جعله جديراً بحمل لقب التقى Pius وكان عهده خيراً ورفاهية لدى كل المصريين حتى أنهم لقبوه بلقب روح مصر الخيرة، وبالتالي خلد المصريون في عهده إلى الراحة. إلا أنه عكر صفو السلام في عصره نشوب أعمال شغب طائفية في الإسكندرية بين الإسكندريين واليهود سقط خلالها الحاكم الروماني صريعاً، ويحتمل أنه كان لوكيوس موناتيوس فيليكس وقد ألحق بالمدينة خراباً كبيراً، وسبب غضب الإمبراطور الذي اضطر إلى القيام بزيارة عاجلة إلى المدينة لتهدئة الأمور، أقام خلالها الإمبراطور عدة منشآت هامة في الإسكندرية^(١٢٦).

أما الإمبراطور ماركوس أوريليوس فإن رأى المصريين فيه بدا من إحدى البرديات التي تحمل أحد أعمال الشهداء الوثنيين التي تحوى مناظرة بين الإمبراطور كومودوس وأبياتوس مدير معهد التربية في الإسكندرية، فيقول أبياتوس مخاطباً الإمبراطور "أن ماركوس (أوريليوس) المؤله أبالك كان خليقاً بأن يكون إمبراطوراً، تذكر أنه كان في المقام الأول فيلسوفاً وثانياً أنه لم يكن يلهث وراء المال وثالثاً كان محباً للخير"^(١٢٧). إلا أن الغريب أن تتدلج في عهده

أكبر ثورة شهدتها مصر في العصر الروماني في عام ١٧٣/١٧٢م. اندلعت تلك الثورة في أحرش الدلتا ولذا عرفت بثورة المراعي Bucolia، ويصفها بعض الباحثين بأنها ثورة الرعيان أو حتى ثورة الفلاحين^(١٢٨). توافر لتلك الثورة قدر من التنظيم وتزعمها الكاهن المصري أيسيدوروس، مما يشير إلى زيادة نمو الشعور القومي المصري، وانضم إلى جموع الثورة أرتال من الفلاحين المزودين بالأسلحة البدائية، بيد أنه توافر لتلك الثورة مجموعة من العوامل الخارجية التي أدت إلى قوة تلك الثورة وطول مدتها وعجز القوات الرومانية الموجودة في مصر عن القضاء عليها، فقد اجتاح الطاعون الإمبراطورية الرومانية مما أدى إلى موت أعداد غفيرة من السكان وأضعف قبضة السلطة المركزية. واختار الثوار توقيتاً مناسباً يتمثل في قيام الإمبراطور ماركوس أوريليوس بسحب فرقة تراجان الثانية، إحدى فرقتين عسكريتين رومانيتين كانتا متمركزتين في مصر، للمساعدة في الحرب ضد قبائل الماركوماني الجرمانية التي كانت تضغط على حدود الإمبراطورية الرومانية الشمالية عند نهر الدانوب^(١٢٩). كذلك استغل الثوار نقاط الضعف في العسكرية الرومانية مثل لجوئهم إلى حرب العصابات التي لم تألفها القوات العسكرية الرومانية النظامية والتي تعودت على الحروب المكشوفة المنظمة^(١٣٠)، واختاروا مسرح العمليات منطقة أحرش ومستنقعات يصعب فيها تتبع أثر الثوار.

بدأ أيسودوروس وأتباعه ثورتهم على هيئة العصابات، وتذكر بعض الروايات أنه تخفى وبعض أتباعه في زى نساء أقبلن لدفع الضرائب، وقتلوا قائد المائه Centurion الذي كان مسئولاً عن الأمن في المنطقة، ثم أكلوا لحوم القتلى وأقسموا يمين الولاء للثورة حتى النهاية^(١٣١).

عندما حاولت القوات الرومانية القضاء على الثورة لاقت هزيمة فانسحبت إلى الإسكندرية يتبعها الثوار، ولما لم تكن في الإسكندرية - قوات رومانية كافية للدفاع عنها فأنها كادت تسقط في أيديهم^(١٣٢).

إزاء عجزها عن التصدي للثوار طلبت السلطات الرومانية في مصر تعزيزات عسكرية من سوريا، حيث كان يتولى القيادة العسكرية القائد الروماني الشهير أفيدوس كاسيوس وكان من القواد العسكريين الطموحين للحصول على انتصارات تضاف إلى سجله العسكري. وبالتالي ظن أنها ثورة فلاحين سذج يسهل القضاء عليها، وأن قوات الثورة من الفلاحين سوف يتم قهرها عند أول اشتباك، أو أنها سوف تنفض بمجرد ظهور القوات الرومانية، إلا أن أفيدوس

كاسيوس وجد الأمر مختلفاً وأن الثورة في الأحرار والمستتقات يمكن أن تستمر طويلاً، بل قد تنمو وتتوسع إلى مناطق أخرى في مصر، خاصة وأنه تزعمها كاهن له نفوذ روحى على الناس - وبالتالي لجأ أفيدوس كاسيوس إلى الحيلة والوقية بين صفوف الثوار وصار يؤلبهم على بعض، وبالفعل نجحت خطته وقاتل الثوار بعضهم بعضاً وتصيدهم منفردين وبالتالي استطاع أفيدوس كاسيوس القضاء على تلك الثورة التي هددت بالفعل الوجود الرومانى فى مصر لأول مرة تهديداً حقيقياً^(١٣٣). يبدو أن انتصار أفيدوس كاسيوس على الثورة فى مصر قد ملأه غروراً ، وبالتالي عندما وصلته أنباء كاذبة عن وفاة الإمبراطور ماركوس أوريليوس تشجع وأعلن نفسه إمبراطوراً، والغريب أن تؤيده مصر أو على الأقل الإسكندرية بطبيعة الحال نكاية فى السلطة المركزية الرومانية لاجباً فيه، تلك المحاولة الانقلابية التى باءت بالفشل^(١٣٤). ومع ذلك كانت ثورة الرعاة فى الدلتا آخر ما يستحق الذكر من الثورات القومية بشكلها الإيجابى على الحكم الرومانى فيما تبقى من فترة الدراسة.

أما فيما يتعلق بالمقاومة السلبية لدى المصريين ضد الحكم الرومانى فقد تنوعت مجالاتها:

أولاً : الدعاية السياسية : عبر المصريون عن كراهيتهم للحكم الرومانى بالقلم كما عبروا بالسيف، وعلى حين ظهرت أعمال الشهداء الوثنيين لدى السكندريين فى إطار الدعاية السياسية ضد الحكم الرومانى، صار لدى المصريين كتابات خاصة بهم تناوئ الحكم الرومانى أيضاً، اتخذت طابع النبوءات الكهنوتية تلك التى كتبت باللغة اليونانية أيضاً حتى يقرأها أكبر عدد من الناس^(١٣٥). وتتبأت تلك الكتابات بالسقوط الوشيك للحكام الطغاة الفاسقين، وتبشر ببداية عصر ذهبى جديد ينعم فيه المصريون بالسعادة بعد تخلصهم من القهر. وأطول جذاة بردية وصلت إلينا من هذه النوع تحمل عنوان "نبوءة الفخرانى" تلك النبوءة التى أرجعت إلى العصر الفرعونى، وفى إحدى أكمل تلك الجذازات البردية، يقول صانع الفخار "بالنسبة لغير الأتقياء، فإن ملكاً من سوريا سوف يتغلب عليهم.. وسوف يجافيهم الحظ السعيد. ويذل أقاربهم وستعم أرضهم الفوضى حتى لا يبقى منها إلا مجرد أثر.... وسوف تتجه كل الأشياء نحو الغاية نفسها من أجل خدمة الواحد... وسوف يضرب الموت (بعنف) فى المناطق المرتفعة وسوف تهجر مدينة لابسى الأحزمة، والعييد سيتحررون، وسيحرم سادتهم من الحياة. وستفسد بناتهم العذارى، وسيخصى الرجال أزواج

بناتهم ويأتون الفحشاء بأمهاتهم. وسوف يضطرون للتضحية بأبنائهم الذكور وبأنفسهم.... وسوف يهجر الإله الحامي مدينتهم ويتركها خراباً، ويذهب إلى ممفيس حاملة الآلهة. وسيكون ذلك نهاية ألامنا. حين ... مدينة لابسى الأحزمة تصير خاوية كموقدى جزاء ما ارتكبه من أعمال مخالفة للقانون. وسيعود العدل إلى مصر. وستصير المدينة المجاورة للبحر مكاناً للصيادين يجفون فيها صيدهم لأن كتيفيس الأله الحامي سوف يذهب إلى ممفيس حتى يقول المارة "هذه المدينة الجامعة التي يعيش فيها كافة أجناس البشر" وعندئذ سوف تنمو مصر عندما ... موزع الهبات يأتي من الشمس، ويحتل مركزه هناك بفضل الإلهة إيزيس العظمى، لدرجة أن أولئك الذين سيكونون أحياء في ذلك الوقت سيصلون وينهض الأموات ليشاركوا في النعم التي تأتي بعد انتهاء الآلام^(١٣٦).

لم تتوقف مقاومة المصريين السلبية عند حدود الأمانى والنبوءات وتمنى زوال الحكم الرومانى، إنما أجاد المصريون نمطاً آخر من ذلك النوع من المقاومة أكثر فاعلية، ونعنى به الإضراب عن العمل والنزوح من الموطن، وقد امتلأ العصر الرومانى بانتفاضات وإضرابات بطبيعة الحال من جراء ثقل عبء الضرائب أو الانخراط الإجبارى فى الخدمات الإلزامية.

كان يجرى تعداد للسكان كل أربعة عشر عاماً، كان يتم تعديله طبقاً للتغيرات التى تحدث من عام لآخر بمعرفة كاتب المدينة أو القرية، كذلك كان مسح الأرض يقدم البيانات الضرورية لتقدير الضرائب على الأرض ومنتجاتها^(١٣٧). لم تعرف أى من حكومات العالم القديم وربما الحديث نظاماً ضريبياً أعقد من النظام الضريبى الذى كان سائداً فى مصر الرومانية، وتعكس لنا الأعداد الكبيرة من البرديات المكتشفة المتعلقة بالضرائب مجموعة هائلة من الضرائب المباشرة والضرائب الإضافية التى فرضت فى العصر الرومانى على الفرد والأرض والمهن والخدمات والمبيعات والتحويلات وحركة البضائع والناس والملكية العقارية والشخصية^(١٣٨). خليط مذهل من الضرائب الأصلية والإضافية، زاد عددها على المائة ضريبة. كذلك كانت قسوة الموظفين وجامعى الضرائب موضوع شكوى مزمنة فى كل أقاليم الإمبراطورية و ليس فى مصر وحدها. ويبدو أن الناس لم يستشعروا الحكم الرومانى فى البداية إلا من خلال كفاءة التحصيل على عكس القبضة المترخية عند أواخر الحكم البطلمى^(١٣٩).

وجد الرومان عند فتحهم لمصر نظام جمع الضرائب عن طريق الالتزام، أى منح حق جمعها لأعلى متزايد، وبالتالي احتفظوا به دون تغيير لحوالى مائة

سنة الأولى من حكمهم. وقد كان الملتزم يهدف إلى تحقيق ربح كبير لنفسه إضافة إلى جمع الضرائب التي التزم جبايتها، وبالتالي كان يستخدم كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لابتزاز دافعي الضرائب البائسين لتحقيق الثراء السريع، وكان لا يتورع عن استخدام كل ما أوتى من قوة لإرهاب الأهالي وإساءة معاملتهم للحصول على ثمرة كدهم طوال العام حتى غدا حياة الضرائب نموذجاً للجشع وإساءة استخدام السلطة حتى في الأناجيل^(١٤٠). وحتى فيلون اليهودي وصف سوء سلوك جباة الضرائب بشكل مؤثر وأنه لم يكن ينجو من عقابهم الأطفال والنساء أو أقارب دافعي الضرائب الذين كانوا يتأخرون أو يعجزون عن دفعها، وأن كثيراً ممن تأخروا عن دفع الضرائب اضطروا للفرار خوفاً من العقاب الذي لا يحتمل، والذي كان يتتوع من الركل والصفع أو الجبر في الشوارع والتشهير أو حتى القتل، وبالتالي كان يضطر من بقي في القرى إلى الهروب خوفاً من وحشية جباة الضرائب وبالتالي أصبحت قرى بأكملها مهجورة تخلو من سكانها الذين لجأوا إلى أماكن ظنوا أنهم فيها بمأمن من أيدي هؤلاء الوحوش^(١٤١).

وليس أدل على مدى ما كان يحيق بدافعي الضرائب على يد جبايتها من شكوى فلاح تعود إلى عام ١٩٣م جاء فيها "إلى أمونيوس باتيرنوس، قائد مائة، من سيروس بن سيرون الشهير بتبيركاس من العاصمة أرسينوى، أنا وأخى سلمنا في شهر بنونة كل الضرائب التي ندين بها حبوباً، وكذلك تسعة من العشرة أردادب المضافة علينا في قرية كرانيس، والآن بسبب الأردب الباقي، اقتحم جباة ضرائب القمح بيتيسوس بن توكليو وسارابيون بن مارون وكاتبهما بطلميوس فضلاً عن مساعدتهما أمونيوس، منزلي بينما كنت في الحقل، ومزقوا ثوب أمي وألقوا بها على الأرض، ونتيجة لذلك لازمت الفراش وأصبحت عاجزة عن الحركة، ولذا أطلب أن يتم استدعاؤهم أمامك، بحيث أحصل على العدالة على يدك، التوقيع والتاريخ"^(١٤٢). وبالتالي إزاء هذه الأوضاع المتردية المفعمة بالقسوة شاعت الرشوة والفساد^(١٤٣) إذ صار الضعفاء يشترون حماية الأقوياء، وحتى تلك الحيلة لم تكن حلاً جذرياً لانعدام الأمن، وبالتالي لم يعد أمام المقصرين في دفع الضرائب سوى الهروب anachoresis، وكان ذلك يمثل الحل النهائي للفلاح المصري عندما تصبح الظروف غير محتملة، فلم يكن للفلاح المصري ولا يزال عازفاً عن البعد عن موطنه مرتبطاً بأرضه، ومن المعروف أن المعابد المصرية ظلت منذ عهد الفراعنة وحتى العصر البطلمي

تتمتع بحق حماية اللاجئين asulia، ولذا كان الهاربون من الفلاحين لا يبعدون كثيراً عن مواطنهم ، إذ كانوا يفضلون اللجوء إلى حرم أحد المعابد على أمل أن يعودوا إلى منازلهم وأعمالهم ، متى هدأت الأحوال أو صدر قرار للعفو. أما في العصر الروماني فقد ظهرت عدة مستجدات بشأن تلك الظاهرة على سبيل المثال انضمام فئات اجتماعية أخرى، خلا الفلاحين إلى تلك الظاهرة، كذلك فإن الغيبة في هذه المرة صارت أطول وأحياناً تصبح دائمة.

لم تعد طبقة الفلاحين وحدها المتدمرة في العصر الروماني بل إن الحرفيين قد أصابهم التدمير بسبب الأعباء المفرطة من ضرائب وخدمات إلزامية^(١٤٤). ومن جراء حرمان المعابد المصرية من حق حماية اللاجئين في العصر الروماني، إذ لا تشير أية بردية إلى هذا الأمر، وبالتالي لم يعد بإمكان الفارين اللجوء إلى المعبد القريب من وطنهم، بل صاروا يتجهون إما إلى المدن اليونانية في مصر وبخاصة الإسكندرية، وإما الفرار إلى الأماكن النائية والأحراش والمستنقعات. وفي حالة لجوئهم إلى المدن الكبيرة والإسكندرية لم ينعموا بالراحة، إذ أن السلطات المحلية في مصر وحتى الأباطرة، مثل كاركلا، كانوا يصدرون قراراً "بعودة الريفيين الذين فروا إلى الإسكندرية من مناطق أخرى"، وبالتالي لم يجد هؤلاء الذين أغلقت أمامهم أبواب المعابد والمدن اليونانية سوى الانضمام إلى جماعات السطو والجماعات الخارجة عن القانون، الذين شكلوا عبئاً خطيراً على الإدارة الرومانية بخلق جو من عدم الأمن أثر على الإنتاج، وكذلك حرم المجتمع ثمرة كدهم ، بل إنهم سطوا على ثمرة جهد الذين ظلوا في العمل في مواطنهم على حين حرم المجتمع جهودهم^(١٤٥). ومع ذلك لم يغلق باب التوبة بالمرّة أمام الهاربين، إذ أنه في أحيان كثيرة خاصة في أوقات التعداد كانت الحكومة تضطر لإصدار عفو ضريبي كإجراء للفارين على العودة إلى ديارهم، إلا أن آثار تلك القرارات كانت وقتية، ولذا استمرت المشكلة قائمة. فتحمل إحدى الوثائق التي تعود إلى عام ١٥٤م قراراً للحاكم يعلن فيه عفواً لمدة ثلاثة أشهر يسمح خلالها للخارجين على القانون بالعودة إلى بيوتهم دون عقاب، إلا أنه هدد بأن من يتم القبض عليهم بعد ذلك يعاملون معاملة مرتكبي أعمال السطو^(١٤٦). وكان يتم إدراج أسماء الهاربين في قوائم الفارين الذين ليس لديهم ممتلكات، بناءً على بلاغ من ذويهم، وكان موظفو المدينة أو القرية يمدون جباة الضرائب بقوائم بأسماء "الرجال الذين فروا إلى أماكن غير معروفة"^(١٤٧).

أما الخدمات الإلزامية munera فقد عرفها اليونان باسم Leitourgia أي

الخدمة من أجل الشعب، أما الرومان فقد طوروه إلى مفهوم أوسع، فلم تعد الخدمات الإلزامية حكراً على الإغنياء كما عرفها اليونان، بل امتد ليصل إلى أبعد القرى ويشمل كل مستويات السكان، ماعدا من تمتعوا بإعفاءات، مثل المواطنين الرومان والسكندريين وإغريق الحضر والأبطال الرياضيين وأعضاء المهن العلمية وآباء الخمسة أطفال والنساء، وقسم الرومان الأعمال الإلزامية إلى نوعين : العمل اليدوى فى إصلاح الجسور وقنوات الري والسدود، والعمل فى بعض الوظائف ذات النفقات^(١٤٨). وبالتالي كان من الطبيعي أن يخلق عبء الخدمات الإلزامية أيضاً حصته من الفارين، بل إن بعضهم قد فروا بمجرد أن شكوا أنهم سيعينون فى وظائف إلزامية^(١٤٩)، أو حتى تنازل عن ثروته بدلاً من تولى الوظيفة الإلزامية^(١٥٠). ومع أن قرارات العفو كانت تشكل نوعاً من المسكنات المؤقتة لأدواء فتاكة صارت بتوالى الأيام حالة ميثوساً منها، واستمرت الحكومة الرومانية تعاني من مشكلات خلقتها هي، خاصة قلة الأيدي العاملة وتدنى الموارد ونشاط عصابات اللصوص وقطاع الطرق^(١٥١). ومع ذلك لا نتوقع أن كامل المجتمع قد شارك فى عملية الهروب، بل ظلت تعمل وتدفع الضرائب وتحيا!.

وعلى الرغم من طول فترة الدراسة، والتي تمتد إلى ما يزيد على الثلاثة قرون (٣٠٠ق.م - ٢٨٤م)، وتغطي فترة أطول زمنياً من العصر البطلمى (٣٢٣-٣٠٠ق.م) فإننا إذا ما عقدنا مقارنة بين الثورات القومية المصرية، من حيث العدد، والاتساع والخطورة، بين الفترتين البطلمية والرومانية نجد نصيب الأسد للعصر البطلمى، رغم زيادة الأسباب التي كانت تدفع إلى الثورة فى العصر الروماني، وبالتالي لا بد من تحرى الأسباب التي قللت من عدد الثورات المصرية القومية فى العصر الروماني وخطورتها.

ومن خلال استقراء صفحة تاريخ مصر فى العصر الروماني يتبين أن هناك بعض الأسباب التي أدت إلى قلة الثورات المصرية القومية فى ذلك العصر، بطبيعة الحال بعضها يبدو مقبولاً والبعض الآخر تجافيه الحقيقة، ومن ذلك النوع الأخير، أن الازدهار الاقتصادى الذى ترتب على سياسة أغسطس وخلفائه قد انعكس أثره إيجابياً على شتى نواحي الحياة فى مصر وبالتالي صرف المصريين عن القيام بالثورة^(١٥٢). إلا إن واقع الحال يؤكد أن ذلك الرخاء الذى ظهر فى عهد أغسطس، والأباطرة الصالحين لم يمنع من أن تنشب أكبر الثورات المصرية القومية فى عهدهم، أى أن ذلك لم يكن سبباً قوياً لوقف

ثورات المصريين على الرومان (١٥٣) .

لاشك أن كفاءة الإدارة الرومانية في مصر قد أدى إلى حل الكثير من المشكلات التي ترتبت على انهيار الجهاز الحكومي عند أواخر عصر البطالمة وساعد تراخي قبضة البطالمة على زمام الأمور على إذكاء نار الثورة القومية المصرية، إلا أن كفاءة الإدارة الرومانية أبرزت فاعلية الجهاز الحكومي الروماني وبالتالي أغلقت بابا هاماً من أبواب التذمر والثورة.

لا يمكن أن نغفل دور الحامية الرومانية كبيرة العد والعدة، والتي تألفت من ثلاث فرق رومانية Legiones، وعدة كتائب Cohortes، تم توزيعها بعناية على مداخل المناطق الحساسة على طول مصر والإسكندرية لدفع الأخطار الخارجية، وعند ملتقى الوادي والدلتا وقرب المدن الكبيرة لقمع الاضطرابات الداخلية، وبالتالي لاشك في أن وجود جنود محترفين مرابطين مزودين بأحدث الأسلحة في معسكراتهم على مرأى ومسمع من المصريين قد جعلهم يخشون بأسهم أكثر من قوات البطالمة المرتزقة التي عاشت حياة الإقطاعيين في الريف ويتم تجميعهم وقت حدوث خطر خارجي، أما الأخطار الداخلية في كثير من الأحيان في العصر البطلمي فكان يتصدى لها جهاز الشرطة، وبالتالي أحجم المصريون عن الثورة بسبب أو بدون سبب كما كان يحدث في العصر البطلمي (١٥٤). وهذا يبدو سبباً وجيهاً.

أضف إلى ذلك أنه عرف عن المصريين الولاء لآلهتهم وتعلقهم بديانتهم، ولذا كانوا يثورون لأتفه الأسباب المتعلقة بديانتهم، أو إذا ما مستها شبهة عدم احترام، أو إذا ما تجرأت السلطة الأجنبية الحاكمة على تقاليدها الموروثة. أما وقد عرف عن الرومان التسامح الديني مع الأمم التي خضعت لحكمهم، وبالتالي حافظوا، في إطار سياستهم المعروفة بالحفاظ على الأوضاع الراهنة، للمصريين على ديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم وبالتالي لم ينكأوا ذلك الوتر الحساس الذي كثيراً ما تسبب في ثورة المصريين إذا ما تعرض لأي تدخل (١٥٥). ومع ذلك لا يبدو ذلك سبباً كافياً، فقد احترّم البطالمة الديانة المصرية ومع ذلك اندلعت ثوراتهم ضد البطالمة.

عمل الرومان على التفريق بين الآلهة المصرية وبين الكهنة، فعلى حين منحوا الآلهة المصرية، خاصة الربة إيزيس، الاحترام والتقدّيس كافة (١٥٦)، لم يعاملوا كهنة الآلهة المعاملة نفسها، ويرى أحد الباحثين أن تاريخ مصر خلال

الألف سنة الأخيرة قبل الفتح الرومانى يتميز بتأرجح السلطة بين الملوك والكهنة^(١٥٧). لكن بعد ضم مصر إلى حوزة الإمبراطورية الرومانية أقام أغسطس نظاماً للسيطرة على الكهنة أدى بشكل واضح إلى تقليل الثروة الضخمة فى أيدي الكهنة وكبح جماح تأثيرهم السياسى الذى مارسوه أيام الحكم الضعيف للملوك البطالمة الأواخر، فتم الحد من أعدادهم ومعابدهم وملكيّتهم للأرض، وخضعت سجلاتهم الشخصية وحساباتهم المالية لمحاسبات منتظمة قام بها ممثلون عن الخزانة Privy Purse كما حرموا مع التهديد بالعقاب الشديد من الاشتراك فى أى نشاط غير متصل بخدمتهم الدينية. وقد أكد المرسوم الذى أصدره الحاكم جايوس تورانيوس فى العام ٤ ق.م. لتحجيم المؤسسة الكهنوتية "أننى أمر (المعابد) بتسجيل كهنتهم بالوراثة وتلاميذهم وكل من ينتمى للمعابد وأولادهم. (كما أمر) بتوضيح الوظائف التى يقومون بها وحينئذ سأقوم حالاً بعزل أولئك الذين ليسوا من أصل كهنوتى"^(١٥٨). ولم يعد الكهنة يعفون تلقائياً من الضرائب أو أداء الخدمات الإلزامية، وعندما تخلو إحدى الوظائف فى المعبد لعدم وجود من يخلف صاحبها كانت الدولة تقوم ببيعها لمن يعرض ثمناً أعلى^(١٥٩). كذلك تم تجريد المعابد المصرية من حق حماية اللاجئين والذى تصمت عنه وثائق العصر الرومانى كلية مما يفيد إلغائه، ويبدو أن أغسطس هو الذى أوقف العمل بهذا الامتياز للمعابد المصرية^(١٦٠)، كذلك نقلت إدارة أراضي المعابد إلى أيدي بعض موظفى الدولة الذين أصبحوا يتولون تأجيرها بدلاً من الكهنة، وبالتالي أصبح الكهنة يعتمدون على إعانات الدولة، وبالتالي تم نقل إدارة أراضي المعابد لبعض موظفى الدولة الذين يتولون تأجيرها بدلاً من الكهنة، وسيرا على نفس السياسة وضع أغسطس موظفاً رومانياً إدارياً للإشراف على كل ما يتصل بالديانة والمعابد فى مصر كان يلقب بلقب "الكاهن الأعظم للإسكندرية وكل مصر"^(١٦١)، وبالتالي توخى الرومان من تلك الإجراءات عدم تمرد الكهنة أو أن يتحولوا إلى طليعة العمل الوطنى والقومى، كما كانوا فى عصور الفراعنة والبطالمة، وما عدا ثورة الرعاة ١٥٢/١٥٣م لا نسمع عن أية ثورة قادها الكهنة.

ولا ننسى بحال دور الديانة المسيحية التى دخلت مصر مبكراً، إذ يعد القديس مرقس الذى جمع أول أنجيل فى عام ٦٥م، أول آباء كنيسة الإسكندرية^(١٦٢). وإبان القرن الثالث على الأقل كان يوجد اثنان من الأساقفة فى عاصمتين من عواصم المديرىات هما لوكوبوليس وأوكسيرونخوس، وبعدهما

أنطونيوبوليس^(١٦٣). ولاشك في أن ما حملته المسيحية من تعاليم سماوية سامية جذبت انتباه الناس في مصر فاعتنقوها وبالتالي تأثروا بتعاليمها التي تدعو إلى نبذ الدنيا وشروورها وإلى التوجه إلى ملكوت الله، وإلى ضرورة تحمل آثام الدنيا لأجل الفوز بالجنة. وبالتالي عد المصريون الصبر على موبقات الحكم الروماني أحد مسوغات الفوز بالجنة، فانصرفوا عن التعبير عن سخطهم على الرومان إما بالثورة أو السخط. كذلك وفرت المسيحية بالحركة الديرية التي قامت في الصحارى والمناطق النائية ملاذاً آمناً للهاربين من ظلم الحكم الروماني، بدلاً من الانضمام إلى عصابات اللصوص وقطاع الطرق، مما وفر الأمن نوعاً ما^(١٦٤)، وقلل من ثورات المصريين.

وأخيراً فقد تعب المصريون من طول الكفاح الذي دام لأكثر من ستة قرون لأجل تحقيق هدفهم المنشود بطرد الحكام الأجانب بداية من الآشوريين ثم الفرس واليونان وأخيراً الرومان. ولم يعد بإمكانهم مواصلة الكفاح والثورات تلك التي هدفوا من ورائها إلى طرد الحكام الأجانب وإقامة دولتهم الوطنية القومية. وطالما أنهم لم يفوزوا من وراء تلك الثورات إلا بالخراب والدمار، فإنهم خلدوا إلى الراحة، ورضوا بحكم الواقع، وبالتالي كان العصر الروماني خاصة أقل عصور الاحتلال الأجنبي لمصر في عدد الثورات وخطورتها، رغم أنها أطول عصور الاحتلال الأجنبي لمصر وأقساها.

الهوامش

- (١) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق ١٩٧٩، ص ٣١.
- (٢) إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عصر البطالمة، الجزء الرابع ١٩٨١، ص ص ١٠٧-١١٢.
- (٣) نفتالي لويس، مصر الرومانية، ترجمة فوزى مكاري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص ٢٣٣.
- (٤) Tacitus, Ann. II 59; Hist. II 82.
- عبد اللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية، دار النهضة العربية ١٩٨٨، ص ٥٣.
- (٥) A. Gardiner, The Turin Canon of Kings, London, 1952, 1959.
- عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ص ١٨-١٨٦.
- (٦) J. Van Seiers, The Kyksos, 1866
- راجع، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ١٨٨،

- A Gardiner and Gunn., J.E.A.;V., pp.4ff; Gardiner, Late Egyptian (٧)
 Stories, 1932, p.58f; Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 167f;
 - عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ص ١٩١-١٩٢
- E.Wilson, In Ancient Near East Textes, 1955, p.378; D.J. Hogarth, (٨)
 J.E.A.I, 9f; H.Breasted, Ancient Records II, 39; P.Montet, Byblos et
 Egypte, p.35f, pl. XXVIII, 2; Edgerton and Wilson, Historical Records of
 Ramses III, 1936,
 Olmsted, History of Assyria, p.748; Herod-II 157;(٩)
 - عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ص ٢٧٢-٢٧٨
- Diod- XIV, 10, XV, 41-43; Plut, Agesilovs, 23, 3f M. Ponsler La (١٠)
 Première domination Perce en Egypte 1936.
 Diod, XIV, 10, XV, 141-43; Xenophbon, Agesitaus II, 27(١١)
 Arrian, I, 1,2, II, 14, 4; Doid., XVI, 40, 44, 48.(١٢)
- A. Bevan, History of Egypt under ptolemaic dynasty p.1; (١٣)
 Rostovtzeff, Ancient World, I, p.232; I.Bell. Egypt from Alexander to
 Arab Conquest, 1948, p.28.
 Arrina., Anab. III 1,1; C.A.H., VI, p.376.(١٤)
 (١٥) نصحي، مرجع سابق، ج١، ص١٩.
- P. Jouguet, Les Destinées de l'Hellensime dans L'egypte Greco- (١٦)
 Romaine, Chr. D'Eg.1935, pp. 95-96; Rostovtzeff, Social and Economic
 History of Hellenistic world, 3vols 1941, pp.263-65; Bouche-Ledercq,
 Histoire des Lagides, 4 vols Paris 1903-7; IV p.4;
 - نصحي، ج٢، ص ٢٧١، ج٣، ص ٣٧٣
- P.Jouguet, L'Impérialisme macedonien et l'hellenisation de l'orient, (١٧)
 Paris 1926, p.333.
- Rostovtzeff, Soc. And Eco. Hist. Of Hell. World, p.300 Cl.Préaux, (١٨)
 Economic Royal des Lagides, Bruxelles 1939 p.431; cf.P. Revenue
 Laws, Col.. 44-49, 59.
 Wildken, Grunzüge, I, p.III; Rostovtzeff; Op.cit. p.82.(١٩)
- P.Tebt., 5, 11. 65-67; Otto, Priester und Tempel in hellenistischen (٢٠)
 Aegypten, 2 vols, Leipzig-Berlin 1905-8; pp. 211-212; Bevan, op.cit.,
 p.264.
- P.Tebt., 5, 11. 54-84; Rostortzeff, Op.cit., pp. 899-903.(٢١)
 P. Tebt., 5, 11. 25-27; 28-36, 45-72, 85-92, 138-143, 144-146-178-(٢٢)
 187, 235-254.

- Ps. Callsith., I, 32, 10; Rostovtzeff, Op.cit., p.415;(٢٣)
 - نصحي، ج٤، ص ٢٧٩
- Arian, II 1,5; Tarn, W.W. Alexander the great, 1948, p.43, (٢٤)
 D.Hogarth, Alexandria in Egypt, J.E.A. 11 (1915) p.56;
 (٢٥) عن أوضاع اليونان في مصر في عصر البطالمة راجع : نصحي، ج٤، ص
 ص١١٧-١٢٠.
- Rostovtzeff, Op.cit., pp.326, 411, 1644.
- W. Peremans, Ptolemy II Philadelphos et les indégenes égyptiennes; (٢٦)
 Rev. Belg., de Philol. Et d'Hist., XII, 1933, pp. 1005-22; Martin, Les
 Papyri et l'Histoire administration de l'Égypte Greco. Romaine, Münch.
 Beit. XIX (1934) pp.144ff.
- Justin. XVII, 1,9; Hieron, In Dan., XII; Bevan, Op.cit., p.194.(٢٧)
 P.Frank. 7; Rostovtzeff, Op.cit., pp. 707-708; Jouguet, Mac.Imp., (٢٨)
 pp.214-215;
 - نصحي، ج١، ص ص ١٥٤-١٥٧.
- Préaux, Le Economie royale, pp.529-30; P.Gautier-Sottàs, Un decret (٢٩)
 trilingue en l'honneur de ptol. IV 1925; Bevan, Op.cit. p.391.
- Melanges Maspero, II le Caire 1939, pp.119-20; Bevan, Op.cit., (٣٠)
 p.240; Preaux, Chr. D'Eg. 1936, p.525.
- Préaux, Op.cit., p.523; Rostovtzeff, Op.cit., p.710.(٣١)
 Préaux, Op.cit., pp.528-532.(٣٢)
 (٣٣) نصحي، ج٤، ص ١٩٠.
- (٣٤) نفسه، ج٤، ص ص ١٩٠-١٩١.
- Cf. Bevan, Op.cit., pp.265-6.(٣٥)
- Rostovtzeff, Op.cit. p.713; Bevan, Op.cit.,pp.264-265.(٣٦)
 Polyb., XXII, 17,3.(٣٧)
 Doid.XXXI, 159; P.Amh.30= Chrest. n.9.(٣٨)
 Doid., XXXI, 17b.(٣٩)
 Préaux, Chr. d'Eg. 1936, p.542.(٤٠)
 U.P.Z., III.(٤١)
 U.P.Z., 71, 7; 122, 9.(٤٢)
 P.Tebt., 742, 11. 26ff, 23f.(٤٣)
 U.P.Z., 161, Col. 3f; 162, Col. 5, 21; P. Tebt., 699.(٤٤)
 Matrin, Papyri et Histoire adminsitration d'Égypte. Greco-Romaine, (٤٥)
 Münch-Beitr., 19(1934) p.102.

- P.Tebt., 6.(٤٦)
 Rostovtzeff, Op.cit. pp.873-74.(٤٧)
 Doid., XXXIII, 289; Justin, XXXVIII, 8; Bouche-Ledercq, Op.cit., (٤٨)
 II, pp. 71-76
 Préaux, Chr-d'Eg. 1936, pp. 544-45; Wilck-Chrest n,10.(٤٩)
 (٥٠) نصحي، جـ، ص ٢٠٥.
 B.G.U. 933; Col. 6,7; P.Bad., 48.(٥١)
 Cf. P.Tebt. 5.(٥٢)
 P.Tebt., 5, 11. 54-84.(٥٣)
 P.Tebt., 5, II.68-77; 99-101.(٥٤)
 P.Tebt., 15.(٥٥)
 P.Lond., II, 401, 20.(٥٦)
 Pausnias I, 9,3.(٥٧)
 B.G.U., VIII 1744-50, 62; Cf. Aegyptus, XVIII 1938, pp.279ff.(٥٨)
 Tarn, C.A.H, X, pp.35ff.(٥٩)
 Eutroplos, II 5; Valerius Maximius, IV, 3,2; Livius, Peioch., 14, (٦٠)
 T.R.S. Broughton, The Magistrates of the Roman Republic, Amer.
 Philol. Assoc. XV, vol.I (1951), p.197.
 Livius, XLV, II, 10; P. Tebt., 698, 781; Cf. H. Henne. "P.Tebt, 698 (٦١)
 et l'invasion de l'Egypte par Antiochus IV "Revue Etude An. 38 (1935)
 pp. 443-ff.
 Doi Cass. . XLII, 34' Suet., Caes., 52; Appian, B. Civ., II 90; Plut. (٦٢)
 Anton., 25-27.
 Suit , Div. Aug. , XXXI, 2; Dio Cass., Lv, 6; J. Gage; Res Gestal (٦٣)
 Divi Augusti, 2e ed Publ. Fac. Lett. Univ. Strasb., Texts d'Etude, 5; Paris
 1950; p.158 n.1; R. Hollmes, The Architect of the roman Empire, Oxford
 1928, vol., I, p.181 and n.6.
 - عبد اللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الوثائق البريدية ١٩٨٨،
 ص ص ٤١-٤٢.
 Suit., Divi Aug., XVIII, 2; Tacitus, Hist. I, 11; I.Bell, Roman Egypt (٦٤)
 from Augustus to Diocletian, Chr.d'Eg. 13 (1938) p.247.
 Cf.I.Bell. Alexandria ad Aegyptum; J.R.S. 36 (1946) pp.130-132. (٦٥)
 O.W. Reinamuth, The Prefect of Egypt from Augustus to (٦٦)
 Diocletian, Klio XXXIV, N.F. Hert, 21, Leipzig 1935, p.9.
 Cf. Bell., C.A.H., X (1934) p.297; Idem, J.J.P. IV (1950) p.20f; (٦٧)

- M.Romsay, Nationalism in the Roman Egypt, *Aegyptus* 44 (1964) p.187.
- (٦٨) راجع، عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص ٨٣-٨٤.
- H.A. Musurillo, *The Acts of the Pagan Martyrs*, 1954, pp. 275-77; (٦٩)
- I.Bell, *The Acts of the Alexandrians*, J.J.P.IV (1950) p.24f.
- Bell, J.J.P.IV (1950) p.21. (٧٠)
- عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص ٨٥.
- Philon, *In flac.*, 25-39. (٧١)
- P.M.Fraser, *Hadrian and Cyrene*, J.R.S., 1950 pp. 77-78; p.Brem. (٧٢)
- 42 introd.p.99; P.Giss, 19, 25; A. Fuks, *The Jewish Revolt in Egypt* (A.D.116-117) in the Light of the papyri, *Aegyptus*33 (1953) p.145f.
- Suet., Tib. L11, 2; Tacit., Ann. II 59-61; S.B.3924 = selected Pap.II (٧٣)
- 211; A.C. Johnson, *Roman Egypt*, New Jersey 1959, pp. 622-23.
- P. Faud 8; Suet., Vesp, VII, 2.(٧٤)
- Ph. Derhain, *La visite de Vasprien au serapium d'Alexandrie*, (٧٥)
- Ch.d.Eg.28 (1953) pp. 261-79.
- Strabo., XVIII, 11, Athen., XII, 549; Joseph., Ant.jud. XII 235; (٧٦)
- Bevan, Op.cit., p.288; Bouche-Leclercq, Op.cit., II pp.27-28; Jouguet, Nat. Eg. P.145.
- G.Strabo.,XVII, 749. (٧٧)
- J.E.Letronne, *Recueil des inscr. Grecq. Et latines de l'Egypte* (٧٨)
- (1842) II, 781.
- نصحي، مرجع سابق، ج١، ص ٢٤٨.
- C.A.H., IX, p.388, Bevan, Op.cit., pp. 350-351. (٧٩)
- Suet. Vesp., XIX2; Dio Cass., LXV3; Wallace, *Taxation in Roman Egypt*, p.346. (٨٠)
- Dio Cass., LXV, 8,6; (٨١)
- عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص ١٤٣-١٤٤
- Cf. C.H. Roberts, J.R.S. 39 (1949) p.79. (٨٢)
- W.Chrest. 14; Musurillo, Op.cit., Text IVA.(٨٣)
- P.Yale inv. 1536 (Published and translated in Amer. Philol. AS.n.67 (٨٤)
- (1936-7) + P.OXY.33.
- P. Giss. 40 = select. pap. 215.(٨٥)
- نفتالى لويس، مصر الرومانية، ترجمة فوزى مكوى، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص ٢٣٣-٢٣٤.

- (٨٦) لويس، نفسه، ص ص ٣٥-٣٦.
- (٨٧) راجع لويس، نفسه، ص ص ١٩٧-١٩٩.
- (٨٨) لويس، نفسه، ص ص ١٨٣-٢١٣، وتتضمن وثائق كثيرة تتعلق بهذا الصدد.
- (٨٩) Starbo., XVII, 53; O.G.I.S.634; I.G.rr., 1293.
- (٩٠) C.I.L. 14147= I.L.S., 8995 = Barrow, Selection of Latin inscriptions No.7 = Ehremberg-jones, Documents illustrating the Reigns of Augustus and Tiberius No.2; O.G.I.S., 654.
- Cf. Lesquier, L'Armée romaine d'Egypte d'Auguste a Dioclétien, (٩١)
M.I.F.A.O., I, XLI (1918) p.49f.
Strabo., XVII, 53. (٩٢)
- Préaux, Esquisse d'une histoire des revolutions égyptienne sous les lagides, Chr.d'Ég. 11(1936) pp. 548-52. (٩٣)
- (٩٤) عبد اللطيف أحمد علي، مرجع سابق، ص ٦١.
- (٩٥) عبد اللطيف أحمد علي، نفسه، ص ٦٢.
- (٩٦) Dio Cass., Liv, 5; Pliny., Nat. Hist. VI 29, 181-182; M.J.Leiboritch, A propos de L'expédition militaire en Ethiopie par P.Petronius sous le rége d'Auguste, Bull. Soc.Roy. Geog. Eg. 19 (1937) pp.270-77; P.Mill.40; Turner, J.R.S.40 (1950) pp. 57-9; W. Chrest. 4. C.A.H., X, p.245 and n.2; (٩٧)
- عبد اللطيف أحمد علي، مرجع سابق، ص ٦٩
- (٩٨) Dio Cass., LVII, 10, 5; Jouguet, La Dom. Rom.p.33, n.2.
- (٩٩) عبد اللطيف أحمد علي، مرجع سابق، ص ص ٦٩-٧٠.
- (١٠٠) W.Chrest. 13; Cf. Reinmuth, Klio 34 (1935) p.121f.
- (١٠١) Philon., in Flacc., 86-96.
- (١٠٢) W.O. 1372 = W. Chrest. 414.
- (١٠٣) Pilon. Loc. Cit.
- (١٠٤) عبد اللطيف احمد علي، مرجع سابق، ص ص ٨٢-٨٣.
- (١٠٥) Cf. Bell. J.J.P. IV (1950) p.28; Musurillo, Op.cit., p. 102, n.56f.
- (١٠٦) Joseph., Ant., Jud., XIX 280-86; Chrales Worth, Documents illustrating the reigns of Claudius and Nero Cambridge, 1939, No.14-15. Joseph., Anti Jud., XIX 278 ff. (١٠٧)
- (١٠٨) H.Stuart. Jones, Caludius and the Jewish Question at Alexandria, J.R.S. 16(1926) pp. 21f; Bell., Anti Samitism in Alexandria, J.R.S.31 (1941) P.10; Davis, Race Relations in Ancient Egypt, 1951, p.108; P.Lond. 1912; Hunt-Edgar, Sel.Pap.II 1934, pp. 1-37.

- Cf. P.Lond., 66-72; 1912, 73-104. (١٠٩)
- Bell., J.J.P., IV (1950) p.21. (١١٠)
- عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص ص ٨٤-٨٥.
- Bell, C.A.H., X 1934, p.295; Jouguet, B.S.A.A. 37 (1948) p.22; (١١١)
- Idem, Vie Mune. P.141f.
- Suet. Nero. XLVII 2; Tacitus, Hist., I 31; Plutarch, Galba, 2; Dio (١١٢)
- Cass, LXIII, 27,2.
- P.Oxy., 1021 = W. Chrest. 113. (١١٣)
- O.G.I.S., II 666.2. (١١٤)
- Letronne, Recueil, I, p.91. (١١٥)
- عبد اللطيف أحمد على، المرجع السابق، ص ص ١٣٦-١٣٧. (١١٦)
- Pliny., Paneg. p.31-32 (١١٧)
- Cf. V. Tcherikover, The Jews in Egypt in the Hellenistic Roman (١١٨)
- Age in the Light of Papyri, Jerusalem 1945 pp.18ff.
- P. Brem. I. (١١٩)
- P.Giss. 27 = W. Chrest. 17, P.Bad., 36; P.Oxy. 500; B.G.U., 889, (١٢٠)
- 1189, A.Fuks, The Jewish Revolt in Egypt (A.D.115-117) in the Light of (١٢١)
- Pap., Aegyptus 33 (1953) p.145f.
- P.Oxy. 705, Col.11, 11.31-35. (١٢١)
- P.Giss. 25 = W. Chrest. 15. (١٢٢)
- Rostovtzeff, Social and Economic History of Roman Empire I 2nd (١٢٣)
- ed (1957), p.348.
- عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص ٢٠٥. (١٢٤)
- P.Oxy. 705, Col.11, 11.34. 36 = W. Chrest. 153. (١٢٥)
- نفتال لويس، مرجع سابق، ص ٢٣٧. سيد الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية، (١٢٦)
- ١٩٩٨، ص ٣٨٥.
- P.Yale inv., 1536 (Published in trans. Am.Philol. A.Sn. 67 (1936) (١٢٧)
- p.7; P.Oxy. 33.
- Cf Capitolinus, Ant. Phil.2, Vulcatius Gall, Canus, Avidius (١٢٨)
- Cassius, 6,7.
- Cf. T. Frank, An Economical Survey of Ancient Rome, Vol.V (١٢٩)
- p.76f.
- نفتال لويس، مرجع سابق، ص ٢٣٧. (١٣٠)
- Dio.Cass., 72, 4. I; E.H.Giliam, The Archives of the temple of (١٣١)
- soknobraisis at bechias, Yale Classical Studies X 91947) , p.205.

- J.G. Milne, J.E.A., 14 (1928) p.231; M.Ramsay, Aegyptus, (1966) (١٣٢)
p. 183; Cf. R.Remondon, Bull. Inst. Fr.d'arch. oriental 51 (1952) p.73.
- سيد الناصري، مرجع سابق، ص ص ٣٩٧-٣٩٨.
- Dio Cass., LXXI, 28; H.M.D.Parker, A. History of (١٣٣)
عن تمرد أفيدوس كاسيوس راجع :
- Roman World from A.D. 138 to 337, London 1958, p.27; John Wachter,
Edit., The Roman World, New York 1990, p.282.
(١٣٤) نفتال لويس. المرجع السابق، ص ٢٣٧.
- P.Oxy. 2332, vol.22, pp. 90-91, n.3; cf. M.Ramsay, Aegyptus, 46 (١٣٥)
(1964) p.183 n.2. and pp.190-91.
P.Oxy. 2332 (١٣٦)
- نفتالي لويس، المرجع السابق، ص ص ١٨٦-١٨٧.
Cf. Wallace, Taxation in Roman Egypt, pp.88-98. (١٣٧)
(١٣٨) نفتالي لويس، المرجع السابق، ص ١٨٧.
- Rostovtzeff, Social and Economic History of the Roman Empire, (١٣٩)
p.480.
(١٤٠) إنجيلا : متى ٩ : ١٠، مرقس ٢ : ١٦، ٣٠ و ٧ : ٣٤
- Ramsay, Aegyptus 41 (1964) pp. 188-189; Rostovtzeff, Soc. And Econ.
Hist. Of the Roman Emipte, p. 479-90; A.C. Johnson, J.J.P. 4 (1950)
pp.151-58.
- Philon, On Special laws, B.K., 3, ch.31; P, Mich. 529(١٤١)
- لويس، مرجع سابق، ص ص ١٨٩-١٩٠
B.G.U. 515 = select pap.286.(١٤٢)
S.B. , 9207.(١٤٣)
- P.Mert., 81; B.G.U., 229; P.Oxy., 1149, 1213, 1477.(١٤٤)
P.Oxy., 266, 1408; P.Ryl.595; S.B. 7462; P.S.I., 101, 102; B.G.U., (١٤٥)
372
- P.Oxy. 1408 = select. Pap., 244; B.G.U, 372.(١٤٦)
P.Oxy. 2669.(١٤٧)
P. Pelaus. 65; P. Oxy. 1119; P.Wisc. 81.(١٤٨)
P.Wisc. 81.(١٤٩)
P.Oxy 1405.(١٥٠)
(١٥١) نفتالي لويس، مرجع سابق، ص ٢١٣.
- Tacitus, Ann. II 59; Joseph., Bell. Iud. IX, 10, 5. Pliny., Nat. Hist., (١٥٢)
VI 101, XII, 63-63; Bell, Chr.d'Eg. 13 (1933) pp. 347-63; Idem, C.A.H.

- X 1934, p.284f.
 Stabo., XVII, 53; (١٥٣)
 - عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص ص ٥٨-٦٠
 Strabo, XVII, 10; Dio Cass. Li, 1,3; Lesquer, L'Armée Romaine, (١٥٤)
 I.F. A.O., XL (1918) p.49; A.H.M.Jones, Cities of the Eastern Roman
 Provinces, Oxford 1937, p.474, n.22.
 Cf. S.B. 1073a = S.E.G. , XX n.760; P.Mer., 63; P.oxy. 2782; S.B., (١٥٥)
 3924 = sel. Pap. 211.
 P. Lond. Lit., 239; P.Oxy. 1380.(١٥٦)
 (١٥٧) نفتالي لويس، مرجع سابق، ص ١٠٩.
 B.G.U. 1199.(١٥٨)
 (١٥٩) نفتال لويس، مرجع سابق، ص ص ١١٠-١١١.
 H.I. Bell; Cults and Creeds in Greco-Rman Egypt, Liverpool 1953, (١٦٠)
 pp.52-55.
 L.G. Moderna, Bull. De la Soc. Roy. D'Arch. D'Alex. 33 91939) (١٦١)
 p.298 f.; Remondon, B.I.F.A.O., 51, (1952) p.68f.
 M.Ramsay, Aegyptus, XLIV (1964) p.192.(١٦٢)
 Ramsay, Aegyptus. XLIV (1964) pp. 193-194.(١٦٣)
 - عن بدايات المسيحية في مصر الرومانية بصفة عامة راجع :
 Bell., Cults and Creeds; pp. 78-105.(١٦٤)

الباب الثالث

الثورة والتغيير فى العصور الوسطى

الفصل الأول

مفهوم الثورة فى الإسلام

محمد بركات البيلى (*)

هل فى الإسلام من ثورة ؟ سؤال قد يبدو بسيطاً فى ظاهره ، ولكنه يطرح إشكالية غير بسيطة ، ويصعب الخوض فيها دون تعريف المفاهيم وتحديد الاصطلاحات ، والتي يعيننا منها فيما نحن بصدده كل من مفهوم الثورة ومفهوم الإسلام الذى لا ينبغي أن يخلط فيه بين الإسلام المبدأ والجوهر والدين الذى نزلت به الرسالة الإسلامية ، والإسلام التاريخى الذى يربط بين الدين وأهله ويجمع بين الإسلام والمسلمين فى حركتهم التاريخية ، وفق تعاليم الإسلام .

أما عن مفهوم الثورة فأنها فى رأى البعض " ظاهرة مجتمعية ليس لها مفهوم محدد متفق عليه بين الجمهور" (١) ومن ثم عرفها البعض بأنها تغيير جذري وقلب رأس على عقب للأوضاع القائمة إلى أوضاع جديدة ، ويعتقد قادتها أنها تسير نحو الأفضل ، وأنها ليست مجرد تطور أو تغيير جزئى أو علاج لبعض العيوب و إنما هي فوران بركان وقوة لا قبل للحكام على الوقوف فى وجهها (٢) ومنهم من عرفها بأنها تحول فى الحياة الاجتماعية للإطاحة بما عفا عليه الزمن و إقامة نظام اجتماعي تقدمي جديد ، أو هي التغيير الجذري المفاجئ فى الأوضاع السياسية والاجتماعية القائمة بوسائل تخرج عن النظام المألوف ولا تخلو عادة من العنف (٣) وعرفها البعض بأنها الحصول على السلطة من أجل التغيير الواسع من الواقع الذى يثار عليه إلى المستقبل الذى يطالب به (٤) .

ومجمل القول أن الثورة تعنى على نحو عام تغييراً كبيراً ومفاجئاً فى أوضاع قائمة يسفر عن أوضاع جديدة لم يكن ثم عهد بها ، ولا يخفى على

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى، كلية الآداب - جامعة القاهرة.

الملاحظة أن مصطلح الثورة في ضوء هذه التعاريف يشير إلى معنيين : أولهما: التغيير الدائري الذي يكشف عن أنماط جديدة ، وثانيهما : هو التحول الجذري في التكوينات الاجتماعية و السياسية والنظام العام (٥) وهذان المعنيان تشير إليهما لغة العرب بلفظتي التبديل والإبدال ، ففيها أن الإبدال هو إيجاد بديل لما هو قائم ، وهذا هو ما يعنيه التغيير الدائري ، أما التبديل فهو تغيير حالة الشيء وهو ما يشار إليه بمعنى التحول الجذري .

ولعله لا يخفى - على كل من يهتم بأن يلاحظ - أن هذه التعاريف التي ذكرناها - على سبيل المثال - تأخذ كلها- وغيرها - بأن الثورة عمل بشري ، يضطلع فيها العامل البشري بالدور الأساسي في مراحلها كافة بدايةً من الفكر والنظرية ومروراً بالتخطيط وصولاً إلى التنفيذ ، فالثورة عمل بشري من بدايتها إلى نهايتها ، وهي في هذا تختلف اختلافاً بيناً عن رسالة الإسلام التي هي إلهية المصدر ولا يصح أن توصف بأنها ثورة ثارها ثائر من البشر على الأوضاع القائمة في مجتمعه ، فهذه المقولة الخاطئة دأب المستشرقون على ترديدها - تصريحاً وتلميحاً - حتى من وصف بالاعتدال منهم مثل مونتجمري وات في كتابه المعروف " محمد في مكة Mohammed at Mecca " أو كستر kister في دراسته عن مكة وتميم Mecca and Tamim وقد سار على دربهما بعض باحثينا حتى أن أحدهم وضع بحثاً بعنوان " ثورة الإسلام " لم يعن فيه بتفسير مفهوم هذه الثورة كما يراها ولكنه وصف بعض أحوال العرب قبل الإسلام خاصة ما أسماه الكومنولث المكي التجاري، وما تعلق به من تراتيب سياسية وأوضاع دينية ، انتهى إلى القول بأن محمداً صلى الله عليه وسلم عزم على القيام بثورة من داخل النظام ذاته ، فكان دائم الإلحاح على أنه ينبغي على قریش أن ترتب أمورها وعلى أن نجاتها كانت في رعايتها للفقراء من أقاربهم واليتامى والمساكين منهم ، وإن هذا التعاون بين الأغنياء والفقراء هو المبدأ الأساسي في دعوة محمد صلى الله عليه وسلم على مدار حياته كلها ، مثلما أن الحب هو جوهر رسالة المسيح عليه السلام (٦)

وسواء كان ترديد مثل هذه المقولة عن سوء فهم أو سوء قصد ، فإن رسالة الإسلام لم تكن كما توهم البعض مجرد ثورة بشرية ، وإنما الإسلام دين سماوي نزل من لدن عزيز حكيم على الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ليبلغه للعالمين ، قال تعالى " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك " (المائدة/٦٧)، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم واضعاً للرسالة بل كان

رسولاً لتبليغها ولم يكن على الرسول إلا البلاغ كما نصت آيات قرآنية كثيرة (منها عمران / ٢٠، المائدة / ٩٢، الرعد / ٤٠، النحل / ٣٥، النور / ٥٤، العنكبوت / ١٨، وغيرها) وكانت رسالة الإسلام تذكيراً للناس ليعودوا إلى عبادة الله وطاعته، قال تعالى " فذكر إنما أنت مذكر " (الغاشية / ٢١) وقد يرتبط هذا التذكير بوعيد من الله للعصاة، قال تعالى " فذكر بالقرآن من يخاف وعيد " (ق / ٤٥) لكنه لم يقتنر بالإكراه أو حمل الناس بالعنف على الإيمان قال تعالى " لا إكراه في الدين " وقد نزلت الرسالة الإسلامية من عند الله على محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة الوحي - على تعدد إشكاله - لكن منكري المصدر الإلهي للإسلام ينكرون الوحي ويزعمون أنه مجرد انعكاس على مخيلة محمد صلى الله عليه وسلم من عقله الباطن أو نفسه الروحانية فتوهم - أي محمد - أن الملك مائل له يوحي إليه ما تخيله وحيأ ، ومن ثم زعموا - قاتلهم الله - أن مصدر الإسلام وقرآنه بشرى وأنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم وليس من عند الله ، وابتنوا على ذلك مقولات خاطئة قد يكون لبعضها بريق زائف يعمى بعض الأبصار فلا تفتن إلى زيف هذه المقولات ، ومن هذه المقولات الزائفة قول البعض أن الإسلام كان ثورة على مختلف الأوضاع القائمة قبل البعثة المحمدية ، لكن الإسلام لم يكن أبداً بشرياً محمدياً وإنما كان إلهياً سماوياً ، قال تعالى " وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين " (الشعراء / ١٩٢-١٩٤) .

وإذا سلمنا بان الإسلام دين سماوي إلهي المصدر ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن - على ذلك - ثائراً وإنما كان رسولاً مبلغاً ، ولم تكن رسالته ثورة بل كانت هدياً من عند الله لمن ضل من عبيده ، قال تعالى " وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم " (الشورى / ٥٢) وهذا الهدى نوع من التغيير كما أن الثورة نوع من التغيير ، ولكن شتان ما بين هدى الرسل وثورة البشر، فهدى الرسل تغيير أمرهم الله بالدعوة إليه ومباشرته، لكنهم ليسوا هم الذين يحققونه بل يحققه الله عز وجل ، قال تعالى " إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء " (القصص / ٥٦) وقد بين الله - عز وجل - أن الهدى هو الإسلام فقال تعالى " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام " (الأنعام / ١٢٥) .

وإذا لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم هو هذا الثائر الذي يجعل من الإسلام ثورة ، لانه ليس مصدرها بل مجرد مبلغ لرسالته ، أكون هذا الثائر هو الله عز وجل الذي هو مصدر هذا الإسلام ؟ حاشا لله وتزهت ذاته عن أن

يوصف بمثل هذا ، فليس من أسمائه الحسنى اسم من هذا القبيل ، ولا يوجد في القرآن الكريم آية واحدة يرتبط فيها شيء من صيغ الجذر اللغوي " ثور " - فعلا كان أو اسماً - بالذات الإلهية أو منسوباً إليها مع أن القرآن الكريم قد ذكر أن الله سخطاً مثل قوله تعالى " لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم " (المائدة/ ٨٠) وقوله تعالى " أفمن اتبع رضوان الله كمن باء يسخط من الله " (آل عمران / ١٦٢) ، وذكر القرآن الكريم أن الله عز وجل - غضباً - مثل قولي تعالى " ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم " (المجادلة / ١٤) وقوله تعالى " وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله " (البقرة / ٦١) ولم يذكر القرآن على الإطلاق أن الله ثورة أو أنه - حاشاه - قد ثار ، وليس صحيحاً ما ذكره البعض أن في القرآن الكريم إشارات إلى ما يعنيه مصطلح الثورة من تغيير عميق ومن انقلاب في الأوضاع ولا صحة في الاستدلال على هذا ببقرة بنى إسرائيل التي كانت " لا ذلول تثير الأرض " (البقرة / ٧١) ، فإثارة الأرض - في اللغة لا تعنى تغييرها ، وإنما تعنى حرثها وقلب قسرتها الظاهرة على الحب ، فضلاً عن أن البقرة التي تحرث الأرض - على وحد وصف القرآن لها - هي الذلول المنقادة وليست الجموح الهائجة أو الثائرة، وفي ذلك ابتعاد تام عن مفهوم الثورة الذي يجعل الثورة من هيح الهائجين لا من خضوع الأذلاء الخائعين .

وفي الحديث النبوي الشريف لم يخرج معنى الفعل ثار - في الأحاديث كافة التي ذكر فيها - في كتب الحديث الصحاح الستة وغيرها مما اعتمده فنسك Wensinck أساساً لتصنيف معجمه المفهرس لألفاظ الحديث النبوي - عن معنى هاج أو معنى قام من مجلس أو معان أخرى قريبة منها لا تصل مطلقاً إلى ما يدل عليه مفهوم الثورة الاصطلاحي بأي حال من الأحوال ، فعلى سبيل المثال جاء في واحد من هذه الأحاديث " ثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ... فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا " وجلى أن ثار هنا تعنى الهياج والصخب ، وجاء في حديث آخر " فنار فتى من الحي " وروى الحديث نفسه بلفظ آخر " فقام فتى من الحي " فدل على أن ثار تعنى قام من مجلس .

وإذ يتضح - على - هذا النحو - أن القرآن و الحديث الصحيح وهما مصدراً الإسلام و مرجعيته الأساسية - لا ذكر فيهما للثورة بمفهومها الاصطلاحي ، فهل يصح بعد ذلك القول بأن في رسالة الإسلام ثورة؟ ، قد

يقال إن جوهر الثورة التغيير ، وأن رسالة الإسلام كانت تغييراً للأوضاع القائمة، لكن مثل هذا القول منقوض من أساسه ، فماهية التغيير في رسالة الإسلام هي الإصلاح قال تعالى " إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت " (هود / ٨٨) ولا يقبل التغيير في الإسلام إذا كان إصلاحاً ، قال تعالى " ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها " (الأعراف / ٥٦) . ومن ثم يمكن القول في هذا السياق أن الإسلام جاء إصلاحاً لمفاسد العمران البشرى وليس ثورة عارمة تحركها شهوة التغيير دون النظر لعواقب هذا التغيير ، ولم يكن الإصلاح الذي استهدفه الإسلام محدوداً بل كان إصلاحاً شاملاً يعيد هيكله العمران البشرى وفقاً لمنهج الإسلام .

لقد حوت رسالة الإسلام ما يمكن تسميته مبدأ الإسلام ، والمبدأ اصطلاحاً هو فكر أساسي كلى تنبثق عنه، أو تبنى عليه أفكار فرعية أو عقيدة ينبثق عنها نظام ، والإسلام كمبدأ انبثقت عنه النظم الإسلامية التي أقامها المسلمون وفقاً لمقتضيات عقيدة الإسلام .

ولقد قام النظام السياسي الإسلامي على قواعد منبثقة عن المبدأ الإسلامي وفقاً لما يسمى " شرع ابتداء " يبنى على تعاليم ما يسمى " شرع ابتداء " أي المبدأ المنصوص عليه في الكتاب والسنة وهو مبدأ يتسم بالثبات نظراً لثبات مصدره الإلهي ، ويضبط حركة الحياة الواقعية بقيمه الثابتة التي لا تتغير ، وقد وضع المبدأ الإسلامي الثابت قواعد ثابتة لنظام الحكم الإسلامي لا تتغير وهي:- (١) الشورى قال تعالى " وأمرهم شورى بينهم " (٢) البيعة ، وهي بيعة الحاكم - أو اختياره والموافقة عليه - سواء كان هو الرسول صلى الله عليه وسلم أو من يخلفونه من أئمة الحق ، واعتبرها الإسلام بيعة لله قال تعالى " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله " وعلى أساس من الشورى والبيعة أقام المسلمون نظام الخلافة ، والخلافة كما يعرفها فقهاء السياسة المسلمون - كالما وردى مثلاً - هي " حفظ الدين وسياسة الدنيا به " ويمكن أن يفهم من هذا أن الخلافة امتداد لمهمة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان مجرد مبلغ للشرع وليس مصدراً له باعتبار أنه صلى الله عليه وسلم كان وحياً يوحى ، فإذا كانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هي الإبلاغ ، ومهمة خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم - أو الخلفاء - هي الحفاظ فليس لهم ولا لغيرهم من البشر سلطة الأمر العليا في الدولة التي تعنى اصطلاحاً " السيادة " إذ السيادة أو ما يعبر عنه أحياناً بالحاكمية الله وحده باعتبار أنه عز وجل هو الخالق الذي له وحده الأمر قال تعالى " ألا

له الخلق والأمر" (الأعراف ٥٤).

ولأن سلطة الأمر العليا في المبدأ الإسلامي حق خالص لله ، فمن ثم وجب على المسلمين الطاعة لله الأمر صاحب السيادة أو الأمر العليا أو سلطة الحاكمية ، والطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله ، قال تعالى " ما أمركم به الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " والطاعة لولاة الأمور الذين يحفظون الدين ويسوسون الدنيا به ، قال تعالى: " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر " (النساء / ٥٩) وطاعة السلطة الحاكمة مرتهنه بشرعيتها ومشروعيتها ، وبين الشرعية والمشروعية فارق أساسي ، فالشرعية تعنى صلاحية السند الذي تستند إليه السلطة القائمة كسلطة للأمر ، وهذه الشرعية سابقة على قيام السلطة الحاكمة التي لا بد لها من سند تقوم عليه أو حين تمارس السلطة الحاكمة بعد قيامها سلطتها وفقا لقواعد المبدأ الذي تستند إليه - وهو الإسلام - أي إنها تمارس شرع الابتداء وفقا لشرع الابتداء ، فإنها تكتسب بذلك المشروعية التي تعنى التزام السلطة الحاكمة القائمة بالنظام القانوني للدولة في كل ما يصدر عنها، فالشرعية هي الأساس الذي تستند إليه السلطة الحاكمة في قيامها والمشروعية هي السمة التي يجب أن تتسم بها ممارساتها .

ومع ثبات الشريعة الإسلامية أو شرع الابتداء (المبدأ) فإنها حينما رهنبت طاعة السلطة الحاكمة بالشرعية والمشروعية ، فقد أجازت للمسلمين مقاومة الجور ، وجعلت من ذلك حقا مشروعا لهم ، ومقاومة الجور ليست تغييرا مطلوبا لذاته - أي لمجرد التغيير - و إنما مقاومة الجور تهدف إلى الإصلاح أي التغيير الهادف إلى الخير ولا يكون الإصلاح مفاجئا أو عنيفا أو قتالا - كما هي الثورة فيما يبدو من تعاريفها ، و إنما يكون الإصلاح تدريجيا بهدف إعادة المشروعية إلى النظام الجائر بعد أن فقدها ، فان لم تستجب السلطة الجائرة القائمة إلى دعاوى الإصلاح جاز الخروج عليها ومنازعتها لحملها قهرا على العودة إلى الشرعية التي استندت إليها في قيامها ، قال تعالى " فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر " .

والخروج على سلطة الجور لا يكون هياجا انفعاليا ولا غوغائيا عشوائيا بل يجب أن يكون هادفا . وغائيا هدفه إبدال الحكم غير الشرعي والذي فقد مشروعيته بحكم جديد يستند إلى الشرعية في قيامه ويتسم بالمشروعية في

ممارساته ، وبدون تحقيق ذلك تكون الفتنة التي لا تكون فقط في اقتتال المسلمين بعضهم لبعض ، و إنما تكون أيضا في اقتتالهم لغير سبب مشروع .

وفى ضوء ذلك كله ينبغي أن نعيد النظر فيما يسمى في التاريخ الإسلامي بثورات فما يسمى بالثورة العباسية -على سبيل المثال - قام بها مسلمون على سلطة حاكمة مسلمة ، واستند من قاموا بها إلى تعاليم الإسلام في الإطاحة بالسلطة القائمة ليحلوا سلطة حاكمة جديدة مسلمة أيضا فكان ما قاموا به مجرد استبدال أشخاص بآخرين دون أن يغيروا نظاماً أو يغيروا قواعده أو أحكامه ، فهل يصح بعد ذلك أن يطلق على قيام الدولة العباسية اسم ثورة عباسية أو ثورة إسلامية .

أظن - وبعض الظن ليس بإثم - أنه قد آن لنا أن نستخدم مسميات ومفاهيم جديدة .

الهوامش

(١) رعوف عباس: النشرة الإرشادية للندوة بتاريخ ٦/١/٢٠٠٤ .

(٢) احمد سويلم العمري: معجم العلوم السياسية الميسر ، ص ٧٣.

(٣) محمد عمارة: الثورة والإسلام .

(٤) محمد أنيس وزميله: ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

(٥) محمد على محمد: أصول الاجتماع السياسي .

(٦) محمد عبد الحي شعبان: ثورة الإسلام ، ص ٧٣.

الفصل الثاني

المهمشون في التاريخ الإسلامي

رؤية سوسيو - تاريخية

محمود إسماعيل (*)

لا تطمح هذه الدراسة إلى تقديم تاريخ شامل للعوام المهمشين في التاريخ الإسلامي؛ بقدر ما تصبو إلى تقديم رؤية عامة تتسم بالجدة والإنصاف لهذه الجماعات التي جرى تشويه تاريخها من قبل " مؤرخي البلاط " ومن نحاسحوهم من الدارسين المحدثين .

ذلك أن هذه التاريخ الشامل قد سبق وأنجزناه ضمن مشروع يتناول التاريخ والتراث الإسلامي كله ؛ صدر في عشرة مجلدات (1) كما إن شلة من تلامذتنا النجباء في مصر و الجزائر والمغرب (2) قدر لهم - تحت إشرافنا - كتابة أكثر من عشر رسائل جامعية عن تاريخ العوام في العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى أسفرت عن تعميق رؤيتنا وتأكيد منهجنا الذي اعتمدهنا في المشروع .

وقد أثبت البحث في هذه الحقل - الذي كان ملغزا ومهمشا - أن دراسة الموضوع واجهت الكثير من الإشكاليات والمصاعب التي جرى تذليلها . من هذه الإشكاليات ، ما يتعلق بالإطار المرجعي ، وما يختص بقضايا (3) المنهج ، وما يرتبط بمسألة الرؤية والتفسير والتقويم .

بخصوص المرجعية ، ثبت أن الحوليات التاريخية لم تحفل بالتاريخ للعوام، وانشغلت بتواريخ الحكام سياسياً وعسكرياً ليس إلا . ومن ثم ظل تاريخ العامة يدخل في إطار " المسكوت عنه " أو " اللا مفكر فيه " ؛ حسب صياغة المفكر النابه " محمد أركون " . وبرغم وفرة مصادر التاريخ الإسلامي العامة ؛ لم يرد ذكر العوام إلا لماما عند التأريخ للكوارث الطبيعية كالمجاعات والأوبئة التي كانت تحصدهم حصدا . أو من خلال ذكر حركات المعارضة التي جرى تهميشها بالمثل ودمغها بأبشع التهم والنعوت .

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب - جامعة عين شمس .

لذلك كان علينا البحث في مادة مصدرية في مظان أخرى مهمة من قبل المؤرخين ؛ فوقفنا على مادة تاريخية ثرية تخدم الموضوع في كتب الخراج والفقہ والحسبة والنوازل والجغرافيا والطبقات والأدب والديارات والحرف والفلاحة والتجارة ؛ وحتى كتب " الطيبخ" (٤) وهذه المادة التي عولنا عليها تتسم بقدر أكبر من الصدق والموضوعية نظراً لكونها أبعد ما تكون عن السياسة والدين . أما عن إشكالية المنهج ؛ فهي تتعلق بتناول القدماء للتاريخ الإسلامي عموماً ؛ من حيث التعويل على السرد والوصف ؛ دون التحليل والتعليل والتفسير . ذلك لأن المفهوم الطبقي لدراسة التاريخ كان غائباً عن فطنة القدماء؛ فالناس في نظرهم " أهل سيف " و "أهل قلم" (٥) وما دون ذلك فغناء لا يستحق الاهتمام والتسجيل . ومن أسف أن جل الدارسين المحدثين - عرباً ومستشرقين - لم يحفلوا بالتاريخ الاقتصادي - الاجتماعي ؛ متذرعين في ذلك بندرة المظان حيناً ، وبعجزهم عن الإحاطة بمناهج البحث التاريخي وأدواته في معظم الأحيان.

وقد تجاوزنا تلك الإشكالية من خلال الاسترشاد بالمنهج الجدلي التاريخي من ناحية ، وسائر المناهج المتبعة في حقول البحث الاجتماعي والاقتصادي والأنثروبولوجي وغيرها (٦) ، فضلاً عن البدء من " درجة الصفر " في رصد وإحصاء المعلومات المتناثرة واستخلاص ما تتطوي عليه من دلالات ؛ من ناحية أخرى .

وبخصوص إشكالية التعليل والتأويل والتحليل والتفسير وصياغة الرؤية العامة التي تنتظم الجزئيات في مقولات وتخرجات وأحكام ، نلاحظ أن القدماء تحاملوا على حركات العوام ؛ فوصموهم بالسوقة والرعاع والأراذل والزنادقة وأهل البدع والفتن، كما نعتوا زعامات هذه الحركات بالخبث والمحاكاة والإباحية وسائر النعوت والصفات الدونية . ومن أسف أن الدارسين المحدثين ساروا على منهجهم :متذرعين بدعاوى الأمانة العلمية والحياد في النقل عن القدماء . لذلك تتسم رؤيتهم بالثيولوجية والخرافة والأسطرة ، فضلاً عن التقويمات الأخلاقية الذرائعية التي تجافي روح البحث العلمي الرصين .

كانت تلك المزالق والسقطات في اعتبارنا - وتلامذتنا - ونحن نحاول الكتابة في هذا الحقل المضرب والمغز ، سواء من حيث " عدم براءة " المادة التاريخية ، أو من حيث تأويلها.

في هذا الإطار ؛ تقدم تصوراً أولياً ، أو " بانوراما " عامة عن العامة المهتمين في التاريخ الإسلامي بعصوره المتعددة ، وفي سائر بقاع العالم الإسلامي وأقاليمه من مشرقه إلى مغربه .

ولا يتسع المقام لرصد الأساس الاقتصادي وتطوره ، والبناء الطبقي في صيرورته وتحولاته ، ونحيل في ذلك إلى مشروعنا " سوسيولوجيا الفكر الإسلامي " حيث قدمنا رسداً دقيقاً من خلاله أثبتنا أن طبقة العامة خضت تاريخها من خلال صراع مستمر بين البورجوازية والإقطاع ؛ حسم منذ منتصف القرن الخامس الهجري لصالح " الإقطاع العسكري " . وأثبتنا أيضاً أن هذه الطبقة التي قامت بالجهد الأكبر والفعال في صياغة التاريخ الإسلامي ؛ همشت من قبل " مؤرخي البلاط " . لذلك كان علينا أن نصحح الوضع ؛ فيما تحويه هذه الدراسة .

في عصور ما قبل الإسلام ؛ شهدت شبه الجزيرة العربية أنماط إنتاج شتى متباينة ومتداخلة تجمع بين الإقطاعي والنمط العبودي وبواكير بورجوازية تجارية . وفي هذا الإطار ؛ تدهورت أحوال العوام ؛ فعانوا الفقر والفاقة والحرمان ؛ إلى حد الإقدام على وأد البنات " خشية الانحلال " ، أو الموت الجماعي في الصحراء ، أو التحول إلى العبودية ضماناً لاستمرار الحياة .

ومع ذلك أفرز هذا المجتمع ظاهرة " الفتوة " و" الصعلكة " كحل للمشكلة الاقتصادية الاجتماعية . أما " الفتيان " فعبثوا عن شلة من الموسرين ذوي النزعة الإنسانية ، جعلوا في أموالهم نصيباً للفقراء والمعدمين . بينما كان " الصعاليك " جماعات من الفقراء والمعدمين شكلت " عصابات مسلحة " هامت وجوها في الصحراء ، واحترفت الإغارة على قوافل التجار الموسرين ونهبها وتوزيع النصيب الأوفر مما نهبته على المعوزين ، والاكتفاء بقدر منه يقيم أود الحياة كانوا يوزعونه بينهم بالتساوي^(٧) ويحدثنا الشعر الجاهلي عن أحوال هذه الجماعات التي كانت بمثابة " حكومة شعبية " تستهدف تحقيق العدل الاجتماعي . وتفيض أشعار " تأبط شراً " و" طرفة بن العبد " و" عروة بن الورد " بقميم الشجاعة والنخوة والكرم والنجدة وإغاثة المظلوم ... الخ من الفضائل والشمائل التي افتقرت إليها " الطبقة " الأرستقراطية " ويقول عروة بن الورد :

أقسم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسوا عباب الماء والماء بارد

وبظهور الإسلام ؛ تبنت دعوته هموم المستضعفين وتوجهاتهم في

العدالة والإخاء والمساواة . لذلك أقبل هؤلاء " الأراذل " - حسب نظرة الأغنياء آنذاك - على الدعوة الإسلامية وشكلوا عصب مجاهديها ؛ من أمثال من كانوا عبيداً جرى تحريرهم "كبلال الحبشي" و"صهيب الرومي" و"سلمان الفارسي" ؛ والذين علت منزلتهم في ظل حكومة الرسول (ص) في المدينة ذات التوجه القائم على " المؤاخاة" هذا بينما عارض معظم أفراد "الأرستقراطية" - الملأ المكي - الدعوة لا لأسباب دينية ؛ بقدر كونها زلزلت مكانتهم وأعدت صياغة المجتمع حسب تعاليم الإسلام .

وفي خلافتي " أبى بكر " و" عمر" تحسنت أحوال العوام نتيجة اضطلاعهم بالدور الأعظم في " الفتوح" وما نتج عنها من ثروات حرص الخليفان الراشدان على توزيعها وفق أصول الشريعة .

تغيرت الحال إبان خلافة " عثمان " في أواخر أيامه . ووجهت السياسة آنذاك لصالح " الأرستقراطية السفيانية " و "الأرستقراطية البيروقراطية " ، فاختل ميزان العدالة ؛ الأمر الذي أفضى إلى " الفتنة الكبرى " وأصبح على بن أبى طالب" راعياً للمستضعفين من الثوار الذين آزروه وتشيعوا له بعد مقتل عثمان .

وكان ما كان من ظهور " الفرق الإسلامية " التي عبرت عن مصالح القوى والطبقات الاجتماعية المتناحرة ، أكثر منها تعبيراً عن خلافات دينية . وقيام الدولة الأموية؛ جرى خلخلة البناء الطبقي وإعادة صياغته لصالح " الأرستقراطية " . لذلك اندرج معظم العوام في حركات المعارضة الخارجية والشيعية التي قمعها الأمويون في قسوة وعنف .

ولم يقف العامة مكتوفي الأيدي ؛ فقاموا بثورات اجتماعية في سائر الولايات . ومن مظاهر المقاومة ؛ هجرة صغار المزارعين للضياع والمزارع التي حازها الأمويون وقادتهم وولاتهم وعمالهم ، كذا القيام بمظاهرات واعتصامات للتصل من دفع الجبايات والمغارم^(٨) . ثم انضموا إلى الدعوة العلوية - العباسية التي نجحت في إسقاط الحكم الأموي وتأسيس الدولة العباسية .

وبرغم جهود الخلفاء العباسيين الأوائل في تطبيق الكثير من شعارات الدعوة - كالإصلاح والمساواة ونحوها - إلا أنهم لم يقدموا حلاً حاسماً وناجحاً للمشكلة الاقتصادية - الاجتماعية . لذلك اندلعت ثورات العوام في سائر أقاليم "دار الإسلام" . تلك التي وصمها " مؤرخو البلاط " بتهم الزندقة والإباحية

ونحوها^(١) .

وخلال العصر العباسي الثاني ؛ تفاقمت المشكلات الاقتصادية - الاجتماعية؛ من جراء ترسيخ النظام الإقطاعي . فاندلعت الثورات التي أفضت إلى ظهور الحركات الاستقلالية عن الخلافة والتي قام فيها العوام بدور أساس . هذا فضلاً عن قيام حركات فلاحية وأخرى مهنية في الريف والمدن عند الولاة والعمال . ففي الريف ظهرت تنظيمات " الصعاليك " التي قطعت الطرق على قوافل كبار التجار ، وأغارت على ضياع الموسرين من الولاة والعمال والقواد وكبار التجار . ومن أشهر صعاليك هذا العصر " ابن حمدون " الذي وصفه أحد المؤرخين المحدثين " بأن فيه شهامة الفرسان ، فكان يعطف على الفقراء والمعوزين ... وكان يتعرض للأغنياء ويقسم الغنائم بالتساوي بين أصحابه وبين الفقراء " . منهم أيضاً " عمران بن شاهين " الذي أقام إمارة في " البطائح " شهدت نوعاً من الاشتراكية^(١) . كما اندلعت " ثورة الزنج " التي أزرها عناصر مختلفة من شتى الأجناس والمذاهب ، طلبا للحرية والعدل الاجتماعي . وفي المدن ؛ تأسست تنظيمات " العيارين " والشطار " التي ارتبطت بتنظيمات " الحرف " وشكلت " مليشيات " للدفاع عن الحوانيت والأسواق من إغارات العسكر الرسمي . واتسمت بفضائل الفروسية وقيم النبالة والدفاع عن الفقراء والمعوزين ، كما قامت أحياناً بدور جهادي في مواجهة أخطار البيزنطيين الذين أغاروا على أعالي العراق والشام .

ثم تطورت المعارضة ؛ فاندرج العوام في سلك الدعوة الشيعية والخارجية ، ونجحوا في تأسيس ثلاثة كيانات سياسية ذات طابع " اشتراكي " ؛ كدولة " القرامطة " في البحرين ، والدولة " الصفارية " في سيستان ، وإمارة " بجانة " في الأندلس^(١) ، وإذ تبنت دولة القرامطة طموحات الفلاحين ؛ فقد عبرت الدولة الصفارية - التي أسسها عامل في صناعة النحاس - عن هموم الحرفيين ؛ بينما أسس صغار التجار الإمارة الأخيرة . وهو أمر يدل على مدى تعاضم حركات العوام .

وقد أفضى ذلك في النهاية إلى تضعف الإقطاعية وحدث " صحوة بورجوازية " حول منتصف القرن الرابع ، أسفرت سياسياً عن تأسيس ثلاثة كيانات كبرى هي " الدولة البويهية " في إيران والعراق ، و " الدولة الفاطمية " في المغرب ومصر واليمن " والخلافة الأموية في الأندلس .

والحق أنه في ظل هذا المد البورجوازي ، انتعشت الحياة الاقتصادية وتحسنت أوضاع الطبقة الدنيا - العوام- وتعاضمت النهضة العلمية والفكرية والأدبية ؛ بحيث يمكن الجزم بأن هذا العصر شكل أزهى عصور الحضارة الإسلامية^(١٢). لذلك ندر قيام ثورات اجتماعية ؛ بل إن بعض السلاطين والخلفاء جندوا في جيوشهم فرقاً من العامة .

على أنه حول منتصف القرن الخامس الهجري انتكست " الصحوة البورجوازية " وساد نظام الإقطاع العسكري في العالم الإسلامي برمته . فاختل البناء الطبقي ، وتعاضمت الأرستقراطية العسكرية خصوصاً ، واختفت الطبقة الوسطى أو كادت^(١٣)؛ إذ انضمت بعض شرائحها العليا إلى الطبقة الأرستقراطية، واندرجت شرائحها الوسطى والدنيا في طبقة العامة ؛ نتيجة تردى الأحوال الاقتصادية في ظل النظام الإقطاعي ، وتعاضمت الحروب الداخلية والخارجية وما تبعها من تخريب ودمار . وأصبحت موارد السلطة تعتمد أساساً على ما عرف باسم " اقتصاد الغزو " .

لذلك تعاضمت حركات العوام الذين تحامل عليهم فقهاء البلاط ومؤرخوه . فقد نعتهم " الطرطوشي" بالفسق والدعارة والنهب واللصوصية " ووصفهم " الغساني " بالخسة والعتو لأنهم رعاع وأراذل " كما وصفهم " ابن خلدون " بالمحاكة والفجور والبعد عن المروءة"^(١٥). بينما أشاد بهم إخوان الصفا " فقالوا : " فنيتم أبدانهم في خدمة أهل الدنيا ، وكثرت همومهم من أجلها ، ولم يحظوا بشيء من نعيمها ولذاتها " . ولا غرو ؛ فأخوان الصفا كانوا أصحاب دعوة إصلاحية ذات نزعة إنسانية . ويعزى إليهم - علمياً - الفضل في الوقوف على المفهوم العلمي الصحيح لمصطلح " الطبقة " حيث جعلوا من " درجة حيازة الثروة " معياراً لتشكيل البناء الاجتماعي . ومن خلال رسائلهم نقف كذلك على معلومات هامة عن تدهور أحوال العامة في هذا العصر ؛ إذ فطنوا إلى ظاهرة انتشار " البطالة " ؛ أي الذين لا ينتجون نظراً لتفشي الأمراض الاجتماعية كنتيجة منطقية لتدهور الأحوال الاقتصادية في عصر الإقطاع العسكري .

لذلك اتسم هذا العصر بتعاضم ثورات العوام . ففي العراق جرى تشكيل تنظيمات " الفتوة " من " العيارين " و" الشطار" المعمدين . فثاروا ضد الطبقة الإقطاعية والشرائح العليا من البورجوازية التجارية (١٦) .

ولما وقع خلاف بين الخلافة العباسية والسلطة السلجوقية ؛ أزر العوام

الخلافة التي أكتسبتهم إلى جانبها بعد أن وزعت على تنظيماتهم الغذاء والكساء. ولكنهم ما لبثوا أن ثاروا على الخلافة والسلطة معا لأنها عجزتا عن تقديم حلول ناجحة لأحوالهم المتردية، فاندلعت في الريف حركات "قطع الطرق". وتذكر المصادر قصصاً ضافية في هذا العدد؛ يشيد بعضها بأخلاق الفتيان وشمالهم. منها ما ذكر عن قاطع طريق يسمى "يونس الحرامي" الذي استهدف هو وجماعته إقطاعيات الخلفاء والسلاطين والوزراء وكبار رجالات الدولة ومن سار في ركابهم من كبار التجار وفقهاء السلطة. ولما فشلت الجيوش في ردهم لجأ الحكام إلى تأسيس "منظمات مناوئة" حذبوا فيها "دراويش" الطرق الصوفية، كما فتوا في قوة الفتيان عن طريق تقديم الرشاوى لبعض زعمائهم، فألقت ثوراتهم وهباتهم إلى الفشل، بما يؤكد افتقار هذه التنظيمات إلى الوعي السياسي والطبقي (١٧).

وفي المدن تعاضمت هبات العيارين والسطار نظراً لتأثرهم بالمذهب الشيعي، لذلك وصمها الفقهاء الموالون للسلطة بتهم الزندقة، ونعتوا زعماءهم بالخبت والإباحية.

وفي العصر الأيوبي، أزر العامة صلاح الدين تقديراً لدوره الجهادي في مواجهة الصليبيين. لكنهم رفعوا لواء المعارضة ضد خلفائه لتفაცسهم عن الجهاد، وكثيراً ما شكلوا فرقا خاصة لمناوأة الوجود الصليبي في الشام.

وفي العصر المملوكي؛ تعاون العوام مع الأعراب في إثارة المشكلات ضد السلاطين. وكثيراً ما قاموا بتظاهرات للتشهير بالجنائين من الحكام. وفي المدن - كالقاهرة والإسكندرية ومدن الصعيد - تعاضمت انتفاضات العامة فشكروا فرقا من "الحرافيش" "البطالين" أثاروا الذعر في الأسواق (١٨). وفي الشام عرفت منظماتهم باسم تنظيمات "الزعار" الذين أعلنوا حرباً ضارية ضد رجالات الدولة وكبار التجار.

وفي بلاد المغرب؛ فقد تأدجلت حركات العوام بالتصوف في صيغ متطرفة أقرب ما تكون إلى الهرطقة؛ وذلك لتردى أحوالهم في ظل "المرابطين" و"الموحدين" كما تلقف عوام المغرب فكرة "المهدوية" عن الشيعة، ونجح زعماء العوام في كسب المزيد من الأعوان والأتباع. وقاموا بحركات ضد السلطات الحاكمة في الريف والمدن على السواء. منها - على سبيل المثال - حركة أبي قصبه و"حركة ابن الفرس" و"حركة الدعي الماسي" التي تنزع

زعمائها بالشعوذة والسحر ، وادعى بعضهم " النبوة " لذلك لم تجد السلطات الحاكمة مناصباً من اتهامهم بالكفر والإلحاد ، ونجحت في ردعهم مستعينة في ذلك (١٩) بالفقهاء .

وشهدت الأندلس حركات وهبات شعبية مماثلة ؛ ذات أبعاد مذهبية واجتماعية لاقت إقبالا حتى من بعض الفقهاء المستبشرين . واستعانت السلطة بفرق من النصارى المرتزقة لردعهم واستئصال شأفتهم . كما تعاضمت حركات أخرى بعيدة عن المذهبية ؛ عرف أصحابها باسم " الصقورة " نجحت في تكوين مجتمعات " جببية " مستقلة عن السلطة . ذكر ابن عذارى " المؤرخ أنهم " دمروا البحائر وقطعوا مياهها وشجرها ، فخلت أمامهم المداشر والقرى " (٢٠) .

وعرفت أقاليم المشرق الإسلامى - البلاد الواقعة - شرقي بغداد - حركات مماثلة عبرت عن انتفاضات العوام ، واستهدفت تحرير العبيد والأرقاء العاملين بالسخرة في ضياع الطغمة الحاكم ورجالات دولها . وعرفت تنظيماتهم باسم " منظمات الفتاك " (٢١) .

وقد ذكر ابن بطوطة الكثير من أخبارهم ، وأشاد بفضائلهم . ولا غرو ؛ فقد قاد بعض الفقهاء المستبشرين هذه الحركات ، بينما نعتها فقهاء السلطة بالكفر ، خصوصاً وأن الكثيرين من أتباعها اعتنقوا مذهب " الكرامية " ، وهو مذهب ينطوي على مضمون اجتماعي ثوري . كما اعتنق بعضهم التصوف بالمفهوم الشيعي العرفاني ، لذلك قالوا بمبدأ " المهديوية " واتخذوها شعاراً للتحرر من ربة الطغاة من الحكام . وبفضل التنظيم الصوفي العراقي ؛ نجحت بعض هذه الحركات في تحقيق أهدافها مرحلياً ، لكنها ما لبثت أن تحولت إلى دعوات " هرطقية " واعتنقت أفكاراً خرافية أفضت إلى إخفاقها في النهاية . ولا أدل على طابعها الشعبي من أن أحد قادتها كان " صانع غرابيل " نجح في جمع الأنصار والنيل من رجالات الدولة وكبار التجار .

أما ثقافة العوام ، وطبيعة " ذهنياتهم " . فقد عبرت عنها أدبياتهم في صورة قصص ومقامات وأشعار وأزجال وأمثال وملاحم شعبية .

ومعلوم أن بعض المستبشرين من رجالات الفكر تبنا في إبداعاتهم هموم العوام ، وعلى رأسهم " الجاحظ " الذي ألف رسالة عن " فضائلهم " ، كما حوى أدبه رسائل أخرى موجهة ضد الطغاة من الحكام ، وثالثة - عن " المكردودين " كرسالة " الترييع والتدوير " ولم يخطئ أحد الدراسيين المتحدثين حين وسم

الجاحظ بأنه " رائد الفلكلور العربي " وصدق آخر قال أنه " الزعيم الروحي للشطار والعيارين " (٢٢) .

وأبدع العوام أدبا في صورة " مقامات وعظية " تشيد بطبقتهم وتحثهم على الثورة . كما ظهر نوع من الأدب أطلق عليه مصطلح " أدب التسول والكدية " ، وهو يفضح الواقع السياسي والاجتماعي للمجتمعات الإسلامية آنذاك . إذ يناهز للمهمشين ، ويميل بضراوة على جلاذ يهم من الحكام الجائرين . كما أن رسائل إخوان الصفا انطوت على قصص رمزي ذي مسحة اجتماعية تتعاطف مع العوام : أصبح في كثير من الأحيان متداولاً بين جماعتهم . كما أبدع العامة شعرا عن " المكودين " (٢١) منه على سبيل المثال نقبس هذين البيتين :

إذا ما أعوز الطرق على الطراق والجند
حذار من أعاديهم من الأعراب والكرد.

كما أبدع عوام الأندلس أزجالاً وموشحات اعتبرها النقاد الموالين للسلطة " هذرا سوقيا لا يستحق التسجيل " ؛ بينما أشاد بها غيرهم من المنصفين واعتبروها بمثابة " تاريخ غير مكتوب عن العوام " إذ انطوت على مادة تاريخية هامة وبريئة تقدم صورة واقعية عن تردى أحوالهم .

وأخيرا ، أبدع العوام أدبا ملحميا تمثل في " السير الشعبية " التي تعد كذلك مرآة تعكس مواقف العوام من الحكام فسيرة " سيف بن ذي يزن " و" سيرة الظاهر بيبرس " و" السيرة الهلالية " وغيرها تنطوي على بعد إسلامي تحرري بعد أن وقع العالم الإسلامي - خصوصا في العصور المتأخرة - فريسة للحكام الطغاة في الداخل ، والإغارات الأجنبية الصليبية والمغولية وغيرها . كما تطرح فكرة " المخلص " أو " المهدي المنظر " الذي يظهر ليملاً الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، ويعيد وحدة " دار الإسلام " إلى ما كانت عليه في عصره الذهبي .

نستخلص مما سبق عدة حقائق نوجزها فيما يلي :

أولاً : أن انتشار حركات الفتوة والصعلكة في سائر أرجاء العالم الإسلامي؛ دليل على وحدة صيرورته وتطوره التاريخي ؛ بما يفند مزاعم بعض الدارسين المحدثين عن " القطيعة بين الشرق والغرب " .

ثانياً : أن اندلاع هذه الحركات غير المنظمة - في الغالب الأعم - يعكس

غياب الطبقة الوسطى وعجزها عن الاضطلاع بمهامها التاريخية (٢٥) ؛ كما يوضح هزال هذه الطبقة ويؤكد انتماءها إلى الأرستقراطية الحاكمة .

ثالثاً : برغم تعدد هذه الثورات إلا أنها افتقرت إلى التنظيم والإعداد ، فكانت أشبه ما تكون بهبات تلقائية وعفوية ، ولذلك كانت إنجازاتها محدودة .

رابعاً : أن هذه الحركات افتقرت إلى الوعي الطبقي ؛ ومن ثم نجحت السلطات الحاكمة المتمرسه أن تتخذ من الوسائل لقمعها، سواء عن طريق القوة والبطش ، أو عن طريق الدهاء والحيلة .

خامساً : أن هذه الحركات برغم إخفاقها نجحت إلى حد ما في إيجاد حلول جزئية خففت من تسلط السلطات الحاكمة التي اضطرت أحيانا إلى الاستجابة لبعض مطالبها ، من ناحية ؛ كما كان توجهها ذو الطابع الاشتراكي بمثابة تعبير عن فساد النظم البيروقراطية والعسكرية .

سادساً : أن تفاقم المشكلات الاقتصادية والاجتماعية يفضي تلقائياً إلى التطرف الذي يصل إلى حد الهرطقة .

سابعاً : أن عدم حسم الصراع الطبقي يفضي إلى سيادة أنماط الإنتاج السائدة ، ويحول الصورة التاريخية من التطور الطبيعي للمجتمعات ؛ إلى نوع من الجمود والصورة " الحزونية " التي تكرر " الأمر الواقع " .

تلك - في اختصار صورة عامة عن تاريخ المهمشين في التاريخ الإسلامي؛ تنطوي على دروس ما أحرانا بأن نعيها للوقوف على الكثير من مظاهر تخلف العالم الإسلامي المعاصر وأسبابه.

الهوامش

- (١) هو مشروع : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، دار مريت القاهرة ٢٠٠٣ م .
- (٢) منهم : الدكتور عنتر الشبراوي وناريمان عبد الكريم وأحمد الطاهري وإبراهيم القادري ومحمد تصفوت وأحمد المحمدي وهاشم العلوي وبوبه مجاني .
- (٣) عن إشكالية المنهج ؛ راجع : محمود إسماعيل : إشكالية المنهج في دراسة التراث ، دار مريت القاهرة ٢٠٠٣ م .
- (٤) عن مظاهر التاريخ الاقتصادي - الاجتماعي ؛ أنظر : محمد تصفوت : نحو تحديث دراسة التاريخ الإسلامي ، دار مريت ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م .

- (٥) أنظر : كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، الترجمة العربية ، ص ١١٨ ، بيروت ١٩٧٧ .
- (٦) محمود إسماعيل : سوسولوجيا الفكر الإسلامي ، المجلد الأول ، المقدمة .
- (٧) أدونيس : الثابت والمتحول جـ ١ ، ص ١٠١ ، بيروت ١٩٧٤ .
- (٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، بيروت ١٩٥٧ ، ص ٦٣ .
- (٩) محمود إسماعيل : الحركات السرية الإسلامية ، فاس ١٩٧٧ ، ص ٤٩ وما بعدها .
- (١٠) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٩ ، ص ٢١٩ وما بعدها .
- (١١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، بولاق ١٢٣٨ هـ ، ص ٣١٣ .
- (١٢) موريس لومبار : الإسلام في عظمته الأولى ، الترجمة العربية ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٤٠ .
- (١٣) Robin Livy. Social Structure Of Islam, P. 46, Cambridge, 1956.
- (١٤) الطرطوشي : سراج الملوك ، القاهرة ١٢٨٩ هـ ، ص ٤٢٨ .
- (١٥) ابن خلدون : العبر ، القاهرة ، د.ت ، جـ ٣ ، ص ٩١٧ .
- (١٦) أشتور : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ، الترجمة العربية ، دمشق ١٩٨٥ . ص ٣٤٨ - ٣٥١ .
- (١٧) أحمد صادق سعد : تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٣٠٥ وما بعدها .
- (١٨) Lane, Pool: History Of Egypt Under The Mohammedan Rule , P.327, New York , 1962.
- (١٩) ابن بطوطة : تحفة أنظار في عجائب الأمصار ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٣٦٧ .
- (٢٠) ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب جـ ٣ ، ص ٢٦٧ .
- (٢١) ابن بطوطة : المرجع السابق ، ص ٣٦٩ .
- (٢٢) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، القاهرة ١٩٥٧ ، جـ ١ ، ص ٤٥٠ .
- (٢٤) محمد رجب النجار : التراث القصصي في الأدب العربي ، الكويت ١٩٩٥ ، جـ ١ ص ١٦٩ وما بعدها .
- (٢٥) عن هزال البورجوازية في العالم الإسلامي ومسئوليتها عن تخلفه .
- راجع : محمود إسماعيل : سوسولوجيا ، مجلد ١ ، ص ١٩٢ وما بعدها .

الفصل الثالث

أول ثورة وتغيير في الدولة العربية الإسلامية: (ثورة الأمويين ضد خلافة الراشدين سنة ٤١هـ/٦٦١م)

عطية القوصي(*)

وقعت أول ثورة وتغيير في الدولة العربية الإسلامية سنة ٤١هـ / ٦٦١م بإعلان قيام حكم دولة جديدة على أنقاض دولة الخلفاء الراشدين، وهو حكم البيت الأموي والدولة الأموية التي أقامها معاوية بن أبي سفيان وجعل الحكم فيها وراثيًا لأسرته من بعده؛ خلافا لما كانت عليه الحال زمن الراشدين؛ وسارت على نهجها الدولة التي قامت بعدها على حكم المسلمين وهي دولة خلفاء العباسيين.

وكان المسلمون قد واجهوا، بعد وفاة الرسول (ﷺ) سنة ١١هـ / ٦٣٢م مشكلة نظام الحكم، وكيفية تدبير أمور الدولة التي وضع النبي أساسها في بلاد الحجاز، وقد نتجت هذه المشكلة من أن الرسول ارتحل عنهم دون أن يوصي لأحد بالحكم من بعده، كما إنه لم يترك وراءه ابنا يرثه في حكم المسلمين وقيادة الدولة التي أقامها من بعده. كذلك فإن آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي لم تشر الى هذا الأمر؛ وكان الله ورسوله تركوا الأمر للمسلمين ليختاروا من نظم الحكم ما يلائمهم، ويتمشى مع تطور حياتهم، ولا يتنافى مع تعاليم الدين الجديد.

ولقد ارتبط التشريع الإسلامي بضرورة استمرار قيام الدولة التي وضع الرسول أساسها ولبناتها الأولى، ولذلك كان لابد من تواجذ سلطة تنفيذية، بعد وفاة الرسول، لهذه الدولة، تقوم بتطبيق التشريع وتحافظ على وحدة الأرض ووحدة الجماعة وتحقق عالمية الدولة خارج نطاق شبه الجزيرة، وفي الوقت نفسه تسهر على مصلحة الجماعة الإسلامية وتحافظ عليها من أي خطر يهددها أو عدو يهدد أمنها.

وقد عُرف النظام الذي تمثل في الطريقة التي هدى الله المسلمين إليها،

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب - جامعة القاهرة.

لاختيار من يخلف الرسول في حكمهم وفي تسيير أمور دولتهم باسم نظام الخلافة. على أن هذا النظام لم ينشأ من فراغ، فلقد وضع الرسول أسسه عند قيام الدولة، وطوال العشر السنوات التي قاد فيها مسيرتها. وتمثلت هذه الأسس في مبدئين هامين من مبادئ التشريع الإسلامي؛ وهما مبدأ الشورى بالنسبة للحاكم، ومبدأ الطاعة لله وللرسول بالنسبة للرعية. وقد أشار إليهما الله تعالى في كتابه الكريم في قوله تعالى: [فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَنت لَهُمْ وَلَوْ كَنت فَظًا غَليظَ القَلْبِ لَأنفَضُوبَا مَن حَولِكَ فَاعفَ عَنْهُمُ واسْتَغفِرْ لَهُمُ وشاورَهُمُ فِي الأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المَتَوَكِّلِينَ] (آل عمران : ١٥٩). وقوله تعالى في طاعة الرعية لله وللرسول: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ] (النساء: ٥٩) وقد رسخ الرسول هذين المبدئين عملياً، فأصبح الحكم في الإسلام بمثابة عقد أو عهد، وهو ما عُرف عند المسلمين باسم " البيعة "، وهي بيعة بين الراعي والرعية يلتزم فيها الطرفان بحدود التشريع الإسلامي. وقد طبق الرسول نظام الشورى في الحكم، وظهر في عهده أهل الشورى، وكانوا من كبار الصحابة، واستبعد النظام الوراثي في اختيار قيادات حكومته. وقد كان النظام

الوراثي معروفاً عند العرب من اتصالهم بالفرس والروم وملوك الغساسنة والمانذرة وممالك اليمن القديمة، معين وسبأ وحميز.

وما حدث في اجتماع " سقيفة بني ساعدة " بالمدينة، بعد وفاة الرسول مباشرة، يؤيد رسوخ مبادئ الشورى ومفاهيمها في الحكم عند المسلمين. وقد برز في اجتماع السقيفة هذا مبدأ آخر في الحكم، وهو ضرورة أن يكون خليفة رسول الله من قريش، وذلك من خلال المناقشات التي دارت بها، والتي استطاعت أن تتخطى حاجز العصبية القبلية عند القبائل بين المهاجرين والأنصار. وقد اعتمد إقرار هذا المبدأ على إقرار أهل السقيفة لما للمهاجرين من فضلٍ وسابقةٍ على الأنصار في نصره الدعوة الإسلامية.

وبذلك نجد أن المبادئ التي قام عليها نظام الخلافة وأقرها اجتماع السقيفة هي : اقتصار اختيار الخليفة على القرشيين، وأن يكون أهل الشورى، الذين يساعدون الخليفة في الحكم، من طبقة كبار الصحابة، وأن يتم اختيار الخليفة بالانتخاب الحر، وأن تؤخذ للخليفة البيعة العامة من عموم المسلمين. وكان على الخليفة المنتخب الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله، وعلى الرعية التي بايعت السمع والطاعة، طالما ظل الخليفة قائماً بهذا الالتزام.

ولقد سارت الأمور على ما رسمه اجتماع المسلمين في سقيفة بني ساعدة ، في اختيار الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان بن عفان، وقد حكم أبو بكر الصديق سنتين وحكم عمر بن الخطاب عشر سنوات، وحكم عثمان إثني عشر عامًا، وقد جاءت نهاية كل خليفة منهم نهايةً طبيعية إلا نهاية عثمان، فقد جاءت مفاجئة باغتياله سياسيًا في أعقاب أحداث الفتنة التي وقعت في أواخر أيام خلافته وتطورت أحداثها حتى انتهت بمصرع أول خليفة من خلفاء المسلمين قتيلاً بسبب الحكم.

حقيقة أن الاغتيال والقتل قد وقعا على الخليفة عمر قبل عثمان، لكن اغتيال عمر وقتله تم على يد فتى مولى للمغيرة بن شعبه يدعى أبا لؤلؤة المجوسي، وهو شخص واحد ولدافع شخصي لم يكن له علاقة بالسلطة أو الحكم، أما اغتيال وقتل عثمان فقد جاء في أعقاب ثورة، قام بها رجال من الأمصار، احتجاجاً على سياسة الخليفة عثمان وسياسة ولاته الأمويين معهم، عُرفت في التاريخ باسم " الفتنة الكبرى " ..

ولقد كانت جذور هذه الفتنة كامنة في باطن نفسية العرب من قبل الإسلام، وقد ظلت كامنة ولم تظهر على السطح إلا في خلافة عثمان، أو بمعنى أصح، غداة اختيار عثمان خليفة للمسلمين سنة ٢٣ للهجرة. ولقد جاء هذا الاختيار بين اثنين بارزين من الستة من رجال الصحابة، الذين رشحهم عمر للخلافة من بعده وهو علي فراش الموت، ليكون الخليفة على المسلمين واحداً منهم، وهما علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، علي الهاشمي وعثمان الأموي.

وقد بدا أن اختيار عثمان للخلافة، دون علي، فيه تجاوز لحق الهاشميين في الحكم، لذا أوجدت هذه النتيجة معارضة من بني هاشم من أول الأمر، وكانوا يعتقدون أن علياً أحق بالخلافة من عثمان. ولقد أذكى هذا الاختيار لعثمان روح التنافس القديم الذي كان بين بني هاشم وبني أمية على السيادة والزعامة في مكة، وامتدت جذوره إلى ما قبل الإسلام.

ولقد جاءت الفرصة، التي طالما انتظرها الأمويون، في إحراز السيادة والزعامة على الهاشميين، وذلك حين أنتخب عثمان بن عفان الأموي خليفة للمسلمين. وقد كان عثمان في حاجة إلى خبرة بعض رجال الأمويين في الحكم والإدارة، ليكونوا عوناً له في حكم الدولة، وقد أنس منهم الإخلاص والمعونة، ولذلك اتهمت حكومته بأنها صبغت بالصبغة الأموية. وكان عثمان قد قام بعزل

بعض ولاية البلدان الذين كانوا ولائاً عليها على عهد عمر، بسبب وقوع بعض الأحداث فيها، فعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة، وعيّن مكانه قريبه سعد بن أبي وقاص، ثم قريبه الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط، ثم قريبه سعيد بن العاص. أما البصرة فقد عزل عنها أبا موسى الأشعري، وعيّن مكانه ابن خاله عبدالله بن عامر. وكانت ولاية الأردن ودمشق قد اجتمعت لمعاوية بن أبي سفيان الأموي في عهد عمر، فلما وليّ عثمان الخلافة أقره عليهما، ثم ضم إليه فلسطين وحمص وقنسرين، وبذلك أصبح معاوية والياً على كل الشام بعد سنتين من تولي عثمان أمر الخلافة. وكان عمرو ابن العاص والياً على مصر، فأبقاه عثمان عليها والياً مدة خلافته لمدة عام، ثم عزله عنها ووليّ مكانه أخاه من الرضاعة، عبدالله بن سعد ابن أبي السرح.

وهكذا نرى بني أمية يستأثرون بالنفوذ والحكم في خلافة عثمان. وبرغم إثبات هؤلاء الولاة الأمويين جدارتهم في الحكم، لترسهم ولطول خبرتهم فيه؛ إلا أنّ وقوع بعض الأحداث في الأمصار أدى إلى المعارضة لهم والثورة ضد الخليفة عثمان، واتهامه باصطناع أقربائه، والاستناد عليهم واستبدادهم في البلاد التي تولوا أمرها وظلمهم لأهلها، فوُجعت في هذه الأمصار الفتنة التي أدت بالثورة على الخليفة وانتهت بمقتله (يوم الجمعة ١٨ من ذي الحجة سنة ٣٥هـ) الذي عُرف في التاريخ بيوم الدار.

ولقد تجددت روح التنافس بين بني أمية وبني هاشم، غداة انتخاب علي بن أبي طالب خليفةً للمسلمين بعد اغتيال عثمان بخمسة أيام (يوم ٢٣ من ذي الحجة سنة ٣٥هـ)، تولى عليّ في ظروف صعبة كانت تمر بها الدولة الإسلامية، فقد تولاهما في أعقاب فتنة أصابت الدولة وانتهت بمقتل خليفة أموي، وهو علمٌ من أعلام الإسلام، وصاحبُ فضل وسابقة في الدين، وصاحبُ أيادٍ بيضاء على الدعوة الإسلامية، قتل مظلوماً. كذلك كان قتلته الذين أشعلوا نار الفتنة لا يزالون يرابطون في المدينة، ولم يغادروها إلى أمصارهم في انتظار تحقيق ما جاءوا وثاروا من أجله. وما زال المتربصون بالإسلام والمعرضون على الفساد، وعلى رأسهم عبدالله بن سبأ، يترصدون للإسلام وللمسلمين.

ولقد انقسم الناس آنذاك أقساماً : بين مُطالب للخليفة الجديد بالأخذ بالتأثر لدم الخليفة المقتول، ومُتهم لعدد من الصحابة وفي مقدمتهم الخليفة المنتخب عليّ بمسئولية قتل عثمان، وعدم قيامهم بالدفاع عنه كما يجب، وقتله قتلوا الخليفة، وهم على استعدادٍ لقتل كل من يقف أمام أطماعهم، ومعتزلين للفتنة آثروا إغلاق

أبواب بيوتهم عليهم، أو ترك المدينة إلى غيرها من البلاد، حتى لا تتلوث أيديهم بدماء ضحايا هذه الفتنة وكلها دماء أناس مسلمين.

وكان على علي أن يعالج الموقف بما عهد به من حكمة، وما شهد له من حنكة، وأن يطفى نار الفتنة، وأن يتخطى رواسيها ليصل بالدولة الجريئة إلى بر الأمان. وإذا كان على قدأتهم في دم عثمان، فإننا نستطيع القول بأنه ليس علي وحده هو المتهم في هذا، ولكن كل الصحابة، من منطلق هذا الاتهام متهمون؛ لأن ألف رجل من الثوار جاءوا من الأمصار لقتل الخليفة، لا يمكن لهم أن يغلبوا أربعين ألفاً من أهل المدينة إذا هم وضعوا في اعتبارهم حماية الخليفة من القتل! وإذا افترضنا جدلاً كما يزعم البعض أن علياً وطلحة والزبير ومعاوية قد تضافروا على قتل عثمان، فما الذي منع بقية الصحابة من المهاجرين والأنصار من نصرته والدفاع عنه وحمايته من القتل؟

وفي الحقيقة فإن المسئول عن دم الخليفة هم دعاة الفتنة والمدبرون لها من أمثال ابن سبأ اليهودي الحاقد على الإسلام وأتباعه، ومن بعض رجال القبائل دون قريش الذين حقدوا على قريش أن تكون لها السيادة على القبائل كلها، وأرادوها أن تكون لكل العرب دون تمييز. والصحابة جميعهم براء من دم الخليفة، فحاشا لله أن يتآمر صحابي، وهم من صفوة المؤمنين، على قتل إنسان، وهو يعلم أن قاتل النفس بغير حق مخلد في النار، فما بالك لو كان هذا الإنسان خليفة للمسلمين؟

لقد كان جميع الصحابة وراء عثمان، وكانوا مساندين له ومستشاريه وأدائه في الحكم وأهل مشورته والمدافعين عنه يوم الدار وقبل ذلك اليوم؛ فكيف يجزؤ مجترئ على اتهامهم بقتله؟

لقد ثبت أن الحسن والحسين ابني علي وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر ومروان بن الحكم وأبا هريرة؛ كانوا كلهم يحملون السلاح دفاعاً عن منزل الخليفة وكانوا يتناوبون في حراسته، ولم يدخل الثوار منزل الخليفة، ويقتحموه لقتله إلا بعد أن صرفهم الخليفة، وأمر بأن ألا يدافع أحد عنه وأن يلتزموا بيوتهم. ولم يكن عثمان وهو الرجل المؤمن بقضاء الله والمؤمن بنزاهة حكمه، يتصور أن يهون على الناس وأن ينسوا له أيديهم البيضاء عليهم وعلى الإسلام، وأن تنتهي الأمور إلى النهاية المأساوية التي انتهت إليها.

ولقد بدأ على خلافته بالعمل على إزالة أسباب شكوى الناس، وقد تمثلت في

شكايتهم من ولاية عثمان على الأمصار، فقام بعزل ولاية عثمان جميعهم وتولية غيرهم، وقد قصد بذلك أن يطوي صفحة سابقة بخيرها وشرها، تتصل بعلاقة هؤلاء الولاة مع رعيّتهم في الأمصار، وفتح صفحة جديدة بتولية ولاية جدد قد يرضى عنهم أهل الأمصار. فعزل أبا موسى الأشعري عن الكوفة، وعبدالله بن عامر عن البصرة، وعبدالله بن أبي السرح عن مصر، ومعاوية بن أبي سفيان عن الشام. ولم يكن لدى الخليفة، في عزل هؤلاء الولاة عن ولاياتهم، أي شك في ذمهم ولا سلوكهم، ولكنه أراد التغيير حتى يقطع الطريق على الثوار والمتمردين ويقم عليهم الحجة. ولم يستبد عليُّ برأيه في هذا الأمر، وإنما جاء بعد مشورة كبار الصحابة ومن بينهم طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام.

وبينما كان عليُّ يتدبر الأمر فوجئ بتجمع في مكة بقيادة طلحة والزبير، يطالب الخليفة بالتحقيق في مقتل عثمان وأخذ الثأر من قاتليه، وقد انضم هذا التجمع حول أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر، زوج رسول الله (ﷺ) ووقعت بين الطرفين موقعة الجمل عند البصرة، وهُزم فيها أصحاب الجمل، ودخل عليُّ البصرة وصالح أهلها، فبايع له أهل العراق وفارس جميعاً. ثم انتقل عليُّ إلى الكوفة واتخذها عاصمةً لدولته بدلاً من المدينة.

ورغم انتصار عليٍّ فإنَّ خلافته كانت تواجه الكثير من الصعوبات بسبب بداية اقتتال المسلمين لبعضهم البعض يوم الجمل، مما زاد الحقد في النفوس والرغبة في الثأر. كذلك لوجود قتلة عثمان في جيش عليٍّ ووجود أنصار عبدالله بن سبأ المياليين إلى الفتنة والراغبين في استمرار الشر بين صفوف المسلمين. كذلك شارك في جيش عليٍّ كثيرون من أهل القبائل المتأخرة في دخول الإسلام، الذين لم يكن يهتمهم الوقوف إلى جانب الحق بقدر اهتمامهم بما يحقق مصالحهم ويزيد من مكاسبهم.

وكانت الخطوة التالية، أمام الخليفة بعد يوم الجمل، المواجهة مع أهل الشام الذين خرجوا ثائرين بقيادة معاوية بن أبي سفيان وهم يرفعون قميص عثمان الملطخ بدمه ويطالبون بالثأر له من قتلته. هذا ولم يذكر معاوية وفريقه عليًّا في أمر البغي على عثمان إلا لمناسبة انضواء قتلة عثمان إليه واستعانته بهم ووقوفهم معه؛ فهم لم يتهموه بقتل عثمان اتهامًا مباشرًا لأنهم يعلمون أنَّ قتلة عثمان هم الذين أساءوا إلى عليٍّ كما أساءوا إلى عثمان والإسلام.

ولقد سار عليُّ بقواته أواخر ذي القعدة سنة ٣٦هـ، إلى حدود الشام والتقى

بجيشه مع جيش معاوية بقرب الرقة على شاطئ الفرات، آخر تخوم العراق وأول أرض الشام في سهل يُعرف (بصفين)، ووقعت هنالك معركة كبيرة أوشك جيش علي أن يحقق النصر فيها على جيش الشام، فأدرك معاوية ومن معه قرب هزيمتهم فلجأوا إلى التحكيم، وهي فكرة عمرو بن العاص. وذلك برفع المصاحف على أسنة الرماح وطلب وقف القتال ووقف إراقة دم المسلمين وتحكيم كتاب الله بين المتحاربين.

فتوقف القتال بين الطرفين وكتب كتاب التحكيم يوم ١٣ من صفر سنة ٣٧هـ، على أن يختار كل فريق من الفريقين المتقاتلين حكماً له، وأن يجتمع هذان الحكمان سوياً ثم يعلنان أمرهما من النزاع الدائر بين الطرفين، وقد حُدد مكان اجتماع الحكمين في منطقة أذرح بدومة الجندل في أول شهر رمضان. فاختار حزب علي الصحابي الجليل أبا موسى الأشعري، واختار حزب الشام الصحابي الجليل عمرو بن العاص. وكان أبو موسى الأشعري رجلاً تقياً فقيهاً عالماً، وكان عمرو بن العاص من كبار الصحابة ومن كبار قادة المسلمين.

ولقد تم التحكيم في الموعد والمكان المحددين، وقد روى المغالطون عن حادثة التحكيم أن أبا موسى وعمراً اتفقا على خلع الرجلين، فخلعهما أبو موسى واكتفى عمرو بخلع عليّ دون معاوية. وهذه مغالطة تاريخية لم تحدث، وأصل المغالطة هنا تجاهل المغالطين أن معاوية لم يكن يؤمنذ خليفة ولا هو ادعى الخلافة، وأنه لم يكن هنالك خليفتان أو أميران للمؤمنين جرت المفاضلة بينهما وأن الحكمين اتفقا على خلعهما معاً، وأن أبا موسى خلع الخليفين تنفيذاً لاتفاقه مع عمرو على ذلك، وأن عمراً خدعه بخلع خليفة دون الآخر خلافاً للاتفاق بينهما. وهذا كله كذب، فالذي فعله عمرو هو الذي فعله أبو موسى لا يفترق عنه في شيء. وقد بقي أمر الخلافة معلقاً على نظر أعيان الصحابة ليرؤوا فيه رأيهم متى شاءوا وكيف شاءوا. واتفق الحكمان على أن يعهدا بهذا الأمر بصدد الخلافة لكبار صحابة الرسول الأحياء آنذاك والذين مات عنهم رسول الله وهو راض عنهم. واتفاق الحكمين على ذلك لا يدخل معاوية في حساب الخلافة، لأنه لم يكن خليفة آنذاك ولم يقاتل من أجل الخلافة، وإنما قاتل طلباً في إقامة الحد على الذين شاركوا في قتل عثمان. وبخصوص إمامة المسلمين والخلافة اتفق الحكمان على ترك النظر فيها إلى كبار الصحابة إن شاءوا يقرّون عليّاً على خلافته أو يختاروا خليفة غيره من الصحابة. وقد اتفق الحكمان أيضاً على ترك كل من عليّ ومعاوية التصرف في البلاد التي تحت يده حتى يتم الفصل في أمر

الخلافة وأن يبقى وضعهما السياسي على ما هو عليه.

وبذلك فإنَّ التحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة، كما يدعي المغرضون. وكان التحكيم يكون محل المكر والغفلة لو أنَّ عمراً أعلن في نتيجة التحكيم أنه وليّ معاوية خلافة المسلمين، وهذا ما لم يعلنه عمرو ولا ادعاه معاوية. وخلافة معاوية، كما هو ثابت تاريخياً، لم تبدأ إلا بعد تصالحه مع الحسن بن عليّ سنة ٤١هـ، وتنازل الحسن لمعاوية عن حقه في الخلافة بعد قتل والده، في عام الجماعة ومن ذلك اليوم فقط تسمى معاوية بخليفة وأمير المؤمنين. فعمرو بن العاص لم يغالط أبا موسى ولم يخدعه، لأنه لم يُعط معاوية شيئاً جديداً، ولم يقرر في التحكيم غير ما قرره الصحابي الجليل أبو موسى ولم يخرج عما اتفقا عليه معاً. فبقيت العراق والحجاز وما يتبعهما تحت من كانت تحت يده من قبل، وبقيت الشام وما يتبعها تحت يد من كانت تحت يده من قبل. وتعلق أمرُ الخلافة بما سيكون من اتفاق أعيان الصحابة متى شاءوا وكيف شاءوا، ولهم أن يُبقوا عليّاً في الخلافة، أو أن يخلعوه عنها ويولوا عليها من يرونه خيراً منه. وإذا كانت هذه الخطوة الثانية لم تتم فما ذلك تقصير من أبي موسى ولا خدعة من عمرو، فهما قد قاما بمهمتهما بحسب اقتناعهما وبحسب ما أدى إليه اجتهادهما.

ولقد رفضت طائفةُ القراء من قبائل بكر وتميم وطيّ، التي كانت مع جيش عليّ، فكرة التحكيم برغم أنهم هم الذين دفعوا عليّاً إلى قبولها، واتخذوا من صيحة أحد زعمائهم: " لا حُكْمَ إلا لله " شعاراً لهم، أي أن حكم الله في أمر الخلافة واضح لا يحتاج إلى التحكيم. وخرج هؤلاء عن جيش عليّ، ورفضوا العودة معه إلى الكوفة، ونزلوا، بظاهر الكوفة قريةً تعرف " بحروراء "، واختاروا من بينهم قائداً وإماماً هو " عبدالله بن وهب الراسبي "، وقد أطلقوا على أنفسهم اسم " الحرورية " نسبة لحروراء، والشراة لأنهم، كما يدعون، اشتروا أنفسهم بأن باعوها في سبيل الله؛ بينما أطلق عليهم جماعة عليّ اسم " الخوارج ".

ودخل عليّ في نقاش مع الخوارج ومحاولة التفاهم معهم للرجوع إلى صفه وصف المقاتلين في جيشه، إلا أنهم رفضوا وأصروا على دعواهم وطلبوا عليّاً بإقرار الخطأ على نفسه لقبوله التحكيم وطلبهم منه أن يتوب إلى الله. وقد كرر عليّ المحاولة معهم، فعاد إليه جماعة منهم وبقي نحو أربعة آلاف منهم خارجين عليه. فلم يكن أمام عليّ إلا مقاتلة هذه الفئة الخارجة عن صف جيش المسلمين

وقت الحرب وفي ظرف يتحدد فيه مصير الدولة الإسلامية. فقاتلهم عند قرية " النهروان "، خارج الكوفة وهزمهم، وانضاف إلى جيشه عددٌ منهم بعد الهزيمة وفر من نجا منهم من القتل هاربين بأفكارهم ومبادئهم ينشرونها في البلاد البعيدة عن قبضة الدولة.

وبعد هزيمة عليّ للخوارج، حاول استتفار قواته لقتال جند الشام لكن جند العراق كانوا قد ملوا القتال وطول أمده وتشوقوا للعودة إلى بلادهم، فتسللت أعدادٌ كبيرة منهم عائدة إلى الكوفة ولم يبق معه إلا عددٌ قليلٌ منهم. وفي الوقت نفسه تزايدت أعدادُ الملتفين حول معاوية في الشام، خاصة بعد أن رأوا تخاذل أهل العراق وتفرقهم من حول عليّ وعدم رغبتهم في مواصلة القتال.

وبينما كان عليّ يستحث جنده على القتال ويمنيهم بالنصر إذا هم واصلوه معه، حدثت مؤامرة الخوارج التي دبروها للخلاص من عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص بالقتل والاغتيال في ليلة واحدة. وقد نجحت هذه المؤامرة التي دُبرت صباح يوم السابع عشر من رمضان سنة ٤٠ هـ، في قتل عليّ على يد الخارجي عبدالرحمن بن ملجم بينما نجا كل من معاوية وعمرو بن العاص.

لدى طعن عليّ، ذهب إليه جماعةٌ من المسلمين، كانوا قريبين منه، وقالوا له : "استخلف علينا"، فقال : " لا، ما استخلف رسول الله فاستخلف، ولكن إن يُرد الله بالناس خيراً فسيجمعهم بعدي على خيرهم، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم ".

ومات عليّ متأثراً بجرح السيف المسمم الذي ضرب به. فلمّا مات عقد الناس، في الكوفة، بالبيعة لابنه الأكبر الحسن، وهم يرون أنه أحق بالخلافة من غيره. لكن الحسن رأى ضرورة حقن دماء المسلمين ووقف نزيه هذه الفتنة بتنازله عن الإمامة، بعد أن تولاهما لسنة شهور، وأدت الوساطة التي حدثت في هذا الخصوص إلى أن يتنازل عن الخلافة. وتم عقد البيعة من الحسن لمعاوية في موضع يُقال له (مسكن) على نهر دجيل في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٤١ للهجرة، فسُمي ذلك العام (بعام الجماعة) لاجتماع المسلمين فيه بعد الفرقة.

ولقد دخل معاوية، بعد ذلك، مع أعوانه الكوفة فبايعه أهلها وبقية المسلمين في كافة الأمصار بالخلافة. وبتولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة ينتهي عهد الخلفاء الراشدين ويبدأ عهدٌ جديدٌ هو عهد الخلافة الأموية، الذي استمر خلاله الأمويون يحكمون دولة الإسلام مدة ٩١ عاماً من سنة ٤١ حتى سنة ١٣٢

للهجرة.

ولقد وقع التغيير في الدولة العربية الإسلامية على يد معاوية بن أبي سفيان، الذي صار الخليفة والحاكم الشرعي للدولة الإسلامية، والذي نجح في أن يجعل الحكم وراثيًا في دولة الإسلام، على خلاف ما كان عليه في عهد الراشدين، والذي نجح في أن يقيم لأسرته وأهل بيته الأمويين مُلكًا على غرار مُلك الفرس والروم.

ولقد كانت المهمة الملقاة على عاتق معاوية لإحداث التغيير في الدولة الإسلامية مهمة غاية في الصعوبة، إذ كان عليه في بداية حكمه أن يُلِم شعث المسلمين وأن يوحد كلمتهم، وأن يتخطى الأحداث الجسام التي وقعت ووصل بسببها إلى كرسي الحكم، وأن يعيد الأمن والنظام إلى الدولة وأن يُصلح الإدارة والاقتصاد، وأن يستعيد، بعد ذلك كله، مسيرة الفتوح الإسلامية التي بدأت على عهد أبي بكر الصديق، وأن يُشغَل القبائل العربية بحركة الفتح والجهاد عن الصراع في داخل الدولة.

ولقد حكم معاوية الدولة الإسلامية مدة عشرين عامًا (٤١-٦١هـ) استطاع خلالها أن يحقق كل ذلك وأن يتخطى جميع العوائق التي اعترضت سبيله، وأن يؤسس دولة قوية البنيان مزدهرة الحكم والسياسة والإدارة، منتعشة الاقتصاد، متينة الجيش والأسطول واسعة الجهات والأركان. ولقد نجح معاوية، في جعل حكام الأمويين من بعده، يُكملون ما بدأه الراشدون من فتوح، ويواصلون ما قاموا به من جهاد، وأن يوسعوا حدود الدولة لتصل إلى حدود الصين شرقًا والأطلسي غربًا وغانا جنوبًا وفرغانة شمالًا، وتضم بين جنباتها مزيجًا متجانسًا من شعوب القارات المختلفة، وتجنّي المزيد من ثمرات وخيرات البلاد المفتوحة، مما جعلها في حالة رخاء وترف زائد.

وقد أحدثت ثورة الأمويين تغييرًا لنظام حكم الدولة العربية الإسلامية، لما تميز به ذلك العصر من سمات خاصة غلبت عليه هي :

أولاً : انتقال مركز الخلافة وعاصمتها من المدينة والكوفة إلى دمشق وبلاد الشام، فحدث بذلك في الدولة التغيير الحضاري، وانتقلت من طور البداوة التي كانت عليها في شبه الجزيرة إلى طور المدنية الهيلينية، لمجاورة العاصمة دمشق لدولة الروم. فحدث بذلك التأثير المادي على العرب في الملابس والمأكل والمشرب والمسكن، كذلك ظهر التأثير البيزنطي واضحًا في المعمار الإسلامي

الذي تأثر كثيراً بالعمار البيزنطي وبنى خلفاء الأمويين المساجد الفخمة والقصور الفارحة تشبهاً بكنائس الروم وقصورهم.

كذلك ظهر التأثير المادي واضحاً في حياة الترف والبخ التي عاشها خلفاء الأمويين، عدا الخليفة عمر بن عبدالعزيز، فقد ورد عن غالبيتهم الإسراف والبخ الزائد في كل ألوان الترف والرفاهية .. ولقد كان دخل الولايات المفتوحة في العهد الأموي كفيلاً بتحقيق الترف الذي شمل الدولة جميعها، ولم يقتصر على الحاكمين فحسب بل شمل سائر طبقات الشعب بدليل رخاء الأسعار في ذلك العهد وتوافر السلع وعدم وجود مجاعات أو أوبئة أصابت البلاد أيام الحكم الأموي.. حقيقة أن ثورات الخوارج استنزفت أموالاً طائلة من حكام الأمويين.. لكن رغم ذلك لم تعاني البلاد أيامهم من أي أزمات مالية أو مشاكل اقتصادية.

ومن النقلات الحضارية للدولة الإسلامية في العهد الأموي استكمال نظمها الإدارية والمالية وقيام دواوين عدة، أدارت أمور البلاد بكفاءة زائدة، وقد استعان حكام الأمويين في ذلك بأهالي البلاد دون تعصب لدين أو لمذهب، وشارك أهل الذمة في الأعمال الهامة وفي دواوين الدولة كافة .

ومن التغييرات الحضارية التي تمت للدولة العربية الإسلامية في العهد الأموي تعريب العملة والدواوين ويُنسب ذلك للخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، الذي عربّ الدواوين فصار يُكتب فيها بالعربية بعد أن كان كل مصر من الأمصار يكتب باللغة التي كان يُكتب بها قبل الإسلام، وقد أدى ذلك إلى سرعة تعريب الأمصار وانتشار العروبة والثقافة العربية فيها. كذلك يُنسب لعبدالملك تعريب العملة الإسلامية، ففي سنة ٧٥ هجرية أمر عبدالملك بسك أول دينار عربي كتب على وجه من وجهيه (قل هو الله أحد)، وكتب على الوجه الآخر عبارة (لا إله إلا الله)، ويرجع السبب في سك عبدالملك للعملة الإسلامية أن المسلمين كانوا يتعاملون بعملة الروم، وهي الدينار الذهبية وعملة الفرس، وهي الدراهم الفضية، ولم تكن لهم عملة خاصة بهم. وحدث أن عبدالملك استحدث أن يكتب في صدر صفحه المرسل إلى ملك الروم عبارة (قل هو الله أحد) مع ذكر النبي (ﷺ)، ووصلت صحف من هذه الصحف إلى ملك الروم فغضب لذلك وأرسل إلى عبدالملك يقول له معاتباً : (إنكم قد أحدثتم في طواميركم شيئاً من نكر نبيكم فاتركوه وإلا كتبنا في دنائرتنا من نكره ما تكرهون). فعظم ذلك في صدر عبدالملك، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية يسأله في هذا الأمر، فقال له : (يا أبا هشام حرم دنائيرهم واضرب للناس سككا فيها ذكر الله تعالى وذكر رسوله (ﷺ))

ولا تعفهم مما يكرهون) فضرب الدنانير سنة ٧٥هـ، واستقلت بذلك العملة الإسلامية عن التبعية للعملات الرومية والفارسية.

ومن التغييرات الهامة التي حدثت للمجتمع الإسلامي في العصر الأموي قيام الجماعات السياسية والفرق الدينية كفرق الخوارج والشيعة، هذه الجماعات التي كان لها دور كبير في الثورة ضد الدولة الأموية ذاتها وإحداث التغيير في حكم الدولة الإسلامية وتحويله من البيت الأموي إلى البيت العباسي سنة ١٣٢هـ.

ولعل سقوط هذه الدولة العريقة ذات الإنجازات التاريخية المجيدة، وانتهاء أمرها دون أن يتجاوز عمرها القرن من الزمان، يجعلنا نتساءل عن أهم الأسباب التي أدت إلى سقوطها وزوالها رغم ما قدمته للمجتمع الإسلامي من إصلاح وفتوح ونجاح، خلال السنوات القليلة التي حكمت فيها بلاد الإسلام من عمر الزمان؟

في الحقيقة، فإنه يأتي في مقدمة هذه الأسباب، تلك المعارضة التي لقيتها هذه الدولة، منذ قيامها، وبخاصة من الموالي في الأمصار. وقد قامت هذه المعارضة، في وجه الأمويين، من جماعات المسلمين غير العرب، الذين لم يقرروا الأمويين على الطريقة التي وصلوا بها إلى الحكم، ولم يعترفوا بأحقية حكامها في الخلافة. وقد ظل البعض منهم موالياً لعلي بن أبي طالب ولبنيه وأحفاده من بعده، وقد رأى هؤلاء ضرورة استمرار حكم المسلمين في بيت النبوة. ورأى البعض الآخر أن معاوية انتزع الحكم، دون وجه حق، من مستحقه، أنه أغفل مبدأ الشورى الذي جاء به الإسلام وسار عليه الخلفاء الراشدون وصولاً إلى الحكم، وأنه حوّل الخلافة إلى ملك وراثي كسروي؛ الأمر الذي يتناقض مع ما اتفق عليه المهاجرون والأنصار، غداة وفاة النبي (ﷺ)، في سقيفة بني ساعدة وما طبقه الشيخان أبو بكر وعمر. ولقد كانت جماعة الشيعة والخوارج، كما قلنا، أكثر المعارضين لحكم الأمويين، ومن أشدهم عملاً على إسقاط حكمهم وإنهاء دولتهم.

ويرى الشيعة، وهم العلويون، الذين تشيعوا لعلي ولآل البيت، أن الخلافة، وهي الإمامة عندهم، حق لآل البيت من نسل علي والسيدة فاطمة ابنة رسول الله (ﷺ)، وأن خلافة الأمويين باطلة من أساسها. وقد ظهرت جماعة الشيعة، كجماعة سياسية، بعد معركة كربلاء التي استشهد فيها الحسين بن علي سنة ٦١هـ، وقد قام هؤلاء الشيعة بثورات ضد الأمويين، بقصد تغيير نظام الحكم

ونقله من البيت الأموي إلى البيت العلوي، قام بإحداها زيد بن علي بن الحسين في الكوفة في عهد خلافة هشام بن عبدالمك، وقام بالثانية ولده يحيى بن زيد في بلاد الديلم، جنوبي بحر قزوين في منطقة طبرستان. وقد قابل حكام الأمويين هذه الثورات العلوية بعنف شديد، ولم يشفع لأهلها عندهم قرابتهم للرسول، لأن الأمويين اعتبروهم متمردين خارجين عن طاعة الدولة وجبت محاسبتهم. وحين فشلت الثورات المسلحة المعلنة للعلويين ضد الأمويين لجأوا إلى التنظيمات السرية المحكمة بعيداً عن العاصمة دمشق وبخاصة في بلاد فارس حيث نجحوا هنالك في اكتساب أعداد كبيرة من الأتباع، وأصبحت تلك البلاد وسكانها الفرس منطلق ثورتهم في القضاء على الحكم الأموي وإقامة الحكم العلوي.

أما الخوارج، وهم فرقة نشأت أثناء معركة "صفين" بين علي ومعاوية، وبعد حادث التحكيم، وكان هؤلاء قد أُجبروا علياً على قبول التحكيم، وبعد أن تم التحكيم احتج هؤلاء على علي لقبوله، رافعين شعار "لا حكم إلا لله"، وهجروا جيش علي وانسحبوا إلى قرية "حروراء"، بالقرب من الكوفة، وسموا لذلك بالحرورية. وسموا هم أنفسهم "بالشراة" وسماهم أعداؤهم "بالخوارج". ورغم أن علياً قد أوقع بالخوارج هزيمة ساحقة عندما حاربهم عند "النهروان"، إلا أنهم، بعدما انهزموا، تفرقوا إلى أماكن عديدة وظلت أفكارهم الدينية والسياسية قائمة وقوي جانبهم في العصر الأموي وشكلوا حزب معارضة قوياً ضد الأمويين. وقد رأى الخوارج أن الخلافة ليست قصراً على قريش والعرب، وإنما هي حق مباح لكل مسلم حر يبايعه المسلمون أيًا كان جنسه أو نسبه أو لونه. وأن جماعة المسلمين الحق في عزل الحاكم الذي يختارونه لحكمهم إذا هو حاد عن الطريق القويم. ولقد حاول الخوارج إسقاط حكم الأمويين بالقوة، وقاموا بالثورة ضدهم، وكانوا أشد العناصر إقلاقاً لهم بسبب شجاعتهم واستبسالهم في القتال وعدم مبالاتهم بالموت ورغبتهم في الاستشهاد.

وقد قاتل حكام الأمويين الخوارج بضاوارة وأوكلوا إلى قوادهم الكبار أمر محاربتهم، فاستنفذ قتالهم معظم قوتهم. وكاد الخوارج يقضون على الدولة الأموية في عهد حكم عبدالمك بن مروان، لولا شجاعة قائده وواليه على العراق وفارس الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي دخل معهم في أكثر من ثمانين معركة كان النصر حليفه في معظمها. وقد اشتدت ثورات الخوارج في عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، وانضم إلى صفوفهم أعداد كبيرة من شعوب الموالي الذين رافقتهم شعارات الخوارج السياسية في الحكم وبخاصة الموالي

الفرس والبربر. فاستطاع الخوارج، بذلك، أن يؤلبوا شعوب الدولة الإسلامية ضد الدولة الأموية التي تفرغت في السنوات الأخيرة من حكمها لمحاربة هذه العناصر الساخطة المتمردة؛ الأمر الذي أتعب الدولة وأجهد اقتصادها وأدى في النهاية إلى انهيارها وسقوطها.

وكان سوء حال الموالي في الدولة الأموية سبباً من أسباب سقوط هذه الدولة، وقد نعم هؤلاء الموالي غير العرب، على الأمويين تعصبهم للعرب والعروبة، معاملتهم لهم كمواطنين من الدرجة الثانية وبدونية عن العرب، وعدم توليتهم مناصب القيادة في الدولة والجيش والحكم والإدارة وقصر ذلك على العرب. وكان هؤلاء الموالي وبخاصة الفرس يرون في أنفسهم، التفوق على العرب لأنهم أصحاب حضارة قديمة ومدنية عريقة يوم كان العرب مجرد بدو يرعون الإبل ويسكنون الخيام. وبسبب تلك التفرقة في المعاملة بين العرب وغير العرب في دولة الأمويين هرع هؤلاء الموالي إلى الخارج وانضافوا إليهم واعتنقوا مبادئهم السياسية التي تجعل الحكم حقاً متاحاً لأي مسلم ارتضت بحكمه جماعة المسلمين. وقد انتهز الخوارج تلك الفرصة في إشعال نادر العداوة في صدور الموالي ضد الأمويين لتحقيق أهدافهم في إقامة دولة لهم، بعد أن ينجحوا في تفويض حكم دولة الأمويين.

كذلك كان الصراع القبلي والعصبيَّة القبليَّة من أهم العوامل التي أدت إلى القضاء على دولة الأمويين ووصول حكمها إلى نهايتها. ففي ظل حكم الدولة الأموية تفتت روح العصبيَّة القبليَّة، تلك الروح التي عمل الإسلام على القضاء عليها، وكانت سبب الفرقة بين قبائل العرب في الجاهليَّة وسبب الحروب والنوازل بينهم. وفي عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء الأمويين ثارت روح العصبيَّة القبليَّة في جميع أنحاء الدولة الأموية، فقد تعصب مروان للقيسيَّة ضد اليمنية فنارت اليمنية ضده، وقد خاض مروان حروباً طويلة ضد اليمنية المتمركزين في بلاد الشام، وساد النزاع القبلي الدولة جميعها في الشام واليمن والعراق والحجاز، وكان على مروان محاولة راب صدع الدولة لكن جاء ذلك بعد فوات الأوان وبعد نجاح الدعوة العباسية في خراسان. ولقد عجلت هذه الحروب القبليَّة بنهاية الدولة الأموية وأدى النزاع بين عرب الشام القيسيَّة واليمانية إلى تضعُّع الأساس الذي ارتكز عليه الحكم الأموي في إقامة دولته. هذا فضلاً عن انتقال هذا الداء العضال إلى الأمصار الإسلامية، مما أدى إلى عدم قدرة الدولة على السيطرة على ولاياتها وعدم مقدرتها في استمرار سيادتها

عليها؛ الأمر الذي جعلها تربة خصبة رتع فيها الشيعة والخوارج وحققوا ما يريدون دون أن تتألم يد الدولة بأي أذى.

كذلك كان انقسام البيت الأموي على نفسه من عوامل سقوط الدولة الأموية، ولقد جاء هذا الانقسام بسبب نظام ولاية العهد وتولية الخلفاء العهد من بعدهم لأكثر من واحد، وهو المبدأ الذي أقره الأمويون في مؤتمر الجابية سنة ٦٤هـ. وقد أدى ذلك إلى النزاع بين أمراء البيت الأموي الحاكم والصراع على تولى الحكم؛ مما أدى إلى الحروب بينهما، وقد أضعفت هذه الحروب الدولة وأدت إلى تدهورها ثم نهايتها.

وكان مروان بن الحكم، هو أول من سنَّ هذه السنة، حين جعل ولاية العهد من بعده لإبنه : عبدالمك بن عبدالعزيز، وقد خالف في ذلك ما تقرر في مؤتمر الجابية من أن تكون ولاية العهد لخالد بن يزيد بن معاوية ثم لعمر بن سعيد بن العاص. وكان من أثر ذلك أن خرج عمرو بن سعيد نائراً على عبدالمك.

وقد سار عبدالمك بن مروان على سنة أبيه مروان، فقد فكر في خلع أخيه عبدالعزيز من ولاية العهد وجعلها لابنه الوليد ثم سليمان، ولم يمنعه ذلك سوى وفاة أخيه عبدالعزيز قبل أن يقدم على هذه الخطوة. كذلك حاول الوليد خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها في ابنه عبدالعزيز، وقد أجابه قواده إلى ذلك، وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفي. وكاد هذا الأمر أن يتم لولا وفاة الوليد فجأة ونجاح أخيه سليمان في الوصول إلى الخلافة، وانتقامه ممن كان لهم ضلع في محاولة إبعاده عن الخلافة من كبار قواده.

وظهر هذا الخلاف واضحاً في البيت الأموي الحاكم في النزاع الذي وقع بين يزيد ابن الوليد بن عبدالمك وبين ابن عمه الوليد بن يزيد. وقد شارك يزيد في قتل الوليد وإزاحته عن الخلافة.

ولقد أضعفت هذه الخلافات داخل الأسرة الحاكمة من قوة البيت الأموي وتماسكهم، فأتاح مناخ الضعف والتفكك هذا الفرصة لأعدائهم العباسيين في الاستفادة من جميع الظروف وتجنيد العناصر الساخطة على حكم الأمويين، ونجحوا في النهاية في الثورة عليهم وإسقاط حكمهم وتغيير نظام الحكم في الدولة الإسلامية من الشكل الأموي إلى الشكل العباسي، الذي أرسى قواعد الأمويين ذاتها في الحكم مع تغيير أسماء الحكام وانتماهم إلى بيت عربي قرشي هو البيت العباسي.

الفصل الرابع

ثورة أهل البشروود^(١) في عهد الخليفة المأمون

٢١٦ : ٢١٧ هـ / ٨٣١ : ٨٣٢ م

عبدالناصر إبراهيم عبدالحكم^(٢)

قام الأقباط بكثير من الثورات طوال القرن الثاني الهجري ، وكان معظم هذه الثورات في الوجه البحري ، وكانت آخر تلك الثورات ، ثورة أهل البشروود في عهد الخليفة المأمون وانضم العرب إلى الثورة بعدما زاد عددهم وأصبحوا يملكون الأراضي ، وخرجوا جميعاً على طاعة الولاة ، وطردوا الموظفين من أعمالهم ، وثاروا على قوات الشرطة والجيش ، وشملت الثورة الوجه البحري كله^(٣).

موقع البشروود

البشروود : كورة^(٤) من كور بطن الريف في أسفل الأرض بمصر^(٥) .
ونكر المقریزی أن عدد القرى التابعة للبشروود " أربع وعشرون قرية " ^(٥) .
وهي المنطقة الرملية الواقعة على ساحل البحر المتوسط (بحر الروم) بين فرعى دمياط وزشيد ، وهي منطقة تحيط بها المستنقعات والأوحال ، ويصعب الدخول إليها^(٦) وقد عرف أهل البشروود بغلظة طباعهم وحبهم للعصيان والثورات منذ التاريخ القديم ، وقد شجعتهم طبيعة المنطقة التي يعيشون فيها على ذلك .

أسباب الثورة

أسباب مالية وليست دينية بدليل اشتراك المسلمين في هذه الثورة ، وترجع هذه الأسباب إلى زيادة الخراج^(٧) المفروض على الأراضي الزراعية في العصر العباسي^(٨) .

وقد عانى أهل البشروود من تعسف أحمد بن الأسبط ، و إبراهيم بن تميم في جباية الخراج ، حيث طالبوا الناس بما لا يقدرّون عليه ، في وقت

(*) مدرس التاريخ الاسلامي، كلية الآداب - جامعة اسيوط.

تعرضت فيه البلاد لتحط شديد نتيجة لقلّة فيضان النيل في العام السابق ، مما أدى إلى نقص الغلال وإلى غلاء شديد ومات من الجوع خلق كثير من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ .

ويوضح ساويرس بن المقفع ظلم جباة الخراج ويقول " كان متولي الخراج في ذلك الزمان رجلين أحدهما اسمه أحمد بن الأسبط والآخر إبراهيم بن تميم هذين مع ما كانوا الناس عليه من البلايا لا يدعوا طلب الخراج بغير رحمه وكان الناس في ضيق زائد لا يحصى وأصعب ما عليهم ما يطلبوه منهم متوليين الخراج وطلب ما لا يقدروا عليه ، وبعد هذا نزل الله الكريم بأحكامه الحق غلا عظيما على كورة مصر حتى أن القمح بلغ خمس وبيات^(١٠) بدينار . ومات بالجوع خلقا كثيرا من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ والشبان ومن جميع الناس مالا يحصى عدده من شدة الجوع ، وكان متولي الخراج يؤذى الناس في كل مكان وكان وأكثر النصارى ... كانوا يعذبونهم بعذاب شديد ... إلى أن باعوا أولادهم في الخراج من كثرة العذاب ، لأنهم كانوا يربطوهم في الطواحين ويضربوهم حتى يطحنوا مثل الدواب وكان يعذبهم رجلا يعرف عبت^(١١) وتمادت عليهم الأيام وانتهوا إلى الموت^(١٢) .

وقد سخط الخليفة المأمون على الوالي عيسى بن منصور^(١٣) وقال : " لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون وكنتمونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد^(١٤) وفي رواية أخرى قال له : " هذا كله بسوء تدبيرك وجورك على أهل القرى وقد حملت الناس مالا يطيقون وكنتم الأمر عنى حتى عظم^(١٥) .

وصفوة القول فقد قامت الثورة بسبب فداحة الضرائب المفروضة على أهل البشرد ، وظلم جباة الخراج في تحصيل الخراج بالقوة رغم الظروف التي تمر بها البلاد من قحط وغلاء كبير أدى إلى وفاة عدد كبير من الناس .

أحداث الثورة

أعد أهل البشرد العدة للثورة ، وقامت الثورة في جمادى الأولى سنة (٢١٦هـ / ٨٣١ م) واشترك فيها العرب والقبط ، وصنعوا السلاح ، وطردوا عمال الحكومة وامتنعوا عن دفع الخراج ، وتحصنوا في كورة البشرد ، وشجعتهم طبيعة المنطقة التي يعيشون فيها على ذلك إذ كانت تحيط بهم المستنقعات والأوحال التي تعيق حركة الجند ، مع معرفتهم التامة لطرق هذه

قال الكندي " انتفضت اسفل الأرض كلها عربها وقبظها في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين ، وأخرجوا العمال ، وخالفوا الطاعة وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم " ^(١٧) .

وعمت الثورة أنحاء الوجه البحري كله واختار الثوار عبدوس الفهرى قائد لهم وهو من ولد عقبة بن نافع^(١٨) " وحشدوا وجمعوا فكثر عددهم وساروا نحو الديار المصرية ؛ فتجهز عيسى بن منصور ، وجمع العساكر والجنود لقتالهم، فضعف عن لقاءهم وتقهقر بمن معه ، فدخلت الأقباط وأهل الغربية مصر وأخرجوا منها عيسى هذا على أقبح وجه لسوء سيرته ، وخرج معه أيضا متولي خراج مصر وخلعوا الطاعة "^(١٩) .

وهكذا فقد فشل الوالي عيسى بن منصور الراقى في التصدي للثوار ، ونجح الثوار بقيادة عبدوس الفهرى في هزيمته ودخلوا الفسطاط ، وطردوا منها عيسى بن منصور على أقبح وجه ومتولي خراج مصر ^(٢٠) .

بعث الخليفة المأمون إلى قائد الأفشين^(٢١) في برقة ، ليقتضى على الثورة في مصر ، فقدم الأفشين من برقة منتصف جمادى الآخر سنة (٢١٦هـ/٨٣١م) وأقام بالفسطاط لأن النيل في مده قد حال بينه وبينهم ، ثم خرج الأفشين وعيسى بن منصور في شوال لمحاربة أهل تنو وتمى ، وقد اجتمعوا بإشليم^(٢٢) . وهزمهم الأفشين ، وأسر وقتل منهم الكثير^(٢٣) . وأجمعوا على أن يختص عيسى بن منصور ، بالضرب على أيدي القبط ، و الأفشين بإخماد ثورة العرب ، فرجع عيسى بن منصور إلى الفسطاط ، وقام بتعبئة الجيش ، ثم خرج إلى تمي فقاتل أهلها وهزمهم . ومضى الأفشين إلى الحوف^(٢٤) ، وقتل جماعة الثوار فيه ، وبعث عبيد الله بن يزيد^(٢٥) ، إلى الإسكندرية فتصدى له بنو مدلج فحصره في حصن الإسكندرية ، ومضى الأفشين إلى شريقيون ، فلقى من هناك بمحلة أبي الهيثم فاقتتلوا فظفر بهم الأفشين وقتل قائدهم أبا ثور اللخمي ، وذهب الأفشين إلى دميرة فحاربهم في ذي القعدة وانتصر عليهم .

وأقبل الأفشين في جنوده إلى الإسكندرية فلقى طائفة من بنى مدلج بخربتا من أعمال البحيرة فهزمهم ، وحاربهم أيضا في محلة الخلفاء فهزمهم وأسر أكثرهم ، ونزل بهم قرطسا إحدى قرى البحيرة فحاربهم . ودخل الأفشين

الإسكندرية فهرب منه رؤساء الثوار وهم بحر بن علي اللخمي ، و ابن عقاب اللخمي ، ورئيس جماعتهم معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، وبعد فتح الإسكندرية ، مضى الأفشين إلى أهل البشروود فامتنعوا عليه . فكتب إلى الخليفة المأمون يخبره بما حدث ، فرأى الخليفة أن يأتي بنفسه إلى مصر^(٢٦).

وبذلك يتضح لنا أن الأفشين قد تعامل بقسوة مع الثوار في الدلتا والحوفين الشرقي والغربي والإسكندرية ، وقد قضى على عدد من رؤساء الثوار وقتل كثيرا من عامة الشعب .

يقول ساويروس " كان الأفشين يقتل حتى الأبرياء بجريرة المفسدين وما بقي أحد يراه إلا قتله"^(٢٧) .

والسبب في ذلك يرجع إلى أنها ثورة ، عرضت أمن البلاد للخطر ، ورأى الأفشين أنها عصيان وانشقاق عن سلطان الخليفة ، ولذلك كان لابد من التعامل معها بالقوة ، وقتل كثيرا من رجالها.

موقف بطريك الأقباط من الثورة

حاول البطريرك أنبا يوساب^(٢٨) تهدئة الثوار^(٢٩) وقد نكر ساويرس أن البطريرك أنبا يوساب حزن على أولئك الضعفاء لأنهم لا يقدرُوا علي مقاومة السلطان وأنهم باختيارهم اختاروا الهلاك لنفوسهم " . وكتب إليهم كتبا مملوءة خوفا ويذكر لهم ما يحل بهم ليعودوا ويندموا ، ويرجعوا عن خلافهم ، ويدعوا مقاومة السلطان ، فلم يرجعوا فلم يفتر من مكاتبتهم كل يوم ، وكان يكتب إليهم فصولا من الكتب ويقول قال لسان العطر بولص : كل من يقاوم السلطان فهو مقاوم حدود الله ، والذي يقاومه يدان " ولما وصلتهم كتب البطريرك مع أساقفته ، وثب الثوار عليهم ونهبوا كل ما معهم وأهانوهم فعادوا إلى البطريرك وعرفوه ما جرى عليهم"^(٣٠) .

فحزن البطريرك عليهم لأن العصيان يجلب سلف الدماء ، ويعقبه اضطهاد كبير ، وصم الثوار أذانهم عن سماع أقواله ، واتهموه مع أساقفته بالضعف والجبن ، وقالوا أنهم عزموا أن يموتوا أشرفا بحد الحسام من أن يعيشوا عبيد سلطة الظلم والعسف^(٣١) . فقال البطريرك " ما يبطن عن هؤلاء الهلاك ، بل يتم عليهم ما قاله النبي أشعيا إني أسلمكم للسيف ، ويقع جميعكم بالقتل ، لأنني ناديتكم فلم تسمعوا كلامي وخالفتم وعلتم الشر أمامي"^(٣٢)

وبذلك يتضح لنا محاولة البطيريك أنبا يوساب تهدئة الثوار ، ونبذ العنف وعدم مقاومة السلطان . وخوف البطيريك على شعبه وما سوف يتعرضون له من قتل وتعذيب واضهاد . وايضا حسب البطيريك للسلام والمحبة و إطاعة أوامر السلطان .

رغم ذلك صمم الثوار على الثورة ؛ ومحاولة التخلص من الحكم العباسي .

حضور الخليفة المأمون إلى مصر

أعد الخليفة المأمون العدة ليخرج بنفسه إلى مصر ، فدخلها في المحرم سنة ٢١٧هـ / ٨٣٢م على رأس جيشه ، وقد صحبه أخوه محمد المعتصم ، وولده العباس ، وولدا أخيه ، وهما الواثق والمتوكل ؛ والقاضي يحيى بن أكثم ، والقاضي احمد ابن أبي داود وغير هؤلاء من أعيان بغداد^(٣٣) .

واستصحب معه البطيريك ديونوسيوس^(٣٤) بطيريك أنطاكية ، فلما علم البطيريك أنبا يوساب بوصول المأمون وصحبته البطيريك ديونوسيوس ، جمع الأساقفة وسار إلى القسطنطينية ليسلم عليه ، فلما نظر البطيريك ديونوسيوس البطيريك أنبا يوساب فرح فرحا عظيما وأخبر البطيريك ديونوسيوس الخليفة المأمون بان البطيريك أنبا يوساب لم يتأخر عن مكاتبة الثوار ، وأن لا يقاوموا أمر الخليفة ، ففرح المأمون بهذا الأمر وطلب من البطيريك أنبا يوساب والبطيريك ديونوسيوس أن يذهبا إلى الثوار لاقناعهم بالرجوع عن خلافهم و إطاعة أوامر الخليفة .

وقال المأمون " فان أجابوا فانا اقبل معهم الخير في كل ما يطلبوه منى ، وإن تمادوا على الخلاف فنحن برئين من دماءهم " فذهبا إلى الثوار لاقناعهم بالتخلي عن مخالفتهم للخليفة فرفضوا^(٣٥)

وفى ذلك الوقت قام المأمون بعزل عيسى بن منصور " أمر بحل لوائه وأمره بلباس البياض " وضم أصحابه إلى ابن عمه موسى بن إبراهيم ، وولى المأمون على شرطة القسطنطينية أحمد بن بسطام الأزدي من أهل بخاري ، وعقد لأبى مغيث موسى بن إبراهيم ومعه رشيد التركي على جيش بعثه إلى الصعيد فى طلب عبدوس النهري ، و تقاتل الطرفان فى طحا^(٣٧) فهزم عبدوس وأسر^(٣٧) .

وأمر المأمون الأفشين بان يسير إلى أهل البشرد ، فلم يقدر عليهم

لموقعهم الحصين المحاط بالمياه ، بل كانوا يقتلون من جنود الأفشين كل يوم جماعة ، فلما علم المأمون بذلك سار بجيشه إلى هناك ، وأمر أن يحشدوا جميع من يعرف طرق البشروود من أهل المدن والقرى المجاورة لهم ومن كل الأماكن ومن أهل تيدا وشيرا بسيوط الذين يعرفون طرق تلك الأماكن ، وتتبعهم الجنود إلى أن سلموا لهم أهل البشروود وقتلوهم ونهبوهم وأخربوا مساكنهم وأحرقوها بالنار وهدموا بيعتهم^(٣٨) . ونزلوا على حكم أمير المؤمنين فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ، فبيعوا وسبى أكثرهم ، وأحضر عبدوس الفهرى إلى سخا^(٣٩) وقتله . وتتبع كل من يوميء إليه بخلاف فقتل كثير من الناس^(٤٠) .

ويقول المقرئى " ومن حينئذ أذل الله القبط في جميع أرض مصر ، وخذل شوكتهم فلم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان وغلب المسلمون على القرى ، فعاد القبط من بعد ذلك إلى كيد الإسلام وأهله بأعمال الحيلة واستعمال المكر وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم في كتاب الخراج^(٤١) .

وصفوة القول فقد سببت هذه الثورة إزعاجا كبيرا للخلافة العباسية ، نتيجة لفشل الوالى عيسى بن منصور في التصدى لها ، ولم يستطع الأفشين القضاء على الثورة ، لذلك حضر الخليفة المأمون بنفسه للقضاء على الثوار ، فأرسل الأفشين إلى أهل البشروود ثم تابعه الخليفة بنفسه إلى البشروود وقضوا على ثورتهم . وأرسل موسى بن إبراهيم ورشيداً التركي إلى الصعيد للقضاء على عبدوس الفهرى ، وهزم وأسر ، وسيق إلى الخليفة المأمون في سخا حيث ضربت عنقه .

وقد ذكر اليعقوبى أن الخليفة المأمون استفتى فقيهاً من أهل مصر يدعى الحارث بن مسكين^(٤٢) فيما فعله بأهل البشروود فقال إن كانوا خرجوا الظلم نالهم فلا يحل دماءهم وأموالهم " فأنكر المأمون عليه فتواه وقال " هؤلاء كفار لهم ذمة، إذا ظلموا تظلموا إلى الإمام، وليس لهم أن يستتصروا بأسياقهم ويسفكوا دماء المسلمين في ديارهم^(٤٣) .

إنن فقد أوضح الخليفة المأمون الطريق التي يجب أن يتبعها كل من يتعرض للظلم وأن يتظلم إلى ولى الأمر وليس بالخروج عليه وسفك الدماء .

الخليفة المأمون يتفقد أحوال الرعية

كان الخليفة المأمون يسير في قرى مصر يتفقد أحوالها وكان يقيم في كل قرية يوماً وليلة . ويقول المقرئى " فمر بقرية يقال لها طاء النمل^(٤٤) فلم

يدخلها لحقارتها ، فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية ، صاحبة القرية ، وهى تصيح ، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها وكان لا يمشى أبدا الا وللتراجمة بين يديه من كل جنس فذكروا له أن القبطية قالت يا أمير المؤمنين : نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي والقبط تعيرني بذلك ، وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفني بحلولة في ضيعتي، ليكون لى الشرف ولعقبى ولا تشمت الأعداء بى وبكت بكاء كثيرا ؟، فرق لها المأمون وثى عنان فرسه اليها ونزل فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ ، وسأله : كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسماك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته ، فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة.

وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس وولدا أخيه الواثق والمتوكل ويحيى بن أكتم والقاضى أحمد بن دواد ، فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراد . ولم تكل أحد منهم ولا من القواد إلى غيره ، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا ، حتى أنه استعظم ذلك . فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصانف مع كل وصيفه طبق ، فلما عاينها المأمون من بعد قال لمن حضر قد جاءتكم القبطية بهدية الريف الكامخ والصحناء والصبير ، فلما وضعت ذلك بين يديه ، إذا في كل طبق كيس من ذهب ، فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته ، فقالت : لا والله لا افعل ، فتأمل الذهب فإذا به ضرب في عام واحد كله ، فقال هذا والله أعجب ، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك . فقالت: يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحترق بنا فقال : إن بعض ما صنعت لكفاية ولا نحب التثقل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك فأخذت قطعة من الأرض وقالت يا أمير المؤمنين هذا و أشارت إلى الذهب من هذا وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندى من هذا شئ كثير . فأمر به فأخذ منها وأقطعها عدة ضياع أعطاها من قربتها طاء النمل مانتي فدان بغير خراج ، وانصرف متعجبا من كبر مروتها وسعة حالها^(٤٥).

وهكذا ضرب الخليفة المأمون مثلا جديدا للحكام والولاة علمهم أن العظمة لا تقوم إلا على احترام الشعب، وأن الرفعة لا تنافى التواضع والتحبب إلى قلوب الرعية ، وأن الدولة لا تقوم الا بسواعد طبقاتها الصغيرة العاملة .

وكان المأمون وهو يزور مصر لا ينزل بمدنها فحسب ، ولكنه يذهب إلى أقاصي الجهات ، دارسا متفقدا لأحوال رعيته ، يطوف بالقرى ويزورها ،

ويسأل عن أحوالها ويضرب لولائه مثلاً رفيعاً في الاهتمام بشئون الشعب ،
ويعلمهم أنهم مسئولون عن سعادة هذا الشعب ورخائه وأمنه^(٤٦)

من خلال دراستنا لهذه الرواية التي رواها المقرئى والمصادر التي
تحدثت عن ثورة أهل البشروء يتضح لنا:

١- أن المقرئى هو المصدر الأول الذي روى هذه القصة ولم يوضح لنا من
أين استقاها مع العلم أنه استقى أغلب أخبار ثورة البشروء من الكندى صاحب
كتاب " ولاء مصر " . ولم يذكر هذه القصة بعد سوى مصدر متأخر عن
المقرئى هو ابن إياس في كتابه " بدائع الزهور"^(٤٧) . لذلك من المحتمل أنه قد
اعتمد على المقرئى في القصة . ولم تذكر هذه القصة في أي مصدر آخر
حتى المصادر القبطية مثل ابن البطريق في كتابه " التاريخ المجموع على
التحقيق والتصديق"^(٤٨) . وساويرس بن المقفع في كتابه " سير الآباء البطارقة"^(٤٩)

٢- كيف تستطيع صاحب قرية صغيرة ، استضافة الخليفة وصحبتة وجيشه
الذي يتكون من عدة آلاف فقد ذكر سعيد بن البطريق أنه كان " لأمير المؤمنين
عشرة آلاف مولى مسلم"^(٥٠) سوى عدد العرب في الجيش فما هو المكان الذي
سوف يتسع لمثل هذا العدد في القرية صغيرة وما هي كمية الطعام المقدمة لهم
ومن أين لها بكل هذا الطعام . مع العلم أن سبب قيام الثورة هو فداحة
الضرائب المفروضة على أهل البشروء وقلة الطعام والغلاء الذي حل بالبلاد
وكان من نتيجة موت كثير من الأطفال والنساء والصبيان والشيوخ من الجوع .

٣- أعطت صاحبة القرية الخليفة عشرة أطباق في كل طبق كيس من الذهب ،
كلها من ضرب عام واحد . ويقول الخليفة "ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك"
إذا كان بيت مال المسلمين والخلافة الإسلامية يعجز عن إنتاج مثل هذا الكم من
الدنانير الذهبية فمن أين لصاحبة قرية صغيرة أن تملك مثل هذا القدر المال .

٤- يذكر ابن إياس ، أن المأمون " دخل عليه من المال في هذه السرحة ، نحو
أربعة آلاف ألف دينار غير الهدايا والتحف"^(٥١) لم يوضح ابن إياس هل كان ذلك
مقدار الخراج أم مقدار الهدايا التي أهديت إلى الخليفة . وذكر المقرئى أن
خراج مصر زمن المأمون قد بلغ " أربعة آلاف ألف دينار ومائتي ألف دينار
وسبعة وخمسين ألف دينار"^(٥٢) . ورغم أن مقدار المال الذي عاد به المأمون
يقارب الخراج إلا أننا نشك في أن هذا المبلغ هو مال الخراج وذلك نتيجة للثورة

التي عمت الدلتا والوجه البحري والفسطاط والصعيد أيضا فكيف يسر لجباب الخراج للحصول عليه في الثورة .

وإذا كان مال الخراج فأين مرتبات العمال والجنود وأرزاق العرب و الأموال التي تتفق على الولاية نفسها. وإذا كان هذا المال من الهدايا التي تحصل عليها الخليفة فكيف حصل عليه مع اضطراب الأحوال والغلاء والجوع وموت كثير من الناس ولذلك فإننا في قيمة هذا المقدار من المال الذي عاد به الخليفة المأمون .

ومن أهم الأعمال التي قام بها الخليفة المأمون في مصر:

١- عزل والي عيسى بن منصور الراقى وعين بدلاً منه كيدر بن عبد الله السعدي^(٥٣) وولى الشرطة أحمد بن بسطام الأزدي من أهل بخارى^(٥٤)

٢- قام بتنظيم نظام الخراج ، وسمح لبعض القبط بأن يكونوا مسئولين عن خراج بعض المقاطعات ، كما سمح للكنيسة بأن تقوم بجمع الضرائب من المناطق المجاورة^(٥٥) .

٣- عمر المقياس الذي بجزيرة الروضة ، وقم بعمل جسر على النيل أمام الفسطاط^(٥٦)

٤- بنى بصعيد مصر مقياساً يقاس فيه زيادة النيل في موضع يقال له شوارت بقرية يقال لها بنوده وأصلح مقياس النيل في أخميم^(٥٧) .

٥- سمح بإقامة كنيسة مرتيميم للفراشين النصارى الذين كانوا معه ، وأقيمت بالقرب من قبة الهوى التي بنيت له على جبل المقطم ، وكانت تسمى كنيسة الفراشين ، ثم أصبح اسمها كنيسة الروم^(٥٨)

٦- ولى بكام النصرانى من أهل بورة حكم بورة^(٥٩) وما حولها فبنى بيورة كنائس كثيرة . وكان فيها أيضا مسجداً يجتمع فيهما المسلمون ويصلون بهما^(٦٠)

٧- فسح عقود الضمانات وأصدر أوامر بإعفاء كافة الضمناة والعاملين من قبول الزيادة ، وأصدر بذلك منشوراً قرئ على الناس في جميع الكور^(٦١) .

وارتحل المأمون يوم الخميس لثمانى عشرة من صفر، فكان مقامه بالفسطاط ، وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوماً^(٦٢)

النتائج التي ترتبت على الثورة

١- قضى الخليفة المأمون على الثورة وعاقب كلا من الحاكم والمحكومين بما يستحق أما والى عيسى بن منصور فقد عزله ، أما قائد الثوار عبدوس الفهرى فظفر به وقتله ، وأما الثائرون من الأقباط فنزلوا على حكم أمير المؤمنين ، فحکم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ، فبيعوا وسبى أكثرهم^(٦٣) .

٢- القضاء نهائيا على مقاومة القبط ، ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان وغلبهم المسلمون على عامة القرى^(٦٤) .

٣- أعاد الخليفة المأمون الأمن والاستقرار إلى مصر^(٦٥) .

٤- امتزج العرب بالمصريين ، وتزوج الأعراب بكثير من نساء القبط ، وكان لذلك التصاهر أثره الطيب في الامتزاج النهائي ، ولم يبق هناك من فارق بين القبطي والمسلم إلا فارق الدين ، أما الدم والجنس فقد ثبت أن فيها اشتراكا وامتزاجا . وتكونت أمة مصرية عربية إسلامية متحدة الغايات ، لها كيان سياسي ظاهر ولها شخصية واضحة في الدولة له الإسلامية الكبرى ، وتؤثر فيها تأثيرا إيجابيا أو تشترك في أحداثها اشتراكا فعليا . واخذ كلا الفريقين إلى الحياة الهادئة في هذا القرن ، وذهبت صفة التميز عن العرب وأسقطوا من ديوان العطاء^(٦٦) حيث أسقط الخليفة المعتصم (٢١٨هـ / ٨٣٣م) أرزاقهم وهى الأرزاق التي كانوا يتوارثونها منذ عهد عمر بن الخطاب ، أي منذ حوالي مائتي سنة مما جعل العرب يفقدون مكانتهم السامية ، وينتشرون في ريف مصر ويندمجون في المصريين^(٦٧) .

٥- تحول عدد كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامي ، فقد ذكر أنه في عام ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م لم تكن مصر تضم بالفعل غير ٢٢% من المسيحيين إلى جانب ٧٧% من المسلمين و١% من اليهود^(٦٨) وعقب ثورة البشروء قل عدد الأقباط ودخل في الإسلام ربع السكان المسيحيين ، وأصبح المسلمون أغلبية في القطر المصري^(٧٠) .

٦- انتشار اللغة العربية : ، وكان انتشار اللغة العربية في مصر أبطأ من انتشار الدين الإسلامي وقد يدل ذلك على أن الشعب المصري في معظمه كان يدين بالإسلام عندما حضر المأمون إلى مصر ، ولكنه كان لا يزال يتخاطب باللغة القبطية^(٧٢) .

وساعد انتشار القبائل العربية في سائر أنحاء البلاد المصرية وامتزاج العرب بالمصريين على سرعة تعلم اللغة العربية^(٧٣)، وساعد اعتناق كثير من المصريين للإسلام على تعلم اللغة العربية، حتى يستطيعوا قراءة القرآن وفهم أحكام الدين، وعظم انتشار اللغة العربية وأصبحت بمرور الوقت لغة المصريين في الدين والثقافة والإدارة وفي العمل والبيت^(٧٥) وقل استخدام اللغة القبطية ولم تكن تستخدم بصورة شرعية إنما في بعض المنازل^(٧٧). وفي خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) دانت الغالبية العظمى من أهل مصر بالإسلام، وأصبحت اللغة العربية، لغة كل المصريين في التخاطب والعبادة والثقافة والفكر والإدارة^(٧٨).

وهكذا يتضح لنا أن ثورة البشرود، ثورة قومية بدليل قيام العرب والقبط بالثورة معاً، واشترك الفريقان في محاولة التخلص من التحكم العباسي والامتناع عن دفع الخراج أو محاولة خفضه، لهو الدليل القوي على اندماج العنصرين واشتراكهما في الآراء والمصالح، رغم ضعف الثوار الذين استسلموا آخر الأمر وغلبوا على أمرهم.

الهوامش

(*) أحياناً يطلق عليها خطأ ثورة البشمور وهذا الخطأ الذي وقع فيه بعض المؤرخين المحدثين، ناجم عن سببين:

١- اعتمد كثير من المؤرخين على ساويرس بن المقفع في كتابة "سير الأبياء البطارقة" حيث يشير في متن الكتاب إلى البشمور، ويؤكد ناشر الكتاب في الهامش إنها البشرود وأن التغير الذي في المتن يحتمل أنه من عمل الناسخ وليس المؤلف راجع سير الأبياء البطارقة ج ٢ ص ٢٨٣، ٢٨٢، ٢٧٩، ٢٧٨، ٢٧٧.

٢- إن الثورة قد شملت الوجه البحري كله ومن ضمن الكور التي شملتها الثورة كورة البشمور أيضاً وهي كورة من أعمال الدقهلية.

الأسعد بن ممتاى: قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية مطبعة مصر ١٩٤م، ص ٨٩ وهي كورة بمصر قرب دمياط فيها قرى وريف وغياض.

ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠م، ج ١ ص ٥٠٩.

الفرزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص ١٥٥ وهي جزيرة بين نيل اشمون طنناح، وهو الشرقي ونيل دمياط وهو الغربي.

أبو الفدا: تقويم البلدان، طبع بمدينة باريس، ١٨٤٠م، ص ١٠٧ مساحتها ستمائة وأربعون

فدانا .

ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، المطبعة الأميرية ، ١٣٠٩ هـ — ٥ ص ٦٩ .

(*) فى حين يؤكد كثير من المؤرخين إنها ثورة البشرود . ومن هؤلاء المؤرخين من هو أقدم من ساويرس مثل :

اليقوبى (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) : تاريخ اليعقوبى ، مطبعة الغرى ، النجف ١٣٥٨ هـ ، ج ٣ ص ١٩٢ والكندى (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) كتاب ' تاريخ ولاة مصر وكتاب تسميه قضاتها ' ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط الاولى ١٤٠٧ م ص ١٥٠ ومؤرخ متأخر وهو من كبار مؤرخي الخطط المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الدخائر رقم ٥١ ، ج ١ ص ٧٩ ، ٨١ ، ١٧٤ . وقد أعطى كثيراً من التفصيلات عن الثورة ، والكور والمدن التي انضمت إليها

(١) المقريزى : المصدر السابق ج ١ ص ٧٩ .

عطية القوصى : تاريخ مصر الإسلامية ، دار الثقافة العربية ، ١٩٩٧ م ، ص ٧٣ ، ٧٢ مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط الثانية ١٩٥٩ م ، ج ١ ص ٩٦

(٢) أحمد عبد الرزق : تاريخ مصر و آثارها الإسلامية ، دار الفكر العربي ، ١٩٩٣ م ، ص ٥٦ ، ٥٧

ايسونورس : الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، مكتبة المحبة ٢٠٠٢ م ، ص ٢٨٦ سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ حتى ٢٣٧ محمد خفاجى : مواكب الحرية فى مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ م ، ص ٤٩ ، ٥٠

Barbara Watterson: The Egyptians , Blackwell P 268

Joan Wucher king , Historical Dictionary of Egypt , Cairo, p 93

(٣) كورة : كلمة أطلقها العرب عند فتحهم مصر على النوم Nome والنوم وحدة إدارية وسياسية

سعاد ماهر : محافظات الجمهورية العربية المتحدة ، وآثارها الباقية فى العصر الإسلامى ، المجلس الأعلى للثقون الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ — ١٩٩٦ م ، ص ٣ .
وهى كلمة يونانية Xwpa أطلقت على الباجركوس pagarchos حاكم الكورة فى العصر البيزنطى

Gaston Wiet , L' Egypte Musulmane (precis L' Histoire D Egypte) 11, Caire , P127

وهى كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصية أو مدينة أو نهر يجمع اسمها

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦ ، ٣٧ ،
محمود خطاب: قادة فتح فارس ، دار الفتح ، بيروت ، ط الأولى ، ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م ،
ص ٣٤٤ ويقابلها المركز في النظام الإداري المصري الحاضر .
الكندى : فضائل مصر المحروسة ، تحقيق على محمد عمر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
١٩٩٧ ، ص ١٠ هامش (٢) .

وكانت وظيفة صاحب الكورة ، وظيفة هامة ودقيقة ، إذ كان همزة الوصل بين الحكام العرب
في الإدارة المركزية وبين عمال الإدارة المحلية أهل مصر من سكان المدن والقرى . وكان
الوالي هو الذي يعين أصحاب الكور ويخضعون لسلطته ، ويتلقون الأوامر منه . كما كان
يراقبهم . ويطلبهم بالرجوع للإدارة المركزية دائما في كل شئون كورته ، ويتدخل في
الشئون المالية ، في مقدار الضرائب من خراج وجزية ، وفي موعد جبايتها . وكان يصدر
أوامر الدفع الخاصة بالقرى الخاصة بالقرى ، ويهدد المتأخرين عن دفعها ، وكان يتدخل فيما
يجرى من أحداث وتصرفات يقوم بها صاحب الكورة كالقضايا التي ينظر فيها ، والغرامات
التي يفرضها على الناس ، وتهاونه في وجود الهاربين في كورته ، و أرزاق الجند
الموجودين بالقرى .

صابر محمد دياب : دراسات في تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، دار النهضة العربية
١٩٧٦ ، ص ١٠١ .

صفاء حافظ عبد الفتاح : الإدارة المحلية في مصر في عصر الولاية ١٩٩١ م . ص ٥١ : ٥٧
صفاء حافظ عبد الفتاح : الموانئ والثغور المصرية ، دار الفكر العربي ، د . ت ص ١٠٣ .
(٤) اليعقوبي : مصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٣ .

البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، لجنة التأليف
والترجمة والنشر القاهرة ط الأولى ١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م ، ج ١ ، ص ٢٥٢

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٠٨
ابن عبد الحق : مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، مطبعة ، ليدن ١٨٥٢ م ج
١ ، ص ١٥٦

• عرفت قديما باسم بيكولي BUCOLIES والتي حدثت فيها حرب الزراع في عهد
الإمبراطور الروماني ماركوس أورليوس

سيده الكاشف : المرجع السابق ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ هامش (٥)

صفاء حافظ : الموانئ والثغور المصرية ، ص ٥٦ هامش (٧٠)

• وعرفت في العصر البيزنطي باسم ايلس شيا .

السيد الهاز العريني : مصر البيزنطية ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦١ م ، ص ١٦٧
السيد محمد احمد عطا : تاريخ الغربية و أعمالها في العصر الإسلامي ، الهيئة المصرية
العامة للكتاب ، ٢٠٠٢ ، ص ٤٢ .

فتحي محمد مصيلحي وعلاء الدين عبد الخالق سيد علوان : تجربة التعمير المصرية من
خلال الأطلس التاريخي للوجه البحري عند عمر طوسون ، ١٩٩٦ ، خريطة ص ٣٧ .

- تقع الآن ناحية سيدى غازي (الكفر الغربي سابقا) محافظة كفر الشيخ
- احمد رمزي : القاموس الجغرافي ، القسم الأول ، البلاد المندرسة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٤ م، ص ٣١
- (٥) المقريزي : المصدر السابق ، ص ٧٣
- (٦) سيده إسماعيل كاشف: مصر في عصر الولاة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ م ، ص ١٣٤ .
- (٧) مصطفى طة بدر : المرجع السابق . ص ٩٦ .

8- Terry G Wilfong , The non Muslim Communities : Christian Communities , (The cambridge History of Egypt , vol I , p182

٩- ويرجع أمين صالح الزيادة في الخراج إلى

- ١- اعتبار أرض مصر خراجية ، وعدم جواز تحويلها إلى أرض عشرية سواء بإسلام حائزها أو شراء العرب المسلمين لها . طبق هذا الأمر منذ عهد الخليفة عمر بن العزيز . واشترك العرب مع القبط في هذه الثورة بعد أن تملك العرب الأراضي الزراعية منذ أوائل القرن الثاني الهجري ، فقامت ثورتهم من أجل الخراج في العصر العباسي .
- ٢- زيادة قيمة الضمان عن كل فدان بنسبة ١٠٠% في ولايه موسى بن معصوب ١٦٧-١٦٨ هـ / ٧٨٣ م كما زيد على المزارعين زيادة لم يفصح عن قدرها المؤرخون ، أجمعت بهم في ولاية اسحق بن سليمان ١٧٧-١٧٨ هـ ٧٩٣ م، ومسحت الأراضي في ولاية الليث بن فضل ١٨٢: ١٨٧ هـ ٧٨٩: ٨٠٢ م بانتقاص بضع أصابع من قصبه المساحة ، وهى وسيلة لا تخفى في زيادة عدد الأقدنة ليحصل عليها الخراج . ومرة أخرى ظلم الناس وزيد الخراج فى ولاية عيسى بن يزيد الجلودى ٢١٢ : ٢١٤ هـ / ٨٢٩: ٨٣١ م. وفى كل هذا المناسبات كانت تتدلع الثورات من القبط أو العرب أو القبط و العرب معاً
- محمد أمين هـالغ : دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية ، عصر الولاة ، مكتبة نهضة الشرق ، ط الثالثة ، د.ت ، ص ١٢٤-١٢٥ .

(١٠) الويبة : مكيال مصري : يعادل ستة أمداد أو ستة عشر قدحا أو كيلتين

محمود عرفة محمود : دراسات وبحوث في الحضارة الإسلامية ، دار الثقافة العربية ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م، ص ٢٦٧

(١١) من المحتمل أنه صاحب الشرطة أبو مغيث موسى بن إبراهيم - ابن عم الوالي عيسى بن منصور

الكندى : تاريخ ولاة مصر ، ص ١٤٩

(١٢) ساويرس بن المقفع : المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٢٧٦

(١٣) عيس بن منصور : كان مولى بنى نصر ، تولى مصر من قبل أبى إسحاق (المعتصم) مستهل سنة ست عشرة ومانتين وصرّف سنة سبع عشرة ومانتين

الكندى : تاريخ ولاة مصر ، ص ١٤٩ ، ١٥٠

ابن ظهيرة : الفضائل الباهر في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا - كامل

- المهندس ، دار الكتب ١٩٦٩ ، ص ٣٧ ، ٣٨
- (١٤) الكندي : تاريخ ولاية مصر ، ص ١٥٠
- (١٥) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، ج ١ ، ص ١٤٨ .
- (١٦) ساويرس : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢٧٦ : ٢٧٧
- محمد عبد المنعم خفاجي : المرجع السابق ، ص ٤٩ ، ٥٠
- (١٧) الكندي : كتاب ولاية مصر ، ص ١٤٩
- المقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨١
- (١٨) السيد محمد عطا : المرجع السابق ، ص ١٠٢
- إلياس الأيوبي : تاريخ مصر الإسلامية ، مكتبة الرغائب مصر ، ١٩٣٢ ، ص ٣٣٩
- Hugh, Kennedy: Egypt as a province in The Islamic Caliphate 641-868.
(The Cambridge History Of Egypt, Vol I, P 83
- (١٩) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، د.ت ، ج ١ ، ص ٢١٥
- (٢٠) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ط الثالثة ، ج ٨ ، ص ٦٢٥ .
- ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط الأولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ ن ج ١٠ ، ص ٢٧٤ .
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، دار صادر ، ط السادسة ١٩٩٥ م المجلد السادس ، ص ٤١٩
- ابن كثير : البداية والنهاية ، تحقيق احمد عبد الوهاب قتيح ، دار الحديث ، القاهرة ، ط الخامسة ، ج ١٠ ص ٢٩٤
- السيوطي : حسن المحاضرة ، تحقيق خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ج ٢ ص ٢٣٦
- ابن وردان : تاريخ العباسيين ، تحقيق المنجي الكعبي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط الأولى ١٩٩٣ م ، ص ٤٧٣
- (٢١) الأفضين : بكسر الهمة وفتحها ، اسمه خيزر بن كاوس من كبار قادة جيش المأمون ثم المعتصم توفي ٢٢٦ هـ / ٨٤٠ م .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م ، المجلد الخامس ، ص ١٢٣
- ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٣١٨
- Stanley lane pool , History of Egypt in The Middle Ages London , 1901,
Vol , I p 38

Hugh Kennedy , loc cit , P83

(٢٢) إشلیم : يكسر ثم السكون ، وكسر اللام ، وياء ساكنة ، وميم : كورة أو قرية بحوف مصر الغربي

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٠

(٢٣) الكندي : تاريخ ولاة مصر ، ص ١٤٩

(٢٤) الحوف : الناحية أو الجانب ، و تحوف الشيء أخذ من حافته ، وحافتا الوادي وغيره من كل شئ حافته ومن هنا أطلق العرب تسمية الحوف الشرقي والحوف الغربي على جانبي الدلتا شرقا وغربا .

صفاء حافظ : الموانئ والثغور المصرية ، ص ٩٩ هامش (٢٠)

(٢٥) عبيد الله بن يزيد : ابن يزيد بن زائدة بن مطر بن شريك بن عمرو والشيباني تولى والده أرمينية .

ابن قتيبة : المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، الهيئة العامة للكتاب ، ط الثانية ٢٠٠٢ م ، ص ٤١٣ ، ٤١٤

(٢٦) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص ١٤٩ ، ١٥٠

المقرئزي : المصدر السابق جـ ١ ، ص ١٧٣

محمد محمود الحويري : مصر في العصور الوسطى ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية ، ط الاولى ١٩٩٦ م ، ص ٧٦

إلياس الأيوبي : المرجع السابق ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠

Hugh Kennedy , loc cit , P83

(٢٧) ساويرس : المصدر السابق جـ ٣ ، ص ٢٧٦

(٢٨) أنبا يوساب : البطريرك الثاني والخمسون ، من رهبان دير أبي مقار وهو من مدينة منوف العليا ، توفي والده ، فنشأ عند تادرس متولى كورة مصر ثم أرسل إلى الإسكندرية عند البطريرك أنبا مرقس وتعلم هناك اللغة اليونانية ، ثم أرسل إلى دير ابو مقار عند القديس بولا ، وبدأ يعلمه التعاليم المقدسه التي للأباء الرهبان فأصبح شماسا ثم قسا ثم اختير بطريركا في الفترة من ٨٢٣ : ٨٤١ م

ساويرس : المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٢٧١ ٢٧٤ ، ٢٧٥

ايسوذوريس : المرجع السابق ، ص ٢٨٤

29- Gaston Wiet,, OP. Cit P134

(٣٠) ساويرس : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ٢٧٧

(٣١) ا.ل بتشر : تاريخ الامة القبطية ، ترجمة اسكندر تادرس ، مطبعة مصر بالفجالة ١٩٠١ المجلد الثاني ، ص ٢٢٣ .

(٣٢) ساويرس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٧

(٣٣) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٤٨

(٣٤) ديونوسيوس : بطريرك أنطاكية ، تهرب بدير قنسرين ثم بدير يعقوب بين حلب

والرها ، وقد اختاره بعض الأساقفة ورقوه الى درجة شماس ثم قس ، وفى اليوم الثالث وسموه بطريكاً سنة ٨١٨ . زار مصر و التقى مع البطريرك أنبا يوساب .

ايسونوريس : المرجع السابق ص ٢٨٢

(٣٥) ساويرس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٩

جان موريس فييه : أحوال النصارى في خلافة بنى العباس ، ترجمه حسنى زينيه ، دار المشرق ببيروت ، ط الأولى ١٩٩٠ م ، ص ١١٧

(٣٦) طحا : كورة بمصر شمالي الصعيد في غربي النيل

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، المجلد الرابع ، ص ٢٢

(٣٧) الكندي : الكتاب ولاة مصر ، ص ١٥٠ .

(٣٨) ساويرس : المصدر السابق ، ج ٢ ٢٧٩

(٣٩) سخا : كورة بمصر و قصبتهما سخا بأسفل الأرض ، وهى قسبة كورة الغربية فى عصر ياقوت . .

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص ١٩٦

سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ١١٠ . ١١١

(٤٠) الكندي : الكتاب ولاة مصر ، ص ١٥٠ ، ١٥١

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجواهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، ببيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ج ٢ ص ٤٢

الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، حوادث وفيات ٢١١ - ٢١٠ هـ - تحقيق عمر عبد السلام تدمرى ، دار الكتب العربى ببيروت ، ط الثانية ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، ص ١٧

ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٩٢ م ، المجلد الثالث ، ص ٣١٤ .

جمال الدين الشيال : مصر الإسلامية ، دار المعارف ، ١٩٦٧ ، ص ٩١ ، ٩٠

عصام الدين عبد الرؤوف : مصر الإسلامية ، دار الثقافة العربية ، ٢٠٠٢ م ، ص ٧٤

Gaston Wiet, op. Cit , p 134

Hugh Kenndy , Loc . cit . p83

(٤١) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ، ٧٩ ، ٨٠

(٤٢) الحارث بن مسكين : ابن محمد بن يوسف الأموي أبو عمرو المصري . الحافظ الفقيه

العلامة ، روى عنه داود والنسائي . قال الخطيب : كان فقيها على مذهب مالك ، ثقة فى الحديث ، ثبتا . وله تصانيف ولد سنة أربع وخمسين ومائتين

السيوطى : المصدر السابق المجلد الأول ص ٢٦٨

(٤٣) اليعقوبى : المصدر السابق ج ٣ ، ص ١٩٣

(٤٤) طاء النمل : احدى قرى مركز أجا مديرية المنصورة

- محمد خفاجى . المرجع السابق ، ص ٤٨

- (٤٥) المقریزی : المصدر السابق جـ ١، ص ٨١
 (٤٦) محمدخفاجی. المرجع السابق ، ص ٤٩
 (٤٧) ابن إیاس : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٤٩ ، ١٥٠
 (٤٨) ابن البطریق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، مطبعة الأباء الیسوعیین ، بیروت ١٩٠٩ م، ص ٥٧ : ٥٩.
 (٤٩) ساویرس : المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٢٧٥ : ٢٨٠ .
 (٥٠) ابن البطریق : المصدر السابق ، ص ٥٨
 (٥١) ابن إیاس : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٥٠
 (٥٢) المقریزی : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٨١
 (٥٣) ابن ظهیرة : المصدر السابق ، ص ٣٨ .
 (٥٤) ابن تغری بردی : المصدر السابق ، جـ ، ص ٢١٦

55- Barbara Watterson , OP . Cit , P 268

- (٥٦) الکندی : کتاب ولاة مصر ، ص ١٥٠
 (٥٧) ابن البطریق: المصدر السابق ، ص ٥٨ .
 (٥٨) ابن البطریق المصدر السابق والصفحة .
 (٥٩) بورة : مدنیة على ساحل بحر مصر قرب دمياط .
 یاقوت الحموی : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٥٠٦ .
 • شهد تاریخ سعید بن بطریق : أن رجل یرسمى بکام کان کثیر المال من کنز وجده فی بلبوش من الأ بوانیة فی صهریج ، ولما وصل المأمون إلی مصر فاخبر به فمئل بنین یدیه فرسم له بعمالة بوره وما معها ، وحمل إلیه مالا کثیرا وتحف وبلغ عند المأمون منزلة کبیرة فسأله فی تحدید ما تهدم وتشعث من البیع فرسم له بذلك وأخذ منه مرسوم بخط یده وعلامته وجدد کنائس کثیرة أعادها لما كانت علیه .
 ابو المکارم : تاریخ ابو المکارم ، (تاریخ الکنائس والأدیرة فی القرن ١٢ بالوجه البحری)، اعداد الاتبا صمویل ١٩٩٩ ، ص ١١١ .
 (٦٠) ابن البطریق : المصدر السابق ، ص ٥٨ .
 (٦١) السید احمد عطا : المرجع السابق ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .
 (٦٢) الکندی : کتاب ولاة مصر ، ص ١٥١ .
 ابن الوردی : تاریخ ابن الوردی ، المطبعة الحیدریة - النجف . ط الثالثة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ جـ ١ ، ص ٢٩٩ .
 (٦٣) جمال الدین الشیال : المرجع السابق ، ص ٩٠ ، ٩١ .
 (٦٤) أحمد مختار عمر : الفتح الإسلامی وتعریب مصر ومقال فی کتاب (أثر الإسلام فی مصر) الیهنة العامة لقصور ، یولیو ١٩٩٩ م، ص ٨٥

Ceres Wissa Wassef , Pratiques Rituelles et Alimentire des coptes le
 Caire p 21

Stanley lane pool , OP. Cit . p 38

(٦٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني الثقافي والاجتماعي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ط ١٣ ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م ، ص ١٦٤
عبد الرحمن الرفاعي وسعيد عاشور : مصر في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، ٢٠٠٠ م ، ص ٦١

(٦٦) محمد خفاجي : المرجع السابق ، ص ٥٢ : ٥٥

(٦٧) الحويري : المرجع السابق ، ص ٧٢

حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق والجزء والصفحة .

(٦٨) فلييب فارح ويوسف كرياج : المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي ، ترجمه بشير السباعي ، سينا للنشر ، القاهرة ط الأولى ١٩٩٤ م ، ص ٣٣ .

(٦٩) بتشير : المرجع السابق ، ص ٢٢٤

(٧٠) سيدة الكاشف مصر في عصر الولاية ، ص ١٣٥

(٧١) مصطفى طه بدر : المرجع السابق ، ص ١٠٠

(٧٢) المقرئزي : المصدر السابق ج ١ ، ص ٨١

(٧٣) إبراهيم أحمد العدوي : مصر الإسلامية درع العروبة وريباط الإسلام ، سلسلة الثقافة الأثرية ، مشروع المائة كتاب ، ١٩٩٢ م ، ص ٢٠٨ .

هويدا عبد العظيم رمضان : المجتمع في مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية للكتاب ، ٢٠٠٠ م ، ج ٢ ، ص ٣٩

(٧٤) الحويري : المرجع السابق ، ص ٧١

(٧٥) على حسن الخربوطلي : مصر العربية الإسلامية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، د. ت ، ص ٣٢

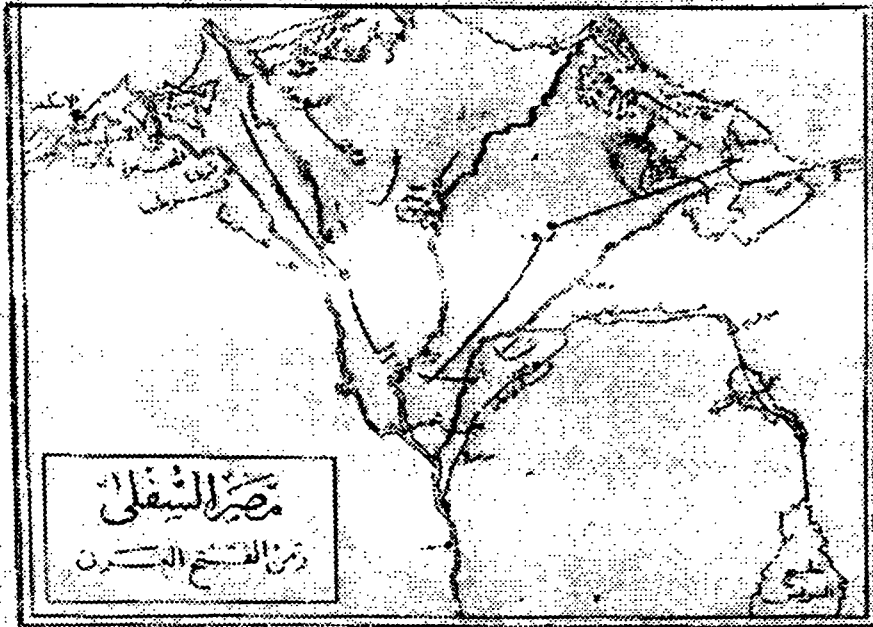
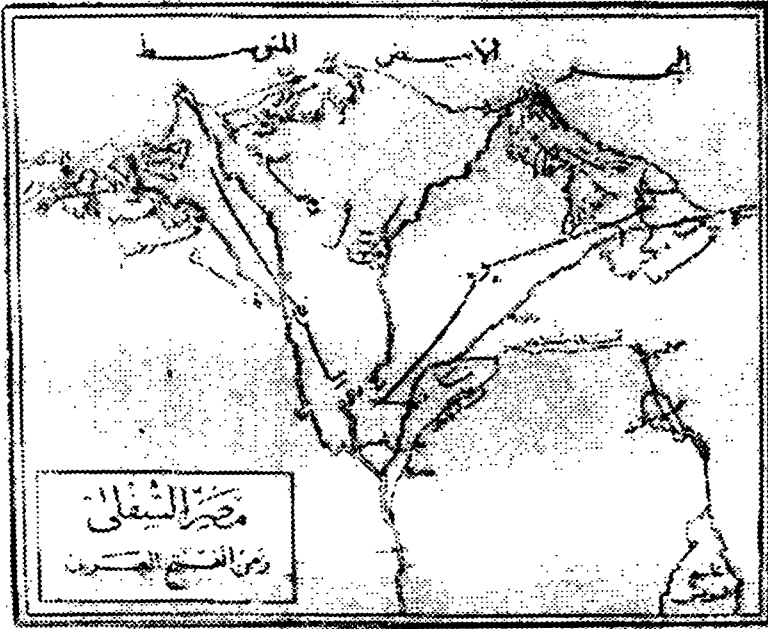
(٧٦) اللغة القبطية : من اللغات القديمة التي تداولها المسيحيون في وادي النيل . وكانت بعض الفقرات القبطية تكتب باللغة اليونانية القرنين الثاني والثالث للميلاد وترجم الإنجيل من اليونانية إلى القبطية قبل عام ٣٠٠ م ، وكانت القبطية تكتب بأبجديتها الخاصة المشتقة من الأبجدية اليونانية ، وفي القرن الخامس أصبحت خاصة بالأقباط المينوفريين

William Foxwell Albright , (Colliers Encyclopedia) New York , vol 7 , p312

77- Terry G Wilfong , Loc . Cit p 184

(٧٨) الحويري : المرجع السابق ، ص ٧١

محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر الإسلامية ، مطبعة الجمهورية الإسكندرية ١٩٩٨ م ، ص ٤٣ .

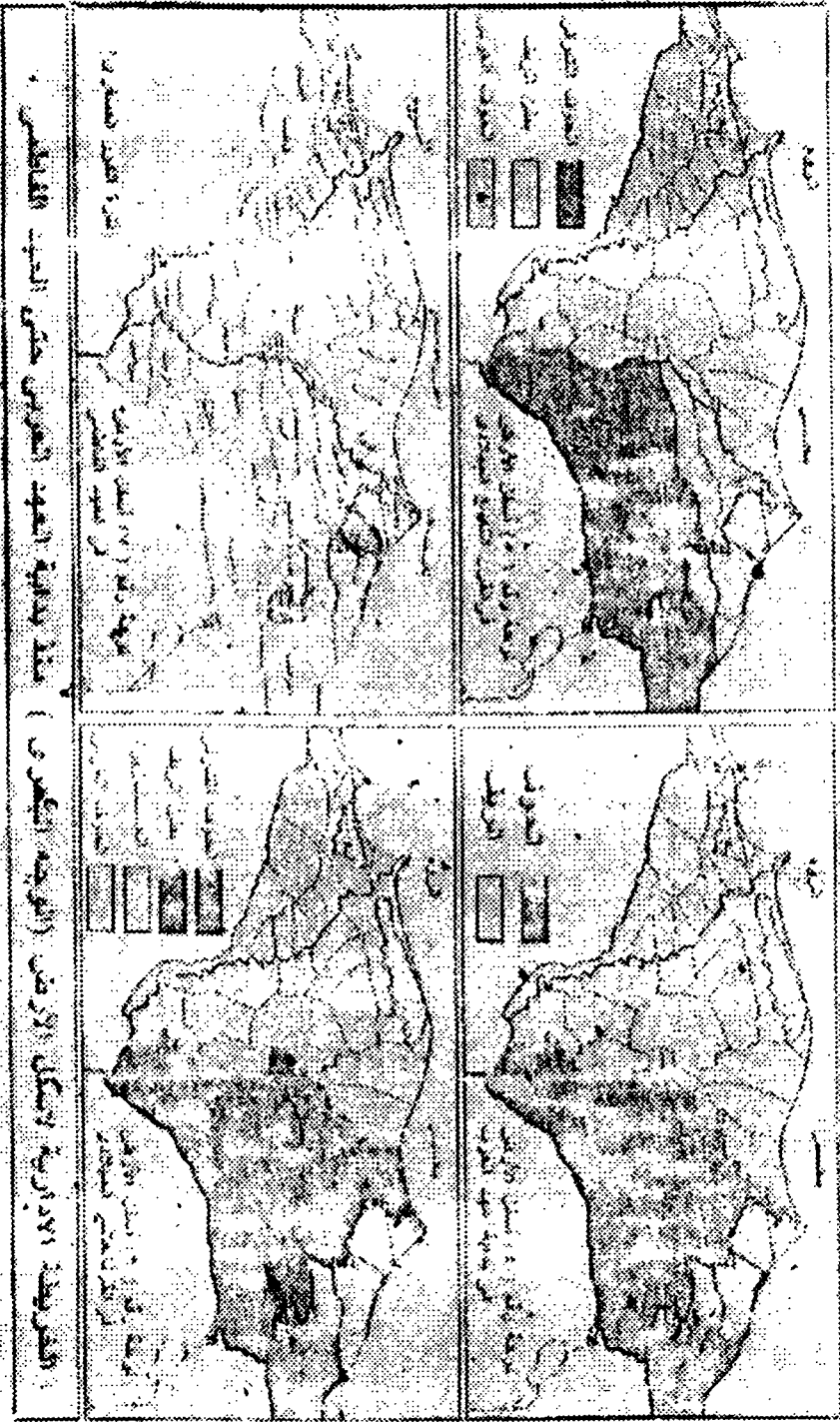


مدينة إسماعيل الكاتك : مصر في عصر الولاة



١٣١
 خريطة الشرق الأوسط
 (١٩٤٥)
 إعداد: وزارة الخارجية
 (الطبعة الأولى: ١٩٤٥)

نقش من إعداد وزارة الخارجية
 (الطبعة الأولى: ١٩٤٥)
 ١٣١



خريطة منطقة المتوسط و علاقه السكان بعد الكالاني : تجزئة السكان المتوسطية من خلال الاطلس التاريخي للأرض البحر في سنة 1950م . ص 9

الفصل الخامس

ثورة الدراهم في عهد إبراهيم بن أحمد الأغلبى

دراسة تحليلية لنص ابن عذارى المراكشى

عبد الحميد حسين محمود حموده(*)

المقدمة

كانت ثورة الدراهم في عهد إبراهيم (الثاني) بن أحمد الأغلبى (٢٦١ - ٢٨٩هـ / ٨٧٥ - ٩٠٢م) تاسع أمراء الأغالبة . هي أول ثورة في تاريخ المغرب ، تعترض على إصلاح نقدى أجراه أمير من أمرائها . ولقد وصلتنا أحداث هذه الثورة عن طريق المؤرخ المغربي ابن عذارى المراكشى الذى كان حياً في سنة (٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) بينما التزمت المصادر المغربية والمشرقية الأخرى الصمت التام :

وذكر ابن عذارى هذه الثورة في سياق أحداث سنة (٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م) موجزة فلم تتعد تفصيلاتها أربعة عشر سطراً في النص التالى:

" ثورة الدراهم على إبراهيم بن أحمد (سنة ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م) وذلك أن إبراهيم بن أحمد ضرب الدراهم الصجاح ، وقطع ما كان يتعامل به من القطع . فأنكرت ذلك العامة ، وغلقوا الحوانيت ، وتآلفوا ، وصاروا إلى رقادة ، وصاحوا على إبراهيم ؛ فحبسهم فى الجامع ، واتصل ذلك بأهل القيروان ؛ فخرجوا إلى الباب ، وأظهروا المدافعة . فوجه إليهم إبراهيم بن أحمد وزيره أبا عبدالله بن أبى إسحاق ؛ فرموه بالحجارة وسبوه . فانصرف إلى السلطان إبراهيم بن أحمد ؛ فأعلمه بذلك . فركب إبراهيم إلى القيروان ، ومعه حاجبه نصر بن الصمصامة فى جماعة من الجند ؛ فناصبه أهل القيروان القتال ، فتقدم إبراهيم إلى المصلى ، فنزل وجلس ، وكف أصحابه عن قتالهم ، فلما اطمأن به مجلسه وهدأ الناس خرج إليه الفقيه الزاهد أبو جعفر أحمد بن مغيث ، فكان بينهما كلام كثير ، ودخل أبو عبد الله بن أبى إسحاق الوزير مدينة القيروان مع

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد، كلية التربية - جامعة القاهرة بالفيوم.

أحمد بن مغيث ، فشق سماطها وسكن أهلها . فرجع إبراهيم بن أحمد إلى رقادة ، وأطلق المحبوسين بالجامع ، وانقطعت النقود والقطع من إفريقية إلى اليوم ، وضرب إبراهيم بن أحمد دنانير ودراهم سماها العاشرية . في كل دينار منها عشرة دراهم (١) .

سوف تسير خطى فى معالجة هذا النص وفقا للعناصر الأساسية التالية :-

١ - البعد التاريخي المتمثل فى زمن الثورة .

٢ - المسرح الجغرافى أو مكان الثورة .

٣ - العنصر البشرى (الثوار) .

٤ - أسباب الثورة .

٥ - موقف الثوار .

٦ - موقف الحكومة الأغلبية من الثوار .

٧ - المفاوضات .

٨ - نهاية الثورة ونتائجها .

سأتناول تلك النقاط بالشرح بقدر المستطاع ؛ لكى أصل إلى صورة شبه متكاملة عن أحداث الثورة التى أوردها ابن عذارى باختصار شديد .

١- البعد التاريخي المتمثل فى زمن الثورة

كان يلى عرش السلطة الأغلبية زمن الثورة إبراهيم الثانى بن أحمد الأغلبى . ويعد عهده أطول حكام الأغلبة زمنياً إذ بلغت ولايته منذ ولى يوم الأربعاء فى السادس من جمادى الأولى سنة (٢٦١ هـ / ٨٧٥ م) إلى أن مات فى الثالث عشر من ذى القعدة (٢٨٩ هـ / ١٠ أكتوبر ٩٠٢ م) ثمانية وعشرين سنة وستة أشهر وبضعة أيام (٢) .

بدأ إبراهيم بن أحمد ولايته بحسن السيرة والعدل والحزم فى توفير الأمن فى البلاد وقتل أهل البغى والفساد . وكان يجلس للعدل فى جامع القيروان يوم الخميس والإثنين من كل أسبوع لسماع شكاوى المتظلمين والحكم فيها . وكانت قوافل التجار تسير فى أمن على الطريق وشيد المحارس والحصون على سواحل البحر (٣) وبنى مدينة رقادة فى سنة (٢٦٣ هـ / ٥ - ٨٧٦ م)

وأكمل بناء القصر المعروف بقصر الفتح في سنة (٢٦٤ هـ / ٧ - ٨٧٨ م^(٤)) وشيد سور سوسة^(٥). واستكثرت العبيد السودان وبلغوا ثلاثة آلاف^(٦) وشهدت بلاد المغرب في أيامه أحداثاً هامة حيث فتحت سرقوسة . كما كانت فتنة العباس بن أحمد بن طولون الذي سار إلى برقة مخالفاً لابيهِ الذي خرج إلى الشام، وكان العباس يهدف إلى تملك إفريقية^(٧) . وفي سنة (٢٦٨ هـ / ١ - ٨٨٢ م) أوقع إبراهيم بن أحمد بأهل الزاب^(٨) .

وفي سنة (٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م) أجرى إبراهيم بن أحمد إصلاحه النقدي . مما أدى إلى ثورة الدراهم^(٩) موضوع البحث . ولم يلبث أن تغيرت أخلاقه وأسرف في القبل وأفنى أصحابه وكتابه وحجابه حتى قتل ابنه^(١٠). وفي أواخر حكمه في سنة (٢٨٩ هـ / ١ - ٩٠٢ م) أظهر إبراهيم بن أحمد التوبة وعلى الأخص عندما ظهر الداعي الشيعي أبو عبدالله بين قبيلة كتامة . وأراد إبراهيم ان يرضى العامة ويستميل قلوب الخاصة ؛ فرد المظالم وأسقط القبالات، وأخذ العشر طعاماً، وترك لأهل الضياع خراج سنة وسماها سنة العدل^(١١)

٢- المسرح الجغرافي أو مكان الثورة

دارت رحى ثورة الدراهم في مدينة القيروان التي شيدها الفاتح العربي عقبة بن نافع الفهري سنة (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) في ولايته الأولى على المغرب ؛ لتكون قاعدة للمسلمين هناك على غرار المدن الإسلامية الأخرى في مصر والعراق^(١٢) .

وامتدت أحداث هذه الثورة إلى مدينة رقادة التي شيدها إبراهيم بن أحمد الأغلبى في سنة (٢٦٣هـ/ ٨٧٦م)^(١٣) الواقعة إلى الجنوب الغربي من القيروان^(١٤). وكانت رقادة مدينة ملوكية اقتصر على الأمير وحاشيته وجنده. والمقربين من البيت الأغلبى^(١٥). ولا يتسع المقام هنا لذكر خطط مدينتي القيروان، ورقادة؛ لأن هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة مستقلة ليس هذا محلها.

٣- العنصر البشري (الثوار)

أشار ابن عذارى^(١٦) إلى الثوار بقوله: "فانكرت ذلك العامة، وغلقوا الحوانيت".

ولا يخفى علينا أن الثورة تستمد قوتها أو ضعفها من الثوار حسب وضعهم في السلم الاجتماعي ووزنهم في المجتمع. وجاء حديث ابن عذارى عن

الثوار في كلمة واحدة حيث ذكر أن العامة هم الذين أعلنوا العصيان على إصلاح الأمير إبراهيم بن أحمد . ومن المعروف أن كلمة العامة تضم عدة فئات مختلفة من شرائح المجتمع كالجنود (١٧) ، والتجار ، والعييد (١٨) ، وأصحاب الحرف اليدوية الخ .

ولن أسهب في السرد التاريخي لأوضاع العامة ككل في مجتمع القيروان . لأن هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة مستقلة . وكل ما يهمني في هذا المقام تحديد تلك الفئة التي تزعمت الثورة . ولا غرو أنها طائفة التجار، ولدينا دليل ذلك من قول ابن عذارى أنهم سارعوا بإغلاق الحوانيت . وانضم إليهم كل متضرر من هذا الإصلاح .

بقى علينا أن نطرح سؤالاً على درجة كبيرة من الأهمية بمكان . ماهى طوائف التجار ومكانتهم الاجتماعية في القيروان ؟

أ- طوائف التجار

كانت طائفة التجار في القيروان تضم تشكيلةً من مختلف شرائح المجتمع القيرواني . ويأتى في مقدمتهم العرب ونخص بالذكر منهم عوف بن يوسف الخزاعي المتوفى في سنة (٢٣٩ هـ / ٨٥٣ - ٨٥٤ م) الذى كان يبيع الكتان (١٩) . والزاهد عبد الرحمن بن عبد ربه الربيعى الذى عمل بالتجارة فى سوق البزازين (٢٠) . وعمل بعض الفرس فى التجارة فى أسواق القيروان (٢١) وإلى جانب العرب والفرس وجد أيضا الأندلسيون الذين نالوا مكانةً رفيعةً فى المجتمع القيروانى حيث شاركوا فى الحياة السياسية والاجتماعية فخرج بعضهم فى حملة أسد بن الفرات سنة (٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) لغزو صقلية (٢٢) . ومن أشهر الأسماء اللامعة فى عالم التجارة بالقيروان أبو جعفر بن خيرون صاحب الفنادق المشهورة (٢٣) . وعلاوةً على الطوائف السابقة وجد أهل الذمة من اليهود والنصارى . وبرزت عائلات يهودية كبيرة كعائلة ابن عوكل (٢٤) وأبى الفرج يعقوب بن أبراهام (٢٥) . وقامت شركات بين المسلمين واليهود فى مجال التجارة (٢٦).

ب - مكانة التجار

حظى التجار بمكانة رفيعة فى العالم الإسلامى . وكانت لهم مكانة بارزة عقب تأسيس مدينة القيروان . وخير دليل على ذلك أنه لم يمض على تأسيس المدينة سوى سبع سنوات حتى سقطت فى يدى الزعيم البربرى كسيلة فى سنة

(٦٤ هـ / ٦٨٤ م) بعد استشهاد الصحابي الجليل عقبة بن نافع في تهوده .
وخشى معظم سكان القيروان من بطش كسيلة بهم ففضلوا مغادرة القيروان غيز
أن الحاجة أجبرت بعض الناس على الإقامة معرضين حياتهم للخطر، من أجل
الدفاع عن مصالحهم وممتلكاتهم . كما يقول ابن الأثير^(٢٧) : " وبقي بها
أصحاب العيال وكل ممثل من التجار " .

وأشاد الزهري^(٢٨) (المتوفى في أواسط القرن السادس الهجري) بمكانة
تجار القيروان قائلاً : " كان فيها أربعة آلاف كرسي للعلم ، وأربعمائة شاعر لا
يمدحون ملوكاً ولا وزراء . وإنما يمدحون التجار وأولاد التجار " .

كما أخذ التجار موقفاً معارضاً لسياسة الأغلبية في بعض الأحيان .
وثمة دليل على ذلك عندما طلب إبراهيم ابن الأغلب العون المادي منهم
لمساعدته عندما كان والياً لإقليم الزاب ؛ لنصرة محمد بن مقاتل العكبي على
تمام رفض التجار . إقرضه بالمال^(٢٩) .

كما رفض التجار وبعض فقهاء القيروان مساعدة أحد أفراد البيت
الأغلبى ويدعى إبراهيم بن الأغلب الذي حاول لم الشمل والتصدي للفاطميين
بعد هروب آخر أمراء الأغلبية زيادة الله (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ / ٩٠٣ - ٩٠٩ م)
إلى الشرق فجاء رد أهل القيروان مخيباً لآماله إذ قالوا: "إنما نحن فقهاء وعامة
وتجار، وما في أموالنا ما يبلغ غرضك وليس لنا بالقتال طاقة"^(٣٠) .

كذلك وقف تجار القيروان بالمرصاد عندما شعروا بالخطر الفاطمي
على مدينة القيروان فهبوا للدفاع عن المدينة ، ونازلوا قبيلة كتامة حليفة
الفاطميين وساعدهم الأيمن والتي قامت بعمليات نهب واسعة النطاق للحوانيت
فصاح أهل السوق " النفير ؛ النفير " ودار قتال عنيف بين كتامة وتجار القيروان
أسفر عن مقتل ما يربو عن ألف رجل من كتامة^(٣١) .

٤ - أسباب الثورة

أشار ابن عذاري^(٣٢) إلى سبب ثورة الدراهم بقوله : " ضرب إبراهيم
ابن أحمد الدراهم الصحاح ، وقطع ما كان يتعامل به من القطع " .

ومن الجدير بالذكر ، أن هذا الإصلاح حدث بعد ما تفاقمت الأزمة
المالية وكثر الغش في الدراهم ، وهذا يقودنا إلى تتبع جذور المشكلة . ونجد
أنفسنا أمام نقطتين جديرتين بالمناقشة هما:

الأولى : نقص النقود في بيت المال

عانى بيت المال الأغلبى من نقص ملحوظ فى النقود قبل ولاية إبراهيم بن أحمد . وحمل ابن عذارى المسئولية الكاملة على محمد بن أحمد الأغلبى الملقب بأبى الغرائيق (٢٥٠ - ٢٦١ هـ / ٢٦٤ - ٤ - ٨٧٥ م) ثامن أمراء الأغلبة الذى اتبع سياسة مالية غير متزنة أدت إلى هذا التدهور وحمله ابن عذارى (٣٣) المسئولية بقوله : " ولما مات أبو الغرائيق لم يجد إبراهيم فى بيت المال شيئاً يذكر " . ويؤكد النويرى (٣٤) على المعنى ذاته بقوله : " ولم تكن له همة فى جمع المال ، فلما مات لم يجد إخوانه فى بيت المال شيئاً " .

ويبدو أن أبا الغرائيق كان ينفق بدون وعى، حيث كان غاية فى الجود مسرفاً فى العطاء شغوفاً بالصيد فلقب بأبى الغرائيق ، وبنى قصرأ فى السهلين لصيد الغرائيق (٣٥) - جمع غرنوق وهو الكركى (٣٦) - أنفق فيه ثلاثين ألف دينار (٣٧) . وذكرها ابن عذارى بثلاثين ألف مقال (٣٨) وأراد إبراهيم الثانى تغطية العجز عندما وجد خزائن بيت المال خاوية . ولم يجد ما يكفيه لدفع أرزاق الجند، فاضطر إلى ضرب حلى نسائه إلى دنانير ودرهم ووزعها على جنده ، عندما خرج على رأس قواته لنجدة طرابلس من العباس بن أحمد بن طولون الذى شن هجوماً عليها (٣٩) . ولم يلبث إبراهيم أن وصله خبر هزيمة العباس وهو فى طريقه إلى قابس .

وينبغى علينا أن نقف قليلاً أمام هذا الأجراء ؛ هل اضطر إبراهيم الثانى إلى تخفيض عيار الدراهم فى الوقت نفسه الذى يحول فيه كل شئ إلى نقود، أو بمعنى آخر هل خفض العملة من أجل تغذية بيت المال بالقطع النقدية بصورة أوفر عندما اشتدت الحاجة الملحة إلى النقود ؛ للوفاء وبدفع أرزاق الجند . ويجب أخذ هذا الأمر فى الاعتبار (٤٠) .

ومن الجدير بالذكر أن الكوارث الطبيعية ساهمت بصورة فعالة فى قلة الأموال حيث عم القحط والوباء فى المغرب كما حدث فى سنة (٢٦٠ هـ / ٣ - ٨٧٤ م) فقد عمت المجاعة فى المشرق والمغرب (٤١) . وفى سنة (٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م) كان القحط العظيم والغلاء المفرط بإفريقيّة (٤٢) . ثم عاد القحط والوباء فى سنة (٢٦٨ هـ / ٨٨١ م) وترتب عليه رفع سعر القفيز من القمح إلى ثمانية دنانير حتى هلك الناس (٤٣) .

ومن الجدير بالإشارة أن المجاعة الأخيرة التي لحقت بالبلاد كانت سبباً في كوارث أخرى حيث امتنعت قبائل إقليم الزاب عن دفع ما عليها من الأموال^(٤٤) . كما غضبت قبائل وزداجة في باجة في سنة (٢٦٨ هـ / ٨٨١ م) ومنعوا ما كانوا يدفعونه للأمير إبراهيم الثاني من الأموال (الصدقات) وعندما قاتلهم الوالي وهو الحسن بن سفيان من أجل ذلك هزموه^(٤٥) .

الثانية : الغش في الدراهم

ضرب إبراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغلبة الدنانير^(٤٦) والدراهم في مدينة العباسية التي شيدها في سنة (١٨٤ هـ / ٨٠٠ م) حيث نقل إليها الدواوين من القيروان ومن جملتها دار الضرب . ومن أقدم الدنانير الأغلبية دينار مؤرخ بسنة (١٨٩ هـ / ٤ - ٨٠٥ م) كتب عليه : " محمد رسول الله غلب لإله الإله وحده لا شريك له " وعلى الوجه الآخر " ضرب هذا الدينر (الدينار) سنة ١٨٩ هـ . محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله "^(٤٧).

واستمر ضرب الدنانير الذهبية في العصر الأغلبي حتى ولاية زيادة الله ابن عبد الله (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٨ م) آخر أمراء الأغلبة بإفريقية^(٤٨).

ولم يطرأ على وزن الدنانير أى تغيير رغم الظروف الصعبة التي مر بها بيت المال . ولكن في أواخر عهد الأغلبة أنخفضت انخفاضاً ملموساً بدلاً من ٤,٢٠ جرام وصلت إلى ٤,١٢ أو ٤,١١ جرام^(٤٩) .

ويبدو أن النقود الذهبية لم تخضع لأى زيف . وذلك لحماية المقياس الذهبى الذى كانت تقوم عليه جميع المبادلات، منعا لحدوث كارثة اقتصادية^(٥٠).

وكانت الدراهم تمثل حجر الزاوية فى المشكلة النقدية التى حدثت فيها التلاعب . وتشير كتب النميات إلى أن أقدم درهم من ضرب الأغلبة مؤرخ بسنة (١٨٤ هـ / ٨٠٠ م) مضروب فى العباسية ثم توالى ضرب الدراهم بعد ذلك فى سنوات (١٨٥ هـ / ٨٠١ م) و (١٨٦ هـ / ٨٠٢ م) و (١٨٧ هـ / ٨٠٣ م)^(٥١) . وتوقف ضرب الدراهم الفضية بعد عهد محمد بن الأغلب (٢٢٦ - ٢٤٢ هـ / ٨٤٠ - ٨٥٦ م) خامس أمراء الأغلبة . ثم عادت إلى الظهور مرة أخرى فى عهد إبراهيم الثانى بن أحمد الأغلبى^(٥٢) (٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٤ - ١ - ٩٠٢ م) تاسع أمراء الأغلبة بمعنى أن

ضرب الدراهم توقف نحو تسعة عشرة سنة. وذكر (Lavoix) أربعة دراهم سكت في عهد إبراهيم الثاني في مدينة العباسية سنة (٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) وتحمل أرقام (٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢) (٥٣) .

وتصمت المصادر التاريخية عن سبب توقف المسكوكات الفضية منذ عهد محمد الأول في وقت كان فيه بيت المال مزدهراً وربما يكون ربط هذه الظاهرة أيضاً بالنضوب ، ثم بتقاطر المعدن النفيس . فصار الإصلاح قابلاً بذلك للإيجاز (٥٤) ومما لا ريب فيه ، أنه في فترة التوقف كثرة الدراهم الزائفة والمغشوشة في أيدي الناس يومذاك في القيروان . وعم النقد الردي . ونستد إلى رواية ذكرها الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م) صاحب كتاب (طبقات اللغويين والنحاة) وهذا الكتاب من المصادر الهامة التي تترجم لعلماء اللغة والنحو في حواضر العالم الإسلامي شرقه وغربه . ذكر في معرض ترجمته لطبقة القرويين أن الطلاء المنجم إسماعيل بن يوسف أول من أدخل الطلاء العراقي إلى القيروان . واتهم بتزوير الدينار والدراهم فلاذ بالفرار إلى الأندلس (٥٥) .

وهذا الخبر لا ينبغي أن يمر علينا مرور الكرام . وإنما يدل على تفشي ظاهرة غش العملة (الدراهم) وأن بعض الناس عمل في التزوير في الخفاء . مما أدى إلى ظهور النقد الردي وبكثرة كربع الدرهم ، وثمان الدرهم ، وكان يتعامل في أسواق القيروان ومدن إفريقية الأخرى بالوزن لا بالصراف . وكثير ما كانت تقطع أجزاء صغيرة من أنصاف وأثلاث وأرباع بدعوى تسهيل الشراءات الصغيرة . وتم ذلك دون السير على قاعدة سليمة . وشاع ضرر هذه الطريقة وأدى إلى الفوضى في التعامل، وأراد إبراهيم الثاني تلافى الأمر بتنظيم هذا التعامل، على أساس سليم، يحفظ الريبة ويكف التنازع بين الأفراد ، فأمر بضرب دراهم خالصة عرفت بالدراهم الصحاح . وسميت بالدراهم " العاشرية " وجعل كل عشرة منها تساوي ديناراً ذهباً (٥٦) .

٥- موقف الثوار

وكانت أولى خطوات التجار للتعبير عن غضبهم هي :

أ- إغلاق الحوانيت

كان إغلاق الحوانيت من قبل التجار يعبر عن مغزى جوهرى فى القيروان حيث سيصيب الحياة التجارية بالشلل التام. وكانت تلك الحوانيت قد

أنشأها زيادة الله الأول (٢٠١ - ٢٢٣ هـ / ٨٠٧ - ٨٣٨ م) عندما أراد إدخال تنظيم جديد لأسواق القيروان . فأنشأ الحوانيت الجديدة ، ونقل الناس من أسواقهم إليها^(٥٧) . وكانت الحوانيت تقع في أقصى الجانب الشرقي من سوق الرهادنة - الرهادرة - وفي آخر سوق الكتانيين^(٥٨) .

ب- انتقال المظاهرة إلى رقادة

تجمع التجار في حشود كبيرة لم يخبرنا ابن عذارى بأعدادها وزحفوا إلى رقادة^(٥٩) الواقعة في الجنوب الغربي للقيروان على بعد ثمانية أميال^(٦٠) . ويبدو أن المتظاهرين كانوا يقصدون بخروجهم إلى رقادة وضع الأمير إبراهيم ابن أحمد أمام الأمر الواقع ؛ ليعدل عن خطة الخاصة بضرب الدراهم الجديدة . أو لنقل شكواهم عن حجم الضرر الذي لحق بهم من جراء هذا الإصلاح . ومهما يكن من أمر فإن إبراهيم بن أحمد لم يستجب لهذا التهديد . الأمر الذي دفع المتظاهرين أمام قصره على التنديد بمسلك الأمير إبراهيم بعبارات وهتافات معادية . وضاق الأمير إبراهيم ذرعاً لهذا المشهد الذي لم يألفه من قبل فأمر حراسه بتطويق المتظاهرين وحبسهم في المسجد الجامع^(٦١) .

أما عن رد فعل أهل القيروان على حبس المتظاهرين من التجار فقد تجمعوا في حشوداً كبيرة وسخطوا على الأمير إبراهيم وأعلنوا العصيان . واتجهوا صوب باب القيروان المؤدى إلى رقادة^(٦٢) .

٦- موقف الحكومة الأغلبية من الثوار

ولما علم الأمير إبراهيم الثاني بما حدث في القيروان أرسل وزيره أبا عبد الله بن أبي إسحاق للتفاوض مع أهل القيروان وإقناعهم بجدوى هذه الإصلاحات الاقتصادية . ولم يعبأ أهل القيروان بمجئ الوزير الأغلبى ، واستقبلوه بقذفه بالحجارة والسب والشتائم ، مما عجل بفشل مهمة الوزير . الذي وجد أن الفرصة غير مهيأة للحوار والتفاوض فآثر العودة على عجل ؛ ليخبر الأمير إبراهيم الثاني بحقيقة الموقف .

وأسرع الأمير إبراهيم الثاني ومعه حاجبه نصر بن الصمصامة والوزير أبو عبد الله بن إسحاق وجماعة من الجند . ولما وصل إلى القيروان وجد الشر في أعين أهلها الذين أصروا على القتال . يقول ابن عذارى^(٦٣) في هذا الصدد : " فناصره أهل القيروان القتال " .

ورغب الأمير إبراهيم الثاني في معالجة الموقف بحكمة دون اللجوء إلى القوة . وبحسب له هذا المسلك برغم ما عرف به من حدة مزاجه وتقليبه . وانسحب إلى المصلى خارج القيروان سلمياً بمن معه . ونهى جنده عن التحرش بأهل القيروان (٦٤) خشية أن يفلت زمام الأمور من يديه ويقع بينه وبين أهل القيروان ما لا يحمد عقباه .

٧- المفاوضات

من حسن الحظ ان القوة لم تكن هي لغة التعامل بين السلطة الأغلبية وأهل القيروان المساندين للثور . الأمر الذي أتاح الفرصة للحل السلمي عن طريق المفاوضات بين الطرفين.

وكان الأمير إبراهيم الثاني بن أحمد هو ممثل السلطة الأغلبية وسبق أن عرفت به في مستهل البحث . أما أهل القيروان فقد مثلهم لعرض شكواهم أحد الفقهاء الزهاد الذي ذكره ابن عذارى خطأ أبا جعفر أحمد بن مغيث (٦٥) . ولكن كتب الطبقات صححت لنا اسمه فهو أبو جعفر أحمد بن معتب الأزهرى (٦٦) . ولم يشر ابن عذارى إلى الظروف التي جعلت أهل القيروان يوافقون على اختياره . فمن هو ذلك الرجل ؟ كان أحمد بن معتب بن أبى الأزهر بن عبد الوارث بن حسن الأزدي رجلاً نبيلاً ، فاضلاً (٦٧) . وكانت له رحلات إلى الشرق وسمع على أيدي نخبة كبيرة من العلماء . وكان شديد التأثر بسماع القرآن الكريم (٦٨) . ويقول ابن الدباغ (٦٩) عنه : " سمع من سحنون وسمع بالمشرق من حسين بن حسن . وكان فقيهاً صالحاً وعالمياً بالحديث " . وكان أحمد بن معتب ذا مكانة عند إبراهيم الثاني بن أحمد ، وثمة دليل على ذلك أن الأخير كان يكتب إليه : " يا أخى فى الإسلام وشقيقى فى المحبة " (٧٠) . وتوفى أحمد بن معتب فى سنة (٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) (٧١) .

وعلى أية حال ، دارت مناقشات طويلة بين إبراهيم الثانى بن احمد وأحمد بن معتب فى موضع إقامة إبراهيم الثانى بن احمد عند المصلى خارج سور القيروان . ولم يشر النص إلى فحوى هذا النقاش . ومن المؤكد أنه دار حول لب القضية الأساسية مسألة الدراهم الجديدة وشكوى التجار المتضررين من هذا الإصلاح النقدي من ناحية ومشكلة المحبوسيين من تجار القيروان - الثوار - فى مسجد رقادة .

ويبدو أن إبراهيم الثانى بن أحمد أدرك مطالب أهل القيروان . وتمسك

بموقفه في مسألة الإصلاح النقدي وأقنع أحمد بن معتب بأهمية إصلاحه درءاً للمصلحة العامة للدولة مع حفظ مصالح أصحاب العملة التي تقرر سحبها بتعويضهم . كما وعد بإطلاق سراح المحبوسين في مسجد رقادة دون شروط .

٨- نهاية الثورة ونتائجها

ومما يدل على رضا الطرفين على ما اتفقوا عليه أن الهدوء عاد إلى القيروان وسكن أهلها وثمة دليل على ذلك أن الفقيه أحمد بن معتب والوزير أبا عبدالله بن إسحاق مشياً معاً في سماط القيروان (٧٢) الذي يبدأ من باب أبي الربيع في الجنوب الشرقي إلى باب تونس في الشمال الشرقي والذي يبلغ طوله نحو ميلين، وكان هذا السماط سطحاً متصلًا يحفل بالمتاجر والصناعات كافة (٧٣).

على أية حال ، عاد إبراهيم الثاني إلى رقادة وأطلق المحبوسين في الجامع. وانتهت هذه الثورة دون إراقة دماء . وكان من الممكن أن يحدث ما لا يحمد عقباه وانقطعت النقود والقطع الزائفة من إفريقية إلى أوائل القرن الثامن الهجري زمن ابن عذارى ، حلت محلها الدنانير والدرهم العشرية في كل دينار منها عشرة دراهم (٧٤) .

الهوامش

- (١) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة كولان وبروفنسال ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣ م ، ص ١٢٠ - ١٢١ .
- (٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٢ .
- محمد أحمد عبد المولى : أضواء على عصر الأمير إبراهيم الثاني الأغلبى ، مقال بمجلة كلية الآداب - جامعة طنطا ، العدد الأول ، سنة ١٩٨٢ م ، ص ٧٨ .
- (٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، الجزء الثالث ، دار الفكر ، بيروت (د.ت) ، ص ٥ .
- (٤) ابن عذارى : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١١٧ .
- (٥) ابن الأثير : مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ٥ .
- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المجلد الرابع ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٩ م ، ص ٢٠٣ .
- (٦) ابن خلدون : مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .
- (٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق وتعليق / أحمد مختار العبادى وآخرين ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ م ، ص ٢٨ .

- (٨) ابن الأثير : مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ٣٩ .
- (٩) ابن عذارى : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٢٠ .
- (١٠) ابن الخطيب : مصدر سابق ، ق ٣ ، ص ٢٩ - ٣٤ .
- (١١) ابن عذارى : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٣١ .
- (١٢) الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهارها الحضارة الإسلامية ، تونس ، ١٩٦٨ م ، ص ٥٦ .
- سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، الجزء الأول ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ م ، ص ١٨٦ .
- (١٣) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الجزء الرابع والعشرون ، تحقيق / حسين نصار ، مراجعة / عبد العزيز الأهوانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣ م ، ص ١٣٧ .
- (١٤) حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، القسم الأول ، الطبعة الثانية ، مكتبة المنار ، تونس ، ١٩٧٢ م ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .
- (١٥) محمد الشابى : رقادة - بحث بمجلة المنظمة العربية للتربية والثقافة - جامعة الدول العربية - المؤتمر السادس للآثار فى البلاد العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ٥١٩ .
- (١٦) البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٢٠ .
- (١٧) كان قواد الجيش من الطبقة الخاصة ، أو الطبقة الحاكمة ، أما الجنود فكانوا من الطبقات الشعبية ، وقد نشأت بينهم - نظراً بكثرة العمليات العسكرية التى عرفتها القيروان - فئة خاصة يمكن أن نسميها بفئة الجنود المرتزقة الذين كانوا يحاربون مع كل من يستأجرهم لذلك أنظر . الحبيب الجنحاني : مرجع سابق ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .
- (١٨) كان العبيد من شرائح العامة فى القيروان وكانوا يعملون فى ضياع كبار الملاك حيث كانت هناك قرى كاملة مملوكة لكبار الملاك ، وبها عبيد ...
- نريمان عبد الكريم أحمد : مجتمع إفريقية فى عصر الولاة ، سلسلة تاريخ المصريين رقم (١٩٥) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ م ، ص ٢٧٠ .
- (١٩) أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ، تحقيق / على الشابى وآخرين ، تونس ، ١٩٦٨ م ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .
- المالكي : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية ، الجزء الأول ، تحقيق / حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥١ م ، ص ٢٩٧ . ابن الدباغ : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، الجزء الثانى ، تحقيق / محمد الأحمدى أبو النور وآخرون ، مكتبة الخانجى ، القاهرة (د.ت) ، ص ٧٣ .
- (٢٠) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .
- (٢١) محمود إسماعيل : مغربييات ؛ دراسة جديدة ، المغرب (د.ت) ، ص ١١٠ - ١١١ .
- (٢٢) ابن عذارى : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٠٢ .
- (٢٣) ابن عذارى : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

- (٢٤) نورمان : بيت ابن عوكل ، ترجمة / زبيده عطا (بحث تحت الطبع) ، ص ٢ .
- (٢٥) Goitein Zion (Hbrew) V.27, 1962, P.12 .
- (٢٦) أمين الطيبي : جوانب من النشاط الاقتصادي فى المغرب خلال القرن السادس الهجرى من خلال رسائل جنيزة القاهرة ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الثانى ، مركز جهاد الليبيين ، طرابلس ، ١٩٨٤ م ، ص ٤٥٧ .
- (٢٧) ابن الأثير : مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ .
- الحبيب الجتھانى : مرجع سابق ، ص ٨٦ .
- (٢٨) كتاب الجغرافية ، تحقيق / محمد حجاج صادق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة (د.ت) ، ص ١٠٩ .
- (٢٩) الرقيق : تاريخ أفريقيا والمغرب ، تحقيق / المنجى الكعبى ، تونس ، ١٩٦٧ م ، ص ٢١٦ .
- (٣٠) النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق / وداد القاضى ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٠ م ، ص ٢١٠ .
- ابن الأثير : مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ١٣٢ .
- المقرئزى : تعاضد الحنفا ، الجزء الأول ، تحقيق / جمال الدين الشسيال ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ص ٦٣ .
- (٣١) ابن عذارى : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٦٦ .
- (٣٢) البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٢٠ .
- (٣٣) البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١١٤ .
- (٣٤) نهاية الأرب ، ج ٢٤ ، ص ١٢٧ .
- (٣٥) نفسه ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .
- (٣٦) نفسه ، ص ١٢٦ حاشية (١) .
- (٣٧) نفسه ، ص ١٢٦ .
- (٣٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١١٤ .
- (٣٩) ابن عذارى : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١١٩ .
- (٤٠) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية التاريخية السياسى ، ترجمة / المنجى الصيادى ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٥ م ، ص ٣٠١ - ٣٠٢ .
- (٤١) ابن الأثير : مصدر سابق ، ج ٥ ، ص ٣٧٣ . ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢ م ، ص ٩٦ .
- (٤٢) ابن الأثير : مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ٢٥ .
- ابن عذارى : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١١٧ .
- محمد بركات البيلى : الغلاء والمجاعات فى بلاد المغرب الإسلامى حتى القرن الخامس الهجرى ، بحث بمجلة المؤرخ المصرى يصدرها قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة

- القاهرة، العدد الحادى عشر، يوليو، ١٩٩٣ م، ص ٣٢٥ .
- (٤٣) النويرى : مصدر سابق، جـ ٤، ص ١٣٠ .
- (٤٤) ابن عذارى : مصدر سابق، جـ ١، ص ١١٩ .
- (٤٥) النويرى : مصدر سابق، جـ ٢٤، ص ١٣٠ .
- محمد الطالبى : مرجع سابق، ص ٣١٣ .
- (٤٦) إفريقية حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م) حيث أمر بسك الدينار العربي . أنظر - ابن يوسف : الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة، تحقيق / حسين مؤنس، مدريد، ١٩٦٠ م، ص ٤٧ .
- المقرئى : النقود الإسلامية، تحقيق / محمد السيد على، الطبعة الخامسة، النجف، ١٩٦٧ م، ص ١١ .
- حسن محمود الشافعى : العملة وتاريخها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠ م، ص ٨٧ .

-OGodrington : Muslim Numismatins London , 1904, P.12.

- وكانت العملة البيزنطية ينقش عليها كتابة باللاتينية تزين برسوم الأباطرة . وفى ولاية حسان بن النعمان (٧٣ - ٨٦ هـ / ٦٩٢ - ٧٠٥ م) على بلاد المغرب أضاف على تلك العملة بعض التعديلات والنقوش الدينية الإسلامية ثم عربت بعد ذلك فى القيروان فى دار الضرب التي كانت تسلك فيها النقود على اختلاف أنواعها .
- عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية، الجزء الأول، الأنجلو المصرية، القاهرة، -، الحسنى : تطور النقود العربية الإسلامية، الطبعة الأولى، بغداد، ١٩٦٩ م، ص ٥٣ . - محمد محمد زيتون : القيروان ودورها فى الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٨ م، ص ١٥٤ .
- (٤٧) عبد الرحمن فهمي محمد : موسوعة النقود العربية، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٦٥، ص ٨٢٩ .

Muhammed - Abu -L . Farage : Annnales Aglabdes, Damas. 1982, P. 43.

Lavoix : Catalougu des Monnaies Musulmanesa , V.III, (٤٨)

Africa and Spain, Paris, 1887, P. 368.

- (٤٩) جورج مارسية : بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامى فى العصور الوسطى، ترجمة / محمود عبد الصمد هيكال، مراجعة / مصطفى أبوضيف أحمد، منشأة المعارف، الإسكندرية (د.ت)، ص ٩٥ .
- (٥٠) محمد الطالبى : الدولة الأغلبية التاريخ السياسي، ص ٣٠٢ .
- (٥١) Mohammed Abu . L . Farage : op cit, P. 96
- (٥٢) محمد الطالبى : مرجع سابق، ص ٣٠٣ .
- (٥٣) Lavoix : op cit, P.365-366.

- (٥٤) محمد الطالبي : مصدر سابق ، ص ٣٠٣ .
- (٥٥) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ م ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .
- (٥٦) حسن حسنى عبد الوهاب : النقود العربية فى تونس ، تونس ، ١٩٦٨ م ، ص ٢٥ .
- (٥٧) المالكي : رياض النفوس ، ج ١ ، ص ١٩٦ .
- ابن الدباغ : معالم ، ج ٢ ، ص ٣٧ .
- (٥٨) ابن الدباغ : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٧ .
- (٥٩) ابن عذارى : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٢٠ .
- (٦٠) اليعقوبى : البلدان ، ليدن ، ١٨٩٣ م ، ص ٣٤٨ .
- (٦١) ابن عذارى / مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٢٢ .
- (٦٢) ابن عذارى : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٢٢ .
- (٦٣) البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٢٢ .
- (٦٤) نفسه ، ج ١ ، ص ١٢٢ .
- (٦٥) ابن عذارى : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٢١ .
- (٦٦) الخشنى : قضاة قرطبة وعلماء إفريقية وتونس ، عنى بنشره السيد / عزت العطار ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٧٢ هـ ، ص ١٨٩ . المالكي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٣٧٠ . ابن الدباغ : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .
- (٦٧) الخشنى : مصدر سابق ، ص ١٨٩ .
- (٦٨) المالكي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٣٧٠ .
- (٦٩) معالم الإيمان ، ج ٢ ، ص ١٧٧ .
- (٧٠) ولم تضع محبة إبراهيم بن أحمد الأغلبي من خذلان أحمد بن معتب ذات مرة عندما مكن منه القاضى أبا العباس محمد بن عبدون الذى أمر بضرب أحمد بن معتب . وكان أحمد يقول بعد ذلك هذه النازلة خير لى ، إذ سلبت محبة إبراهيم بن الأغلبي من قلبى الخشنى : مصدر سابق ، ص ١٨٩ - ١٩٠ . ابن الدباغ : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .
- (٧١) ابن الدباغ : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٨٣ .
- (٧٢) ابن عذارى : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٢١ .
- (٧٣) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، مكتبة المثنى ، بغداد (د.ت) ، ص ٢٥ - ٢٦ .
- (٧٤) ابن عذارى : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٢١ . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، الجزء الثانى ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ م ، ص ١٢٨ - ١٢٩ . الحبيب الجحاني : المغرب الإسلامى ، تونس ، ١٩٧٨ م ، ص ٧٧ . محمد الطالبي : الدولة الأغلبيية ، ص ٣٠٥ .

الباب الرابع الثورة والتغيير في العصور الحديثة

الفصل الأول

عنف الجوع

انتفاضات الخبز في مصر العثمانية

١٧٩٨-١٥١٧

"الجعان يحلم بسوق العيش"

سيد عشاوى (*)

(١)

ويظل التساؤل : ما الذي يمكن أن تقدمه هذه الأوراق من أضواء على هذه الظاهرة التاريخية المجتمعية، والتي هي بطبيعتها على درجة عالية من التكتيف والتواصل التاريخي بين الماضي والحاضر؟

تتجاوز هذه الدراسة، تلك الصورة التي أبرزها، بعض المؤرخين من أمثال المقریزی مؤلف "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، في بيان الأسباب التي نشأت عنها المجاعات في مصر، وهي صورة وضحت معالمها في "عجائب الآثار" للجبرتي، في الربط بين الظروف الطبيعية، الممثلة في أحوال نهر النيل، والظروف الاقتصادية، الممثلة في اشتداد الغلاء، وبين الظروف السياسية، الممثلة في تعدد ومظالم الولاة والأمراء والعسكر، تتجاوز ما أكدت عليه دراسات حديثة، في الربط بين غلاء الأسعار وتحركات الرفض والاحتجاج، مثلما خط اندريه ريمون دراسته عن "أحياء القاهرة الشعبية في القرن الثامن عشر والحركات الجماهيرية التي قامت بها".

ويعترف كاتب هذه السطور، أن سمات عنف الجوع، لا يمكن إدراكها،

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد، كلية الآداب - جامعة القاهرة.

إلا في ظل السياق المجتمعي، الذي يبرز تحولات الاقتصاد في ظل ارتفاع معدلات الغلاء، وحدث حالة من القحط، أو الفقر الكلي، وتحولات السياسة في ظل تعدى وعنف السلطة ورموزها، وازدياد مظالمها، أو حتى تحولات المجتمع في ظل تزايد الجماعات المهمشة مثل الشحاتين والفقراء وتجمعات الحرافيش والمناسر والعياق والزرع، المفلوكون من أصحاب الخصاصة والمسكنة، فقراء المدن والقرى، الذين حملوا بذور ثقافة الانحراف مع ثقافة الرفض والتمرد.

دراستي تدرك ذلك جيداً، ولكنها تركز على منحني آخر ثقافى - اجتماعى"، يتخذ من تصور أهل مصر لقيمة ودلالة الخبز، لقمة العيش، فى حياتهم اليومية، محوراً ترك بصماته الواضحة، على تحركهم العنيف، وتظهر إحدى جوانب الروح المنطلقة والمنعتقة لعوام أهل مصر، بعد أن حصل لهم "مشقة" أو "غاية التعب"، ووقعوا "فى المهالك والعطب" على حد تعبيرات الملوانى والبكرى والاسحاقى المنوفى، هذه الروح التى تجلت فى صرخات وهتافات تواكبت مع تحركاتهم، عبروا فيها بقوة واقتدار عما حاق بهم من البلاء والغلاء، الذى لم يسمع بمثله إلا فى "زمن الفواطم"، وهو الأمر الذى جعل أحياناً بعض من أرخوا لهذه الأحداث فى زمانها، يرددون فى كتاباتهم بغضهم لهذه الأشياء ومسبباتها، تمنياً ذهابها بلا رجعة: "الله لا يرجع الغلا ولا كياله" وقالوا فى تذكر شئ يؤلم ذكراه "الله لا يعودها" وفى طلب السلامة من وقوع مكروه "الله لا يقدر ولا يكون"^(١). وتؤكد هذه الدراسة، على أن هناك بعض الفترات

التاريخية فى مصر العثمانية، حدث فيها الغلاء العظيم، والمظالم والفرد وتشحيطة الغلال، غير أنها لم تواكبها أى تحركات للجياع تتسم بالعنف، كما حدث مثلاً فى عهد محمد باشا طبان (١٦٢٨-١٦٣٠م)، ومع ذلك مضت أيام الغلا، ولم يشعر أحد بها من كثرة المكاسب والحظ والبجحة"^(٢)، بل كما يؤكد الجبرتى أن الغلاء والمظالم فى إحدى السنوات لم يقع فيها "قحط ولا موت من الجوع، كما رأينا فى الغلوات السابقة من عدم الخبز فى الأسواق، وخطف أطباق العيش، والكعك، وأكل القشور، وما يتساقط فى الطرقات من قشور الخضروات"^(٣).

مثل هذه السنوات كانت هى "الاستثناء"، لكن "القاعدة" أن الجوع كان يرتبط دائماً بالغلاء والوباء، والشئ المؤكد فى التاريخ أن تشحيطة الخبز، أو نقصه، أو احتكاره، أو حتى رفع أسعاره كسلعة ضرورية، قد ارتبطت بها،

تحركات عنيفة، أثرت على مجمل الأوضاع الاقتصادية - السياسية، وأصبح العنف سمة للحالة المجتمعية التي أفسدها فقر البلاد والعباد، وحملت تحركات الجياع بذور عنف فوضوي، كان هو الرد الطبيعي على العنف الذي مورس ضدهم، عنف نما تدريجياً تحت أشكال مختلفة، أسقط العوام شرعية الموجبات الخاضعين لها، ولأن "الجوع كافر" فقد تزايدت موجبات السلب والنهب، وانتشرت عصابات قطاع الطرق والزعر والمناسر، وتعدى هؤلاء على ممتلكات الغير، وذواتهم، نهبوا بعض الأشياء وأحرقوا بعضها. ولم يقتصر ذلك على المدن فقط، بل امتد إلى الأرياف، حيث اتسعت دوائر العنف وتكاثرت، لتفوض هيبة الدولة. وتعلن الخروج عليها وعصيانها وهي ذات الباع الطويل، خاصة وأن عنف السلطة وتعديتها لحدودها قد تجاوز الحد، فهي التي تملك ذهب المعز وسيفه، سطوة المال أو الفلوس عبر عنها صاحب "الدرة المصانة" بقوله^(٤):

إن الدراهم في الأماكن كلها تكسى الرجال مهابة وجلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السلاح لمن أراد قتالا

أن الحصول على مال السلطنة، كان يؤخذ بالقوة والعنف "مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم"^(٥)، وهو شكل من أشكال عنف الدولة، المؤسسى الرسمى. وما فعله رموزها وأدواتها، وكما يقول الجبرتي "شئ لا تدركه الأفهام ولا تحيط به الأقلام"، فقد كان "قمها يسبح ويديها تذبج". أما عنف الجياع، المضاد لعنف السلطة، فهو عنف لا مركزي، يعبر عن الاختلال المجتمعي غير المتوازن بين "الأصاغر" الذين يزدادون فقراً ويتضورون من الجوع، وبين "الأكابر" الذين يزدادون غنى، عنف الجياع التلقائي العفوى غالباً والذي يستخدم القوة أو يهدد باستخدامها لكي يلحق الضرر بآخرين، كان يتوقف غالباً عند مجرد تصريف التوتر الناشئ عن الجوع، ومحاولة الحد من مصادره، عبر عن عدم الرضا في شكل انتفاضات متكررة، تكاد أن تكون "بروفة" ضيقة للثورة والتي هي مرحلة تكثيف لهذه الانتفاضات.

عنف الجياع ليس هو عنف "الثورة"، أو عنف "الانحراف"، من الممكن أن يطلق عليه تجاوزا عنف مرحلة "المابين" تعبر فيه الجماعة عن شعورها بأشكال الحرمان النسبي الناجمة عن الغلاء، أو الحرمان المطلق حيث العجز عن إشباع الحاجة الأساسية للإنسان، وتطلعه إلى ما يرغب فيه "الجياعان يحلم أنه في سوق

العيش" (٦)، أو كما قيل : "أبوك مات من الجوع، قال هو طال وماكلشي؟" (٧).

تفاوتت شدة وعنف الجياع، ضج هؤلاء، وعيطوا على الحكام، خاصة وقد "أيقنوا بالقحط وأيسوا من رحمة الله" على حد قول الجبرتي، وضجوا، حتى أثناء الابتهاال بالدعاء وطلب الاستسقاء، على حد قول الحجازي (٨):

علا على الناس ضج
ليأسهم واستمروا
فكاد يحصل كفر
يدعون لهم يستقروا

والملاحظ أن عنف الجياع، وبصفة خاصة إبان فترات التناحر بين القوى السياسية، كان يؤدي إلى تسييس مشاعر هؤلاء، وتعبنتهم ضد الولاة، وهو الأمر الذي كان يؤدي أحياناً إلى عزل بعضهم ومغادرتهم مصر، في فترات تاريخية، كان بعض الباشوات يبيعون الغلال للأفرنج، بينما الناس تتقاتل على الخبز، ومع ازدياد ضغط العوام كان العسكر يتدخل، على نحو ما حدث أيام خضر باشا (١٥٩٧-١٦٠١م) وعلى باشا السلحدار (١٦٠١-١٦٠٤م) (٩) ويذكر صاحب "تقويم النيل" (١٠) أنه في عهد كتحدا حسين باشا (١٦٨٦م) غلت الأسعار في هذه السنة، بمصر فضج الناس وأظهروا التذمر من الوالي فعزل من الولاية .

استشرف بعض المؤرخين بما هو آت من أحداث، عبر عنه ابن عبد الغنى بأبيات من الشعر كان يستشهد بها دائماً أثناء عرضه للأحداث (١١):

* الليالى من الزمان حبالى
* وإذا عطيت ولاية كن عادلا
مثقلات تلدن كل عجيبة
وأعلم بأنك بعدها معزول

بطبيعة الحال كان جهاز الحكم يحرص على التعامل مع عنف الجياع، يستخدم بعض الفرق العسكرية المعدة إعداداً جيداً، ولأن الأزمة الاقتصادية قد مست الأكاير والأصاغر ومساير الناس، كان لا بد من احتواء هذا العنف والحد منه، كانت تقدم عدة بدائل لعلاج الأزمة، وكانت المساومة آلية كحل يرضى الأطراف، ولو مؤقتاً، يخفف من بعض التواترات الناجمة عن السخط بعهد أن تحول الاحتجاج الجماعى إلى أعمال عنف وشغب وتخريب، بل وقتل واغتيال لمن مارس العنف والعنف المضاد، شارك فيه العوام مع أولاد القرافة الفقراء، مع من انضم أحياناً إليهم من أهل الأرياف، الذين تسحبوا وهجوا وطفشوا من بلادهم إلى القاهرة، وشارك هؤلاء جماعات المناسر والعياق، ولم يفت بعض

المؤرخين أن يربطوا بين كثرة المناسر وبين أزمة الخبز، ففي عهد مصطفى البستنجي (١٦٤٠-١٦٤٢م) يذكر ابن عبد الغني "وفي أيامه كثرت المناسر لكونهم لم يجدوا الخبز، ودخلت اللصوص إلى الأسواق"^(١٢)، ويؤكد على ذلك شاروييم بقوله: "في ولاية مصطفى البستنجي (١٦٤١م) ظهر أهل الفساد واللصوص وقطاع الطرق وكثرت السرقات في حارات القاهرة وبيوت مصر القديمة، وما جاورها من القرى، وقصر النيل في الزيادة، فغلت الأسعار، وقل وارد الحبوب، واشتد البلاء على الناس فكانوا بسين قمرمين عنيدين الغلاء واللصوص"^(١٣).

يرى كاتب هذه السطور، أن عنف الجياع، لا يقتصر على حالات الضجيج والصوات والزن "إذا شعبنا غنينا، وإذا جعنا صوتنا" أو في معنى آخر "إذا شعبوا غنوا، وإذا جاعوا زنوا"^(١٤)، والصراخ والهتافات، والسلب والنهب والحرق والخطف والسرقة، بل يظهر هذا العنف في أشكال أخرى تكاد تخفى أمورها على بعض المؤرخين، مثل أشكال المقاومة بالحيلة، السخرية والاستهزاء والتهمك وانطلاق اللسان بالكلام الفج، غير اللائق، وتكاثر الدعوات والأدعية في الشوارع والبيوت ومن فوق المآذن: "اللهم أكفينا سوء، اللهم أكفينا الشر، اللهم الطف بعبادك، اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله"^(١٥) أحد أشكال عنف الجياع، يكمن أحياناً، رغم المبالغة في الصور المأسوية، ما يمكن أن نسميه تجاوزاً بأكله لحوم البشر والدواب والتكالب على جثث الموتى وافتراسها، ففي مجاعة ١٦٩٥ الشهيرة يذكر أحد المعاصرين: "والله، رأيت بعين أم رأسي جمعاً من النساء الفقراء، الذي بجانب الدرب الذي بحارة الجودرية، وحطوه في جورة الفرن، ثم صاروا يتقاتلون عليه، وهم يأكلون فيه والدم والصدید وتراب الجورة"^(١٦). وأحدهم يذكر: "أننى أخبرت ممن أتق به من الرجال أنه رأى بمدينة الفيوم، ناس أكلوا أولادهم"^(١٧)، وآخر يذكر أنهم اضطروا إلى أكل "القطط والرمم"^(١٨) ويؤكد ساويرس بن المقفع، أنه أثناء مجاعة ١٦٧٦، "أكل الفقراء جثث الموتى من الناس والميتة من الحيوان"، أما الجبرتي فيؤكد في أحداث نوفمبر ١٧٨٤: "وأشدت بهم الحال، حتى أكلوا الميتات من الخيل والحمير والجمال، فإذا خرج حمار ميت، تزامموا عليه، وقطعوه وأخذوه، ومنهم من يأكله نياً من شدة الجوع، ومات الكثير من الفقراء بالجوع" ويعود الجبرتي، ليذكر مرة أخرى في أحداث عام ١٧٩٢: "كثرت الصياح والعويل ليلاً ونهاراً فلا تكاد تقع الأرجل إلا على خلائق مطروحين

بالأزقة، وإذا وقع حمار أو فرس تراحموا عليه وأكلوه ميتاً ولو كان منثاً، حتى صاروا يأكلون الأطفال!!^(١٩)

(٢)

حفل التاريخ المصري منذ القدم، حتى عصرنا الحديث، بتحركات وتظاهرات الجياع وضجيجهم وصراخهم، بعد أن حملت أنفسهم ما لا تطيق فنطقت بما لا يليق، على حد تعبير ابن إياس، أن تاريخ المجاعات فى مصر، ظاهرة متكررة عبر العصور، تفاوتت شدتها بين زمن وآخر. ولعلنا نشير فى عجالة، إلى أبرز وأهم مجاعات مصر ما قبل العصر العثمانى، وعلى وجه الخصوص

• ما شهدته بعض سنوات الدولة الفاطمية، زمن الظاهر لاعزاز دين الله عام ٤١٥هـ، حيث افتتن البلد بالضجيج وتصايح الناس فى الطرقات الجوع، الجوع، وعندما تجمع العبيد والنهابة ومن انضاف إليهم صاحوا "مانزلنا ننهب، ولا نتعرض لشيء إلا لما نأكله من الجوع، لأن الجوع قد اشتد بنا، وأكلنا الكلاب"^(٢٠)، كذلك شهدت مصر أسوأ مجاعة ألمت بها فى عالم العصور الوسطى، سنوات ٤٥٧-٤٦٤ / ١٠٦٤-١٠٧١، فيما اصطلح عليه بالشدة المستصرية أو "الشدة العظمى" استولى الجوع على الناس وعزت الأقوات، وأكلت الكلاب والقطط، وأكل الناس بعضهم بعضاً، وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن، وتصحن "الجوع! الجوع!"^(٢١).

• وشهدت سنوات الدولة الأيوبية والملوكية الغلاء والوباء والمجاعات فى سلطنة العادل الأيوبي حدثت مجاعة ٥٩٦هـ - ١٢٠٠م وفيها كما يقول المقرئى صار غذاء الكثير من الناس لحوم بنى آدم بحيث ألفوه وتساقط الناس فى الطرقات، وفى زمن كتبغا (٦٩٤-٥٩٦هـ / ١٢٩٤-١٢٩٥م)، ضج الناس من شدة الجوع، حتى قال أبو الطيب المالكي نزيل قوص "لو وجدت بالقاهرة رغيئين ما خرجت منها"^(٢٢)، وتتابع سنوات الغلاء والمجاعة، زمن الناصر محمد بن قلاوون (٧٣٦هـ-)، وفى عهد الأشرف قايتباى، عندما تشحطت الغلال وارتفع سعرها اسمعه الناس الكلام المنكى، وعندما اشتد الغلاء، وبيع خبز الذرة، صنف العوام رقصة، وهم يقولون^(٢٣):

زويجى ذى المسخرة يطعمنى خبز الذرة

وشهدت فترة الغورى تشحيطه الغلال وتتابع الأزمات، وصفها بكل دقة

وأمانة ابن إياس، على ما يذكر مثلاً في أحداث عام ٩١٩هـ، عندما شق السلطان من القاهرة "اسمعه العوام الكلام بسبب تشحيطه الخبز وغلو الدقيق، وكان القمح الجديد قد وصل وأشيع بين الناس أن السلطان يبشترى القمح ويرسله إلى الشام فإنه كان بها غلاء عظيم، لما شق السلطان من القاهرة تسيبت عليه العوام بالكلام المنكى، وقالوا له جهاراً : الله يهلك من يقصد الغلاء إلى المسلمين، فسمع ذلك بأذنه فتكد في ذلك اليوم".

• في ربيع الأول سنة ٩٢٢ عندما بدأت استعدادات السفر لمحاربة ابن عثمان "صارت المماليك يهاجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق، ووقع القحط بين الناس، وضج العوام وكثر الدعاء على السلطان".

• البدايات الأولى لدخول ابن عثمان مصر القاهرة، شهدت بؤادر تشحط الغلال وارتفاع الخبز من الأسواق (محرم سنة ٩٢٣هـ) وسبب هذا الأمر أن العثمانية لما دخلوا إلى القاهرة العثمانية، نهبوا المغل الذى كان فى الشون وأطعموه لخيولهم، حتى لم يبق بالشون شيئاً من الغلال، ونهبوا القمح الذى كان بالطواحين، واضطربت أحوال الناس قاطبة^(٢٤)

وفى عهد خايربك (رمضان ٩٢٤هـ) "لما شق القاهرة، ضجت إليه العوام من قلة الخبز فى الأسواق، وانطلقت ألسن العوام فى حق ملك الأمراء بالكلام الفج، وقالوا له :انظر فى أحوال المسلمين نور الله تعالى ألا يصير ذلك فى ذمتك. فتكد ملك الأمراء فى ذلك اليوم إلى الغاية. عقب خروج الحجاج وسفر المحتسب، ارتفع الخبز من الأسواق وغلقت الطواحين وارتجت بسبب ذلك القاهرة (ذو القعدة ٩٢٤هـ)، وصار القاضى يطوف القاهرة فى كل يوم ثلاث مرات، وشرع يضرب الطحائين والخبازين ضرباً مبرحاً ويشهرهم فى القاهرة، حتى انحطت الأسعار ودعا الناس له قاطبة. وفى جمادى الآخرة ٩٢٥هـ، ثارت طائفة من الأصهبانية على الأمير جانم الحمزاوى وهو نازل من القلعة، وعينوا له الضرب، وقالوا له : قل لملك الأمراء قد متنا من الجوع نحن وخيلنا من قلة الشعير، ولا نلتقى فى الأسواق خبز، فإما أن يأذن لنا بالسفر أو أنه يكفيننا من القوت، وكان قد وقع الغلاء بالديار المصرية، وتشحطت الغلال، وعز وجود الخبز من الأسواق، وضج الناس من ذلك. وفى شعبان ٩٢٦هـ، عندما دخل ملك الأمراء من باب النصر وشق القاهرة، لم يدع له أحد من الناس بالنصر ولا زغرئت له النساء من الطيقان، بل أغلظ عليه بعض العوام، وقال له : انظر

بالشفقة في أحوال المسلمين بسبب الخبز والدقيق وسائر الأسعار في البضائع
مشتطة".

"وفي شهر رمضان (٩٢٦هـ) عندما توقف النيل، ارتفعت أسعار
الغلال والبضائع، ورسم ملك الأمراء لقضاة القضاة ومشايخ العلم ومشايخ
الصوفية بأن يتوجهوا إلى المقياس ويبتهلوا إلى الله تعالى بالدعاء في وقاء النيل،
بل أن ملك الأمراء نزل بنفسه إلى هناك وأحضر الأطفال الأيتام من المكاتب،
وكثر هناك الضجيج والبكاء والتضرع إلى الله تعالى بالدعاء في أمر الزيادة،
وفعل من وجوه البر والصدقات أشياء كثيرة، وخرج وصحبته الناس قاطبة
للاستسقاء، وقد قال القائل^(٢٥):

بمسرى النيل ما أوفى فضجوا ودب القحط فينا من أييب
ولم أضرع لمخلوق لأنى رأيت الله ألطف من أبى بى

هكذا كانت البدايات الأولى بعد أن غزا ابن عثمان مصر، إذ توالى
موجات متقطعة من الغلاء والبلاء والوباء والفناء التي حلت بالبلاد والعباد،
وتلاحقت خطاها، واعتماداً على "أوضح الإشارات" لأحمد شلبي بن عبد الغنى،
أساساً، وعلى بعض كتابات أخرى تاريخية عن العصر العثماني الأول في مصر
يمكننا إبراز بعض ولا أقول كل النماذج التالية ذات الدلالة :

- اتفق في زمن محمد باشا الشهير بدوقه لى (٩٦١-٩٦٣هـ / ١٥٤٤-
١٥٥٦م)، غلاء عظيم، إلى أن عدت الحنطة، والشعير وال فول، وصارت
الناس يقتاتون بالبذور والترمس، وصار أصحاب الأموال يجيبون الحنطة
من بلاد الشام وغيرها من البلاد، حتى هلكت الفقرا^(٢٦).

- فى زمن حسين باشا، الذى قدم إلى مصر سنة ٩٨١هـ - ١٥٧٣م، حصل
غلاء عظيم وقحط، حتى أكلت الناس بذر الكتان وأعقب ذلك موت
فجأة^(٢٧).

- تحت عنوان "ثورة أهلية" كتب زيدان : "عندما تولى خضر باشا
(١٠٠٦هـ - ١٥٩٨م)، أغضب الأهالى منذ وصوله القاهرة لأنه أمر
بقطع جميع العطايات التى كانت توزع على العلماء والفقراء من الحنطة،
ولم يقتصر على الإيقاع بهؤلاء الضعفاء فقط بل تجاوزهم إلى الضابطة،
فأحرمهم من زادهم، فتجمهروا فى ٢٠ رمضان سنة ١٠٠٩هـ، فاتحدوا

جميعاً، والقاضي في مقدمتهم وتوجهوا إلى الديوان، يريدون الانتقام، فقتلوا كخيا الباشا وأمراء آخرين، فخاف الباشا، فسلم لهم بكل ما كانوا يطلبون، وأعاد لهم العطايات كما شاءوا فخدمت الثورة، وعادت المياه إلى مجاريها^(٢٨).

- في زمن علي باشا السلحدار (١٠١٠-١٠١٣هـ / ١٦٠١-١٦٠٤م)، كان الغلاء العظيم وسبب ذلك قلة وفاء النيل، بحيث أن أمين الحسبة أوقف ناساً على الأفران، يمنعون الناس من خطف العجين من المواجير، والخبز من الأسواق، ثم أنه شرع في بيع قمح العنبر الشريف إلى الأفرنج، في الجلود على هيئة البهار، فعند ذلك قامت العسكر عليه، وقالوا له : كيف ما تبيع القمح للأفرنج بستين فضة وقد أكلت الناس بعضها بعضاً من الغلاء، والقمح يباع بستة وثلاثين نصف فضة، وتطمع في أربعة وعشرين نصفاً زيادة في كل وية^(٢٩).

- في عهد قرا حسين باشا (١٠٢٩-١٠٣١هـ / ١٦٢٠-١٦٢٢م) زاد النيل زيادة مفرطة، فأيست الناس من عدم هبوطه. وارتفعت الأسعار، فخرج الباشا والعلماء والأشراف وأولاد المكاتب إلى سبيل على باشا ودعوا الله، فهبط النيل، ثم أعقبه طاعون^(٣٠).

- في زمن مصطفى باشا البستنجي (١٠٥٠-١٠٥٢هـ / ١٦٤٠-١٦٤٢)، جاء الشراقي في إقليم بمصر، وكانت سنة شديدة على الغنى والفقير، وحصل للباشا كرب عظيم "وفي أيامه كثرت المناسر لكونهم لم يجدوا الخبز"^(٣١)، ودخلت اللصوص إلى الأسواق، وصاروا يأخذون في كل ليلة محلات.

- في عهد عبد الرحمن باشا (١٠٨٧-١٠٩١هـ / ١٦٧٦-١٦٨٠)، عندما بلغ ثمن أردب القمح ١٨٠ نصف فضة، ازداد السخط، وأمر عبد الرحمن باشا أن يباع الأردب بـ ١٣٠ فقط، انفجر العصيان، واشتعلت الحرائق في الدكاكين ومخازن الحبوب في الرملة وسقط ١٣ قتيلًا^(٣٢).

- في عهد حسن باشا السلحدار، لما كانت سنة ١١٠٠هـ (١٦٨٩م)، وقع الغلاء بمصر وامتنع الوارد من الغلال، فبيع الأردب القمح بمائة وعشرين نصفاً فضة، والأردب الشعير ثمانين والفول بخمسة وتسعين نصفاً، وأجرة طحين وية القمح أربعة أنصاف فضة، فضج الفقراء، وطافوا بالأرقة

والحارات يتساعلون وصاروا يتخطفون ما يجدونه من الخبز فى الأفران
وفى الدكاكين^(٣٣).

- فى عهد تولية على باشا (١١٠٣-١١٠٧هـ / ١٦٩٢-١٦٩٥م)، وفى غرة
محرم الحرام سنة ١١٠٧هـ - ١٢ أغسطس ١٦٩٥م، اجتمعت الفقراء
والشحاتين من النساء والرجال والصبيان، وطلعوا إلى حوش الديوان،
وصاحوا ونادوا : متنا من الجوع، وشدة الغلا. فلم يرد عليهم أحد جواباً.
فأخذوا الحجارة ورجموا جميع من فى الديوان. فضربهم السوالى جميعاً،
وطردهم، فنزلوا إلى الرميطة، فنهبوا جميع الغلال التى بالرقة، وكسروا
الحواصل، ونهبوا جميع ما كان فيها، من قمح وفول وشعير، ونهبوا حاصل
كتخدا الوزير، وكان ملآن فوق وشعير، وكانت هذه الفعلة ابتدا الغلا فى
جميع المأكولات جميعاً. ثم أخذت الأسعار فى الزيادة من محرم سنة
١١٠٧، واستمر فى الزيادة إلى أن أبيع القمح بستماية فضة الأردب والفول
بخمسمية فضة والشعير بأربعمائة فضة والعدس لم وجد، والرز بثمانماية
فضة واللحم الضانى بخمسة أنصاف الرطل، والجاموس الوقيع بثلاثة
أنصاف الرطل، والسمن بألف فضة القنطار، والعسل النحل بستماية، والكل
ديوانى. وحصل للناس بسبب ذلك الغلا الشديد فى مصر، وأقاليمها، حتى
أن غالب أهل الأرياف والبلاد جاؤا مصر، ولكن أكثرهم من البهنسا
والفيوم، وامتألت أزقة مصر، وحاتها، وأسواقها، واشتد الكرب والبلاء،
وأكلت الناس الجيف. ووالله رأيت بعين أم رأسى جمعا من النساء الفقراء
الذى بجانب الدرب الذى بحارة الجودية، وحطوه فى جورة الفرن، ثم
صاروا يتقاتلون عليه، وهم يأكلون فيه والدم والصيد وتراب الجورة.
وافتقرت الأغنياء، وتهتكت الأحرار، وهجت الناس جوعاً. بحيث أن
الأزقة، والحارات والأسواق، امتألت بالأموات، وهلك أهل القرى، حتى
كان المسافر يمر بالقرية فلم يجد بها إلا القليل من أهلها، ويجد بعض الدور
مفتحة، ولم يكن فيها أحد وصارت الفقراء يخطفون الخبز من الأسواق،
والعجين وهو رايح الفرن. وكل من أراد أن يخبز الخبز، واحد يشيله،
واثنان يحرسان ويقولان أوعا العوام، والخبازين الذين يبيعون الخبز.
اصطنعوا لهم قفاص. مثل قفاص الفراخ، فإذا اشترى إنسان خبزاً. يأتى
الرجل إلى الخباز ليأخذ منه. يقول له بكم تأخذ. فيقول : بالشئى الفلانى
فيأخذ منه الدراهم ويفتح القفص ويعطيه ويكون العوام حاضر. فيخطف

الخبز بالقوطة ويطير. فما أحد يقدر يدركه، لشدة جريه. وإذا سرح الخباز يكن معه رجلان : واحد أمامه. والثاني خلفه بالعصا. ثم أن الخطافين صاروا يجتمعون ثلاثاً أو أربعاً، ويأتى واحد في حذو الخباز، والآخر من خلفه، فالذى من خلف الخباز يدفعه، يكون الذى فى حذوه منحني قدام الخباز، فيتستر الخباز، يقع، يقوم الثالث بخطف القفص. ويفر هارباً فلم أحد يدركه، والرابع يحوش الناس عنه. ثم إنهم يأكلوه، وكل رغيفين بنصف فضة، وكل رغيف وزنه ثلاثة أواق من دقيق الفول، ودقيق الشعير^(٣٤).

- عندما قدم إسماعيل باشا (١١٠٧هـ - ١٦٩٥)، قامت الرعية فى وجهه وعيطوا، وغوشوا، لما هم فيه من الغلاء، والكرب الشديد، وكثرت الشحاتين، التى امتلأت مصر منهم، لأن جميع الأرض لم تكن رويت جاء فقراؤها إلى مصر، فأمر بجمعهم وتوزيعهم على الأمراء والأعيان، كل إنسان على قدر حاله وقدرته، وأخذ لنفسه جانباً ولأعيان دولته جانباً، وعين لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام صباحاً ومساءً إلى أن انتضى الغلاء، وأعقب ذلك وباء عظيم^(٣٥).

- فى ولاية محمد باشا رامى (١١١٦ - ١١١٨هـ / ١٧٠٤ - ١٧٠٧م)، توقف النيل من الزيادة، وهرعت الناس لطلب الدعاء، وأمر الوزير العلماء، وأولاد المكاتب، وجميع أهل القاهرة، أن يطلعوا للاستسقاء، ورغم أنه قد أوفى فى توت، سرعان ما هبط، وحصل الغلاء الشديد، وكثرت الشحاتين فى الأسواق والأزقة.^(٣٦)

- ذكر يوسف الملوانى صاحب "تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب". أنه فى أواخر عهد عابدى باشا (١١٢٦ - ١١٢٩هـ / ١٧١٤ - ١٧١٧م) حدثت أزمة بسبب الحنطة، وامتتع الخبازون من بيع الخبز بمصر نحو ثلاثة أيام، وانكب الناس على شراء القمح بساحل بولاق، وحصل للفقرا تعب شديد وصار أولاد المكاتب يدعون على قايم مقام ومن يحكر الطعام.

- فى عهد ولاية محمد باشا النشنجى (١١٣٣ - ١١٣٨ / ١٧٢١ - ١٧٢٦م)، توقف البحر، فهاجت البلد، وغلت الحنطة، وجميع الحبوب قامت الرعية، طلعت إلى الديوان، وشكت حالها إلى الوزير، فسعر القمح بسبعين، والشعير بخمسة وثلاثين، ونزل آغا مستحفظان نادى فى بولاق، ثم أن

الرعية نهبت جميع الرقع التي في البلد، فامتنع الجالب، وصار القمح لا يوجد. وباتت الناس تلك الليلة بالجوع، وكانت سنة ضيقة (١١٣٤-١٧٢٢م) الحال، وتعبت فيها الفقراء^(٣٧)، وفي عام ١١٣٧هـ - ١٧٢٢م، قامت الرعية وقفلت حوانيتها، ونهبت أسواق القاهرة، وهجمت الجامع الأزهر على العلماء وهم في الدروس ووقع الضرب في الجامع من الرعية، ونزلوا إلى الرميلة وإلى بيت جركس، وقصدوا القرافة بعد أن خرج عليهم العسكر، وبتأوا طول الليل يدعون الله بالعفو، ويدعوا على جركس وطائفته، وطلع الناس على المنارات والدعاء على جركس، وكان دعائهم فوق المنارات: "يامن له المراد، في كل ما أراد، بجاه المصطفى الحبيب، تعفو عن البلاد"^(٣٨).

- وفي ولاية محمد باشا النشنجي الثانية (١١٣٨-١١٤١هـ / ١٧٢٦-١٧٢٨م)، طلعت الرعية إلى الديوان في ٧ أبريل ١٧٢٧ وشكوا من ظلم الأغا سليمان أبو دفيه، وما قد رتبهم عليهم من الحوادث والظلم، وجعل على كل طاحون ريالاً في كل جمعة، فعزله الوزير وولى محله عثمان أبوإظ بيك^(٣٩).

- عندما قدم محمد باشا السلحدار (١١٤٤هـ - ١٧٣١م)، قامت الرعية في وجهه، وشكوا له المعاملة، وغلوا الأسعار، وعندما فزع عليهم الوالى ضربه الرعية بالطوب، فجاءت ضربة في فخذ الباشا، بل عندما أتى عثمان باشا، بعد ذلك (١١٤٦هـ - ١٧٣٣م) قامت الرعية في وجهه وذكروا له الغلاء وفساد المعاملة، وعندما لم يلتفت إليهم رجموه^(٤٠).

- في ولاية باكير باشا (١١٤٧هـ - ١٧٣٥م)، صرخت العامة في وجهه من جهة فساد المعاملة، وغلوا الأسعار، إلا أنه لم يلتفت لذلك، وفي عهده ازداد الطاعون الذي فتك بالناس فتكاً ذريعاً وسماه العوام "طاعون كو" أو "الفصل العائق يأخذ على الرائق"^(٤١).

- في عام (١١٩٧هـ - ١٧٨٣م) قصر مد النيل، وشرقت الأراضي القبلية والبحرية وعزت الغلال بسبب ذلك "وشطح سعر القمح إلى عشرة ريالات الأردب، واشتد جوع الفقراء، وفي العام التالي (١١٩٨هـ - ١٧٨٤) "جلت الفلاحون من بلادهم من الشراقي والظلم، وانتشروا في المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشور

البطيخ وغيره، فلا يجد الزبال شيئاً يكتسه، واشتد بهم الحال، حتى أكلوا الميتات من الخيل والحمير والجمال، فإذا خرج حمار ميت تراحموا عليه وقطعوه وأخذوه ومنهم من يأكله نياً من شدة الجوع، ومات الكثير من الفقراء بالجوع، هذا والغلاء مستمر، والأسعار فى الشدة وعز الدرهم والدينار من أيدي الناس وقل التعامل إلا فيما يؤكل، وصار سمر الناس وحديثهم فى المجالس ذكر المآكل والقمح والسمن ونحو ذلك لاغير" (٤٢).

- فى غرة رمضان ١١٩٩هـ (٨ يوليه ١٧٨٥م)، ثارت فقراء المجاورين والقاطنين بالأزهر، وقللوا أبواب الجامع، ومنعوا منه الصلوات، وكان ذلك يوم الجمعة، فلم يصل فيه ذلك اليوم، وكذلك أغلقوا مدرسة محمد بيك المجاورة له، ومسجد المشهد الحسينى، وخرج العميان والمجاورون يرمحون بالأسواق ويخطفون ما يجدونه من الخبز وغيره، وتبعهم فى ذلك الجعيدية وأراذل السرقة، وسبب ذلك قطع رواتبهم وأخبازهم المعتادة. (٤٣)

- يتحدث الجبرتى، عن هبوط النيل ونقصانه "قضجت الناس وتشحطت الغلال، وزاد سعرها، وانكبوا على الشراء، ولاحت لوائح الغلاء" (٤٤)، وذلك فى ذى الحجة ١٢٠٥هـ - أغسطس ١٧٩١م، وفى الخامس محرم ١٢٠٦هـ - ٤ سبتمبر ١٧٩١، وقف جريان الخليج والترع وشرقت الأراضي، فلم يرو منها إلا القليل جداً، فارتفعت الغلال من السواحل والرقع وضجت الناس، وايقنوا بالقحط وأيسوا من رحمة الله، وغلا سعر الغلة من ريالين إلى ستة، وضجت الفقراء وعيطوا على الحكام، فصار الأغا يركب إلى الرقع والسواحل، ويضرب المتسببين فى الغلة ويسمرهم فى آذانهم" (٤٥) وعندما يتحدث عن بداية سنة (١٢٠٧هـ - ١٧٩٢) (٤٦) يذكر "والأمر فى شدة من الغلاء، وتتابع المظالم، وخراب البلاد وشتات أهلها، وانتشارهم بالمدينة حتى ملئوا الأسواق والأزقة رجالاً ونساء وأطفالاً، يبكون ويصيحون ليلاً ونهاراً من الجوع، ويموت من الناس فى كل يوم جملة كثيرة من الجوع".

(٣)

هذه الفقرة الأخيرة التى نكرها الجبرتى، البكاء والصياح ليلاً ونهاراً من الجوع، والموت من الناس فى كل يوم جملة كثيرة من الجوع، تجعلنا نؤكد من خلال هذه المعطيات التاريخية، على أهمية ما يمكن أن نطلق عليه "ثقافة

الجوع"، حيث تصبح للضرورة أحكام تبيح المحظورات، حين يقدم المتضرر على المستحيل بسبب جوعه على اتیان ما لا يجيزه الدين من أجل الحفظ على البقاء، فى وقت لا يحس فيه الشعبان بما يقاسيه الجائع، والإبداع الفكرى لأهل مصر أفرز لنا عدة أمثال دالة على ذلك :

- "اللى قبل مننا قال : الزعلان ما يشبهشى الفرحان، والجعان ما يشبعشى الشعبان، والمكسى ما يشبهشى العريان".^(٤٧)
- الشعبان يفت للجيعان فت بطى.^(٤٨)

ولعل دارس التاريخ الاجتماعى المصرى الحديث، يجد فيما جمعه أحمد تيمور باشا من "أمثال عامية" ما يستكمل به ملامح صورة ثقافة الجوع^(٤٩):

- الجعان يحلم بسوق العيش.
- حلم الجعان عيش.
- قالوا للجعان الواحد فى واحد بكام قال برغيف.
- الجعان يمدغ الزلط.
- الجوع كافر.
- على شان بطنه حلقوا دقنه.
- قالوا ياللى أبوك مات من الجوع، قال هو شاف شئ ولا كلشى!.
- كل لقمة فى بطن جايح أخير من بناية جامع.
- ما النقاش العيش ينتشه جاب له عبد يلطشه.
- ما لقوش عيش ينتشوه جابوا عبد يلطشوه.

وكما ربط عوام أهل مصر بين العطش والسقاء "بانت عطشانة وزوجها سقا"، فقد ربطوا كذلك بين الجوع والخبز "بانت جيعانه وزوجها خباز"^(٥٠)، وحثوا على مواساة الأحباب ولو بالشئ القليل "رغيف برغيف ولا يبات صاحبك جيعان"^(٥١).

خبز الجياح هو الضرورى، أو كما قيل "أن حضر العيش يبقى المش شبرقه" أو فى معنى آخر : "أن صح العيش يبقى الباقي بشرقة"^(٥٢)، أو كما قيل كذلك :

يا سائلى عن طعامى الخبز رأس الأمور

وفى نفس المعنى : "القنبر قال للقيى : ما أحلا التين على الريق، قال له: تأدب يا قنبر ما بعد العيش مخبر"^(٥٣) هو من الأشياء المقدسة، وتجاوز الحد فى استخدامه يعنى الكفران بالنعمة لدى أهل مصر "إذا اتبطر الخياط يشتري بدال العيش رمان"^(٥٤).

"رغيف الخبز" أو "لُقمة العيش"، بمعنى أصح، كما فى بيان لهجة المصريين الخاصة، والتي على حد قول "أوليا شلبي"^(٥٥)، لا تستخدم فى ديار أخرى، ولكنها تستخدم بين أهل مصر، يؤكد على ذلك ماجاء فى "دفع الأصر"^(٥٦) للمغربي، أو فى "القول المقتضب"^(٥٧) للبكرى، هذا الخبز، والذي هو "قوام الأبدان"^(٥٨)، كما جاء فى تذكرة داود الانطاكى، يقترن بالوجود والحياة، الأمر الذى دعا أهل مصر أن يطلقوا عليه "العيش" أى ما يعاش به، يرتبط بكرم الضيافة، فيقولون فلان "عياش" إذا كان مضيفا، له أكثر من دلالة عند الصوفية إذ فيه "سر المهيمن واللطيف" وهو عند بعضهم يسمى "جابرًا، أو "أبو جابر"، "جابر بن حبة"^(٥٩)، يرتبط بالنعمة "ومن اعتقادات العامة أنهم لا يكبون الرغيف على وجهه، ويزعمون أن من فعل ذلك استهزأ بالنعمة" ومن آدابهم أكل الرغيف من طرفه، ولا يأكلونه من وسطه. "ويقولون : من فعل ذلك دل على بطره، ويرددون فى ذلك حديثاً: كل قصّ واشرب مص"^(٦٠). يرتبط عندهم بعدة مفاهيم ودلالات، فهو الرزق "أكل عيش"، ربطوا بينه وبين الأقدام فى العمل والسعى وراء الرزق بقولهم "أكل العيش نصيب"^(٦١) وربطوا بينه وبين نفي الكسل "أكل العيش يحب الخفية"^(٦٢)، وحتى الآن أصبح من أدبيات التعبير لديهم قولهم "قطع العيش" ومن أمثالهم "ابن الحرام ما خلاش لابن الحلال عيشه"، "ابن الحرام ما خلاش لابن الحلال لقمة"^(٦٣) وضربوا فى الحث على مجازاة الأجر بالعمل "اللى يأكل لقمة يعمل بها" وفى الجهد فى سبيل القوت "اللى يأكل لقمة يلطم لطمه"^(٦٤). ولمن يتعب وينال أجراً قليلاً "أجبر لقمة"^(٦٥) وفى مكافأة الشئ بأضعافه "إشهد لى بلقمة (بكحكة) أشهد لك برغيف"^(٦٦). وإذا وصفوا الإنسان بأنه خائب لا يفلح فى عمل ما قالوا عنه "مايسواش لقمة"^(٦٧)، وإذا راجع خجولاً لم ينجح فى مهمته "رجع قفاه يقمر عيش"^(٦٨)، ويؤكد أحمد أمين فى قاموسه "كان العوام يسمون الواحد من الموظفين (ابن عيشه)"^(٦٩) أى أنه خاضع للوظيفة التى عليها قوام معاشه.

ربط أهل مصر بين القناعة والرضا والكفاف والاستحواذ على الضرورى

وبين الخبز، كان الجبرتي يستشهد دائماً بأبيات من الشعر، تتضمن إحدى الخصال للفوز بالدنيا والآخرة وتعبير عن القناعة، فعلى لسان الشيخ حسن البدرى الحجازى (٧٠):

وسبعة أن حصلت للفتى
صلاح أولاد وزوج كذا
كفاف عيش ثم قنع به
يفوز بالدنيا وبالآخرة
نفس لمولاهما غدت شاكرة
والعلم أيضاً عمل صاهره

وعلى لسان الشيخ محمد بن سالم الحفناوى (٧١) :

خبز وماء وظل
ججدت نعمة ربى
هو النعيم الأجل
إن قلت أنى مقل

كذلك كان ابن عروس يردد من ضمن مقاطعه الشهيرة (٧٢) :

كسره من الزاد تكفيك
والعمر بكره يطويك
وتبقى نفسك عفيفة
وتتعام فى جنب الخليفة

وفى زجر من يتعدى طوره والدعاء بالرحمة بمن يطلب الكفاف، ردد عوام اهل مصر "اللى طلب لحم أحرقوه واللى طلب عيش أرحموه" (٧٣) ، وفى شأن من يعذر من المديونين ومن لا يعذر منهم "من أداين العيش اعذروه، ومن أداين اللحم الطشوه" (٧٤) كذلك رددوا "طرى ناشف هات" (٧٥) ، لذلك الرجل الذى لا يميز الأشياء فهو لا يتعفف عن أخذها فى أى حالاتها، أما القانع الزاهد فى الدنيا فهو القائل "أهى لقمة وأخرتها الموت" (٧٦).

وجد كاتب هذه السطور، فى الأدبيات التاريخية المملوكية - العثمانية، القسم بالخبز، و"العيش والملح" تتردد على الأفواه دائماً، فى أحداث عام ٨٥٤هـ، يذكر ابن إياس فى "بدائع الزهور" أنه عندما عز الخبز وتشحط، رثاه بعض الشعراء بقوله (٧٧) :

قسماً بلوح الخبز عند خروجه
ورغائف منه تروكك وهى فى
من فرنه وله الغداة فوار
سحب الثقال كأنها أقمار

خدين للشبونير فيه عذار
ذهباً إذا قويت عليه النار

من كل مصقول السوالف أحمر الـ
كالفضة البيضاء، لكن تغتدى

وعلى لسان أحد المماليك في مصر العثمانية : "العيش والملح له حق،
والرفق غالي" (٧٨) ، كذلك وبخ أحدهم آخر بقوله : "يا خائن العيش والعهد
ومخالف الشرع والسنة، عاصي السلطنة" (٧٩)

يقول أهل مصر لمن صنعتت معه إحساناً وخانك فيما بعد "يخونك العيش
والملح" (٨٠) ، ومن أجمل ما يرددونه:

" يا خاين العيش لأبيحك بطاجن مش

وأوديك لدلال عمره ما غسل له وش" (٨١)

هكذا يقال لجاحد النعمة، من يخون المحسن إليه، "أكل عيشك، وبتف
ريشك" (٨٢) ، أما لمن يوثق المودة والنصيحة وربط الروابط، واستدامة المودة،
فيقال عنه "أكلت معاه عيش وملح" (٨٣) والملح هو الحرمة "بين فلان وفلان ملح"
وعن استمرارية العلاقة النافعة "كشكار دايم ولا علامة مقطوعة" (٨٤).

ويرى تيمور في عبارة "بيننا عيش وملح" أن الملح بمعنى "اللين"،
ويريدون الرضاع ويقسمون به، ويقولون بين الرجلين ممالحة، أى عهد، والعهد
"الملح" (٨٥).

والبر والإحسان، أو بمعنى أدق الصدقة كانت على أشكال وألوان، من
ضمنها التصدق بأرغفة الخبز وذلك "لتدارك الهموم والغموم ودفع الضرر" (٨٦) ،
ومما قاله عوام أهل مصر في الحث على فعل الصدقة "اللقم تمنع النقم" (٨٧).

كان هم علماء طلاب الأزهر والمكاتب، الحصول على الجرايات، وكان
رغيف العيش هو مطلب الشحات ولو طلبه بوقاحة "اديني رغيف ويكون
نضيف" (٨٨) أو حتى بتأدب وتظرف مثلما ردد بعض الأدبائية على السامعين (٨٩):

أنا الأديب الأدبائي ألم العيش تحت بطاطي

هذا زمان التأدب بقيم وتقاليد، احترام وتقدير وتقديس لقمة العيش، التزاماً
بمقولة الرسول صلى الله عليه وسلم "أكرموا الخبز" ومن هنا كان أهل مصر لا

يجيزون بتاتاً التبذير فى أصغر قطعة من الخبز، كلما استطاعوا تجنب ذلك، يتحدث على مبارك فى إحدى أجزاء خطبه عن (جهينة القلبية) وعوائد أهلها فى الأكل مع الضيوف أو غيرهم "أن لا يتركوا رغيفاً مكسوراً، ويعدون ذلك عيباً فمن كسر رغيفاً، فلا بد أن يأكله، أو يعطيه لمن يأكله بحيث لا ترجع السفارة برغيف مكسور حتى فى وليمة العرس على كثرة الآكلين"^(٩٠)؛ ومن الأمثال التى كان يرددتها أهل مصر "كمل لقمتك داهية تخفى خصلتك"^(٩١)، التى كانت تقال مزاحاً لمن يأكل ويترك لقمة. هذا الاحترام العظيم للخبز، أكدت عيون الأجانب الذين زاروا مصر أو عملوا بها، عليه، يذكر ادوارد ولسم لين "وكثيراً، ما لاحظت بعضهم يرفع قطعة الخبز إذا سقطت عرضاً فى الطريق إلى فمه وجبهته ثلاث مرات، ويفضلون وضعها على جنب لكى يأكلها كلب على أن يدوسها المارة"^(٩٢).

يؤكد على هذه الرؤية كلوت بك بقوله^(٩٣): "من الخصال المحمودة التى درجوا عليها، احترامهم الخبز، وصونهم إياه من الدنس لاعتقادهم وثوق الرابطة بينه والحياة".

هذه القطعة من الخبز، ترتبط بالسعادة والفرح والهناء "اللى عنده عيش وبله عنده الفرح كله"^(٩٤)، وعند الأحباب حتى ولو كان المأكل قليلاً "لقمة هنية تكفى ميه"^(٩٥)، وكان يكفيهم "لقمة تحت حيطه ولا خروف بعيطه"^(٩٦) بمعنى تفضيل القليل مع راحة البال على الكثير المحاط بما يزعج، وواجهوا المتجهم الدائم العبوسة بقولهم "ما يضحكش ولا للرغيف السخن"^(٩٧).

ويدخل رغيف الخبز أو بمعنى آخر لقمة العيش فى نسيج بعض المعتقدات والمعارف الشعبية المصرية، منها على سبيل المثال لا الحصر "أن القرد كان أصله طفلاً جلس جنب أمه، وهى تخبز أمام الفرن، فتغوط، وأرادت مسح دبره، فلم تجد شيئاً فمسحته برغيف، فعاتبها الله فيه بأن مسخه قرداً، وجعل مؤخره أحمر لا شعر عليه من أثر مسح الرغيف حتى يرتدع الناس من إهانة نعم الله عليهم"^(٩٨)؛ وفى طقوس الولادة والوفاة - خاصة فى الصعيد مصر^(٩٩) - إذا كانت المرأة قد فقدت عدة أطفال بصورة متتالية عند ولادتهم فإنها تعتقد أنها غضب "أختها" أو "قرينتها" أو كلتاهما، وأنهما تأخذان الأطفال منها، فعليها فى كل مرة ولادة تالية أن يدفن مع المشيمة رغيف خبز ورطل ملح، فى سلطانية تغطيها بسلطانية لها نفس الشكل تحت أرضية بيتها، وبهذه الوسيلة ترضى الأخت والقرينة ولا تأخذان الأطفال منها.

فى التعابىر والكنائيات والمأثورات القولية لعوام أهل مصر، فى لغة حياتهم اليومية، يحتفون بلقمة العيش، فمن يعرف الآخر بدقة "هو خبزُه وعجنُه" (١٠٠)، وعن الشئ العظىم يحوزه غير مقتدر عليه فىسبب له الارتباك "اللُقمة الكبيرة تقف فى الزور" (١٠١)، أو حتى "كلامه زى اللُقمة اللى تقف فى الزور" (١٠٢)، ويقال لمن زاد فرحة أو شيطنته زيادة على العادة "وأكل لقمة زائدة" (١٠٣)، ولمن استولى على شئ بغير جهد أو عناء "أكلها لقمة باردة" (١٠٤)، ومن ناله شئ من الناس بسهولة عليه أن يرده لهم فى الحال بتعب ومشقة "اللى يأكل عيش الناس بارد يقمره لهم" (١٠٥)، وترك الأمور لأصحاب الاختصاص "إدى العيش لخبازينه ولو يأكلوا نصفه" (١٠٦)، ومن أقوالهم المأثورة كذلك : "لقمة الفرح ما تشبع، لقمة جارى ما تشبعنى وعارها متبعنى" (١٠٧)، وقد ساد لدى بعضهم أن الكسل أحلى من العسل، أو بمعنى آخر "الأكل بالدقة، والنوم فى الأزقة، ولا فرخة محمرة يعقبها مشقة" (١٠٨)، وأن أكل العيش بدقة يظهر القناعة، فرددوا "ما أنتشى على البال طمن خاطرِك وارتاح وكل رغيفك بدقة وأترك التفاح" (١٠٩)، غير أن الأقدام على العمل هو أسمى من الكسل لديهم "لقمة الراجل مقمرة ما تأكلها إلا المشمرة" (١١٠) وأن نوال الأجر يكون بحسن العمل، خاصة إذا كان "رغيف من تفالى يعدل حالى" (١١١)، فإذا تعدلت الأحوال "إن طاب لك عيشك كله كله" (١١٢) ولمن أظهر غناه، وهو فقير معدم "مالقوش عيش يتعشوا، جابوا فجل يدشوا" (١١٣)، ولمن يتظاهر بالعظمة الكاذبة رغم أن أمه تبيع الخبز لفقيرهم "أمه عياشة وعامل باشا" (١١٤).

هذه الأسطر السابقة ترينا إلى أى مدى تكمن أهمية لقمة العيش فى تصور عوام أهل مصر، فى حياتهم اليومية، وفى نسيج عقلهم الجمعى، فىما عبرت عنه، بعض ولا أقول كل هذه الدلالات اللفظية لمأثوراتهم القولية ومعتقداتهم ومعارفهم الشعبية.

(٤)

بمثل هذه التصورات، حول قيمة "رغيف الخبز" أو "لقمة العيش"، يصبح الخبز دائماً وأبداً هو البوصلة أو المؤشر الفعلى لمدى استقرار الأوضاع الاقتصادية - الاجتماعية لحياة العوام، بل والخواص كذلك، وكما قلت، فإن أزماته تؤثر على طبيعة الأوضاع السائدة، وعلى تطور المجتمع السياسى، خاصة وأن اختفاء الخبز أو تغيير شكله، لونه، وزنه، مادته، كان يؤدى إلى تفاقم واختلال التوازن المجتمعى، كانت لقمة العيش تملك القدرة على تعبئة

وتجميع أكثر الشرائح والفئات الاجتماعية المتضررة من عدم وجوده مثلاً أو نقصه أو ما طرأ عليه من الغلاء، وفي لحظات تاريخية محددة كان "الاجتماعي" يرتبط بـ "السياسي" ويواكبه دائماً، كان الخبز يظهر لنا مدى التفاوت الاجتماعي في ظل تمايز أنواعه وأشكاله والتقاليد المرتبطة بخبزه، بل وكذلك بنمط استهلاكه، هناك من خبز القمح أو الحنطة : السميد، الخاص، الحواري، الصامولي، الطباقى، العلامة، يتناوله الأغنياء مع "عيش الغراب" و"أقراص الملوك"، وهناك خبز الذرة "الكشكار" للفقراء، الذين ردوا "كشكار دائم ولا علامة مقطوعة"^(١١٥). وكان حلم الفلاح المصرى، المنتج للغلال، أن يأتى إلى المدينة لى يشتري ويأكل خبز القمح، هكذا عبر الشيخ يوسف الشربيني فى "هز القحوف" عن هذه الأمنية.

وفى المدينة عندما كان يطرأ أى تغيير على وزن أو حتى شكل الخبز، سرعان ما كانت تتأزم الأمور، شهدت مصر منذ أزمنة بعيدة أسوداد لون الخبز، حتى صار فى لون الكسب وخط بالطفل المسحوق، هكذا تحدث المسيحي فى "أخبار مصر" وتحدث المقريزى فى "إغاثة الأمة" وتحدث ابن إياس فى "بدائع الزهور" والجبرتى فى "عجائب الآثار". وتحدث عزيز مصر محمد على باشا فى أوامره من "الخبز الأسود غير الناضج"، وكما يؤكد أحمد الحتة فى كتابه عن "تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر" أنه حتى مطلع القرن العشرين كان يرد القمح إلى المطاحن مخلوطاً بالأوساخ والأتربة. ويتذكر كاتب هذه السطور قبل انتفاضة ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧ كتب مصطفى أمين فى الأخبار (١٤ يناير ١٩٧٧) : "نحن الشعب الوحيد الذى يأكل الخبز الأسود"، وبعد ذلك بقليل انفجرت الانتفاضة التى تضمنت هتافات ما مس رغيث العيش^(١١٦).

كان تغيير لون العيش أو نقص وزنه أو زيادة سعره، يؤدى إلى حدوث اضطرابات وفى بعض الأحيان كانت تتخذ إجراءات عنيفة كان يقوم بها المحتسب فى الأساس والذى لجأ إلى عقوبات كثيرة فرضت على المخالفين، من مصادرة الخبز وتوزيعه على الفقراء، وتسمير وجلد بعضهم، ووصل الأمر فى أزمة (١٢١٦هـ - ١٨٠١م) فى عهد محمد باشا خسرو بسبب أزمة الخبز أن نصبت مشانق عند أبواب المدينة برسم الباعة والمتسبين والخبازين وغيرهم وعلقوا عدة أناس من الباعة على حوائيتهم وخزموهم من أنافهم فرخص السعر و"كبر العيش وكثر وجوده"^(١١٧). وفى عصر محمد على، شهدت البلاد موجات من أزمة الخبز وارتفاع أسعاره وقلة وجوده ونقصان وزنه وحصول المضايقة

للأهالي ووفاء آلاف بسبب الجوع، غير أن حزمة الإجراءات المتعددة التي اتخذها، قد مكنته من توفير الحد الأدنى لتهدئة صراخ الجوع، وتكشف لنا أوامره ومكاتباته مدى حرصه على وضع الحل العاجل للخروج بالأزمة إلى بر الأمان، ففي تاريخ ١٢ محرم ١٢٠٣هـ إلى حبيب أفندي "يا حبيب لا تزي جواز تأخير ذلك دقيقة واحدة"^(١١٨)، وبتاريخ ٢٦ شعبان ١٢٥٦هـ أمر منه إلى عموم المديرين "وأن حصل في بيع الغلال تأخير باحتجاجات غير مقبولة فأعلم يقينا مجازاتك بالصلب في محلك"^(١١٩)، وبتاريخ ٢٥ رجب سنة ١٢٤٥هـ (١٨٢٩) أمراً منه إلى كتحدا بك بمصر والذي كان يخفي غلال الذرة على الأهالي وإذا زاد النيل ادعى الغرق وإذا نقص أدعى الشرق وتسبب في موت الأهالي بعلة الجوع، جاء فيه (١٢٠):

"فما أنت إلا وحشا أو غولاً فاختر لنفسك أيهما لأننا لم نجد أسماً ينطبق على أفعالك، فيلزم إعطاء الغذاء للأهالي وتخليصهم من اضطراب الجوع حيث أنك السبب والا يفعل بك مثلهم، ويجرى تعيينك بمصالح أخرى لتكسب اسماً آخر وقد علمت مما ورد امين حسين أغا باشجاويش عساكر الاندرون وفاة الفين ثلاثة من الاهالي بسبب الجوع الذي استولى عليهم حتى وأن المتواتر بين العامة أنه وباء".

ولعل ضراوة أزمة الخبز في مصر هي التي جعلت الاقتصادي البريطاني ناسو وليام سنيور Senior، الذي زار مصر بعد منتصف القرن التاسع عشر (نشرت له محادثات وسجلات للأحداث اليومية في مصر ومالطه عام ١٨٨٢ بعد وفاته) يصورها في حوارها مع حككيان^(١٢١):

سنيور : ولكن الثورة الشعبية تتطلب ضرورة وجود صرخة شعبية.

حككيان : أن الصرخة الشعبية تتمثل في المطالبة بتوفير الخبز بأسعار منخفضة".

وهذه الصرخة هي التي جعلت فكرى أباطة ينقل على لسان وحش من الوحوش إيان ثورة ١٩١٩، وهو يشعل مع غيره النار في عمارة "محمود باشا سليمان" يصرخ : "اسكت، وهل وزع محمود باشا سليمان أرغفة العيش على الجائعين؟ نحن طلاب قوت !!!"^(١٢٢)، بل في أثناء هذه الثورة، وفي زفتى أصدر يوسف الجندي بياناً أكد فيه "أننا نشور من أجل الخبز والحرية والاستقلال"^(١٢٣).

في منتصف القرن العشرين، وعندما أوشكت حكومة الوفد (١٩٥٠-
١٩٥٢) أن تزيد سعر الرغيف مليماً واحداً، كتب خالد محمد خالد محذراً:
"وراء كل ثورة رغيف" (١٢٤).

الهوامش

(١) على سبيل المثال لا الحصر، وفي أحداث سنة (١١٠٧هـ - ١٦٩٥م)، ذكر الأمير أحمد كتحدا عزبان عبارة "كانت سنة، الله لا يعودها على أمة محمد" وذلك في كتابه: الدرّة المصانة في أخبار الكنانة، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٩، ص ٣٠، وأنظر كذلك:

فايقة حسين راغب: حدائق الأمثال العامية، السفر الثاني، الطبعة الأولى، مطبعة أمين عبد الرحمن، القاهرة ١٩٤٣، ص ٧٢-٧٣ وينكر تيمور في كتابه، أن الدعوات كانت تتكاثر والتي أصبحت مضرِباً للأمثال: "الله لا يرجع الغلا ولا كياه" و"سنة الغلا نسينا الخميرة" أي أنهم أبطلوا العجين للغلاء، "غلا وسو كيل" راجع: أحمد تيمور باشا: الأمثال العامية، الطبعة الرابعة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ١٩٨٦، ص ٤١، ص ٢٧٤، ص ٣٤٨.

(٢) أحمد شلبي بن عبد الغنى: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، مطبعة الجبلوى، القاهرة ١٩٧٨، ص ١٤٢.

(٣) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، الجزء الثالث، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ١٩٩٨، ص ٥٠٦ [أحداث سنة ١٢١٩هـ - ١٨٠٤ - ١٨٠٥م].

(٤) أحمد كتحدا عزبان: كتاب الدرّة المصانة، ص ٥٠، ص ٨٢.

(٥) أنظر: يوسف الشربيني: هز القحوف في شرح قصيد أبي شادوف، الطبعة الثانية، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية، ١٣٠٨هـ، ص ١٢٠.

(٦) محمود عمر الباجوري: كتاب أمثال المتكلمين من عوام المصريين، المطبعة الشرقية، مصر خان أبي طاقية، ١٣١١هـ - ١٨٩٤م، ص ٥١.

(٧) فايقة حسين راغب: حدائق الأمثال العامية، السفر الأول، الطبعة الأولى، مطبعة أمين عبد الرحمن، القاهرة ١٩٣٩، ص ٦١.

(٨) عبد الرحمن الجبرتي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥٧-٥٨.

(٩) ناصر إبراهيم: المجاعات والأوبئة في مصر في القرن السابع عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث. كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٩٧، ص ٨٦-٨٧.

(١٠) أمين سامى باشا: تقويم النيل، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٨، ص ٦٣.

(١١) أحمد شلبي بن عبد الغنى: المرجع السابق، ص ٣٨٩.

(١٢) المرجع نفسه، ص ١٢٨-١٤٩.

(١٣) ميخائيل شاروويم بك: الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث، الجزء الثالث، الطبعة

- الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٨٩٨، ص ٩٠-٩١.
- (١٤) فايقة حسين راغب : المرجع السابق، السفر الأول، ص ١٦٦.
- (١٥) ظاهرة صعود العوام وبعض المشايخ إلى أعلى المنارات، والدعاء على الأمراء والعياط على الحكام، ظاهرة تستحق الانتباه في مصر العثمانية. تتذكر على الفور ما كتبه صاحب 'أوضح الإشارات' من الدعاء على جركس من فوق المنارات، وما ذكره صاحب 'عجائب الآثار' في أكثر من موضع، من ضجيج مجاورو الأزهر بسبب أحبارهم وصعودهم على المنارات يصيحون على نحو ما حدث في ديسمبر ١٧٨٥، وما حدث بعد ذلك في مايو ١٨٠٤ من اجتماع الكثير من غوغاء العامة وأطفال الجامع الأزهر ومعهم طبول وصعودهم إلى المنارات يصرخون ويطلبون راجع : عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار، الجزء الثاني، ص ١٤٨، والجزء الثالث ص ٤٦٦-٤٦٧.
- (١٦) أحمد شلبي بن عبد الغنى : المرجع السابق، ص ١٩٣.
- (١٧) مجهول : زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة، نسخة مصورة، مكتبة المتحف البريطاني رقم Add 9972، ص ٣٠.
- (١٨) أحمد كتخدا عزبان، المرجع السابق، ص ٢٩.
- (١٩) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار، الجزء الثاني، ص ١١٠-١١١، ص ١٢٠.
- (٢٠) محمد بن عبيدالله المسيحي : أخبار مصر في سنتين (٤١٤-٤١٥هـ-)، تحقيق وليم ج ميلورد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٩٣-١٩٤، ص ٢٠٨.
- (٢١) المقرئزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة، أو تاريخ المجاعات في مصر، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ١٩٨٠، ص ٥٩-٦٢، وكذلك ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول، القسم الأول، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص ٢١٧.
- (٢٢) الإدفوى، جعفر بن ثعلب : الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، المطبعة الجمالية بمصر سنة ١٩١٤، ص ٢٦٣.
- في هذه المجاعة كان الفقير يقول لبابة الله، لبابة الله ويموت مكانه، وخرج الناس إلى الكيمان يلتقطون ما يكون مدفوناً بها من حبة قمح أو شعير أو فول أو ما أشبه ذلك* راجع قاسم عبده قاسم (د) : النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٧٨، ص ٥٥.
- (٢٣) ابن اياس : المرجع السابق، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٣٧-٢٣٨.
- (٢٤) نفس المرجع، الجزء الرابع (القاهرة ١٩٨٤)، ص ٣٠٢-٣٠٣، والجزء الخامس (القاهرة ١٩٨٤) ص ٢٨، ص ٦٢.
- (٢٥) أنظر بالتفصيل المرجع السابق، الجزء الخامس، ص ٢٧٥، ص ٣١٣، ص ٣٤٤، ص ٣٤٩-٣٤٨.
- (٢٦) أحمد شلبي بن عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ١١٢.
- (٢٧) الاسحاقى المنوفى : لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول،

- الطبعة الأولى، المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة ١٣١١، ص ١٥٨.
- (٢٨) جرجى زيدان : كتاب تاريخ مصر الحديث، الجزء الثاني، مطبعة المقتطف بمصر ١٨٨٩، ص ٧٩، وهذه الثورة أشار إليها ابن عبد الغنى (ص١٢٧) بقوله : 'وهو الذى قامت الاسباهية عليه وقتلوا كيخيته وكتخذوا الجاوشية والترجمان، وقطعوا رؤسهم، و أشهروهم فى البلد، ثم علقوهم فى باب زويلة.. فلما اتصلت الأخبار إلى الأعتاب العلية ارسلوا له العزلان'.
- (٢٩) أحمد شلبى بن عبد الغنى : المرجع السابق، ص ١٢٧-١٢٨.
- (٣٠) نفسه المرجع، ص ١٣٨.
- (٣١) نفسه المرجع، ص ١٤٨-١٤٩.
- (٣٢) راجع : 'القاهرة العثمانية بوصفها مدينة 'شئون البلديات والمرافق' فى : اندريه ريمون : فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٧٤، ص ٢٩.
- يتحدث ابن عبد الغنى (ص ١٧٦)، فى أنه قد حصل غلاء، ونهبت الرقعة التي بجوار مدرسة السلطان حسن وحرقوها.
- (٣٣) ميخائيل شاوريبيم بك : الكافي، الجزء الثالث، ص ١٠١.
- (٣٤) أنظر : أحمد شلبى بن عبد الغنى: المرجع السابق، ص ١٩٣-١٩٤ وكذلك : أحمد الدمرداش كتخدا عزبان : المرجع السابق، ص ٢٩، والجزء الأول من 'عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، لعبد الرحمن الجبرتي ، تحقيق الدكتور عبد الرحيم بن عبد الرحمن ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ١٩٩٨، ص ٥٠.
- وتعتبر سنة ١٦٩٥ أسوأ أزمة مجاعة وغلاء، فى تاريخ مصر العثمانية، فى مدة الوزير على باشا قلج، سجل أردب القمح ٦٦٠ بارة وأردب الشعير ٤٠٠ بارة والبقول ٥٠٠ بارة والأرز ٨٠٠ بارة، شهدت البلاد أحداث عنف ونهب وتقاتل الجوعى على سرقة الخبز، أطلق عليها 'جد خطف العيش' ووصل الأمر إلى أن 'فشا أكل بنى آدم واشتهر' على حد قول أحد المعاصرين، وحول أبعاد ذلك راجع : ناصر إبراهيم : المجاعات والأوبئة فى مصر فى القرن السابع عشر، ص ٤٥-٤٨.
- (٣٥) أحمد شلبى بن عبد الغنى : المرجع السابق، ص ١٩٧.
- (٣٦) المرجع نفسه ، ص ٢١٠-٢١١.
- (٣٧) المرجع نفسه ، ص ٢٢٧-٢٤٨.
- (٣٨) المرجع نفسه ، ص ٤٣٣-٤٣٤.
- (٣٩) المرجع نفسه ، ص ٥٠٢.
- (٤٠) المرجع نفسه ، ص ٥٧٦، ص ٥٨٨.
- (٤١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار، الجزء الأول، ص ٢٥٥.
- كما هو معروف ، حتى فى أوقات الفناء، كان العوام يتكلمون ويسخرون على نحو ما حدث فى طاعون عام ١١٧١هـ الذى سموه 'قارب شيحة' الذى يأخذ المليح والملحة'.
- (٤٢) المرجع السابق، الجزء الثاني ، ص ١٠٧، ص ١٢٠-١٢١.
- (٤٣) نفس المرجع، ص ١٣٤-١٣٥.

في النصف الثاني من القرن السابع عشر، كتب أوليا شلبي في 'سياحته سى' أن فى الأزهر اثني عشر ألف إسمان، وإذا أعلن علماء الأزهر ثورتهم، خرج من الجامع منهم سبعائة رافعين العلم، اللهم عافنا أن ثورتهم غاية فى شدتها'. فمن المعروف أن هذه المؤسسة الدينية كانت تستقبل الوافدين إليها من فقراء الريف وتقدم لهم الخبز اليومي 'الجراية' وكانت أرزاق العلماء أساماً من القمح، حتى 'الزوائد' التي كانت ترسل إلى طلاب وعلماء الأزهر كان أغلبها من الخبز ويشكل عام كانت الجراية تخصص دائماً للعمال والجند والخدم وطلاب العلم، و'عيش جراية' ليس من خالص الدقيق، فإن كان خالصاً قالوا فيه 'خاص'، هكذا ذكر الجبرتي فى الجزء الثالث من 'عجائب الآثار'، فالجراية تطلق على الخبز خاصة من 'دقيق خشن'، أما الأمراء فلهم عيش 'خاص' يريدون أحسنه ويرادفه 'الحوارى ومن العيش للخاص' الخبز 'الأفرنجي' أى العيش 'الرومي' أو ما عرف بالفينو فيما بعد، هناك 'عيش السراية'، وكذلك 'عيش الغراب'، أنظر :

مادة 'جراية' فى أحمد تيمور : معجم تيمور للكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الثالث، تحقيق الدكتور حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص ٢٤-٢٥. وكذلك مادة 'عيش'، نفس المرجع، الجزء الرابع، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ٢٠٠١، ص ٤٥٥-٤٥٧.

وقد استمرت ثورة الأزهريين ، أكثر من مرة بسبب أزمة صرف 'الجراية' فيذكر الجبرتي فى أحداث ٢ ذى القعدة ١٢٠٢ هـ (٤ أغسطس ١٧٨٨) ثار جماعة الشوام وبعض المغاربة بالأزهر على الشيخ العروسي بسبب الجراية، وقفلوا فى وجهه باب الجامع، وخرجوا إلى السوق، وأمروا الناس بغلق الدكاكين (أنظر الجزء الثاني من عجائب الآثار، ص ٢٥١).

(٤٤) المرجع نفسه السابق، ج٢، ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٤٥) المرجع نفسه، ص ٣٤٤.

(٤٦) المرجع نفسه ، ص ٣٦١-٣٦٢.

(٤٧) فايقة حسين راجب : المرجع السابق، السفر الثاني، ص ١٧٢-١٧٣.

(٤٨) محمد عياد الطنطاوى (الشيخ) : أحسن النخب فى معرفة لسان العرب، طبع فى ليبيا فى مطبعة ولهم فوجل ١٨٤٨، ص ١١٤.

(٤٩) أحمد تيمور : الأمثال العامية، صفحات : ١٦٢، ١٨٧، ٣٦٩، ١٦٣، ١٦٨، ٣٢٦ [على عشان بطنه حلقوا دقنه] أى لأجل احتياجه للقوت رضى بحلق لحيته وتمرض لاستهزاء الناس به، ٣٧٤، ٤٠٣، ٤٣١، ٤٤٣.

راجع كذلك كتابه 'الكنائيات العامية' الطبعة الأولى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ص ٧٦، ص ٨٤.

(٥٠) نعوم شقير : أمثال العوام فى مصر والسودان وللشام، مطبعة المعارف بمصر ١٣١٢هـ، ص ٧٢.

فى هذا الكتاب أكد هذا الارتباط بين الجوع وبين الخبز : 'حلم الجيمان عيش' (ص ٧٩)، قال له ابوك مات من الجوع قال له هو شاف شى ولا أكلشى' (ص ٩٦)، قالوا لبنت الملك أهل البلد ماتوا من الجوع قالت ياكلوا قشور البقلوة' (ص ٩٨)، 'لقة عيش وثوب خيش تقضى

اليومين اللي لافيش ولا عيش* (ص ١٠٣).

(٥١) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص ٨٣.

(٥٢) أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٣، ص ٦٩.

(٥٣) جون لويس بوركهارت : العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية فى عهد محمد على، ترجمة الدكتور ابراهيم شعلان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩، ص ٢٠٤.

(٥٤) فايقة حسين راغب : المرجع السابق، السفر الأول، ص ١٤٧.

(٥٥) اوليا ثلبي : سياحتهامه سى، نسخة مترجمة غير منشورة إلى العربية بقلم الدكتور مجيب المصرى، ص ٥٩.

(٥٦) ويقولون رغيغ خبز وله أصل قال الرغف كالمنع جمعك العجين أو الطين تكتله بيدك ومنه الرغيغ جمعه أرغفة ورغف ورغف بضمهم وراغيغ قاموس، والرغيغ فيه قصيدة فى الفتوحات المكية وانه فيه سر المهيمن واللطيف، وأنه لا بد منه من ثلاثمائة وستين عاملا حتى يوكل، ومما ترجمته فيه من أبيات كلستان الشيخ سورى

غيم هو والبدر بوح فى السرى	حتى إذا وصل الرغيغ لكفكا
لا تاكلمه بغفلة إذ كلمته	فى دورها لا تستطيع لخفكا
ما شرط انصاف تطيع	ولا تطيع لأمرها فتتقطن من لطفكا

راجع : الشيخ يوسف المغربي، رفع الأصر من كلام أهل مصر، تحقيق الدكتور عبد السلام عواد، دار النشر "العلم" إدارة التحرير الرئيسية للأداب الشرقية، مسكو ١٩٦٨، ص ٢٣.

(٥٧) يقولون للخبز (عيش)، قال المجدى : العيش الخبز، أوكل طعام، أو ما يعاش به، ويقولون فلان (عياش) إذا كان مضافاً.

راجع : محمد بن أبى السرور الصديقى الشافعى : القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب، تحقيق السيد ابراهيم سالم، الناشر دار الفكر العربى، مطبعة مخيمر، القاهرة ١٩٦٢، ص ٧٣.

(٥٨) الشيخ داود الانطاكى : تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب، المطبعة العثمانية المصرية، القاهرة ١٣٥٦هـ، ص ١٢٥.

(٥٩) أحمد تيمور : معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، تحقيق الدكتور حسين نصار، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ٢٠٠١، ص ٤٥٥.

(٦٠) نفسه، ص ٤٥٦.

(٦١) أحمد تيمور : الأمثال العامية، ص ٢٨.

(٦٢) فايقة حسين راغب : المرجع السابق، السفر الثانى، ص ٤٣-٤٤.

(٦٣) المرجع نفسه، السفر الأول، ص ٤٠.

(٦٤) المرجع نفسه، السفر الثانى، ص ٢٤٩.

(٦٥) المرجع نفسه، السفر الأول، ص ٩٦.

(٦٦) أورده محمود عمر الباجورى فى "كتاب أمثال المتكلمين" ص ١٧، فى مكافأة الشئى بمثله، وفى القرآن هل جزاء الإحسان إلا الإحسان، وفى الحديث من صنع اليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تكافئوه فادعوا لله.

(٦٧) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٦٨) أحمد أمين : المرجع السابق، ص ٤٤٦.

(٦٩) المرجع نفسه، ص ٣٨٦.

(٧٠) عبد الرحمن الجبرتى : المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٤٨.

(٧١) المرجع نفسه ، ص ٤٦٥.

(٧٢) حسين مظلوم رياض - مصطفى محمد الصباحى : تاريخ أدب الشعب، نشأته، تطوراتمه، أعلامه، مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٦، ص ٩٠.

وتظل كسرة الخبز" دليلا على القناعة تراود الكثير، فيورد الطهطاوى :

ليبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلى من قصر منيف
وأكل كسيرة من كسر بيتى أحب إلى من أكل الرغيف

راجع : رفاة بك رافع : مناهج الألباب المصرية فى مباحج الآداب المصرية، الطبعة الثانية، شركة الرغائب بمصر ١٩١٢، ص ١١.

كذلك يضمن الشاعر إسماعيل صبرى، ديوانه ، بمثل هذه الأبيات :

لكسرة من رغيف خبز تؤدم بالملح والكرامة
أشهى إلى الحر من طعام يختم بالشهد والملامنة

راجع : إسماعيل صبرى : ديوان، صححه أحمد الزين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٨، ص ١٤٤.

(٧٣) فايقة حسين راغب : المرجع السابق، السفر الثانى، ص ١١٤.

(٧٤) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٧٥) فايقة حسين راغب : المرجع السابق، السفر الأول، ص ١٢.

(٧٦) نفس المرجع، ص ١٥.

(٧٧) ابن إياس : بدائع الزهور ، الجزء الثانى، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٨٤، ومما يذكره قول آخر :

وإذا غلا شئى على تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا
إلا الدقيق فما لنا عنه غنا فإذا غلا يوما فقد عمّ السبلا

(٧٨) أحمد الدمرداشى كتحدا عزيان : المرجع السابق، ص ١٠٨، ص ٢٣٤.

(٧٩) مصطفى بن الحاج إبراهيم تابع حسن أغا عزيان دمرداشى : تاريخ وقائع مصر القاهرة كنانة الله فى أرضه، مخطوط غير منشور، دار الكتب المصرية، تاريخ رقم ٤٤٨،

ص ٣٥.

- (٨٠) محمود عمر الباجورى: المرجع السابق، ص ١٧٠.
- (٨١) نعوم شقير : المرجع السابق، ص ١١٣.
- (٨٢) فايقه حسين راغب : المرجع السابق، السفر الثاني، ص ٤٤.
- (٨٣) المرجع نفسه ، ص ٥٠.
- (٨٤) جون لويس بوركهات : المرجع السابق، ص ١٥٩.
- هذا المثل يعتمد على قول محمد (ص) فى الحديث 'خير الأعمال أدومها وأن قل، ككشكار' هو دقيق الذرة أو النخالة يأكله الفلاحون، 'علامة' : 'دقيق ناعم' 'مقطوعة' : 'مبتورة' ، 'ممنوعة' - من المعروف أن خبز الذرة ظل هو الغذاء الأساسى للفقراء خاصة أهل الريف، وكانت أمنية الفلاح أن يأكل الخبز من القمح، كما ورد في 'هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف' وقد ذكر الجبرتى فى الجزء الأول من 'عجائب الآثار' (ص ٤٦٢) على لسان الشيخ حسن شمه والذي كتب موالاً قرقياً :
- قالوا تحب المدمس قلنت بالزيت الحار
والعيش الأبيض تحبه قلنت والكشكار
- (٨٥) أحمد تيمور : معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الرابع، ص ٤٥٦-٤٥٧.
- ومن أطرف ما ذكره تيمور ، أن الانتهاء من الخدمة عند الموظفين، كانوا يقولون عنه فى الدولة العثمانية 'التقاعد'، بينما فى مصر ذكروا 'الإحالة على المعاش'.
- (٨٦) أنظر : شهاب الدين بن محمد الأبيهي : المستطرف فى كل فن مستظرف بجزأيه، دار القلم، بيروت ١٩٨١، الجزء الأول، ص ٣٧، ومما ذكره الأبيهي (ص ١٩٠) ما رواه عن ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : أكرموا الخبز، قالوا وماكرامته يا رسول الله، قال لا ينتظر به إلا دام، إذا وجدتم الخبز فكلوه، حتى تؤتوا بغيره.
- (٨٧) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص ٣٣.
- (٨٨) نفس المرجع، ص ١٨.
- (٨٩) أحمد أمين : المرجع السابق، ص ١٣٧ وكذلك : شوقى ضيف (د) : الفكاهة فى مصر، العدد ٨٣ من كتاب الهلال، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٨١.
- (٩٠) على مبارك باشا : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة، الجزء العاشر، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص ١٥٦.
- (٩١) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص ١٣٥.
- (٩٢) 'المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلى طاهر نور، مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٥٠، ص ٢١٣.
- (٩٣) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعود، مطبعة ابى الهول بمصر، الجزء الأول، د.ت، ص ٥٤٦-٥٤٧، وأنظر كذلك :
- أحمد أمين : قاموس العادات، ص ٢٩٣.
- (٩٤) أحمد تيمور : الأمثال العامية، ص ٥٣.
- (٩٥) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص ١٤٠، وكذلك تيمور : المرجع السابق،

- ص ٤٢٤ .
- (٩٦) أحمد تيمور : المرجع السابق ، ص ٤٢٣ .
- (٩٧) المرجع نفسه ، ص ٤٤٧ .
- (٩٨) أحمد تيمور : معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الخامس، تحقيق الدكتور حسين نصار، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ٢٠٠١، ص ٢٩٥ .
- (٩٩) وينيفريد بلاكمان: الناس فى صعيد مصر، ترجمة أحمد محمود، الطبعة الثانية، عين للدراسات والبحوث، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٥٣، ص ١٠٦-١٠٨ .
- (١٠٠) سبيرو سقراط : قاموس اللهجة العامية المصرية (صدر عام ١٨٩٥)، طبعة جديدة، مكتبة لبنان ١٩٨٠، ص ١٦١ .
- (١٠١) أحمد تيمور : الأمثال العامية، ص ٤٢٤ .
- (١٠٢) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص ١٣٠ .
- (١٠٣) نفس المرجع ، ص ١٦٣ .
- (١٠٤) فايقة حسين راغب : المرجع السابق، السفر الثاني، ص ٥٣ .
- (١٠٥) أحمد تيمور : المرجع السابق، ص ٦٩ .
- (١٠٦) نفس المرجع : ص ١٦ .
- (١٠٧) نعوم شقير : للمرجع السابق، ص ١٠٣ .
- (١٠٨) المرجع نفسه ، ص ٦٣ .
- (١٠٩) نفسه، ص ١٠٥ .
- (١١٠) أحمد تيمور : المرجع السابق، ص ٤٢٤ .
- (١١١) المرجع نفسه ، ص ٢٢٧ .
- (١١٢) نفسه، ص ٩٨ .
- (١١٣) نفسه، ص ٤٤٣ .
- (١١٤) نفسه، ص ٨٨ .
- (١١٥) وحول نماذج معطاة من أنواع الخبز وتفاوت وزنها وسعرها أنظر على وجه الخصوص:
- محاسن محمد الوقاد (د) : الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩، ص ١٣٣. وكذلك : عبد الرحيم عبد الرحمن (د) : فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٠، هامش (١٥)، ص ٣٠ .
- (١١٦) حول هتافات ١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٧ المرتبطة برغيف العيش :
- مش كفاية لبسنا الخيش... جايبين ياخدوا رغيف العيش
- مش خنخاف مش خنخاف... غلو علينا العيش الحاف.
- انظر : حسين عبد الرازق / مصر فى ١٨، ١٩ يناير ، الطبعة الأولى، دار الكلمة، بيروت ١٩٧٩، ص ٨١، وكذلك عصمت سيف الدولة (د)، دفاع عن الشعب، الطبعة الثانية، دار الكلمة للنشر، بيروت ١٩٨١، ص ٢٧ .

- (١١٧) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار، الجزء الثالث، ص ٢٩٨.
- (١١٨) راجع الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي باشا : نسخة موجودة بدار الوثائق القومية بالقاهرة، الجزء الثاني، ص ٢٨٢-٢٨٣.
- (١١٩) المرجع نفسه : ص ٣٤٢-٣٤٣.
- (١٢٠) أنظر ملحق رقم (٢٠) في كتاب أحمد الدماصي (د) : الاقتصاد المصري في القرن التاسع عشر، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧، ص ٤٥٣.
- (١٢١) أنظر : باير 'خضوع الفلاح وثورته' ص ٢٣١ في 'دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديث : ترجمة عبد الخالق لاشين وعبد الحميد الجمال، الطبعة الاولى، مكتبة الحرية الحديثة، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٦.
- (١٢٢) فكرى أباطة : الضناحك الباكي ، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٨، ص ٥٤.
- (١٢٣) صلاح عزام : 'مارس ١٩١٩ الدامي والفلاحون' مجلة الطليعة، مارس ١٩٦٩، ص ٣٩ (دراسة خاصة عن ثورة ١٩١٩).
- (١٢٤) خالد محمد خالد : مذكرات - قصتي مع الحياة، مطابع أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩٣، ص ٣٨٢.

الفصل الثانى

دور الحرفيين فى ثورة القاهرة الثانية

إبان الحملة الفرنسية على مصر

نبيل السيد الطوخى (*)

كانت الحملة الفرنسية على مصر دوراً من أدوار التنازع الاستعماري الذي قام بين إنجلترا وفرنسا، ذلك التنازع الذى يرجع عهده إلى القرن السابع عشر و استمر أثناء القرن الثامن عشر ثم اتخذ شكلاً جديداً بعد قيام الثورة الفرنسية، انتهى بقدوم الحملة الفرنسية الى مصر، ووصلت الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية يوم أول يوليو سنة ١٧٩٨، وأخذ جنود الحملة ينزلون غرب الاسكندرية ليلة ٢ يوليو، وزحفوا على المدينة فاحتلوها فى ذلك اليوم ، وبعد أن ثبت نابليون قدميه فى الإسكندرية أخذ يزحف على القاهرة لاحتلالها ونجح فى ذلك بعد هزيمة المماليك والمصريين فى معركة إمبابة أو الأهرام^(١) (٢١ يوليو ١٧٩٨) و قيل أن نتحدث عن دور الحرفيين فى ثورة القاهرة الثانية ، تجدر الإشارة إلى أن الحرفيين قاموا بدور هام فى معركة إمبابة وكذلك فى ثورة القاهرة الاولى (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) و بالتالى سنقوم بعرض موجز لهذا الدور قبل عرضنا لدورهم فى ثورة القاهرة الثانية.

أما عن دور الحرفيين فى معركة امبابة فإننا نلاحظ أن العواطف الوطنية الصادقة للطوائف قد تجلت بشكل واضح فى الدفاع عن القاهرة ضد نابليون ، فمن ذلك مثلاً حين خرج الناس إلى بولاق ليلحقوا بجيش المماليك فى يوم الثلاثاء الموافق ٣ من صفر سنة ١٢١٣ هـ (١٧ من يوليو ١٧٩٨ م) وذلك استعداداً لمعركة امبابة ((فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم و ينصبون لهم خياماً أو يجلسون فى مكان خرب أو مسجد و يرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التى جمعوها من بعضهم ، وبعض الناس يتطوع بالإتفاق على البعض الآخر ، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل و غير ذلك))^(١)،

(*) مدرس التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب، جامعة المنيا.

ويتضح لنا مما ذكره الجبرتي أن كل فرد من أفراد الطوائف قدم كل ما فى وسعه ، ولم يبخل أحد منهم بمال ، وبذلوا كل ما فى وسعهم وطاقتهم فى سبيل الدفاع عن بلادهم.

وعن دور الحرفيين فى ثورة القاهرة الأولى فإننا نلاحظ أن الذين قاموا بالدور الكبير فى هذه الثورة هم عامة القاهريين^(٥) الذين أشار إليهم الجبرتي تارة "بالحرافيش" و تارة أخرى "بالزعر" وتارة ثالثة "بالغوغاء"^(٦) وهؤلاء دون أدنى شك كانوا من الحرفيين^(٣)

وبالتالى يمكن القول بأن طوائف الحرف قد اشتركت فى ثورة القاهرة الأولى التى بدأت فى يوم الأحد الموافق من ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، و حدثت اتصالات مسبقة بين مجلس الثورة^(٤) و بين شيوخ الطوائف كى يصدر كل شيخ التعليمات إلى أفراد طائفته ، إما بإغلاق محلاتهم عند صدور أول إشارة ، وإما بالامتناع عن العمل إذا لم يكونوا من أصحاب المحلات ، و أن يكون الجامع الأزهر هو مكان التجمع^(٥) ، و لما بدأت الثورة التحم التجار و الصناع والحرفيون مع باقى الثوار لمهاجمة الفرنسيين^(٦)

و تعتبر ثورة القاهرة الثانية (٢٠ مارس - ٢١ أبريل ١٨٠٠) من أخطر الثورات المصرية ضد الاحتلال الفرنسى و بالتالى فهى تشكل حدثاً مهماً فى تاريخ مصر الحديث إلى حد أن اطلق عليها البعض اسم "الثورة الكبرى"^(٧)، وتتفق المصادر المعاصرة على واقع أن السكان كلهم قد شاركوا فى هذه الثورة. فماذا عن دور الحرفيين فى هذه الثورة ؟

لعبت طوائف الحرف دوراً مهماً فى ثورة القاهرة الثانية سواء طوائف التجار أو طوائف الصناع و أرباب الحرف ، و بالنسبة لطوائف التجار فإننا نلاحظ أن كبار التجار لم ينزلوا عن الثوار ، فلقد باشر السيد أحمد المحروقى شاه بندر التجار^(٨) و باقى التجار نفقات الثوار و العساكر المقيمين خلف المتاريس ، و تولوا تقديم الطعام و الشراب أثناء ثورة القاهرة الثانية^(٨) كما ظل المحروقى يمر بالناس و بصحبته السيد عمر نقيب الاشراف يأمرونهم بالقتال و يحرضونهم على الجهاد ، و الواقع فإن السيد أحمد المحروقى و قد قلده فى ذلك التجار و الأغنياء - قد أنفق بلا حساب من أجل تأمين و دعم المقاتلين^(٩) وكان عمر أغا الملاطيلى ، وهو تاجر فى خان الخليلى أحد تجار القاهرة الرئيسيين ، و قد امتدح الفرنسيين " مبادئه النزيهة و الشريفة والمستقيمة " أحد

المشاركين في ثورة القاهرة الثانية (٩)

و لم يكن الأمر مختلفاً في بولاق . فهناك وثيقة موقعة من جانب أعيان المدينة و ترفض الاستسلام تذكر الحاج مصطفى البشتيلي * و هو تاجر زيوت ثرى و صاحب وكالة في بولاق ، و من بين الموقعين أيضاً محمد أغا الطويل و هو تاجر في الكتان (كتانجى) و من ثم ينتمى إلى كبار تجار المدينة ، و هكذا فإن أعضاء نخبة القاهرة كانوا موجودين في المرحلة النشيطة للثورة و ليس بعدها ، كما جرت العادة في مجرد التفاوض مع السلطات و الذى كانوا يقيمون به تاريخياً (١٠) و بالتالى فهذا حدث غير مسبوq بالمرّة في تاريخ القاهرة القريب .

ويمكن القول أن التجار لعبوا دوراً مهماً في ثورة القاهرة الثانية (١١) فمنهم من قدم المال ، و منهم من قدم السلاح و المال ، و منهم من كان من أكبر الدعاة للثورة و المحرضين عليها أمثال الحاج مصطفى البشتيلي الذى تزعم الثورة منذ بدايتها فى بولاق يوم من ٢٠ مارس ، و فى ذلك يقول الجبرتى " وأما بولاق فإنها قامت على ساق و تهور فى ذلك و تشدد الحاج مصطفى البشتيلي ، و هيج العامة فأخذوا الأسلحة و العصى و النباييت ، و ذهبوا إلى وطاق (١٢) الفرنسيس الذى تركوه بساحل البحر (النيل) و عنده جماعة منهم للحرس ، فقتل من أركه أهل بولاق منهم ، و فر من فر و نهبوا ما فيه من الخيام و المتاع و غيره ، و رجعوا إلى البلد ، و فتحوا مخازن الغلال و الودائع التى للفرنسيس ، و أخذوا ما أحبوا منها ، و عملوا كرانك حول البلد و متاريس ، و استعدوا للحرب ، و الجهاد " (١٣) و واضح من عرض الجبرتى وصفه لمصطفى البشتيلي بالتهور و التشدد و دوره فى قيادة العامة للهجوم على الحامية الفرنسية فى بولاق ، و هذا الوصف يتفق مع طبيعة البشتيلي الذى كان من أكبر الدعاة للثورة و المحرضين عليها ، و كان يتمنطق فى وسطه بحزام ، و يتنقل من مكان إلى آخر ليقوى عزائم المحاربين و يجمعهم و يوجههم للحرب (١٤) . و هكذا يمكن القول بأن التجار قد لعبوا دوراً مهماً فى ثورة القاهرة الثانية ، و لكن ماذا عن دور الصناع و أرباب الحرف ؟

قام الصناع و أرباب الحرف بدورهم فى هذة الثورة ، و صور الجبرتى ذلك بقوله " وأنشأ عثمان كتحدا معملاً ببيت قائد أغا بخط الخرنفش (١٥) و أحضر القندقية * و العربية و الحدادين و السباكين ، لإنشاء مدافع و بنبات ، و إصلاح المدافع التى وجدوها فى بعض البيوت ، و عمل العجل والعربات والجلال و غير ذلك من المهامات الجزئية ، و أحضروا لهم ما يحتاجون إليه من

الأخشاب و فروع الأشجار و الحديد ، و جمعوا إلى ذلك الحدادين و النجارين و السباكين و أرباب الصنائع الذين يعرفون ذلك ، فصار هذا كله يصنع ببيت القاضى و الخان الذى بجانبه و الرحبة التى عند بيت القاضى من جهة المشهد الحسينى و اهتم لذلك اهتماماً زائداً ، و أنفق اموالاً جمة و أرسلوا فأحضروا باقى المدافع الكائنة بالمطرية " (١٤) .

و واضح من العرض السابق أن الثوار قد استعانوا بالحدادين فى صنع القنابل و تشغيل المدافع، و جدير بالذكر أن الصناع و أرباب الحرف قد قاموا بمساعدة الثوار فى انشاء مصنع للبارود بالخرنفس ، و آخر لإصلاح الأسلحة و المدافع و ثالثاً لصنع القنابل و صب المدافع من الحديد الذى جمعه من المساجد و الحوانيت ، و تطوع الصناع للعمل فى هذه المصانع و قدموا ما لديهم من الحديد و الآلات و الموازين ، و أخذوا يجمعون القنابل التى تتساقط من المدافع الفرنسية فى الشوارع و يستعملونها قذائف جديدة يطلقونها على الفرنسيين ، و تم كل ذلك بمساعدة الصناع من الحدادين و النجارين و السباكين و أرباب الصنائع الأخرى (١٥)

و تؤكد المصادر الفرنسية المعاصرة على هذه الحقائق حيث ذكر مسيو مارتان أحد مهندسى الحملة و كان شاهد عيان لتلك الثورة ((لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل ، فقد صنعوا البارود ، و صنعوا القنابل من حديد المساجد و أدوات الصناع ، و فعلوا ما يصعب تصديقه - و ما راء كمن سمع - ذلك أنهم صنعوا المدافع (١٦))) و قال الجنرال كليبر فى يومياته ((استخرج الأعداء مدافع كانت مطمورة فى الأرض ، و أنشأوا معامل للبارود و مصانع لصب المدافع و عمل القنابل و أبدوا فى كل ناحية من النشاط ما أوحى به الحماسة و العصبية ، هذه هي بوجه عام حالة القاهرة عند قدومى إليها، و إنى لم أكن أتصورها على هذه الدرجة من الخطورة)) (١٧)

و كذلك فان " فريان " يرسم اللوحة نفسها لنشاط محموم شارك فيه جميع السكان حيث يقول " لقد أبدى جميع السكان نشاطاً لا يمكن توفيره فى هذا البلد إلا عن طريق الدين وحده ، لقد أقاموا مصانع للبارود و توصلوا إلى صنع قنابل من حديد المساجد أو المطارق أو الآلات التى سارع الحرفيون الى تقديمها ، و بما أنهم لم يجدوا (قنابل و قذائف) من عيار هذه المدافع ، فقد اتجهوا إلى صنع هاونات و مدافع ، بما يشكل صناعة غير عادية فى هذا البلد ، و قد نجحوا فى ذلك " (١٨) .

و يعلق أندريه ريمون على ذلك قائلاً ((ويمكننا أن نتصور دهشة
العسكريين الفرنسيين الذين اكتشفوا ، بعد انتهاء التمرد مدفعين جرى سبكهما
مؤخراً لإعادة إطلاق قنابلهم و مدفعاً مركباً على ركانز جديدة محلية الصنع ولم
يكن من شأن هذه الاستماتة الوطنية إلا أن تعيد إلى أذهان جنود الثورة الفرنسية
ذكريات العام الثاني للجمهورية^(١٩))) .

و يذكر البعض " تم كل ذلك فى ثلاثة أيام^(٢٠) " وهكذا نرى أن مصر
قد طرقت أبواب الصناعة من خلال قتالها ضد الاستعمار الغربى لا من خلال
الرضوخ له أو التعاون معه^(٢١) .

ومن العرض السابق يتضح أن طوائف الحرف لعبت دوراً مهماً فى
ثورة القاهرة الثانية ، و أنها عملت نهاراً و ليلاً لأجل القضاء على الفرنسيين ،
ومما لا شك فيه أن الحرفيين قد تأثروا إبان الثورة ، حيث أدت الثورة إلى وقف
حالهم من جراء اغلاق الحوانيت^(٢٢) و الطوايين و المخازين ، ووقف حال الناس
من البيع و الشراء ، و ليت الأمر اقتصر على ذلك بل تعرضوا أيضاً بعد نهاية
الثورة إلى مزيد من الغرامات الفادحة ، حيث فرض كليبر على سكان القاهرة
ضريبة استثنائية باهظة ، و تم تكليف المعلم يعقوب بجبايتها^(٢٣) . و لاشك فى
أن هذه الغرامات أدت إلى إرهاب الحرفيين و التجار^(٢٤) .

ورغم كل هذه الأزمات فإن دور الحرفيين لم ينته بل ظل متواجداً على
الساحة السياسية بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر ، حيث نلاحظ أن
طوائف الحرف كان لها دور فى تولية محمد على ، و من القيادات الحرفية
البارزة نذكر حجاج الخضرى الذى كان شيخاً لطائفة الخضرية بحى الرملة
(الرفاعى) و كان أحد شخصيات الحى المرموقين ، و كذلك " ابن شمعة " شيخ
الجزارين ، حيث ركب كل منهما فى موكب النصر الذى ذهب يوم الاثنين ٩
من يوليو ١٨٠٥ لاستقبال القابجى (الرسول) الذى يحمل أمر تولية محمد على
و الياً للقاهرة^(٢٥) ، ولأول مرة منذ قرون أصبحت القوى الشعبية فى القاهرة
هى التى تصنع التاريخ بعد أن كانت هى التى تعاني من أحداثه .

الهوامش

(١) لمزيد من التفصيل عن معركة إمبابية أو الأهرام أنظر . نبيل السيد الطوخى . صعيد
مصر فى عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١ . الطبعة الأولى . الهيئة المصرية العامة

للكتاب ١٩٩٧ ص ١١٣-١١٩ .

(٢) عبد الرحمن الجبرتي . عجائب الآثار فى التراجم و الخبر ، الجزء الثالث ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الهيئة العامة لدار الكتب و الوثائق القومية مركز وثائق و تاريخ مصر المعاصر مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٩٨ . ص ٨

• ' العامة ' هم الذين شكلوا المستودع الأكثر غليانا للحركات الشعبية ، كما يتضح ذلك جيدا فى العقود الأخيرة للقرن الثامن عشر و خلال فترة الإحتلال الفرنسى القصيرة و فى الأعوام الأولى للقرن التاسع عشر ، ومن الصعب التوصل الى تعريف دقيق لهذه الفئة الضخمة من السكان الحضريين لأنها ترتبط من ناحية بعالم الحرف الذى يستوعب شرائحها الأكثر بؤسا و ترتبط من ناحية أخرى بعالم محروم و هامشى و متمرد يبدو أنه يفلت من كل تحليل إجتماعى - إقتصادى دقيق . نقلا عن أندريه ريمون . المصريون و الفرنسيون فى القاهرة ١٧٩٨-١٨٠١ ، ترجمة بشير السباعى - الطبعة الأولى . عين للدراسات و البحوث الأنسانية و الإجتماعية ، القاهرة ٢٠٠١ . ص ٥٠

• من الملاحظ أن غالبية هذه الكلمات كانت قد استخدمت بالفعل لوصف الجماعات الشعبية التى عرفت نشاطا عظيما فى أواخر العصر المملوكى ، حيث كانت كلمة الزعر آنذاك هي الأوفر استخداما بكثير و هذه الألفاظ الفظة إنما تترجم بشكل بالغ الدقة شعور التفرز لدى كتاب الأخبار المنتمين إلى البورجوازية حيال جماعة سكانية فقيرة كانت تظاهراتها مصحوبة بأعمال العنف . لمزيد من التفصيل أنظر أندريه ريمون . المرجع السابق . ص ٥٣ و ما بعدها

(٣) السيد رجب حراز . المدخل الى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى الى الإحتلال البريطانى . ١٥١٧ - ١٨٨٢ دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٧٠ . ص ١٢١ . وجدير بالذكر ان عوامل هامة هي التى أثارت حقن هذه الطبقات الشعبية و حركتهم ضد الإحتلال الفرنسى ، و تذكر المصادر المعاصرة أن السبب المباشر لاشتعال ثورة القاهرة الأولى هو تلك الضرائب الجديدة التى أمر بونابرت فى أكتوبر ١٧٩٨ (وأقرها الديوان العام فى ٢٠ من أكتوبر) بفرضها على الأملاك و المباني كالحمامات و الخانات و الحوانيت و المقاهى و طسواحين الغلال و المعاصر و السيارات و البيوت ، و يمكن القول بأن رأى العام كان مهينا للثورة و جاءت مسألة الضرائب لتكون سببا مباشرا لاندلاعها . لمزيد من التفصيل أنظر عبد الرحمن الجبرتي . المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ٤١ ، د. جاد طه . موقف الجبرتي من ثورات القاهرة . منشور فى عبد الرحمن الجبرتي . دراسات و بحوث بإشراف أحمد عزت عبد الكريم . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ . ص ٣٢٩ ، ٣٣٠

(٤) سجل نابليون فى مذكراته أنه كانت هناك ' لجنة للثورة ' تنظم شئونها ، و تجمع المتطوعين ، و تسلحهم و أن الشيخ السادات كان رئيس هذه اللجنة ، كما ذكر فى تقرير له أن هذه اللجنة كانت تجتمع فى الأزهر أنظر . محمود الشرقاوى . الجبرتي و كفاح الشعب كتاب الهلال العدد ١٨٤ . يوليو ١٩٦٦ . ص ٦٨ .

(٥) عبد العزيز محمد الشناوى . صور من دور الأزهر فى مقاومة الإحتلال الفرنسى ، مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧٠ . ص ١٠٢ .

(٦) المرجع نفسه . ص ١١٦ .

(٧) محمود الشرقاوى . المرجع السابق . ص ١١١

• كان رئيس طائفة التجار و شيخهم هو عادة أغناهم و عرف فى القاهرة بلقب شاه بندر التجار و لعل أشهر من تولى هذا المنصب السيد أحمد المحروقى ، وذكر الجبرتى عنه أنه ' عين الأعيان و نادرة الزمان شاه بندر التجار ، و المرتقى الى سنام الفخار ، النبيه النجيب ، والحسيب النسيب السيد أحمد بن أحمد الشهير بالمحروقى الحريرى ثم يذكر الجبرتى أنه ' صار بمنزلة شيخ البلد بل أعظم ، و نفذت أوامره فى الإقليم المصري و الرومي و الحجازى و الشامى ، و أدرك من العز و الجاه و العظمة مالم يتفق لأمثاله من أولاد البلد ' و توفى السيد احمد المحروقى فى ليلة الأحد الموافق ٢٢ شعبان ١٢١٩ هـ (٢٦ نوفمبر ١٨٠٤ م) لمزيد من التفصيل عن ترجمة السيد احمد المحروقى أنظر . الجبرتى . المصدر السابق . الجزء الثالث ص ٥١٠-٥١٥ ، على مبارك. الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة و مدنها و بلادها القديمة و الشهيرة . الجزء الثالث ، طبعة مصورة عن الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٩٧٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ ، ص ١٨٤-١٨٧

(٨) الجبرتى المصدر السابق . الجزء الثالث . ص ١٥٨ ، حكمت أبو زيد . المجتمع القاهرى فى عصر الحملة الفرنسية كما صورة الجبرتى . منشور فى عبد الرحمن الجبرتى دراسات وبحوث بأشراف احمد عزت عبدالكريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ . ص ٣٥١ .

• كان السيد عمر مكرم نقيباً للأشراف فى مصر قبل مجيء الحملة الفرنسية ، فلما جاء الفرنسيون ظهرت شخصيته الكبيرة ونفسيته القوية بما دعا الشعب اليه من التطوع للقتال ، وما بثه فى نفوس الجماهير من روح المقاومة ، وكان فى طبيعة المتطوعين للقتال المدافعين عن القاهرة فى وجه الإحتلال الفرنسى ، كما أنه لعب دوراً مهماً فى ثورة القاهرة الثانية ، فكان روح الثورة وقلبيها النابض ، لا تقتله حركة ولا يخفت له صوت . لمزيد من التفصيل عن هذا الدور ، أنظر . محمد فريد أبو حديد . زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم . كتاب الهلال عدد رقم ٧ ، دار الهلال بمصر ، ديسمبر ١٩٥١ . ص ٨٣ وما بعدها ، عبد العزيز محمد الشناوى . عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية . سلسلة اعلام العرب عدد رقم ٦٧ . دار الكتاب العربى للطبع والنشر يوليو ١٩٦٧ . ص ٦٧ وما بعدها .

• تجدر الإشارة إلى أن التجار لم ينفردوا بتقديم الدعم المالى للمقاتلين ، بل إننا نلاحظ أن الناس على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية قد قدموا كل ما يملكون من أجل نصرة الوطن والدين. انظر الجبرتى . المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ١٥٨ ، جاد طه . المرجع السابق . ص ص ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٩) أندريه ريمون . المرجع السابق . ص ١٧٢

(*) الحاج مصطفى البشتيلى نشأ فى قرية ' بشتيل' وهى احدى قرى مركز إمبابة محافظة الجيزة وتبعد عن شاطئ النيل

من جهة إمبابة بحولى ثلاثة كيلو مترات من ناحية الغرب ، واشتغل بالتجارة فى بولاق حتى أصبح من أعيانها

وكبار تجار الزيت فيها ، وقد تكلم عنه الجبرتى لمناسبة اعتقاله قبل حوادث ثورة القاهرة الثانية بعده أشهر ، فذكر

أن الفرنسيين اعتقلوه ثانى ربيع الأول من سنة ١٢١٤ هـ (٤ أغسطس ١٧٩٩ م) لما بلغهم من بعض الوشاه أن

بوكانته قدروا مملوءة باروداً ، ففتشوا الوكاله ووجدوا البارود فى القُدور ، فضبطوها ،
وقبضوا عليه ثم نقلوه الى
القلعة ، ولم يذكر الجبرتى متى أفرجوا عنه قبل نشوب الثورة ، وظاهر من منطق
الحوادث أنهم أطلقوا سراحه
بعد ابرام معاهدة المريش (٢٤ يناير منه ١٨٠٠) لما عزموا على الجلاء فلما نقضت
المعاهدة وتجددت الحرب
كان البشتيلى من دعاه الثورة فى بولاق . لمزيد من التفصيل انظر . عبدالرحمن
الجبرتى . مظهر التقديس بزوال
دولة الفرنسيين . تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، دار الكتب والوثائق
القومية ، مركز وثائق
وتاريخ مصر المعاصر ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٩٩٨ . ص ١٤٩ ، محمود
الشرقاوى . المرجع السابق ، ص ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، عبدالرحمن الراقى . تاريخ
الحركة القومية وتطور نظام
الحكم فى مصر ، الجزء الثانى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٨١ ، ص ١٥٠ ،
عبد العزيز عبد الظاهر ،
عزت عبد المنعم غنام . مصطفى البشتيلى ١٧٩٨-١٨٠٠ . مراجعة . عاصم
الدسوقى ، مطبعة جامعة
القاهرة عام ٢٠٠٠ ، ص ٦

(١٠) أندريه ريمون . المرجع السابق . ص ١٧٢ .

(١١) كان الفرنسيون يستعدون للجلاء عن مصر بعد عقد معاهدة المريش ، لكن حدثت بعد
ذلك مفاجآت أدت إلى نقض المعاهدة من جانب الأنجليز ، وبالتالي لم يجد كليبر مفرأ من
وقف عملية الجلاء ، ثم أسرع فى صبيحة يوم ٢٠ مارس ١٨٠٠ بالزحف على رأس جيشه
لوقف تقدم العثمانيين ، الذين وصلت طلائعهم إلى المطرية على مسافة ساعتين من القاهرة ،
فوقعت معركة عين شمس ، وفى هذه الأثناء كانت الثورة قد اشتعلت فى القاهرة فى يوم
المعركة نفسه أى فى ٢٠ مارس ، فقد سبب سماع صوت المدافع القريب هياج أهل القاهرة .
لمزيد من التفصيل عن ثورة القاهرة الثانية . انظر عبدالرحمن الجبرتى . عجائب الآثار فى
التراجم والأخبار ، الجزء الثالث ، ص ١٥٣ وما بعدها . محمد فؤاد شكرى . الحملة
الفرنسية وظهور محمد على ، مطبعة المعارف ومكنتها بمصر ، دون تاريخ . ص ٣٣٣ ،
عبدالرحمن الراقى . المرجع السابق ج ٢ ، ص ١٤٩ وما بعدها ، وجيه على أبو حمزة .
القاهرة فى عصر الحملة الفرنسية . رسالة ماجستير غير منشورة ، بقسم التاريخ . كلية
الآداب جامعة المنيا عام ١٩٨١ ، ص ٢٢٧ وما بعدها ، د . عصام محمد شبارو . المقاومة
الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسى والغزو البريطانى . دار التضامن للطباعة والنشر
والتوزيع ، بيروت ١٩٩٢ ، ص ٨٤ وما بعدها .

• الوطاق : فى التركية أوتاق وأوتاغ ، وأوطاق ، والأطاق فى التركية اسم للخيمة الكبيرة
المزخرفة تعد للعظماء ، والوطاق فى العربية هو الخيمة والمعسكر المكون من خيام ، لمزيد
من التفصيل انظر أحمد السعيد سليمان . تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، دار

المعارف ١٩٧٩ . ص ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

- (١٢) عبدالرحمن الجبرتي . مظهر التقديس بزوال دوله الفرنسييس . ص ١٧٦ .
- (١٣) محمود الشرقاوى . المرجع السابق . ص ١٦٣ . وتذكر المصادر المعاصره أن الفرنسيين نجحوا فى القبض على مصطفى البشتيلى رئيس الثوار وطلبوا من أتباعه أن يقتلوه " فطافوا به بولاق ، ثم قتلوه بالنابيت " خضوعا لقوة الفرنسيين وجبروتهم . أنظر الجبرتي ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ ، ويبدو أنهم أرادوا بذلك أن يكون عبءة للمصريين حتى يتوقفوا عن المقاومة لكنه أصبح مثالا يحتذى به فى البطولة والفداء والتضحية من أجل الوطن .
- خط الخرنفش : منطقة قريبه من شارع المعز لدين الله وهى منطقة عامرة .
 - القندقية : من الكلمة التركية "قونداق" وهى بمعنى القماط وكعب البندقية ، ألحقت بها (جى) اذاه النسب إلى الصنعة والقندجى هو بائع الأسلحة . لمزيد من التفصيل أنظر أحمد السعيد سليمان . المرجع السابق . ص ١٧٣ .
- (١٤) عبدالرحمن الجبرتي . عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجزء الثالث . حوادث شهر شوال سنة ١٢١٤ هـ

ص ١٥٧

- (١٥) عبدالرحمن الراقى . المرجع السابق . ج ٢ ص ١٥٤ ، د. السيد رجب حراز . المرجع السابق . ص ١٤٠ ، عصام محمد شبارو . المرجع السابق . ص ص ٨٤ ، ٨٥ .
- (١٦) نقلا عن عبدالرحمن الراقى . المرجع السابق . ج ٢ . ص ١٥٤ .
- (١٧) نقلا عن المرجع نفسه . ص ١٥٤ .
- (١٨) نقلا عن أندريه ريمون . المرجع السابق . ص ١٧٥ .
- (١٩) نفس المرجع . ص ١٧٥ .
- (٢٠) عبدالرحمن الراقى ، المرجع السابق ج ٢ . ص ١٥٤ .
- (٢١) محمد جلال كشك . ودخلت الخيل الأزهر . دار المعارف ١٩٧٨ . ص ٣٣٠ .
- (٢٢) نبيل السيد الطوخى . طوائف الحرف فى مدينة القاهرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (١٨٤١ - ١٨٩٠) رسالة دكتوراه غير منشورة بقسم التاريخ - كلية الآداب جامعة المنيا عام ٢٠٠١ . ص ١٣

(23) Henery Laurens et Autres, l'Expedition D'Egypte 1798 - 1801, Armand Colin, Paris 1989 . p. 267 .

- (٢٤) لمزيد من التفصيل أنظر . نبيل السيد الطوخى . المرجع السابق ص ص ١٣ ، ١٤ .
- (٢٥) محمود الشرقاوى . المرجع السابق . ص ١٤٣ وما بعدها ، أندريه ريمون . فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية . ترجمة زهير الشايب . كتاب روز اليوسف ، العدد السابع عشر القاهرة يوليو ١٩٧٤ . ص ٢٩٦ .

الفصل الثالث

انتفاضة عبد القادر ود حبوبة ١٩٠٨

قراءة جديدة

عبد الرحمن عوض (*)

قارم السودانيون الاحتلال الإنجليزي ١٨٨٢-١٩٥٦ ما وسعهم من مقاومة، وبعد انهيار الدولة المهديّة بمقتل الخليفة عبد الله التعايشي وكبار قاداته ومعاونيه في أم دبيكرات ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م استطاع الأنصار أن يقاوموا الحكم الثنائي لنصف قرن، فقد اندلعت عدة ثورات شعبية في مناطق مختلفة في السودان ، كان من أخطرها انتفاضة عبد القادر ود حبوبة في ١٩٠٨ . و أقول انتفاضة ولا أقول حركة أو ثورة ، لأنها جاءت وليدة ضغوط محلية طارئة في المنطقة فهب البطل عبد القادر ود حبوبة منتفضاً .

قامت الانتفاضة في منطقة مجلس ريفي المحيربيا (مساحتها كانت أقل من ٤٥٠ ميلا مربعا) بالقرب من الكاملين بأرض الجزيرة مديرية النيل الأزرق .

كان والد عبد القادر ، محمد أمام إدريس حبوبة (حبوبة أي الجدة) شيخاً للمنطقة وزعيماً لقبيلة الحلاوين (مفردها حلاوى) في العهد التركي . كان يمتلك أراض واسعة بالقرب من المسلمية منذ كان ناظراً لقبيلة الحلاوين (الحلاوين إحدى البطون الكبيرة من قبيلة جهينة من كبرى القبائل العربية في السودان).

تعرف عبد القادر ود حبوبة على الإمام المهدي ، حينما كان المهدي يبني قبة لأستاذه القرشي الزين في المنطقة الحلاوين (بين المسلمية والكاملين) فكان عبد القادر من بناء هذه القبة ١٨٨٠م (يبدو انه كان شاباً دون الثلاثين من عمره).

ولما قامت الثورة المهديّة ١٨٨١-١٨٨٥ م كان عبد القادر من أوائل

(*) باحث في تاريخ وادى النيل.

من أيدها ، واتصل بالمهدى وبايعه على الجهاد والوقوف معه بصلاية. (١)

وقد حضر عبد القادر، معارك المهديّة - جميعها - ما عدا كررى - وحارب في تلك المعارك بجسارة ، وبعد وفاة المهدي (٢٢ يونية ١٨٨٥ م) الذي جعل عبد القادر واحداً من المقربين عنده - لإخلائه له والثورة المهديّة والدولة فإنه ظل على هذه الحال في عهد التعايشي خليفة المهدي ، الذي أصبح صهراً له (٢) .

لم يشترك عبد القادر ود حبوبة في معركة كررى ٤ سبتمبر ١٨٩٨ ، ربما لأن الخليفة التعايشي رأى أنه رجل المهمات الصعبة ؛ إذ أرسله إلى الجزيرة لحث أهلها على الجهاد وجمع المؤن لجيش الأنصار . وعقب موقعة كررى سجن عبد القادر مدة قصيرة و أطلق سراحه ، بعدها عاد إلى المسلمية. (٣) ربما كان سجنه لتحريضه على الجهاد .

عندما أرسل الخليفة عبد الله التعايشي حملته إلى مصر بقيادة عبد الرحمن النجومي ، كان عبد القادر من كبار القادة في الحملة ١٨٨٩ م ، وبعد أن وقع في الأسر ، استطاع النجاة هو وشقيقاه بمساعدة تاجر قبطي يدعى "بطرس" من أصدقاء والدهم أما والدتهم فقد ماتت في موقعة توشكى (٣) أغسطس ١٨٨٩م) (٤) .

ويبدو أن عبد القادر ود حبوبة قد أعاد تريب أوراقه بعد موقعة توشكى، التي كاد أن يهلك فيها .

أسباب الانتفاضة : تعزو نوال عبد العزيز مهدي - استناداً إلى المؤرخ السوداني ضرار صالح ضرار - في تاريخه - أسباب الثورة عند ود حبوبة إلى ظلم الحكم في تسوية أرضه و إعطائه أقل مما يستحق . (٥) إلا أننا نختلف مع وجهة النظر هذه ، التي توعد إلى الأسباب الشخصية أكثر منها إلى أسباب أخرى .

فقد كان المؤرخ السوداني د. مكي شبيكة في مختصره أكثر دقة وموضوعية ، حينما عزا الثورة لدى ود حبوبة إلى أسباب فكرية حيث يقول : " وعبد القادر من أولئك الأنصار الذين لم يعترفوا بالفتح (أي بالحكم الثنائي ١٨٩٩ - ١٩٥٦ م) وما أراد أن يغير نهج حياته المرتكزة على بيعته للإمام المهدي . وفي هذا خالف بقية إخوانه وبنى عمه لأنهم رضوا بالأمر الواقع ، وأرادوا أن ينتهبوا لمزارعهم والعيش في أمان تحت ظل الحكومة " (٦).

فالثائر ود حبوبة متشبع بالمهدية حتى النخاع ، ومن الناشطين لبعثها في النفوس بعد زوالها ورغم أنه كان واحداً من الذين شهدوا الثورة المهدية والدولة والانهيـار ، وخاض كل معارك المهدية ما عدا كرري ، إلا أنه الوحيد من المحاربين القدماء الذي قاوم الاستعمار الإنجليزي ورفع راية الثورة التي لم تستكمل بانتفاضته المشهورة في ١٩٠٨ م في منطقة الكاملين .

وحيثما أرادت الحكومة أن تقيم مشروع زراعة القطن في منطقة الحلاوين، شعر ود حبوبة بان الحكومة ظلمته في تسوية أرضه، بعد أن ذاق من مرارتها السجن والأسر والاعتقال، ولم يفهم الإنجليز نفسية هذا المحارب المخلص للمهدية، ولم يستطع المأمور المصري قراءة الماضي ليتعامل مع هذه الشرارة بالحذر والكياسة المطلوبين. وظنت الحكومة أن عبد القادر يريد جاهاً أو سلطان، وأنه حائق لانتقال نظارة الخط من آل حبوب إلى آل مساعد، وإنها من عوامل ثورته، فلو فعلت الحكومة شيئاً من الكياسة لتغيرت موازين الأحداث. فسخر عبد القادر من مزاعمهم، وقال انه يثور لله وانه سيموت فداء لله. (٧)

فعدما شعر عبد القادر بنوايا الحكومة ، رحل من منطقة " الرواكيب " الواقعة أمام المحيريبا إلى منطقة " التقر " (٨) وحلف صادقاً أن يقتل أي مستعمر يأتيه فيها ، تحدياً للمستعمر وتشجيعاً للسودانيين على الثورة . وقد حاول بعض زعماء المنطقة أن يثنوه عن عزمه ، خوفاً من أن يؤدي هذا العمل إلى كارثة ، مثل كارثة " عبد الله ود سعد" بمنطقة الجعليين (يقصد بها واقعة المئمة ١ يوليو ١٨٩٧ م التي انتفض فيها عبد الله ود سعد على الخليفة التعايشي ، فقتل فيها ود سعد ونحو ألفين من أتباعه في مجزرة تاريخيه مشهورة) . لكن عبد القادر كان مصراً على رأيه. (٩)

وعندما علمت الحكومة بنشاط عبد القادر ود حبوبة ، حاول البيوزباشي محمد أفندي شريف مأمور المسلمية التفاهم مع عبد القادر ورجاله ، عن طريق عدة خطابات واعطائهم الأمان ، إلا أن عبد القادر كان يعلم أساليب الحكومة ونواياها بحكم خبرته وتجاربه الطويلة منذ المهدية ، ورد على خطابات المأمور بخطابين رقيقين. (١٠)

عالجت الحكومة الثنائية الموقف بطريقة سكب " البنزين " على النار؛ إذ أرسلت حملة لإخضاعه بقيادة مونكريف مساعد مفتش رفاة ، وبعد سلسله من

الأخطاء الفادحة للحملة ، منها غطرسة مونكريف وسوء تقديره للموقف ، إذ سب المأمور المصري وشمته في تلك الأوقات العصيبة ، وبعدها توجه مونكريف والمأمور معهما الجنود إلى المنزل الذي يتواجد فيه عبد القادر ود حبوبة ، كان المأمور المصري يخاطبه في البداية في لين شديد : أنه سيحقق له أي مطالب شخصية يريدتها ، مما كان لهذه " الرشوة " أثرها في نفسية محارب قدير . فرد عليه عبد القادر في سخرية مريرة : يالرخيس ، ظلمتني كثير وعارفك بتخدع في ، وغايته بعدده أنا زهدت في أي حاجة وكفاية العرايض اللي رفعتها ليك يالرخيس . فلم يتمالك المأمور المصري نفسه فقال عبد القادر في حدة : " أنت لا تساوي شيئاً ويمكنني القضاء عليك بعدة طلقات إن أردنا ذلك" ، فهجم عبد القادر عليه وطعنه طعنة قاتله ، فصرخ المأمور صرخة أخرجت رجال عبد القادر من مكانهم ، فانقص أحد أتباعه على المفتش الإنجليزي وقتله . فنارت ثائرة الحكومة فأرسلت عدة أورط منها واحدة بقيادة مكوين بك (أورط ٣) للقضاء على هذه الانتفاضة حتى استطاع الجنرال ديكنسون السيطرة على شرارة الثورة . (١١) .

و حينما حاول عبد القادر ود حبوبة التخفي عن أعين الحكومة التي رصدت جائزة كبيرة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، طمع أحد الرعاة - من غير أبناء المنطقة - في الجائزة ، فقتله ود حبوبة ، فتكالب عليه أهل القتل في أعداد كبيرة من الرعاة ، و أحاطوا بعبد القادر ، وبعد لأي شديد ألقوا القبض عليه وساقوه لمركز الكاملين لتسليمه إلى الحكومة (١٢) .

بعدها أعدمت الحكومة عبد القادر ود حبوبة وبعض رفاقه في ١٧ مايو ١٩٠٨ م وصادرت ممتلكاتهم (خفف عن البعض الحكم لوساطة السيد الإمام عبد الرحمن المهدي ١٨٨٥ - ١٩٥٩ م) بعدها قامت وزارة الخارجية البريطانية بالعدول عن قتل الذين لم يشتركوا في قتل المأمور المصري والمفتش (المساعد) وذلك خوفاً من ثورة الرأي العام البريطاني . (١٣) (بلغ من جبن المستعمر أنه سجن أولاد ود حبوبة وهم في سن الصبا !)

نتائج انتفاضة ود حبوبة : لاشك أن الانتفاضة أكدت أن روح المهدي لم تخمد في النفوس - خاصة نفوس الأنصار - الذين أيدوا انتفاضة ود حبوبة تأييداً كبيراً دون الجهر به . لعل موقف الإمام عبد الرحمن المهدي يعطينا مؤشراً لتلك المستجدات عند تعليقة على ثورة ود حبوبة قائلاً : ... وعاش حياته عامرة بمعاني المهدي ... مستكراً للحكم الجديد ، وقد التف حوله عدد من الأتباع ،

وعندما هبت الحكومة لقمع هذا النشاط ، شب القتال بين الأنصار بقيادة ود حبوبة وجنود الحكومة . وبعد ضياع في الأموال والأنفس انتصرت قوات الحكومة وشنق عبد القادر ود حبوبة ... (١٤) .

ورغماً عما في بيان الإمام عبد الرحمن المهدي من تحسر على ثورة ود حبوبة تصل إلى حد الإدانة (بدافع التقيّة أكثر منها بالنيات) فإنه آثر ألا يغضب السلطات الإنجليزية وألا يثير أتباعه الأنصار ، ولعلنا نتعجب من قول ونجت باشا الحاكم العام للسودان ١٩٠٠ - ١٩١٦ م : أن المهديّة لم تمت بل خنقت واستعاود الظهور متى ما سنحت لها الفرصة . (١٥) قياساً على التتديد الضمني للإمام عبد الرحمن المهدي!

كانت هذه الانتفاضة درساً للحكومة الإنجليزية في السودان ، التي كانت تتوجس خيفة من مجرد قراءة " راتب المهدي " وعبرة لبعض قوى الأنصار من فئة المحاربين القدماء من أصحاب الإمام المهدي ، الذين لم يعوا جيداً الظروف الجديدة في ميزان القوى . وإن كان من النتائج الإيجابية لهذه الانتفاضة على المدى المستقبلي ، مهادنة الاستعمار الإنجليزي للقوى الوطنية خاصة الأنصار عقب اندلاع الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ م (١٦) .

أما صداها في مصر ، فقد كثفت الصحافة حملتها بالتتديد بالاستعمار الإنجليزي ، و أعادت إلى الأذهان حادثة دنشواي ١٩٠٦ م ، حتى أطلق عليها الشيخ عبد العزيز جاويش ١٨٧٦ - ١٩٢٩ م (دنشواي السودان) وان كانت بعض الحملات الصحفية قد تبادت في الأمر بعد توتر العلاقات بين السلطات البريطانية في القاهرة والخرطوم (كرומר - ونجت) وفرض الحكومة إعادة العمل بقانون المطبوعات القديم (الرقابة) فبدلاً من متابعة الموقف في السودان ، غرقت الصحافة المصرية في مناقشة حرية الصحافة ، ودماء السودانيين الذي أعدموا لم تجف بعد !

لقد برهنت انتفاضة عبد القادر ود حبوبة على أن ورح المقاومة لا يمكن كسرها بالعنف والبطش . وان الشعوب قادرة على التصدي للمستعمر مهما كلفها الأمر من تضحيات . ما أغلى نيل الاستقلال .

الهوامش

(١) حركة ود حبوبة ١٩٠٨ - نوال عبدالعزيز مهدي - القاهرة - ١٩٨٤ م ص ١٠

(٢) المرجع السابق ص ١٣ .

- (٣) تاريخ السودان الحديث - حسن احمد ابراهيم - ص ١١٣ .
- (٤) المرجع السابق ص ٨٣ .
- (٥) حركة ود حيوية - نوال المهدي - ص ١٥ .
- (٦) مختصر تاريخ السودان الحديث - د. مكي شببكا - دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٥ ص ١٣٤ .
- (٧) نوال مهدي - ص ١٥ .
- (٨) التقر ، بضم التاء والقاف ، لعلها نوبية الأصل ، وهي تعنى الأرض السفلى .
- (٩) نوال مهدي - ص ١٦ .
- (١٠) المرجع السابق ص ١٦ .
- (١١) نوال مهدي - ص ١٩ .
- (١٢) المرجع السابق ص ٢٠ .
- (١٣) حسن احمد ابراهيم - ص ١١٣ .
- (١٤) الإمام عبد الرحمن المهدي - يوسف فضل حسن ، و محمد ابراهيم أبو سليم - مكتبة مدبولي القاهرة - ٢٠٠٢ ص ٧ .
- (١٥) المصدر - السابق - ص ٦ .
- (١٦) حسن أحمد ابراهيم - ص ١١٤ .

الفصل الرابع

الثورة العربية عام ١٩١٦م

وثارها الاقتصادية والاجتماعية لبعض العشائر

عبدالعليم أبو هيكل^(*)

منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي بدأت الدولة العثمانية والعرب فى آن واحد البحث عن سبل لإصلاح أحوالهم وتقوية أوضاعهم سواء بالتكاتف فيما بينهم، أو كل باجتهاد أحادى ذاتى منفرد وسط موجات الضغط والزحف الغربى المتلاحق وعلى كافة المستويات الثقافية والاقتصادية والسياسية.

بلغ الانسجام مداه بين العثمانيين والعرب عقب تولى السلطان عبد الحميد مقاليد الدولة، وطرحه قضية الخلافة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر كسبيل لتحقيق أهداف المواجهة ضد الغرب والتصدى له، إلا أن هذه المحاولة حملت فى طياتها وفى ذات الوقت آراءً متعددة بين أعراق الدولة العثمانية الرئيسة (الأتراك، العرب) بل داخل كل عرق أيضاً.

عقب عزل السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٩٠٨م، حسم رجال الاتحاد والترقى إشكالية العلاقة بين الأتراك والعرب عندما أعلنوا صراحة انفرادهم بقيادة الدولة باعتبارهم ورثة الحكم والأحق به منذ القرن الخامس عشر^(١)، ومن ثم بدا أن الفريقين قد افترقا فى طريقيهما. وعلى كل منهما البحث عن الكيفية التى يستطيع بها تحقيق طموحه.

أنت هذه التطلعات فى فترة حرجة عالمياً، لم يكن فيه مصير الشرق الأوسط تقرره فقط أطرافه الإقليمية، بل أضحي هدفاً للاقتناص من قبل القوى الأعظم وقتئذ (بريطانيا، فرنسا) على وجه الخصوص واللذان سارتا خطوات متتابعة لتحقيق هذا الغرض منذ القرن الثامن عشر^(٢)، وعندما بدت سحب الحرب العالمية الأولى تظهر بالأفق عالمياً بشكل عام، وتحول الشرق الأوسط

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية الآداب - جامعة القاهرة.

إلى قبلة تنهافت نحوها القوى العالمية لتحقيق طموحاتها، وصوبت القوى الأعظم نحوها أسهمها.

أما الدولة العثمانية فقد حاولت، عندما تبين لها العدو من الصديق، جذب العرب إليها وكسب تعاطفهم نحوها، تحت الغطاء الإسلامي وبسبل شتى ففى محاولة من الدولة إدماج العرب فى آلة الحرب، أو الاغداق عليهم بالوعود الاستقلالية أو تقديم الخدمات والمساعدات المادية، خاصة صوب الحجاز، كتعبير عملى عن مدى التمسك بأهداف التوجه الإسلامى^(٣).

إلا أن العرب رغم تعاطفهم مع الدولة العثمانية، لم يغب عن أفئدتهم المعاملة القاسية لرجال الاتحاد والترقى وتوجهاتهم العرقية، والتي سرعان ما تأكدت عقب فشل حملة جمال باشا على القوات البريطانية عند قناة السويس عام ١٩١٥م، وما أعقبها من انقلاب سياسة هذا القائد التركى من الملاينة وكسب ود العرب إلى العنف والبطش بهم.^(٤) كانت تحولات سياسة أحمد جمال تجاه العرب هى القشة التى حسمت العلاقة بين الزعامات العربية وقادة الاتحاد والترقى والموقف إزاء عمليات الحرب العالمية الأولى.

أثناء هذه التحولات فى العلاقة بين الترك والعرب، كانت اليد البريطانية وأعينها تراقب وتتلمس ما يجرى، علها تعثر عما تطمح إليه، لكسب تأييد العرب، ضد الدولة العثمانية عليها وقرينتها فرنسا يتمكنان من تحقيق استراتيجيتهما فى القضاء على الدولة ومن ثم بسط الهيمنة على مقدرات المنطقة.

وجدت بريطانيا ضالتها فى الشريف حسين بن على لأسباب عدة أتت فى مقدمتها تطلعات الشريف الذاتية نحو الزعامة، والثقة المفقودة بينه وبين الأتراك بعد تمرس طويل فى العلاقات بينهما، ثم صلاته العربية الوثيقة بزعامات القوى المعنية بالقضية العربية^(٥) من هنا بدأت المراسلات المعروفة (حسين / مكماهون) لتكون بمثابة مفاوضات غير مباشرة

للحصول على ثمن للمواقف الخاصة بأطرافها (الأشراف والإنجليز) وتحقيق غاياتهما، وكان الثمن قيام العرب بثورة بزعامة الشريف حسين ضد الدولة العثمانية مقابل التأييد البريطانى لها^(٦).

كان الإنجليز يعلمون تماماً إمكانات الإشراف على كافة المستويات المحلية والإقليمية، عكس ما كان يدركه الشريف عن تطلعات الإنجليز، فقد كان

الأول لا يملك سوى آمال وطموح نحو الزعامة ظناً منه أن تربعه على كرسي إدارة الحجاز وأماكنه المقدسة، تمنحانه زعامة وقيادة مؤكدة للعرب والعالم الإسلامي، حتى وافق في نهاية المراسلات على القيام بالثورة ضد الأتراك مع وعد من قبل الإنجليز بمساعدته وتقديم العون له تبعاً لمجريات الأحداث والتطورات العسكرية للحرب^(٧).

لم تكن قوى الحجاز كإدارة وإقليم إلا تركيبة جغرافية بشرية وطبيعية أقل ما فيها أنها متنافرة، كل قطاع حضري، بدوي، يعمل لحسابه الخاص، ويظل العامل الديني روحاً وموقفاً هو الرابط الأساسي الذي يلتف حوله الجميع، مقابل ذلك كانت جهود الشريف حسين بن علي عندما أخذ على عاتقه القيام بالثورة، تنصب كلها نحو تحقيق أمل الزعامة وتقلد قيادة مملكة عربية، على حين كانت الأغلبية الساحقة من القاعدة العربية العريضة منصرفاً إلى مشاكلها اليومية الذاتية، خاصة مع هشاشة قنوات الاتصال بين الحركات الوطنية القومية من جهة والقواعد الشعبية العامة من جهة أخرى^(٨)، وكان واقع الحجاز أشد وضوحاً في هذا الاتجاه.

فعلى حين انكفأت جدة على نشاطها التجاري الراكد على البحر الأحمر، واعتمدت مكة المكرمة والمدينة المنورة على ما يأتي إليها قدراً في موسم الحج السنوي، بينما استقرت الطائف على كونها مزرعة لبعض الفواكه والمحاصيل، واستمر النشاط القبلي في هذا كله على وتيرته التقليدية العتيقة في الاعتماد على الذات فموطنها ووضعها هو مقدار المساحة التي تمنحها مؤونة يومها المستمر من مفهوم البقاء للأقوى في ظل بيئة قاسية جغرافياً فقيرة في وضعها الاقتصادي أنانية في موازينها الاجتماعية^(٩).

أدرك الشريف حسين بن علي هذا الواقع جيداً، فافتتح بحدود سلطانه الذي استمر محصوراً عند نطاق المواقع الحضرية المتناثرة في المدن وبعض الدور المتناثرة حولها بمدن الحجاز، على حين استمرت الحاميات التركبية متفوقة خارج أسوار ذات المدن ليس إلا^(١٠).

عند هذا الأمر لم يبق للشريف حسين حين اتفق مع بريطانيا للقيام بالثورة عام ١٩١٦م، سوى ما يوجد به هذا الواقع الطبيعي والبشري من القبائل، وهو موقن أيضاً آنئذ أن هؤلاء البدو لن يكونوا طوعاً يمينه إلا بمقدار ما يستخلصونه من ثمار مالية أو عينية، ولن يستمروا في ولائهم وارتباطهم بحركة

الشريف إلا في الحدود الزمنية التي يستمر فيها عطاؤه إليهم.^(١١)

أمام هذه المقدرات كانت الهيئات (الأموال) هي أبرز المعونات التي قدمتها بريطانيا للشريف، ولم تتفق المصادر على كميتها بشكل دقيق وترواحت بين ٥٠٠,٠٠٠ و ٧٦,٠٠٠ جنيهاً استرلينياً. عند لورنس وكلايتون ومكماهون، وإن كان الأخير هو المصدر الأساسي الذي حدد هذه الأموال وقيمتها المتباينة في رسائله إلى الخارجية البريطانية^(١٢).

كما أشارت بعض الآراء أن بريطانيا لم تقدم المبالغ المطلوبة إلى جهة واحدة بل توزعت الأموال بين أعضاء أسرة الشريف حسين.

فعلى حين وافقت الخارجية البريطانية على تقديم عشرة آلاف جنيه إلى عبدالله بن الحسين، فقد وعدت بتقديم خمسين ألفاً للشريف الحسين بن علي نفسه، شريطة ألا يجرى دفع (المبلغ الكبير) إلا بعد اتخاذ عمل فعلي وقيام الثورة العربية بصورة عملية مؤكدة^(١٣).

إذا كانت بريطانيا قد اعتمدت في سياستها على عدم دفع المبلغ دفعة واحدة مما ينبئ عن حرصها أو عدم ثققتها بقدرات الأشراف فإن المبالغ لم تقدم أيضاً إلى شيوخ القبائل بشكل فوري كامل بل بذات الأسلوب الذي اتبعته بريطانيا.

فأحداث وتطورات الحركة لم تتشب بالحجاز شماله وجنوبه مرة واحدة، بل اندلعت في بقعة في حدود الموطن الذي كانت تقيم به القبيلة ثم تنتقل قفزاً إلى منطقة أخرى تالية، كي تتحرك كل عشيرة في موطن إقامتها بدءاً من العاشر من يونيو ١٩١٦م معلنة الولاء للأشراف ومحاصرة لبضع عشرات من الجند التركي في (مظاهرة عسكرية)، ثم يتولى أمر هذا التظاهر قبيلة أخرى كان في الغالب إلى الشمال من مكة المكرمة وبمحاذاة ساحل البحر الأحمر^(١٤).

بدأت مفاوضات الاشتراك في الثورة والتعهد بمساندة الأشراف من قبل القبائل، عن طريق صكوك مالية مكتوبة من الشريف حسين أو أحد ولديه فيصل أو عبدالله، إلى شيوخ العشائر، كل على حده، وبنصوص وصيغة واحدة محددة متطابقة إلى حد بعيد، تفيد أن على الشريف مكة المكرمة تقديم أموال تقابل أعداد أفراد العشائر والتي تحدد تبعاً لما يتطلبه إمداد الفرد بالمؤونة والذخيرة والأسلحة التي تتكفل بها العشائر، على ألا يتحمل الشريف أية أعباء أخرى في التنقل والحماية الخلفية (المؤخرة) اللهم إلا التوجيه الإداري والتنظيمي للجند

ومواقبت تحركها تبعاً لما يتطلبه الموقف والحالة، بعد أن يستعد المجاهدون، شريطة ألا يكون هناك تصادم أو اعتداء أو خروج من مواطن العشيرة على حساب العشائر الأخرى خشية مغبة ما قد ينتج عن هذه التحركات غير المحسوبة من أضرار فى موارد الرزق والأسلاب التى اعتادت عليها العشائر منذ أمد بعيد^(١٥).

فى اليوم التالى لتوقيع هذه الصكوك ٦ رجب ١٣٣٤هـ/ ٧ مايو ١٩١٦م، وجدت قوائم بالأسماء التى قدمت إليها (المبالغ المتفق عليها) إلا أنه من الملاحظ أن ما قدم إلى شيخ كل عشيرة كان أمراً سرياً لا يعلمه بقية الشيوخ، ربما لسبب جوهرى مفاده الغيرة المتأصلة بين القبائل، ومن ثم خشية المشاحنة فيما بينهم، وأكد ذلك التوجه ما جاء فى صك آخر يؤكد أنه عقب توزيع هذه المخصصات تبعاً للأعداد المشاركة من كل عشيرة سوف تشارك فى المعارك، فسوف يطلع الشريف جميع الشيوخ بما حصلوا عليه (علانية)، و(يتأكدون حينئذ من عدالة الحسين)^(١٦).

إلا أن أياً من الوثائق العربية أو البريطانية المتاحة لم يرد بها أو تضم ما يؤكد الوفاء بهذا العهد الذى قطعه الإشراف على أنفسهم أو لأن الشريف حسين بن على قد احتفظ به لنفسه وفقد مع بقية أوراقه.

بلغ عدد شيوخ القبائل التى وقعت على هذه التعهدات المالية سبعة عشر شيخاً منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- ١- الحارث بين سعد الجحدلى.
- ٢- أسد بن كعب الهلالى.
- ٣- محسن بن منصور الحربى.
- ٤- حمدان بن حميد الزيدى.
- ٥- محارب بن فهد آل عاصم.
- ٦- حسين بن مبيريك.
- ٧- سعيد بن متعب الحارثى.
- ٨- عبدالله بن سمران البقمى^(١٧).

إضافة إلى المخصصات المالية، طالب بعض هؤلاء الشيوخ الحصول

على مواقع إدارية معترف بها من قبل الأشراف (حتى يكون هؤلاء الشيوخ - الحكام الجدد - هم يد ورجال الشريف سلالة ابن هاشم فى الإدارة وعيونه لضبط أمور الناس وأحوالهم وحاجاتهم المطلوبة من العامة والخاصة على وجه العموم)^(١٨).

كان رد الشريف على هذا المطلب هو التساؤل عن الكيفية التى يستطيع بها هؤلاء الشيوخ الجمع بين ما يتطلعون إليه من مراكز ومناصب إدارية وبين مهامهم القبلية وشؤون عشائرتهم ومواطن مرعاهم فكان رد هؤلاء الشيوخ ممثلاً فى كل من محارب بن فهد آل عاصم وسعيد بن متعب الحارثى، أن لدى العشيرة القدرة على تنفيذ كل ما يوكل إليهم من مهام فى (التعامل مع الناس رعاياهم أو غيرهم من الأعداء والجيران والأصدقاء)^(١٩).

كما يبدو أن هؤلاء الشيوخ قد تأثروا بما كان يجرى فى نجد وقتئذ من خطوات لتوطين البدو وتطويع دورهم لصالح توجهات عبد العزيز بن سعود بإقامة الهجر واستقرار البدو بها تحت مسمى (الإخوان)، وذلك بالعمل فى الزراعة والجنديّة وذلك من خلال تثقيفهم دينياً^(٢٠).

فى رسالة معاصرة لاجتماعات الشيوخ مع الشريف حسين بن على وولديه فيصل وعبدالله، بعث مخلد بن ثامر الروقى العتيبي برسالة إلى الشريف يؤكد فيه على المطالب الإدارية التى نادى بها الشيوخ الذى اجتمعوا به، وأكد مطالبه باستعراض خطوات آل سعود فى القصيم مع القبائل هناك، والثمار الإيجابية والمنافع العامة لكافة (العرب) والبدو وآل سعود على حد سواء، حتى أن (معيشتهم أصبحت رغداً وثبتت أقدامهم وأصبحت كلمتهم مسموعة عند الجميع، فما بالنا لا نقفدى بهم بل أن عربان الحجاز أحق بها مع طرد الترك مع بلداننا ومواطننا)^(٢١).

لذا كانت حجة شيوخ العشائر أن مطالبهم الإدارية والسلطات التى يتطلعون إليها مقابل الانضمام للحركة ضد الأتراك، سوف تؤكد أنهم ليسوا أقل كفاءة وقدرة من قبائل نجد وعشائرها والتى سارت قدماً بتوجيه ابن سعود، بل أنها سوف ترسخ سلطة الأشراف وتدعم موقفهم ليس فقط فى حواضر وبادية الحجاز وأماكنه المقدسة، بل فى كافة الديار الإسلامية.^(٢٢)

الحديث عن الثورة وتحركاتها السريعة باتجاه شمال الحجاز، تكتظ بها المصادر والمراجع المعاصرة، كما ذكرنا سابقاً، والملفت للانتباه أن مراحل

إنطلاقها فى نطاق الأماكن التى كان يسيطر عليها الإشراف والتابعة لإقليم الحجاز وهو نطاق حكمهم، لم تستغرق إلا أياماً معدودات، فلم يكن الجند الأتراك بالكثافة والإمكانات التى تؤهلهم لمواجهة مثل هذه التحركات البدوية خاصة مع خبرة هذا الطرف الأخير لمكونات وطبيعة المسرح الذى تدور عليه الأحداث، خاصة وقد انطلقت الثورة فى فصل (القيظ - شديد الحرارة) الأمر الذى اعتاد معه الجند التركى أيضاً التجمع فى مصيف الحجاز (الطائف)، بينما استمرت حامية (المدينة المنورة) بقيادة فخرى باشا تقاوم بفضل (خط سلك حديد الحجاز) شريان الإمداد للقوات التركية مع عدم قدرة البدو على خوض معارك داخل المدن^(٢٣).

لهذا كله لم تقع معارك بين الأتراك وقوات الشريف بالمعنى المعروف، بل كانت خطوات الثورة مجرد إعلان خلع راية الطاعة للترك ونهب كل مايقابل العشائر من أناس غرباء عن مواطنهم أو من مدنى الأتراك ونهبهم خاصة فى جدة والطائف وحول ينبع، والقنفذة، بل قام بعض البدو بسلب بعض المؤن والذخائر المرسلة من الإنجليز إلى قوات الثورة، قبل أن تصل إلى المسئول عنها (الأشراف)، وفى بعض الأحيان كان الأمير زيد بن الشريف يتمكن من استرداد بعض المنهوبات، كما حدث مع (ابن مبيريك)^(٢٤).

لم يأت شهر سبتمبر ١٩١٦م / بداية محرم ١٣٣٥هـ حتى كانت الثورة قد حققت أهدافها بالحجاز وسقطت مدنه حتى شماله بإخراج الأتراك منها حتى ضُباً وأمّالج، عدا المدينة المنورة.

عادت القبائل وشيوخها إلى سيرتهم الأولى وبدأوا بالخطوات العملية مع ما تعهدوا به مع الشريف حسين الذى أعلن نفسه ملكاً على البلاد العربية، فى ذات الوقت الذى بدأت فيه الأموال تلعب دورها، والوظائف الإدارية الموعودة تنتظر الشيوخ.

فى شهر شوال عام ١٣٣٥هـ / يوليو ١٩١٧م، صدر أمر شريفى من الحسين إلى كل من الشيوخ التالية أسماؤهم ليصبحوا شيوخاً للحارات قرينة الأسماء، برواتب محددة، فضلاً عن (عوائد) العمل بأمر الحارة، والالتزام بالإقامة والاستقرار فى الموقع المسندة إليهم إدارتها فى جدة والطائف ومكة المكرمة على النحو التالى :

١- حمدان بن حميد الزيدى : شيخاً لحارة المعلا بمكة المكرمة ومكافأة شهرية

قدرها ١٥٠ ريالاً مجيدياً^(٢٠).

٢- سعيد بن متعب الحارثي : شيخاً لحارة البخارية بمكة المكرمة ومكافأة شهرية ١٧٠ ريالاً مجيدياً والأخذ بعين الاهتمام والاعتبار أعداد السكان الكبيرة وطوائفها المتنوعة.

٣- صفوان بن محارب آل عاصم : شيخاً لحارة الدعاجين في الطائف ومكافأة شهرية قدرها ١٣٠ ريالاً مجيدياً على أن توكل إليه أيضاً مهمة حراسة الشوارع المحيطة بحارته والتأكد من نوعية الغرياء عنها.

٤- بريك بن حسين بن مبيريك : شيخاً لحارة السماعية بجدة على أن يعهد إليه ويتولى بشكل خاص مراقبة الطرق المارة عبر الحارة ومدى التزام القوافل بأداب رحلتها والتأكد من السلع التي يحملونها إذا كانت منهوبة أو شرعية.

٥- عبيد بن عبدالله بن سمران : وتوكل إليه شؤون وإدارة حارة الروسان بالطائف إضافة إلى مسؤولية الأمن على الطريق الواقعة بين الطائف ومكة المكرمة والشوارع المؤدية إلى هذه الطرق الرئيسية بما يراه مناسباً لتحقيق وضبط المهمة الموكلة إليه^(٢٥).

على أن هؤلاء الذين أوكلت إليهم مهام إدارية كمكافأة لهم مقابل مساندتهم وتعاونهم مع الأشراف في الثورة العربية، سرعان ما تحولوا تدريجياً، كما بدا وضحاً من الوثائق التي ظهرت، إلى تجار في ذات المناطق التي تولوا إدارتها.

ف عقب حادث المحمل المصري الشهير عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م^(٢٦)، رفع الكثير من تجار مكة المكرمة وجدة والطائف رسائل في شهر محرم ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م إلى فيصل بن عبد العزيز ووالده يجأرون فيها من حجم ما تعرضوا له من خسائر أصيبوا بها من جراء الفوضى القائمة في النواحي وإعراض أكثرية الحجيج عن التعامل معهم، وضاعف من الأزمة عدم وجود وفود الحج المصري بشكل خاص، ومن بين من وردت أسماؤهم من التجار أبناء محارب آل عاصم وآل سمران وآل متعب الحارثي، وطالبوا آل سعود معاونتهم وتقديم النصائح والمساعدة لحل هذه المشكلة التي لا ذنب لهم فيها على حد قولهم، وضياع الأرباح التي جنوها من تجارتهم، مع هيبتهم التي فقدوها في النواحي التي يتولون إدارتها، والأهم في ذلك ما سوف يؤثر بالضرورة على مقدار الزكاة التي عليهم أداؤها^(٢٧).

الملفت للانتباه كان في رد ابن سعود على شكاوى التجار، الذي جاء محملاً بعدد من النقاط على النحو التالي :

أولاً : أن هذا الاعراض عن البيع والشراء بشكل واضح منذ فترة وجيزة فرضته أمور خارجة عن إرادة الجميع، فضلاً عن حداثة التعامل بين النجديين والحجازيين وعدم استقرار أوضاع الحجاز وتقرير شكل إدارته. (٢٨)

ثانياً : وهو التوجه الواضح لدى ابن سعود، الذي أعاد إليهم وذكرهم بالكيفية التي حصلوا عليها على هذه الأموال وأنها في المقام الأول لم تكن من أرباح تجارة اكتسبوها وعملوا بها، بل كانت مجرد (أعطيات) قدمت إليهم من الشريف حسين بن علي مقابل التعاون معه ضد الترك، فهم ليسوا من متمرسي التجارة ولا علاقة للتجار بها من قبل، وبمعنى موجز أن ليس لهم الحق في افتعال ضجيج لأسباب ليسوا هم أهل لها، وأضاف ابن سعود (أن أهل ديرتنا من قبائل نجد والقصيم بشكل محدد الذين رافقونا بالحجاز، عندما علموا بأمر (أغنياء تجار الحجاز) وعلاقتهم بالشريف، فقد كرهوا التعامل (وصكوا) أي (توقفوا) عن التعامل مع أمثالكم). (٢٩)

ثم ارجع ابن سعود فشل هؤلاء التجار في تنمية وتحريك تجارتهم إلى كونهم في الأساس شيوخ عشائر وقبائل مهمتهم رعوية وتعاملاتهم مع الرعاة والصحراء في المقام الاساسي، قبل أن يكونوا تجارا.

وأخيراً طلب ابن سعود من التجار في ختام رده على شكاوهم القيام بالتعاون مع بقية المسلمين لخدمة دينهم ومواطنهم وإخوانهم، إذا لم يتمكنوا من الاستمرار في أعمالهم التجارية التي يقومون بها. (٣٠)

أعقب ابن سعود رسالته تلك برسالة أخرى، بعد بضعة أيام وفي ذات الشهر الهجري انصبت على مهامهم الإدارية التي حصلوا عليها، واستمروا بها عقب إزاحة الأشراف (وما من الله به علينا من نعمة الاستقرار والأمن، بعد الخوف والجزع) وذكرهم أن البيع والشراء في تجارتهم يعود أساساً إلى انشغالهم في ذات الوقت بمهام أخرى تكفلوا القيام بها، ولا يستطيعون إلقاء اللوم فقط على "عشيرتنا" - أي أهل نجد - فقد دبروا أحوالهم ورجعوا ديارهم - (٣١).

ثم أضاف ابن سعود في إشارة أخرى إلى ضرورة الاقتداء بإخوانهم من المسلمين وأخذ العظة منهم، والذين اتبعوا الطريق القويم ولم يسيروا على دروب التجار والشيوخ، ورجعوا العمل في أنشطة أخرى قريبة مما كانوا يعملونه من

قبل، بجهدهم دون من من أحد ودون أعطيات مقابل جهد لم يبذلوه، فعملوا بالفلاحة والزراعة في مواطنهم مع ما بأيديهم من (حلال) أى أغنام وإبل وخيول-، كما حدث مع إخوان لهم في الطائف وحول وادى فاطمة وبالغرب من مكة المكرمة أيضاً^(٣٢).

هذه الرؤية من قبل ابن سعود إلى تجار وشيوخ الحارات كانت تشير إلى ما كان حادثاً بالفعل وما اتبعه آخرون ساروا في اتجاه مخالف غير الذى اتبعه الذين امتهنوا التجارة والإدارة، حيث قام بعض الشيوخ بشراء البذور وزراعة ما حول آبار مواطنهم، وذلك بهدف الاستقرار وتثبيت أرضهم بانبات المحاصيل، على حد قول ابن سعود، ولم يكن هذا النشاط عند حدود المواطن القبلية بل لما هو مجاور لها، طالما لم يقع اعتداء على أرض العشائر الأخرى، وكانت المساعدات هى نفسها واردة من الأشراف نظير المعاونة ضد الأتراك^(٣٣).

بل أضاف ابن سعود أن العمل فى الزراعة سوف يرسخ من سلطة هؤلاء الشيوخ داخل عشائرهم ويضمن لهم إحكام القبضة على تابعيهم ورعاياهم، فضلاً عما سوف يحققه هذا النشاط من مورد مضمون، (لأن الحصول على الغذاء ولقمة العيش لا يستطيع مخلوق أن يجافيه أو يستغنى عنه)^(٣٤).

كان البعض من شيوخ العشائر بالفعل قد فضلوا تحويل ما حصلوا عليه من أموال الأشراف، نحو حرفة الزراعة تحت دعوى أنها أسرع فى الأرباح، وسلاح يدعم موقف العشائر فى التثبيت بالأرض وملكيته، فضلاً عن ضمان الغذاء الدائم لهم ولماشيتهم طيلة العام، إضافة إلى أن حرفة الزراعة لا تحتم عليهم ترك الرعى، بل تضاف إليه.

جاء فى صكوك محكمة مكة المكرمة الشرعية أحقية حصول عدد من الشيوخ على مساحات من الأراضى (المشاع) التى هى فى الأساس موطن لمراعيهم، وما يجاورها من أراض لا ينازعهم عليها أحد آخر وبما لا يخلق ضغائن ومصادمات بين قبيلة وأخرى^(٣٥).

حدد السجل عدداً من أسماء الشيوخ الذين يحق لهم استزراع الأرض الخاصة بهم والمجاورة لهم التى لا ينازعهم فيها أحداً، بشرط أن يدفعوا للأشراف (جعلاً) من المال أو المحصول، مقابل تمكنهم من الأرض والانتفاع بهم^(٣٦).

أتت بعض الأسماء مدونة بالسجلات على النحو التالى :

- ١- فيصل بن حمود القرشى : وديرته بمكة المكرمة بموطن عشيرته.
- ٢- وجدان بن إبراهيم الشيب - وديرته إلى الشرق من مكة المكرمة بموطن عشيرته.
- ٣- سفيان بن حمود العتيبي ، وديرته إلى الغرب من مكة المكرمة بموطن عشيرته.
- ٤- محارب بن محمد اللحيان : وديرته إلى الجنوب من الطائف فى موطن عشيرته.
- ٥- تامر بن فيحان الخالدي : وديرته مجاورة لديره آل لحيان إلى الجنوب من الطائف.
- ٦- فيصل بن جمعان الحوطي : وديرته إلى الشمال الشرقى من جدة.
- ٧- طامى بن مخلد الرولى : وديرته إلى الشمال الشرقى ناحية اليمين من آل الحوطي.

يستدعى الانتباه بعض الملاحظات :

أولاً : أن العديد من العشائر فضل استثمار ما حصل عليه من الأشراف فى الزراعة إضافة إلى التجارة كما سبق أن ذكرنا، وأن حدد موضع الاستثمار بمواطن القبيلة وما حولها إذا لم يتمحض عن هذا الامتداد مصادمات مع العشائر الأخرى والمجاورة^(٣٧).

ثانياً : باعتبار أن هذه الأموال التى حصلت عليها العشائر من الشريف مقابل الاشتراك بالثورة ضد الأتراك، فإن المساحات الزراعية التى استزرعت لم تكن محددة بالدونم أو الفدان أو الهكتار مثلاً، بل دونت فى سجلات المحاكم الشرعية بأنها أرض زراعية بمسمى العشيرة ذاتهما (الروقة) البرقى من العتوب مثلاً، الشيبى اللحيانى، البقمى... وهكذا^(٣٨).

ثالثاً : كما لوحظ من واقع سجلات المحاكم الشرعية لتلك البلدان وفى ذات الأعوام المذكورة ما بين عامى ١٣٤٦هـ/١٣٤٧هـ — (١٩٢٧م/١٩٢٨م) أن المحكمة الشرعية أكدت أن أصحاب تلك الأراضى الزراعية قد أدوا ما عليهم من زكاة شرعية على المحاصيل والدواب وإن لم تحدد الكمية أو النوعية التى قدمت إلى "بيت المال"، وإن كانت على أغلب الظن فى شكل عيني^(٣٩).

استهوى هذا التحول الجديد باتجاه العمل الزراعى بتملك الأراضى والانتفاع بها، العديد من الشيوخ بالتوسع أفقياً - أى محاولة استزراع الأراضى المجاورة لموطنهم الأساسى، والاستيلاء على أكبر مساحة متاحة - ولأغراض وأهداف شتى تكمن وراءها الغريزة العشائرية، ولو على حساب بقية العشائر، وتحت دعاوى الانتفاع المستمر منها رعوياً قبل الزراعة ومن ثم الادعاء بالتبعية للعشائر المدعية.

فهناك كم هائل من المشاحنات القضائية الشرعية خلال الفترة من عام (١٣٣٨هـ/١٩١٩م) وحتى أعوام (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) إصبحت كلها حول مشاحنات ومنازعات متصلة بحقوق التملك للأراضى المسموح للعشيرة الامتداد إليها وضمها إلى أفرادها وأبرز الأمثلة على ذلك:

أولاً : النزاع بين محارب بن محمد اللحيانى، وتامر بن فيحان الخالدى الزيدى حول موطنيهما بالطائف وأحقية كل منهما فى مواطن مرعى وزراعة كل منهما حول محصول العنب والخضروات للموسم الجديد القادم ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م، والذى انخرط فيه كافة أبناء العشائر (العايشية) من أتباع ثامر، (والرجبان) من اللحيانية، مما اضطرت معه المحكمة بالطائف فى نهاية المطاف الأمر بتدخل كل منهما بترك المساحة المتنازع عليها بينهما كى تصبح مرة أخرى مشاعاً لكافة المسلمين وسقيا الماء. (٤٠)

ثانياً : كما سجلت محكمة جدة الشرعية مثلاً آخر لمثل هذه المنازعات حول الأرض الزراعية، التى تملكها بعض الشيوخ بالمنطقة - كما حدث فيصل بن جمعان الحوطى من جهة، وطامى بن مخلد الرولى فى المنطقة المجاورة لوادى فاطمة^(٤١). إلا أن المحكمة قررت فى نهاية النزاع الذى استمر تبعاً لما جاء بالسجلات ما يزيد على العشر سنوات، بأحقية طامى الرولى بالأرض المتنازع عليها، خاصة وأن عشيرته (السواحية) اتخذت من المنطقة ميداناً لمرعاها منذ (أمد بعيد) وأكد سجل المحكمة رأيه بأن القضاة لم يثبت لديهم استمرارية (بنو جمعان) - الطرف الأول فى تأدية الزكاة المشروعة على تلك المساحة بشكل دائم. (٤٢)

من خلال تلك السجلات أيضاً، خاصة سجل محكمة جدة يمكن معرفة أنواع المحاصيل الزراعية التى كانت تنتجها تلك الأرض المستصلحة وذلك عند تحديد كميات الزكاة الشرعية الواجب إخراجها، فكان الشعير، البرسيم،

الخضروات، العنب والرمان، كلها كانت في المقدمة. (٤٣)

التحولات الاجتماعية والتجارية

لم تتحسر تفاعلات الاستفادة من أموال الثورة العربية عام ١٩١٦م والمقدمة إلى شيوخ العشائر عند التحولات في (الوظيفة) الحرفية للقبائل وشيوخها والتي كانت رعية في المقام الأساسي بخلق وظيفة زراعية وتجارية ثم إدارية كي تضاف إلى اهتمامات شيوخ العشائر الأساسية، بل سحب هذا التحول وبالضرورة ارتقاء في الوضع الاجتماعي لذات الأشخاص وتابعهم في آن واحد.

فقد أكدت سجلات محاكم المدن الثلاث جدة ومكة المكرمة والطائف عدة حقائق وأوضاع اجتماعية جديدة أضحت عليها هؤلاء الشيوخ من خلال عدة مظاهر في أوضاعهم الجديدة فيما يتعلق بالعقارات وعدد الدور وقاطنيها، ثم بعد ذلك تحول طائفة من أبناء القبائل إلى مهن جديدة مارسوها منذ نعومة أظفارهم عكس ماكانت عليه مراحل حياة آبائهم، وكانت أبرز هذه المراحل لهؤلاء الأبناء هو الالتحاق بالمعاهد العلمية (الدينية) بالحجاز.

لم يكن لمعظم هؤلاء الشيوخ من مزار ثابتة للإقامة بها، بل كان جهم مرتبطاً بحركة القبائل بشكل دائم، وفي أفضل الأحوال كان لبعض هؤلاء مزار مؤقتة بالمدينة الرئيسية بالحجاز، إلا أنه لوحظ قبيل عام ١٩٣٠م (١٣٥٠هـ) امتلاك هؤلاء الشيوخ لعدد من الدور بذات المناطق التي استفادوا بها تجارياً أو زراعياً أي بالمناطق التي كانت رعية أو على أطراف المدن القديمة الحجازية، كما دونتها السجلات الشرعية وكانت على النحو التالي:

الاسم	عدد الدور	المدينة	القيمة تقديرياً بالريال
صفوان بن محارب آل عاصم	٣	الطائف	٨٣٠ ^(٤٤)
مبيريك بن حسين بن مبيريك	٢	جدة	٧٤٥
عبيد بن عبدالله بن سمران	٣	جدة	٧٩٠ ^(٤٥)
حمدان بن حميد الزيدى	٤	مكة المكرمة	٨٥٠
سعيد بن متعب الحارثي	٥	مكة المكرمة	١٣٠ ^(٤٦)

كما حددت ذات السجلات عدد المحال المملوكة لذات الأفراد والسلع التجارية التي يمارسونها بها أنشطتهم على هذا النحو :

الاسم	عدد المحال التجارية	أنواع السلع	حدود الزكاة المفروضة عليهم عام ١٣٥٠هـ - بالريال ١٩٣٠م
صفوان بن محارب آل عاصم	٧	الأقمشة القطنية والحريرية (هندية ومصرية) الحبوب (شعير وعدس) أوانى نحاسية. (٤٧)	٨٣٠ ريال
مبيريك بن حسن بن مبيريك	٤	الحديد، الورق، العاج، التمر	٧٤٥
عبيد بن عبدالله بن سمران	٦	المأكولات (الجبن) الخبز، القهوة والشاي، التوابل	٧٣٠ (٤٨)
حمدان بن حميد الزيدى	٤٠	البخور، الملابس الحريرية البن اليمنى	٥٨٠
سعيد بن متعب الحارثى	٥	الملابس القطنية، التوابل، اللبخور، لوزام الحجيج	٦٢٠ (٤٩)

حددت بدقة مواقع كل محل بالحارات والشوارع التي كانت مقامة بها من حيث المساحة والارتفاع والمجاورة وأسماء الجيران من الجهات الاربع بما فيها الشوارع المحيطة وقد لوحظ أنها ذات الحارات والمناطق التي تولى بها هؤلاء الشيوخ أمرها إدارياً، أو هي مواقع المرعى أو الأرض المستزرعة حديثاً كما لوحظ أيضاً أن قيمة الزكاة المفروضة، كما جاء فى خانة الملاحظات الإضافية بالسجلات أن أصحاب المحلات التجارية كانت تحدد نقلاً عن صاحب المحل أى مقدرة ذاتياً، مما يحمل معه إمكانية الزيادة والنقصان لهذا المبلغ المحدد فى العام المذكور ١٣٥٠هـ / ١٩٣٠، فهو فى النهاية (تقدير ذاتى) ليس له من رقيب سوى الله - على حد تعبير الملاحظات (٥٠).

بعد خمس سنوات ومن واقع السجلات الشرعية أيضاً لوحظ ارتفاع مقدار الزكاة المدونة على أربع من هذه الشخصيات، ولم يرد ذكر على الإطلاق

لشخصية (مبيريك بن حسين) ولا أسباب هذا الانعدام، أو حتى مصير ما كان بحوزته من أملاك أو سلع تجارية، أما الباقيون فقد حددت قيمة الزكاة المفروضة على كل منهم في ذلك العام على النحو التالي :

مقدار الزكاة بالريال (٥١) ١٢٤٠	١- ورثة صفوان بن محارب آل عاصم ويبدو أنه توفي قبل هذا العام وحدد عدد أبنائه بـ (أربعة ذكور وأربع إناث)
(٥٢) ١١٧٠	٢- حمدان بن حميد الزبيدي
(٥٣) ١٣٨٠	٣- عبيد بن عبدالله بن سمران (توفي عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٢) حددت الزكاة على اثنين من أبنائه الذكور وثلاث من الإناث باعتبارهم بالورثة شرعاً
(٥٤) ١٠٥٠	٤- سعيد بن متعب الحارثي

بعد هذا العام ١٣٥٥هـ / ١٩٣٤م، لم نستطع العثور على ما حدث بعده بالنسبة لهؤلاء الأشخاص، وربما يرجع ذلك إلى أن عبد العزيز بن سعود في تلك الفترة أعاد ترتيب بناء دولته وتنظيمه بشكل آخر غير ما كان سائداً في عهد الإشراف بالحجاز وبالتالي عدم إمكانية تتبع أنشطة ومواقف هؤلاء الأشخاص^(٥٥).

ثم أن الكثير من المهتمين بالأنشطة الاقتصادية ركضوا وراء الاكتشافات البترولية في المنطقة الشرقية من العربية السعودية، وأغلب الظن أن هؤلاء الشيوخ كانوا من جملة السباقين لاغتنام هذه الفرصة.

إلا أنه من المؤكد في نهاية الأمر أن الثورة العربية ورجالها قد فتحت قناة بأحد سبلها نحو التبدل في الواقع والتوجه للعناصر التي امتطتها بعيداً عن الأهداف التي كان يتطلع إليها الأشراف سياسياً، وكانت مؤشراً جديداً، قريباً بما جرى في نجد من إقامة الهجر ونبت (الأخوان)، ليكون هذا كله إرهاصات للتبدل في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتي بلغت ذروتها بمردود البترول بسليباته وإيجابياته على مجتمعات شبه الجزيرة العربية والخليج.

الهوامش

- (١) الملك عبدالله : مذكراتي، القدس ١٩٤٥م، ص ص ٥٥/٢٣.
- (٢) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، ١٩٦٥م.
- (٣) سليمان موسى : الحركة العربية ١٩٠٨/١٩٢٤م، بيروت، ١٩٧٧، ص ص ٢٦/٢٣.
- وكذلك : جورج أنطونيوس : يقظة العرب، ترجمة ناصر الأسد، بيروت ١٩٦٦، ص ص ١٨٥/١٧٩.
- (٤) انظر سياسة أحمد جمال فى : مذكرات أحمد جمال باشا، القاهرة ١٩٢٣م.
- (٥) الأمير عبدالله بن الحسين : مذكراتي، ص ص ٨٠/٧٥.
- (٦) سليمان موسى : للمرجع السابق، ص ص ١٦٨/١٥١.
- (٧) المرجع نفسه.
- (٨) F.O. 88/2/13, Report form Sir. H. Mc Mohon, (The Arab), 15/6/1915
- (٩) Ibid
- (١٠) Ibid.
- (١١) F.O. 882/18. Report from McMahan (Sherif of Mecca) 123/5/1916
- (١٢) F.O.882/19, Despatch from Sherif of Meca to McMahan, 1915/1916
- وهى الرسالة التى أكد فيها الشريف وصول دفعة ثالثة من الأموال قدرها ٣٢٠,٠٠٠ جنيهًا استرلينيًا، وأمل الشريف فيها أيضاً بوصول الباقي الذى يترواح ما بين ١٨٠,٠٠٠ و ٤٢٠,٠٠٠ جنيهًا استرلينيًا.
- (١٣) سليمان موسى : المرجع السابق، ص ٢٧١.
- (١٤) انظر تفاصيل هذه التحركات العسكرية للثورة بالحجاز فى بعض المصادر والمراجع على سبيل المثال:
- ١- مذكرات الأمير عبد الله، السابق ذكرها.
- ٢- سليمان موسى : مرجع سبق ذكره.
- ٣- أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى، ج١، ج٢.
- (١٥) تعهد خطى باللغة العربية موقع عليه من قبل كل من شيخ الحجادله، والزبيديين (آل زيد) والعواصم (آل عاصم) وسبعة عشر توقيع آخر، ومصدق عليه من الشريف فيصل فى ٦ رجب ١٣٣٤هـ / ٧ مايو ١٩١٦ F.O.882/16

(١٦) دارة الملك عبد العزيز : مجموعة وثائق (أشراف الحجاز)، صك تعهدى بسين سيد الأشراف الحسين بن علي وكافة الشيوخ المدونة أسماءهم به فى رجب ١٣٣٤هـ/مايو ١٩١٦.

(١٧) أما بقية الأسماء فكانت (محارب بن محمد اللحياني / سفيان بن حمود العتيبي / فيصل بن جمعان الحوطي / مخلد بن ثامر الروقي العتيبي / ثامر بن فيجان الخالدي الزيدى / طامى بن مخلد الرولى/ قبيس بن خالد بن شداد الحوطي / عيسى بن راضى الحربى / فيصل بن حمود القرشى وجدان الشيبى/ محارب السعدى.

(١٨) دارة الملك عبد العزيز : (وثائق اشراف الحجاز) تعهد مكتوب وموقع من قبل محارب بن فهد آل عاصم وأسد بن كعب الزيدانى وسهيل بن عروى الزيدانى ورفاقهم، ومن الشريف حسين بن علي . ١٢ رجب ١٣٣٤هـ/ ١٣ مايو ١٩١٦م.

(١٩) دارة الملك عبد العزيز: وثائق الأشراف، المصدر السابق ١٢ رجب ١٣٣٤هـ/ ١٣ مايو ١٩١٦م.

(٢٠) عبد العليم على أبو هيكل : العلاقات بين عبد العزيز والإخوان ١٩١٢/١٩٣٢م رسالة ماجستير غير مطبوعة عام ١٩٧٧م - آداب عين شمس.

(٢١) دارة الملك عبد العزيز : وثائق أشراف الحجاز، مكتوب من مخلد بن ثامر الروقى إلى صاحب العزة والشرف سلالة بنى هاشم - الحسين بن على، رجب ١٣٣٤هـ/١٩١٦م.

(٢٢) F.O. 882/37, Despatch from McMahon (Sherif of Mecca, 3/6/1916)

(٢٣) إضافة إلى ما ذكرناه سابقاً عن الثورة بشكل خاص أنظر أيضاً :

١- نورى السعيد : محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربى فى الحجاز وسورية، بغداد، ١٩٤٧م.

٢- على جودت : ذكريات، بيروت ١٩٦٧م.

(٢٤) موسى : المرجع السابق، ص ٢٧٩.

(*) ظل الحجاز يتعامل بكم هائل من العملات، كالجنهيات الذهبية الإنجليزية والعثمانية، والمسكوفى و(البنتو) الفرنسى، وكان أكثرها الريال المجيدى حتى صدر مرسوم ملكى بإمكانية التعامل مع الريال الجديد عام ١٩٣١م والموازى فى حجمه ووزنه بالريال المجيدى.

(٢٥) وثائق الحرم المكى بمكة المكرمة : (الأشراف) عام ١٣٣٥هـ رسالة شريفية من الحسين بن على إلى مشايخ الزيدية وآل مبيريك وآل سمران وآل عاصم وإلى كافة

- المسلمين، التاسع من شوال ١٣٣٥هـ/١٩١٧م.
- (٢٦) تحدثت كافة الكتابات المعنية بتلك الفترة والموقع عن الحادثة ومنها على سبيل المثال :
حافظ وهبه : جزيرة العرب ق ٢٠ . فؤاد حمزه : قلب جزيرة العرب.
- (٢٧) وثائق الحرم الملكى عام ١٣٤٩هـ/١٩٢٧م، رسالة موقع عليها من كبار تجار مكة المكرمة وإخوانهم تجار جدة إلى عبد العزيز بن سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها،
محرم ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م.
- (٢٨) وثائق الحرم الملكى : (أوضاع الإخوان الحجازيين) رسالة إلى آل عاصم وآل سمران وغيرهم من تجار الحجاز، ربيع أول ١٣٤٦هـ/يناير ١٩٢٨م.
- (٢٩)المصدر نفسه.
- (٣٠)المصدر نفسه.
- (٣١) وثائق الحرم الملكى : (توجيه إلى عموم المسلمين بأرض الحجاز) ٢٧ ربيع أول
١٣٤٦هـ/يناير ١٩٢٨م.
- (٣٢)المصدر نفسه.
- (٣٣)المصدر نفسه.
- (٣٤)المصدر نفسه.
- (٣٥) محكمة مكة المكرمة الشرعية : سجل رقم ١٣ لعام ١٣٣٤هـ/١٩١٦م.
- (٣٦)المصدر نفسه.
- (٣٧) وثائق الحرم الملكى عام ١٣٣٥هـ/١٩١٦م (مكتوب من مخلد الروقى العتيبيى إلى
عيسى بن راضى الحربى، عن الكيفية فى التصرف فى القروش المصروفه من
الشرىف حسين ١٣٣٥هـ.
- (٣٨) سجل محكمة مكة المكرمة الشرعية، سجل رقم ٢٢ ربيع الأول ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.
وسجل محكمة جدة الشرعية، سجل رقم ٥٣ جمادى الثانية ١٣٤٨هـ/١٩٢٨م. سجل
محكمة الطائف الشرعية، سجل رقم ٧ شعبان ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.
- (٣٩)السجلات السابقة للأعوام ١٣٤٨/٤٧هـ/١٩٢٨م.
- (٤٠) محكمة الطائف الشرعية، سجلات من رقم ٧ إلى ١١ من أعوام ١٣٤٧هـ إلى عام
١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.
- (٤١) واد يقع فى نهاية واد آخر أكبر هو وادى السيل، الذى يخرق جبال الحجاز ويصب
بالبحر الأحمر جنوبا بالقرب من منطقة تدعى (الخمرة).
- (٤٢) سجل محكمة جدة الشرعية رقم ٨٧ لعام ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.
- (٤٣)المصدر نفسه.

- (٤٤) سجل محكمة الطائف الشرعية : دفتر رقم ١١ (الدور ورعاياها) عام ١٣٥٠هـ/١٩٣٠م.
- (٤٥) سجل محكمة جدة الشرعية : دفتر رقم ٦٨ (عقارات وأبنية يوجب عليها الزكاة) عام ١٣٥٠هـ/١٩٣٠م.
- (٤٦) سجل محكمة مكة المكرمة الشرعية : سجل رقم ٣١ بيان الشيوخ ممن يحق لهم تقديمها لخدمة الحجيج وعليها زكاة مال عام ١٣٥٠هـ/١٩٣٠م.
- (٤٧) سجل محكمة الطائف دفتر رقم ١١ .
- (٤٨) سجل محكمة جدة الشرعية : دفتر رقم ٦٨ السابق.
- (٤٩) سجل محكمة مكة المكرمة الشرعية : الدفتر رقم ٣١ السابق.
- (٥٠) ذات السجلات السابقة أرقام ١١، ٦٨، ٣١ .
- (٥٠) السجلات السابقة ذاتها أرقام ١١، ٦٨، ٣١ .
- (٥١) محكمة الطائف الشرعية : سجل رقم ١٩ (الزكاة الشرعية) المقررة عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٤م).
- (٥٢) سجل محكمة مكة المكرمة : رقم ٤٧ المصارف الشرعية للأموال ١٣٥٥هـ/١٩٣٤م.
- (٥٣) سجل محكمة جدة الشرعية : رقم ٦٩ الزكاة الشرعية عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٤م.
- (٥٤) سجل محكمة مكة المكرمة : رقم ٤٧ السابق نفسه.
- (٥٥) انظر عن بناء الدولة السعودية (مراحل وخطواته)
- عبد العليم أبو هيكل : بناء الدولة السعودية فى عهد الملك عبد العزيز بن سعود ١٩٣٢/١٩٥٣م. رسالة دكتوراة غير منشورة ... هذا فضلاً عن التنظيم فى تسجيل الأحداث والأوراق لبدائية الإدارة وقتئذ مما يستحيل معه تتبع مثل هذه الموضوعات.

الفصل الخامس

حركة الشيخ عز الدين القسام

عادل حسن غنيم (*)

حركة الشيخ عز الدين القسام هي أول حركة جهادية منظمة حدثت في فلسطين خلال الانتداب البريطاني للبلاد (١٩٢٢-١٩٤٨م). وقد تكونت الحركة خلال النصف الأول من الثلاثينيات من القرن العشرين لكنها خاضت معركتها الحاسمة مع الاستعمار البريطاني في ٢٠ نوفمبر ١٩٣٥م. وأقول إنها حركة منظمة لأن هناك شواهد عديدة تدل على ذلك :

أولاً : أن القسام كان يحسن اختيار رجاله ويختبرهم في بعض المواقف.

ثانياً : أنه كان يقسم رجاله إلى عدد من الوحدات العسكرية المتخصصة.

ثالثاً : أنه كان يعد أعضاء التنظيم الإعداد النفسي والبدني الجيد.

رابعاً : أنه كان يستعين في تدريبهم بمتخصصين من ذوي الخبرة في التدريب.

خامساً : أنه بتوجيه من القسام تمكن أحد رجاله من صنع قنابل ألغام في معمل بحيفا.

وقد يسأل سائل لماذا لم تحدث حركات جهادية في سنوات العشرينيات من القرن العشرين. ولهؤلاء نقول أن ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى أن عمليات الهجرة اليهودية إلى فلسطين كانت قليلة، ففي معظم سنوات العشرينيات حتى عام ١٩٣٢ كان عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين لا يتجاوز العشرة آلاف وبعض السنوات أقل من خمسة آلاف حتى أنه في عام ١٩٢٧ كان عدد اليهود الذين خرجوا من فلسطين حوالي ضعف من هاجر إليها، وفي عام ١٩٢٨ كان العدد متقارباً، وبدا الأمر كما لو أن تجربة الوطن القومي اليهودي لن تحقق نجاحاً.

وإضافة لهذا كانت قيادة الحركة الوطنية في فلسطين طوال العشرينيات تعتقد أن الصهيونية وليس الاستعمار هي العدو الأول الذي ينبغي على الشعب

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية الآداب - جامعة عين شمس.

العربي في فلسطين مواجهته، وأنه ينبغي التخلص منها أولاً حتى يمكن التفاهم مع الانتداب، وظلت قيادة الحركة الوطنية في فلسطين طوال تلك السنوات تأمل خيراً في بريطانيا، وتتوقع منها في نهاية الأمر أن تستجيب لمطالب البلاد وتتخلى عن سياستها التهودية، غير مدركة لحقيقة العلاقة التي تربط الاستعمار بالصهيونية.

لكنه خلال سنوات النصف الأول من الثلاثينيات حدثت تغييرات هامة، لكنها لم تكن تغييرات في الأهداف السياسية للحركة الوطنية، بل كانت تغييرات في أساليب الحركة الوطنية ووسائلها، فمع تدفق أعداد المهاجرين الصهيونيين إلى فلسطين اعتباراً من عام ١٩٣٣م أي بعد وصول النازية إلى الحكم في ألمانيا، ومع زيادة امتلاك الصهيونية للأراضي الزراعية، ومع ازدياد نضج عرب فلسطين سياسياً وإدراكهم لحقيقة الاستعمار وفهمهم لمناوراتهم وأساليبهم، انبعثت الدعوة قوية إلى اتباع سياسة أخرى غير سياسة الاحتجاجات والوسائل السلمية، فقد بذلت محاولات للحفاظ على الأراضي العربية وبناء اقتصاديات البلاد، وأسهم الشباب بدور واضح في ميدان الحركة الوطنية، ونظمت الدوريات لمراقبة الشواطئ منعاً للهجرة غير القانونية، وارتفعت رايات الكفاح المسلح ضد الاستعمار البريطاني، وتشكلت في تلك الفترة جماعات سرية نضالية أمنت بالكفاح المسلح طريقاً لمكافحة الاستعمار والصهيونية، وكان أهم تلك الجماعات جماعة الشيخ عز الدين القسام رائد الكفاح المسلح في فلسطين في وجه بريطانيا.

وأما عن نشأة عز الدين القسام فهو سوري الأصل، ولد في بلدة جبلة التابعة لقضاء اللاذقية عام ١٨٧١م، ونشأ في بيت من بيوت العلم والأدب، وبعد أن درس العلوم الابتدائية أرسله والده إلى الأزهر الشريف حيث تلقى عن الإمام محمد عبده، كما ألم بالتيارات الفكرية التي كانت تموج بها مصر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وتابع الصراع الفكري الذي كان قائماً في ذلك الوقت بين الأصوليين ودعاة التغريب، كما تعرف خلال وجوده في مصر على النشاط الوطني المعادي للاستعمار البريطاني وعلى الحركة الصهيونية الناشئة، حيث زار مصر أوائل القرن العشرين ثيودور هرتسل مؤسس الحركة الصهيونية، ليدرس مع قادة الاحتلال البريطاني في مصر إمكانية إنشاء وطن قومي لليهود في سيناء. ثم عاد إلى بلده بعد سنوات عديدة، وعكف على التدريس في جامع السلطان إبراهيم بن أدهم. وطبقاً لما ذكره سميح

القاسم فقد حاول الشيخ عز الدين القسام تعبئة الجهود لمقاومة احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى، وقام بحملة تبرعات من أموال الزكاة للإنفاق على احتياجات المتطوعين وأسراهم، واتصل بالسلطات العثمانية التي أبدت ترحيبًا كبيرًا بالفكرة، وطلبت من المتطوعين السفر إلى الإسكندرونة تمهيدًا للانتقال إلى طرابلس الغرب، لكن المتطوعين بعد وصولهم إلى الإسكندرونة والانتظار فيها أكثر من شهر دون جدوى تلقوا الأمر من السلطات العثمانية بالعودة من حيث جاءوا، فبنوا بأموال التبرعات مدرسة لتعليم الأميين، وفي هذا دليل على فهم القسام الجيد لرسالة الإسلام حيث اعتبر محاربة الأمية جهادًا في سبيل الله.

ولم يكتف القسام بنشر العلم بل شارك في حركة الجهاد، فانضم إلى عصبة عمر البيطار، ثم اشترك مع صالح العلي في ثورته ضد الفرنسيين في شمالي سوريا (١٩٢٠-١٩٢١)، وأرسلت إليه السلطة العسكرية رسولا يعده بتوليته القضاء وبذل العطاء له، فرد الرسول خائبًا مما دفع الديوان العرفي في اللاذقية إلى الحكم عليه بالإعدام. مما اضطر القسام إلى اللجوء إلى حيفا في الخامس من شهر فبراير ١٩٢٢م واستوطن فيها وتولى التدريس في جامع النصر، والخطابة في جامع الاستقلال في حيفا. كما أسس مدرسة ليالية لتعليم الأميين من العرب^(١).

وكانت حيفا عندما هبط بها القسام سريعة النمو في عمرانها، فهي مرفأ فلسطين الأول وأقرب مدنها إلى لبنان، وهي بلدة متعددة الأقوام والجنسيات، وهي قاعدة التهويد مما أسبغ عليها حساسية خاصة. ووجد القسام في جمعية الشبان المسلمين التي تألقت في حيفا عام ١٩٢٧ فرصة لتوسيع نطاق علاقاته بالناس، فكان رئيسها وحامل لوائها. ويقول رشيد الحاج إبراهيم " لعل القسام هنا بدأ في ممارسة ما كانت نفسه تتوق إليه، وهو أن ينشئ عصبة بعد عصبة من أهل الإيمان بهدف الثورة يومًا ما " وإذا بالقسام بعد عدة سنوات يكون عصبة سرية كان بعض أفرادها من جمعية الشبان المسلمين وبعضهم الآخر من خارج هذه الجمعية.

أما موضوع جمع المال اللازم لهذه الحركة فكان له مصدران : المصدر الأول هو الاشتراك الشهري الذي كان يسده الأعضاء وكان جيدًا، وأما المصدر الثاني فكان التبرع الطوعي الذي كان يجرى على أسس العقيدة الإسلامية.

وكان عدد كبير من إخوان القسام ذا وضع مالي حسن، فكان منهم المزارع الكبير والتاجر والمقاول، وكانت أرباحهم وفيرة، وكان العديد منهم يتبرعون بالكثير من الأموال، كما أن بعض الثوار كانوا على صلة حسنة مع بعض الأثرياء، فكانوا يحصلون منهم على بعض الأموال طواعية^(١).

وكان الشيخ القسام ذا شخصية جذابة، حسن السيرة والمعاشرة، محدثًا لبقًا وخطيبًا بارعًا، وابتدأ بالخروج إلى القرى منذ عام ١٩٣٠م عندما عين مأذونًا شرعيًا من قبل المحكمة الشرعية فكان بمقتضى هذه الوظيفة يحضر حفلات الأعراس، مما أعطاه فرصة للقاء الجماهير، وكان القسام يتصل بسائر قوى الشعب لا فرق بين متدين وغيره، اعتقادًا منه أن إصلاح المستهترين أولى من إصلاح غيرهم، وكان هذا الأسلوب محل انتقاد موجه إليه من بعض الشخصيات، حتى أنه جرت بينه وبين بعض المتقنين مناظرات في هذا الصدد، مثل تلك التي حدثت مع الشيخ صالح الحوراني، فكان يفحم خصومه.

وقد ذكر الكثيرون من إخوان الشيخ القسام أنه كان يراقب المصلين وهو يخطب فوق منبر المسجد، ويدعو من يتوسم فيه الخير والاستعداد إلى زيارته في منزله، وتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل لإنقاذ فلسطين مما يهددها من أخطار.

وكان القسام يستعين على قضاء حوائجه بالكتمان، فكان لا يبوح بالسر الكبير الذي يحمله، وهو الدعوة إلى الثورة لمنع إقامة وطن قومي يهودي في أرض فلسطين إلا لأشخاص قلائل، بعد أن يدرس نفسياتهم دراسة كافية لمدة قد تطول عدة سنوات. واستمر القسام يعمل بكل الوسائل لتأسيس نواة صالحة من عرب فلسطين، يهيئهم للانطلاق في الوقت المناسب نحو الثورة^(٢).

وكان القسام يدعو إلى اتحاد الكلمة ولم الشعب وكان يبث روح الوطنية في النفوس، مناديًا بالعودة إلى تعاليم السلف الصالح، منددًا بالفرقة منذرًا قومه بعواقب الشقاق والتمزق^(٤). واثق مع بعض الخالص من أصدقائه على حمل راية الثورة، وتعاهدوا على أن يقدموا حياتهم فداء على مذبح الوطن، ليعطوا لأبناء أمتهم درسًا بليغًا في التضحية^(٥).

وكان القسام يقوم بتدريب رجاله في رحلات ليلية، كما كانوا يقومون بحركات استطلاعية يتمرنون في أثناءها على إصابة الهدف. ولم يكتف القسام بخبرته في مجال التدريب، بل استعان بضباط مدرّبين عديدين كان أشهرهم

ضابط تركي له خبرته في هذا المجال، وحدد له راتبًا شهريًا^(٦).

وطبقًا لما رواه صبحي ياسين كان القسام يقسم إخوانه إلى عدة وحدات عسكرية منظمة: وحدة خاصة بشراء السلاح وأخرى للتدريب العسكري وثالثة للتجسس على البريطانيين والصهيونيين ورابعة للدعاية للثورة في المساجد والمجتمعات وخامسة للاتصالات السياسية، وهذا كله برغم إمكانياته المحدودة ورغم مراقبة السلطة لسائر تحركاته^(٧).

وقد ركز القسام اهتمامه بنشر مبادئه بين العمال والفلاحين والباعة الذين كانوا يحضرون دروسه^(٨). كما كان متصلًا بأوساط العمال في حيفا، وكانت روحه وعظاته منسجمة مع فكرة الجهاد حيث تكونت حوله حلقة جهادية متدينة^(٩).

وكان القسام يلوم العلماء على تهاونهم في الدعوة إلى الجهاد، وحملهم مسؤولية الوضع الجائر الذي كانت تتوء فلسطين تحت أقاله، وكان يردد على شفثيه في كل مناسبة آيات من كتاب الله تتعلق بالجهاد والاستشهاد^(١٠). ولم يكن الشيخ القسام بالمتسرع أو المنذفع، فقد كان شيخًا وقورًا، كما أنه زوج وأب لبضع بنات وأطفال صغار، وهو فوق ذلك عالم كبير وشيخ جليل، فهو والحالة هذه، رجل عاقل مسئول يدرك ماذا يصنع ويفهمه كل الفهم^(١١). وكان القسام يؤمن بأن عرب فلسطين إذا شاءوا أن يحيوا في بلادهم ويدروا عنها الخطر الاستعماري والصهيوني، فعليهم أن يبادروا إلى ذلك معتمدين على أنفسهم فقط، غير منتظرين أن تهبط عليهم النجدات من السماء أو تأتي إليهم من وراء الحدود، لأنه كان يدرك أن كل بلد عربي لديه ما يشغله من مشاكله الخاصة أو يمنعه من تقديم المساعدة والعون لعرب فلسطين^(١٢).

ويروي صبحي ياسين أنه حدث بعد انتفاضة البراق عام ١٩٢٩ انقسام داخلي في حلقات الشيخ القسام، فقد انشق عدد من إخوانه على رأسهم أبو إبراهيم الكبير (خليل محمد عيسى) حيث أنهم رأوا أن الوقت قد حان لإعلان الثورة، حيث يرون الخطر يهدد كيان البلاد، ولم يكن الشيخ القسام موافقًا على ذلك حيث أن الإعداد للثورة لم يكن قد اكتمل بعد.

لكن إبراهيم الشيخ خليل أحد رفاق القسام يؤكد أنه لم يحدث انشقاق على الإطلاق بين القسام وإخوانه بل كان الوافق على أشده، ولم يحدث الانشقاق بمفهومه لا في حياة القسام ولا بعد استشهاده لسبب بسيط جدًا، وهو أن القسام

كان يدعو إلى الجهاد على أساس ديني، وأن مفهوم الجهاد على أساس ديني لا يوجد به اشكالات أو تعقيدات لأن كل ما يتعلق بالجهاد محكوم بآيات قرآنية معروفة، وأنه كان هناك شعار واحد انضوى الجميع تحته وهو "هذا جهاد، نصر واستشهاد".

ويضيف إبراهيم الشيخ خليل أن ما حدث من خلاف كان بسيطاً حول توقيت إعلان الثورة، ففي أوائل ١٩٣٥ رأى القسام أن الإنجليز يراقبون تحركات الثورة، وأنهم قد يفسدون مخططات الثورة في حالة اعتقال الثوار، وأنه يرى الخروج إلى الجبال والطواف بالقرى لحث المواطنين على الاستعداد للثورة، لكن أبا إبراهيم الكبير وبعض الثوار كانوا يرون التريث في الخروج إلى الجبال مسلحين بل الطواف بالقرى دون سلاح وحث المواطنين على الاستعداد، لكن هذا الخلاف البسيط لم يؤثر على حركة الثوار حيث لبى الجميع النداء عندما حزم القسام أمره على الخروج إلى الجبال، وأرسل أبو إبراهيم ما في صندوق التنظيم من مال وقدره مائة جنيه إلى القسام، وهذا دليل واضح على بساطة الخلاف في هذا الشأن.

وقد ظل أمر هذا الخلاف غير معروف للحكومة أكثر من خمس سنوات، ودل على تقدير رجال هذه العصبة لرسالتهم حتى وإن اختلفوا على الوسائل والتفاصيل. وقد ظل المختلفون بعد ذلك يعملون سراً ضمن مخطط القسام الثوري.

وفي السنوات التي تلت انتفاضة البراق عام ١٩٢٩ كان نفر من الشباب المتحمس من إخوان القسام يرغب في التعبير عن شعور السخط على سياسة تهويد فلسطين بقتل من يمكن قتله من الصهيونيين. وفي عام ١٩٣٣ تمكن أحمد الغلاييني من صنع قنابل ألغام في معمله بمدينة حيفا، وأعطى ما صنع منها وعدده قنبلتان إلى الحاج صالح أحمد طه من قرية صفورية، فكان يذهب في بعض الليالي إلى المستعمرات الصهيونية الواقعة في مرج ابن عامر مع أحمد التوبة ومصطفى على الأحمد ويطلق النار على من يجد من الصهيونيين. وأما بالنسبة للقنبلتين فقد وضع الحاج صالح أول قنبلة منها في مسكن أربعة حراس صهيونيين في مستعمرة نهلال "الواقعة بين حيفا والناصره" فقتلت القنبلة اثنين وجرحت آخرين، ولم يكشف سر القنبلة إلا بعد ثلاثة أشهر بالرغم من جهود رجال الشرطة. فقد اكتشف الحادث عندما قامت قوة من رجال الشرطة بتطويق قرية صفورية وصادرت بندقية حربية وقنبلة مماثلة للقنبلة التي أقيت في نهلال

في منزل مصطفى الأحمد الذي استعملت معه سائر وسائل التعذيب الوحشية حتى اعترف بالحادث تفصيلاً، فاعتقل أحمد الغلاييني صانع القنبلة وإبراهيم أحمد طه وأحمد التوبة وآخرون منهم خليل عيسى "أبو إبراهيم الكبير فيما بعد" وجرت محاكمتهم حيث حكم على مصطفى علي الأحمد بالإعدام ونفذ الحكم فيه، وحكم بالسجن خمسة عشر عاماً على صانع القنبلة أحمد الغلاييني وبرئ الآخرون^(١٣). ويروي عجاج نويهض أن الغلاييني بقي في السجن حتى عام ١٩٤٤، وأنه تابع نشاطه الوطني بعد الإفراج عنه.

وقد تبع ذلك محاولتان أخريان قام بهما رجال القسام على سبيل التجربة، الأولى في مستعمرة عثليت عندما فاجأوا الصهيونيين وقتلوا عدداً منهم، والثانية قرب قرية "الياجور" عندما تصدوا لسيارات كثيرة كانت تنقل العمال الصهيونيين من مستعمرة إلى أخرى وقضوا على عدد منهم^(١٤). وقد أشار التقرير السنوي لحكومة الانتداب لعام ١٩٣٥ إلى أن الحكومة كان لديها شك كبير في أن لعصابة الشيخ القسام علاقة بالأعمال الإرهابية التي حدثت خلال السنوات السابقة^(١٥). وكانت تلك العصبة تعمل في طي الكتمان، فلم يكن يعرف من كان يقوم بتلك الأعمال غير نزر يسير من الوطنيين، ولكن لم يلبث الشيخ القسام وعصبته أن قرروا القيام بأعمال الجهاد علانية لرفع معنويات الجماهير العربية وإبرازاً للأهداف التي يجاهدون في سبيل تحقيقها، وإحباطاً للدعاية المعادية التي كانت تحاول إظهار أعمال القساميين بأنها أعمال إجرامية، وأنهم لم يكونوا سوى عصابة للسلب والنهب^(١٦).

فعندما اشتد خطر الهجرة الصهيونية وانكشف كُمر تسلح الصهيونيين سرّاً بمساعدة السلطات البريطانية، أصبح الوضع السياسي لا يحتمل مزيداً من التأجيل، وتقرر البدء بالتحرك من أجل الثورة في الأراضي الجبلية، وعقد اجتماع في مدينة حيفا مركز الثورة الرئيسي في منزل محمود سالم المخزومي ليلة الثاني عشر من نوفمبر ١٩٣٥^(١٧). وباع أصحاب القسام حلي زوجاتهم وبعض أثاثهم، واشتروا بثمنها رصاصاً وبنادق، ثم قصدوا جبال يعبد القريبة من مدينة حيفا، بل القريبة من مرسى الأسطول البريطاني، غير عابثين بقوة بريطانيا المسلحة. وهذا يدل على أن القوم كانوا يعرفون مصيرهم، وأنه الشهادة في سبيل الله^(١٨). ويؤثر عن رجال القسام أن كل واحد منهم كان يحمل في جيبه نسخة من القرآن الكريم الذي اتخذوه قدوة لهم^(١٩). وكانوا يرون أن كل السعادة في بلوغ مرتبة الشهادة والانتقال إلى الحياة الأخرى للتمتع بما أعده الله

للمجاهدين والشهداء من نعيم مقيم^(٢٠).

وطبقاً لما رواه دروزة وهو من أدق المصادر أن عدد الذين خرجوا مع القسام كانوا عشرة، وهم : يوسف الزيباوي (من قرية الزيب)، وحنيفة المصري (من القطر المصري)، ونمر السعدي (من غابة شفا عمرو)، وأسعد المفلح (من قرية أم الفحم)، وحسن البابر (من قرية برقين)، وأحمد عبدالرحمن جابر (من قرية عنتبا)، وعرابي البدوي (من قرية قبلان)، ومحمد يوسف (من قرية سبسطية)، ومحمد الحلولي (من قرية حلحول) ومعروف الحاج جابر (من قرية يعبد)، وأنهم دعوا إخوانهم الباقين للانضمام إليهم^(٢١). ومروا وهم في طريقهم إلى غابات يعبد بمستعمرة عين حارود، فتعرض لهم حارس المستعمرة الصهيوني فقتله يوسف الزيباوي^(٢٢). وقد روى سكان قرية يعبد حيث كان القسام يربط بجماعته على مقربة منهم - أنهم لم يسألوهم أو يطلبوا منهم شيئاً في يوم من الأيام، بل كانوا يأوون إلى كهوفهم في النهار يصلون ويقرأون القرآن، وفي الليل يخرجون إلى القتال^(٢٣).

وقد ذكرت بعض المراجع العربية أن أحد أفراد قوات الأمن - وكان معروفاً بأنه يعمل جاسوساً للسلطة المنتدبة - علم بالمكان الذي لجأ إليه القسام ورجاله، فدل السلطة عليه^(٢٤). وسارعت السلطة إلى قمع هذه الحركة الخطيرة قبل تفاقمها وأرسلت إلى الأحراش قوة مختلطة من البريطانيين والعرب - تساعدها طائرات استكشافية - فطوقت العصابة التي لم يكن أمامها بد سوى الدخول في المعركة الحاسمة قبل أوانها، رغم المفاجأة وعدم التكافؤ في القوة^(٢٥). وحين طلب من القسام أن يستسلم أجاب " إننا لن نستسلم. إن هذا جهاد في سبيل الله والوطن " والتفت إلى زملائه قائلاً " موتوا شهداء "^(٢٦). وحين رأى في القوة المحاصرة عددًا من الجنود العرب صاح في رجاله " إياكم ومقابلة رصاص الجنود العرب بمثله .. ولكن عليكم بالإنجليز، فاجعلوهم هدفاً رصاصكم "، وعلى هذه القاعدة دارت المعركة^(٢٧). وبعد قتال استمر عدة ساعات انتهت المعركة باستشهاد الشيخ القسام وعدد من رفاقه وأسرى الباقين، وأصدرت السلطة بلاغاً بالحادثة نعتت فيه القسام وصحبه بالاشقياء^(٢٨).

ويروي التقرير السنوي لحكومة الانتداب لعام ١٩٣٥^(٢٩) أن حادث مصرع جاويش من رجال الشرطة كان يقتفي أثر حادث سرقة في تلال الناصرة يوم ٧ نوفمبر هو الذي أدى سريعاً إلى اكتشاف وجود عصابة مسلحة بقيادة الشيخ عز الدين القسام بالقرب من هذا المكان، وأنه بعد هذا الحادث بعدة أيام

وقبيل اكتشاف عصابة القسام قتل أحد عساكر الشرطة بعد تبادل النيران مع أحد رجال القسام الذي قتل أيضاً، وأنه في يوم ٢٠ نوفمبر أطلق عيار مفاجئ على موقع به أحد رجال الشرطة كان يقوم بعملية بحث في التلال الواقعة غرب جنين بعدة أميال، وأدى هذا العيار إلى اكتشاف الموقع الرئيسي لعصابة القسام.

ومن الغريب أن نجد هناك اختلافاً بين المراجع العربية - حتى من عاصر منها هذا الحدث - في تحديد موعد هذه المعركة وعدد الذين استشهدوا مع الشيخ القسام. فيروي أحد المراجع أن هذه المعركة كانت في يوم الأربعاء الموافق الحادي عشر من أكتوبر ١٩٣٥، وأن عدد الذين استشهدوا مع الشيخ القسام كانوا اثنين فقط هما يوسف الزيباوي وحنيفة المصري، وأن اثنين جرحا هما نمر السعدي وأسعد المفلح، وأن الأحياء قد اعتقلوا بمن فيهم الجرحى، وأن أحد الرجال العشرة الذين خرجوا مع الشيخ القسام استشهد قبل واقعة يعبد بيومين، وأن معروف الحاج جابر لم يشهد المعركة، لكنه اعتقل بعد ذلك وحوكم باعتباره أحد أفراد العصبة^(٣٠). كما يروي مرجع آخر أن هذه المعركة كانت في اليوم الحادي عشر من أكتوبر عام ١٩٣٤ وليس عام ١٩٣٥، وأن الذين استشهدوا مع القسام هما الزيباوي وحنفي، وأن المفلح والسعدي قد جرحا وقبض على الجرحى وعلى الباقيين أحياء^(٣١). بينما يروي مرجع ثالث ويتفق معه الأستاذ عيسى السفري^(٣٢). والأستاذ نجيب صدقة في تحديد الموعد^(٣٣). أن هذه المعركة كانت يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٣٤ وأن الذين استشهدوا مع القسام كانوا أربعة لا اثنين وهم الشيخ يوسف عبدالله ومصطفى الزيباوي وحنفي عطية أحمد وأحمد أبو عطية أحمد، وأن الجند قبضوا على الذين ظلوا أحياء من رجال العصبة وهم الشيخ نمر السعدي وداود الخطاب ومحمود الزرعيني ومعروف الحاج جابر وأسعد المفلح وأحمد الحاج عبدالرحمن وعرابي بدوي^(٣٤). ويروي الأستاذ عمر أبو النصر أن المعركة كانت في الثلث الأخير من شهر نوفمبر ١٩٣٥، وأن الذين استشهدوا مع القسام كانوا أربعة هم الشيخ يوسف عبدالله ومصطفى الزيباوي وحنفي عطية أحمد وحمد بو قاسم خلف وأن الذين قبض عليهم من رجال القسام أربعة هم الشيخ نمر السعدي وداود الخطاب ومحمود الزرعيني ومحمود جابر^(٣٥).

ويروي صاحب " مجمع الآثار الإسلامية " أن المعركة حدثت يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٣٥ - ويتفق - معه في تحديد الموعد الأستاذ أكرم زعيتر^(٣٦). وأنها انتهت باستشهاد ثلاثة من رجال الشيخ القسام هم: الشيخ يوسف عبدالله الزيباوي

وحنفي عطية ومحمد أبو قاسم خلف^(٣٧). بينما يروي أحمد طربين المؤرخ السوري المعروف أن المعركة حدثت في نوفمبر ١٩٣٥ وأن أربعة من زملاء القسام استشهدوا وقبض على الباقين، بينما قتل جندي بريطاني وجرح آخران^(٣٨). كما يروي مرجع آخر أن المعركة حدثت يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٣٥^(٣٩). بينما روى أحد المراجع الصهيونية أن جماعة الشيخ القسام نشطت في تلال الجليل في بداية نوفمبر ١٩٣٥، وأن ثلاثة من الجماعة قتلوا مع الشيخ القسام في المعركة، وأنه وجدت فوق جثثهم نسخ من القرآن الكريم^(٤٠). ولكن تتبع الأحداث يؤكد أن هذه المعركة حدثت في الأشهر الأخيرة من عام ١٩٣٥، وبالتحديد في ٢٠ نوفمبر ١٩٣٥، وقد تأكدت هذه الحقيقة من مراجعة الصحف اليومية العربية الصادرة في ذلك الوقت^(٤١).

أما عن تحديد عدد وأسماء الذين خاضوا المعركة مع الشيخ القسام، وعدد وأسماء من استشهدوا أو أصيبوا فيها، فهذا أمر ما يزال يحتاج إلى تحقيق لم تتوافر وسائله بعد، وإن كان هناك شبه إجماع بين المراجع العربية على أن من بين من استشهد في هذه المعركة محمد حنفي أحمد (المصري) ويوسف الزيباوي. وهناك اختلاف بين الصحف المصرية حول تحديد اسم المصري الذي استشهد مع القسام حيث تروي جريدة المقطم أن اسمه هو " السيد قاسم المصري"^(٤٢). بينما تروي جريدة الأهرام أن اسمه " السيد أحمد عطية " من سكان القاهرة، وأنه كان يقيم في حيفا قبل ذلك باثنتين وعشرين عامًا، وأنه كان يشغل وظيفة "ورديان" في جمرح حيفا، وأنه كان زوجًا وأبًا لثلاث بنات صغيرات^(٤٣). لكن الاسم الذي ورد في كثير من المراجع هو "حنفي عطية أحمد".

تبقى بعد ذلك نقطة أخرى ما تزال تحتاج إلى تحقيق، وهي ما ذكرته بعض المراجع العربية^(٤٤). من أن القسام كان ينوي احتلال حيفا وإعلان ميلاد ثورة شعبية كبيرة. وإن كنت أرى على ضوء تطور الأحداث أن ذلك لم يكن أمرًا مطروحًا — على الأقل في تلك المرحلة — وأن تنفيذه كان يحتاج إلى مزيد من الرجال ومن العتاد ومن التهيئة الشعبية اللازمة التي لم تكن قد توافرت بعد بالقدر الذي يجعل هذا الهدف أمرًا قابلاً للتنفيذ في ذلك الوقت.

وقد أثارت هذه المعركة عواطف أبناء فلسطين وألهبت مشاعرهم، فقابلوها بمظاهرة جياشة من الأكابر، حتى خشيت السلطة من ذلك، فسلمت جثث الشهداء لذويهم وأغمضت العين عن الاحتفال بدفنهم^(٤٥). وقد نعي الشيخ عز الدين القسام وصحبه في مآذن المسجد الأقصى ومساجد فلسطين، وصلى الناس

عليهم في كل مكان صلاة الغائب^(٤٦). وسار موكب الجنازة مجلاً بالأعلام السورية والمصرية والعراقية والسعودية واليمنية^(٤٧). وقد حضر الجنازة جمهور كبير من المواطنين، وحيث الصحافة العربية الشيخ القسام كشهد للوطن والعقيدة. "أيها الصديق العزيز والشهيد. لقد سمعتك تعظ فوق منصة، مستنداً إلى سيف، أما اليوم وأنت في جوار الله، فقد أصبحت في مماتك أكثر عظة عما كنته في حياتك"^(٤٨). وقد أغلقت مدينة حيفا في ذلك اليوم، وصلى على الشهداء في المسجد الكبير، وانقلبت الجنازة إلى مظاهرة وأصيب عدد من رجال الشرطة البريطانيين، ولولا أن لزمت السلطة الصمت وسحبت جنودها لتطور الأمر إلى درجة كبيرة^(٤٩). وأبت الجماهير إلا أن تشيع الشيخ عز الدين القسام إلى مقره الأخير في قرية الياجور التي تبعد عن حيفا نحو عشرة كيلومترات سارتها على الأقدام حاملة نعش الشهيد، فكان مشهداً رائعاً من مشاهد الوطنية الحقة^(٥٠). ووطن أهل فلسطين إلى الغرض الذي أراده القسام باستشهاده فاحتفلت حيفا في أوائل يناير ١٩٣٦ بتأيينه وتأيين رفاقه بمناسبة مرور أربعين يوماً على استشهادهم احتفالاً رائعاً^(٥١).

وجرت يوم ١٩ أكتوبر ١٩٣٦ محاكمة جماعة الشيخ القسام، فحكم على كل من أحمد الحاج عبدالرحمن وحسن باير وعرابي بدوي بالسجن أربعة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة، وأسعد المفلح والشيخ نمر السعدي وداود على الخطاب ومعروف الحاج جابر بالسجن سنتين^(٥٢). وتضيف بعض المراجع اسماً آخر إلى الذين حكم عليهم بأربعة عشر عاماً وهو محمد يوسف، وأن المحكمة أوصت بمعاملة المحكوم عليهم معاملة خاصة وأن يعتبر تاريخ سجنهم من يوم ٢ مارس ١٩٣٦^(٥٣). وقد أعلن رجال القسام أمام المحكمة والقاضي البريطاني أنهم خرجوا لقتال البريطانيين لا اليهود^(٥٤).

أما الجاسوس الذي وشى بعصبة الشيخ القسام وهو أحمد نايف، فقد اغتاله المجاهدون في حيفا قبيل محاكمة جماعة المجاهدين^(٥٥). وأما الذين ساعدوا في القبض على المجاهدين أو شهدوا زوراً أثناء محاكمتهم، فقد اغتالهم المجاهدون في أوائل عام ١٩٣٧^(٥٦). وكان القساميون قد لجأوا في تلك الفترة إلى الاغتيالات الفردية لإرهاب الجواسيس وسماسة الأراضي، فاغتالوا كثيرين كان في مقدمتهم الضابط حليم بسطة مدير القلم السياسي في شرطة حيفا، وكانوا قد هاجموا في المرة الأولى وأطلقوا عليه الرصاص فجرحوه، فهاجموه بعد ذلك في رابعة النهار، ورموه سبعة عشر رصاصة استقرت في جسده، ولم يبرحوا المكان حتى

تركوه جثة هامدة، ثم انصرفوا دون أن يتعرض لهم أحد أو تعرف أسماؤهم^(٥٧).

وكان لاستشهاد القسام ورجالاته وللرصاصات التي أطلقوها صداها الطيب في نفوس عرب فلسطين، فقد أفهمتهم أن لسان القوة هو اللسان الوحيد الذي يجب أن تخاطب به السلطة المنتدبة، وأن لغة الرصاص هي اللغة الوحيدة التي تفهمها^(٥٨). وبرهن القسام على أن الكفاح المسلح والإيمان الوطني الصحيح هما الطريق لمقاومة المستعمر البريطاني والحركة الصهيونية، فاستيقظت فلسطين على استشهاده. ورغم أن المعركة لم تأخذ وقتاً طويلاً، لكن أثرها كان من حيث الروح لا المقدار، ومن حيث الكيف لا الكم. فقد دل القسام الجماهير على الطريق رغم إدراكه لقوة بريطانيا، وقاتل السلطة بعدد قليل من الرجال ليحيى في النفوس روح الثورية^(٥٩). وخرج بنفسه في أول معركة ليضرب المثل للجماهير، ويعلم الثوار كيف تكون القدوة الحسنة والنموذج الصالح. وكان ما فعله القسام أبلغ رد على سياسة زعماء فلسطين التقليديين، فلقد تقف ونظم وقاتل حتى مات شهيداً، غير آبه لجاه أو زعامة، وكانت سيرته مثلاً للكفاح والفداء، وكان المنهج الذي نهجه يخيف الزعامات، لأنه لا يكشفها فقط، بل يهددها بفقدان زعامتها، لهذا فإن الزعامات حرصت على عدم الاستفادة من الجو المتوتر الذي تولد عن بدء المقاومة، كما أن الزعماء لم يحضروا جنازة القسام، على الرغم من أن أكرم زعيتر – من رجال حزب الاستقلال – دعا الزعماء إلى الاشتراك في تشييع الجنازة، وكانت البرقيات التي أرسلوها باهتة باردة، ولم يكتفوا بهذا، بل أنهم اجتمعوا بالمندوب السامي قبل أن يمضي أسبوع على وفاة القسام، وقدموا له مذكرة حددوا فيها مطالب البلاد وأعطوه مهلة شهر للإجابة عليها^(٦٠).

وبذلك يكون الشيخ القسام أول من عمل عملاً مركزاً للثورة، وزرع بذور الحقد على الاستعمار البريطاني في فلسطين، وترك عشرات من رجاله يقومون بالدور البارز في الثورة التي اندلعت في فلسطين خلال الإضراب الذي بدأ في فلسطين في النصف الثاني من إبريل ١٩٣٦^(٦١). والذي كان هذا الحادث من حوافرها النفسية القوية^(٦٢). حتى أن بعض المراجع العربية تعتبر أن ثورة ١٩٣٦ قد بدأت يوم خرجت حيفا بشيوخها وشبابها ونسائها تضطرب في موجة حزن، حاملة إعلامها وراياتها مودعة الشيخ القسام وصحبه الشهداء^(٦٣). واعتبر مصدر آخر هذا الحدث مقدمة لثورة ١٩٣٦^(٦٤).

وقد أزعج القسام السلطة المنتدبة حتى بعد موته، فقد استدعى مدير المطبوعات أصحاب الصحف ورؤساء تحريرها، وحظر عليهم كتابة شيء عن

القسام وهدد بمحاكمتهم وتعطيل صحفهم، لكن السلطة سرعان ما رأت روح القسام تنتشر في الشعب كله خلال الإضراب الكبير الذي حدث بعد استشهاد القسام بعدة أشهر والذي دام ستة أشهر كاملة.

وقد تابع رجال القسام رسالة قائدهم حتى قبيل ثورة ١٩٣٦، ففي اليوم الثاني من استشهاد الشيخ القسام خرج الشيخ فرحان السعدي أحد مريديه مع جماعة من الأنصار إلى جبال صنف ورابط هناك^(٦٥). وفي الخامس من إبريل ١٩٣٦ قامت جماعة من إخوان القسام بقيادة الشيخ فرحان السعدي والسيد محمود ديراوي بالهجوم المسلح على السيارات الصهيونية بطريق نابلس - طولكرم، وقتلوا ثلاثة منهم وجرحوا آخرين، واختفوا عن النظار ليعيدوا الكرة من جديد، وأخذت الجماهير تفكر في الثورة المسلحة، وبدأ إخوان القسام من العلماء، يحرضون الشعب على القتال، وكان للعالم الشيخ كامل القصاب وزملائه دور بارز في هذا الصدد^(٦٦).

وفي ختام حديثي عن حركة الشيخ القسام، أود أن أناقش ثلاث نقاط هامة هي : هل كانت هذه الثورة تضم قطاعات معينة من المواطنين ؟ وهل استطاعت أن تجند عددًا كبيرًا من المواطنين ؟ وهل كانت هذه الحركة تابعة أو مرتبطة بحزب معين ؟.

أولاً : إن الذي يستوقف النظر في حركة الشيخ القسام أنها اقتصرت على قوى العمال والفلاحين وهدمهم، لكن التنظيم استعان بعدد محدود من المثقفين، مثل كامل القصاب الذي كان مستشارًا للتنظيم، وبعض الوجهاء، مثل فرحان السعدي الذي كان من قادة التنظيم، وبعض المدربين من موظفي الحكومة، لكن الغالبية العظمى في التنظيم كانوا من العمال والفلاحين.

ويقال أن أصحاب القسام بعد استشهاده كانوا يأبون انضمام أحد من الأفندية أو غيرهم من الضباط المدربين إلى حركتهم، مفضلين أن يتحملوا وحدهم عبء النضال. ويرجع أمين سعيد ذلك إلى أن القسام كان يرى الخير في أن تكون حركته قاصرة على العمال والفلاحين، لأنها أخلص القوى وأكثرها انقيادًا واستعدادًا للبذل والتضحية. لكن أحد رفقاء القسام يضيف أن اقتصر الحركة على العمال والفلاحين ربما كانت لمدى معين^(٦٧).

ثانيًا : أما عن عدد الذين استطاعت أن تجندهم حركة الشيخ القسام، فهناك شبه إجماع على أن عددهم كان قليلًا عند استشهاده. فقد ذكرت بعض

المراجع أن عددهم بلغ الخمسين^(٦٨). وذكر صبحي ياسين أن بعض إخوان القسام رووا له أن عدد المجاهدين الذين أعدمهم القسام للجهاد بلغوا في عام ١٩٣٥ مائتي مجاهد^(٦٩). بينما قدرهم بالمئات أمين سعيد، وقدرهم أحد رفقاء القسام بأن عددهم قد تجاوز المئات وأنه باعتقاده يربو على الآلاف^(٧٠). لكنني أعتقد على ضوء ما توافر لدينا من معلومات أن عدد الثوار الحقيقيين كان قليلاً وربما تعاطف الكثيرون معهم، وأن حركة الشيخ القسام على قلة عدد رجالها وصغر حجم المعارك التي خاضتها خلال عام ١٩٣٥، كانت معنى أكثر منها كماً، وكانت رمزاً للحركة الثورية التي ستسود فلسطين بعد عدة أشهر ثم تبلغ أوجها خلال ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩.

ثالثاً : أما بالنسبة لتبعية الشيخ القسام أو ارتباطه بحزب معين، فهناك خلافات متعددة في هذا الشأن. فقد ذكر الأستاذ دروزة أن القسام كان من الذين انتسبوا إلى حزب الاستقلال في حيفا، وأنه كان على صلة وثيقة ببعض أركانه^(٧١). وأنه كان لبعض زعماء الحركة الوطنية صلات مع التشكيلات الجهادية قبل ثورة ١٩٣٦، وأن من هؤلاء أمين الحسيني ومحمد عزة دروزة ومعين الماضي وصبحي الخضرا ورشيد الحاج إبراهيم^(٧٢). بينما ذكرت مصادر الهيئة العربية العليا أن القسام كان عضواً في لجنة الحزب العربي الفلسطيني التنفيذية، وأنه كان أكثر رجال الحزب العربي الفلسطيني اتصالاً بالمفتي وتعاوناً معه، وأنه انصرف إلى حركته بناء على اتفاق مع رجال الحركة الوطنية وتأييدهم له، وأنه تمت في خريف ١٩٣٥ مباحثات سرية بين القسام وزملائه وبين المفتي ورجال الحركة الوطنية بالقدس، انتهت بالاتفاق على انتهاج خطة معينة في مقارعة الأعداء^(٧٣). وأشارت مصادر أخرى إلى أن القسام لم يكن مؤمناً بأي حزب، ولم يكن مرتبطاً بأية جهة على الإطلاق، بل ذكر أحد رفقاء القسام أن ارتباطه الوحيد كان بالعقيدة الإسلامية وحدها^(٧٤). بل إن أحد المصادر ذكر أن القسام اجتمع مع أمين الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى حينذاك عدة مرات، طالباً منه تعيينه واعظاً عاماً متنقلاً، حتى يتمكن من الاتصال بسائر طبقات الشعب في المدن والقرى ومضارب البدو للإعداد للثورة، غير أن أمين الحسيني اعتذر له قائلاً " أننا نعمل لحل القضية سياسياً " وأن القسام عندما قرر القيام بثورته، أرسل أحد إخوانه (محمود سالم) الملقب بأبي أحمد القسام إلى أمين الحسيني، يخطره عن عزمه القيام بثورة في فلسطين للقضاء على فكرة الوطن القومي اليهودي. وكان ذلك قبل حركة القسام بأشهر قليلة، وأن رسول القسام

اتصل بالمفتي بواسطة الشيخ موسى العزراوي أحد أعوان الحاج أمين وأعلمه برغبة القسام، وهي أن يسرع أمين الحسيني في الإعداد للثورة في جنوب فلسطين، على أن يعد القسام للثورة في شمالي فلسطين، فأجاب الحاج أمين بواسطة العزراوي " أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل، وأن الجهود السياسية التي تبذل تكفي لحصول عرب فلسطين على حقوقهم " ويضيف المصدر نفسه أن القسام كان يقاوم بشدة إنفاق أموال الأوقاف في تشييد الأبنية (فندق الأوقاف بالقدس) وتزيين المساجد بما فيها المسجد الأقصى نفسه، لأن إعداد الشعب للجهاد وتسليحه لخوض المعركة أفضل وأحق من الأمور الشكلية التي يمكن إنجازها في أوقات أخرى أكثر مناسبة، خاصة وأن المبالغ التي أنفقت في ذلك قدرت بمئات الألوف من الجنيهات الإسترلينية التي كان بالإمكان تسليح خمسة آلاف مقاتل بها آنذاك، لكنه لم يؤخذ بهذا القول^(٧٥).

وقد تصدت نشرة " فلسطين " التي تصدرها الهيئة العربية في بيروت لهذا القول فنشرت بياناً لإخوان القسام ردوا فيه على ما جاء بالمصدر السابق، وأعلنوا أن الشيخ القسام وجميع إخوانه وزملائه وتلامذته كانوا يعملون بتعاون تام مع مفتي فلسطين وبتفاهم معه، وبتوجيه وتأييد منه وأن الشيخ كامل القصاب كان هو الوسيط الوحيد بين المركز الرئيسي للمجاهدين القساميين وبين المفتي، وأنه كان يسافر إلى القدس بين فترة وأخرى، ويعود حاملاً للمجاهدين التوجيه الوطني والمدد المادي^(٧٦).

تلك هي الآراء المختلفة التي قيلت في صدد حركة الشيخ القسام أو تبعيتها لحزب أو اتجاه معين، لكنني اعتقد من دراستي لهذه الحركة ومن تتبع أدوارها أنها لم تكن تابعة لأحد. وقد يكون للقسام علاقات مع الحزب العربي الفلسطيني أو مع حزب الاستقلال، وقد يكون على صلات طيبة مع قيادة الحركة الوطنية، لكن ذلك لا يعني ارتباطه بتلك الأحزاب أو تبعيته لقيادة الحركة الوطنية. والأمر في تقديري لا يحتاج إلى عناء كبير، فحركة الشيخ القسام تقوم على فكرة الجهاد المسلح ضد الاحتلال، وأن القوة وحدها هي التي تستطيع أن تمنع بريطانيا من إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين، ولم تكن الأحزاب ولا القيادات القائمة في فلسطين في ذلك الوقت تؤمن بهذه الفكرة وتدعو إلى انتهائها. وقد يكون هناك تعاون بين القسام وبين القيادات الوطنية، لكنني اعتقد - على ضوء ما توافر لدي من مصادر - أن الحركة لم تكن تابعة من حزب معين، بل كانت منبثقة من إحساس ديني عميق من رجال القسام، وكلهم من الفلاحين والعمال، بالخطر

الذي يهدد حياتهم من جراء استمرار الهجرة الصهيونية إلى فلسطين ونشاط حركة بيع الأراضي، وأن الوسائل السلمية والطرق المشروعة لم تعد تجدي فتيلاً، وأن العمل المسلح وحده هو الذي يستطيع أن يعيد الأمور إلى نصابها.

يبقى بعد ذلك تساؤل هام وهو : هل كان وراء هذه الحركة دافع اقتصادي أم أن هناك دوافع أخرى ساهمت في قيام هذه الحركة ؟ لقد كان للعامل الاقتصادي أثره من غير شك في حدوث هذه الحركة، لكن العامل الديني كان هو العامل الأساسي في قيامها. ويظهر ذلك بشكل واضح من دراسة شخصية الشيخ عز الدين القسام قائد هذه الحركة. فهو شخصية دينية عامة، ورجل ذو مكانة اجتماعية ووضع اقتصادي مستقر، لكن تربيته الدينية وفهمه للإسلام جعلاه رافضاً للظلم مستعداً لمقاومته، ليس لمجرد المساهمة في تحرير جزء من وطنه، بل تنفيذاً لما أمر به الله سبحانه وتعالى من وجوب الجهاد في سبيله ومقاومة الظلم والظالمين.

ثم نأتى إلى رجالات الشيخ عز الدين القسام، فنجدهم جميعاً من الرجال الذين التفوا حوله في المسجد واستجابوا لتعاليمه وعظاته، ولم يكونوا أفقر النماذج الاقتصادية في المجتمع الفلسطيني، فقد كان كل عضو يسلمح نفسه على حسابه الخاص ويبدل شيئاً مما يملك لعصيته، لكنهم كانوا في نفس الوقت من الذين يرون الخطر يهدد بلادهم، ويشاهدون الهجرات تتدفق على ميناء حيفا، ويحسون بما ينتظر البلاد من هلاك ودمار، وقد كان هناك على شاكلتهم كثيرون لم يتحول الإحساس بالخطر لديهم إلى تحرك ومقاومة مسلحة. فالعامل الديني أساساً هو الذي ملأ قلوبهم بالإيمان، وهو الذي حرك فيهم كوامن الغضب، وهو الذي جعلهم يتركون أولادهم وأزواجهم جهاداً في سبيل الله. ومن ناحية أخرى فقد كان الجو السياسي العام في فلسطين في تلك الفترة لا يشجع على قيام تحركات ثورية من هذا النوع، فالقيادة السياسية تؤمن بالنشاط السلمي ضد بريطانيا، والأغلبية العظمى من عرب فلسطين تستجيب لهذه القيادة، حتى وإن لم يصادف ذلك ميولها، لكن العامل الديني هو الذي دفع رجال هذه العصابة إلى الخروج على هذا الإطار الذي كان يحدد مسار الأحداث السياسية في فلسطين في ذلك الوقت، وإلى رفع شعار الثورة المسلحة تحريراً للبلاد ومقاومة للانتداب والصهيونية.

ولعلنا في نهاية هذا البحث نستطيع أن نتحدث عن القيمة التاريخية للشيخ عز الدين القسام :

أولاً : أنه من الشخصيات القيادية القليلة في تاريخنا العربي الحديث والمعاصر الذي تتمثل فيه فكرة استمرارية النضال، وخلال العقد الثاني من القرن العشرين عبأ الجهود لمقاومة الاحتلال الإيطالي لطرابلس الغرب. وخلال العقد الثالث كان من أوائل الذين حملوا السلاح وشاركوا في المقاومة ضد القوات الفرنسية. وخلال العقد الرابع نظم حركة المقاومة في فلسطين، وقاد أول معركة مسلحة ضد القوات البريطانية واستشهد خلالها.

فهو شخصية تتمثل فيها فكرة النضال الشعبي المستمر أو استمرارية الثورة.

ثانياً : أن القسام قيادة تتمثل فيها الأبعاد الوطنية والعربية والإسلامية، فكفاحه ضد الفرنسيين في سوريا وضد البريطانيين في فلسطين هو كفاح من أجل تحقيق الاستقلال الوطني، وحرصه على أن يضم إلى قيادته بعض الشخصيات العربية يمثل لنا البعد العربي في القيادة وحرصه على وحدة هذه الأمة، وأما البعد الإسلامي فيتمثل في فهمه الصحيح للإسلام وقناعته بأن الجهاد فرض عين على المسلمين بما فيهم علماء الدين.

وأما عن أهم نتائج حركة الشيخ عز الدين القسام، فيمكننا أن نجملها

فيما يلي :

أولاً : أنها مهدت لثورة ١٩٣٩/٣٦ التي استمرت حوالي ثلاث سنوات وكان من أبرز إنجازاتها تأجيل مشروع تقسيم فلسطين عشر سنوات كاملة. وهناك شبه إجماع من المؤرخين على أن حركة القسام كانت المقدمة الطبيعية للثورة.

ثانياً : أن الحركة قدمت الكثير من الرجال الذين لعبوا دوراً هاماً في ثورة ٣٦-١٩٣٩، وكانوا يمثلون قيادات المناطق خلال المرحلة الأولى من الثورة التي كان يقودها رسمياً فوزي القاوقجي ، كما كان الكثير منهم من قيادات المرحلة الثانية.

الهوامش

- (١) إبراهيم عيسى المصري : مجمع الآثار العربية ورجال النهضة الفكرية، الجزء الأول، ص١٥٢، ١٥١؛ صبحي ياسين : الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص١٩، ٢٠؛ عمر أبو النصر : الثورة العربية الفلسطينية، الجزء الأول، ص٢٧؛ سميح حمودة، الوعي والثورة، الطبعة الثانية، الأردن، دار الشروق للنشر والتوزيع، ١٩٨٦م، ص٢٢، ٢٤، ٢٥.
- (٢) الأنوار : العدد ٦٠٩، ٦٠٦، ١٩٦١، ص١٣، مقال لعجاج نويهض؛ شنون فلسطينية، مارس ١٩٧٢، رسالة من مجاهد قديم (إبراهيم الشيخ خليل)، ص٢٦٧-٢٦٩.

(٣) صبحي ياسين : مرجع سابق، ص ٢٠-٢٢؛ سميح حمودة : مرجع سابق، ص ٥٠.
(٤) عمر أبو النصر (وآخرون) : جهاد فلسطين العربية، ص ٢٧٠، ٢٧١.
(٥) عيسى السفري : فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، ص ٢٣٨.
(٦) محمد نمر الخطيب : من أثر النكبة، ص ٨٧، ٨٨؛ شئون فلسطينية، مارس ١٩٧٢، مرجع سابق.

(٧) صبحي ياسين : مرجع سابق، ص ٢٣.
(٨) أمين سعيد : ثورات العرب في القرن العشرين، ص ١١٧.
(٩) محمد عزة دروزة : حول الحركة العربية الحديثة، الجزء الثالث، ص ١١٦.
(١٠) الرابطة العربية : السنة الأولى، العدد ١٧، ١٦ سبتمبر ١٩٣٦، ص ٢٤.
(١١) اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة : عن ثورة فلسطين ١٩٣٦، ص ٤١، مقال لمحمد على الطاهر.

(١٢) الأنوار : المرجع والصفحة السابقان؛ شئون فلسطينية، مارس ١٩٧٢، مرجع سابق.

(١٣) صبحي ياسين : مرجع سابق، ص ٢٦، شئون فلسطينية، المرجع السابق.

(١٤) الأنوار : المرجع والصفحة السابقان.

Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of
Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of
Nations on the Administration of Palestine and Trans-Jordan for the Year
1935, p. 6.

(١٦) إميل الغوري : المؤامرة الكبرى : اغتيال فلسطين ومحق العرب، ص ٧٦، ٧٧.

(١٧) صبحي ياسين : مرجع سابق، ص ٢٥، ٢٦.

(١٨) اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة : المرجع والصفحة السابقان.

(١٩) الرابطة العربية : السنة الأولى، العدد ٢٤، ٤ نوفمبر ١٩٣٦، ص ٢٢، مقال لعبدالله مخلص.

(٢٠) الرابطة العربية : السنة الثانية، الجزء ٩٦، ٢٠ أبريل ١٩٣٨، ص ٢٤، مقال لأمين سعيد بعد زيارته لفلسطين.

(٢١) محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص ١١٦.

(٢٢) الأنوار : مرجع سابق،

(٢٣) الرابطة العربية : السنة الأولى، العدد ١٧، ١٦ سبتمبر ١٩٣٦، ص ٢٥.

(٢٤) فلسطين : العدد الثالث، ١٥ آذار ١٩٦١، ص ١٠.

(٢٥) محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص ١١٦.

(٢٦) ناجي علوش : المقاومة العربية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨، ص ١٠٣.

(٢٧) اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة : المرجع والصفحة السابقان.

- (٢٨) أكرم زعيتر : القضية الفلسطينية، ص٩٧، ٩٨ .
 (٢٩) انظر الهامش رقم ١٥ .
 (٣٠) محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص١١٦ .
 (٣١) الأنوار : مرجع سابق .
 (٣٢) عيسى السفري : مرجع سابق، ص٢٣٨ .
 (٣٣) نجيب صدقة : قضية فلسطين، ص١٧١، ١٧٢ .
 (٣٤) أمين سعيد : مرجع سابق، ص١١٧ .
 (٣٥) عمر أبو النصر (وآخران) : مرجع سابق، ص٢٧١، ٢٧٢ .
 (٣٤) أكرم زعيتر : مرجع سابق، ص٩٧، ٩٨ .
 (٣٧) إبراهيم عيسى المصري : مرجع سابق، ص١٥٢ .
 (٣٨) أحمد طربين : محاضرات في تاريخ قضية فلسطين، ص١٦٨ .
 (٣٩) أميل الغوري : مرجع سابق، ص٧٧ .
 (٤٠) Esco : Palestine : A Study of Jewish, Arab, and British Policies, vol.
 II. P. 784.

- (٤١) الأهرام : ٢٢ نوفمبر ١٩٣٥، ص٧، المقطم : ٢٢ نوفمبر ١٩٣٥، ص٥ .
 (٤٢) المقطم : المرجع والصفحة السابقتان .
 (٤٣) الأهرام : ٢٢ نوفمبر ١٩٣٥، ص٦ .
 (٤٤) صبحي ياسين : مرجع سابق، ص٢٨، ناجي علوش : مرجع سابق، ص١٠٤ .
 (٤٥) محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص١١٦، ١١٧ .
 (٤٦) المقطم : ٢٣ نوفمبر ١٩٣٥، ص٥ .
 (٤٧) الأهرام : ٢٢ نوفمبر ١٩٣٥، ص٧ .

(٤٨) The Secretary of State for the Colonies : Palestine Royal
 Commission. Report, p. 88.

- عيسى السفري : مرجع سابق، ص٢٣٨ .
 اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة : مرجع سابق، ص٤١، ٤٢، وصبجي ياسين، مرجع
 سابق، ص٢٩ .
 عمر أبو النصر (وآخران) : مرجع سابق، ص٢٧٢ .
 عيسى السفري : مرجع سابق، ص٢٣٨ .
 الرابطة العربية : السنة الأولى، ٤ نوفمبر ١٩٣٦، ص٢٢، مقال لعبدالله مخلص؛ صبجي
 ياسين : مرجع سابق، ص٢٨ .
 محمد نمر الخطيب : المرجع السابق، ص٨٨ .
 فلسطين : العدد الثالث، ١٥ آذار ١٩٦١، ص١٢؛ الرابطة العربية : السنة الأولى، ١٦

- سبتمبر ١٩٣٦، ص ٢٤، ٢٥.
- اللجنة الفلسطينية العربية بمصر : بيان إلى العالم الإنساني عن حالة المعتقلين بجوار عكا، ص ٦.
- الرابطة العربية : السنة الثانية، الجزء ٩٦، ٢٠ إبريل ١٩٣٨، ص ١٥، مقال بقلم أمين سعيد. زيارة له لفلسطين.
- أمين سعيد : مرجع سابق، ص ١١٨.
- الأنوار : مصدر سابق.
- ناجي علوش : مرجع سابق، ص ١٠٤.
- صبحي ياسين : مرجع سابق، ص ٢٩.
- محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص ١١٧.
- عمر أبو النصر (وآخران) : مرجع سابق، ص ٢٧٣-٢٧٥.
- أكرم زعيتر : مرجع سابق، ص ٩٧، ٩٨.
- الرابطة العربية : السنة الأولى، ١٦ سبتمبر ١٩٣٦، ص ٢٥.
- صبحي ياسين : مرجع سابق، ص ٢٩، ٣٠.
- الرابطة العربية : السنة الثانية، الجزء ٩٦، ٢٠ إبريل ١٩٣٨، ص ١٤، ١٦، مقال لأمين سعيد؛ شئون فلسطينية، مارس ١٩٧٢، مرجع سابق.
- محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص ١١٦.
- صبحي ياسين : مرجع سابق، ص ٢٣.
- الرابطة العربية : مرجع سابق، ص ١٤؛ شئون فلسطينية، مارس ١٩٧٢، مرجع سابق.
- محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص ١١٦.
- محمد عزة دروزة : من رسالة منه إلى الباحث مؤرخة في ١٤ أغسطس ١٩٦٤.
- فلسطين : العدد الثالث، ١٥ آذار ١٩٦١، ص ١٠.
- الأنوار، المصدر السابق؛ شئون فلسطينية، مارس ١٩٧٢، مرجع سابق.
- صبحي ياسين : مرجع سابق، ص ٢١، ٢٢.
- فلسطين، مرجع سابق، ص ٢٥، ٢٦.

الفصل السادس

الثورة من أزمة نادي ضباط الجيش

حتى اجتماع لجنة القيادة الأخير

١٩ أكتوبر ١٩٥١ - ظهر ٢٢ يوليو ١٩٥٢

فطين أحمد فريد^(*)

تمهيد

كان سردار الجيش المصري وهو بريطاني الجنسية يسكن فيلا فاخرة على الطراز الإنجليزي بحي الزمالك تحيط بها عدة أفدنه من المروج الخضراء، مما تزيل عن ساكنها أي إحساس بالغربة وتذكره دائماً بالريف الإنجليزي، وهي ذاتها الفيلا التي كان في طريقه إليها السردار "لي ستاك باشا" في ظهر يوم ٢٥ نوفمبر عام ١٩٢٤ حين اغتاله جماعة من الثوريين المصريين بعد خروجه من وزارة الحربية بشارع الفلكي . (١)

وبعد معاهدة عام ١٩٣٦ وإلغاء منصب السردار، كان آخر من غادر هذه الفيلا السردار الفريق سبنكس باشا لينتقل إلى المستعمرة التي شيدها لنفسه في ظلال أهرام الجيزة، وتعود الفيلا ومروجها إلى أصحابها، ويقام على مروجها ناد لضباط الجيش المصري عام ١٩٣٨ وتضم إليه الفيلا التي استضافت لعدة سنوات الاتحاد المصري الإنجليزي ثم اتسعت عمارته على النحو الذي نراه اليوم والذي شهد في الأسبوع الأخير من عام ١٩٥١ معركة بل أزمة كبرى لانتخاب أعضاء مجلس إدارة النادي، وهي في العادة حادث عابر ما كان ليدخل التاريخ لولا الملابس السياسية التي أحاطت به والنتائج بعيدة المدى التي تمخض عنها. (٢)

وقد يبدو للقارئ أن قضية انتخابات نادي الضباط مسألة تافهة لا تحتاج حتى للالتفات إليها، ولكن من يتعمق وراء هذه القضية يدرك أنه كانت تكمن

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد - جامعة قناة السويس.

فيها قوة الضباط الأحرار كتنظيم له كيان . لقد كانت انتخابات نادي الضباط هي المحك الذي أظهر قوة تنظيم الضباط الأحرار ، إذ تكتل التنظيم حول مرشحين معينين ونجح في جعلهم يفوزون بالعضوية في مجلس إدارة النادي، كما ساند التنظيم اللواء محمد نجيب ليفوز برئاسة مجلس إدارة النادي ، ولم يرشح من الضباط الأحرار سوي خمسة ضباط فازوا بالعضوية في مجلس إدارة النادي.⁽³⁾

ويكفي لتوضيح الأهمية التي أسفرت عنها هذه المعركة قول اللواء محمد نجيب - وكان الشخصية الأولى في هذه الملحمة - "إن انتخابات نادي الضباط كانت هي فعلاً الثورة وعندما يكتب التاريخ الحقيقي لثورة ٢٣ يوليو سوف يقرر المؤرخون أن الملكية قد انتهت في مصر بعد انتخابات نادي الضباط".⁽⁴⁾

من هذه الكلمات الموجزة يمكننا أن ندرك كيف أن انتخابات نادي الضباط حينذاك قد اعتبرت عاملاً مؤثراً في تطور الأحداث التي تلاحقت بعد ذلك وانتهت بنجاح تنظيم الضباط الأحرار ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من السيطرة على قيادة الجيش.

الدعوة لاجتماع الضباط

كان لابد من صدور لائحة تنظم شئون النادي ، ومن ثم صدرت أول لائحة له في عام ١٩٤١ ، قامت إدارة الجيش بصياغتها ، ولم تراع فيها مصلحة الضباط بقدر محاولة سيطرة رئاسة الجيش على شئون النادي.⁽⁵⁾

وكان من المفروض أن تقوم سلطة عليا للنادي تتمثل في الجمعية العمومية التي تمثل مجموعة من ضباط الجيش بالأسلحة المختلفة ، ومن ثم عملت إدارة الجيش على السيطرة على الجمعية عن طريق تعيين أعضائها بواسطة قادة الأسلحة، بدلاً من إجراء انتخابات عامة لها ، وعن طريق الحد من عدد الجمعية العمومية بحيث لا تمثل إلا نسبة ضئيلة جداً من مجموع ضباط الجيش . ولم تكتف رئاسة الجيش بهذه السيطرة، بل امتدت إلى إدارة النادي. كان من المفروض أن تقوم الجمعية العمومية للنادي بانتخاب مجلس إدارة النادي، ولكن إدارة الجيش دأبت على أن تشكل بمعرفتها مجالس إدارات من الأسلحة المختلفة، تقوم رئاسة الجيش بتعيينهم بين حين وآخر ، وتغييرهم من وقت لآخر دون أية ضوابط أو روابط.⁽⁶⁾ ولم يكن هذا الوضع مع ما فيه من شذوذ من حيث قوانين الأنديا المتعارف عليها مثاراً لخلاف أو جدل،

حتى بدأ اهتمام الجيل الجديد من ضباط القوات المسلحة بشئون الوطن السياسية وانفعاله بما يجري حوله من أحداث ذات طابع قومي وهي أحداث زخر بها عام ١٩٥١ .

وفي ١٥ سبتمبر عام ١٩٥١ عاد الملك فاروق من رحلته الترفيهية إلي جزيرة كابري الإيطالية ، وقبل عودته بأيام استقبل شيخ الأزهر عبد المجيد سليم بسبب نقده لسياسة الحكومة التي لخصها في جملة أصبحت متداولة علي الألسن هي : "تفتير هنا وتبذير هناك" وكان يشير بذلك إلي رحلة كابري وحياة البذخ والإسراف التي كان يعيشها الملك والتي كانت أخبارها شائعة، وكانت تلمح بها بعض الصحف والمجلات، نقلا عن وسائل الإعلام الأجنبية ، فضلاً عن ذلك فإن الأفكار كانت مهياة لهزة سياسية بسبب ما كان يؤخذ علي وزارة الوفد (7) المؤيدة بأغلبية جماهيرية من انحرافات، ضمننتها عريضة الأحزاب المعارضة التي رفعتها إلي القصر في تاريخ سابق ، غير أن المهادنة بين القصر وحزب الأغلبية لم تدع فرصة لإحداث أي تغيير في المسيرة ، في الوقت الذي بدأت تتبلور فيه التنظيمات السرية للضباط الأحرار والتي أخذت فيه المنشورات السرية التي تصدرها تثير علامات الاستفهام أو الدهشة أو الاستكار بين رجال القوات المسلحة عن الأحداث الجارية (8).

كان هذا هو الجو العام الذي جرت فيه الدعوة إلي اجتماع للضباط يعقد بحديقة النادي في يوم الجمعة ١٩ أكتوبر عام ١٩٥١ ، وكان صاحب الدعوة بكباشي المدفعية محمد رشاد مهنا، وقام بالترويج للدعوة الصاغ محمود جمال الدين حماد - مدير مكتب اللواء أركان الحرب محمد نجيب مدير سلاح المشاة - بناءً علي تعليمات من تنظيم الضباط الأحرار ، وذلك بين ضباط سلاحه وغيرهم فاستجاب لها نحو من ثلاثين ضابطاً كانت هي الطليعة المتواضعة لمعركة النادي . (9)

وفي عصر ذلك اليوم عقد الاجتماع المنشود في حديقة النادي وتولي رئاسته البكباشي محمد رشاد مهنا أكبر الحاضرين رتبة ، ودارت المناقشات حول استئثار إدارة الجيش وممثليها بشئون النادي وتبلورت المناقشات في صورة توصيات تدعو أولاً إلي عقد دورة غير عادية للجمعية العمومية، وهو حق يجيزه القانون إذا تقدم عشرون من أعضاء النادي علي الأقل إلي إدارة النادي بطلب مسبق لانعقادها . (10)

وعلي الفور تم اتفاق الحاضرين علي كتابة هذا الطلب ، وقاموا بتوقيعه ورفعته إلي إدارة النادي ووافق الفريق حيدر قائد عام الجيش علي طلب دعوة الجمعية العمومية غير العادية، ولم يشأ أن يتحدي مشاعر الضباط عسي أن يكتسب شعبية في الجيش تعيد إليه ثقة الملك.(11)

كان الجيش في تلك الوقت يغلي مع غليان الشعب ، ومع ذلك واصل الملك فاروق تصرفاته الحمقاء في إثارة الضباط ضده .فقد عين أحد رجاله في الجيش - اللواء حسين سري عامر - مديراً لسلاح الحدود بدلاً من اللواء أركان الحرب محمد نجيب الذي نقل إلي المشاة.(12)

وكان محمد نجيباً شخصية محترمة ومحبوبة ومتفقة . فهو حاصل علي ليسانس الحقوق وماجستير في القانون ، وخريج كلية أركان حرب . وكانت ثقافة محمد نجيب وأخلاقه الطيبة وتاريخه المجيد في حرب فلسطين تجعل منه موضع آمال "الضباط الأحرار" الذين كانوا يتطلعون إلي توثيق علاقتهم بأحد أصحاب الرتب الكبيرة . وكان عبد الحكيم عامر علي علاقة وثيقة بمحمد نجيب بحكم خدمته تحت قيادته في حرب فلسطين.(13) .

اجتماع الجمعية العمومية العادية لنادي ضباط الجيش

وقيل اجتماع الجمعية العمومية في الساعة الرابعة من مساء الحادي والثلاثين من ديسمبر عام ١٩٥١ حدث اجتماع بين محمد رشاد مهنا وبين تنظيم الضباط الأحرار "لجنة القاهرة" في منزل مجدي حسنين في عابدين، وحضر الاجتماع كل من زكريا محيي الدين وجمال سالم وحسن إبراهيم وعبد اللطيف البغدادي ، وكان محمد رشاد مهنا مستمعاً فقط، وفي نهاية الاجتماع اقترح عليهم أن يتضافر جميع الضباط للتركيز على عملية انتخابات نادي الضباط، وبذلك يمكن إثبات قوة تنظيم الضباط في مواجهة الفساد الملكي، واقترح أن يتفق الجميع على إنجاح محمد نجيب (14) ليكون رئيساً لمجلس إدارة النادي، وهو المنافس لحسين سري عامر قائد سلاح الحدود، ومرشح الملك لرئاسة النادي ، وبذلك يظهر الضباط تحديهم لإرادة القصر.(15)

والحقيقة أن صاحب فكرة ترشيح اللواء محمد نجيب لرئاسة مجلس إدارة نادي الضباط كان البكباشي رشاد مهنا ، وقد عرضها على الضباط الأحرار أثناء اجتماع لجنة القاهرة السابق الإشارة إليه، حيث رحب الضباط الأحرار بهذه الفكرة أشد ترحيب، وبناء على ذلك توجه البكباشي جمال عبد الناصر

والصاغ عبد الحكيم عامر لزيارة اللواء محمد نجيب، ليجداه في حالة سخط بسبب نقله المفاجئ إلى المشاة ، وأبلغهما أنه يعتزم الاستقالة من الجيش ، وأقنعاه بأن هذه الاستقالة سوف تبعث السرور في قلب الملك فاروق ، وطلباً منه الاستمرار ، وأن يحاول رد الصفحة إلى الملك بترشيح نفسه لرئاسة نادي الضباط . وهكذا وعلى خلاف ما يزعم البعض بدأت علاقات الضباط الأحرار باللواء محمد نجيب، وعرف بوجود تنظيم الضباط الأحرار منذ فترة مبكرة (16).

تم انعقاد الاجتماع في الساعة الرابعة من مساء يوم الحادي والثلاثين من ديسمبر بقاعة السينما بثكنات العباسية للنظر في التعديلات التي طرأت على قانون النادي ، وكانت هذه التعديلات قد أرسلتها رئاسات الأسلحة لأخذ رأي الضباط عليها قبل التصويت عليها من الجمعية العمومية. كانت هناك مادتان في القانون المقترح أثارتا النقاش والجدل وكان يكمن فيها أسباب النزاع : أولى المادتين هي المادة الثامنة ، وكانت تتعلق بتحديد الأسلحة التي تمثل في مجلس إدارة النادي ، ومن ثم بزغ نزاع حول سلاح الحدود ، لمحاولة ضمه كسلاح مستقل كبقية أسلحة الجيش، على الرغم من أن ضباطه المنتدبين من أسلحة أخرى ممثلون في مجلس إدارة النادي. والواقع أن أغلب الضباط في مساندتهم للرأي الذي يقول بأن سلاح الحدود ليس سلاحاً قائماً بذاته ، كان يكمن في تحدي الضباط لمدير سلاح الحدود اللواء حسين سري عامر الذي أبعده بسببه من منصبه اللواء محمد نجيب مدير الحدود السابق ، بعد أن أصر الملك على تعيين رجل السراي اللواء حسين سري عامر في هذا المنصب، وكان اللواء حسين سري تحوم حوله الريب والشبهات طوال مدة خدمته في سلاح الحدود فضلاً عن اتهامه في قضية الأسلحة الفاسدة والتحقيق معه بواسطة النيابة العامة. أما المادة الأخرى فكانت المادة التاسعة ، وتتص على أن تقوم الجمعية العمومية مجتمعة بانتخاب ممثلي الأسلحة المختلفة في مجلس إدارة النادي ، وهذا من شأنه أن يصبح الانتخاب صادقاً مثلاً لإرادة الضباط، ولكن القصر خشي من تكثف الضباط واتحاد كلمتهم ، فعمل على ترويض اتجاه آخر هو أن يقوم ضباط كل سلاح من أسلحة الجيش بانتخاب ضباطه على أساس أن كل سلاح أدري بضباطه ، ولم يكن هدفه من وراء ذلك سوي تفرقة كلمة الضباط (17) .

حضر الاجتماع حوالي (٤٥٥) ضابطاً وهو أكثر من العدد القانوني الذي يقتضيه اجتماع الجمعية العمومية العادية (أكثر من ١٠% من مجموعة أعضاء النادي). وكان رئيس إدارة الجيش ورئيس هيئة أركان حرب عثمان المهدي

باشا خارج قاعة الاجتماع ،ونبها على البكباشي محمد رشاد مهنا بعدم اعتلاء المنصة لإعطاء الفرصة للمجلس القديم بإدارة الجلسة وافتتح رئيس اللجنة التنفيذية للنادي الأميرلاي جلال صبري الجلسة ولما تليت مقترحات تعديل اللائحة كما أراد محمد رشاد مهنا، اختلفت الآراء وكاد الاجتماع يفشل لكثرة الجدل وهنا طلب رئيس هيئة أركان حرب من محمد رشاد مهنا أن يعتلي المنصة إنقاداً للموقف، وسيطر محمد رشاد مهنا على الموقف، حيث اقترح مباشرة وفي الحال عرض مشروع اللائحة الداخلية المقترحة (وكانت المقترحات تتضمن صراحة على ضرورة إجراء الانتخابات) وعرضها للتصويت دون مناقشة، وكانت نتيجة التصويت أنها حازت الموافقة بأغلبية الأصوات، وبالتصفيق المتواصل من أغلبية الحاضرين، وطالب أحد ضباط سلاح الحدود من أعوان حسين سري عامر بضرورة تمثيل سلاح الحدود بعضو في مجلس الإدارة الذي سينتخب فوراً، وعارض محمد رشاد مهنا بالحجة القوية بأن سلاح الحدود لا يعتبر سلاحاً قائماً بذاته، لأن جميع ضباطه منتدبون من أسلحة مختلفة وأن لكل منها مكان في مجلس الإدارة والمقترح انتخابهم في الجلسة نفسها ، وانتقل محمد رشاد مهنا مباشرة إلي طلب إجراء عملية الانتخابات التي تمت على الفور (18) .

وقد تقدم لانتخابات الرياسة مدير سلاح المشاة اللواء أركان الحرب محمد نجيب ، اللواء حافظ بكري مدير سلاح المدفعية ، اللواء إبراهيم الأرنؤوطي مدير سلاح المهمات، واللواء سيد محمد مدير سلاح الصيانة ولم يكن لأحد من هؤلاء مشكلة أو قضية بخلاف اللواء حسين سري عامر مدير سلاح الحدود الذي تطورت قصته مع انتخابات النادي وإصرار الملك على فرضه على القوات المسلحة إلي محاولة اغتياله (19)

ويقول محمد نجيب في مذكراته : " استقر رأيي علي أن أرشح نفسي رئيساً لمجلس إدارة النادي لجس نبض الحالة في الجيش ، وتحدياً للملك الذي نقلني من سلاح الحدود " (20)

وفي منتصف الليل ومع استقبال فجر اليوم الأول من عام ١٩٥٢ أعلنت النتيجة على النحو التالي : انتخب اللواء أركان الحرب محمد نجيب مدير سلاح المشاة بأغلبية شبه إجماعية إذ لم يحصل منافسوه الثلاثة إلا علي (٥٨) صوتاً من مجموعة خمسمائة صوت تقريباً ، وبذلك كانت النتيجة كالتالي : لواء أركان حرب محمد نجيب رئيس مجلس الإدارة ، أميرلاي أركان حرب حسن حشمت

عضواً عن الفرسان ، قائمقام أركان حرب محمد رشاد مهنا عضواً عن المدفعية ، بكباشي إبراهيم حافظ عاطف عضواً عن المدفعية ، قائد جناح بهجت مصطفى عضواً عن الطيران ، قائد أسراب حسن إبراهيم السيد عضواً عن الطيران ، بكباشي أركان حرب زكريا محيي الدين عضواً عن المشاة ، بكباشي أحمد حمدي عبيد عضواً عن المشاة ، صاغ جمال حماد عضواً عن المشاة ، قائمقام بحري أنور عبد اللطيف عضواً عن البحرية ، يوزباشي أمين شاكر عضواً عن الإشارة ، بكباشي أركان حرب مهندس إبراهيم فهمي دعبس عضواً عن المهندسين ، بكباشي مهندس عبد العزيز الجمل عضواً عن الصيانة ، صيدلي عياد صليب عضواً عن الخدمات الطبية ، بكباشي عبد الرحمن أمين عضواً عن خدمة الجيش ، بكباشي متقاعد جلال ندا عضواً من جمعية المحاربين القدماء، قائمقام عبد الرحمن فوزي عضواً عن المهمات ، ويوزباشي يحيى الحرية إمام معين عن الحاشية العسكرية . (21)

وهكذا نجد أن نصيب الضباط الأحرار في مجلس إدارة نادي الضباط كان كبيراً حيث فاز بمنصب رئيس مجلس الإدارة اللواء محمد نجيب ، وانتخب عضوان فقط من الضباط الذين شكلوا فيما بعد مجلس قيادة الثورة وهما بكباشي زكريا محيي الدين من المشاة ، وقائد أسراب حسن إبراهيم من الطيران - كما انتخب ثلاثة من الضباط الأحرار من غير أعضاء مجلس القيادة هم : بكباشي محمد رشاد مهنا من المدفعية ، والصاغ أحمد حمدي عبيد والصاغ جمال الدين حماد من المشاة . وممن خانهم الحظ في الانتخاب من أعضاء مجلس قيادة الثورة فيما بعد قائد الجناح جمال سالم . ومن الشخصيات التي لمعت بعد ذلك البكباشي محمد فوزي (وزير الحربية فيما بعد) وحصل على ٣٧ صوتاً . وبذلك كانت نتيجة الانتخاب فوزاً ساحقاً للضباط الأحرار ، إذ تبين مدي انضمام الضباط ذوي الرتب الصغيرة والمتوسطة إلي جانب التيار الوطني ، كما كان إبعاد ممثل سلاح الحدود من الانتخاب تحدياً سافراً من الضباط للملك . وكان هذا دليلاً على تأثير ونفوذ تنظيم الضباط الأحرار بين ضباط الجيش ، كما كان دليلاً أيضاً على شعبية محمد نجيب .

ويعلق عبد اللطيف البغدادي على معركة انتخابات نادي ضباط الجيش بقوله " عرف الملك فاروق بأمر الضباط الأحرار وتنظيماتهم داخل الجيش بعد أن تحديناه في انتخابات مجلس إدارة نادي ضباط الجيش وانتصارنا عليه في تلك الانتخابات ، لأنه هو نفسه كان وراء ترشيح عدد من الضباط المواليين له

وعلى رأسهم اللواء حسين سري عامر كرئيس لمجلس إدارة النادي - وهو لم يكن يتمتع بسمعه طيبة بين الضباط. ومنظمتنا كانت قد رأت التصدي لهذا الترشيح منه ورشحنا ضباطاً آخرين وعلى رأسهم اللواء أركان حرب محمد نجيب كرئيس لمجلس الإدارة . وكان الغرض الآخر غير هذا التحدي للملك هو التعرف من خلال هذه المعركة التي سنخوضها على قوة تماسك الضباط المنضمين إلي التنظيم وقدرتهم ومدى تأثيرهم على باقي ضباط الجيش". (22)

"وقد أكدت نتيجة الانتخاب التي نجح فيها جميع مرشحيننا فعالية التنظيم وقدرته. ولكن من جانب آخر كانت هناك نقطة ضعف صاحبت هذا التصرف منا فقد تخلينا ولأول مرة عن الأسلوب السري الذي كنا نتبعه من قبل . وكان نشاطنا علنياً في هذه المعركة فكشفنا عن أنفسنا ، وأصبح من الطبيعي بعد ذلك أن يسعى الملك وأجهزته السرية الخاصة بالأمن إلي التعرف على من وراء هذا التنظيم ومن هم أفرادهم ، حتى تحاول القضاء عليهم قبل استفحال خطرهم واستبعادهم من الجيش. ومن هنا كان لعامل الوقت أهمية قصوى ، وكان علينا أن نسيقه في التحرك، وأن نضرب ضربتنا ونقوم بالانقلاب الذي كنا نعد أنفسنا له، قبل أن يعمل هو على تصفيتنا نهائياً من الجيش وتضيع علينا بذلك الفرص"⁽²³⁾.

في الأول من يناير عام ١٩٥٢ عقد مجلس الإدارة الجديد أول اجتماع له، تم فيه اختيار رئيس وأعضاء المكتب التنفيذي لمجلس الإدارة كالاتي : أميرالاي أركان حرب حسن حشمت نائب رئيس ، بكباشي عبد الرحمن أمين سكرتير عام ، قائد أسراب حسن إبراهيم السيد سكرتير مساعد ، يوزباشي بحري أحمد عبد الغني مرسى سكرتير مساعد ، يوزباشي أمين شاکر سكرتير مساعد ، وبكباشي أركان حرب مهندس إبراهيم فهمي دعيس أمين صندوق. (24)

الفريق حيدر يستدعي محمد نجيب

ولم يمر يومان حتى كان الفريق حيدر قد استدعي إلي مكتبه في ثكنات قصر النيل كلاً من اللواء محمد نجيب رئيس مجلس إدارة النادي الجديد ، والبكباشي محمد رشاد مهنا عضو مجلس الإدارة ، واجتمع بهما إلي ساعة متأخرة من الليل ، محاولاً إقناعهما بتنفيذ رغبة أوامر الملك بانضمام ممثل سلاح الحدود إلي مجلس إدارة النادي ، ولكنهما حينما أراد أن يبينا له أن ذلك ليس من سلطة مجلس إدارة النادي، بل من سلطة الجمعية العمومية ، استشاط الفريق

حيدر غضباً ، وأبدي لهما ضرباً من التهديد ، وانتهى الاجتماع بعد منتصف الليل بساعتين دون الوصول إلي أي حل⁽²⁵⁾ . وعن هذه المقابلة يقول اللواء محمد نجيب : " قال الفريق حيدر لنا في صراحة أن أوامر مولانا أن يدخل حسين سري عامر مجلس إدارة النادي ، هكذا دون لف أو موارد . فقلت لحيدر أن هذا ليس من حق مجلس الإدارة ، بل هو من صميم حقوق الجمعية العمومية ، فإذا أصر مولانا فسأعقد الجمعية العمومية وأعرض الأمر عليها . واستمرت الجلسة سبع ساعات حتى الثانية صباحاً " في حوار ونحن لا نتزحزح عن موقفنا شعرة ، رغم ظهور نبرة تهديد صريحة في حديث حيدر عندما أعيته الحيل⁽²⁶⁾ .

فرض عضو من سلاح الحدود

وفي الثالث من يناير عام ١٩٥٢ وجهت رئاسة هيئة أركان حرب الجيش خطاباً إلي اللواء محمد نجيب بصفته رئيساً لمجلس إدارة النادي المنتخب ، وموعزاً به من القصر الملكي تعلن فيه أنه تقرر اعتبار سلاح الحدود سلاحاً قائماً بذاته ، وبناءً عليه يصبح له الحق في تمثيله في مجلس إدارة النادي⁽²⁷⁾ .

وأحس اللواء محمد نجيب بخطورة الموقف، فدعا إلي عقد اجتماع لمجلس إدارة النادي يوم السبت ٥ من يناير، وعرض اللواء محمد نجيب خطاب رئاسة أركان حرب الجيش على أعضاء مجلس الإدارة ، فانقسمت الآراء في بادئ الأمر بين مؤيد ومعارض ، ولكن اللواء محمد نجيب بين لأعضاء المجلس خطورة الموقف، وما قد يسفر عنه من مخاطر نتيجة تحدي رغبة الملك ، واقترح انتداب البكباشي محمد إبراهيم فهمي كحل وسط ليمثل سلاح الحدود في مجلس إدارة النادي كمستمع فقط وليس له صلاحية العضوية إلي حين دعوة الجمعية العمومية⁽²⁸⁾ .

ووافق مجلس إدارة النادي بالإجماع على الاقتراح ، وكان الفريق حيدر ينتظر قرار مجلس الإدارة في إحدى غرف النادي على أحرم من الجمر ، فما إن انتهى مجلس الإدارة من إصدار القرار، حتى قام الفريق حيدر بإبلاغه للملك ، ظناً منه أن سيحوز رضاه ويجعله يكسب ثقته ، ولكن الملك لم يرض بذلك ، فقد أحس بأن نتيجة الانتخاب كانت بمثابة طعنة له ، واعتبر كل ما حدث تحدياً له⁽²⁹⁾ .

على أثر ظهور هذه المشكلة ، قدم البكباشي عبد الرحمن أمين استقالته من منصب سكرتير عام المجلس في أوائل فبراير ١٩٥٢ ، وفي الجلسة نفسها تم الاتفاق على اختيار البكباشي إبراهيم حافظ عاطف - قائد مدرسة المساعدة الجوية - ليكون سكرتيراً عاماً للمجلس وبقي البكباشي عبد الرحمن أمين عضواً عادياً بالمجلس (30) .

وثار اللواء حسين سري عامر ، فقد شعر بأن "الضباط الأحرار" وراء هزيمته وكتب مقالاً هاجم فيه "الضباط الأحرار" هجوماً بندياً ومليئاً بالشتم ، وهدد بأنه سيتخلص منهم في ساعة واحدة ويدخلهم جميعاً السجن . وجاء مقال حسين سري بمثابة طعنة تحاول التهوين من شأن الضباط الأحرار ، الأمر الذي أثار عبد الناصر بصورة كبيرة (31) .

وكان اللواء حسين سري عامر قد اعتبر قرار مجلس إدارة النادي الخاص بتمثيل سلاح الحدود في إدارة النادي نصراً خاصاً له . ففي صباح اليوم الثامن من يناير عام ١٩٥٢ توجه اللواء حسين سري على رأس وفد من ضباط سلاح الحدود إلي قصر عابدين ، للتعبير في سجل التشرiftات الملكية عن ولائهم للملك، بينما توجه رئيس أركان حرب الجيش في اليوم ذاته ومعه مجموعة من قادة الجيش وكبار ضباطه إلي القصر أيضاً ليقيموا أسماءهم أيضاً في سجل التشرiftات ، معبرين عما يكونه للملك من ولاء وطاعة (32) .

وبعد ذلك استقل اللواء حسين سري عامر سيارته عائداً إلي مكتبه، حيث استقبل وفود المهنيين، ثم استقل سيارته عائداً إلي بيته في منطقة الزيتون . وما كادت سيارته تتوقف أمام منزله في المساء حتى انطلقت طلقات نارية عديدة نحو السيارة من أفراد تربصوا له بالقرب من منزله (33) .

وكان عبد الناصر قد قرر أن يرد على حسين سري عامر بقوة . ليحفظ للضباط الأحرار مكانتهم ومهابتهم، ومن خلف ظهر "لجنة القيادة لتنظيم الضباط الأحرار" اتفق عبد الناصر وحسن إبراهيم وحسن التهامي وكمال رفعت وصلاح السوقي على اغتيال حسين سري عامر ، وأطلقوا عليه الرصاص في مساء يوم ٨ يناير عام ١٩٥٢ وفشلت المحاولة (34) .

وكان جمال عبد الناصر هو الذي دبر حادث محاولة اغتيال اللواء حسين سري عامر وقد أقر عبد الناصر بتدبيره هذه المحاولة في كتابه فلسفة الثورة. ويصف جمال عبد الناصر دوره في هذا الكتاب بقوله: "اخترنا واحداً وقلنا أنه

يجب أن يزول من الطريق وكانت الخطة أن نطلق الرصاص عليه، وهو عائد إلى بيته في الليل ، وجاءت الليلة الموعودة .. كان المسرح خالياً كما توقعنا (ضاحية الزيتون) وكمنت الفرقة في أماكنها التي حددت لها وأقبل الواحد (يعني حسين سري عامر) الذي كان يجب أن يزول وانطلق نحوه الرصاص وانسحبت فرقة التنفيذ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة وبدأت عملية الإفلات والنجاة ، وأدرت محرك سيارتي وانطلقت أغانر المسرح الذي شهد عملنا (35) .

ويفصل اليوزباشي كمال رفعت ما حدث بقوله : "حضر جمال عبد الناصر إليّ بالمنزل مساء يوم ٧ يناير عام ١٩٥٢ وأخبرني بفكرته ، وعموماً فقد ذهبت معه ومعنا حسن التهامي إلى منزل حسين سري عامر في نفس الليلة لانتهاز أية فرصة لتنفيذ العملية، ولما لم يتيسر ذلك أرجأنا العملية إلى اليوم التالي، حيث انضم إلينا حسن إبراهيم، حيث قام بعملية المراقبة ، وكان جمال عبد الناصر يقود عربته الأوستن الصغيرة وينتظرنا في شارع مجاور ، وتوليت أنا وحسن تهامي تنفيذ العملية " (36) .

حريق القاهرة واجتماع اللجنة التأسيسية

في الوقت الذي شهد صدام ضباط الجيش بالملك فاروق وقعت مجزرة الإسماعيلية التي خلقت مرارة شديدة لدى الشعب المصري ، وأدت إلى تصاعد العداء ضد البريطانيين(37)، فانتشرت المظاهرات في أنحاء القاهرة في اليوم التالي - ٢٦ يناير ١٩٥٢ - التي تطورت إلى الحرق والتخريب والتدمير (38) . كانت هذه المجزرة ثمرة تحالف الإنجليز مع الملك والعناصر المرتبطة به ، وتعتبر الشرارة التي فجرت كل أنواع الغضب والسخط ، التي تجمعت لدى الشعب لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية ، وهيات المناخ الملائم لتنفيذ خطة مدبرة لتخريب القاهرة وحرقها (39) .

احترقت القاهرة ، وأقيمت حكومة الوفد ، وبقيت الأحكام العرفية التي أعلنتها. وكان لحريق القاهرة أثر شديد على الضباط الأحرار . ففي مساء اليوم نفسه (يوم الحريق ٢٦ يناير ١٩٥٢) اجتمعت اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار لدراسة الموقف. واتضح بجلاء في هذا الاجتماع أن الأحداث وتطورها في البلاد تسير بخطى سريعة نحو حالة من التدهور لم يسبق لها مثيل . وأن الزمام ربما يفلت في أية لحظة ويحدث انفجار من الشعب المتذمر، وتصبح البلاد في حالة من الفوضى لا يمكن التكهن بنتائجها. وكان لابد لها والحالة هكذا من أن

تتحرك بسرعة خاصة وأن الملك نفسه قد عرف بأمر الضباط الأحرار وتنظيماتهم داخل الجيش بعد تحديدهم له في انتخابات مجلس إدارة نادي ضباط الجيش والتي جرت يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥١، وتم انتصارهم عليه في تلك الانتخابات . وكان عليهم أن يسبقوه في التحرك وأن يضربوا ضربتهم ويقوموا بالانقلاب الذي كانوا يعدون أنفسهم له، قبل أن يعمل هو على تصفيتهم نهائياً من الجيش، وتضيق عليهم بذلك الفرصة(40) .

ويقول بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة : " وعندما أثرت تلك النقاط وهذه الظروف التي تحيط بنا في مناقشاتنا وضرورة تحركنا السريع والعاجل كان جمال عبد الناصر يري عدم الاندفاع ويدعو إلي التأمني ، وكانت هذه عادته. وقد أعاد عبد اللطيف البغدادي ما سبق ذكره في جلسات سابقة من ضرورة سرعة الحركة موضحاً أن الأحداث ستسبقنا، ولا بد لنا من تنفيذ خطتنا في أقرب فرصة، وكان جمال عبد الناصر ضد هذا الرأي الذي نادى به عبد اللطيف البغدادي ، وقد حاول الأخير أن يبين أن ما حدث في يوم ٢٦ يناير ونزول الجيش إلي شوارع القاهرة يؤكد ما سبق وما كان متوقعا ، ومن أنه كان من الممكن تنفيذ خطتنا في ذلك اليوم لو كنا قد أعدنا أنفسنا من قبل ولكن الرأي في اللجنة التأسيسية في هذه الجلسة كان يتجه إلي عدم التحرك ويحرص على التريث والحذر ، ولما وجد عبد اللطيف البغدادي أنه لا يزال هناك إصرار على عدم التحرك السريع رغم تلك الأحداث ، أعلن لزملائه أعضاء اللجنة عن انسحابه من حضور اجتماع اللجنة التأسيسية في المستقبل حتى يقرروا أن الوقت المناسب قد حان لتنفيذ خطتهم ، وأن يعتبروه في تلك الفترة جندياً لهم في سلاح الطيران. وأنهم سيجدونه وزملاءه ضباط القوات الجوية خير عون لهم حينما تحين الساعة(41) .

إن عدم تكامل تنظيم الضباط الأحرار كان هو السبب في عجزهم عن الحركة فور وقوع حريق القاهرة. وحتى هذه اللحظة لم يكن تنظيم الضباط الأحرار قد أخذ شكلاً هرمياً متعدد المسئوليات منضبط السرية ، ولم يكن له لائحة ولا برنامج كما أن بعض المجموعات لم تكن تواظب على دفع الاشتراكات ، ولم يكن نظام الخلايا قد استقر على أسس ثابتة وخاصة في سلاح الطيران(42) .

ومنذ اجتماع اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار مساء يوم الحريق توالى المنشورات وتؤكد لجميع ضباط الجيش الوجود الفعلي والنشاط الظاهر للضباط

الأحرار. وانضم أعداد كبيرة من الضباط لتنظيم الضباط الأحرار، بحيث أصبح التنظيم قوياً وقادراً على أن يثير اهتمام القوي الداخلية وحتى الخارجية المهمة باستمرار نفوذها في مصر، وفي هذا الوقت وصلت معلومات لتنظيم الضباط الأحرار من الإخوان المسلمين أن الإنجليز أبلغوهم أنهم يريدون التخلص من الملك، حيث أصبح مكشوفاً ومكروهاً من الشعب، ولا يضمن مصالحهم وأن الإنجليز طلبوا من الإخوان اغتيال الملك (43).

كما وصلت معلومات أخرى عن طريق الملحق العسكري الأمريكي المتصل بعلي صبري مدير مخابرات الطيران " أن في حالة تحرك الجيش المصري لأي حركة تغيير فإن الأمريكان سيطلبون من الإنجليز عدم التدخل، إذا كانت هذه الحركة غير شيوعية، ولا تهدد مصالحهم، واستقر رأي الضباط الأحرار على التحرك في شهر نوفمبر ١٩٥٢ (44) وحول هذا التاريخ أيضاً حاول الوفد أن يستعين بشباب ضباط الجيش وقام الضباط حسن علام لحساب الوفد بطبع منشورات، وقبض عليه وقامت الحكومة بتحديد إقامة فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن، وعلى اثر ذلك قام الضباط الأحرار بالاتصال بأحد أقارب النحاس باشا لمحاولة الاتفاق مع الوفد والتعاون معه ورد النحاس باشا بأنه لا يستطيع أن يدخل لعبة الضباط ولأنه لا يريد أن يخسر أوراقه مع الأمريكان (45).

المنشورات بعد الحريق

كان الضباط الأحرار يعتمدون على منشوراتهم التي لم تتوقف والتي تبادل مسئولية طبعتها وتوزيعها عدد من الضباط الأحرار، منهم عبد الرحمن عنان وحمدي عبيد وزير الإدارة المحلية فيما بعد، وخالد محيي الدين، وأخيراً استقرت بعد حريق القاهرة لتكون من مسئولية (الحركة الديمقراطية للتحرك الوطني) (46).

وفي هذا تفسير للأفكار والآراء التي حفلت بها المنشورات والتي كانت تعكس الاتجاه الحقيقي لمجموعة الضباط الأحرار.

ظهر بعد حريق القاهرة منشور يقول: " أيها الضباط، إن الخونة المصريين يعتمدون عليكم وعلى جيشكم لتنفيذ أهدافهم وهم يظنونكم أداة طيعة في أيديهم للبطش بالشعب وإرغامه على قبول ما يكره. فليفهم هؤلاء الخونة أن مهمة الجيش هي الحصول على استقلال البلاد وصيانتته.. وأن وجود الجيش

في شوارع القاهرة إنما هو لإحباط قرارات الخونة التي تهدف إلي التدمير والتخريب ... ولكننا لا نقبل ضرب الشعب .. ولن نطلق رصاصة واحدة على مظاهرة شعبية .. ولن نقبض على الوطنيين المخلصين .. يجب أن يفهم الجميع أننا مع الشعب الآن ، ومع الشعب دائماً ولن نستجيب إلا لنداء الوطن (47) .

وفي منشور آخر صدر في فترة وزارة أحمد نجيب الهمالي الأولي يقول:
"توالت مؤامرات الاستعمار الانجلو أمريكي في الفترة الأخيرة في مصر، لمحاولة القضاء على الحركة الوطنية، ولصرف أنظار الشعب عن الكفاح المسلح ضد الاستعمار في القناة إلي مشاكل داخلية في القاهرة، فيما بعد أن أعلنت حكومة الوفد قطع المفاوضات وإلغاء المعاهدة ورفض حلف الشرق الأوسط الرباعي الاستعماري، وتكوين الكتائب الوطنية ، اشتدت جذوة الوطنية في البلاد حتى كادت أن تصل مصر إلي حقوقها الكاملة ، دبر الاستعمار وأذنابه انقلاب ٢٦ يناير الماضي، وجاءت حكومة علي ماهر وبدأت المفاوضات من جديد ، وكان الاستعمار والخونة المصريين يأملون كثيراً من علي ماهر التسليم تسليماً كاملاً بمطالبهم بقبول واستعمال الأحكام العرفية للتكثيف وتكثيلاً واسعاً بالشعب، ولكن خاب رجاؤهم ولم يجيبهم علي ماهر إلي مطالبهم ، فكان لا بد من انقلاب جديد لتحقيق الأهداف الاستعمارية السابقة ، وتحويل الحركة إلي الداخل ، والقيام بحركة تطهير واسعة بالبلاد بحجة تقوية الصفوف قبل مجابهة الاستعمار . وهكذا وصل الهمالي إلي الحكم بعد تدبير سابق ، وقد جاء الهمالي وأعلن برنامج الوزارة بصراحة ، وأن مهمتها الرئيسية هي التطهير وقد تناسي أن الفساد الأكبر مصدره الاستعمار، وأنه لا يمكن القضاء على الفساد الداخلي إلا إذا قضي على أسبابه ومصدره . إن من أهداف الضباط الأحرار الكفاح ضد الفساد وضد الرشوة والمحسوبية واستغلال النفوذ ، ولكن يجب إلا نتجه إلي ذلك إلا بعد القضاء على الاستعمار" (48) .

أبرزت المنشورات السابقة اتجاهات وطنية تتعارض تماماً مع التخطيط الأمريكي للسياسة المصرية ، بل وربطت بين الاستعمارين البريطاني والأمريكي في محاولتهما القضاء على الحركة الوطنية وصرف أنظار الشعب عن الكفاح المسلح. وكان لتوالي ظهور منشورات الضباط الأحرار وارتفاع أصواتهم الهامة أثر على تحركات الملك ، وليس على تصرفاته ، وضاعف الحراسة على نفسه ، وكان خلال سهراته ومبازلة سواء في نادي السيارات أو ملاهي الليل يحيط نفسه بضباط من الحرس في ملابس مدنية يمشون الليل ساهرين (49) .

إعلان الأحكام العرفية وإقالة النحاس

اجتمع مجلس الوزراء برئاسة مصطفى النحاس باشا بمنزله اجتماعاً استثنائياً عاجلاً في الساعة السابعة من مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، واستمر حتى الساعة العاشرة مساء ، وفيه تقرر إعلان الأحكام العرفية في جميع أنحاء البلاد ، ووقف الدراسة في الجامعات وجميع المعاهد والمدارس إلى أجل غير مسمى ، وفي الساعة العاشرة والنصف مساء أذاعت الوزارة المرسوم الذي استصدرته ووقعه الملك فاروق، وهو يقضي بإعلان الأحكام العرفية في جميع أنحاء البلاد ابتداء من مساء اليوم ، وتعيين مصطفى النحاس حاكماً عسكرياً عاماً⁽⁵⁰⁾.

وفي الساعة الحادية عشرة من مساء يوم الأحد ٢٧ يناير ١٩٥٢ ، تسلم مصطفى النحاس في منزله كتاب إقالة وزارته موقِعاً عليه من الملك فاروق ومؤرخاً في هذا اليوم نفسه ، وقد عبر فاروق فيه عن الإقالة بكلمة أخري أخف منها لهجة وهي "الإعفاء"، وأعرب في كتاب "الإعفاء" عن أسفه "لما أصيبت به العاصمة أمس من اضطرابات نتجت عنها خسائر في الأرواح والأموال، وسارت الأمور سيراً يدل على أن جهد الوزارة التي ترأسونها قد قصر عن حفظ الأمن والنظام ، لذلك رأينا إعفاءكم من منصبكم"⁽⁵¹⁾.

وفي هذا الخصوص يذكر كريم ثابت أنه في يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢ اتصل حافظ عفيفي بالملك فاروق وأبلغه أن إنجليزيا كبيراً زاره في بيته، وقال له أن وزارة مصطفى النحاس تفكر في قطع العلاقات السياسية بين الحكومة المصرية والحكومة البريطانية . لذلك طلب فاروق إلي حافظ عفيفي بوصفه رئيساً للديوان أن يتحري الأمر، وبعد أن تحري حافظ الأمر أبلغ الملك بأن "الموضوع" محل بحث الوزارة⁽⁵²⁾ .

واستطاع حافظ عفيفي أن يقنع الملك بأن الفرصة ملائمة للاستراحة من الوزارة الوفدية تحت ستار مسئوليتها في حريق القاهرة فيرضي الإنجليز ، ويظهر لهم أنه انتهاز أول فرصة سنحت له فتخلص منها . وهكذا أقيل النحاس باشا . واعتقد حافظ عفيفي أنه خطأ خطوة جديدة نحو رئاسة الوزارة⁽⁵³⁾.

نشاط الضباط الأحرار

تواصلت مسيرة الضباط الأحرار ، وفي كل يوم كان التنظيم يقترب من نقطة التصادم . ففي أوائل أبريل ١٩٥٢ ، وزع اليوزباشي مصطفى كمال

صدقي والملازم عبد القادر طه منشوراً هاجماً فيه الملك فاروق وشبهاه بأنه مثل الخديوي توفيق الخائن ، وشبها حريق القاهرة بمذبحة الإسكندرية أيام الثورة العربية ، وكان اليوزباشي مصطفى كمال صدقي معروفاً لدي الملك ، فقد كان لفترة من الوقت محسوباً من رجاله ضمن الحرس الحديدي ، وقرر الملك قتل الملازم عبد القادر طه ، واغتاله شخص يدعي على حسنين،⁽⁵⁴⁾ يوم ٢٤ مارس ١٩٥٢.⁽⁵⁵⁾

وأصدر تنظيم الضباط الأحرار يوم ١٨ إبريل ١٩٥٢ منشوراً يتهم فيه اللواء حسين سري عامر صراحة بأنه مسئول عن اغتيال عبد القادر طه ، واتهم مرتضي المراغي - وزير الداخلية - بالتستر على الجريمة⁽⁵⁶⁾.

وفي مايو ١٩٥٢ عقدت لجنة القيادة - اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار - اجتماعاً في بيت الصاغ عبد الحكيم عامر بالعباسية ، وكان عبد اللطيف البغدادي متغيباً عن الاجتماعات منذ مدة احتجاجاً على أن تنظيم الضباط الأحرار لا يفعل شيئاً ، لكنه حضر هذا الاجتماع قائلاً: "لقد أتيت لأنكم قررتم عمل شيء". وفي هذا الاجتماع وضعت لجنة القيادة خطأ فاصلاً في العلاقة مع البكباشي عبد المنعم عبد الرؤوف ، فقد عاود الإلحاح على ضرورة الارتباط بالإخوان، ولما رفضت لجنة القيادة طلبه قال : "أنا مرتبط بالإخوان ولن أتركهم، وقررت لجنة القيادة إبعاده". كما تحدد في هذا الاجتماع موعد نهائي للقيام بالحركة هو ٥ نوفمبر ١٩٥٢.

انعقاد الجمعية العمومية غير العادية لنادي الضباط

في ظل وزارة نجيب الهلالي باشا وفي مساء يوم ١٦ يونيو ١٩٥٢ ، تم عقد اجتماع الجمعية العمومية غير العادية لنادي الضباط والتي سبق ودعي لها مجلس الإدارة منذ أوائل يناير ١٩٥٢ ، لمناقشة موضوع فرض عضو من سلاح الحدود في مجلس إدارة النادي ، رغم مخالفة ذلك للائحة وافتتح الجلسة البكباشي إبراهيم عاطف، ثم ترك المنصة للقائمقام أركان حرب رشاد مهنا ليقوم بأعمال مقرر الجلسة، وأعلن رشاد مهنا عن الغرض من الاجتماع وملابسات الموضوع ثم فتح باب المناقشة،⁽⁵⁷⁾ .

وكان أول المتحدثين الضابط جمال علام - عضو حدتو ، وعضو الضباط الأحرار - حيث استهل كلامه بمطالبة المجتمعين بالوقوف حداداً على روح الشهيد الملازم أول عبد القادر طه. ووقف المجلس وجميع الضباط

المجتمعين حداداً . وكانت هذه الاستجابة الإجماعية من الضباط بمثابة تحد للملك فاروق وأعوانه في الجيش بصفة خاصة (58) .

وتعاقب المتكلمون بعد ذلك، وكان الكل يؤيد رفض خطاب رئيس هيئة أركان حرب الجيش، ويعارضون تمثيل سلاح الحدود بعضو في مجلس إدارة نادي ضباط الجيش. وحاول ضباط من السلاح البحري منهم أنور عبد اللطيف وكلهم من المؤيدين للملك بإعلان انسحابهم من الاجتماع . ورد عليهم رشاد مهنا بحسم أن أمر انسحابهم أو وجودهم سيان حيث انهم مقيدون من بدء الجلسة في دفتر الحضور في محضر الجلسة حتى ولو لم يصوتوا فهذا لا يؤثر على رأي الأغلبية (59) .

ثم عرض رشاد مهنا مقرر الجلسة وبأسلوب مباشر وحاسم قرار رئيس هيئة أركان حرب للتصويت وجاءت نتيجة التصويت بالإجماع برفض القرار، وسقطت محاولة الملك بتمثيل سلاح الحدود بعضو في المجلس الجديد. وقام سكرتير المجلس التنفيذي إبراهيم حافظ عاطف مع السكرتير المساعد قائد الأسراب حسن إبراهيم بتحرير كل ما جاء بالجلسة على شكل محضر جلسة، وبذلك أضاعوا الفرصة على أي تلاعب من أعوان الملك (60) .

قام أعوان الملك الموجودون في مجلس الإدارة بتقديم استقالتهم من عضوية المجلس بالتتابع، وكان غرضهم و غرض القصر أن تكون هذه الاستقالات بمثابة حل للمجلس خصوصاً إذا زاد عدد المستقيلين. وقد قدم الآتين استقالتهم : الأميرالاي حسن حشمت - نائب رئيس مجلس الإدارة ورئيس المجلس التنفيذي ، يوزباشي بحري أحمد عبد الغني مرسي - عضو عن البحرية ، قائمقام بحري أنور عبد اللطيف - عضو ومدير مكتب حيدر باشا ، أميرالاي صيدلى عياد صليب - عضو الخدمات الطبية ، يوزباشي يحيى الحرية أمام - العضو المعين عن الحاشية العسكرية ، بكباشي أركان حرب مهندس إبراهيم فهمي دعبس - عضو عن المهندسين (61) .

وقام كبار ضباط قيادات الجيش بالضغط على باقي أعضاء مجلس الإدارة لتقديم استقالاتهم، حتى يصبح مجلس إدارة النادي المنتخب في حكم المنحل، ويكون هذا الحل سلمياً دون اللجوء إلي أسلوب إصدار قرار حل قد يثير النفوس (62) .

ولكن الباقيين كان معظمهم من تنظيم الضباط الأحرار فلم ينفذ معهم الضغط أو التهديد، وبذلك بقي مجلس الإدارة سليماً رغماً عن إرادة القصر،

وكان هؤلاء الباقون هم : محمد نجيب ، رشاد مهنا ، إبراهيم حافظ عاطف ، زكريا محيي الدين ، حمدي عبيد ، جمال حماد ، بهجت مصطفى ، حسن إبراهيم وعبد الرحمن فوزي (63) .

الكتيبة الثالثة عشرة تستعد للتحرك إلى السودان

هكذا توالى الأحداث سريعاً ، ففي أواخر يونية ١٩٥٢ صدرت الأوامر إلى الكتيبة الثالثة عشر مشاة (64) بالتحرك من العريش إلى معسكر العباسية بالقاهرة ، بعد انتهاء مدة خدمتها في سيناء. وكان من المفروض وفقاً لتنقلات وحدات الجيش أن تبقى الكتيبة في هذا المعسكر شهرين، ريثما تستعد للتحرك إلى السودان ، لتغير كتيبة أخرى انتهت مدة خدمتها بالسودان. وكان العرف أن تقوم الكتيبة المنقولة إلى السودان بتسليم جميع معداتها عدا البنادق والرشاشات الخفيفة وذخيرة الخط الأول، وعندما تصل الكتيبة إلى الخرطوم تتسلم معدات الكتيبة التي ستغيرها، وتعود الكتيبة الأخرى من السودان بينادقها ورشاشاتها فقط. لذلك صدرت التعليمات لقيادة الكتيبة الثالثة عشرة من رئاسة الجيش بتسليم حملة الكتيبة وعرباتها المجنزرة ومدافعها واحتياطي ذخيرتها (65) .

وزارة حسين سري باشا (٢ - ٢٠ يوليه ١٩٥٢)

بعد استقالة نجيب الهلالي باشا كلف الملك فاروق في وقت واحد اثنين لتأليف الوزارة الجديدة هما بهي الدين بركات باشا، وحسين سري باشا ، وأخذ كل منهما يجري مشاوراته في تأليف الوزارة دون أن يعلم أحدهما أو كلاهما أن الآخر مكلف أيضاً بتأليف الوزارة . وكان هذا إجراء فريداً من نوعه سواء في تاريخ مصر أو تاريخ أكثر الدول تخلفاً في العالم (66). واعتبر هذا في مناقشات التنظيم السري للضباط الأحرار مظهراً سافراً لعدم الاستقرار بل لانتهيار نظام الحكم (67) .

وتلبية لإلحاح ورجاء حافظ عفيفي باشا ، استدعي الملك بهي الدين بركات باشا لتأليف الحكومة الجديدة ، وكان في وسع هذا الشخص ، أن يواجه خطورة الموقف وحاجات الساعة ، لكن طالع فاروق السيئ ، كان يقوده في هذه الآونة ويوجهه ، إذ لم تمض ساعات على تكليف بهي الدين بركات ، الذي شرع في العمل ، حتى غير الملك رأيه ، واستدعي حسين سري باشا ثانية في منتصف ليلة الثاني من يوليه . وقام حسين سري بتأليف حكومته هذه المرة من المغموين والتافهين ، وكان إدخال كريم ثابت باشا فيها نذير شؤم . إذ لم تعد هناك محاولات لاستئصال الفساد ، وعادت مصر القهقري إلى مجراها المالي القذر. (68)

وكان وراء هذا الاختيار رجلان من رجال الحاشية هما إلياس أندراوس - المستشار الاقتصادي للملك - وكريم ثابت - المستشار الصحفي للملك ومنظم سهراته وعلاقاته المتدهورة . ومكافأة لدور كريم ثابت أدخله حسين سري الوزارة ، وزير دولة . وكان دخول كريم ثابت وزيراً بالوزارة من علامات انحدار المنصب الوزاري لأن الملك سبق وحاول فرضه كوزير على رؤساء وزارات سابقة ورفضوا جميعاً (69) .

ومنذ ٢٦ يناير ١٩٥٢ وحتى تولي حسين سري باشا الوزارة ، تملك فاروق وزمرة الباشوات الرعب من ظهور تضامن الشعب وتماسكه وسخطه، وأن هذا التضامن أصبح وجهاً لوجه مع أدوات السياسة المصرية، ولو أن السياسيين وعلى رأسهم الملك والحاشية لم يدركوا مدي تردي النسيج الاجتماعي الذي هم على قمته، والأدهي من ذلك أنهم لم يدركوا أن الوطنية المصرية التي كانت تنور على البريطانيين تحولت أيضاً للثورة على القهر والفساد وعليهم هم أنفسهم (70) .

كان محمد هاشم باشا المحامي وزوج ابنة حسين سري باشا ، ووزير الداخلية ، الرجل الأول في هذه الوزارة التي عاشت ثلاثة أسابيع فحسب، كانت سياسته تتلخص في كلمات تهدف إلي مهادنة جميع الأطراف حتي يصل بالسفينة إلي بر الأمان والتي كانت تواجه أزمة اقتصادية مرهقة وضغوطاً من القصر على الوزارة وتعترأ في المفاوضات المصرية البريطانية، فضلاً عن بوادر تمرد في الجيش بدأ يأخذ منحني خطيراً ، أما عن ضغوط القصر فكان أخطرها فرض اسم كريم ثابت باشا على الوزارة ليشغل منصب وزير القصر ويكون كما قال عن نفسه عنصراً مهدتاً بين الحكومة والملك .

كان كريم ثابت ابناً للصحفي خليل ثابت بك رئيس تحرير جريدة المقطم اليومية المسائية والعضو بمجلس الشيوخ وهو لبناني متمصر عاش لمهنته بين الخرطوم والقاهرة، ولا غبار علي حياته العامة أو الخاصة ، وعمل كريم ثابت في الصحافة الأسبوعية واليومية واشتهر بما يعرف بصحافة المغامرات وأخذ يتقرب إلي القصر منذ الأيام الأخيرة من حكم الملك فؤاد، ولكن وجد الفرصة لطموحه مع خليفته فاروق وتمكن منه ، وكانت رغبة الملك في تعيينه وزيراً قد ترددت مع تشكيل كل وزارة بل كان له من الجرأة أن عرض نفسه على وزارة علي ماهر عن طريق صفيه إبراهيم بك عبد الوهاب، ويرر رغبته الجريئة بأنه سوف يعمل "قرملة" بين علي ماهر وتكتل الحاشية ضده ، غير أن فضائح استغلاله للنفوذ وبوره في انحراف الملك لم يدع لعلي ماهر خياراً في رفض هذه الصفقة.

وجاء أحمد نجيب الهلالي وتجدد العرض، ولكن رد الفعل كان ثورة عارمة، حتى أن الهلالي استخدم ألفاظاً عنيفة للتعريف بكريم ثابت، بل أنه عندما أُلّف وزارته الثانية بعد أسابيع من هذا التاريخ رفض أن يضم إليها وزيرين كل ما اتهما به أنهما جلسا يوماً في وزارة واحدة ضمت كريم ثابت، وهي وزارة حسين سري الذي قبل تعيين كريم ثابت وزيراً للقصر، لكي يتلقى الصدمات عنها كما زين له.

وعلى أثر تعيين كريم ثابت وزير دولة في وزارة حسين سري باشا أمضى رئيس الوزراء كتاباً بنذب كريم ثابت رئيساً لمجلس إدارة الإذاعة.

جاءت حكومة حسين سري باشا وتوقع الناس تكرار ما حدث في عام ١٩٤٩، حيث أُجري حسين سري انتخابات انتهت بمجيء حكومة للوفد⁽⁷¹⁾.

ويؤكد ذلك ما ذكره أنتوني إيدن في مذكراته فقال : " واعتقدت أن هذه الأحداث ، مقدمة لعودة الوفد ، وشاركني هذا الاعتقاد الكثيرون في مصر . وبدأت تظهر صور. النحاس باشا رئيس الوزراء السابق ، في ثوبه الحريري يرحب بعودة زميله المخزى سراج الدين ، الذي كان موقوفاً بتهمة الفساد ، واشتراكه المزعوم في فتنة القاهرة " (72) .

أما المهمة الصعبة التي واجهتها وزارة حسين سري فهي مشكلة الجيش الذي كانت كل الدلائل تؤكد أنه سوف لا يهادن الملك بعد أن نجح في فرض رئاسة اللواء محمد نجيب في انتخابات نادي الضباط متحدياً الإرادة الملكية ، لهذا رأى حسين سري أن من الحكمة ضم محمد نجيب إلي تشكيلها ، ولكن اسم محمد نجيب شطب على الفور ، ولم يعلم محمد نجيب نفسه بذلك⁽⁷³⁾، لذلك أخذ رئيس الوزراء ، بالإضافة إلي عمله وزارتي الحربية والبحرية والخارجية⁽⁷⁴⁾.

مذكرة الملك

وفي يوم الخميس ١٠ يوليو ١٩٥٢ ، مرت ثمانية أيام على تولية حسين سري باشا رئاسة الوزراء وفي هذا اليوم استقبل رئيس الوزراء الدكتور حافظ عفيفي باشا رئيس الديوان ومعه مذكرة بالقلم الأحمر - بخط الملك أو الشماشرجي عزيز عثمان - جاء فيها : يعتبر حيدر باشا- القائد العام - معنياً من منصبه إذا لم يعمل الآتي في خلال خمسة أيام : أولاً - حل مجلس إدارة النادي ، ثانياً - نقل ١٢ ضابطاً ، ولما ذكر رئيس الديوان أنه لا يعرفهم تساءل حسين سري باشا كيف يمكن مناقشة موضوع عن مجهولين ، كذلك اعترف

حيدر باشا بأنه لا يعرف أسماء هؤلاء الضباط (75).

وفى يوم الأحد ١٣ يوليو ، تحركت مقدمة الكتيبة الأولى مدافع ماكينة من العريش إلي ثكنات هاكستب ، وهي عبارة عن سرية إدارية تتكون من ٦٠ جندياً بقيادة قائد ثاني الكتيبة البكباشي يوسف منصور صديق . وفى نفس اليوم أصدر اللواء عباس حلمي زغلول مدير إدارة الجيش أمراً بحل مجلس إدارة نادي ضباط الجيش وتعيين مجلس مؤقت، وذلك تنفيذاً لتعليمات الفريق محمد حيدر باشا القائد العام (76).

في صباح الاثنين ١٤ يوليو ١٩٥٢ ذهب القائد العام الفريق محمد حيدر باشا إلي مجلس الوزراء وأحاطه علماً بأنه نفذ رغبة الملك بحل مجلس إدارة نادي ضباط الجيش ، فاعترض حسين سري باشا على تصرفه ولفت نظره إلي أنه لم يطلب منه حل المجلس ، بل طلب دراسة المذكرة الخاصة بالموضوع، فكان رد حيدر باشا بأن هذا اليوم الخامس الذي منحه الملك له لحل موضوع النادي ، ومنذ هذه اللحظة بدأ رئيس الوزراء التفكير في الاستقالة بسبب تدخل موظفي القصر في شئون الحكم (77).

وفى يوم الثلاثاء ١٥ يوليو ، استقبل حسين سري باشا رئيس الوزراء كبار قيادات الجيش، حيث أطلعهم على الأوضاع السياسية والعسكرية في البلاد، وذكر لهم اهتمام جلالة الملك القائد الأعلى بالقوات المسلحة في البر والبحر والجو ، وطلب منهم التضافر والتعاون مستيرين بخبرة الفريق محمد حيدر باشا القائد العام (78).

وفى صباح يوم الأربعاء ١٦ يوليو استقبل حسين سري باشا بداره في الإسكندرية السفير الأمريكي جيفرسن كافري لاستكمال المساعي التي تبذلها الولايات المتحدة للتوفيق بين مصر وبريطانيا ، وعبر السفير عن موقفه بأنه والرئيس المصري صديقان حميمان ، كما اجتمع السفير الأمريكي في اليوم نفسه بعبد الرحمن عزام باشا أمين عام جامعة الدول العربية (79).

ويذكر الصاغ صلاح نصر - أحد الضباط الأحرار : "زارني البكباشي جمال عبد الناصر والساغ عبد الحكيم عامر في منزلي في منتصف يوليو ١٩٥٢ وناقشنا الموقف ، ووصلنا إلي ضرورة القيام بعمل إيجابي والتحرك للاستيلاء على السلطة. وسألني جمال عبد الناصر عن مدي استعداد الضباط ، قلت له : إننا جميعاً مستعدون للتحرك " (80).

حل مجلس إدارة نادي الجيش المنتخب

في ١٦ يوليو ١٩٥٢ طلب أركان حرب قسم القاهرة ، من البكباشي إبراهيم حافظ عاطف - سكرتير عام المجلس التنفيذي لمجلس إدارة نادي الضباط - الانتظار في نادي الضباط بالزمالك في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر لمقابلة اللواء على نجيب قائد قسم القاهرة - المحروسة - وعلم إبراهيم عاطف بعد عدة اتصالات أن المقابلة ستكون بخصوص صدور أمر من رئاسة هيئة أركان حرب الجيش بحل المجلس، وأبلغ إبراهيم عاطف الخبر اللواء محمد نجيب رئيس مجلس الإدارة، وتؤكد محمد نجيب من صحة الأمر، وكلف إبراهيم عاطف بالتصرف بما يترأى له في مقابلة على نجيب. فاتصل إبراهيم عاطف بالصاغ طيار حسن إبراهيم مساعد سكرتير عام المجلس التنفيذي ، واتفق معه على الحضور في الميعاد المحدد في النادي وعلم من حسن إبراهيم أن هناك أوامر صدرت بإشارات إلي جميع الوحدات بعدم مغادرة المعسكرات، إلي حين صدور أوامر بحجة أن رئاسات الجيش العليا ستمر على الوحدات والمعسكرات وكان ذلك لضمان عدم تجمع أي ضباط في النادي⁽⁸¹⁾.

وحضر اللواء على نجيب في الميعاد في النادي وكان معه مجموعة من الضباط - أميرالاي محمد حسني ، وأميرالاي جلال صبري وقائمقام مصطفى كمال عبد الرازق ، وبكباشي يوسف العجرودي ، وصاغ حافظ صدقي ، وقائد أسراب على صبري وضابط من البحرية وآخرون - وأبلغ على نجيب إبراهيم عاطف أنهم حضروا لاستلام النادي بأوامر من جهة عليا ، فقد صدرت أوامر بحل مجلس الإدارة وعارض هذا إبراهيم عاطف بأنه لا يملك حل مجلس الإدارة المنتخب إلا بالعرض على الجمعية العمومية التي انتخبته ، واستمرت المناقشة إلي قرب الغروب، حيث بدأ الزوار من الضباط وبأعداد كبيرة تغد إلي النادي وتخرج الموقف، وأجل اللواء على نجيب المناقشة إلي اليوم التالي ولم يجر أي تسلم أو تسليم⁽⁸²⁾.

وفى مساء ١٦ يوليو اجتمع بمنزل الصاغ محمد عبد العزيز هندي عدد من الضباط الأحرار هم : جمال عبد الناصر ، وشمس بدران ، وعبد القادر مهنا ، وأحمد عبد الرحمن نصير ، وجمال القاضي ، وزغلول عبد الرحمن ، وأقسموا على المصحف على الوفاء بما عاهدوا عليه أنفسهم من القيام بالثورة وأن تكون الشريعة الإسلامية رائدهم ، وبعد أن تردد جمال عبد الناصر لحظة - كما يقول الصاغ هندي - وافق وأقسم في النهاية⁽⁸³⁾.

في هذه الفترة أصبحت قضية نادي ضباط الجيش مادة للشائعات، لهذا صدر قرار سري من الرقيب العام - البلاد مازالت تحت الأحكام العرفية - وذلك بتاريخ ١٦ يولييه بمنع نشر أخبار النادي في الصحف وكان من ردود الفعل على حل المجلس رفع قضيته إلى مجلس الدولة تولاها المحامي صبري الحكيم⁽⁸⁴⁾.

مصطفى أمين وبرقية اللواء محمد نجيب

وفي الساعة السابعة من مساء الأربعاء ١٦ يوليو اتصل مصطفى أمين بالوزير كريم ثابت، وطلب مقابلته لأمر خطير . ورحب كريم بمقابلة مصطفى أمين ، وفور حضوره أخبره بأن الحالة في الجيش مضطربة ، وأن أحد محرري " أخبار اليوم " أسر إليه أنه نما إلي اللواء محمد نجيب قائد سلاح المشاة أن النية متجهة إلي نقله إلي جهة نائية ، فقرر أن يستقيل من الجيش ، وأعد برقية بهذا المعني ليرسلها إلي رئيس هيئة أركان حرب الجيش⁽⁸⁵⁾.

ويذكر كريم ثابت : " وأطلعني مصطفى أمين على صورة البرقية ، وكانت هذه أول مرة أسمع فيها أن هناك توتراً بين القصر وفريق من الضباط ، وأن هناك اضطراباً ، وأن هناك تفكيراً في تشييت بعض الضباط والاستغناء عن خدمات آخرين ، وأن محمد نجيب يفكر في الاستقالة وأن استقالته تزيد الموقف تعقداً . وعلى الفور اتصلت بزيملي الدكتور محمد هاشم - وزير الداخلية فلم أجد ، وتركت له رسالة بضرورة الاتصال بي بمجرد وصوله. وفي الساعة التاسعة والنصف كلمني هاشم في مصر الجديدة، واتفقنا على الالتقاء فوراً في مكتبه بوزارة الداخلية، فحدثته عما سمعته من مصطفى أمين، فأبدي اهتماماً عظيماً بالموضوع، وأقبل مصطفى أمين ، فطلبت إليه أن يعيد علي هاشم ما قصه علي . وفي هذه الجلسة عرفت أموراً جديدة كثيرة عن حركة الضباط الأحرار ونشاطهم وعن روح التذمر في الجيش، وكنت أجهلها جهلاً تاماً⁽⁸⁶⁾.

" ولما طالت جلستنا ، خشينا أن نستلفت أنظار الصحفيين والموظفين الموجودين في الوزارة ، فاقترحنا على مصطفى أمين أن يسبقنا إلي بيته على أن نلحق به بعد قليل فنستأنف حديثنا وبحثنا عنده ، وندعو إلي مقابلتنا من نود دعوته ، وقد اخترنا بيته مكاناً لاجتماعنا لعدم وجود " حراسة " عليه ، فلا يدري أحد بحركاتنا ومقابلتنا . وبالفعل قام الدكتور محمد هاشم بالاتصال

بالفريق حسين فريد يسأل عن الحالة في الجيش وأخبار اللواء محمد نجيب، فأكد حسين فريد أن كل شيء هادئ فعلاً ، وأنه سيبحث موضوع استقالة محمد نجيب في الصباح " (87).

اتفقت آراؤنا على أن تعيين محمد نجيب وزيراً للحربية خير ما يعمل في هذه الظروف ، إلى جانب خروج اللواء حسين سري عامر من الجيش ، وقلنا إن تعيين محمد نجيب وزيراً للحربية لن يقتضي تعديلاً في الوزارة ما دام رئيس الوزارة هو الذي يتولى شئون وزارة الحربية ، فمن السهل أن يتنازل عنها للوزير الجديد ويكتفي بالرئاسة مع الخارجية - وقدردنا أن إقناع الملك بهذا الرأي لن يكون مهمة سهلة ، ولا سيما بعد انتخاب الضباط لمحمد نجيب رئيساً لناديبهم في الانتخابات التي لم يرض عنها جلالته . غير أننا أجمعنا على ضرورة بذل كل ما يمكن بذله لإقناعه بقبولة ! (88) .

ويقول كريم ثابت : وكان محمد حسن - الشماشرجي - في القاهرة فسي ذلك اليوم ، فاستحسننا دعوته إلينا لنفهمه أن شئون الجيش شئون دقيقة لا يستهان بها ، وأن الاسترسال في تأييد اللواء حسين سري عامر يوغر صدور عدد كبير من الضباط ، ولنطلب منه أن يعاوننا في إقناع الملك بقبول اللواء محمد نجيب وزيراً للحربية . واتصل به مصطفى أمين بالتليفون وطلب منه أن ينضم إلينا ، فحضر بعد قليل وبعدهما أصغى إلي ما أردنا أن نقوله له ، تظاهر بالافتتاع به ووعد بتأييد فكرتنا عند الملك " وإن كنت - كما قال - أؤكد لحضراتكم أنه ليس في الجيش ما يدعو إلي الانزعاج والقلق ، فإن الحالة عادية وكل شيء على ما يرام ، وما الضجة التي يثيرها بعض الضباط سوي ضجة مصطنعة ، ولا يزيد عددهم على عشرين ضابطاً على أكثر تقدير ، وهم ضباط مشاغبون ومعروفون ، وقليل من الحزم كفيل بوضع كل شيء في نصابه ! " (89).

ويستطرد كريم ثابت قائلاً : " دق جرس التليفون ، وكان المنكلم طه عبد المطلب - مدير مكتب الدكتور محمد هاشم وزير الداخلية ، فأخبره أنه ومحمد نجيب قد وصلا إلي بيته ، فقال له إنه سيوافيهما بعد خمس دقائق . وانصرف وزير الداخلية لمقابلة اللواء محمد نجيب " (90).

مقابلة وزير الداخلية اللواء محمد نجيب

ويذكر الدكتور محمد هاشم - وزير الداخلية أن مقابله مع اللواء محمد نجيب تمت في الساعة الثانية صباح يوم ١٧ يوليو في منزله (أي منزل

الوزير): "تقابلت مع اللواء نجيب وفتحته في الموضوع ، ورد اللواء نجيب:" إن مجلس إدارة النادي حلّ وإني سوف أنقل إلى متقاعد وأنا رجل كبير لا أحب أن يعتدي على أحد لذلك صممت على الاستقالة ". ويستطرد الدكتور محمد هاشم : "لم أستطع أن أعده بأنه لن يكون هناك أمر بنقله أو نقل أحد الضباط بعد أن رأيت كيف حل الفريق حيدر النادي ، ولم أصارحه بأن حسين سرى باشا يميل للاستقالة لأنني لم أعلم تطورات الأمور في الإسكندرية "(91).

ويستطرد وزير الداخلية : قلت اللواء نجيب : "هل تثق بي" قال : اللواء نجيب : "أثق بك" قلت "إذا طلع النهار فوجدت نفسك أو أي ضابط آخر قد نقل أو فصل فإنني أرجوك أن لا تنفذوا النقل ولا تتحركوا إلا إذا جلسنا جلسة أخرى كهذه" ، ثم قام طه عبد المطلب مدير مكتب وزير الداخلية بتوصيل اللواء محمد نجيب في سيارتي إلى منزله (92).

رواية اللواء محمد نجيب عن مقابله لوزير الداخلية

هذه رواية الدكتور محمد هاشم عن مقابله اللواء محمد نجيب ، أما رواية اللواء محمد نجيب عن المقابلة نفسها فيرويها على النحو التالي : "جاء إلي البيت المدعو غرس الدين - وهو مخبر أو كاتب كان يعمل سابقاً مع وكيل الداخلية القيسى باشا الذي تربطني به علاقة عائلية - وذلك عند الغروب - يوم ١٨ يوليو - وقال لي : إن هاشم باشا يريد مقابلة بمنزله ، فوافقت وذهبت في الساعة نفسها بدون طبنجة وبدون احتياط إلي الزمالك فلم أجد أحداً سوي شرطي في الخارج ، وفتح الباب شخص لعله مخبر وانتظرت في غرفة الصالون حتى الساعة ١،٤٥ صباحاً بسبب وجوده (أي الوزير) بمجلس الوزراء - مجلس الوزراء انتقل إلي الإسكندرية منذ شهر مايو - واعتقدت أن هذه قد تكون مؤامرة لاغتيالي ولم أحضر مسدسي ، وجلست بجوار فارة نحاس قد أضطر لاستخدامها في الدفاع " (93).

" حضر هاشم باشا واعتذر وسأل عن سبب تذمر رجال الجيش، فلم أرد أن أتوسع معه، ولكني أشرت إلي انتخابات النادي وفشل حملة فلسطين مما يعلمه الجميع ، وطلبت إصلاح الفساد ومنع التجارة في الأسلحة كما أشرت إلي أن الملك سحب إعانة النادي، ولمحت له بأن سبق أن عرض على منصب وكيل وزارة الحربية بدلاً من المرحوم اللواء عبد الحميد باشا حافظ - والمقصود كان إبعادي من الجيش - وسألني هاشم ما رأيك في منصب وزير الحربية ؟

فضحكت وقلت : إنني سأكون سبباً في إقالة الوزارة بعد ٢٤ ساعة.
ورفضت المنصب " (94).

ويستطرد اللواء محمد نجيب قائلاً : " وكان رفضي في الحقيقة مستنداً إلي شعوري بأنهم يقومون بمناورة لإبعادي عن الجيش. وخلال هذا الحديث الذي امتد حتى الثانية بعد منتصف الليل ، أبلغني هاشم باشا بطريقة عابرة أن هناك قائمة بأسماء (١٢) شخصاً عرفت الجهات المسؤولة أسماء ثمانية منهم .. ثم لم يشأ أن يصرح بشيء .. وأبدت له عدم الاكتراث بمثل هذا الحديث ، مؤكداً له أن هناك شعوراً عاماً وجارفاً في صفوف الجيش ضد كثير من تصرفات رجال السراي. وأثناء عودتي إلي منزلي في الزيتون ، وكان ليل القاهرة هادئاً صافياً استرجعت مدار من حديث ، وأدركت أن الموقف خطير . ونمت نوماً متقطعاً وأنا أرنو إلي نور الصباح " (95).

وفي صباح ١٧ يوليو اتصل الدكتور محمد هاشم تليفونياً برئيس الوزراء في الإسكندرية وأحاطه علماً بكل ما تم ، فرد حسين سري باشا بأنه سيحاول المحاولة الأخيرة مع الملك بعرض الطلبات الآتية : فصل اللواء حسين سري عامر فوراً ، تعيين اللواء محمد نجيب وزيراً للحربية تكوين لجنة تطهير في الحربية (96).

كما اتصل في الصباح نفسه - صباح ١٧ يوليو - اللواء محمد نجيب بالبكباشي إبراهيم عاطف، وكلفه بتنفيذ التعليمات بالتسليم ، وكلفه أيضاً بمقابلة شقيقه اللواء علي نجيب بقسم القاهرة ، وعلى الفور انتقل البكباشي إبراهيم إلي قسم القاهرة حيث اجتمع باللواء علي نجيب في مكتبه وعلى انفراد، وبلغه أن جميع اعتراضاته وكلامه اليوم السابق قد بلغت إلي الجهات العليا، وأن اللواء حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب كان موقفه مشرفاً جداً ، حيث كان يدافع عن إبراهيم عاطف كأنه أحد أبنائه، ونصح علي نجيب إبراهيم عاطف بأن يجعل العاصفة تمر، ويجب أن نميل معها حتى لا ننكسر، وبعد أن تمر العاصفة يمكن استعادة الموقف واستئناف العمل (97).

انتشر خبر محاولة حل مجلس الإدارة بين جميع ضباط الجيش بسرعة مذهلة وقابل البكباشي إبراهيم عاطف اللواء علي نجيب يوم ١٧ يوليو ١٩٥٢ ومع اللجنة السابق ذكرها عدا قائد الأسراب علي صبري وتم تسليم أعمال مجلس الإدارة لهذه اللجنة وبذلك تمت إجراءات حل مجلس إدارة نادي ضباط

الجيش بتحد سافر من الملك بغير سند من أي شرعية أو قانون أو لائحة (98).

وفي صباح ١٧ يوليو أيضاً ، استعرض وزير الداخلية الفرقة البوليسية المدرعة التي كان قد أمر بتشكيلها وزير الداخلية السابق محمد مرتضي المراغي باشا لقمع المظاهرات واستوردت أجهزتها من الولايات المتحدة الأمريكية - ويقال أنها منحة منها - وذلك بدعوة من حكمدار العاصمة اللواء أحمد طلعت بك (99).

اجتماع لجنة القيادة للضباط الأحرار

في مساء ١٧ يوليو ١٩٥٢ ، عقدت لجنة القيادة للضباط الأحرار اجتماعاً عاجلاً حضره الجميع عدا أنور السادات وصلاح سالم، وذلك بعد أن وصلتهم معلومات عن نية الملك حل مجلس إدارة النادي تحدياً لهم وعلم أيضاً أن هناك أخباراً تسربت بأن الحكومة سوف تعتقل أي ضابط يعارض قرار الحل ، وأن محمد نجيب معرض للاعتقال والطرده من الخدمة (100).

ساد الاجتماع صمت مرير وحزين قطعته صوت عبد الحكيم عامر قائلاً: "لقد وجه لنا الملك صفة شديدة ، وما لم نرد عليه بصفة مماثلة فإن تنظيمنا سيفقد ثقة الضباط ولن يقبل أحد الانضمام إلينا ، خاصة وأن أخباراً تسربت إلينا بأن هناك قراراً باعتقال أي ضابط يعارض قرار حل النادي" . وتقدم جمال عبد الناصر باقتراح مؤداه أن يقوم التنظيم بسلسلة اغتيالات تستهدف هز أركان النظام ، واقترح أن نغتال حسين سري عامر وحسين فريد وحيدر باشا وحسن حشمت - قائد القوة المدرعة الذي كان رأس الرمح في الهجوم على الضباط المؤيدين للواء محمد نجيب في مجلس إدارة النادي ، وأحد قادة الجيش المشهورين بولائهم للسراي (101).

اتفقت لجنة القيادة أن يجهز كل عضو مجموعته للبدء في التنفيذ ، كما تم الاتفاق على الاجتماع في الغد بمنزل اليوزباشي خالد محيى الدين بمصر الجديدة لاتخاذ القرارات المناسبة (102).

تحركات الضباط الأحرار واجتماع لجنة القيادة يوم ١٨ يوليو

في صباح الجمعة ١٨ يوليو ١٩٥٢ قام البكباشي جمال عبد الناصر واليوزباشي خالد محيى الدين بزيارة الصاغ ثروت عكاشة في منزله بثكنات العباسية ليحيطاه علماً بأن الرأي استقر على أن يكون تنفيذ الانقلاب يوم ٥

أغسطس بالتحديد، وليس في ٥ نوفمبر كما سبق أن تقرر في حالة عدم اجتماع البرلمان في موعده في نوفمبر، ثم توجه الثلاثة إلى منزل البكباشي حسين الشافعي بثكنات العباسية لإبلاغه بموعد الانقلاب، وصلى الجميع صلاة الجمعة على صوت الراديو في شرفة الفيلا (103).

بعد ذلك اجتمعت لجنة القيادة في منزل حسين الشافعي، وحضر هذا الاجتماع لأول مرة البكباشي يوسف منصور صديق - قائد ثاني كتيبة مدافع الماكينة الأولى - حيث أحضره البكباشي جمال عبد الناصر، لأن يوسف كان يريد أن يطمئن على وجود قوات كافية، وبعد مناقشات طويلة صرف النظر كلية عن عمليات الاغتيال، واقترح جمال عبد الناصر وضع خطة تفصيلية لبدء التحرك الإيجابي بالسيطرة على القوات المسلحة وحدد الهدف بالاستيلاء على المنطقة العسكرية - رئاسة الجيش - وتحدد توقيتاً لذلك يوم ٢ أو ٣ أغسطس ١٩٥٢ (104). وكان هذا هو الموعد الثاني.

عبد الناصر يجتمع بقيادة الإخوان المسلمين يوم ١٨ يوليو

كان جمال عبد الناصر قد طلب في هذا اليوم - الجمعة ١٨ يوليو - عقد لقاء هام وعاجل مع قادة الإخوان المسلمين. وقد تم هذا اللقاء في ذات اليوم حوالي الحادية عشرة مساءً في منزل عبد القادر حلمي، وحضره مع عبد الناصر كمال الدين حسين وعبد الحكيم عامر. وحضره من الإخوان مع عبد القادر حلمي، حسن العشماوي وصالح أبو رقيق، وصلاح شادي وفريد عبد الخالق، وأخبر عبد الناصر الإخوان بحدوث أمور خطيرة، إذ أن أسماء أعضاء مجلس قيادة الضباط الأحرار قد عرفها البوليس السياسي (105).

ولذلك فإنهم يرون وجوب الإسراع بالقيام بالانقلاب، وقد قرروا ذلك فعلاً، وسأل جمال عبد الناصر عما إذا كان الإخوان موافقين ومستعدين للقيام بدورهم الذي سبق الاتفاق عليه وتحمل المسئوليات بعد إتمام الانقلاب، وطلب رداً سريعاً، ولكن الإخوان أفهموه أن صاحب الكلمة في هذه الأمور هو المرشد وأنه موجود بالإسكندرية وأن الرد يحتاج علي الأقل إلي ٤٨ ساعة للسفر لاستطلاع رأي المرشد وتحديد لقاء بعد هذه المدة، وسافر عبد القادر حلمي ومعه صالح أبو رقيق وفريد عبد الخالق، واتفق على بقاء صلاح شادي في القاهرة لانتظار جمال عبد الناصر في الموعد المتفق عليه في حالة احتمال تأخير عودة عبد القادر حلمي وإخوانه من الإسكندرية، وقد تحقق فعلاً هذا

الاحتمال ، وعندما حضر جمال عبد الناصر في الميعاد المحدد في ٢٠ يوليو تأجل اللقاء العام حتى يعود عبد القادر حلمي من الإسكندرية بعد لقاء المرشد⁽¹⁰⁶⁾.

عرض عبد القادر حلمي وإخوانه الموضوع على المرشد ، الذي وجه إليهم عدة استفسارات أهمها مدي تمسك هؤلاء الضباط بالإسلام ومدي إخلاصهم في قولهم بالعمل على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وهل تم الاتفاق في وضوح وصراحة على هذا الأمر؟ وهل اتفق على المشاركة الكاملة بين الإخوان والضباط الأحرار في الانقلاب والمسئولية إزاءه والتعاون في تنفيذه وبعد نجاحه، وفي النهاية أعطاهم المرشد موافقته المشروطة بالأمرين السابقين، كما أعطاهم الحق في الاتصال بالإخوان لتنفيذ التعليمات في الوقت المناسب، التي تترتب على قيام الانقلاب والمشاركة فيه بما فيهم ضباط الإخوان في الجيش لتنفيذ ما يصدر إليهم من تعليمات قيادتهم ، وعندما عاد عبد القادر حلمي وإخوانه متأخرين عن الموعد السابق عرفوا الموعد الجديد للقاء جمال عبد الناصر الذي حدده معه صلاح شادي يوم ٢١ يوليو⁽¹⁰⁷⁾.

اجتماع لجنة القيادة يوم ١٩ يوليو

دعا جمال عبد الناصر لجنة القيادة لاجتماع عاجل يوم السبت ١٩ يوليو وهو اليوم نفسه الذي التقى في صباحه مع اللواء محمد نجيب الذي أبلغه المعلومات المزعجة التي سمعها من وزير الداخلية.

أكد جمال عبد الناصر في هذا الاجتماع على أن موعد الانقلاب سيكون ليلة ٢٣ يوليو بدلاً من ليلة ٢٢ يوليو، ليتم استكمال دراسة الخطة التفصيلية للتنفيذ ، وتحديد مهمة كل وحدة من الوحدات العسكرية التي ستساهم بدور في الانقلاب . ودور كل ضابط سيشارك بها . وكذا لإبلاغ جمال سالم وصلاح سالم ومحمد أنور السادات الموجودين بمنطقة العريش ورفع بالموعد الذي حددناه للتنفيذ ، وحتى تتاح لهم الفرصة أيضاً لإعداد أنفسهم في منطقتهم والتبنيه عليهم بعدم التحرك إلا بعد أن نكون قد تحركنا في القاهرة وحققتنا بنجاح الخطوة الأولى.⁽¹⁰⁸⁾

وأنه سيتم إخطارهم تليفونياً بذكر كلمة السر والتي كنا قد اتفقنا عليها وهي كلمة (نصر) ، وسافر إليهم حسن إبراهيم يوم ١٩ يوليو بالطائرة ليطلعهم على الموقف وما قررناه ودورهم . وإبلاغ محمد أنور السادات كذلك بالنزول

إلى القاهرة قبل الموعد المحدد للتنفيذ ليشارك معنا عند التحرك وليقوم بالدور الذي كان قد حدد له في الخطة . وهو العمل على تعطيل شبكة التليفونات الموصلة بين القيادة العسكرية ووحدات الجيش المختلفة ثم يعاد تشغيلها لصالحنا والاستفادة بها (109).

ويذكر عبد اللطيف البغدادي : "وكان تواجد (٨٠,٠٠٠) جندي بريطاني في منطقة قناة السويس يشغل بالنا وتفكيرنا باستمرار خشية تدخلهم عسكريا عندما نتحرك ، ولكن لم يكن أمامنا من مفر غير قبول هذا الخطر ، وإلا جمدنا موقفنا حتى يتم جلاؤهم عن بلادنا . وموعد جلاتهم غير معروف ولا محدد. والموقف والظروف التي يمر بها وطننا لا تتحمل هذا التأجيل غير المحدد . ورأينا أن نضع في اعتبارنا عند وضع خططنا التفصيلية احتمال هذا التدخل منهم . وأن نحسب حسابه . وأن نعد أنفسنا له وذلك بالتصدي لهم بقوات عسكرية عند مدخل القاهرة الشرقي وأن نعمل على التعاون مع المنظمات الشعبية خاصة جمعية الإخوان المسلمين، لمقاومة هذا التدخل منهم لو حدث(110)".

إبلاغ جمال وصلاح سالم وأنور السادات

وفي يوم السبت ١٩ يوليو تم إبلاغ جمال سالم وصلاح سالم وأنور السادات الموجودين بمنطقة العريش ورفح بالموعد الذي تحدد بصورة نهائية بواسطة قائد الأسراب حسن إبراهيم الذي سافر إليهم بالطائرة، وتم التنبه عليهم بعدم التحرك إلا بعد أن تتحرك الوحدات العسكرية في القاهرة، وتحققت المرحلة الأولى من الخطة . وأنه سيتم إخطارهم تليفونيا بذلك بذكر كلمة السر "تصر" . كما قام حسن إبراهيم بإبلاغ أنور السادات بالنزول إلى القاهرة يوم ٢٢ يوليو قبل الموعد المحدد للتنفيذ ليشارك مع القوات عند التحرك وليقوم بالدور الذي كان قد حدد له في الخطة ، وهو العمل على تعطيل شبكة التليفونات الموصلة بين القيادة العسكرية ووحدات الجيش المختلفة وقت الانقلاب إلى أن يتم السيطرة على الجيش ووحداته المختلفة ثم يعاد تشغيلها لصالح الحركة والاستفادة بها.(111)

وبالفعل طلب البكباشي محمد أنور السادات إجازة عارضة وافق عليها قائد الآلي عن يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ .

ويقول أنور السادات : " وفي يوم ٢١ يوليو في ساعة مبكرة من الصباح كانت هناك طائرة تتجه من القاهرة إلى العريش ، وهي نفسها الطائرة التي

تسافر إلى العريش عادة كل يوم "إثنين" لكن في هذه المرة كان حسن إبراهيم فيها ، أرسله جمال عبد الناصر إلينا "صلاح سالم وجمال سالم وأنا " . وكان جمال عبد الناصر قد اتصل بنا تليفونيا وأخطرنا بأن " حسن إبراهيم" في طريقه إلينا ، وفي مطار العريش كنت مع جمال سالم في انتظار الطائرة. جاء حسين إبراهيم ليبلغنا أن الخطة الأساسية ستنفذ ما بين ٢٢ يوليو و ٥ أغسطس ! وطلب حسن مني أن أسافر على الفور إلى القاهرة لمقابلة جمال عبد الناصر هذا ما قاله السادات في كتابه "قصة الثورة كاملة " (١١٢) إلا أنه قال في كتابه " البحث عن الذات " أن عبد الناصر طلب أن أنزل إلى القاهرة يوم ٢٢ يوليو (١١٣).

وهذه التواريخ التي ذكرها أنور السادات تتضارب مع بعضها وتختلف السياق التاريخي فالجميع من رجال لجنة القيادة الذين حضروا الاجتماع بما فيهم حسن إبراهيم الذي حمل الرسالة قد أكدوا أن السادات أبلغ يوم ١٩ يوليو ١٩٥٢ بضرورة تواجده يوم ٢٢ يوليو بالقاهرة لأن موعد قيام الحركة قد تحدد بصورة نهائية ليلة ٢٣ يولييه ١٩٥٢ .

الساعات الأخيرة في وزارة حسين سري باشا

في الأيام الأخيرة من عمر وزارة حسين سري باشا كان الخاصة والعامة يتهامون عن اتجاهات لبعض ضباط الجيش يتحدون الملك وخاصة أن بعض المنشورات قد وصلت إلي أيدي المسئولين وبعض قيادات النقابات العمالية والمهنية ورؤساء الصحف وكانت هذه المنشورات تشير إلى حرب فلسطين وإلى صفقات الأسلحة المشبوهة وإلى الفساد الذي استشري في الجيش وفي مختلف مرافق الدولة (١١٤).

وأراد حسين سري باشا أن يهدئ الموقف بين الملك وضباط الجيش وعرض على الملك إمكان إسناد وزارة الحربية إلى اللواء محمد نجيب ليكون ذلك ترضية للضباط ، وكان حسين سري قد سبق ورشح محمد نجيب لهذا المنصب عند تأليفه الوزارة وقبل قرار حل مجلس إدارة نادي الضباط المنتخب، ولكن الملك رفض وتولي حسين سري وزارة الحربية مع رئاسة الوزارة . (١١٥)

وفي العاشرة من صباح يوم السبت ١٩ يوليو ١٩٥٢ ، اتصل حسين سري باشا من الإسكندرية بالدكتور محمد هاشم باشا الموجود في القاهرة وطلب منه الحضور فوراً ، فوصل الساعة الثالثة عصراً ، فابتدره حسين سري باشا بقوله : "اسمع المهازل طلبت من السراي الطلبات السابقة والخاصة بتعيين

اللواء محمد نجيب وزيراً للحربية، وإعفاء اللواء حسين سرى عامر من الخدمة في الجيش فردت بالآتي : أرفت محمد نجيب وعين حيدر باشا وزيراً للحربية. ودهشت لأن حيدر كان مطلوب طرده ، فلما ألحيت مرة أخرى ردت السراي : إذا كان لابد من فصل حسين سرى عامر فيجب فصل محمد نجيب معه⁽¹¹⁶⁾.

وفى يوم الأحد ٢٠ يوليو ١٩٥٢ دعا حسين سرى باشا الوزارة إلي الاجتماع به في داره بالإسكندرية ، وأطلعهم على تفاصيل الأزمة في جميع مراحلها ، وختم بيانه بقوله إنه قرر الاستقالة ، إذ يتعذر عليه المضي في الحكم بعدما رفض الملك اقتراحاته ، فأيدوه في موقفه ووافقوا على الاستقالة . ثم قال حسين سرى : إذن فقد تقرر الاستقالة بالإجماع⁽¹¹⁷⁾.

وفى نحو الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ٢٠ يوليو اتصل اندراوس بكريم ثابت تليفونياً وقال له : يحسن بحسين سرى باشا أن يقدم استقالته فوراً ، وألا ينتظر حتى صباح الغد ، فقد سمعت أن بعضهم يقترح على الملك إقالة الوزارة بكتاب شديد العبارة. وعلى الفور أسرع كريم ثابت إلي حسين سرى في بيته ، ونباه بذلك ، فنهض إلي التليفون وكلم حافظ عفيفي باشا في منزله ، ثم ذهب إليه بكتاب الاستقالة⁽¹¹⁸⁾.

وقال حافظ عفيفي باشا لحسين سرى باشا وهو يتسلم منه الإقالة : أنا من رأيكم وأؤيدكم ، لا فقط في وجوب خروج حسين سرى عامر من الجيش ، بل أيضاً في وجوب تعيين اللواء محمد نجيب وزيراً للحربية . ولكن نعمل إيه إذا كانت البلاد يبحكمها خادم ! إشارة إلي محمد حسن الشماشجي⁽¹¹⁹⁾.

وذكر حسين سرى في كتاب استقالته : " أن الأمانة تقتضي أن أبين للمقام السامي الكريم أنني أصبحت غير قادر على الاستمرار في تحمل أعباء الحكم ، راجياً أن تتنازلوا جلالتم فتنفضلوا بقبول استقالتي"⁽¹²⁰⁾.

وقبل الملك استقالة وزارة حسين سرى باشا يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، وجاء في الأمر الملكي بقبول الاستقالة : "كنا نود أن تعملوا على تذليل الصعاب التي من أجلها قدرتم عدم إمكانكم الاستمرار في مهمتكم ، فتحققوا بذلك ما عقد عليكم من أمل عندما حملتم أمانة الحكم ، إلا أنكم آثرتم أن تتخلوا عن هذه المهمة في الظروف الدقيقة التي تواجهها البلاد ، والتي اخذ يتزايد فيها الشعور بنقل التبعات ، ولم يعد يسعنا إلا أن نجيبكم إلي ملتصكم . قد أصدرنا أمرنا هذا إلي مقامكم الرفيع بقول استقالتم " ⁽¹²¹⁾.

بلاغ الصاغ ثروت عكاشة للبكباشي جمال عبد الناصر

وفى يوم ٢٠ يوليو ، ١٩٥٢ تلقي الصاغ ثروت عكاشة مكاملة تليفونية من زوج شقيقته أحمد أبو الفتوح رئيس تحرير المصري الموجود بالإسكندرية يخبره أن حكومة حسين سري باشا ستقضي عن الحكم ، وإن أحمد نجيب الهلالي سوف يشكل وزارة جديدة وسيكون وزير الحربية فيها اللواء حسين سري عامر العدو للدود للضباط الأحرار وتنظيمهم ، وأفهمه بصورة ملتوية بضرورة عمل شئ قبل أن يقبضوا عليهم . وعلى الفور أبلغ ثروت عكاشة هذه الأخبار المزعجة للبكباشي جمال عبد الناصر (122).

وعرف الضباط الأحرار ما حدث فأيقنوا أن الموقف بينهم وبين الملك أصبح حاسماً ، وأنه إن ظفر بهم حوكموا بتهمة الخيانة لا ريب ، هذا إذا لم يغتالوا بليل ويقضي على حياتهم ثم لا يعرف أحد مصيرهم . لذلك لم يلبثوا حين قدم حسين سري باشا استقالته إن اجتمعوا قرروا انتزاع الموقف من يد الملك ليأخذوه بيدهم . فالمسألة الآن بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت. وخير أن يموتوا كراماً في معركة إذا هم لم ينتصروا . فإن انتصروا آل الأمر إليهم وأنقذوا رؤوسهم (123).

تطابقت رواية اللواء محمد نجيب مع رواية الصاغ ثروت عكاشة وعززت كل منهما الأخرى ، ودعي البكباشي جمال عبد الناصر لجنة القيادة للاجتماع.

اجتماع لجنة القيادة يوم الأحد ٢٠ يوليو ١٩٥٢ .

وفى اجتماع لجنة القيادة بمنزل الصاغ خالد محيي الدين حكي جمال عبد الناصر ما قاله له اللواء محمد نجيب عن قصة قائمة الإثني عشر ضابطاً ثم حكي ما قاله ثروت عكاشة. وقررت لجنة القيادة التحرك فوراً خلال ٤٨ ساعة.. وتحددت ليلة ٢٢ يوليو ، إلا أن جمال عبد الناصر عاد يوم ٢١ يوليو ليبلغ لجنة القيادة بأنه يري التأجيل ليلة أخرى انتظاراً لحشد قوات أكبر. وتحددت ليلة ٢٣ يوليو كموعدهم النهائي . وخلال الفترة من ٢٠ يوليو وحتى يوم ٢٢ وضعت الخطة النهائية لحركة الجيش بعد أن روجعت بالحذف والإضافة (124).

وفى يوم ٢٠ يوليو أعلنت حالة الطوارئ ابتداءً من الساعة السابعة مساءً إلي صباح اليوم التالي . كما اجتمع جمال عبد الناصر في هذا ، ليوم للمرة

الثانية بممثل جماعة الإخوان بعد يومين من الاجتماع الموسع الذي عقد في منزل عبد القادر حلمي وحضرة خمسة من الجماعة بشأن معاونة الجماعة في حماية المرافق العامة عند قيام الحركة (125).

وفي مساء يوم ٢٠ يوليو عقد اجتماع موسع في منزل الصاغ صلاح نصر بحدائق القبة ، حضره ما يزيد على خمسة عشر ضابطاً من التنظيم منهم جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ويوسف منصور صديق وزكريا محيى الدين وصلاح سعده وعمر محمود وبعض ضباط الكتيبة الثالثة عشرة من التنظيم وصلاح نصر (126).

وشرح جمال عبد الناصر الموقف العام وقال : إن نسبة النجاح ضئيلة جداً فالملك متربص بنا ، والإنجليز في منطقة قناة السويس قد يتدخلون لضرب الثورة ، وأمريكا قد تتدخل بجانب الملك ، وقد يحدث تدخل من بعض وحدات الجيش ، ولكن لا بد أن نتحرك . واستطرد جمال عبد الناصر قائلاً : حتى لو أخفقنا وأعدمنا الملك ، فإننا نكون قد مهدنا السبيل لغيرنا كي يعرفوا طريق الثورة . ثم شرح جمال عبد الناصر دور الكتيبة الثالثة عشرة في عملية الاستيلاء على مقر القيادة العسكرية بكوبري القبة. وتقرر في نهاية الاجتماع عقد اجتماع أخير عصر يوم ٢٢ يوليو في بيت الصاغ صلاح نصر لمراجعة آخر ترتيبات العملية (127).

وفي يوم الاثنين ٢١ يوليو ، أعلنت حالة الطوارئ في الإسكندرية في الساعة الثامنة مساءً وحتى صباح ٢٢ يوليو (128).

اجتماع ثالث بين جمال عبد الناصر وممثلي جماعة الإخوان

وفي يوم الإثنين ٢١ يوليو عقد اجتماع ثالث بين جمال عبد الناصر وممثلي جماعة الإخوان بمنزل عبد القادر حلمي ، حضره صالح أبو رقيق وحسن العشماوي وفريد عبد الخالق وصلاح شادي وأعلنوا موافقة المرشد العام على معاونة الحركة عند قيامها مع تحفظات معينة. وشرح عبد القادر حلمي وجهة نظر المرشد بالتفصيل . وصدق جمال عبد الناصر على جميع تحفظات المرشد وأكد قبولها وأنه سبق الاتفاق عليها مع الإخوان ، واستطرد قائلاً : أنه تأكد له اليوم أن اسمه قد عرف لدي البوليس السياسي لذلك فقد اتفقوا على القيام بالانقلاب في خلال يومين على الأكثر وأنه سيعرف الإخوان بالموعد وساعة الصفر (129).

وقبل انصراف جمال عبد الناصر استأذن صلاح شادي من باقي الأخوة الموجودين في الانفراد بجمال عبد الناصر ، وقد تم الانفراد فترة قصيرة انصرف بعدها جمال عبد الناصر ، حيث أبلغ صلاح شادي باقي الأخوة بأنه وجمال عبد الناصر تذاكرا في هذا اللقاء عهدهما السابق على المبادئ والأهداف التي بايعا الله عليها قبل الإقدام علي هذه الخطوة المصيرية وأشهد الله على هذا العهد بقراءة الفاتحة (130).

في خلال الاجتماع حضر الدكتور حسين كمال الدين وعبد الرحمن السندي ومعهما الضابطان البكباشي عبد المنعم عبد الرؤوف والبكباشي أبو المكارم عبد الحي ، وكان صلاح شادي قد استشار إخوانه الأربعة الذين اجتمعوا معه بجمال عبد الناصر فيما إذا كان من المصلحة تعريفهم بما يجري من أمور في هذا الشأن أم لا ؟ واتفقوا أنه ليس من المصلحة الآن الكشف عما يجري من اتصالات مع هذه الجماعة، وأن على ضباط الجيش من الإخوان تنفيذ ما يصدر إليهم من تعليمات قيادتهم ، وقد التزم صلاح شادي بهذا الرأي عندما قال إنهما باعتبارهما ضابطين في الجيش قد شعرا بتحركات للضباط الأحرار ، ولما سألا الدكتور حسين كمال الدين وعبد الرحمن السندي لم يجدا عندهما معلومات بهذا الشأن وقالوا إنهما ما جاء إلا للاستفهام من صلاح شادي عن هذا الموضوع وقد انصرفا قبل انصراف جمال عبد الناصر (131).

وفي الساعة العاشرة والنصف مساءً يوم ٢١ يوليو ، ذهب البكباشي جمال عبد الناصر والصاغ كمال الدين حسين ، لزيارة البكباشي عبد المنعم أمين - قائد ثاني المدفعية المضادة للطائرات - في شقته المطلّة على شارع النيل بالجيزة ، وكان كمال حسين قد اتصل به تليفونيا بهذا الخصوص ، وطلب جمال عبد الناصر من عبد المنعم أمين المشاركة في الانقلاب المحدد له ليلة ٢٣ يوليو حيث وافق الأخير على ذلك (132).

اجتماعات مستمرة لجمال عبد الناصر والضباط الأحرار طوال يوم ٢١ يوليو

تعددت اجتماعات الضباط الأحرار طوال هذا اليوم ، ففي الصباح كان جمال عبد الناصر يقوم بتصحيح أوراق امتحان كلية أركان الحرب، واتصل بالصاغ ثروت عكاشة في مكتبه الواقع بالمبني نفسه للاطمئنان على مدي الاستعدادات ، وفي سلاح المدفعية قام اليوزباشي محمد أبو الفضل الجيزاوي بتجميع أكبر عدد من الضباط بعد الظهر وكانوا نحو ثلاثين للتحكم في مداخل

المنطقة العسكرية والسيطرة على منطقة الماذه، وإعداد عربات من خدمة الجيش لنقل الجنود ، وعقد اجتماع للمشاة في أحد منازل الضباط حضره عبد الحكيم عامر وكمال الدين رفعت وعبد الحليم عبد العال وإسماعيل فريد وعباس رضوان لتوزيع الواجبات عليهم حيث أنهم كانوا يمثلون مجموعة الاعتقالات وهي التي عهد إليها باعتقال كبار الضباط بالكلية الحربية، كما عقد اجتماع لضباط الفرسان في منزل حسين الشافعي لتدوين كشوف بأسماء الضباط المشتركين في العملية ووحداتهم واستبعاد المشكوك فيهم، واشترك في الاجتماع حسين الشافعي وثروت عكاشة وعثمان فوزي وخالد محيي الدين (133).

قام البكباشي جمال عبد الناصر ومعه الصاغ عبد الحكيم عامر في ذلك اليوم بزيارة البكباشي يوسف منصور صديق في منزله بحلمية الزيتون وهو المنزل الذي يفصله الشارع عن منزل اللواء محمد نجيب ، ونصحه بعدم الاشتراك في العمل مراعاة لحالته الصحية حيث كان مريضاً . إلا أن يوسف صديق صمم على الاشتراك وأبلغ صديقه أن قواته على استعداد للتحرك وعرف من جمال عبد الناصر أنه سيرسل له برسول يبلغه بساعة الصفر (134).

وزارة الهلالي باشا وتحركات الضباط الأحرار

وفي يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ قبلت استقالة حسين سرى باشا ، وكلف الملك فاروق أحمد نجيب الهلالي باشا بتشكيل الوزارة الجديدة (135). واقترح الهلالي باشا ما اقترحه حسين سرى باشا من تعيين اللواء محمد نجيب بك وزيراً للحربية. وظلت شخصية وزير الحربية الجديد لم يكشف عنها إلا في الرابعة من مساء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، عندما وصل أعضاء مجلس الوزراء إلي القصر الملكي "قصر المنتزه" لأداء اليمين ، وهناك قيل لهم إن إسماعيل شيرين ابن شقيقة الفريق حيدر باشا ، وزوج شقيقة الملك ، الاميره فوزية سيكون هو الوزير المنتظر، ولم يعلم الهلالي باشا بما اعترمه الملك إلا حين رأي إسماعيل بك شيرين في القصر في الموعد المعين لحلف الوزراء اليمين بين يدي الملك . ولم يجد الهلالي باشا في نفسه القوة ليرفض تأليف الوزارة ، لأن اقتراحه الخاص بوزير الحربية رفض . وتألفت الوزارة كما أراد الملك أن تتألف (136).

وقد أظهرت خدعه تعيين إسماعيل شيرين وزيراً للحربية دليلاً على سوء تقدير خطير بواسطة الملك فاروق ، فقد كان واضحاً أن شيرين سوف يكفل الواجهة التي يتخذ من خلفها اللواء حسين سرى عامر ومرتضي المراغي وزير

الداخلية الجديد النشيط إجراء ضد الضباط الأحرار ، وبالفعل فإنه بعد ساعة من أداء اليمين في الإسكندرية ، وصلت الأوامر إلي القيادة العليا للجيش بالقاهرة لاعتقال الضباط الأحرار⁽¹³⁷⁾. وجاء استدعاء الملك للهلالى باشا ، متأخراً جداً، إذ كان الجيش قد تحرك ، وكان الملك ورجال السلك السياسي ، في هذه الأونة يقضون الصيف في الإسكندرية⁽¹³⁸⁾.

حفل يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ بتحركات نشطة لجميع الذين اشتركوا في حركة الجيش ففي الصباح ذهب اللواء محمد نجيب في سيارته العسكرية إلي بيت جمال عبد الناصر بشارع والي ، واعتلي درجات السلم مسرعاً مما تسبب في قطع بنطلونه فلم يجده ، فذهب إلي كلية أركان حرب حيث قابله مع عبد الحكيم عامر للتأكيد على أن يتم التنفيذ في الليلة نفسها. وقال جمال عبد الناصر أنه أرسل إلي البكباشي أنور السادات في العرش بصفته ضباط إشارة لكي يسيطر على الإذاعة والتليفونات ، وفي الوقت نفسه حضرت مجموعة الاعتقال إلي منزل عبد الحكيم عامر للتأكد من ساعة الصفر على أن يعودوا إلي الاجتماع في الساعة الثالثة بمنزل البلتاجي بالعباسية، ولكن عبد الحكيم عامر لم يحضر إلا بعد الساعة السابعة مساءً وعلى إثرها توجهوا للمرور على منازل الضباط الأحرار لتبليغهم بأخر التعليمات⁽¹³⁹⁾.

اجتماع لجنة القيادة الأخير (ظهر يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو ١٩٥٢)

وفي الساعة الثانية بعد ظهر ٢٢ يوليو عقدت "لجنة القيادة" اجتماعها الأخير في منزل خالد محيي الدين ، وحضره كل من جمال عبد الناصر ، حسن إبراهيم ، عبد الحكيم عامر ، كمال الدين حسين ، عبد اللطيف البغدادي ، وخالد محيي الدين ، وتغيب جمال سالم وصلاح سالم وأنور السادات ، وحضر هذا الاجتماع من خارج لجنة القيادة زكريا محيي الدين وحسين الشافعي وعبد المنعم أمين وإبراهيم الطحاوي . وكان حضورهم مبرراً ومنطقياً ، وإن كان جمال قد دعاهم إلى الحضور بمبادرة منه ، فقد شارك زكريا في إعداد خطة التحرك ، ومن الطبيعي أن يحضر ليشرحها للجنة القيادة الحاضرين من خارجها ، والطحاوي كان سيقود تحرك سلاح خدمة الجيش ، والشافعي سيقود تحرك الفرسان ، وعبد المنعم أمين سيقود تحرك المدفعية⁽¹⁴⁰⁾.

وهذه الخطة وضعها جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وزكريا محيي الدين ، وهي بخط عبد الحكيم بإضافات زكريا

والتعليمات النهائية لجمال عبد الناصر وبخطه . وتقع في ست صفحات فولسكاب الخط ليس جيداً ، فيها شطب وتعديل مشحونة بالمصطلحات الفنية والرموز (141).

تحدث المجتمعون عن خطة التحرك والتفت بغدادي إلي زكريا محيي الدين وقال له : "اقرأ الخطة" وعرضها زكريا وكانت بسيطة للغاية ويمكن القول إنها اكتسبت عناصر نجاحها من بساطتها ، وكانت تنقسم إلي ثلاث مراحل: (142)

المرحلة الأولى :

- ١- يلتزم اللواء محمد نجيب - قائد الحركة - داره لأنه كان تحت المراقبة .
- ٢- السيطرة على القوات المسلحة بالإستيلاء على مبني القيادة العسكرية بمنطقة كوبري القبة باقتحامها والاسيلاء عليها بمجموعة من الضباط الأحرار .
- ٣- تقوم مجموعة الإعتقال ، باعتقال بعض كبار قادة وضباط الجيش والطيران من منازلهم لضمان عدم إمكان تحرك أي قوات عسكرية للتصدي للحركة .
- ٤- حددت الخطة في مرحلتها الأولى مهام الأسلحة المختلفة :

- الفرسان : إغلاق المنطقة عند شارع الخليفة المأمون بجوار محطة البنزين ، وإغلاق المنطقة عند المستشفى العسكري وكذا المنطقة عند "باب ستة" بالعباسية وبوابة العباسية ، كما تقوم مجموعة من المدرعات بالسيطرة على مطارات الماظه ومصر الجديدة وغرب القاهرة.
- المدفعية : عزل منطقة الماظة وهايكستب والطرق المؤدية لمبني القيادة بكوبري القبة والطرق المؤدية لوحدات الجيش المختلفة. وتقرر أن يعاون المدفعية في هذه المهمة وحدات من الفرسان بدبابات وعربات مصفحة.
- المشاة : الكتيبة رقم ١٣ مشاة تحت قيادة الصاغ صلاح نصر معه مجموعة من تسعة ضباط أحرار (وقد انضم لهم في آخر لحظة القائم قام أحمد شوقي قائد الكتيبة متضامناً مع الضباط الأحرار) تتوجه إلي مبني قيادة الجيش بكوبري القبة ومساعدة من مقدمة كتيبة مدافع الماكينة الأولى يقودها البكباشي يوسف منصور صديق في الاستيلاء على مبني القيادة بمن فيها من قيادات.

كما خصص جزء من الكتيبة ١٣ مشاة للسيطرة على رئاسة سلاح الحدود في كوبري القبة وجزء آخر من نفس الكتيبة للسيطرة على مبني الإذاعة والقاء بيان من الإذاعة في الصباح الباكر من يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

الطيران : القيام بطلعات استكشاف للتأكد من عدم تحرك قوات بريطانية من قاعدة القنال ، وطلعات استكشاف فوق القاهرة والإسكندرية، ومنع الملك من الهروب سواء عن طريق الجو أو البحر. وكانت مهمة الطيران تالية لتحرك قوات الحركة في المرحلة الأولى .

٥- تحدد المسئولون عن تحريك القوات في المرحلة الأولى على الوجه الآتي :

أ- الفرسان : حسين الشافعي ، خالد محيي الدين ، وثروت عكاشة .

ب- المدفعية : كمال الدين حسين ، وعبد المنعم أمين .

ج - المشاة : البكباشي يوسف منصور صديق، القائم قام أحمد شوقي ومجموعة قيادة الكتيبة ١٣، تحت الإشراف المباشر للبكباشي جمال عبد الناصر.

د - الطيران : حسن إبراهيم ، وعبد اللطيف البغدادي .

٦- انتقال قائد الحركة اللواء أركان الحرب محمد نجيب من منزله إلى قيادة الجيش بعد السيطرة عليها .

المرحلة الثانية :

العمل على السيطرة على جهاز الحكومة المدني ، وإنزال قوات إلي الشوارع للسيطرة على عدد من المواقع المدنية الحيوية كالإذاعة والتليفونات وقصر عابدين ، مباني وزارة الداخلية وأجهزة الأمن وأقسام الشرطة الرئيسية .

المرحلة الثالثة :

التحرك لمحاصرة الملك ومنعه من الاتصال بأي وحدات من القوات المسلحة أو القوات البريطانية تمهيداً لعزله ولكن في سرية تامة حتى لا تتسرب معلومات للإنجليز أو لغيرهم .

بعد انتهاء زكريا محيي الدين من قراءة الخطة ، تحدث البكباشي حسين الشافعي واعلن ان سلاح الفرسان جاهز ولديه عدد ٣٢ ضابطاً جاهزين لتحريك قواتهم ، ولدي أحرار الفرسان ٤٨ دبابة و ٤٨ سيارة مدرعة وكتيبة ميكانيكية وآلي خيالة.

وتحدث خالد محيي الدين قائلاً : إن قوات الفرسان كفيلاً بإنجاح الحركة ،
دونما حاجة لانتظار وحدات مشاة ، أو انتظار وصول بقية كتيبة يوسف صديق .
ثم تحدث البكباشي جمال عبد الناصر عن المدفعية والمشاة قائلاً : إنه مسئول
عن تدبير وحدات منها .

اقتصرت الاجتماع على مناقشة المرحلة الأولى في الخطة والتي كانت
تستهدف في جملتها السيطرة على القوات المسلحة وكان تنفيذها يبدأ في الساعة
الواحدة صباحاً بتحريك سرية مشاة من الكتيبة ١٣ من معسكر العباسية لاحتلال
مبنى رئاسة الجيش بكوبري القبة الذي كان يقع في الطابق الأول منه مكاتب
إدارة الجيش بينما يقع في الطابق الثاني منه مكتب الفريق حسين فريد رئيس
أركان حرب الجيش وهيئة مكتبه وعينت مقدمة كتيبة مدافع الماكينة الأولى
المشاة القادمة من معسكر الهايكستيب لتكون قوة احتياطية للمعاونة في تنفيذ هذا
الواجب . (143)

وفي ساعة الصفر المحددة كان على وحدات المدفعية بأقسامها المختلفة
التحرك من معسكراتها في أمانة والهايكستيب لضرب حلقة من الحصار حول
المنطقة العسكرية الممتدة من معسكر العباسية جنوباً إلى منطقة معسكرات
الجيش بالمأظة شرقاً وإلى منطقة هايكستيب شمالاً وإغلاق جميع مداخل القاهرة
الشرقية والشمالية التي تؤدي إلى مناطق المعسكرات وإلى رئاسة الجيش (144).

وكان سلاح الفرسان مكلفاً بالاشتراك مع سلاح المدفعية في إحكام هذا
الحصار بوحدات تعين من الدبابات والسيارات المدرعة والكتيبة الميكانيكية (145).

وخصصت سرية مشاة من الكتيبة ١٣ تحت قيادة الصاغ صلاح سعده ،
لاحتلال مبنى قيادة سلاح الحدود الذي كان يرأسه اللواء حسين سري عامر
عميل السراي وخضم الضباط الأحرار اللدود، وكان المبنى يقع خلف رئاسة
الجيش بكوبري القبة، ونظراً لتوقع حدوث مقاومة سلاح الحدود لذلك وضع
تروب من الدبابات الثيرمان في معاونة سرية الكتيبة ١٣ ، مما أدى إلى
تأجيل عملية الاستيلاء على المبنى إلى أول ضوء يوم ٢٣ يوليو ليتيسر
استخدام الدبابات (146).

وكان احتلال دار الإذاعة بمكاتبها بشارع الشرفين وباستوديوهاتها
بشارع علوي موكولا إلى فصيلة من الكتيبة ١٣ مشاة بمعاونة تروب من
السيارات المدرعة من سلاح الفرسان (147)

وكان الخطأ الوحيد تقريباً هو عدم إدراك واضعي الخطة أن استوديوهات الإذاعة وقتئذٍ بشارع علوي كانت تعتمد في بثها على خطوط تليفونية متصلة بمحطة الإرسال الرئيسية بمنطقة "أبوزعبل".

ولذا فإن من يسيطر على محطة الإرسال هذه كان في إمكانه بث الإرسال أو قطعة كما حدث فعلاً صباح يوم ٢٣ يوليو ، عندما انقطع الإرسال قبل إلقاء البيان الأول للحركة . وقد تم تدارك هذا الخطأ عن طريق الأوامر التي صدرت من البكباشي جمال عبد الناصر للصاغ مجدي حسنين بالتوجه إلى أبوزعبل للسيطرة على محطة الإرسال بمساعدة تروب من الدبابات (148).

وكان دور سلاح الإشارة بالخطة هو السيطرة على مصلحة التليفونات بشارع الملكة نازلي (رمسيس حالياً) عن طريق تروب من السيارات المدرعة من سلاح الفرسان بهدف تعطيل شبكة التليفونات بالمصلحة لمنع حدوث أية اتصالات بين الإسكندرية والقاهرة، وكذا السيطرة على تحويلة التليفونات العسكرية الموجودة بالدور الأرضي بمبنى رئاسة الجيش بكوبري القبة لمنع إجراء أية اتصالات بين قادة الجيش ووحداته (149).

كما حددت مجموعات صغيرة من الضباط للقيام بعمليات اعتقال كبار قادة الجيش والطيران في بيوتهم لضمان عدم توجههم إلى وحداتهم ومنعهم من إصدار أية أوامر لتحريك قوات عسكرية يمكن أن تنصدي للحركة (150).

وكان دور سلاح الطيران ينحصر في السيطرة على مطاراته الثلاثة الرئيسية حول القاهرة وهي الماظه ومصر الجديدة وغرب القاهرة ليلة ٢٣ يوليو بمعاونة وحدات من السيارات المدرعة، وعلى أن يبدأ استخدام الطائرات المقاتلة صباح يوم ٢٣ يوليو بالقيام بعدة طلعات فوق القاهرة والإسكندرية على ارتفاع منخفض لأحداث التأثير المعنوي المطلوب وهو تشجيع القوات المشتركة في الحركة، وفي الوقت نفسه بث روح اليأس في نفوس الملك وحكومته وأعدائه لحثهم على الاستسلام . كما كان من أهداف الطيران القيام باستطلاع فوق مداخل القاهرة الشرقية لاستكشاف أية تحركات بريطانية تجاه العاصمة تمهيداً للإبلاغ عنها والتصدي لها، والعمل في الوقت نفسه على إحباط أية محاولة يقوم بها الملك للهروب من مصر عن طريق البحر أو الجو (151).

واستكمالاً لتنفيذ الخطة كانت الأوامر الصادرة لجميع قوات الحصار تقضي بمنع أي ضابط من رتبة البكباشي فما فوق من اجتياز نطاق الحصار

والدخول إلى أماكن تجمع الوحدات بالمعسكرات، حتى لا يفكر أحد من الضباط القدامى في القيام بأعمال مضادة للحركة. وكان أمل قيادة الحركة، في انضمام باقي وحدات الجيش معقودا على وصول الضباط الشبان من رتب الصاغ واليوزباشي والملازم إلى وحداتهم في الصباح حيث سيكون من السهل عليهم السيطرة على وحداتهم وإعلان انضمامها إلى قوات الحركة فإن مشاعرهم وأمانهم لا تختلف عن تلك التي تملأ نفوس زملائهم من الضباط الأحرار، وسوف يكون المجال أمامهم متسعا بعد غياب القادة والضباط القدامى عن أنظارهم فإن قوات الحصار سوف تكون قد تكلفت بإبعادهم ومنع دخولهم إلى المعسكرات (152).

هذا ولم يكن واردا في الخطة الاستيلاء على مبني القيادة العامة للقوات المسلحة بثكنات قصر النيل (مكان فندق هيلتون ومقر الجامعة العربية حاليا) فقد كان المبني خاليا بسبب وجود الفريق محمد حيدر القائد العام وهيئة مكتبه جميعا في المقر الصيفي للقيادة العامة بثكنات مصطفى باشا بالإسكندرية (153).

وكانت السيطرة على وحدات الجيش بالمناطق الخارجية وخاصة في سيناء والإسكندرية موكولة إلى الضباط الأحرار بهذه الوحدات على أساس تنحية قادتها وتوليهم قيادتها بأنفسهم بمجرد إبلاغهم إشارة النجاح، فتم تكليف البكباشي جمال سالم والصاغ صلاح سالم بالسيطرة على قوات العريش ورفع (154).

وكانت الخطة في إجمالها تتميز بالبساطة والواقعية وتحددت فيها الواجبات وفقا للإمكانيات المتاحة ولو سارت بالطريقة التي رسمت لها لأمكن للحركة من السيطرة على القوات المسلحة دون أية مقاومة ولتم اعتقال قادة الجيش في بيوتهم وكانت المفاجأة مذهلة للملك والحكومة في الإسكندرية عند استماعهم إلى البيان الأول للحركة في الساعة والنصف من صباح ٢٣ يوليو من دار الإذاعة بالقاهرة ولكن الأقدار تدخلت وتسرب سر الحركة إلى الملك وأعوانه قبل ساعة الصفر بثلاث ساعات على الأقل مما كاد يهدد الحركة بالفشل بل ويقضي عليها قبل أن تبدأ فحدثت وقائع ومصادفات أغرب من الخيال مما أتاح للحركة فرصة الفوز والنجاح ورغم وقوع بعض الارتباك في بادئ الأمر إلا أنه سرعان ما استقرت الأوضاع وجري تنفيذ الخطة الموضوعية كما رسمت تماما (155).

انتهى اجتماع لجنة القيادة الأخير في تمام الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، وتقرر عدم الاتصال بين الضباط وبعضهم تليفونيا، وإن تعد كل مجموعة نفسها للتحرك واتفق الجميع أن تكون كلمة السر "تصر" (156).

التقت جمال عبد الناصر إلى خالد محيي الدين في نهاية الاجتماع يسأله أين سيكون في المساء وقبل ساعة الصفر ، فقال خالد : سأذهب أنا وحسين الشافعي إلى بيت ثروت عكاشه فقال جمال : قد أمر عليكم وأضاف : ثروت عاطفي خليه يخلي باله (157).

تبليغ الأخوان وحدثو

في هذه الأثناء كان جمال عبد الناصر منشغلاً بعدد من القضايا الهامة ، فقد اتصل بالإخوان المسلمين فقام بنفسه ومع كمال الدين حسين بالاتصال باثنين من أهم أعضاء جمعية الإخوان المسلمين هما حسن عشاوي وصالح أبو رقيق وأبلغاهما بموعد تحرك الجيش واتفقا معهما على أن يسهم بعض الأخوان في مساندة حركة الجيش بعد انتصارها في الصباح ، ومساعدة الحركة كذلك في حالة تحرك القوات البريطانية ضدها (158).

ويقول خالد محيي الدين : " وقبل التحرك أبلغني جمال عبد الناصر أنه أبلغ الإخوان باستعدادنا للتحرك ، فسألته هل ردهم إيجابي؟ فhez رأسه بالموافقة، ولكنه أضاف : إنهم متعبون جداً وعلينا أن نعيد الحسابات بالنسبة لهم ، ففهمت من كلامه أنهم واجهوه بمطالب كثيرة ولكن الظروف الحرجة أملت على عبد الناصر عدم مجابتهم " (159).

وكان جمال عبد الناصر قد أرسل شقيقه عز العرب وشوقي إلي الإسكندرية يوم ٢١ يوليو لمقابلة اليوزباشي أحمد حمروش ، وكان أحد المسؤولين عن قسم الضباط في منظمة "حدثو" ليطلبوا منه السفر إلي القاهرة لمقابلة جمال عبد الناصر (160).

وحضر أحمد حمروش ليقابل جمال عصر يوم ٢٢ يوليو ، وأبلغه جمال بأن " الضباط الأحرار" سيتحركون الليلة ، وطلب منه الاتصال "بالضباط الأحرار" في الإسكندرية بهدف تأمين المنطقة هناك . وكانت لجنة القيادة تستشعر خطراً من وجود الملك بالإسكندرية ومعه قوات من الحرس الملكي ، وخشيت اللجنة من أن يجمع حوله قوات أخرى ليستقوي بها كما فعل الخديوي

توفيق إبان الثورة العراقية (161).

لماذا اختار جمال عبد الناصر أحمد حمروش بالذات ؟ ولعل الإجابة الأكثر منطقية هي أن جمال عبد الناصر أراد أن يبلغ "حدثو" بموعد الحركة ، كما أبلغ الأخوان ، ليضمن إمكانية مسانبتها له . وبالفعل أسرع حمروش إلي القاضي أحمد فؤاد ، وأسرع الاثنان لمقابلة خالد محيي الدين ، ثم توجه حمروش ليبلغ النبأ إلي الرفيق بدر سكرتير عام "حدثو" (162). وهكذا أتم جمال عبد الناصر تحصين الحركة سياسياً.

أما ذيول معركة انتخابات نادي ضباط الجيش فقد امتدت إلي ما بعد قيام حركة الجيش وذلك في سبتمبر ١٩٥٢ حيث طالبت مجموعة من الضباط بانتخابات جديدة لمجلس إدارة النادي تكون أكثر تعبيراً للوضع الجديد بعد التغييرات الجذرية التي مرت بها القوات المسلحة ونجاح حركة الجيش يوم ٢٣ يوليه ، فكان رد مجلس قيادة الثورة أن الوقت لم يحن بعد لإجراء هذه الانتخابات بدعوى أن الجيش لم يستكمل تطهير نفسه، لهذا فإن مجلس قيادة الثورة يري أن يتم تشكيل المجلس الجديد بالتعيين ، الأمر الذي أثار ثائرة الداعين إلي إجراء الانتخابات متهمين مجلس قيادة الثورة بأنه عاد بهم إلي الوضع الذي ثاروا عليه إبان سيطرة إدارة الجيش على النادي ، هكذا انتهت قصة نادي ضباط الجيش من حيث بدأت .

الهوامش

- (١) محمد حسين هيكل ، مذكرات في السياسة المصرية ، الجزء الثاني ، ص ٣٧٢.
- (٢) المصدر السابق ، نفس المكان.
- (٣) صلاح نصر ، ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير ، الجزء الأول ، ص ٨١.
- (٤) أحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليو " ، ص ٨١.
- (٥) وثائق المحفوظات العسكرية ، لائحة تنظيم شئون نادي فاروق
- (٦) مقابلة مع اللواء محمد نجيب بمنزله بالمرج المحدد فيه إقامته يوم ١٥ سبتمبر ١٩٧٩ ، انظر كذلك مقابلة مع زكريا محيي الدين يوم ٥ يونيه ١٩٨٦ ، مقابلة مع جمال حماد يوم ٢ مارس ١٩٨٨.
- (٧) المقصود بوزارة الوفد هي وزارة مصطفى النحاس باشا (الوزارة السابعة) واستمر حكمه خلال الفترة من ١٢ يناير عام ١٩٥٠ وحتى ٢٧ يناير عام ١٩٥٢.
- (٨) أحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليو " ، ص ١١١ - ١١٢ .
- (٩) صلاح نصر ، " ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير " ، الجزء الأول ، ص ٨٢ ، أنظر كذلك أحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليو " ، ص ١١٢ ، مقابلة مع عبد اللطيف البغدادي بمنزله يوم ٨

- ديسمبر عام ١٩٨٦ ، مقابلة مع علي صبري (نائب رئيس الجمهورية السابق) بمنزله يوم ٢٢
ديسمبر عام ١٩٨٦ .
- (١٠) مقابلة مع الصاغ جمال حماد ، سبق نكرها ، انظر كذلك لائحة تنظيم شئون نادي فاروق
والقانون الخاص بذلك .
- (١١) كان الفريق حيدر مززعجا إذا كان قد أثير حوله عام ١٩٥٠ ما يشير إلي تدخله في قضية
الأسلحة الفاسدة مما جعله يقدم استقالته فوراً في نوفمبر عام ١٩٥٠ ، ولكن الملك لم يشأ أن
يتخلي عن رجله ، فأعادته إلي منصبه في مايو عام ١٩٥١ .
- (١٢) مقابلة مع خالد محيي الدين بمنزله ، سبق نكرها ، انظر كذلك مقابلة مع عبد اللطيف البغدادي
بمنزله ، سبق نكرها ، خالد محيي الدين ، والآن أتكلم ، ص ١٠٩ .
- (١٣) خالد محيي الدين ، والآن أتكلم ، ص ١٠٩ ، انظر كذلك مقابلة مع عبد اللطيف البغدادي ،
سبق نكرها .
- (١٤) اللواء أركان الحرب محمد نجيب كان يشغل في ذلك الوقت منصب مدير سلاح الحدود حيث
نقله الملك فاروق من مدير سلاح الحدود إلي مدير سلاح المشاة مما ترتب عليه غضب اللواء
محمد نجيب وكاد يقدم استقالته لولا تدخل الضباط الأحرار ومنعه من تقديم استقالته .
- (١٥) محمد عبد الفتاح أبو الفضل "مذكراته" ، ص ص ٨٩ - ٩٠ والمصدر الرئيسي لهذه المعلومات
هو حديث في لقاءات متكررة مع الضابط السابق إبراهيم حافظ عاطف مساعد سكرتير عام مجلس
إدارة نادي الضباط ومع محمد رشاد مهنا سكرتير عام مجلس إدارة النادي .
- (١٦) خالد محيي الدين ، والآن أتكلم ، ص ١٠٩ .
- (١٧) مقابلة مع محمد رشاد مهنا ، يوم ٢١ يوليو ١٩٨٧ بمنزله بمنشية البكري ، انظر كذلك صلاح
نصر ، " ثورة ٢٣ يوليو " ، ص ٨٢ ، وأحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليو " ، ص ص ١١٢ -
١١٣ .
- (١٨) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، " مذكراته " ، ص ص ٨٩ - ٩٠ .
- (١٩) أحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليو " ، ص ١١٦ .
- (٢٠) محمد نجيب ، " كلمتي للتاريخ " ، ص ٣١ .
- (21) أحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليو " ، ص ١٢٠ ، انظر كذلك محمد عبد الفتاح أبو الفضل ،
تأملات في ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ص ٥٦ - ٥٧ .
- (٢٢) عبد اللطيف البغدادي ، " مذكراته " ، الجزء الأول ، ص ص ٤٣ - ٤٤ .
- (٢٣) المصدر السابق ، ص ٤٤ .
- (2٤) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ٥٨ .
- (٢٥) صلاح نصر ، " ثورة ٢٣ يوليو " ، الجزء الأول ، ص ٨٣ .
- (٢٦) محمد نجيب ، " كلمتي للتاريخ " ، ص ٣٣ ، مقابلة مع الرئيس السابق محمد نجيب بمنزل
زينب الوكيل بالمرج يوم ١٥ سبتمبر عام ١٩٧٩ .
- (٢٧) صلاح نصر ، " ثورة ٢٣ يوليو " ، ص ٨٣ ، انظر كذلك محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، كنت
نائباً لرئيس المخابرات ، ص ٩٠ .
- (٢٨) صلاح نصر ، " ثورة ٢٣ يوليو " ، ص ٨٣ .
- (29) المصدر السابق ، نفس المكان .
- (30) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، كنت نائباً لرئيس المخابرات ، ص ٩٠ .
- (31) خالد محيي الدين "والآن أتكلم" ، ص ١١٠ .
- (32) صلاح نصر ، " ثورة ٢٣ يوليو " ، ص ٨٣ .
- (33) صلاح نصر ، " ثورة ٢٣ يوليو " ، ص ٨٣ .
- (34) صلاح نصر ، " ثورة ٢٣ يوليو " ، ص ٨٤ ، انظر كذلك خالد محيي الدين ، والآن أتكلم ، ص
١١٠ .

- (35) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ص ١٢٤ - ١٢٥ ، ارجع في ذلك إلي جمال عبد الناصر ، كتاب "فلسفة الثورة" ، ص ١٢ وما بعدها .
- (٣٦) كمال الدين رفعت ، أوراقه الخاصة - غير منشورة - مذكراته عن هذه الحقبة ، ص ٣٧ .
- (37) F.O. 371/96862.B.M.E.O. To F.O.26 Jan. 1952.No.92. Confidential.
- (٣٨) عبد الرحمن الرفاعي ، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، ص ١٢٨ .
- (39) F.O.371/96873. Stevenson To Eden. 25 Feb. 1952. No. 48. Confidential. Her Majesty's Ambassador's Investigation Committee's Report On the Egyptian rioting on 26 Jan. 1952.
- (40) مقابلة مع عبد اللطيف البغدادي يوم ١٨ ديسمبر ١٩٨٦ بمنزله بمدينة نصر ، أنظر أيضاً مقابلة مع زكريا محيي الدين بمنزله بالدقي يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٨٦ ، مقابلة مع حسين الشافعي بمنزله بالدقي يوم ١٥ يناير ١٩٨٧ ، أنظر أيضاً مقابلة مع كمال الدين حسين بمنزله بالدقي يوم ٦ فبراير ١٩٨٧ ، أنظر أيضاً البغدادي ، مذكراته ، الجزء الأول ، ص ٤٤ .
- (41) عبد اللطيف البغدادي ، مذكراته ، الجزء الأول ، ص ٤٤ ، أنظر كذلك محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر ، ص ص ٦٢ - ٦٣ .
- (42) أحمد حمروش ، قصة ثورة ٢٣ يوليو ، الجزء الأول ، ص ١٧٨ .
- (43) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر ، ص ٦٦ .
- (44) كانت النية معقودة لدي تنظيم الضباط الأحرار على القيام بالثورة خلال عام ١٩٥٥ . وقد ورد ذلك في تصريح لجمال عبد الناصر للصحفي البريطاني دافيد مورجان مراسل الصندي تايمز في شهر يولييه ١٩٦٢ .
- (45) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ٦٦ .
- (46) وثائق ثورة ٢٣ يولييه ، الملف الخاص بمنشورات الضباط الأحرار ، منشور صادر باسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني إلي ضباط الجيش .
- (47) وثائق ثورة ٢٣ يولييه ، الملف الخاص بمنشورات الضباط الأحرار بعد حريق القاهرة ، صورة من المنشور ومرق بهذا الملحق أيضاً مجموعة من المنشورات السرية التي كانت تصدرها المجموعات المختلفة من التنظيمات السرية ، أنظر الملحق رقم (١٤) .
- (48) وثائق لجنة تسجيل ثورة ٢٣ يولييه ، الملف الخاص بالمنشورات ، المصدر السابق ، منشور صدر بتاريخ ٥ مارس ١٩٥٢ .
- (49) أحمد حمروش ، قصة ثورة ٢٣ يولييه ، الجزء الأول ، ص ١٨٠ .
- (50) وثائق مجلس الوزراء المصري ، مرسوم إعلان الأحكام العرفية الصادر بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، أنظر كذلك محضر اجتماع مجلس الوزراء بمنزل مصطفى النحاس باشا مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ .
- (51) وثائق مجلس الوزراء ، كتاب إقالة مصطفى النحاس بتاريخ ٢٧ يناير ١٩٥٢ والذي صدر في صورة أمر ملكي رقم ٨ لسنة ١٩٥٢ صادر إلي حضره صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا .
- (52) كريم ثابت ، مذكراته : عشر سنوات مع فاروق ، ص ٤٣٢ .
- (53) المصدر السابق ، ص ٤٣٣ .
- (54) خالد محيي الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٢٢ .
- كان الملازم عبد القادر طه من ضباط الحرس الحديدي الذي شكله الملك لحسابه من الضباط وعندما اختلف الملازم عبد القادر طه مع الملك أمر باغتياله على يد الحرس الحديدي نفسه وكانت هذه المعلومات معروفة تماماً في وسط جميع ضباط الجيش ، أرجع في ذلك إلي محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر - ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الجزء الأول ، ص ٦٧ وانظر كذلك سيد جاد ، الحرس الحديدي ، ص ص ١٤٥ - ١٤٦ .

- (55) أحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليو ، ص ص ١٢٥ - ١٢٦ .
- (56) وثائق لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ملف المنشورات ، منشور صادر يوم ١٨ أبريل ١٩٥٢ ، انظر كذلك مقابلة مع خالد محيي الدين ، سبق الإشارة إليها .
- (57) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر - ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الجزء الأول ، ص ٦٧ .
- (58) خالد محيي الدين ، والآن أتكلم ، ص ١٢٤ .
- (59) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، المصدر السابق ، ص ص ٦٧ - ٦٨ .
- (60) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر - ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الجزء الأول ، ص ٦٨ .
- (61) المصدر السابق ، نفس المكان .
- (62) المصدر السابق ، ص ٦٩ .
- (63) المصدر السابق ، نفس المكان .
- (64) كان تنظيم الضباط الأحرار مسيطراً على الكتيبة الثالثة عشر مشاه عن طريق الصاغ صلاح نصر ، وكانت الكتيبة تضم أكبر عدد من الضباط الأحرار وتعتبر القوة الرئيسية التي اعتمد عليها التنظيم في الاستيلاء على السلطة مع كتيبة مدافع الماكينة بقيادة البكباشي يوسف منصور صديق .
- (65) صلاح نصر ، ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير ، الجزء الأول ، ص ٨٦ .
- (66) عبد الرحمن الرفاعي ، مقدمات ثورة ٢٣ يولييه سنة ١٩٥٢ ، ص ١٤٥ .
- (67) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر - ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الجزء الأول ، ص ٧٠ .
- (68) إيدن ، أنتوني ، مذكراته - القسم الأول ، ترجمة خيرى حماد ، ص ٣٣٩ ، انظر وثائق مجلس الوزراء المصري ، أمر ملكي رقم ٤١ لسنة ١٩٥٢ صادر إلي حضرة صاحب المقام الرفيع حسين سري باشا بتشكيل الوزارة ، يوم ٢ يولييه ١٩٥٢ ، وانظر كذلك مرسوم تشكيل الوزارة يوم ٢ يولييه ١٩٥٢ ، الصادر بقصر المنقره في ١٠ شوال ١٣٧١ الموافق ٢ يولييه ١٩٥٢ وهذه الوزارة هي الخامسة التي شكلها حسين سري باشا .
- (69) عبد الرحمن الرفاعي ، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ص ص ١٤٥ - ١٤٦ .
- (70) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر - ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، الجزء الأول ، ص ص ٧٠ - ٧١ .
- (71) خالد محيي الدين ، والآن أتكلم ، ص ١٢٤ .
- (72) إيدن ، أنتوني - مذكراته ، القسم الأول ، ص ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .
- (73) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ص ١٣٩ - ١٤٠ .
- (74) إيدن ، أنتوني ، المصدر السابق ، ص ٣٤١ .
- (75) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٤٩ ، انظر كذلك أحمد بهاء الدين ، فاروق ملكا ، ص ص ١٤١ - ١٤٢ .
- (76) يوسف منصور صديق ، مذكراته ، غير منشورة ، ص ص ٣٨ - ٣٩ .
- (77) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ص ١٥١ - ١٥٢ .
- (78) المصدر السابق ، ص ١٥٢ .
- (79) أحمد عطية الله ، المصدر السابق ، ص ١٥٣ .
- (80) صلاح نصر ، ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير ، ص ٨٧ .
- (81) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر - ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الجزء الأول ، ص ٧١ .
- (82) المصدر السابق ، المكان نفسه .

- (83) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٥٤ .
- (84) المصدر السابق ، ص ص ١٢٦ - ١٢٧ .
- (85) كريم ثابت - مذكراته ، عشر سنوات مع فاروق ، ص ٤٥١ .
- (86) كريم ثابت - المصدر السابق ، ص ص ٤٥١ - ٤٥٣ .
- (87) المصدر السابق ، ص ص ٤٥٤ - ٤٥٥ ، انظر كذلك أحمد عطية الله ، المصدر السابق ، ص ١٥٤ .
- (88) المصدر السابق ، ص ص ٤٥٤ - ٤٥٥ ، انظر كذلك أحمد عطية الله ، المصدر السابق ، ص ١٥٤ .
- (89) كريم ثابت ، المصدر السابق ، ص ص ٤٥٥ - ٤٥٦ .
- (90) المصدر السابق ، ص ٤٥٦ .
- أريد أن ألفت النظر هنا إلي أن كبار السياسيين كانوا يتحدثون مع خادم الملك في أمور السياسة العليا ، وهذا أكبر دليل على فساد الأوضاع في ذلك الوقت .
- (91) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ص ١٥٤ - ١٥٥ .
- (92) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٥٥ ، نقلا عن رواية الدكتور محمد هاشم .
- (93) محمد نجيب ، كلمتي للتاريخ ، ص ص ٣٦ - ٣٧ ، انظر كذلك مقابلة مع اللواء محمد نجيب بمنزله بالمرج سبق ذكرها ، محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ٧٣ . اعتقد أن التاريخ الذي حنده اللواء محمد نجيب عن مقابله لوزير الداخلية يوم ١٨ يوليو ١٩٥٢ ، هو التاريخ الصحيح وليس تاريخ ١٧ يوليو الذي ذكره كريم ثابت .
- (94) المصدر السابق ، نفس المكان .
- (95) محمد نجيب ، كلمتي للتاريخ ، ص ٣٧ ، انظر كذلك مقابلة مع اللواء محمد نجيب بمنزله بالمرج ، مقابلة سبق ذكرها .
- (96) أحمد عطية الله ، المصدر السابق ، ص ١٥٦ .
- (97) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر - ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الجزء الأول ، ص ٧٢ ، انظر كذلك محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، مذكراته - كنت نائبا لرئيس المخابرات ، ص ص ٩٤ - ٩٥ .
- (98) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، مذكراته - كنت نائبا لمدير المخابرات ، ص ص ٩٥ - ٩٦ ، انظر كذلك محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ٧٢ .
- (99) كريم ثابت - مذكراته ، عشر سنوات مع فاروق ، ص ٤٥٦ ، انظر كذلك أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٥٤ .
- (100) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ٧٢ ، انظر كذلك خالد محيي الدين ، والآن اتكلم ، ص ص ١٢٤ - ١٢٥ .
- (101) خالد محيي الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٢٥ .
- (102) المصدر السابق ، نفس المكان .
- (103) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٥٩ .
- (104) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ص ٧٢ - ٧٣ ، انظر كذلك ، خالد محيي الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٣١ ، محمد نجيب ، كلمتي للتاريخ ، ص ص ٣٤ - ٣٥ .
- (105) مقابلة مع صلاح شادي بمنزله يوم ١٥ يونيو ١٩٨٦ ، انظر كذلك صلاح شادي ، مذكراته ، ص ص ١٧٥ - ١٧٦ .
- (106) صلاح شادي ، مذكراته ، ص ١٧٦ .
- (107) المصدر السابق ، ص ص ١٧٦ - ١٧٧ .
- (108) عبد اللطيف البغدادي ، 'مذكراته' الجزء الأول ، ص ٤٨ .

- (109) عبد اللطيف البغدادي ، مذكراته - الجزء الأول ، ص ص ٤٨ - ٤٩ .
- (110) عبد اللطيف البغدادي ، مذكراته ، الجزء الأول ، ص ٤٩ .
- (111) عبد اللطيف البغدادي ، مذكراته ، الجزء الأول ، ص ص ٤٨ - ٤٩ ، انظر كذلك مقابلة مع قائد الأسراب حسن إبراهيم بمنزله يوم ١٥ يوليو ١٩٨٧ ، أحمد حمروش ، قصة ثورة ٢٣ يوليو ، الجزء الأول ، ص ١٩٤ .
- (112) أنور السادات ، قصة الثورة كاملة ، كتاب الهلال ، العدد ٧٥ ، يونيه ١٩٥٧ ، ص ص ٩٣ - ٩٤ .
- (113) أنور السادات ، البحث عن الذات ، ص ١٤٠ .
- (11٤) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ٧٣ .
- (11٥) محمد حسين هيكل ، مذكرات في السياسة المصرية ، الجزء الثاني ، ص ص ٣٧٣ - ٣٧٤ ، انظر كذلك ، إيدن ، انتوني - مذكراته القسم الأول ، ص ص ٣٤١ - ٣٤٢ .
- (11٦) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٦٢ .
- (11٧) كريم ثابت ، مذكراته - عشر سنوات مع فاروق ، ص ٤٦٤ .
- (11٨) كريم ثابت ، المصدر السابق ، ص ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .
- (11٩) المصدر السابق ، ص ٤٦٥ .
- (1٢٠) وثائق مجلس الوزراء ، كتاب استقالة الوزارة المرفوع إلي حضرة صاحب الجلالة الملك من حضرة صاحب المقام الرفيع حسين سرى باشا ، الإسكندرية يوم ٢٨ شوال ١٣٧١ (٢٠ يوليو ١٩٥٢) .
- (١٢١) وثائق مجلس الوزراء ، أمر ملكي رقم ٥٠ لسنة ١٩٥٢ بقبول استقالة وزارة حسين سرى باشا ، صدر بقصر المنتزه في ٣٠ شوال ١٣٧١ (٢٢ يوليو ١٩٥٢) .
- (١٢٢) محمد نجيب ، كلمتي للتاريخ ، ص ٣٩ ، انظر كذلك خالد محيي الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٣٣ ، مقابلة مع ثروت عكاشة بمنزله ، يوم ١٥ يوليو ١٩٩٩ .
- (123) محمد حسين هيكل ، مذكرات في السياسة المصرية ، الجزء الثاني ، ص ٣٧٤ .
- (124) خالد محيي الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٣٣ .
- (125) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٦٤ ، انظر كذلك أوراق صلاح شادي - غير منشورة
- (126) صلاح نصر ، ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير ، ص ٨٧ .
- (127) صلاح نصر ، المصدر السابق ، ص ص ٨٧ - ٨٨ .
- (128) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٦٦ .
- (129) صلاح شادي ، مذكراته ، ص ١٧٧ .
- (130) المصدر السابق ، ص ص ١٧٧ - ١٧٨ .
- (131) صلاح شادي ، مذكراته ، ص ص ١٧٧ - ١٧٨ .
- (132) مقابلة مع كمال الدين حسين يوم ١٥ أبريل ١٩٩٧ بمنزله بالدقي ، انظر كذلك مقابلة مع البكاشي عبد المنعم أمين بمنزله ، مقابلة سبق ذكرها .
- (133) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٦٨ .
- (134) يوسف منصور صديق ، مذكراته ، غير منشورة ، ص ص ٨ - ٩ .
- (135) وثائق مجلس الوزراء ، أمر ملكي رقم ٥١ لسنة ١٩٥٢ صادر إلي حضرة صاحب الدولة أحمد نجيب الهلالي باشا ، صدر بقصر المنتزه في ٣٠ شوال ١٣٧١ (٢٢ يوليو ١٩٥٢) بتشكيل الوزارة الجديدة . ووزارة أحمد نجيب الهلالي باشا هي الوزارة الثانية واستمرت حتى يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٢ .
- (136) محمد حسين هيكل ، مذكرات في السياسة المصرية ، الجزء الثاني ، ص ٣٧٤ .
- (137) عادل ثابت ، فاروق الأول الملك الذي غدر به الجميع ، ص ٢٣٢ .

- (138) إيدان ، أنتوني ، منكراته ، القسم الأول ، ترجمة خيرى حماد ، ص ٣٤٢ .
- (139) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٦٨ .
- (140) خالد محيي الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٢٣ ، انظر كذلك مقابلات مع : عبد اللطيف البغدادي ، سبق نكرها ، حسن إبراهيم ، سبق نكرها ، كمال الدين حسين ، سبق نكرها ، زكريا محيي الدين ، سبق نكرها .
- (141) مقابلة مع ثروت عكاشة بمنزله يوم ٢٥ مارس ١٩٨٨ ، انظر كذلك ثروت عكاشة ، منكراته ، الجزء الأول ، ص ص ٢٥ - ٢٨ ، مقابلة مع زكريا محيي الدين بمنزله بالدقي ، مقابلة سبق نكرها .
- (142) عبد اللطيف البغدادي ، منكراته ، الجزء الأول ، ص ٤٦ وما بعدها ، انظر كذلك خالد محيي الدين ، والآن اتكلم ، ص ص ١٣٤ - ١٣٩ ، صلاح نصر ، ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير ، ص ص ٨٩ - ٩١ ، محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر الجزء الأول ، ص ص ٧٤ - ٧٦ ، مقابلة مع زكريا محيي الدين بمنزله بالدقي ، مقابلة سبق نكرها .
- يذكر البكباشي عبد اللطيف البغدادي أنه عند قيام زكريا محيي الدين بقراءة الخطة لاحظت أن جمال عبد الناصر قد انتحي بي جانباً مع حسن إبراهيم وقال أن الموضوع ليس أقدمية (ذلك لأن زكريا كان أقدم من جمال عبد الناصر فى الرتبة كما أن زكريا لم يكن قد انضم للجمعية التأسيسية فى ذلك الوقت بينما كان جمال هو الرئيس المنتخب).
- يذكر خالد محيي الدين : 'بعد انصراف الزملاء الأربعة من خارج لجنة القيادة كان أول ما فعله جمال عبد الناصر أنه عاتب البغدادي بشدة لأنه طلب من زكريا محيي الدين أن يقرأ خطة التحرك وقال جمال : لقد وضعت الخطة وساعدني زكريا فى ذلك ، فلماذا يقرأها . لقد كان جمال عبد الناصر حساساً للغاية حتى فى الأوقات الصعبة ، إزاء مكانته كمسئول عن الحركة لا يترك أية فرصة للشك لدى أي من الضباط المشاركين فى الحركة حول زعامته .
- (143) مقابلة مع زكريا محيي الدين بمنزله بالدقي ، مقابلة سبق نكرها .
- (144) مقابلة مع كمال الدين حسين بمنزله بالدقي ، مقابلة سبق نكرها .
- (145) خالد محيي الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٣٥ ، انظر كذلك مقابلة مع خالد محيي الدين ، سبق نكرها .
- (146) مقابلة مع الصاغ صلاح سعدة يوم الثلاثاء ١٩ فبراير ٢٠٠٢ .
- (147) مقابلة مع الصاغ صلاح سعدة يوم الثلاثاء ١٩ / ٢ / ٢٠٠٢ .
- (148) جمال حماد ، ٢٢ يوليو أطول يوم فى تاريخ مصر ، ص ص ١٨٦ - ١٨٧ .
- (149) مقابلة مع اليوزباشي خالد محيي الدين ، مقابلة سبق نكرها .
- (150) مقابلة مع الصاغ حسين حمودة بمنزله بحدائق القبة يوم ١٨ فبراير ١٩٨٧ .
- (151) مقابلة مع قائد الجناح عبد اللطيف البغدادي بمنزله بمدينة نصر ، مقابلة سبق نكرها ، انظر كذلك ، مقابلة مع قائد أسراب حسن إبراهيم ، مقابلة سبق نكرها .
- (152) مقابلة مع زكريا محيي الدين ، بمنزله بالدقي ، مقابلة سبق نكرها .
- (153) المصدر السابق .
- (154) مقابلة مع عبد اللطيف البغدادي بمنزله بمدينة نصر ، مقابلة سبق نكرها .
- (155) مقابلة مع البكباشي عبد اللطيف بغدادي ، مقابلة سبق نكرها .
- (156) مقابلة مع اليوزباشي خالد محيي الدين ، بمنزله ، مقابلة سبق نكرها .
- (157) خالد محيي الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٣٦ .

- (158) مقابلة مع كمال الدين حسين بمنزله بالنقي يوم ١٠ مارس ١٩٨٧ ، انظر كذلك أوراق صلاح شادي ، غير منشورة ، مذكراته عن تلك الفترة ، محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ٧٧ .
- (159) خالد محيي الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٣٧ .
- (160) المصدر السابق ، ص ١٣٧ ، انظر كذلك أحمد حمروش ، قصة ثورة ٢٣ يوليو ، الجزء الأول ، ص ١٩٥ ، مقابلة مع عز العرب عبد الناصر بمنزله بمصر الجديدة يوم ١٨ مارس ١٩٨٧ .
- (161) مقابلة مع كمال الدين حسين بمنزله يوم ١٠ مارس ١٩٨٧ ، انظر كذلك خالد محيي الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٣٧ ، أحمد حمروش ، قصة ثورة ٢٣ يوليو ، الجزء الأول ، ص ١٩٥ ، نكر أحمد حمروش : أنه قابل جمال عبد الناصر أمام منزله بكوبرى القبة حوالي الساعة الخامسة والنصف مساء يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ حيث ترك عربته السوداء الصغيرة ووقف يتحدث مع اليوزباشي أحمد حمروش حيث أبلغه بموعد الحركة ، وكان في العربة الصاغ كمال الدين حسين والقائمقام أحمد شوقي والساغ صلاح نصر .
- (162) خالد محيي الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٣٧ .

الفصل السابع

٢٣ يوليو ١٩٥٢ انقلاب أم ثورة

عبدالمنعم إبراهيم الجميلى (*)

يعد تحديد المفاهيم والمصطلحات من الأمور الأساسية في دراسة الحدث التاريخي. وحتى تتضح صورة ما حدث في يوليو ١٩٥٢ سنعرض أولاً للفارق بين مفهوم الانقلاب والثورة.

يحدث الانقلاب غالباً من فئة تستهدف الاستيلاء على السلطة بالقوة. وتغير شخص الحاكم دون أن يكون في مخططها إحداث أى تغيير في الأوضاع والعلاقات الاقتصادية، والاجتماعية والسياسية للبلاد، بل يظل المجتمع على ما هو عليه، ويقتصر الأمر على استبدال حاكم بحاكم بينما الثورة تتبع غالباً من صفوف الشعب لتعبير عن آماله وآلامه، وتعمل على إحداث انتفاضة أساسية وجذرية في البناء الاجتماعي بهدف إقامة علاقات اجتماعية جديدة، وإحداث تغييرات في تركيبة المجتمع وفلسفته وأهدافه بما يتفق مع مصالح جماهير الشعب وتطلعاته خاصة وأن قيمة الثورة الحقيقية ترتبط بمدى شعبيتها ومدى ما يمكن أن توفره للجماهير من تعبئة لاعادة صنع المستقبل، وتغيير ما هو كائن إلى ما يجب أن يكون، بحيث يؤدي هذا التغيير إلى مغالبة التخلف والانتقال بالمجتمع إلى حياة أفضل^(١)

وقد أوضح "جمال عبد الناصر" مفجر ثورة يوليو الفرق بين الثورة والانقلاب في حديث له بجريدة الأهرام فذكر أن الثورة تهدف إلى الوصول إلى الحكم لتحقيق تغيير جذري في أوضاع المجتمع بينما الانقلاب في حقيقته محاولة لتغيير شخص الحاكم فحسب^(٢) ولتحليل ذلك يتضح أن فكرة استخدام العنف في كل من الثورة والانقلاب تصبح واردة طالما أن كل منهما يرمى إلى الإطاحة بالنظام الحاكم واستبداله بنظام جديد ومن هنا فإنه من الناحية العملية قد تختلط فكرتا الثورة والانقلاب وتتداخلان، خاصة وأن وجود ثورة شعبية شئ يندر وجوده. قد يقول البعض أن الثورة الإيرانية بقيادة الخميني على الشاه كانت

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . رئيس قسم التاريخ كلية التربية - جامعة القاهرة بالفيوم.

ثورة شعبية خالصة وهذه حقيقة، ولكنها لا تعد مقياساً يمكن الأخذ به فكثيراً ما تعتمد الثورات على أقلية نشطة من الشعب يساندها بعض رجال الجيش ثم تتضمن إليها جماهير الشعب بعد ذلك ، أو أن تقوم القوات المسلحة في بلد ما بحركة تعبر فيها عن مصالح أغلبية الشعب وأهدافه وآماله. ثم يقف الشعب بجانبها لتحقيق هذه الأهداف والآمال حتى تتمكن من تثبيت أقدامها.

ولكى يمكن تصنيف ما حدث في الثالث والعشرين من يوليو هل هو انقلاب أم ثورة؟ ينبغي أن نستعرض الأقاويل التي تردت حول حركة الجيش في يوليو ١٩٥٢ وحقيقتها. فالضباط الذي خططوا لهذه العملية كانوا عبارة عن مجموعة غير معروفة من صغار الضباط من أبناء الطبقة الوسطى وليس لها أى سند جماهيري بل تمثل واقعا اجتماعياً معيناً وتعبر عن إرادة جيل بعينه^(٣). كما أنهم لم يصفوا حركتهم في بداية أمرها بالثورة بل قالوا إنها "الحركة المباركة"، كما أن اللجنة التنفيذية لهم أطلقت على نفسها اسم "القيادة"، وأجهزة الصحافة والأعلام أطلقت عليها اسم "الانقلاب"، والكتب التي صدرت وقتذاك ذكرت أنها "انقلاب"^(٤)، هذا إلى جانب أن الضباط الأحرار كانوا قد أشاروا في منشوراتهم الأولى إلى ضرورة عودة الجيش إلى ثكناته بعد تأدية واجبه، وقد أوضح "عبد الناصر" ذلك صراحة في كتابه "فلسفة الثورة" فذكر أنه كان يتصور أن دور الضباط الأحرار ينحصر في أنه دور طليعة الفدائيين الذي لا يستغرق سوى بضع ساعات يأتي بعدها الزحف المقدس للصفوف المترابطة المنظمة لتتسلم زمام الأمور وتعيد ترتيب الأوضاع ولكنه فوجئ بجموع جاءت شيعاً متفرقة، وقلولاً متناثرة لا تستطيع تكملة المشوار^(٥) مما جعل الحاجة إلى إقامة نظام جديد يختلف عن النظام السابق مطلوباً كما أكد عبد اللطيف البغدادي ذلك بقوله ((لم نكن قد أعدنا لأنفسنا برنامج عمل مفصل لإدارة أمور البلاد خشية ما يترتب على ذلك من خلافات وفرقة بيننا في وقت كنا في أشد الحاجة إلى استمرار تماسكنا ووحدةنا)).^(٦) يضاف إلى ذلك أن قادة الحركة قاموا بدعوة مصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين بعد أن عادا من الخارج في ٢٧ يوليو ١٩٥٢ لمعرفة نوايا الوفد إذا تسلم الحكم، ولكن هذه المقابلة لم تكن موفقه^(٧).

ومعنى ذلك أن قادة الحركة لم يكن لديهم تصور واضح عن الخطوات الواجب اتخاذها بعد السيطرة على الموقف خاصة وأنه كان من المفترض لديهم تسليم السلطة إلى تنظيمات سياسية وطنية يضاف إلى ذلك أن إطلاق مفهوم الثورة على هذه الحركة كان ينقصه العديد من الإجراءات حتى يمكن أن يطلق

عليه ثورة، ويؤكد ذلك أنه مع أن هذه الحركة كانت عسكرية صرفه فإن الذى خطط لها مجموعة من الضباط، ولم يعرف عن أهدافها ضباط الصف والجنود إلا بعد أن نفذوا أوامر ضباطهم بالتحرك دون وعى بحقيقة ما سيحدث، نظراً لعدم وجود أى فكرة لديهم عن تنظيم الضباط الأحرار ومخططات رجاله^(٨) كما أن جماهير الشعب المصرى كانت قد فوجئت بالحدث التى لم تعرف عنه إلا من خلال البيان الذى أذيع باسم اللواء محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة^(٩) فى الساعات الأولى من صباح يوم ٢٣ يوليو والذى تحدث فيه عن الفترة العصبية التى اجتازتها مصر من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وأكد فيه للشعب المصرى أن الجيش كله سيعمل "لصالح الوطن فى ظل الدستور مجرداً من أية غاية" كما طالبه بالألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف لأن هذا ليس فى صالح مصر".

وعلى الرغم من أن جماهير الشعب المصرى استقبلت هذا البيان بحماس شديد، فإنها منعت من التظاهر لتأييده منعاً باتاً خشية أن تسنح الفرصة للدسائس كى تلعب دورها مما يفسح المجال أمام التدخلات الأجنبية^(١٠) هذا إلى جانب أن المنظمات السياسية القائمة وقتذاك لم تشارك بشكل مباشر فى صناعة ما حدث باستثناء منظمة "حدثو" والإخوان المسلمين الذين ساعدوا على قيامه بشكل غير مباشر^(١١) ونتيجة لكل ذلك وقف الناس حيارى لا يدرون ماذا سيحدث لمستقبل بلادهم، ولا يعرفون ماذا تخبئه لهم الأقدار، مع هذا الانقلاب التى تغلبت عليه الصفة العسكرية، ثم سرعان ما تبين للجميع أن ما حدث فى مصر خلال ليلة ٢٣ يوليو لم يكن من الأحداث العابرة بل كان ثورة بكل ما تضمنته هذه الكلمة من معان، خاصة بعد التغييرات التى أحدثتها من أجل تغيير هيكل البناء الاجتماعى لمصر، وتحسين أوضاع الجماهير الشعبية، وما قامت به من إجراءات هدمت الثوابت.

فى الساعة السادسة من مساء يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ أذاعت محطة الإذاعة المصرية الإنذار الموجه إلى الملك من اللواء محمد نجيب حملته فيه كثير من السيئات مثل سوء التصرف والعبث بالدستور وامتهان إرادة الشعب، وطالبه بضرورة مغادرة البلاد موضحاً أن ما حدث إنما هو تعبير عن إرادة الشعب وذلك بقوله "لقد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش" و"الجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج" وهذا يعنى أن حركة الجيش كانت تستند فى

مطالبها على رأى الشعب ورغبته فى تغيير أوضاع البلاد^(١٢).

وبعد أن استمع الناس للإنداز ازداد تأييدهم للثورة خاصة وأنها تطلب من الملك النزول عن العرش والخروج من البلاد تحقيقاً لرغبة الشعب ثم قيام الملك بالتوقيع على وثيقة التنازل ومغادرته البلاد معزولاً عن عرشه. ومعنى ذلك أن حركة الجيش لم تكن مجرد انقلاب عسكرى له أهداف محدودة ومطالب خاصة برجال الجيش إذا ما أُجيبَت هدأت الأحوال وترك الملك على عرشه، ولكن ما حدث كان عكس ذلك تماماً خاصة وأن المخاطرة لم تكن مأمونة العواقب فقد أرادها رجال الحركة ثورةً شاملةً على الأوضاع السائدة اجتماعية واقتصادية وسياسية والتي يرغب الشعب فى التخلص منها خاصة بعد الاستياء الواسع من النظام الملكى، والإحباط وفقدان الثقة فى الأحزاب السياسية مما شكل تربة خصبةً لحركة الضباط الأحرار وقربهم من الشعب، ومن هنا تحول الانقلاب إلى ثورة أرادها الشعب على يد الجيش المعبر عن إرادة الأمة، وانطلقت قرارات التغيير فى صميم الهيكل الاجتماعى والاقتصادى للأمة المصرية، قالغيت الألقاب المدنية مثل البيك والباشا فى ٣٠ يوليو ١٩٥٢ نظراً لأنها كانت القاباً تميز بعض الفئات عن بعض، وتم حل البوليس السياسى التابع للقصر الملكى فى الأول من اغسطس ١٩٥٢ وتم البدء فى ١١ اغسطس ١٩٥٢ فى تطبيق قواعد خاصة للحد من السفر وتحويل الأموال إلى الخارج، وزيادة الضرائب على الدخل التجارى وغيره من الدخل كجزء من سياسة التقشف الاقتصادى بهدف تقليص العجز فى خزينة الدولة^(١٣).

وإلى جانب ذلك فقد تم العفو عن المتهمين بالعيب فى الذات الملكية، كما صدر قانون الأحزاب السياسية بشأن ضرورة إجراء تطهير كامل للأحزاب السياسية وضرورة خضوعها لقرار القيادة العامة^(١٤).

وبعد خمسين يوماً تقريباً من قيام الحركة وبالتحديد فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ صدر المرسوم بقانون رقم ١٧٨ لسنة ١٩٥٢^(١٥) الذى وضع حداً نهائياً للنظام الإقطاعى وحول الأغلبية الساحقة من الفلاحين إلى ملاك للأرض. بعد أن كان يتحكم سادتهم فى لقمة عيشهم. فبعد أن كانت الثروة الزراعية تتركز فى أيدي فئة قليلة من الأفراد مع بقاء الأغلبية الساحقة من أهل الريف فى حالة من التبعية والسيطرة المسلطة على رقابهم برزت الإجراءات الثورية المنطلقة إلى العدالة الاجتماعية والتحرر والقضاء على التخلف الاقتصادى والظلم الاجتماعى الذى عاشت مصر فى ظلها قروناً طويلة، فأعيد توزيع الأرض وفقاً لقواعد

ومبادئ جديدة. وتم تحديد الملكية الزراعية بمائتى فدان، وتصفية طبقة كبار الملاك الزراعيين، وانتشار الجمعيات التعاونية وقيام نقابات العمال الزراعيين^(١٦).

وبعد أن وجدت حركة الجيش استجابةً مذهلةً وتضافراً من الشعب الذى هز خلع الملك فاروق قلبه وأثار مخيلاته، خاصةً بعد أن بدأ تنفيذ قانون الإصلاح الزراعى، وأصبح الفلاح الأجير مالكا^(١٧) غيرت قيادة الحركة اسمها إلى مجلس قيادة الثورة فى يناير ١٩٥٣ ولتأكيد ارتباط ثورة الجيش بالشعب أعلن اللواء محمد نجيب أن وثيقة الاعلان الدستورى بشأن دستور الحكم المؤقت إبان فترة الانتقال إنما هى تصدر باسم الشعب^(١٨).

وقبل أن ينتهى العام كان النظام الملكى قد وصل إلى نهايته وأعلنت الجمهورية فى ١٨ يونيو ١٩٥٣ وبدأ الفكرى الثورى يودى دوره فى تغيير المجتمع المصرى وتحقيق أحلام المصريين، وأصبحت كلمة الثورة هى المرشد والدليل فيما يتخذ من إجراءات أو يصدر من قوانين وقرارات سواء كانت سياسية أم اقتصادية أو اجتماعية. كل ذلك حول حركة الضباط إلى ثورة عبرت عما كان يجيش فى نفوس الناس من آمال وغايات تتصل بالقضية القومية والأوضاع الداخلية.

وانطلقت الحركة من عقالها وهى تجمع بين ثورتين ثورة سياسية وأخرى اجتماعية لتعبر عن السخط الذى كانت تمتلئ به نفوس الشعب بطبقاته وطوائفه وهيئاته كافة^(١٩) وقد أكد الرئيس "عبد الناصر" ذلك فى كتابه "فلسفة الثورة" بقوله: ((كانت هناك ثورة سياسية ليسترد بها الشعب حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه، ومن جيش معتد أقام فى أرضه دون رضاه، وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر فيها الأمر على تحقيق العدالة لأبناء الوطن الواحد^(٢٠)) وقد خاض الشعب المصرى هذه التجربة الهائلة ونجح فى أن تعيش الثورتان معا فى وقت واحد^(٢١).

ومما سبق يتضح أن حركة الجيش بدأت كإنتفاخ عسكري لم يشارك الشعب فيه ثم تحولت إلى ثورة قامت الجماهير بتأييدها خاصةً وأنها عبرت عن أهدافها فى التخلص من الأوضاع الفاسدة، فهى ثورة عبر عنها الجيش المنبعث من صفوف الشعب. وقد أوضح اللواء محمد نجيب ذلك بقوله: "إن دور القوات المسلحة كان دوراً تاريخياً عبرت به عن انفجار الثورة على من لم يؤمنوا

فثورة يوليو وطبقاً للمبادئ الستة التي بلورت أهدافها قامت بتحقيق استقلال البلاد وحريتها كما جاء في المبدأ الأول وهو القضاء على الاستعمار وأعوانه، ومن أجل التغلب على سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية كان المبدأ الثانى والثالث والرابع القضاء على الاقطاع، والقضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم، وإقامة عدالة اجتماعية، وفى سبيل النهوض بالجيش جاء المبدأ الخامس إقامة جيش وطنى قوى، وكان المبدأ السادس هو إقامة حياة ديمقراطية سليمة نتيجة فساد النظام الداخلى، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه خاصة وأن السياسات الارتجالية التى واكبت معظم قرارات رجال الثورة على الصعيدين السياسى والاقتصادى قد تم اخضاعها لعوامل التجربة والخطأ. وهكذا كانت حركة الجيش بمثابة الأداة التى استخدمت لتحقيق رغبة الشعب فى القضاء على الاستعمار والتخلص من الحكم الأجنبى، وفى تقريب المسافات الاجتماعية بين الطبقات وافتتاح السبيل إلى التغيير الثورى، وقد تحمل كل ذلك الأعباء مجموعة من صغار الضباط من أبناء الطبقة الوسطى وأبناء صغار الموظفين ممن نبتوا بين صفوف الشعب وتمكنوا من دخول الكلية الحربية فى أعقاب معاهدة ١٩٣٦. (٢٣) وعانت معظم أسرهم من الاستدانة لدفع مصروفاتهم فى الكلية الحربية (٢٤) ولم تتلاق مصالحهم مع مصالح الطبقة الحاكمة. (٢٥) ويؤيد ذلك تصريحات قادة الثورة وأقوالهم وأفعالهم تجاه إصلاح أحوال طبقات الشعب من الفلاحين والعمال وأصحاب الدخول المحدودة، كما يؤيده الإصلاحات التى قاموا بها لصالح هذه الطبقات مثل تحديد الملكية الزراعية، وخفض أجور المساكن، وإصدار التشريعات الخاصة بحقوق العمال وغيرها وتوفير حد أدنى لمعيشة كريمة لجماهير الشعب المصرى.

والخلاصة أن حركة يوليو ١٩٥٢ بدأت فى شكل انقلاب عسكرى، ثم تحولت إلى ثورة بعد أن حظيت بتأييد الشعب المصرى ومشاركته، وشكلت تحالفاً رائعاً بين الشعب والجيش حول مطالب الأمة المصرية، اقتلعت خلاله الأنظمة القديمة، وقامت بأحداث تغييرات عميقة وشاملة فى القىم والنظم والأوضاع السياسية والاجتماعية التى ثبت من خلالها أن الجيش كان أداة الشعب للقيام بهذه الثورة.

الهوامش

- (١) جورج بوليتزير، جى بيسى، موريس كافينج: المبادئ الأساسية للفلسفة، ج١، ص ٧٣.
 - (٢) الأهرام فى ١٩٥٩/٧/٢ من حديث مع الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل.
 - (٣) أحمد حمروش: ثورة ٢٣ يوليو ، ص ٢١٢.
 - (٤) أنظر : كتاب راشد البراوى حقيقة الانقلاب الأخير فى مصر .
 - (٥) فلسفة الثورة، ص ١١ .
 - (٦) مذكرات عبد اللطيف البغدادى، ص ٦٣ .
 - (٧) ويكفى الإشارة إلى أن النحاس قد بدأ حديثه مع محمد نجيب قائلاً أنا زعيم الـ ١٨ مليون (أى تعداد سكان مصر وقتذاك) أرحب بزعيم الـ ٦٠ الف (أى عدد الجيش المصرى) مما أصاب الضباط الأحرار بإحباط شديد تجاه الوفد الذى تصور قادته أنهم سادة الموقف سواء شاعت الثورة أم أبت، وبأن مستقبل الثورة فى أيديهم، كوفتونوفيتش: ثورة الضباط الأحرار، ص ١٢٠
 - (٨) جمال حماد: ٢٢ يوليو أطول يوم فى التاريخ ، ص ٦٤ .
 - (٩) على الرغم من أن جمال عبد الناصر كان قائدا لتنظيم الضباط الأحرار، فإنه نظرا لصغر سنه ورتبته تم اختيار اللواء محمد نجيب لقيادة الحركة نظرا لرتبته العالية، وسمعته الطيبة ووطنيته حيث قاتل بشجاعة فى حرب فلسطين ١٩٤٨ وجرح مرتين، هذا بالإضافة إلى بساطته وجاذبيته وطيبة قلبه وسلامة نيته، وسرعة ثقته بالغير .
 - (١٠) راشد البراوى: مرجع سابق، ص ٢٧ .
 - (١١) كوفتونوفيتش: ثورة الضباط الأحرار، ص-ص ١١٥-١١٦ .
 - وللتفاصيل ذلك انظر : فطين فريد: ثورة يوليو ١٩٥٢ من التنظيم السرى إلى سقوط فاروق، ص ٣٩٥، وأحمد حمروش: مرجع سابق، ص ٣٠٧ .
 - (١٢) فعل عرابى ذلك قبل سبعين عاما خلال مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ عندما قال للخديوى : ((لقد جئت لأعرض مطالب الجيش والشعب وكلها طلبات عادلة)).
 - للتفاصيل أنظر : عبد المنعم الجميى : الثورة العرابية ؛ دراسات وبحوث وثائقية ص ٢١ .
 - (١٣) كوفتونوفيتش: مرجع سابق، ص ١٢٠ .
- (14) Vatikiotis, P: Nasser and His Generation, 76. .

- (١٥) حول الوثيقة الخاصة بقانون الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية انظر ملحق رقم (١).
- (١٦) راشد البراوى: الفلسفة الاقتصادية للثورة، ص ٣٦.
- (١٧) انور عبد الملك: مصر مجتمع بينيه العسكريون، ص ٩٣.
- (١٨) انظر ملاحق الدراسة. ملحق رقم (٢).
- (١٩) راشد البراوى: حقيقة الانقلاب الأخير فى مصر، ص ١٢.
- (٢١) فلسفة الثورة، ص ٢٨.
- (٢٢) مجلة التحرير: العدد الأول فى ١٧ سبتمبر، ١٩٥٢.
- (٢٣) علاء الحديدى: مصطفى النحاس، دراسة فى الزعامة السياسية المصرية، ص ١٧٦.
- (٢٤) احمد حمروش: مرجع سابق، ص ٢١٦.

الفصل الثامن

تغير قيم عائلة مصرية قبل ١٩٥٢ وبعدها

ليلى عنان^(*)

"أعوذ بالله من كلمة أنا"..... ولكن ما الحل وأنا سأقصر عليكم ما حدث لي، أنا؟ فتوقيت تاريخ ميلادي سمح لي أن أكون شاهدة عيان على تغيير جذري في قيم عائلات الطبقة الوسطى بعد ثورة يوليو، تغيير كان نتيجته أن فتحت لأبناء هذه الطبقة، آفاق لم يكن يحلم بها من ولدوا قبلهم بخمس سنوات، كما لم يشعر بها من ولد بعد هذه المرحلة الفاصلة، بخمس سنوات فقط. لذا سأحكي لكم ما شاهدته وعشته بنفسي، لأن تجربتي الشخصية لم تكن فريدة ولا نادرة، في مصر النصف الثاني من القرن العشرين، مصر التي شكلتها ثورة يوليو. ولكنني أود أن أحيي، في أول حديثي، ذكرى المرحوم "إبراهيم بيه"، فهو من أثبت لي أن الانقلاب العسكري الذي تم يوم ٢٣ يوليو، لم يكن، كما كان يقال مجرد "حركة مباركة".

"إبراهيم بيه" هو الذي أثبت لي أن ما حدث كان "ثورة"، بالمعنى الفرنسي لكلمة "revolution"، أي دورة كاملة لنقطة قطعت في دورتها ثلاثمائة وستين درجة في دائرة محكمة، فأصبحت كل الأمور معكوسة، ولنقل "بالبلدي: أصبح عاليها واطيها"....

"إبراهيم بيه" كان تركيا شاقق البياض، من الجيل الثاني لأتراك جاءوا إلى مصر ليستوطنوها. وكان يعيش، مثله في ذلك مثل أقرانه، من ريع عزبة، لا يذهب إليها إلا مرتين في السنة من أجل "المحصول". كان مثل إخوانه، يدفع ستين جنيها ليرتدي بذلة من الصوف الإنجليزي، من عند Delia الإيطالي، أعلى حانكي ذلك العصر. ملحوظة: كان خريج الجامعة آنذاك، لا يحصل على أكثر من ستة جنيهات في الشهر. لذا، أصبح لقب "بيه" يلزم هذا "الإبراهيم". فمن في العائلة غير التركية، يستطيع أن يتباهى بمثل هذا المظهر؟

(*) أستاذ الأدب الفرنسي، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

وفي يوم أعتبره تاريخياً، صدر أمر بضرورة التوجه إلى أقسام البوليس لاستخراج بطاقة شخصية لكل مواطن، كان ذلك جديداً على المصريين. وذات صباح، دخل علينا "إبراهيم بيه" ووجهه الأبيض يكاد ينفجر من شدة الحمرة والانفعال. وإذا به يصيح: "الموظف سألني عن اسمي قلت له، عن مسكني قلت له، عن مهنتي قلت له صاحب أطيان. وبمنتهى الاحتقار، قال: "يعني عاطل" تصوروا؟ أنا "عاطل" على آخر الزمن! ... نعم، كان آخر الزمن، زمن كان فيه الوجيه صاحب الأطيان، يستحق تلقائياً لقب "بيه"، وما يصاحبه من تقدير واحترام، خاصة إن كانت ملابسه من عند Delia. أصبح "إبراهيم بيه" ومن يشبهه، ينعت بلفظ مهين. فهو بلا شهادة يتوظف بها، ولا عمل يجعله يذهب يومياً إلى الديوان، مثل أقاربه ممن اختلطت دماؤهم بدماء المصريين الفلاحين، الذين يشقون طيلة اليوم على مكتب حقير، مقابل ستة جنيهات في الشهر، لأنهم "تجحوا في دراستهم، أصلهم فقرا ولاد كلب".

بدأ إذا عصر الموظف، وأخذ أولاد "البهوات" الفاشلين في الدراسة ينظرون بحسد معان لأولاد الفرع الفلاحي من العائلة، الذين نزحوا إلى المدينة لأن الحالة الاقتصادية لعائلاتهم أصبحت تسمح لهم بالحصول على الشهادات "العالية"، وتبوعوا المراكز المرموقة. وذهب سكان الفجالة إلى شبرا، ونزح أهل شبرا إلى مصر الجديدة، وهاجر أهل مصر الجديدة إلى الزمالك، وأصبح "الستر" يكفي لاحترام الجميع.

ولكن ثمة أحداثاً دارت في محيط الطبقة المتوسطة التي أُنتمي إليها أكدت لي أن التغيير الذي حدث لم يكن تغييراً اجتماعياً فقط، بل تواكبته ثورة أخرى في نمط التفكير، وتبدل القيم السائدة حتى ذلك العصر.

في عام ١٩٥٠، انفجرت قبلة إعلامية مصغرة: إذ تسرب خبر مفزع، انتشر كالنار في الهشيم وسط الركود العائلي الذي يقدر تعاليم كتاب شفهي اسمه "الأصول". وكانت هذه "الأصول" تحتم على الفتاة انتظار العريس الملائم ما دامت قد وصلت لسن الخامسة عشرة. وكنت أنا في الخامسة عشرة عندما أعلن أبي موافقته على أن أذهب إلى الجامعة، وإذا بأحد أخواي يقتحم منزلنا كالزوبعة، ويتهم أبي بالضعف أمام نزوات ابنته الطائشة: كيف يلقي بها هكذا إلى عالم الغواية في مجتمع الجامعة المختلط. ورفض أبي الفلاح غير المثقف الإذعان لهذه النظرة الغربية، وذهبت إلى الجامعة. وفي الوقت نفسه، تقدم إلى خطبتي ضابط شاب من الفرع الريفي للعائلة. وكادت صدمته تصيبنا بالضحك

عندما عرف أن أبي لا ينوي تزويجي - حسب طلبي - قبل نهاية دراستي الجامعية: "أنا أتجوز بنت حطت رجلها في الحرم الجامعي؟!". ومرت الأيام، ثم رضخ الشاب المحافظ الذي تربي في الريف، رضخ لشروط العروس العنيدة، وتمت الخطبة بعد أيام من قيام الثورة. ولكن حدث بعد ذلك ما كنت أتوقعه، إذ بدأ يلح على بالزواج السريع: وما المانع في استكمال الدراسة بعد الزواج؟ المانع أنني لن أحصل على أعلى الدرجات، ولن أفوز بوظيفة أحلامي ورأيت الصاعقة تنزل على رأس الخطيب المذهول: "تشتغلي؟ يعني إيه تشتغلي؟ أصحابي يقولوا إيه؟ مش لاقى أكسيكي؟!". ... كان هذا هو المنطق السائد وسط شباب تربي على قيم أصيلة، حافظ عليها حتى عندما نزح إلى القاهرة، عندما أصبح الجيل الجديد من المتعلمين في العائلات الريفية الميسورة. المناقشة العنيفة التي دارت بيني وبين خطيبي من أجل مشروع ما بعد الجامعة وقعت في عام ١٩٥٤ وفي عام ١٩٥٥، تخرجت وتوظفت وتزوجت. وذات يوم مشهود كان انتصاري، إذ جاءني زوجي قائلاً: "كامل يسلم عليك، وبيسألك تشوفيله عروسة من زميلاتك". ...

كنا آنذاك في عام ١٩٥٧، أي بعد ثلاث سنوات من وقوع الصاعقة بسبب رغبتني في العمل، وخمس سنوات فقط من قيام الثورة، وضابط شاب ممن كان زوجي يخشى تعليقاتهم، يبحث عن عروس تشتغل ... يا نهار أبيض

وفي المرحلة نفسها ، دوت قنبلة أخرى وسط العائلة المحترمة: كانت ابنة خالي الذي رفض فكرة ذهابي إلى الجامعة، قد ذهبت ... إلى الجامعة ولم يتعجب أحد آنذاك، فقد أصبحت "الأصول" الجديدة، وبسرعة مذهلة، تحتم على البنات، مثلما كانت تحتم على الولد، الحصول على شهادة جامعية. ولم تشذ عائلتي في هذا عن باقي وسطنا المحافظ الوقور. ولكن ما شذ في الأمر، أن ابنة خالي هذه تمت خطبتها وهي في السنة الثانية، فطلبت ألا تستمر في تعليم كانت تكرهه، وإذ بالخال الجهبذ، والذي سبق ورفض وجودي في جامعة هي بؤرة فساد مؤكد، إذ به، ولأول مرة في حياته، يصفع ابنته صفعاً دوت، وكأنها إنذار لكل بنات العائلة، حتى لا يرفضن الذهاب إلى الجامعة بعد ذلك! الرجل الناضج نفسه الذي اعتبر ذهاب ابنة أخته إلى الجامعة فضيحة غير محتملة، يجبر الآن ابنته الحبيبة إلى المضي في تعليم مختلط، لم يعد في نظره بؤرة ضياع: الجامعة أصبحت ضرورة حتمية!

لقد أصبح العرسان بالفعل — وهم هدف كل عائلة لها ابنة "على وش جواز" — أصبح العرسان يسألون عن فتيات متعلّقات وحاصلات على شهادة جامعية! ياله من انقلاب، ولكنه انقلاب عام. ولذا، كان صديق زوجي وخالي مثالين، لهما في نظري بلاغات عميقة. لأن الثورة كانت قد قامت قبل هذا الكلام بخمس سنوات فقط، وأصدقاء زوجي يبحثون الآن عن عروس تشتغل، ولا يأبهون بما سيقال عن ضيق ذات اليد، وخالي لا يريد أن تتزوج ابنته قبل حصولها على درجة علمية من الجامعة.

عالم الجيولوجيا لا يحسب مرور الوقت إلا بالآلاف السنين أو بملايينها، أما المؤرخ، حتى لو كان يؤرخ لما شاهده بنفسه وعاشه دقيقة بدقيقة، فالسنوات تبدو له أحيانا وكأنها أيام، (إلا أثناء الأزمات التاريخية الكبرى طبعاً). ولذا، فأنا أعجب الآن، وأنا أتذكر أن ما حدث لي في عام ١٩٦٥، لم يكن بعيداً عن عام ١٩٥٠، مقارنة بما حدث: ففي عام ١٩٥٠، رفض شاب أن يتزوج من فتاة "حطت رجلها في الحرم الجامعي". وفي عام ١٩٦٥، أي بعد خمسة عشر عاماً تبدو وجيزة بالنسبة للمؤرخ، وافق هذا الشاب (الذي كان لا يزال شاباً)، أن تذهب زوجته لتعيش وحدها في باريس للحصول على درجة دكتوراه الدولة، أي لمدة لا تقل عن عشر سنوات. والعجب أنه ما من أحد في العائلة احتج على هذا القرار، أو علق عليه بالسوء. فما من أحد في المجتمع السابق ذكره، رأي أية غضاضة في الأمر. وبالفعل ذهبت إلى فرنسا، كان هناك أكثر من زميلة، من طبقتي الاجتماعية المحافظة نفسها، أكثر من زوجة، تركت مثلي زوجها وأولادها بحثاً عن العلم، وبمباركة كل أفراد العائلة ... من الجيل السابق، وبمساعدهم.....

لقد أصبح العلم تاجاً تبحث عنه العائلات لبناتها، بعد أن كانت تخشى عليهن من الاختلاط في الجامعة. وأعتقد أنه لولا ما قامت به ثورة يوليو من تكريم للعلم، وما نتج عنه من تغيير في مفاهيم الناس — وما هذا طبعاً إلا مثال بسيط لما غيرته — لولا هذا، لما تبدلت هكذا قيم الناس، ولما تواجدت اليوم معكم، لأدلو ببلوي.

وكل هذا كان في حادثتي صنع خالي لابنته، وطلب صديقنا عروساً بوظيفة، حادثتان لا قيمة لهما في تاريخ أمة، ولكنني أرى فيهما مؤشراً لما سيحدث بعد ذلك، لأن خالي قاهري، وزوجي وصديقه كبيراً في الريف، وحافظاً على قيم طفولتهما. ومع ذلك حدث لثلاثتهم التحول نفسه. ففي تاريخ كل

ثورة، يتحول الجيل الذي عاصر الثورة إلى فكر جديد، ويكتسب قيماً جديدة، مع أنه كبير وتكونت شخصيته قبل حدوثها. وعادة ما يحقق هذا الجيل، بعد ذلك، آمالاً وأحلاماً كان النظام السابق يمنعها من الانطلاق. ولكن المناخ الجديد لم يحرمه من حقوق أصبحت مشروعة، حتى وإن كانت جديدة عليه. هذا المناخ والتغيير الذي حدث، سيشكلان جيلاً جديداً آخر، جيل أولاد لا يعرفون قيم مجتمع ما قبل الثورة وقوانينه: انهم بحق "جيل الثورة". جيل أطفال أصبح أبائهم يريدون زوجة متعلمة، وأمها أصبحت موظفات. إنه الجيل الذي فتحت له مثلاً، كما حدث في مصر، أبواب التعليم وهو لا يزال في ريف يؤمن بتقاليد وقيم توارثتها الأجيال السابقة على مر القرون، ريف لا يعرف، كما حدث في المدن الكبرى، أجناب يشكلون سلوك أكابر القوم. وعندما كبر هذا الجيل الجديد المولود بعد الثورة — جيل أولادي — نزع من الأقاليم إلى "مصر أم الدنيا"، والحكومة تفتح له أبواب التوظيف في المدن، فيتحول أفرادها إلى "أفندية" — سواء كانوا رجالاً أو نساءً — ينتشرون في المكاتب والشوارع والأندية. وهكذا تحولت قاهرة الأجانب إلى قاهرة الأقاليم، بها كل قيم ريف أصبح قاهرياً. ويتطور أهل الريف في لبسهم حتى يتلاءم مع الوظيفة في مكاتب الدولة، ولو أنه لا يفقد طابعه الديني الخاص بتقاليد "البلد". ولم يعد ميدان العتبة، هو الحدود الفاصلة، بين قاهرة "أولاد البلد"، وقاهرة المصريين المتفرنجين، وأصبح الجميع مصريين في بلد واحدة.

هؤلاء هم النتائج الحقيقي لمجتمع غير قيمه وفكره عند قيام الثورة ...
وكل هذا لأن خالي صفع ابنته !! والله أعلم.

الفصل التاسع

موقف الولايات المتحدة الأمريكية من

العدوان لبريطاني على ثورة عمان ١٩٥٧م

ابراهيم العدل المرسي(*)

المقدمة

تتناول هذه الدراسة موقف الولايات المتحدة الأمريكية من العدوان البريطاني على ثورة عمان ١٩٥٧م، حيث شهد عام ١٩٥٧ نشاط الثوار العمانيين لدعم مواقعهم العسكرية ، وقاموا بثورة لتحرير بلادهم من القوات المشتركة لسلطنة مسقط وبريطانيا ، وتدخل الإنجليز بتقلهم العسكري ، وهاجموا على قوات الإمام ومعاقله بالطائرات، وقصفوا القرى العمانية الآمنة بالقنابل كمرحلة جديدة في الحرب على ثوار عمان، وبينما كانت المعارك تتخذ مسرّحاً لها في مقاطعات عمان الداخلية خلال تلك الفترة ، أحدثت أنباؤها اهتمامات عربية وعالمية واسعة النطاق .

ولعل اختياري لموقف الولايات المتحدة الأمريكية من هذا العدوان يرجع لعدة اعتبارات منها ، أنه بعد الحرب العالمية الثانية تغير سلم التدرج الدولي ، حيث ظهر قطبان عالميان جديان من خارج القارة الأوربية هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي ، وقد أصبحا في ظل الوضع الجديد هما وحدهما القادرين على تقرير النسق الدولي بما يملكانه من مقدرات فائقة .

أن تاريخ علاقات الولايات المتحدة الأمريكية بعمان يعود إلى عام ١٨٣٢ حين وقعت الولايات المتحدة معاهدة مع سلطنة عمان ، وكانت إحدى أوائل المعاهدات التي وقعتها الولايات المتحدة مع بلد آسيوي.

اهتمام الولايات المتحدة بمنطقة الخليج العربي ، ومحاولتها لوراثة نفوذ بريطانية السياسي الذي بدأ أفرله في الخمسينات في الشرق الأوسط عامة والعالم العربي خاصة ، وننوه إلى أن علاقات الدولتين في المنطقة العربية خلال تلك

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد بأداب المنصورة.

الفترة كانت أكثر تعرجا بين الفتور والقوة والهبوط والارتفاع ، وكان أبرزها هبوطاً إبان أزمة السويس عام ١٩٥٦ .

وكانت مصالح الولايات المتحدة بمنطقة الخليج العربي تتعارض أحيانا مع مصالح حليفها بريطانيا.

وسوف نتناول هذه الدراسة النقاط التالية:

أولا : ثورة عمان ١٩٥٧ والعدوان البريطاني ، موضحا أسباب هذه الثورة وأحداثها والتدخل البريطاني والعدوان المسلح عليها .

ثانيا : موقف الولايات المتحدة الأمريكية من العدوان البريطاني على ثورة عمان من خلال موقف الحكومة والصحافة الأمريكية ، والموقف الأمريكي في الأمم المتحدة .

ثالثا: القوي الدولية الكبرى والموقف الأمريكي ، موضحا صدي الموقف الأمريكي على المستوي الدولي وبخاصة في القوي الدولية الكبرى مثل الاتحاد السوفيتي وفرنسا وبريطانيا .

وقد اعتمدت هذه الدراسة على مجموعتين من الوثائق ، المجموعة الأولى الوثائق العربية من محافظ وزارة الخارجية المصرية الجديدة ، والمجموعة الثانية الوثائق الأجنبية سواء الأمريكية والإنجليزية ، بالإضافة إلى المراجع العربية والأجنبية والصحف التي تناولت هذا الموضوع .

تمهيد

تتمتع عمان بموقع جغرافي يسيطر على مدخل الخليج العربي، وعلى قسم كبير من سواحل البحر العربي، ونظرا لقربها من الهند وصلاتها بعالم المحيط الهندي، فقد كانت من أوائل الأقطار العربية التي وقعت في براثن الاستعمار فقد احتلها البرتغاليون أولا ثم الهولنديون ثم الفرنسيون، ثم الإنجليز^(١)، على أن العمانيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الدول الاستعمارية التي حاربتهم بكل ما لديها من قوة برية وبحرية وخاصة بريطانية مدعومة من قبل أعوانها في المنطقة.

وقد قام العمانيون بثورات متعددة في أوائل القرن العشرين لنيل استقلالهم وحررتهم فكانت ثورات ١٩١٣، ١٩١٦، ١٩١٩، وقد قمعت بريطانيا

هذه الثورات وأقدمت على تقسيم عمان ، فظهرت سلطنه جديدة هي سلطنة مسقط بموجب معاهدة السيب سنة ١٩٢٠^(٢) ، فصنع منها البريطانيون دولة تدين لهم بالولاء ، والملاحظ أنه منذ عقد هذه المعاهدة بين الإمامة والسلطنة كان الأئمة يسيطرون على مقاطعات الداخل ، ويعينون الولاة والقضاة ويفرضون الزكاة ، وعلى الرغم من انه لم توضح حدود سياسية بين الإمامة والسلطنة ، فإن الحدود كان متفقا عليها عرفيا بين الطرفين ، كما كان الوكلاء البريطانيون في مسقط والخليج العربي بمثابة وسطاء في العلاقات التي كانت تقوم بين السلطان والقبائل الداخلية في عمان^(٣) .

وعموما يوجه تاريخ عمان المعاصر عاملان ، علاقة سلاطين مسقط ببريطانيا ، ثم موقف هذين الطرفين من الإمامة في الداخل^(٤) ، ولقد شهدت الساحة العمانية في تاريخها المعاصر فترتين من الكفاح المسلح إحداهما بدأت في الخمسينيات و الأخرى في الستينيات حتي منتصف السبعينيات من القرن العشرين^(٥).

وهذه الدراسة حول الفترة الأولى من الكفاح المسلح في الخمسينيات في القرن العشرين للشعب العماني ، ففي الوقت الذي كانت تستخدم فيه الصراعات الدولية حول واحة البوريمي ولي الإمامة عام ١٩٥٤ إمام جديد هو القاضي غالب بن علي الهنائي البالغ من العمر ٤٥ عاما بدلا من محمد بن عبد الله الخليلي الذي توفي في السنة نفسها ، إلا أن هذا التاريخ سجل بالنسبة لعمان ولكل منطقة الخليج منعطفا في تاريخها المعاصر ، فقد كان بداية مرحلة نمو على صعيد النشاطات النفطية ، وكانت هناك تغيرات جذرية في طريقها إلى الظهور اهتزت معها كل موازين القوي والمعادلات السياسية القديمة ، كانت مجتمعات الخليج قد بدأت تشهد ، آنذاك طفرات سريعة ومؤثرة على الصعيد الاقتصادي والسياسي ، ثم الاجتماعي والثقافي ، باستثناء عمان التي فرض عليها ان تنتظر حتي السبعينيات ، وفي هذا السياق احتل الخليج مقدمة مسرح الإستراتيجية الغربية والبريطانية على الأخص ، وبخاصة عمان التي كانت خارج منطقة نفوذ الإنجليز .

وقد منح سلطان مسقط عام ١٩٥٣ امتيازات لبريطانية للتفتيش عن النفط، ليس في الأراضي الواقعة تحت نفوذه فحسب، بل في الأراضي الداخلية التابعة لإمامة عمان ، فقد أعطي الحق لنفسه في التصرف بها حسب رغبته، وفي عام ١٩٥٤ قامت بريطانيا بالتفتيش في منطقة الفهور ، داخل حدود الإمامة

ومن أجل ذلك تهيأت لكل الاحتمالات وشكلت جيشاً خاصاً على حساب الشركة النفطية عرف باسم " قوة مشاة مسقط وعمان " (٦)

وبتحريض من بريطانيا أعلن سلطان مسقط إبطال اتفاقية السيب ولم يعترف بالإمام الجديد، وحاول أن يأخذ البيعة من بعض زعماء الأباضية ولكنه لم يوفق، فقرر الاعتماد على القوة، أولاً بتأييد شركة النفط صاحبة الامتيازات، ثم بمساندة رسمية من الحكومة البريطانية، وقابل الإمام غالب ذلك كله بالإجراءات الدفاعية التي كان بوسعه أن يتخذها، استخدم سلطان مسقط في بداية الأمر الحرس الوطني الذي احتل بواسطته مدينة عبري عام ١٩٥٤، غير أنه لم يستطع أن ينال من قوة الإمامة إلا بعد أن تدخلت القوات البريطانية بصفة رسمية، وقد جاء هذا التدخل في أعقاب احتلال واحات البوريمي في أكتوبر عام ١٩٥٥، وفي ديسمبر من العام نفسه زحفت قوات بريطانية من الشمال والشرق نحو نزوي العاصمة الجديدة للإمامة واحتلتها، وحرص سلطان مسقط سعيد بن تيمور علي أن يسمي الدولة التي كان يحكمها بمسقط وعمان (٧).

وقد أذاعت شركات البترول البريطانية أن تقاريرها أثبتت غني عمان بالبترول ، ولذلك سارع المستعمرون الإنجليز بمحاولة السيطرة على أراضي عمان ، خارقين بذلك كل القوانين والمواثيق والاتفاقيات ضاربين بميثاق الأمم المتحدة عرض الحائط (٨) ، ولكن العمانيين بقيادة الإمام غالب بن علي صدوا هذه الهجمات العدوانية ، ونشبت على أثرها ثورة ١٩٥٥ ، واستطاع الثوار أن يصمدوا أمام هذه الضربات بالرغم من اختلاف الإمكانيات المادية والمعنوية ، وعلى إثر احتلال نزوي عاصمة عمان ، انسحب الثوار إلى المعازل الجبلية ليستطيعوا مواصلة نضالهم وقاتل المستعمرين (٩).

وعلى الرغم من الأسلحة والمعدات الوفيرة التي قدمها الإنجليز لسلطان مسقط إلا انه تحاشي أن يتوغل في الجبال حيث معازل العمانيين ، مكتفياً بزيارات خاطفة لبعض مدن الداخل ، وبعد احتلال نزوي كان يبدو أن السلام قد استتب ، وخاصة بعد أن أعلن كل من الإمام وسليمان بن حمير مصالحتهما للسلطان ، ولكن طالب بن علي بدأ يستعين بالسعوديين لتحريك الثورة من جديد متخذاً مدينة الدمام مركزاً له (١٠).

ومما ساعد على ذلك ، بقاء الإمام وأعضاء المجلس المعاون له في المناطق الجبلية واتصالهم المستمر بأبناء القبائل العمانية من خلال شيوخهم

لاستفارة عزائمهم ، كان له آثاره في الحد من قدرة السلطان سعيد بن تيمور ومن خلفه بريطانيا وقواتها المعتدية ، في إحكام السيطرة ونشر نفوذ سلطان مسقط على الشعب العماني الذي رفض الاستسلام ، ووقف صفاً واحداً ضد قوي الطغيان ، ولاشك أن قرار الشعب العماني بالامتناع عن صلاة الجمعة منذ وقوع الاحتلال يعد شكلاً جماعياً من أشكال المقاومة السلبية ؛ فوفقاً للمذهب السائد في عمان تعطل صلاة الجمعة ، إذا ما سيطر على الأمور سلطان جائر أو تحدث قوي طاغية سيادة الحاكم العادل ، وكان من الطبيعي أن تتطور هذه المقاومة السلبية إلى حركة مسلحة^(١١) ، حيث قرر أبناء الشعب العماني الانضواء تحت لواء الكفاح المسلح الذي أعلنه الإمام غالب لاستعادة أراضيهم من مغتصبيها ، إلا أن اتساع الساحة العمانية وتخلف طرق المواصلات بها ، مع انعدام الوسيلة السريعة لإتمام الاتصال المباشر ما بين الإمام ومؤيديه من رؤساء القبائل أثر إلى حد كبير في سرعة تهيئة أبناء الشعب العماني لمباشرة النضال المسلح بصورة إيجابية في فترة زمنية قصيرة^(١٢) ، إذ لم يلبث أن قام الشعب العماني مرة أخرى عام ١٩٥٧ بثورة ضد سلطان مسقط المدعوم بقوات الاحتلال البريطاني .

أولاً: ثورة عمان ١٩٥٧ م والعدوان البريطاني

اعتقد البريطانيون أن قضية عمان قد انتهت عند هذا الحد ، ولكنهم كانوا مخطئين فما لبثت الاضطرابات أن قامت من جديد ، ولم يدر بخلداهم أن هذا الاستقرار مرحلي وموقوت بفترة إعداد الشعب العماني لتنظيم قدراته القتالية ليبدأ كفاحه المشروع لاجلاء القوات الغازية على أرضه ، وليوقع أشد الخسائر المادية والبشرية بقوات الاحتلال البريطانية خلال عام ١٩٥٧.^(١٣)

حيث اتخذ طالب بن علي من مقر إقامته بالدمام مركزاً للاتصال بالداخل والخارج ، ويبدأ المراحل الأولى للأعداد لهذه الثورة ، كذلك قام طالب بن علي بمعاونة اثنين من أبناء الشيخ عيسى بن صالح أمير الشرقية الراحل بافتتاح مكتب لإمامة عمان في القاهرة ، حيث جاء صالح بن عيسى الحارثي أمير المنطقة الشرقية لعمان ونائب إمام عمان إلى القاهرة ، وأفضي كما تذكر الوثائق إلى أنه يريد أن يذكر الرئيس عبد الناصر بقضية عمان ، وما تواجهه من حصار عسكري بريطاني وضغط على الشعب العماني ومنعه من الاتصال بالدول العربية^(١٤) ، وعموماً فقد تم افتتاح مكتب لإمامة عمان في القاهرة ،

وأخذ هذا المكتب يشن حملة دعائية واسعة ضد الاستعمار البريطاني وسُلطان مسقط ، وبدأ العمانيون يتلقون مساعدات سعودية عن طريق دبي التي اتخذت مركزاً لتهريب المؤن والسلاح إلى ساحل الباطنة ومنها إلى المقاطعات الداخلية لعمان^(١٥) وفي الوقت نفسه قام الإمام ومؤيدوه من شيوخ القبائل - في حدود إمكانياتهم المالية المحدودة - بشراء بعض الأسلحة والذخيرة من السوق المحلية المحيطة بأراضي عمان، في محاولة لإشعار أبناء الشعب بضرورة ممارستهم لكل وسائل الاستعداد لمباشرة الكفاح المسلح ضد الغزاة^(١٦)

ولعل الموقف العربي و الدولي كان مشجعاً لطالب بن علي للعودة إلى عمان من ملجئه بالسعودية حيث أعلن - بالاتفاق مع غالب بن علي - بعث الإمامة الأباضية من جديد وكان ذلك في بداية عام ١٩٥٧ ، كما أعلن سليمان بن حمير زعيم الجبل الأخضر دخوله المعركة إلى جانب الإمام ، ومما يذكر أنه كان محتجزاً في مسقط منذ أحداث عام ١٩٥٥ ، ولكنه تمكن من التسلل إلى تنوف وتعاون مع طالب بن علي ضد السلطان ، كما انضم إلى زعماء الإمامة إبراهيم بن عيسى من مقاطعة الشرقية ، ويستنتج من ذلك أن بعض العناصر التي خضعت للسلطان ، بعد احتلاله لنزوي في عام ١٩٥٥ عادت وانشقت عليه في عام ١٩٥٧ ، وربما يرجع ذلك إلى الدعاية التي لاقتها القضية العمانية^(١٧) وبخاصة على المستوي العربي حيث كانت الظروف التي تمر بها الأمة العربية، مساعدة على ذلك في تلك الفترة ، وقبلها فقد فوجي الوطن العربي بوقوع العدوان الثلاثي على مصر ، الأمر الذي كان رد فعله العميق في نفوس جماهير الأمة العربية ، وجاء العدوان ليؤكد حقيقة نوايا السلطات الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية من الثورة المصرية ، إلا أن نجاح مصر في وأد مخطط دول العدوان الثلاثي كان له آثاره الكبرى في تطلع كل أبناء الوطن العربي للتمرد على سيطرة الاستعمار^(١٨) والغريب أن سلطان مسقط كان أحد زعماء المنطقة القلائل الذين أيدوا الاعتداء الثلاثي على مصر^(١٩)

وعموماً اتخذت هذه الحركة العمانية أبعاداً عربية فكبست عطف العرب ومساعدتهم خاصة من القيادة الناصرية لأنها ، أولاً أعلنت المقاومة المسلحة ضد الاستعمار البريطاني ، وجاء ذلك بعد حرب السويس ، التي بلغ فيها عدااء العرب لبريطانية قمته وثانياً كونها انتفاضة مسلحة جاءت أثناء الحرب التحريرية الجزائرية التي كسبت تأييداً عاماً عربياً وعالمياً واسعاً^(٢٠)، ولذلك أولت الحكومة المصرية مزيداً من الاهتمام للنضال العربي في تلك المنطقة وأخذت تمدها

بالخبراء العسكريين^(٢١) وبالعتاد والسلاح ، حيث أخذ الإمداد العسكري يأخذ طريقه إلى عمان ، ويؤكد ذلك فتحي الديب بقوله " استغرقتنا الفترة من أول شهر فبراير ١٩٥٧ حتى شهر مايو ١٩٥٧ في تسليم الشيخ طالب بن علي احتياجات شعب عمان من الأسلحة والمعدات والذخيرة التي التزمنا بالوفاء بها ، وأخذت طريقها إلى شاطئ الخليج العربي في سرية كاملة ، وقام الشيخ طالب باعداد وسيلة النقل البحري المأمونة بمعرفته بعد أن زودناه بكل وسائل الأمن الواجب توافرها لنجاح عملية التهريب عبر مضائق هرمز إلى الشاطئ العماني المطل على الخليج العربي ، ليتم إنزالها على دفعات في سرية تامة ، حيث تم نقلها إلى الداخل وتوزيعها على المكافحين)) .^(٢٢)

وهكذا أبدت مصر والسعودية عناية خاصة لإعانة الإمام غالب على على استئناف النضال^(٢٣) ويبدو أن السعودية لم تقدم مساندة صريحة للإمام وأعوانه إلا في أعقاب أزمة السويس، أما قبل ذلك فقد آثرت المساعدات غير المكشوفة، إذ أنها كانت أميل إلى الاحتفاظ بعلاقتها الدبلوماسية مع الحكومة البريطانية، ولكن العلاقات السعودية البريطانية تدهورت على إثر قطع الحكومة السعودية علاقتها الدبلوماسية مع بريطانيا في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر، كذلك اتخذت جامعة الدول العربية سلسلة من القرارات لدعم موقف عمان والمطالبة بتأييدها على الصعيدين العربي والدولي، كما قامت الوفود العربية في مختلف المؤتمرات بالمطالبة بحق إمامة عمان في الاستقلال وخاصة في مؤتمر باندونج، ومؤتمر بلغراد للدول غير المنحازة، والمؤتمر الإسلامي، واهتمت الوفود العربية في هيئة الأمم برفع قضية عمان في مختلف اللجان^(٢٤).

ولذلك استطاعت الإمامة استقطاب فئات واسعة من السكان ومن الأنصار في البلاد العربية، لأنها صورت كفاحها على انه تحرير لعمان من نير الاستعمار البريطاني وبذلك استطاعت أن تشد انتباه الرأي العام العربي لسنوات عدة^(٢٥).

بدأت أولى مراحل الثورة في شهر أبريل عام ١٩٥٧ في المنطقة الشرقية بقيادة الشيخ إبراهيم بن عيسى الحارثي ، الأمر الذي لفت الإنجليز ليركزوا اهتمامهم على المنطقة الشرقية حيث تمكنوا من القبض على الشيخ إبراهيم بن عيسى ونقلوه إلى مسقط ليودع في السجن ، وبهذا أجهضت أولى مراحل الثورة، إلا أن الشيخ طالب بن علي تمكن من النزول هو ورجاله سرا على ساحل

الباطنة في شهر يوليو من العام نفسه ، ووصل هو وشباب التحرير إلى منطقة الجبل الأخضر حيث انضم إليهم الإمام غالب والشيخ سليمان بن حمير ، وعقد الإمام اجتماعاً ضم عدداً كبيراً من أفراد الشعب من مختلف أنحاء عمان ليعلن تكوين جيش التحرير العماني ، وتفجير الثورة من أجل تحرير الأرض ، و إجلاء المستعمر عن أرض عمان^(٢٦) .

وبدأت الثورة الفعلية في يوم ١٩ ، ٢٠ من يوليو واستولي الثوار العمانيون على بعض المناطق المجاورة لمنابع البترول^(٢٧) ، وأحرزت ثورة ١٩٥٧ نجاحاً مؤزرًا يتمكن بعض الفرق العمانية من استرداد نزوي ، وما أن حل شهر يوليو من هذا العام حتي كانت جميع مدن عمان ومقاطعات الجبل الأخضر يرفرف عليها علم الإمامة الأبيض ، وعجز سلطان مسقط عن قمع الحركة الجديدة بعد أن نجح الإمام غالب بمن معه في التمرکز في الجبل الأخضر ، ونجح زعماء الإمامة في قطع الطريق الذي يمتد من البوريمي إلى مركز عمليات شركات النفط في منطقة الفهود ، وبدوا على وشك الانتفاض على الساحل لمطاردة السلطان ، ولعل ذلك ما دفع السلطان سعيد بن تيمور إلى طلب المساعدة البريطانية للمرة الثانية ، وعلى أي حال فقد كان من المناسب لبريطانيا أن توافق دون إبطاء على تقديم مساعداتها ، وعلت ذلك بالصدقة التي تربطها بالسلطان وأسرته ، وحاجتها لكي تؤكد للحكام الخاضعين لحمايتها في الخليج أنها لا تسمح باضطرابات داخلية أو الاستعانة بتأييد أجنبي ، هذا فضلاً عن ضمان استراتيجيتها ومصالحها وخصوصاً بالنسبة لشركات النفط البريطانية العاملة في المنطقة^(٢٨) .

وبالفعل أرسل الإنجليز في يوليو قطعات مشاة وآليات وسرب من الطائرات ساعدت في استعادة نزوي بعد معارك طاحنة، ذهب ضحاياها الألوف من العمانيين، بما في ذلك الكثير من النساء والأطفال الذين ماتوا تحت أنقاض الغارات الجوية وخاصة في المنطقة الشرقية والظاهرة والجبل الأخضر^(٢٩) .

وكان من الطبيعي أن يدعو الإمام غالب شعبه للنضال والمقاومة وأذاع بيانه الذي قال فيه " أيها الشعب المجاهد الكريم ، إن الطائرات المعتدية قد ألقت اليوم منشورات تهديديه، تطالب منا فيها التسليم إلى سلطان جائر ظالم، تسنده قوة استعمارية حدثكم عنها إخوانكم أبناء الأقطار العربية الذين لاقوا السويلات على يديها ، وإنني باسم الدين الإسلامي الحنيف وباسم القومية العربية التي انطبع بها قلب كل عربي، أناشدكم بالوقوف صفاً واحداً إزاء المعتدين وبالتأسي

بإخوانكم الذين ناضلوا في بورسعيد بمصر ، وفي اليمن ويناضلون الآن بالجزائر ، ولكم أنتم الأثر المحمود في القتال وليست هذه بأول مرة تقاتلون فيها مستعمراً ، فالبرتغال جاءوكم غزاة فهزمتوهم وطاردتوهم ، وطهرتم البلاد الإسلامية جميعها من شرهم ، وها أنتم اليوم تواجهون امتحاناً كبيراً في دينكم وفي عروببتكم وفي كرامتكم ، فإلى القتال ولن ترهبنا قنابلهم، لأننا على حق والله ينصر أهل الحق ، ومهما نبذل من ثمن في ذلك فهو زهيد يا أهالي عمان الى الصبر والجهاد ، والله يكفيكم مكرهم ، وينصركم عليهم " (٣٠) .

ونظم الثوار صفوفهم ، واتخذ هؤلاء القادة مقرراً لهم في الجبل الأخضر وسط عمان ، ونظموا العمليات العسكرية دون انقطاع (١٩٥٧ - ١٩٥٨) ، حيث انضم إليهم زعماء القبائل بعمان بأسلحتهم في الجبل الأخضر ، وقرروا الصمود في وجه المستعمرين (٣١) وعلى إثر استعادة نزوي تمكن شقيق الإمام طالب بن علي بمن معه من الثائرين من التمرکز في منطقته قريبه من تنوف ، واستعانوا ببعض المدرعات السعودية (٣٢) .

لم يحدث بعد ذلك قتال على نطاق واسع إلا في نهاية عام ١٩٥٨ ، حيث تدخلت بريطانيا بكل ثقلها " وامتلاً الساحل العماني بالسفن الحربية البريطانية القادمة من عدن والبحرين لمقاتلة المجاهدين العمانيين الذين اشتدت عملياتهم الحربية واتسع نطاقها ، وقد صرح متحدث باسم مكتب إمامة عمان بدمشق أن الغرض من تدفق الحشود البريطانية التي استقدمت من جميع الجهات هو الحصول على نصر حربي قبل فصل الشتاء لاسترداد هيبة بريطانيا الضائعة في هذه المنطقة العربية ، وناشد المتحدث العالم المتحضر كله بأن يستنكر حرب الإبادة والأعمال العدوانية التي ترتكبها بريطانيا في هذا الجزء من العالم العربي الذي قرر شعبه أن يقاتل حتى النصر أو الموت " (٣٣) .

وبدأت الأعمال الحربية تميل لمصلحة بريطانيا ، وربما يرجع ذلك وكما تذكر الوثائق " أن وكالات الأنباء ذكرت أنه يجري نقل جنود بريطانيين من عدن ، بالإضافة إلى وصول أسلحة كبيرة العدد من الطائرات الحربية والدبابات والعربات المصفحة ، وأن هذه الأسلحة سترسل فوراً إلى مسقط لاستعمالها في قمع ثورة عمان " (٣٤) ، هذا الى جانب أن كثيراً من رؤساء قبائل عمان انضموا إلى السلطان ، ويبدو أن هذا الوضع هو الذي مكن قوات السلطنة من احتلال المركز الرئيسي للثوار في الجبل الأخضر ، ونتج عن المساعدة العسكرية البريطانية استعادة السلطان إدارته المحلية على مقاطعات عمان الداخلية ،

وتمكن من الاحتفاظ بحاميات عسكرية في كثير من هذه المقاطعات " وفي ذلك الوقت تقدمت السلطات البريطانية بعرض للإمام غالب بن علي تطلب فيه وقف إطلاق النار والدخول في مفاوضات للصلح ، غير أن الإمام اشترط عدة شروط من بينها :

أولاً : أن تجري المفاوضات تحت إشراف لجنة محايدة .

ثانياً : أن تتسحب جميع القوات البريطانية من جميع الأراضي التي احتلتها في عمان اعتباراً من عام ١٩٥٥ .

ثالثاً : أن ينسحب جميع الولاة الذين عينهم السلطان .

لم يقبل الإنجليز شروط الإمام ، واضطر الثوار بقيادة طالب بن علي إلى توسيع نطاق العمليات العسكرية ، حيث شن العمانيون هجوماً عنيفاً على قوات السلطنة ، وتطورت المقاومة باستخدام العمانيين لمدافع الهاون وتمكنوا من هدم عدة مراكز وتحصينات ، كما اشتبكت بعض قطع من جيش التحرير العماني مع قوة إنجليزية يرأسها الماجور بيكر فقتل القائد مع جميع أفراد قوته ، واشتدت عمليات العصابات التي ظلت تقاوم القوات المسقطية البريطانية ببسالة منقطعة النظير ، ومما دفع بريطانيا إلى استخدام سلاحها الجوي حيث انهالت الطائرات البريطانية من القواعد الجوية في قبرص وكينيا والبحرين على الجبل الأخضر ، وتحطمت المقاومة نهائياً في يناير ١٩٥٩^(٣٥) بعد أن منيت قوات الثورة بخسائر كبيرة في الرجال والممتلكات ، إذ أن بعض القوي والمدن الصغيرة دمرت تماماً ، ومنها مدينة تنوف الشهيرة ، وذلك إثر الغارات الجوية الكثيفة ، وهي طريقة عسكرية كان العمانيون يجهلون في ذلك الوقت^(٣٦) .

وعموماً استطاع السلطان أن يبسط نفوذه على معظم أنحاء عمان ، واستطاع غالب وطالب وسليمان بن حمير الإفلات بأبوابهم إلى السعودية التي قدمت لهم مختلف المساعدات نكاية في بريطانيا لاحتلالها البوريمي ، واستقر زعيم الإمامة في الدمام ، حيث أنشأ وصحبه ما يشبه حكومة في المنفي ، كما توسعوا في إقامة مكاتب للإمامة تحت رعاية الجامعة العربية في معظم الدول العربية ، وتابعوا إصدارات جوازات سفر عمانية ، ومع ذلك لم تكن الدول العربية على الاستعداد للاعتراف بدولة عمان في المنفي إلا إذا اثبتت الإمامة وجوداً فاعلاً داخل بلادها^(٣٧) .

وعلى الرغم من عدم تناسب الإمكانيات ، فقد استطاع ثوار عمان

مقاومة القوات البريطانية المسقطية من أبريل ١٩٥٧ الى يناير ١٩٥٩ ، ولكن هزيمتهم لم تكن سوي تمهيد لمرحلة جديدة من الكفاح على شكل حرب عصابات استمرت بصورة منقطعة النظر^(٣٨) ، ثم استمرت القضية العمانية فى الاتجاه الدبلوماسي سواءً على صعيد جامعة الدول العربية أم على صعيد الأمم المتحدة ، واستمرت كذلك الى أن تولي السلطان قابوس بن سعيد الحكم فى عمان فى يوليو ١٩٧٠ ، فتم تسوية هذه القضية سلمياً .

ثانياً: الموقف الأمريكي من العدوان البريطاني على ثورة عمان ١٩٥٧

بينما كانت المعارك تتخذ مسرحاً لها فى مقاطعات عمان الداخلية فى خلال الفترة من ١٩٥٧ إلى ١٩٥٩ ، أحدث أنباؤها اهتمامات عربية وعالمية واسعة النطاق ، إذ استتكرت كثير من الشعوب والحكومات العدوان البريطاني ، مما ساعد على خروج القضية العمانية من الحيز الإقليمي إلى النطاق الدولي وتستهدف هذه الدراسة إلقاء الضوء على موقف الولايات المتحدة الأمريكية إزاء هذا العدوان البريطاني على ثورة عمان عام ١٩٥٧ .

ويمكن تفسير الموقف الأمريكي من هذا العدوان فى إطار ثلاثة محاور:

الأول : موقف الحكومة الأمريكية .

الثاني : موقف الصحافة فى أمريكا .

الثالث : موقف الولايات المتحدة الأمريكية فى هيئة الأمم المتحدة .

بالنسبة للمحور الأول ، الخاص بموقف الحكومة الأمريكية ، أي الموقف الرسمي ، كان يسير فى منحنى مختلف طبقاً للمصالح الأمريكية فى منطقة الخليج العربي حيث نجد أن الولايات المتحدة لم تكن قد نسيت موقف بريطانيا وأعمالها العسكرية خلال أزمة البوريمي ، ورأت معاهدة السيب نريعة للضغط على البريطانيين ، ليعترفوا بالمصالح الأمريكية فى هذه المنطقة ولتحقيق مكاسب استراتيجية منها ، لاسيما وأن استمرار خلل ضمنى بين الدولتين فى هذه المنطقة كان يؤدي فى نظر بعض المراسلين الأمريكيين فى لندن إلى مواجهة محتملة بين مصالح الدولتين^(٣٩) .

وعلى الرغم من اعتراف بريطانيا بأن المصالح الأمريكية لا تنفصل عن المصالح الغربية فى المنطقة ، وعلى الرغم من استعداد بريطانيا للتعاون مع الولايات المتحدة ، فإن وزارة الخارجية البريطانية لم تتأخر عن إعادة تأكيد

موقفها المبدي بوضوح ، يجب أن نستمر في التعريف بأن المسئوليات الخاصة التي نمارسها في الخليج لا تعني سوانا ، وأن ما نحن في حاجة إليه هم التفهم وحتى التأييد من جانب الأمريكيين ، ولكن ليس التدخل الأمريكي ، لقد أكد البريطانيون بأنه إذا زال نفوذهم فسوف يفسح ذلك المجال للقومية العربية ، ويخلص التقرير إلى أن هناك موقفاً بريطانياً وليس موقفاً أمريكياً أو أنجلو - أمريكياً^(٤٠).

ولكن زادت العلاقات بين البلدين تعكيراً بعد مصادرة القوات البريطانية في أغسطس عام ١٩٥٧ أسلحة أمريكية كان السعوديون قد أرسلوها إلى الإماميين وقد استاءت بريطانيا من هذا الأمر الذي يتعد خبره ، ومع ذلك نطاق وزارتي الدفاع والخارجية ، وذلك أن الخط السياسي البريطاني كان يقوم على تجنب جعل عمان موضوع مجابهة مع الولايات المتحدة^(٤١) .

وعلى الرغم من ذلك نجد أن تصريحات الرئيسي الأمريكي أيزنهاور ومواقفه كما ورد في مذكراته كانت منسقة مع الموقف البريطاني، حيث لا يعترف بإمامة عمان ، ويعدها تابعة لسلطان مسقط ، ويذكر أن سبب هذه الثورة جاء بدعم من الخارج وبخاصة من مصر حيث يقول " علماً بأن بعض قوات عمان قد دربت في السعودية على أيدي ضباط مصريين وسعوديين " ولما كانت العلاقات الأمريكية - السعودية من القوة ، فقد حاول أن يدافع عن الملك سعود حيث يذكر " أن هذه القوات دربت في السعودية من غير موافقة سعود كما يبدو " ثم أضاف في دفاعه عن السعودية بقوله " بعث الملك سعود برسالة يؤكد لي أنه لم يزود الثوار العمانيين بالسلاح ، وإدعي بأن الثوار كانوا يحصلون على الأسلحة بموجب اتفاق بين ناصر ونهرو ، ولم يذكر الملك أي برهان لادعائه ، لكنني أبلغت هارولد ماكميلان على الفور ، وكان مسروراً بهذه الإشارة ، إن الملك سعود لم يكن راغباً في تطوير هذا الحادث الى شجار كبير بين السعودية وبريطانيا " كذلك نجد أيزنهاور يدافع عن الموقف الأمريكي إزاء هجوم الصحافة البريطانية على الولايات المتحدة بأنها تساعد الثوار حيث يقول " ربما لم نفاعاً حين كنا نشارك في الاستياء والاشتباه الذي وجهه البريطانيون نحونا في عرض صحفي في بريطانيا أثناء الأسبوع الأخير من يوليو ١٩٥٧ ، أبدي البريطانيون اعتقاداً قوياً بأن شركات النفط الأمريكية كانت خلف العصيان بصورة غير مباشرة ، كان ذلك سخيلاً ولكن تلاشي الاعتقاد ببطء ، أكدت لماكميلان عن الإشاعات الزائفة التي تضمنت شركات النفط الأمريكية ، فكتبت

له قائلاً : إذا كنا عازمين على تحمل هذا الشئ ، فإننا لا نكون مستعدين على بذل الجهد للمساعدة على حل مشاكل النفط التي انتابتكم على إثر أزمة السويس في الخريف الماضي^(٤٢).

وليس من شك في أن التوتر الذي حدث بين الولايات المتحدة وبريطانيا في منطقة الخليج كان يشكل تهديداً للعلاقات بينهما ، ومن ثم فقد حدث الكثير من التنسيق بينهما ، حيث نشرت صحيفة نيويورك تايمز في عددها الصادر يوم ٢٤ يوليو أن وزير الخارجية البريطاني لويد اجتمع بالسفير الأمريكي في لندن جون هبي وتتي في لندن لمدة عشرين دقيقة ، وتقول الأنباء انهما تباحثا في الموقف في منطقة الخليج الغنية بالبتروول، وقد رفضت المصادر البريطانية تحديد مصدر الأسلحة الحديثة التي يستعملها الثوار^(٤٣) .

وعموماً رأت الولايات المتحدة إسدال الستار على هذه الخلافات ، وتمثل ذلك في تصريح وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس ، الذي أكد فيه على ضرورة أن نتوقف عن هذه الخلافات في سبيل مقاومة الهدف الأكبر ، وكان يعني به الاتحاد السوفيتي معتبراً أن ما حدث أو يحدث من خلافات إنما هي من الأمور الثانوية التي لا ينبغي أن تؤثر على وحدة المصالح بين بريطانيا والولايات المتحدة^(٤٤) .

وفي نوفمبر ١٩٥٧م أجري رئيس الوزراء البريطاني محادثات جديدة مع الرئيس الأمريكي لحل الخلاف بين البلدين ، أدت إلى إعلان الهدف المشترك الذي أقام استراتيجياً جديدة وإقامة فترة تعاون بين البلدين ، يؤكد الترابط العضوي بين بريطانيا والولايات المتحدة باعتبار ان مفهوم الاكتفاء الذاتي القديم قد سقط وباعتبار ان بلدان العالم الحر لا تستطيع المحافظة على أمنها الا بتنسيق طاقاتها وبتقاسم المهمات في ما بينهما ، ولقد اتفقت حكومتا المملكة المتحدة والولايات المتحدة على العمل ومن الآن فصاعداً وفق هذا المبدأ ، وقسمت المنطقة رسمياً كما يلي : تخضع عمان ومنطقة ساحل عمان واليمن والبحرين وقطر لمنطقة النفوذ البريطاني ، وتبقى المملكة العربية السعودية وإيران تابعتين للنفوذ الأمريكي ، ولكن اقتسام النفوذ التالي لم يحل قضية عمان^(٤٥) .

وهكذا عادت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الاعتراف لبريطانيا بأفضليتها في التفوق السياسي والعسكري في المنطقة ، وعلى الرغم من انهيار مركز بريطانيا العسكري في الشرق الأوسط بعد جلانها عن مصر في عام

١٩٥٤ ثم ما ترتبت على فشل العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦ ، من زيادة ذلك الانهيار حتي أن الولايات المتحدة التزمت أن تمد بريطانيا بجزء من نفقات الدفاع عن إستراتيجية شرق السويس ، مما جعل بريطانيا أكثر اعتمادا على الولايات المتحدة التي أتاحت لها الفرصة للتغلغل بنفوذها في الخليج بصورة أوسع مما كان عليه الحال من قبل (٤٦) .

وعلى الرغم من ذلك نجد أن زعماء ثورة عمان حاولوا الاتصال بالحكومة الأمريكية لتأييدهم في ثورتهم حيث أرسلوا الأمير صالح بن عيسى الحارثي أمير المنطقة الشرقية ونائب إمام عمان الى القاهرة للرئيس عبدالناصر، ويرجوه الاتصال بالملك سعود لتذكيره بقضية عمان لمناقشتها مع الرئيس الأمريكي أثناء اجتماع سعود بأبزينهاور لطلب العون (٤٧) ، حيث بدت الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في رأي العالم كله تقريبا في دور بطلة العدالة والحرية والديمقراطية دون أن تكون لها أغراض شخصية ، كانت هيئة أمريكا وقوتها في أعلي مكانة ، لقد قدمت الولايات المتحدة المعدات والرجال لإنقاذ أوروبا وروسيا من هتلر والنازيين ، ودفعت الإيطاليين إلى ترك مستعمراتهم الإفريقية ، وطردت اليابانيين من الصين والهند الصينية وأندونيسيا والفلبين وبورما وكوريا ولم تطلب الولايات المتحدة أي شئ لنفسها في مقابل ذلك لقد هتف هوشي منه محبيا الأمريكيين لأنهم الأصدقاء الحقيقيون للإنسان المظلوم على الأرض ، وكذلك ورغم التباين الملحوظ اتخذ شارل ديغول وتشرشل وحتى ستالين نفسه في إحدى المناسبات مواقف مشابهة ، وفي عالم ملئ بالكراهية والموت والدمار (٤٨) .

موقف الصحافة الأمريكية

وبالنسبة لموقف الصحافة الأمريكية ، والمعبر عن وجهة نظر الرأي العام الأمريكي ، فقد تناولت أحداث الثورة وتطوراتها ، مع تحليل لهذه الأحداث ومناقشة موقف البريطانيين من ذلك ، تابعت هذه الصحافة أحداث الثورة العمانية وتطوراتها حيث نشرت صحيفة نيويورك تايمز في عددها الصادر يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٧ " أنباء انتصارات ثوار عمان وذكرت أن الثوار برئاسة إمام عمان غالب بن علي وأخوه طالب استولوا على العاصمة الإقليمية نزوي وأخذوا حوالي ٢٠٠٠ ميل مربع من الأراضي الواقعة تحت حكم سلطان مسقط وعمان "وأضافت في خير آخر تحت عنوان " إنذار بريطاني لثوار عمان ، الاستسلام أو

التحرير لسلاح الطيران الملكي قال فيه " أن بريطانيا اعطت الثوار إنذارا لمدة ٢٤ ساعة عليهم في أثناءها أن يتركوا المناطق التي سيطروا عليها وإلا تعرضوا لاستكشاف جوي لمعرفة قوتهم وصرح سير برنارد بورز المقيم السياسي العام البريطاني في الخليج بأن الطائرات ألقت بمنشوراتها محذرة الثوار ومنذرة إياهم بان يتركوا مواقعهم " ثم علقت على ذلك بأن بريطانيا ستقدم التأييد الجوي وتدعيم صغير للقوات البرية ، وتقدر قوات السلطان بحوالي ١,٥٠٠ جندي تحت إمرة ١٠ ضباط إنجليز " (٤٩) .

بينما ذكرت نفس الصحيفة في عددها الصادر في ٢٥ يوليو من نفس العام " أن القوات البريطانية تحركت من البحرين إلى الشارقة بناء على طلب سعيد بن تيمور للمساعدة البريطانية ، وقد اتخذت النفاثات البريطانية المقاتلة من مطار الشارقة الذي يبعد حوالي ٢٠٠ ميل من نزوي قاعدة له " ، وأضافت تقول الأبناء أن فرقتين من الكمرونيين وصلت البحرين من كنيا خلال اليومين المنصرمين لتدعيم القوات البريطانية القائمة هناك " ، وقد وصفت الصحيفة قلعة نزوي الحصينة بقولها " أن ارتفاعها يبلغ ٢٥٠٠ قدما بجدرانها البنية وأبراجها تسيطر على الأكواخ المحيطة بها والتي يسكنها نحو ٦٠٠٠ قروي على جبل تحيط به هضبة في ظل الجبل الأخضر وارتفاعه نحو ١٠,٠٠٠ قدم ، وأضافت أن هذه المنطقة تعد حصن الإمام الثائر الشيخ غالب بن علي وأخيه الطموح طالب بن علي ، وسيد جبل الأخضر سليمان بن حمير وتناولت أنباء تطور المعارك في عمان ، وتدخل القوات الجوية البريطانية بانتهاء الإنذار الذي وجه للثوار بمغادرة المنطقة بدأ الهجوم ، وقد قال المتحدث بسلاح الطيران الملكي أن القنابل أصابت كل الأهداف وأضاف المتحدث البريطاني بأن غارات أكثر قد أعدت ضد الثوار ستتوجه إلى مقر قيادتهم في قلعة نزوي إذا لم يذعنوا للإنذار الثاني ، وفي برقية لسلاح الطيران الملكي جاء فيها " لقد هاجمت قلعة في أزكي التي تقع على مسافة ٢٠ ميلا شرق العاصمة العمانية نزوي التي تعد أمنع حصن لإمام عمان قائد الثوار ، وقد ألقوا قنابلهم على تلك القلعة الهائلة التشييد بجدرانها التي تبلغ في سمكها ٥ أقدام ، وقد أكد أحد الطيارين أن هناك خسائر فادحة بعد الهجمات التي ركزت على داخل القلعة ، وقد أصابت الصواريخ كل الأهداف بنجاح ، وألقت منشورات أخرى على نزوي محددة ٤٨ ساعة تنتهي غدا ، ثم تتخذ غارات أشد وقد أوضحت الاستكشافات على نزوي أن الثوار يحتلون القلعة ويرفرف عليها علم أبيض " (٥٠)

وفي مجمل تحليل الأحداث في عمان ومناقشة موقف البريطانيين نشرت صحيفة نيويورك تايمز في عددها الصادر يوم ٢٣ من يوليو ١٩٥٧ تحت عنوان " نزاع عمان يثير مخاوف بريطانيا على البترول " فذكرت أن بريطانيا تحركت يوم ٢٢ يوليو لحماية مصالحها البترولية في منطقة الخليج بإعلانها التأييد الحربي التام لسلطان مسقط وعمان ، وصرحت المصادر الرسمية العليا بأن الحكومة البريطانية سوف تحارب أي محاولة من جانب الثوار، الذين تساندهم السعودية ومصر كما هو معتقد - لخلع السلطان سعيد بن تيمور " وأضاف الصحيفة " أن الحكومة البريطانية تشعر بأنها إذا تركت السلطان فإنها ستفقد كل نفوذها في ولايات البترول الهامة في الخليج مثل البحرين وقطر والكويت ، وقد أحيط الرئيس ايزنهاور ودالاس بوجهة النظر البريطانية أثناء مؤتمر برمودة في مارس ، وكان الوضع في هذه المنطقة محل نقاش " (٥١) .

ثم تطرقت الصحيفة إلى موقف حزب المحافظين حيث قالت " وقد أوضح الجناح الأيمن في حزب المحافظين أن الأسلحة التي استعملها الثوار كانت أمريكية ، وقد رد سلوين لويد أن الأسلحة جديدة ولكن لا يمكنه القول بأنها أمريكية " .

ثم تناولت الصحيفة موقف الحكومة البريطانية حيث ذكرت " أن الحكومة البريطانية في تصميمها على مساندة السلطان مشغوفة بتلافي الاصطدام مع الولايات المتحدة ، وترجع الصعوبة التي تعترى الموقف إلى التنافس بين شركات البترول البريطانية والأمريكية في المنطقة " (٥٢) .

وتحدثت الصحيفة عن موقف الحكومة الأمريكية فقالت " خرج متحدث أمريكي مسئول وذكر أن الولايات المتحدة ستبذل ما وسعها من جهد لإبقاء الهدوء في المنطقة " وأضافت وترجو الأوساط الأمريكية أن يكون نزاعا داخليا محضا ولكن يخشى أن يتطور النزاع بسبب بترول المنطقة الغنية وما تثيره المشاحنات القديمة بسبب واحة البوريمي " ودعت الصحيفة حكومة الولايات الى التفاهم مع البريطانيين وعلقت عل ذلك بأن الولايات المتحدة لم تقدم الخدمات الودية في هذا النزاع " (٥٣)

وتحت عنوان " ثورة جديدة في الجزيرة العربية " نشرت صحيفة نيويورك تايمز في عددها الصادر يوم ٢٣ من يوليو مقالا استهلته بالهجوم على القومية العربية وهاجمت مصر لمواقفها من هذه الثورة حيث قالت " على أن

قيادة الثوار العمانيين تعد القاهرة هي المركز الرئيسي لها يعاونها في ذلك مصر والجامعة العربية ، كما أن الأمين العام للجامعة العربية - عبد الخالق حسونه - يضطلع في هذه الأيام بمهمة مساندة هذه الثورة التي قامت في جنوب الجزيرة العربية حيث قالت " إن عزل سلطان مسقط وعمان سيؤدي إلى الإقلال من مركز بريطانيا في هذه المنطقة ذات البترول ، بل يفتح الباب نحو خلع باقي ملوك المنطقة الساحلية وينذر بالخطر المحمية عدن " (٥٤) .

ونشرت صحيفة نيويورك تايمز في عددها الصادر يوم ٢٤ من يوليو أخبار المعارك القتالية في عمان وتطورات الموقف ، ومما ذكرته في هذا الصدد ما صرح به سير برنارد بوز المقيم السياسي العام في الخليج العربي حيث قال أن الثوار يستعملون أسلحة أتوماتيكية لم تر من قبل في المنطقة ، وأضاف بأن هذا دليل واضح على أن أحدا من الخارج يعاونهم ، ولكن لا يوجد دليل قاطع من هو ؟ " وأضافت الصحيفة " وقد رفضت المصادر البريطانية تحديد مصدر الأسلحة الحديثة التي يستعملها الثوار ، بينما المعتقد أنها صناعة أمريكية وأنها وصلت إليهم عن طريق العربية السعودية ، وقد صرح لويد لمجلس العموم بأن القلاع التي يتحصن بها رجال القبائل مزودة بأسلحة حديثة مهربة إليهم من الخارج كقيلة بإلقاء الرعب بين القبائل المخلصة والمذبذبة " وذكرت ما رده لويد لمجلس العموم " بأنه لا توجد جبهة قتال ، ولكنها حرب قبلية متنقلة بأسلحتهم البسيطة " (٥٥) .

وفي نفس الصحيفة نشرت تحت عنوان " الولايات المتحدة تسعى لمنع الصدام " حيث ذكرت بأن الحكومة الأمريكية اتخذت خطوات لمنع الثورة ضد سلطان مسقط وعمان من أن تؤدي إلى صدام سياسي بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، وهاجمت صحافة لندن في ادعائها أن الولايات المتحدة أو مصالح الولايات المتحدة البترولية كانت وراء هذه الثورة " حيث ذكرت أن لنكولن هوايت المتحدث الرسمي فند هذه الادعاءات ووصفها بأنها لا أساس لها إطلاقا ، وقال أيضا أن الاتهام القائل بأن أساس النزاع هو التنافس بين مصالح بريطانيا والولايات المتحدة البترولية قمامة مهملة ، فالحقيقة أن الولايات المتحدة باعت أسلحة إلى العربية السعودية لا ترتبط بهذا الوضع ، وأضاف بأن الحكومة ليس لديها الدليل على أن القبائل الثائرة استخدمت أسلحة الولايات المتحدة (٥٦) .

بينما نجد صحيفة الواشنطن بوست تكتب في تعليق لها على أحداث عمان تذكر " أنه إذا كان ممكنا في الماضي سحق أية ثورة بالقوة ، فإن فشل

الهجوم الانجلو - فرنسي على مصر قد جعل سياسة العنف مستحيلا في أيامنا " ،
لقد تغير اتجاه الرياح وكان الاستعمار التقليدي يعيش أيامه الأخيرة في ظل
انتقادات الرأي العام الدولي ، ومن هذه الناحية ، فإن تعليق الواشنطن بوست لم
يلخص في الواقع إلا الأجواء الصحفية العامة التي أجمعت على إدانة الاعتداءات
البريطانية على عمان ، وكان الرأي العام يري فيها عمليات منذرة بالفشل أمام
صعود تيار القومية العربية (٥٧) .

ويمكن تلخيص وجهات نظر الصحافة الأمريكية إزاء العدوان البريطاني على
عمان فيما يلي:

- أكدت على أن البترول كان السبب الرئيسي لهذه الحرب ، وإذا تركت
السلطان فقد تفقد كل نفوذها في ولايات البترول الهامة في الخليج العربي .

- أوضحت أن الجناح الأيمن من حزب المحافظين أن الأسلحة التي
استعملها الثوار العمانيين كانت أمريكية ، ولكن الحكومة البريطانية نفت ذلك .

- تحاول الحكومة البريطانية تلاقي الاصطدام مع الولايات المتحدة
الأمريكية ، وترجع الصعوبة إلى التنافس بين شركات البترول البريطانية
والأمريكية في المنطقة .

- هاجمت الصحف الأمريكية القومية العربية ثم عرضت بالثورة
العمانية وادعت أن القاهرة هي المركز الرئيسي لقيادة الثوار يعاونها في ذلك
الجامعة العربية ، حيث يقوم الأمين العام للجامعة العربية بالاضطلاع بهمة
توحيد الدولة العربية في صراع جديد ضد الاستعمار .

- تناقلت الصحف الأمريكية العمليات العسكرية البريطانية في المنطقة
وأبرزت نجاحها العسكري

الموقف الأمريكي في الأمم المتحدة

وبالنسبة للمجال الدولي ، فقد عرضت قضية عمان لأول مرة في
أغسطس عام ١٩٥٧ عندما طلب - ذلك ممثلو أحد عشر دولة عربية في رسالة
مؤرخة في ١٣ أغسطس من العام نفسه ، واجتمع مجلس الأمن بموجب المادة
٣٥ من الميثاق لدراسة عدوان بريطانيا المسلح على استقلال عمان وسيادة
وسلامة أراضيها رغم اعتراض بريطانيا ، وصوت ضد إدراج القضية
استراليا ، كولومبيا ، كوبا ، فرنسا ، بريطانيا ، وصوت لصالح إدراج قضية

عمان " العراق الفلبين السويد الاتحاد السوفيتي ، وامتنع عن التصويت الولايات المتحدة الأمريكية وحضر ولم يصوت الصين (٥٨) .

على أن ما يعيننا هنا هو الموقف الأمريكي حيث يذكر البعض أن الامتناع الأمريكي كانت له دوافع مختلفة كليا ، ولكن هذا الامتناع كان يعادل الاعتراض ، ربما أن الأصوات السبعة المطلوبة لم تجتمع ، فلم يكن ممكنا إدراج القضية على جدول الأعمال ، ومع ذلك فقد كانت بريطانيا تخشى أن يفسر تحفظ الولايات المتحدة على أنه عدم اعتراف بوحدة مسقط وعمان ، وان يمنع إعادة فتح التنصليّة الأمريكية في مسقط التي كانت الولايات المتحدة قد أغلقتها في عهد تيمور بن فيصل (١٩١٣ - ١٩٣١) (٥٩) ، على الرغم أن أيزنهاور لم يعترف بإمامة عمان واعتبرها جزءاً تابعاً لسلطان مسقط وعمان حيث يذكر ذلك بقوله " قامت ثورة مفاجئة ترأسها إمام عمان ضد سلطنة مسقط وعمان ، والمحمية البريطانية الواقعة على الجانب الشرقي من شبه الجزيرة العربية" (٦٠) .

وعموما فقد وقفت معظم الدول الغربية إلى جانب بريطانيا ، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية ، التي ساندت السعودية في أزمة البوريمي ، إلا أنها وقفت موقفا سلبيا وغير مشجع في جميع المناسبات التي عرضها فيها القضية العمانية على الأمم المتحدة . (٦١)

وتأجلت القضية العمانية على جدول أعمال الجمعية العام للأمم المتحدة، ولكن المجموعة العربية فشلت في هذه المحاولة ، وتأجلت القضية إلى عام ١٩٥٨ ثم إلى عام ١٩٥٩ ، وأخيرا إلى عام ١٩٦٠ (٦٢) ، وطوال هذه الفترة وبينما كانت القضية العمانية تعرض في المنظمات الدولية دون أن تحقق نجاحا ملموسا (٦٣) .

من خلال استعراض الموقف الأمريكي من العدوان البريطاني على ثورة عمان يمكن استقراء ما يلي :

أن استراتيجية الأمريكية في منطقة الخليج العربي إحدى بؤر الخطر في المنطقة العربية كانت تعمل على محورين في ذلك الوقت :

المحور الأول : محور المجابهة الدولية الشاملة ضد القوي العظمي الأخرى في المجتمع الدولي أي الاتحاد السوفيتي .

المحور الثاني: محور الصراع المباشر وغير المباشر ضد المصالح الاقتصادية المنافسة داخل الكتلة الغربية نفسها ، وكانت محاولة السيطرة على مراكز الإنتاج العالمي وبخاصة في منطقة الخليج العربي من أبرز الأهداف الكامنة في خلفية هذا الصراع (٦٤) .

وبالنسبة للمحور الأول نجد أن تراجع قوتي الدول الاستعمارية القديمة - بريطانيا وفرنسا- على سلم التدرج الدولي - وما ترتب على ذلك من عدم قدرتها على الاحتفاظ بمستعمراتها وبمناطق نفوذها في الشرق الأوسط ، وما تلا ذلك من حصول العديد من دول الشرق الأوسط على استقلالها السياسي وفي وقت لم تكن تملك فيه القدرة على حماية ذلك الاستقلال ، وقد أحييت من جديد أطماع القوتين العظميين - الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي - في السيطرة وبسط النفوذ على المنطقة (٦٥) ، وبخاصة في السنوات التي تلت الحرب العالمية .

لم تعط لبريطانيا أو للولايات المتحدة الأمريكية حرية المحافظة على المصالح الغربية في هذه المنطقة ، إذ أن تلك المصالح كانت محاصرة بتحديات كثيرة لم تعرفها الحقبة الاستعمارية في الخليج ونعني بها نمو القومية العربية والثورات المحلية التي اجتاحت المنطقة ، فضلا عن الدعاية التي كان يقوم بها الاتحاد السوفيتي ضد الإمبريالية والاستعمار الجديد (٦٦) .، حيث بادر الاتحاد السوفيتي إلى إصدار بيان في السادس عشر من أبريل ١٩٥٥ تناول فيه موضوع الأمن في الشرق الأوسط ، وطالب بتسوية تقوم على مبدأ التعايش السلمي ، وحذر في بيانه بأنه في حالة استمرار سياسات الضغط والإرهاب فإنه سيبادر إلى حماية استقلال دول تلك المنطقة (٦٧) ، ولعل ذلك تجلي في موقفه من الثورة العمانية ، ولذلك نجد أن الشرق الأوسط من ناحيته الاستراتيجية كان يعد من وجهة النظر الأمريكية مجرد حلقة ضخمة هامة من حلقات الدفاع العالمية التي تقيمها أمريكا حول النطاق السوفيتي (٦٨) .

وبالنسبة للمحور الثاني ، محور الصراع المباشر وغير المباشر ضد المصالح الاقتصادية داخل الكتلة الغربية نفسها وبخاصة مع بريطانيا ، والذي كان له أثره في الموقف الأمريكي ، حيث نجد أن بريطانيا كانت تعتبر الخليج العربي بمثابة بحيرة مغلقة على نفوذها إلا أن اكتشاف النفط أدي بالولايات المتحدة الأمريكية إلى مزاحمة بريطانيا مزاحمة اقتصادية ، وقد وضع ذلك في إصرار الحكومة الأمريكية على إلزام بريطانيا بسياسة الباب المفتوح ، وهو

مبدأ روجت له السياسة الأمريكية في مناطق النفط في الشرق الأوسط فيما بين الحربين العالميتين وينص هذا المبدأ على عدم احتكار دول بعينها بامتياز معين قد يشكل أضراراً لدولة أخرى واستطاعت الأمريكية بذلك المبدأ أن تضمن لبعض الشركات الأمريكية المساهمة في استغلال النفط في كل من البحرين والكويت ، بينما انفردت شركات أمريكية أخرى باستغلال نفط السعودية ، وفي خلال الحرب العالمية الثانية كشفت أهمية الخليج الاستراتيجية وتمثل ذلك في الدور الذي قامت به الولايات المتحدة في استخدام الخليج كمنطقة عبور هامة لنقل الإمدادات الأمريكية إلى الاتحاد السوفيتي عن طريق إيران ، وما تبع ذلك - في السنوات الأخيرة من الحرب من إنشاء قاعدة جوية أمريكية في منطقة الظهران ، حيث وقع اختيار العسكريين الأمريكيين عليها لقربها من آبار النفط^(٦٩).

وبعد نجاح الولايات المتحدة في تحقيق سياسة نفطية متقدمة في الخليج العربي بفضل شركاتها العاملة هناك أصبح للنفوذ الاقتصادي الأمريكي صفة الهيمنة على تلك المنطقة ولم تعد تقبل بمن يشاركها أو يسلبها مثل هذه الهيمنة واعتبرت أن هذه المنطقة هي نفوذ أمريكية ، ومن ثم عرقلت الولايات المتحدة أية نشاطات أوربية تهدف إلى تحقيق مكاسب اقتصادية تفوق ما حققته هي هناك^(٧٠) .

وعموماً كان النفط العربي أحد نقاط الخلاف والتوتر في العلاقات الأمريكية - البريطانية ، وقد شهدت منطقة الشرق الأوسط ، وخاصة البلدان العربية منها نزاعات وحروباً كان النفط سببها المباشر وغير المباشر ، فالنفط كما يذكر محمد حسين هيكل " كان عنصراً دائماً في كل أزمة كبرى وقعت في العالم العربي ، ومنذ بدأت رياح الاستقلال تهب عليه في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وكان البترول يطرح نفسه على الأزمات ، أو كانت الأزمات تطرح نفسها على البترول وفق متغيرات الظروف " ^(٧١) .

وربما يتضح لنا ذلك في تضارب المصالح البريطانية والأمريكية حول مشكلات الحدود بين إمارات الخليج العربي والدول المجاورة ، أو كما حدث بالنسبة لمشكلة البوريمي بين مسقط وأبو ظبي والسعودية ، ففي الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تؤيد السعودية تحت ضغط الشركات الأمريكية العاملة في النفط في تلك المنطقة ، اتجهت السياسة البريطانية إلى تأييد الإمارات الخاضعة لها لحمايتها ، وتمثل ذلك في احتلالها للبوريمي في عام

١٩٥٥ (٧٢) ولعل موقف أمريكا من استيلاء بريطانيا على واحة البوريمي ، وكان ذلك مفاجأة للسعودية حليفها - كان موقفا مائعا - فهي لا تستطيع لأسباب اقتصادية أن تتضم لأي من الجبهتين في ذلك الوقت ، وإن كانت تبدي العطف على السعودية ظاهرا وتطمع في الإحلال محل بريطانيا في منابع الثروة البترولية العربية (٧٣) ، كذلك يتضح أيضا في الموقف الأمريكي من العدوان البريطاني على ثورة عمان ، حيث كانت دوافعها تتمثل في المحافظة على علاقتها مع بريطانيا ، وبخاصة أن العلاقات الأمريكية - البريطانية في الشرق الأوسط ، سارت خلال فترة الخمسينات في خط أكثر تعرجا منه في أي وقت آخر ، وكان السبب في ذلك يرجع ، ولاشك إلى أن تلك الدولتين لا واحدة منها فقط ، كانت لها مصالح هامة في تلك المنطقة ، وإذا كانت سياسة الدولتين اتفقت في منطقة الشرق الأوسط على إنشاء حلف بغداد ، إلا أن الموقف الأمريكي من أزمة السويس أثار استهجان البريطانيين باعتباره موقفا يهدد إلى حد كبير حلف شمال الأطلسي ، على أن الخلل في العلاقات البريطانية الأمريكية في نهاية عام ١٩٥٦ ، لم يلبث أن عولج أمره بسرعة مذهلة فلم يتكرر مرة أخرى في عام ١٩٥٧ ، عندما عاد الموقف في الشرق الأوسط فاضطرب مرة أخرى بسبب أزمة الأردن في أبريل ، والنزاع بين سوريا وتركيا في أواخر الصيف ، ثم بسبب ثورة إمامة عمان ضد سلطان مسقط في شهرة يوليو وهي الثورة التي أخدمتها القوات البريطانية (٧٤) ، ورغم ذلك كان هناك نقاط اتفاق في العلاقات الأمريكية - البريطانية ، منها نظرة الدولتين للثورات الوطنية وحركات التحرر الوطني في المنطقة .

ونستطيع القول أن الولايات المتحدة الأمريكية من خلال خبراتها التاريخية مع مصر الناصرية منذ عام ١٩٥٢ ، فقد نظرت نظره عدم ارتياح لهذه الثورات ، ذلك أن هذه الثورات لم تقض على حكومات موالية للغرب فحسب ، بل أقامت حكومات انتهجت بصورة عامة سياسة ودية تجاه الاتحاد السوفيتي وإقامة علاقات وثيقة معه ، واتخذت موقفا ، يمكن وصفه بالبرود في احسن حالاته تجاه الغرب ومشاريعه السياسية والعسكرية في المنطقة ، وللتعبير عن نظرتها إزاء هذه الحكومات فإن الولايات المتحدة وصفتها بالحكومات (المتطرفة) مقابل صفة الاعتدال التي درجت على استخدامها للدلالة على الحكومات المرتبطة بعلاقات ودية ووثيقة مع الولايات المتحدة والدول الغربية (٧٥) .

وهناك مسألة هامة يجدر التنويه إليها وهي أن الولايات المتحدة برغم تفوقها العسكري وظهورها على راس المعسكر الغربي في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، إلا أنها لم تشأ مع ذلك أن تضعف من روابطها التقليدية مع بريطانيا ، وبالتالي ظلت حريصة على إن توكل لبريطانيا الشئون الدفاعية لمنطقة الخليج العربي مكثفة بالتنسيق السياسي والاستراتيجي مع استمرار اعترافها بالتفوق السياسي والعسكري الذي كانت تمارسه بريطانيا في المنطقة ، والتساؤل الذي نطرحه في هذا المجال هو لماذا تمسكت بريطانيا بالمحافظة على تفوقها السياسي والعسكري في الخليج العربي ؟ ، وقد يكون من السهل الإجابة على هذا السؤال ، إذا أخذنا في اعتباره الامتيازات الاقتصادية الجديدة التي أصبح الخليج يتميز بها ونعني بذلك اعتباره مصدرا هاما للنفط ، وبالتالي فإن اكتشاف النفط واستغلاله أضفى على الخليج قدرا كبيرا من الأهمية في الموازين الاقتصادية والاستراتيجية ، ومما زاد بريطانيا تشبثا بالبقاء فيه (٧٦) .

القوي الدولية الكبرى والموقف الأمريكي من هذه الثورة

كان للموقف الأمريكي من ثورة عمان عام ١٩٥٧ صدها المتباين على المستوي الدولي ، وسوف نقصر دراستنا على موقف القوي الدولية الكبرى في تلك الفترة ، وهي الاتحاد السوفيتي القطب الأخر ، وكذلك القوي الدولية الأخرى في سلم التدرج الدولي ونعني بها فرنسا وبريطانيا .

وإذا ألقينا نظره على موقف الاتحاد السوفيتي ، نجد أنه كان ينبع من الاتجاه الرئيسي في العلاقات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية ، إذ كان هناك اتجاهان رئيسيان ، أول هذين الاتجاهين استعماري يهدف إلى تشديد التوتر الدولي وإثارة هستريا الحرب ، وإخضاع البلاد الضعيفة لإرادة الدول الاستعمارية ولقد أطلق على هذا الاتجاه اسم " اتجاه مراكز القوة ، وتسير الولايات المتحدة وحلفاؤها من الاستعماريين في هذا الاتجاه ، إذ أنها خلقت سلسلة من الكتل السياسية - العسكرية - كحلف الأطلسي والحلف المركزي وحلف جنوب شرق آسيا ، ويفرض واضعو سياسة مراكز القوة للإبقاء على العالم على شفير الحرب وللمضي وراء هذا المبرر في طريق سباق التسليح الرهيب ، أما الاتجاه الثاني فتمثله السياسة السوفيتية ، وسياسات الدولة الاشتراكية التي تريد تخفيف حدة التوترات الدولية ، وقيام علاقات متبادلة النفع

وعلى أساس حسن الجوار بين جميع البلدان فى العالم (٧٧) .

بينما نجد رؤية الساسة الأمريكية فى موقف الاتحاد السوفيتي فى هذه المنطقة منذ بداية الحرب الباردة فى الخمسينات على الاعتقاد بأن الاتحاد السوفيتي يستغل الصراع العربي - الإسرائيلي لتثبيت نفوذه فى الشرق الأوسط والسيطرة على ثروته النفطية ، وعلى طرق المواصلات البحرية من أجل الضغط على الولايات المتحدة وحلفائها فى أوربا واليابان (٧٨) وبالنسبة للنفط يذكر الخبير الأمريكى المتخصص فى شئون الشرق الأوسط ريتشارد نولت " أدي تنامي التهديد الشيوعي ضد الغرب ، إلى تأكيد أهمية الدفاع عن الشرق الأوسط للاحتفاظ بموارده النفطية التي قدرت فى ذلك الوقت بثلاثي مجموع الاحتياطات العالمية المعروفة من النفط ، بالإضافة إلى الأهمية الاستراتيجية لقناة السويس وغيرها من القواعد العسكرية الأخرى المتناثرة فى المنطقة العربية ، ويضيف على أن التهديد لذلك النفط ولتلك القواعد لم يكن يأتى كله من اتجاه الشيوعية والاتحاد السوفيتي ، بل أيضا إلى تنامي الحركات القومية ضد استمرار الوجود الغربي ، الذي كان مصدرا هاما من مصادر هذا التهديد ، ويرى تشجيع الاتحاد السوفيتي لهذه الحركات القومية ومساندتها (٧٩) .

ويرى البعض أن نفط الشرق الأوسط وخاصة النفط العربي لم يكن يمثل مصلحة اقتصادية مباشرة للاتحاد السوفيتي بقدر ما كان حرمان الولايات المتحدة منه ، يشكل هدفا مرحليا ، فقد اعتبر السوفيت أن امتيازات المصالح البترولية للولايات المتحدة والغرب فى المنطقة العربية هي الأساس الذي تقوم عليه قوة أمريكا وتأثيرها السياسى فى دول المنطقة ، وأنه لو تصدع هذا الأساس فسوف ينهار النفوذ الغربي بأكمله ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، دأب الاتحاد السوفيتي على العمل على خطين متوازيين ، أضعفا كارت البترول الغربي من جهة ، وتنمية علاقاته مع الدول العربية وخاصة المنتجة للنفط من جهة ثانية ففى الاتجاه الأول لم ينعكس الاتحاد السوفيتي فى المعركة الاقتصادية المرتبطة باستغلال النفط العربي ، لأنه لم يكن يعاني فى تلك المرحلة أزمة نفطية ولا يحتمل عبء المواجهة مع الولايات المتحدة التي يدرك أهمية مصالحها فى تلك المنطقة ، ولذلك اعتمد على أسلوب الدعاية والتحريض ضد احتكار شركة النفط الأمريكية واستغلالها لثروة العرب النفطية ، والسى جانب تأييد موسكو لكل صوت يرتفع مطالبا بالتأميم ، أما على الصعيد السياسى فقد حاول الاتحاد السوفيتي التأثير فى المصالح الاقتصادية والنفطية للولايات

المتحدة عن طريق تنمية علاقاته السياسية والاقتصادية مع بعض الدول العربية وإيران بغية الحصول على مواقع له في تلك المنطقة ، وقد استغل أخطاء السياسة الأمريكية تجاه الدول العربية بانحيازها الدائم لإسرائيل في إطار الصراع العربي الإسرائيلي^(٨٠) .

ومما لا شك فيه أن الاتحاد السوفيتي كانت له مصالح أمنية وسياسية واقتصادية في منطقة الشرق الأوسط بصفة عامة ، ومنطقة الخليج العربي على وجه الخصوص ، غير أن الموقع الإستراتيجي للشرق الأوسط وما يمثله من أهمية لأن الاتحاد السوفيتي كان في مقدمة مصالح السوفييت خلال فترة الخمسينيات والستينيات وتتبع أهمية الموقع الاستراتيجي بالنسبة للاتحاد السوفيتي من كون هذه المنطقة قريبة جغرافيا من أراضيه وتشكل حدودها المتاخمة له (إيران - تركيا - أفغانستان) مصدرا للخطر على المراكز الصناعية السوفيتية ، لذلك كانت سياسة الاتحاد السوفيتي تجاه منطقة الشرق الأوسط والخليج العربي تركز على حماية أمنه القومي من أي تهديد عربي محتمل ينطلق من هذه المنطقة ولذلك بادر الاتحاد السوفيتي إلى إصدار بيان في السادس عشر من أبريل ١٩٥٥ تناول فيه موضوع الأمن في الشرق الأوسط ، وطالب بتسوية تقوم على مبدأ التعايش السلمي ، و حذر الاتحاد السوفيتي في بيانه بأنه في حالة استمرار سياسات الضغط والإرهاب فإنه سيبادر إلى حماية استقلال دول تلك المنطقة^(٨١) .

لذلك جاء موقف الاتحاد السوفيتي متسقاً مع تلك السياسة خلال أحداث الثورة العمانية والعدوان البريطاني المسلح عليها ، فعبد تكوين جيش تحرير عمان تبني الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية قضية الإمامة^(٨٢) ، بل وساند الثورة العمانية في المحافل الدولية ، وظل يطالب بتصفية الاستعمار في عمان ، كما أولت الصحافة السوفيتية عناية بالأحوال العامة في تلك المنطقة^(٨٣) ، حيث علقت صحيفة " أرفستيا" في عددها الصادر في ٢٦ يوليو ١٩٥٧ على حوادث عمان وذكرت أن هذه الأزمة نتيجة لتنافس الأمريكيين والبريطانيين على العالم العربي ، وذكرت أن الأزمة القائمة في إمامة عمان هي نتيجة لتآمر الاحتكار الأمريكيين على طرد أنابهم البريطانيين من تلك المنطقة ، وقالت أن العالم يعرف المؤامرات الاستعمارية البريطانية منها والأمريكية ، ولكن هذه المؤامرات لن تتمكن من هزيمة شعوب الشرق العربي^(٨٤) .

ويمكن تلخيص الموقف السوفيتي إزاء ثورة شعب عمان حيث هاجمت الغرب والولايات المتحدة كما تذكر الوثائق ما يلي :

أن صحافة الغرب حاولت أن تصور هذه النهضة بأنها مسألة داخلية بين فريقين من شعب عمان من أجل استقلاله .

أن أمريكا تتصارع مع بريطانيا للسيطرة على هذه المنطقة ، وان شركات البترول الأمريكية والبريطانية احتكرت منابع البترول في شبه الجزيرة العربية ، وأنها في سبيل الحصول على هذه الثروات مستعدة لارتكاب أي جريمة ضد الشعوب العربية وأن أمريكا تضغط على بريطانيا لتجبرها على مقاسمتها امتيازات البحث عن بترول هذه المنطقة ولكن هذا لن يقلل من شأن كفاح العمانيين .

أن سياسة أمريكا أظهرت ما تسعى إليه من إعادة التفرقة بين الدول العربية لربطها بعجلة السيطرة الأمريكية وهذه السياسة تفسر ما حدث في الأردن وسوريا ومصر واستفزاز المتطرفين في إسرائيل ضد الدول العربية^(٨٥).

وفي المقابل نجد أن الوثائق الأمريكية تعد أن الدعاية الكبيرة المؤيدة للإمام تأتي من مصر وسوريا والاتحاد السوفيتي^(٨٦) .

أما رؤية فرنسا للموقف الأمريكي فيمكن استخلاصه من خلال كتابات الصحف الفرنسية ، حيث كتبت صحيفة "لوموند" في ٢٤ يوليو ١٩٥٧ بمقال عنوانه " السويس ثانية " مضمونه " أن الحوادث الأخيرة بين الوطنيين العمانيين وقوات سلطان مسقط حلقة جديدة من النزاع الذي نشب في السنوات الثلاثة الأخيرة بين الإنجليز وسلطان مسقط وبين الملك سعود حول حدود الأقاليم الجنوبية الشرقية للجزيرة العربية ، و يخشى أن تتحول الحالة في مسقط إلى سويس ثانية ، إذا ما أبدت واشنطن بعض التحفظ تجاه التدخل البريطاني " واختتمت الصحيفة بقولها " أن النزاع رغم أنه نزاع محلي إلى الآن ، يعتبر فرصة سانحة للعرب للتخلص من شركات البترول الغربية ، أن نجاح الثورة سيكون سابقة خطيرة بالنسبة لإمارات الجزيرة العربية وخاصة إمارات الخليج العربي^(٨٧) .

وتحت عنوان " حرب الذهب الأسود " كتبت صحيفة كومبا مقالا في عددها الصادر في ١٩٥٧/٧/٢٣ جاء فيه " أن ثورة القبائل الإسلامية بقيادة

شقيق الإمام غالب بن علي أمام عمان ، ليست سوي أحد فصول حرب البترول ، وأن الثورة البترولية لصحاري هذه المنطقة كانت سببا للأحداث الأخيرة وفي سنة ١٩٣٩ كانت بريطانيا تنزعم الدولة المستغلة لبترول الشرق ، أما اليوم فتلاثة أرباع بترول الشرق الأدنى تستغله شركات أمريكية تقوم بمحاولات عديدة لإزاحة منافستها الإنجليزية ، وأن قصة هذا الصراع الأخوي بين أمريكا وبريطانيا يرجع إلى سنة ١٩٥٤ عندما اكتشفت بعض المنقبين الإنجليز الذهب الأسود في منطقتي البورييمي والفهود " .

وتحدثت الصحيفة عن دور الولايات المتحدة حيث أضافت " أما السياسة الأمريكية فإنها تخالف اتجاهات السياسة البريطانية فالسياسة الأمريكية تقضي بمساندة شركة أرامكو وتمكينها من التنقيب عن البترول في مناطق جديدة واختتمت الصحيفة قائلة " أن بريطانيا مازالت تمتلك في يدها الوسائل الكفيلة بقلب الميزان لمصلحتها ، ومهما كان الوضع فيجب قيام تفاهم بين بريطانيا والولايات المتحدة ، لوضع حد لهذه المناوشات الدموية في المنطقة .

وعموما يمكن تلخيص موقف الصحافة الفرنسية إزاء الموقف الأمريكي في النقاط التالية :

اعتبار النزاع في عمان أحد فصول الصراع حول الثروة البترولية في هذه المنطقة وان هذا النزاع في الواقع بين شركات البترول الأمريكية والشركات البريطانية .

أظهرت الخوف من فشل حملة بريطانيا كما فشلت حملة السويس ، إذا ما بدأت واشنطن بعض التحفظ تجاه التدخل البريطاني .

ضرورة تفاهم الولايات المتحدة وبريطانيا بشأن اتباع سياسة موحدة في هذه المنطقة تصون مصالح الطرفين ، لأن هذا النزاع فرصة سانحة للنداء العربي بالتخلص من شركات البترول الغربية .

نجاح الثورة العمانية سيكون دافعا لامارات الجزيرة العربية على مناهضة النفوذ الغربي وإشعال الثورة التحريرية في المنطقة بأسرها ، وانتصار للقومية العربية (٨٩) .

وإذا ألقينا نظرة عن صدي الموقف الأمريكي في داخل بريطانيا نفسها فقد تجلي واضحا في مجلس العموم البريطاني ، وبخاصة من أعضاء نواب

الأغلبية (المحافظين) ، ولعل ذلك كان ينبع من موقف حزب المحافظين بالنسبة للشرق الأوسط والذي كان يعد أحد المجالات الهامة في السياسة الخارجية البريطانية بعد الحرب العالمية الثانية ، وبخاصة أن كثيراً من مراكزها الرئيسية بدأت تتسحب منها على سبيل المثال مصر والسودان ، ولهذا كان هذا الحزب يؤمن بأن أي سياسة ضعيفة في الشرق الأوسط سوف تكون وبالاً على المصالح البريطانية ، وأن كانت هناك استثناءات تجعل هذا الإيمان يتسم بالمرونة لا بالتعصب . (٩١) .

ولعل ذلك يتجلى بصورة واضحة ، حيث كان الشعور بالغضب أقوى وأشد في نفوس النواب المحافظين الذين تمردوا على معاهدة ١٩٥٤ بين مصر وبريطانيا الأمر الذي أدّى بستة منهم إلى الاستقالة من إدارة الحزب احتجاجاً على فشل الحكومة في مواصلة الحرب حتى تحقق الهدف الذي من أجله أعلنتها كذلك فإن عدداً كبيراً من نواب المحافظين انتقد موقف حكومتهم واستقال بعضهم من إدارة الحزب ، كما استقال وزيران من وزراء المرتبة الثانية من الحكومة إبان أزمة السويس وموقف حكومتهم منها (٩٢) .

وعموماً شهدت جلسات مجلس العموم البريطاني وبخاصة من نواب حزب المحافظين انتقادات واستفسارات عن الموقف الأمريكي بصفة خاصة إزاء هذا العدوان ، حيث نجد بوب وليامز (المحافظ) يتساءل هل يستطيع وزير الخارجية أن يؤكد لنا - بالنسبة لخطورة الموقف - عما إذا كان من المعتقد أنه ستكون هناك مساندة من جانب أمريكا للسياسة الخارجية البريطانية ، فكان رد لويد لست أعتقد أن مثل هذه المسألة محل بحث فقد عقدنا العزم على اتخاذ الإجراءات الذي اتخذناه بسبب علاقات الصداقة التاريخية بيننا وبين سلطان مسقط (٩٣) .

وعلى نفس المنوال تساءل ناباروه (محافظ) بالإشارة إلى الأهمية القصوى لموارد بريطانيا البترولية بهذه المنطقة ، وما أشيع في الأيام الأخيرة أن الأسلحة التي تصل الإمام هل هي أسلحة أمريكية الأصل وهل هناك اتصالات بالولايات المتحدة في هذا الصدد ، فكان رد لويد ، أنه ليس لديه أية معلومات بشأن هذه الأسلحة وكونها أمريكية الأصل وكل ما لدينا من معلومات ، أن هناك أسلحة حديثة في المنطقة لابد أنها قد أحضرت من خارج أراضي مسقط وعمان (٩٤) .

ولعل هذا التخوف من موقف الولايات المتحدة من جانب نواب حزب المحافظين كان مرده إلى موقف الولايات المتحدة إبان أزمة السويس حيث أننا نجد أن فريقاً من نواب المحافظين كان أشد عنفاً في لومه سياسة أمريكا أثناء هذه الأزمة ، واستطاع أن يجمع أكثر من مائة توقيع من النواب المحافظين على اقتراح باستهجان موقف الحكومة الأمريكية بازاء الحكومتين الإنجليزيتين والفرنسية باعتبارهما موقفاً يهدد إلى حد كبير حلف شمال الأطلسي (٩٥) .

خاتمة

اختلف موقف الولايات المتحدة الأمريكية تجاه العدوان البريطاني المسلح على ثورة عمان عام ١٩٥٧ م ، فبينما وقفت الصحافة الأمريكية في موقف الدفاع عن سياسة الولايات المتحدة ، ونفي تدخلها لمساعدة الثورة العمانية نجد صحف أخرى تتدد بهذا العدوان ، وربما استغلت الحكومة الأمريكية موقف صحافتها وآرائها لتحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية للضغط على البريطانيين للحصول على أكبر المكاسب الاقتصادية في منطقة الخليج وليس أدل على ذلك من زيادة الاستثمارات النفطية الأمريكية في تلك المنطقة حيث وصلت مساهمتها إلى أوجها عام ١٩٥٨ ، فبلغت نسبة ٥٦% في حين تراجعت بريطانيا إلى ٣٣% من نفط الخليج (٩٦) .

شهد موقف الحكومة الأمريكية تغيراً كبيراً حسب مصالحها السياسية في المنطقة وتبعاً لعلاقتها مع حليفها بريطانيا ، وكما يذكر البعض أن سياسة الولايات المتحدة لم تتفق مع سياسة بريطانيا في منطقة الشرق الأوسط إلا في إنشاء حزب بغداد ، وفيما حدث من أزمات عام ١٩٥٧ ، ومما ضاعف من اثر هذا الانسجام حرص الحكومتين على مصالحهما في بترول هذه المنطقة بالإضافة إلى حرص الولايات المتحدة على ان تقف موقفاً مغايراً لموقفها إبان أزمة السويس عام ١٩٥٦ ، هذا إلى جانب الهدف الاستراتيجي لكل منهما ، حيث كانت مقاومة الهدف الأكبر وهو الاتحاد السوفيتي من وجهة النظر الأمريكية وتيار القومية العربية المتصاعد آن ذاك من وجه النظر البريطانية ، ولذلك يري البعض أنه من أسباب فشل هذه الثورة العمانية التنسيق البريطاني - الأمريكي في منطقة الخليج (٩٧) .

كان موقف الولايات المتحدة في الأمم المتحدة سلبياً وغير مشجع في جميع الأوقات التي عرضت فيها قضية عمان ، وبخاصة أن عمان دولة مستقلة

ذات سيادة كما تقرر ذلك المعاهدات المعقودة بينهما وبين دول أخرى منها الولايات المتحدة الأمريكية ، وهي بهذه الصفة مسؤولة عن حفظ الأمن الداخلي في بلدها على الرغم من أن مبادئ القانون الدولي وأحكام ميثاق الأمم المتحدة تقرر عدم تدخل الدول في الشؤون الداخلية للدول الأخرى ، وحفظ الأمن الداخلي في كل دولة يرجع إلى السلطات الداخلية فيها ، وأحدث مثال في تلك الفترة استنكار الأمم المتحدة وموقف أمريكا المتشدد لتدخل قوات السوفيت في شؤون المجر الداخلية عندما وقعت الاضطرابات الداخلية فيها في أكتوبر ١٩٥٦م.

الهوامش

١. إبراهيم شريف : الشرق الأوسط ، وزارة الثقافة والأعلام ببغداد ١٩٦٥ ، ص ٥٢ .
٢. عزة النص : الوطن العربي ، دار اليقظة العربية بدمشق ١٩٥٩ ، ص ١٠٤ .
٣. جمال زكريا قاسم : تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، المجلد الرابع ، تطور الأوضاع السياسية والاقتصادية لأمارات الخليج العربي ووصولها الى الاستقلال ١٩٤٥-١٩٧١ ، دار الفكر العربي بالقاهرة ٢٠٠١ ، ص ٢٢٢ .
٤. صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ، الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢٧٦ .
٥. عبد المالك خلف التميمي : بعض قضايا الحركة الوطنية في الخليج العربي ، المستقبل العربي ، العدد (٣) ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ، لبنان ١٩٨٤ ، ص ٢٩ .
٦. حسين غياشي : عمان ، الديمقراطية الإسلامية ، تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث ١٥٠٠-١٩٧٠ ، نقلة إلى العربية د.أنطون حمص ، دار الفارابي ، بيروت لبنان ، الطبعة الثالث ١٩٩٩ ، ص ٣١٤ .
٧. صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .
٨. دار الوثائق القومية بالقاهرة : وزارة الخارجية ، الأرشيف السري الجديد محفظة ٦٥٠ ، بيان محمد الحارثي رئيس مكتب إمامة عمان بالقاهرة ، الذي ألقاه في اجتماع لجنة الشؤون السياسية بتاريخ ١٠/٨/١٩٥٧ .
٩. منذر البكر وآخرون : صور من المقاومة العربية للأطماع الأجنبية ، منشورات جامعة البصرة ١٩٧٣ ، ص ٣٦ .

١٠. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .
١١. أ.س.ج ، محفظة ٦٥٠ ، بيان محمد الحارثي
١٢. فتحي الديب : عبد الناصر وتحرير المشرق العربي ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ٢٠٠٠ ، ص ٢٣٧ .
١٣. المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .
١٤. أ.س.ج ، محفظة ١٥٩٢ ، ملف ٢/١٠٤/٣٧-ج٢ ، عمان .
١٥. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .
١٦. فتحي الديب : المرجع السابق ، ص ٢٣٨
١٧. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .
١٨. فتحي الديب : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .
19. F.o., 371-120, 869 , Annual Report on Territories In Persian Gulf , Mascat , 1956 .
٢٠. عبد المالك خلف التميمي : المرجع السابق ، ص ٢٩ .
٢١. صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .
٢٢. فتحي الديب : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .
٢٣. صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .
٢٤. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .
٢٥. خلدون حسن النقيب : المجتمع والدولة في الخليج العربي والجزيرة العربية ، من منظور مختلف ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ ، ص ٢٤ .
٢٦. فتحي الديب : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .
٢٧. أ.س.ج ، محفظة عمان رقم (١) ، ملف ٥ / ١٠٣٧/٤٩
٢٨. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤
٢٩. محمود على الداود : محاضرات عن التطور السياسي لقضية عمان ، معهد الدراسات

- العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ ، ص ٢٤ .
- ٣٠.أ.س.ج ، محفظة ٦٥٠ ، بيان محمد الحارثي .
- ٣١.جريدة الجمهورية (القاهرة) ، العدد ١٧٧١ ، ١٧/١٠/١٩٥٨ .
- ٣٢.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .
- ٣٣.الجمهورية ، العدد ١٨٠١ ، ٢٥/١١/١٩٥٨ .
- ٣٤.أ.س.ج ، محفظة عمان (١) ، ملف ٤٠٩ / ١٠٣٧ / ٥ .
- ٣٥.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .
- ٣٦.حسين غباشي : المرجع السابق ، ص ٣١٥ .
- ٣٧.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ٢٣٧ .
- ٣٨.خلدون حسن النقيب : المرجع السابق ، ١٤٠ .
39. F.o., 371-188 ,76 ,From Washington To Foreign office ,July, 23,1957 .
40. F.o. ,371-120,575, letter dated , March, 2, 1956
- ٤١.حسين غباشي : المرجع السابق ، ٣٢٤
- ٤٢.مذكرات ايزنهاور : ترجمة هيويرت يونغمان ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٦٩ ، ص ٩٣ - ٩٤ .
- ٤٣.أ.س.ج ، محفظة ٦٥٠ ، ملف ١٤٠/١٤٠ / ٣ ج٢ ، قضية إمامة عمان كما تصورها الصحافة الأمريكية ، ١٢ / ٨ / ١٩٥٧ .
- ٤٤.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .
- ٤٥.حسين غباشي : المرجع السابق ، ص ٢٦٥ .
- ٤٦.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٦٥ .
- ٤٧.أ.س.ج ، محفظة ١٥٩٢ ، ملف ٣٧ / ١٠٤ / ٢ ج٢ .
- ٤٨.استيفين أميروز : الارتقاء إلى العالمية ، السياسة الخارجية الأمريكية منذ عام ١٩٣٨ ،

- ترجمة نادية الحسيني ، المكتبة الأكاديمية ١٩٩٤ ، ص ٨٠ .
- ٤٩.أ.س.ج ، محفظة ٦٥٠ ، ملف ١٤٠ / ١٤٠ / م جـ٢ ، قضية عمان كما تصورها الصحافة الأمريكية .
٥٠. المصدر السابق
٥١. المصدر السابق
٥٢. المصدر السابق
٥٣. المصدر السابق
٥٤. المصدر السابق
٥٥. المصدر السابق
٥٦. المصدر السابق
٥٧. نقلا عن حسين غباشي : المرجع السابق ، ص ٣١٦ .
٥٨. فتحي الديب : المرجع السابق ، ص ٢٥٣ .
٥٩. حسين غباشي : المرجع السابق ، ص ٣٢١ .
٦٠. مذكرات ايزنهاور : المرجع السابق ، ص ٩٣ .
٦١. محمود علي الداود : المرجع السابق ، ص ٤٧ .
٦٢. حسين غباشي : المرجع السابق ، ص ٣٢١ .
٦٣. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ٢٤٠ .
٦٤. مني سحيم حمد آل ثاني : السياسة الأمريكية فى منطقة الخليج العربي ١٩٤٥ - ١٩٧٣ ، منشورات المركز الأكاديمي للدراسات الاستراتيجية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ ، ص ١٣٩ .
٦٥. ممدوح محمود مصطفى منصور : الصراع الأمريكي - السوفيتي فى الشرق الأوسط ، مكتبة مديبولي القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٢٩ .
٦٦. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .
٦٧. واي بوجوش وآخرون : السياسة الخارجية السوفيتية بين عامي ١٩٤٥ - ١٩٦٥ ،

- تعريب وتعليق خيرى حماد . الكتاب العربى للطبعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٨ . ص ١٢٤
- ٦٨.ك.م . دور هاوس . السياسة الخارجية البريطانية بعد الحرب العالمية الثانية ، ترجمة حسين قباني . الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢١٤ .
- ٦٩.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ص ٢٦١ - ٢٦٢ .
- ٧٠.منى سحيم : المرجع السابق ، ص ١٩٧ .
- ٧١.محمد حسنين هيكل : حرب الخليج أوام القوة والنصر ، مركز الأهرام بالقاهرة ١٩٩٢ ، ص ٥٨ .
- ٧٢.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .
- ٧٣.توفيق على منصور : بريطانيا والعرب شرق السويس ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٧٧ .
- ٧٤.ك .م . دور هاوس : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ وما بعدها .
- ٧٥.منى سحيم : المرجع السابق ، ص ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .
- ٧٦.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .
- ٧٧.واي بوجوش وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤٣ .
- ٧٨.حافظ برجاس : الصراع الدولى على النفط العربى ، بيان للنشر والتوزيع لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ ، ص ٢٢٩ .
79. Richard, H.,Nolte, United states policy and The Middle East , in Gerorgiana Stevens (ed) The United states and the middle East , new york , 1964, pp .156-157
- ٨٠.حافظ برجاس : المرجع السابق ، ص ص ٢٣١ - ٢٣٢ .
- ٨١.واي بوجوش وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .
- ٨٢.خلدون حسن النقيب : المرجع السابق ، ص ٤٠ .
- ٨٣.محمود على الداود : المرجع السابق ، ص ٤٧ .
- ٨٤.أ.س.ج ، محفظة ٦٥٠ ، تقرير عن قضية عمان كما تصورها الصحافة السوفيتية .
- ٨٥.أ.س.ج محفظة عمان (١) ، ملف ٤٠٩ / ١٠٣٧ / ٥ ، بشأن موقف روسيا من شعب عمان بتاريخ ١٩٥٧/٩/٥ .

86. U.s.a , in Telligence Report ,no 7558 ,The oman conflict ,august , 8, 1957 .

٨٧. أ.س.ج ، محفظة ٦٥٠ ، العدوان البريطاني على ثورة عمان كما تصورها الصحافة الفرنسية بتاريخ ١٩٥٧/٨/٦ .

٨٨. المصدر السابق

٨٩. المصدر السابق .

٩٠. تولى حزب المحافظين الحكم بعد عام ١٩٥١ ، واستمر حتى العدوان البريطاني على عمان ، أنظر ك .م . دورهاوس : المرجع السابق ، ص ص ٣٢٣ - ٣٢٦ .

٩١. ك .م . دورهاوس : المرجع السابق ، ص ٣٢٧

٩٢. نفسه ، ص ٣٣٨ .

٩٣. أ.س.ج ، محفظة ٦٥٠ ، مناقشة مجلس العموم البريطاني للأحداث الأخيرة في عمان ، ١٩٥٧/٨/٥ .

٩٤. المصدر السابق .

٩٥. ك .م . دورهاوس : المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

٩٦. محمد على عمر الفرا : العلاقات الاقتصادية بين فرنسا ودول الخليج العربي ، بحث منشور بمجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ، السنة الثانية ، العدد السابع يوليو ١٩٧٩ ، ص ١١٤ .

٩٧. عبد المالك خلف التميمي : المرجع السابق ، ص ص ٢٨ - ٢٩ .

الفصل العاشر

رواد التحرر الوطني المصري الحديث

في المنظور الشعبي

"دراسة في الإحصاء التاريخي"

محمد رفعت عبد العزيز^(*)

في بداية التسعينيات أصدر أستاذنا الدكتور عبد العظيم رمضان كتاباً بعنوان " تاريخ مصر والمزورون " ، بما يعني- من وجهة نظره - وقوع أكثر من حالة تزوير كان معنياً بكشفها . نحن إذن أمام حالة تعقدت حينما اعترف هو نفسه أن أحد كتاب اليوميات - بجريدة الأخبار - وصفه بأنه "مؤرخ ملاكي معروف بهذيانه"^(١)، إذ معنى هذا أن الكاتب المشار إليه يتهم الدكتور عبد العظيم رمضان بما هو أكثر من الهذيان ، إنه يتهمه بالتزوير ، وإلّا فما معنى كلمة ملاكي؟.

وتتأكد الحالة حين يصدر صلاح الشاهد كتابه " ذكرياتي في عهدين " ويهديه ؛ إلى هؤلاء المؤرخين أو الكاتبين الذين جعلوا من عمالقة مصر أقزماً... وإلى هؤلاء الكتبة الذين صنعوا من الأقزام عمالقة .."^(٢).

نحن - إذن - أمام إشكالية اكتتفت تاريخنا من قديم ؛ أن يطمس اللاحق تاريخ السابق ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، بيده أو بيد غيره . هذه العادة تعمقت في تاريخنا حتى برزت في حفر غائر أيام الرعامسة ، أحد تفسيراته تفادي الطمس أو التثويه.

وحول تاريخنا الحديث ، ومنذ وقت مبكر من قراءتي له ، شذني موقفان بطلهما أحمد عرابي بعد عودته من المنفى^(٣)؛ في الموقف الأول كان عرابي يهم بالخروج من الجامع الأزهر فإذا بشباب من الحزب الوطني يتهمونه بالخيانة بل ويبصقون عليه. والموقف الثاني مماثل للموقف الأول ، وإن كان هذه المرة في أحد المقاهي، حيث جلس الزعيم الكبير يريح قدميه من عناء

(*) أستاذ التاريخ والمعاصر المساعد، كلية التربية، جامعة عين شمس.

المسير ، وكان البصق أيضا بعد الاتهام بالخيانة..

انسابت وقتها عبراتي ، وأنا أتخيل عبرات الرجل تتخلل ذقنه المشيب
لتحرق قلبه .. تخيلته يتوارى خجلاً وهو الأجدر بالفخر بعد أن اتهموه بالخيانة
وهو من أوائل من حملوا راية الحرية .. تذكرت وقتها ماركوس أورليوس "
١٦١-١٨٠ " .. ذلك الإمبراطور الروماني الذي بدا أنه على وشك تحقيق حلم
أفلاطون الكبير في فيلسوف حاكم أو حاكم فيلسوف ، وهو يحتضر ويؤزم رداءه
حوله ويقول : " إني أغادر حياة يتمنى ارتحالي عنها قومي أنفسهم ، أولئك
الذين من أجلهم كدحت وصليت ودبرت .. فقيم السعي إذن لإطالة العمر ؟ " .

والأدهي أن يشترك في هذه الجهالة رواد الحركة الوطنية المصرية أنفسهم ،
ولن نبتعد عن عرابي كثيراً ، فقد هاجمته جريدة اللواء عند عودته من المنفى ،
واتهمه مصطفى كامل بالجبن والضعف والتعمد في إدخال الاحتلال^(٤) .
واستمرت جريدة اللواء في حملتها على عرابي ، فنشرت القصائد الطويلة رداً
على من يمدحونه ، حتى لقد وصفها عرابي في مخطوطه " كشف الستار عن
سر الأسرار " بأنها من الجرائد المأجورة^(٥) . أيضاً تعرض عرابي لنقد أمير
الشعراء أحمد شوقي في قصيدة مطلعها :

صغار في الذهاب وفي الإياب أهذا كل شأنك يا عرابي -

ويرد عرابي - في مخطوطه - على أمير الشعراء :

نفاق في الحضور وفي الغياب وهذا شأن أبناء الكلاب

عفت أفكار مثلك يا جهول ويعفو الله عن وطن مصاب^(٦)

وإذا كان مصطفى كامل قد جرّح في كفاح أحمد عرابي وفي فكر قاسم
أمين^(٧) . فإنه لم يسلم - هو الآخر - من نقد ، أنظره وهو يشكو .. " فالذين
يقصدونني ويوافقون على أعمالي ، إنما يقولون بذلك في مجالسهم الخاصة ،
وربما خافوا المجاهرة به في المجالس العامة ، والذين يعترضون على ويطنعون
في ، يقولون ذلك جهاراً ، فهم لم يتركوا لفظاً من ألفاظ التباحة والسفاهة إلا
ذكروه ، ولم يفوتوا صفة من صفات النقائص إلا نسبوها لشخصي . كل ذلك
ولا مدافع عني . فكأنني بقومي وهم ساخطون على ناقمون مني!"^(٨) . لكن الغريب
أن يأتي نقد مصطفى كامل من رفيق كفاحه^(٩) . محمد فريد الذي قال: " مصطفى
كامل رحمه الله كان يخفي على ما كان يختص بالمساعدات المالية التي كان

يأخذها سواء من الخديو أو من السلطان عبد الحميد" (١٠).

أيضا فقد طعن محمد فريد في الإمامين الأستاذين محمد عبده ورشيد رضا. ورغم أنه ترفق بزعيم الأمة سعد زغول إلا أنه اعتبره انتهازيا ، ولكنه عبر عن هذا المعنى بقوله أنه " من الناس الذين يسرون مع الحوادث " ، ولكنه أضاف الكلمة الإنجليزية التي تترجم إلى انتهازي "Opportunist" ، وعاد بعد ذلك ليصف سعد زغول بأنه " يريد الوصول إلى الوزارة على أكتاف رجال الحزب الوطني" (١١).

ومن ناحيته ، فقد جرح سعد زغول في كفاح مصطفى كامل ، وزاد - وفقاً لما ورد في مذكراته (الكراسة السابعة ص ٣٤٤) - بأنه نصاب ! وكان رأي قاسم أمين ، صديق سعد زغول ، في مصطفى كامل أنه " نصاب خداع ، ومناق كذاب" (١٢) ، لذا لا نستغرب ألا يسلم سعد زغول من لسان خصومه ، فيصفه الكثيرون بالطاغية (١٣) ، ويزيد البعض باتهامه بالخيانة (١٤).

وحين اتهم مصطفى النحاس - في يونيو ١٩٣٦ - جمعية مصر الفتاة بأنها تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة البلاد فقد وجد من يتهمه بالطغيان من بين خصومه (١٥). وبالسلبية من بين أنصاره ، فقد عبر محمد التابعي عن الموقف الأخير بقوله : " يحز في نفوسنا - نحن الوفديين - أن زعيمنا حاكم ضعيف وأنه وضع الدستور عن يمينه ، والقانون عن يساره وعمامة ابن حنبل فوق رأسه ؟ ، ثم أقسم على المصحف ليحترم أحكام الدستور والقانون ولو شفقوه. قيد مصطفى النحاس باشا نفسه بنفسه ، واختار أن يكون حاكماً ضعيفاً ، في وقت كان يحل فيه شيء من الاستبداد. والعاجز من لا يستبد.

مصطفى النحاس الدكتاتور الطاغية - كما يصفه المعارضون - كل عيبه عندنا ، نحن أنصاره أنه لا طاغية ولا دكتاتور ولا يحزنون ، كل عيبه أنه وهو يستند إلى أغلبية قل أن يفوز بها زعيم من قبله ، قد اختار أن يترك أقلية قل أن يوجد مثلها في هزالها وضعفها تتحكم فيه ، لو شاء ليستطيع أن يبسط بها ، ويمسحها من اللوح ويذرو ترابها للريح.

وما أفلح حاكم ، ولن يفلح حاكم يختار لنفسه هذه الطريق الضيقة .. ليت مصطفى النحاس أذنى شيئاً من بطش صدقي أو " عنطرة " محمد محمود ، ليته كان طاغية بحق وحقيق ، إذن لاسترحنا ولاستراح الدستور والقانون ، واستقرت الأمور وانتظم الحكم ومشت أسباب الإصلاح في هذا البلد.

صحفي منا كان يحك قصبة أنفه لحر دستوري لا في العير ولا في النفير فكانت وزارة الداخلية تقوم على قدم واحدة ولا تقعد ، وكانت إدارة الأمر العام تقوم على قدم واحدة ولا تقعد ، حتى تتعطل الصحيفة وتصادر أعدادها ويزج الصحفي في السجن تحت إذن المحقق بضعة أيام^(١٦).

وبصرف النظر عن هذه الدعوة الصريحة إلى "استبداد وفدي" يحرض عليه مفكرو الحزب ، ويشكو منه خصومه ، فإن خروج بعض أعضاء حزب الوفد من الحزب وانقلابهم عليه - بما مثل ظاهرة عبر عنها السبعس " بانفصال الوفد عن الوفد "^(١٧) - إنما كان يعني تشويهاً من صحافة الحزب لتاريخ المنقلابين ، أو من صحافة المنقلابين لتاريخ الوفد، بما يعني في النهاية تشويهاً للتاريخ المصري الحديث. لذلك لا نستعجب حينما يلخص عبد الناصر رأيه في السياسيين القدامى ويقول : " ذهبنا نلتمس الرأي من ذوي الرأي ، والخبرة من أصحابها ، ومن سوء الحظ لم نعثر على شيء كثير. كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا قتل رجل آخر، وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا هدم فكرة أخرى. ولو أن أحداً سألتني في تلك الأيام ما هي أعز أمانيك لقلت له على الفور أن أسمع مصرياً يقول كلمة إنصاف في حق مصري آخر .. أن أحس أن مصرياً قد فتح قلبه للصفح والغفران ولحب إخوانه المصريين.

كانت كلمة " أنا " على كل لسان .. كانت هي الحل لكل مشكلة ، وهي الدواء لكل داء ، وكثيراً ما كنت أقابل كبراء - أو هكذا تسميهم الصحف - من كل الألوان والاتجاهات ، وكنت أسأل الواحد منهم في مشكلة التمس عنده حلها ، لم أكن أسمع إلا " أنا "^(١٨).

ولعل شهادة خالد محي الدين بالنسبة لمسائل ثلاث تطوع هو نفسه للشهادة فيها، لأنها أثارت جدلاً كثيراً عند كل من سجل شهادته حول ثورة يوليو تبيين أن دور قادة ثورة يوليو قد تعرض لتشويه كبير.... " والمسائل الثلاث هي:

الأولى: واقعة أن أنور السادات أتى من رفح متأخراً ثم ذهب للسيما وهناك تشاجر مع أحد الأفراد ، وذهب إلى قسم البوليس وعمل محضراً بالخناقة ، وعاد إلى البيت في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ليجد ورقة من عبد الناصر تبلغه بضرورة الحضور .. فقد بدأت الحركة. ويحاول السبعس إلقاء بعض الظلال والشكوك على دور السادات في الحركة ، وقال السبعس إن السادات أراد أن يثبت بمحضر بوليس أنه لا علاقة له بالحركة ..^(١٩).

وتحليلات أخرى كثيرة.

وفي البداية أقرر أن أنور السادات كان على علاقة بيوسف رشاد رجل الملك المخلص .. لكن أنور السادات لم يفش سرنا له ، ولو فعل ذلك لكان مصيرنا جميعاً هو الإعدام ، فقد كان السادات يعرف كل أعضاء " لجنة القيادة " ولو أبلغ عنا لكان وجه مصر قد تغير تماماً ، لكنه لم يفعل. أما أنه قد حرص على تسجيل واقعة مشاجرته في محضر للبوليس ، فلعل هذا مرتبط بخبرة سابقة للسادات ؛ فقد حوكم أكثر من مرة ، وفصل من الجيش ، ولعله أراد تحصين موقفه بعض الشيء إن فشلت الحركة ، ولا بأس في ذلك ، خاصة وأنه فعلاً لم يتخلف كثيراً ، وأسرع ليسهم مع الآخرين فيما يفعلون ، ثم تلا بيان الحركة في الإذاعة.

والمسألة الثانية : هي أن جمال وعبد الحكيم كانا وحتى لحظة القبض عليهما بواسطة قوات يوسف صديق يرتديان الملابس المدنية ، ويحاول البعض أن يستنتج من هذا أنهما كانا يريدان التخلص من المسؤولية في حالة فشل الحركة والقبض عليهما.

وردي على ذلك .. أنه بالنسبة لأي من أعضاء " لجنة القيادة " لم يكن هناك أي مجال للتخلص من المسؤولية في حالة الفشل ، وخاصة بالنسبة لشخص كجمال عبد الناصر الذي تورط أمام أعداد كبيرة من الضباط بصفته المسئول الأول عن الحركة ، أما ارتداء الملابس المدنية فيمكن فهمه وفهم مبرراته ، فبعد الناصر وعامر لم يكن لديهما قوات ليتحركا بها ، ورغبة كل منهما في التحرك بحرية ولضمان الاتصال بأية قوات ، وإبلاغها بضرورة مهاجمة مبنى قيادة الجيش فقد كان من الطبيعي أن يرتديا ملابس مدنية ، فالتحرك بملابس عسكرية كان مستحيلاً في ليلة كهذه ، خاصة وأنهما يعلمان جيداً أننا أصدرنا تعليمات بمنع تحرك الضباط من رتبة بكباشي فما فوق.

أما المسألة الثالثة: التي يستشعر ضميري ضرورة أن أدلي بشهادتي فيها فهي دور محمد نجيب ، وقد حاول البعض أن يقلل من دور محمد نجيب ، وأن يدعي أنه ظل في بيته حتى انتصرت الحركة فأتى لينتزعها ، والحقيقة غير ذلك. لقد رغب نجيب في أن يشاركنا التحرك منذ اللحظة الأولى ، وعندما علم أننا وضعنا خطة التحرك طالب بالمشاركة في تنفيذها ، لكننا كنا نريد أن نبعده عن أي مشاركة فعلية عن عمد لنضمن سلامته حتى يمكنه في لحظة انتصارنا

أن يتولى القيادة.

هو إذن كان يريد ويصمم أن يشاركنا المسؤولية والمخاطرة ولم يبخل بشيء ، لكننا وعن عمد قررنا أن ندخره بعيداً عن المخاطرة ، وكنا على حق في ذلك ، ثم إنه كان الوجه الذي قدم للعالم وللشعب المصري كقائد للحركة العسكرية التي استولت على الحكم في البلاد ، وتحمل المسؤولية العسكرية والسياسية أمام الجميع، وأي تراجع أو نكسة ليوليو في أيامها الأولى أو ساعاتها الأولى كان سيضع على عاتق نجيب المسؤولية الأولى التي لا مجال للتخلص منها ، خاصة وأن صحف يوم ٢٤ يوليو قد صدرت بعناوين كبيرة تقول : محمد نجيب يقوم بحركة عسكرية^(٢٠).

عموماً ، وفي نهاية القرن صار المشهد السياسي والثقافي مسمماً بأضعاف ما كان عليه في بداية القرن ، وصار الاتهام بالخيانة يسري في المجتمع بسهولة شديدة كالتي روى بها محمود أمين العالم ذكرياته لسليمان الحكيم ، الذي نقل عنه في قصة خلافه مع السادات أنه عندما اعتقل في العام ١٩٧١ كانت التهمة الموجهة لي هي الخيانة العظمى ، وفي الدفاع عن نفسي اتهمت السادات بالخيانة العظمى لأفكار ومبادئ الثورة .. وبدلاً من أن أكون متهماً حولت السادات إلى متهم^(٢١).

إنها حالة غير عادية من تزوير أو تشويه تاريخ مصر !.

ولخطورة الأمر ، يقسم الدكتور عبد العظيم رمضان الذين يزورون تاريخ مصر إلى ثلاث فئات : فئة تزوره عمداً ؛ لأن لهم مصلحة في تزويره^(٢٢) ، وفئة تزوره جهلاً ؛ لأن معلوماتهم التاريخية قاصرة عن كتابة التاريخ الصحيح ، أما الفئة الثالثة ، فهي فئة الذين اشتركوا في صنع الأحداث ، ويقدمون رؤيتهم للحدث التاريخي ، دون أن يحيطوا بكل الرؤى الأخرى الغائبة عنهم ، والتي يعرفها المؤرخ في تحقيقه للحدث التاريخي^(٢٣).

ونحن نرى أن هذا التقسيم لا يغطي كل حالات تشويه تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، وذلك:

١- لأنه ليس تقسيماً جامعاً مانعاً ، فعلى سبيل المثال لا تنطبق عليه التشوهات التي سببها بعض رواد التحرر الوطني فيما سقناه في المقدمة ، فلم يكن تقييمهم السالب - أو تجريحهم - لكفاح من سبقهم عن جهل أو قصر نظر ، وما كان تعمدهم هذا النقد الجارح إلا اختلافاً في الشكل دون الجوهر ، وفي الأسلوب

دون الهدف ؛ حرية الوطن.

ونمثل بموقف مصطفى كامل وكرد فعل عكسي لهزيمة العربيين ، فقد برزت في كفاحه سمتان ؛ أولاها ألا يستعمل الجيش مطلقاً في حركته ، بل يجعل اعتماده على الرأي العام الذي يمكن تمييزه بالتربية الوطنية والأخلاقية للشعب ، حتى يتكون منه قوة تكون ركيزة للحركة الوطنية . وفي هذا الصدد يقول : " .. من الحكمة ألا نمكن العدو من رقابنا ، .. وإني أود ألا يدخل الضباط في حركتنا السياسية دخولا ظاهراً ، لأن هذا يضر بالمسألة المصرية ضرراً بليغاً ، حيث يجد الاحتلال مسوغاً لخلق التهم الثورية بمصر ، وغير ذلك مما لا يخفى عليكم ."

أما الثانية فهي عدم معاداة الخديو حتى لا تنقسم الأمة ، كما حدث بين العربيين والخديو توفيق ، ويضطر الخديو لكي ينقذ عرشه للانضمام للقوى الأجنبية ضد الوطنيين ، فتفسد حركة الدعوة إلى الاستقلال ويستفيد الإنجليز من ذلك ويحققوا أغراضهم الاستعمارية باستمرار احتلالهم للبلاد^(٢٤).

٢- يغفل التقسيم - أيضاً - التشويه غير المباشر الناشئ عن ضغوط خارجية ، وعلى سبيل المثال يرجع محمد حسنين هيكل الحملات المستعرة ضد جمال عبد الناصر إلى مخططات قوى السيطرة العالمية بشكل عام ، وإلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بشكل خاص ، وهو يؤكد أن ذلك لم يكن تخميناً ولا رجماً بالغيب ، وإنما كان استناداً إلى حقائق معروفة أكدتها ملفات هذه الوكالة التي كانت مفتوحة لمن يقرأ ويفهم ويستوعب ، وكان ذلك بفضل لجنة التحقيق الخاصة التي أشرف عليها السناتور تشرش عضو مجلس الشيوخ الأمريكي ، وقد شكلت لبحث تجاوزات هذه الوكالة وجرائمها التي كان الزعيم الهندي جواهر لال نهرو يشير إليها دائماً بقوله " إنها القوة الشريرة الملعونة في زماننا المعاصر " . ولم تكن الملفات قد فتحت بعد ، ولم يكن قد ثبت يقيناً أن هذه الوكالة كانت حرباً لا هوادة فيها ضد زعماء الثورة الوطنية المعادية للاستعمار وقيادات التقدم في العالم الثالث عموماً : بعضهم حاولت اغتياله مادياً وبعضهم حاولت اغتياله معنوياً ، ونجحت في مرات ولم تنجح في مرات أخرى :

● حاولت هذه الوكالة ونجحت في الاغتيال المادي - بالقتل - بالنسبة "للليندي" في "شيلي" و"لومومبا" في "الكونجو" وحاولت هذه الوكالة ولم تنجح في الاغتيال المادي - بالقتل - بالنسبة "لكاسترو" في "كوبا" و"مكاروس" في "قبرص".

● وحاولت هذه الوكالة ونجحت في الاغتيال المعنوي - بالتشويه - بالنسبة لـ "سوكارنو" في "أندونيسيا" و"تروما" في "غانا"، وحاولت هذه الوكالة ولم تنجح في الاغتيال المعنوي - بالتشويه - بالنسبة لـ "شوين لاي" في "الصين" و"أنديرا غاندي" في "الهند".

وفيما يتعلق بعبد الناصر ، يذكر هيكل أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية حاولت ثلاث مرات في أواخر الخمسينيات اغتيال جمال عبد الناصر. وقد رتبت المخابرات الأمريكية فعلاً ثلاث فرق للاغتيال تقوم بهذه المهمة ، ولكنها لم تنجح ، فقد قبض على إحداها ، وعجزت الأخرى عن تنفيذ المهمة ، كما أن الثالثة وهي مكونة من عرب في خدمة المخابرات الأمريكية لم تبلغ عما حدث لها بعد أن وصلت فعلاً إلى مصر^(٢٥).

وطبقاً لتحقيقات اللجنة المذكورة - يضيف هيكل - يتحدث التقرير في جزء منه عن الأساليب التي اتخذتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في مجال توجيه الرأي العام في العالم منذ بدلت نشاطها أثناء الحرب العالمية الثانية تحت اسم " وكالة الخدمات الخاصة " ، ثم تحولت بعد ذلك بقانون أصدره الرئيس الأسبق " هارى ترومان " إلى " وكالة المخابرات المركزية الأمريكية " .

ويرسم التقرير صورة عجيبة لنواحي النشاط التي لجأت إليها المخابرات المركزية الأمريكية في مجالات الصحافة والنشر والإعلام بصفة عامة لكي تضمن تحقيق أغراضها :

● من ذلك مثلاً أن الوكالة أنشأت من وراء الستار دوراً صحفية في عديد من بلدان العالم الثالث ، وكان تمويل هذه الدور كله من مصادر الوكالة ، كما أن هناك دوراً أخرى ساعدت الوكالة على إنشائها ولم تطلب من أصحابها شيئاً محدداً بالذات ، ولكن مجرد ربط مصالحهم بالوكالة حقق " تكيف" اتجاهاتهم مع أغراض هذه الوكالة ، على حد تعبير نص التقرير .

● وأنشأت الوكالة أو ساعدت على إنشاء وكالات أبناء وصور نشطت وراء جمع الأخبار والصور بطريقة عادية ، ولكنها التوت قليلاً بالنشر بما يكفل إعطاء انطباعات معينة تريدها الوكالة ، أو تلاعبت بنقط التركيز فيما تنشره وتوزعه لكي تؤكد هذه الانطباعات .

● وأنشأت الوكالة قسماً خاصاً لتزييف الكتب ، ويشير التقرير إلى أن الكتاب الذي روجت له الدعايات تحت عنوان " أوراق نيكوفسكي " والذي قيل في ذلك

الوقت إنه اعترافات جاسوس للاتحاد السوفيتي يكشف فيها أسرار ودخائل النظام السوفيتي ، إنما هو في واقع الأمر من صنع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وتأليفها.

● ثم أنشأت الوكالة قسماً للتشويه الإخباري Misinformation كانت مهمته صنع قصص إخبارية تخترع بالتلفيق (!) حكايات يكون من شأن إذاعتها تشويه حقائق معينة أو تشويه سمعة أشخاص بعينهم يتصدون للسياسة الأمريكية أو يعارضون مقاصدها^(٢٦).

١- هناك ما أغفله التقسيم ، وما أشار إليه الدكتور وحيد رأفت - القانوني المعروف - كسبب لتشويه تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، وتشويه رواده ، وهو النفاق ، أو ركوب الموجة ، أو الأكل على كل الموائد. وهي حالة إنسانية تزداد بالقرب من ذوي السلطة ، لذا فبعد الحملة المسعورة على جمال عبد الناصر ، ليصل الأمر إلى نمته المالية ، أكد محمد حسنين هيكل - دفاعاً عن عبد الناصر ضد الحملة المعروفة المصدر والاتجاه - على تأكيد السادات أنه كان مشتركاً مع جمال عبد الناصر في "رسم كل سياسة واتخاذ كل قرار"، واعتبر السادات مسئولاً بالممارسة ، أو كان مسئولاً بالصمت. كما أشار إلى أن الأمور تطورت بعد ذلك كثيراً ، وتجاوزت هذا الحد الذي بداله سنة ١٩٧٥^(٢٧). ونحن نرى أن ما لم يتم في هذه الحملة المسعورة عن طريق التوجيه ، إنما تم بطريق النفاق.

٢- هناك -خارج تقسيم الدكتور عبد العظيم رمضان- البحث عن دور أو ادعاء البطولة ، وهي حالة أشار إليها هيكل فيما يتعلق بجمال عبد الناصر؛ فالروايات كثيرة ، بعض أصحابها يبحث لنفسه عن تاريخ في الماضي ، وبعضهم يبحث عن دور في الحاضر. ويضيف : " ثم إن الروايات كلها قادمة من النسيان ، وإلى النسيان تذهب. الاختلاق واضح في كثير منها ، حتى أن بعض الذين قابلوا جمال عبد الناصر لدقائق ينسبون إليه - بخيالهم - أحاديث تستغرق أياماً بعد أيام. والروايات معظمها مختلط متضارب. بل أكثر من ذلك، فلو صدق الناس كل ما يروى لكان تصديقهم شهادة لجمال عبد الناصر وليس شهادة عليه. فإذا كانت كل هذه الروايات تمثل " عقول " هؤلاء جميعاً ، إذن فلقد كان الرجل فعلاً معجزة زمانه . إذ كيف تسنى له أن يحقق كل ما حقق ومثل هؤلاء جميعاً من حوله؟! "^(٢٨).

ومن جانبنا نضرب مثلاً على إدعاء البطولة بالكتاب الذي أصدره كل من اللواء مصطفى عبد المجيد نصير ، واللواء عبد الحميد كفاي ، واللواء سعد عبد الحفيظ ، والسفير جمال منصور ، والذي قدم له الدكتور عبد العظيم رمضان بقوله : " يعد هذا الكتاب من أخطر الوثائق التي صدرت عن ثورة يوليو ، وهو كليل بتغيير الصورة التي رسمت لهذه الثورة ولصناعها ولأحداثها التي رسخت في أذهان الشعب المصري ووصلت إلى مرتبة الحقائق الثابتة ". وقوله : " ولم أتدخل في الوثيقة بأي شكل من الأشكال ، بل تركتها كما كتبها أصحابها حفاظاً على الحيادة التاريخية ، ولأدع للقارئ الكريم حرية الحكم ، مع اقتناعي الشخصي بكل ما ورد في الوثيقة"^(٢٩).

وأهم الحقائق التي ساقها الكتاب - من وجهة نظر أصحابه ومقدمه - عن ثورة يوليو هي :

أولاً : أن اللجنة التأسيسية لتنظيم ضباط الجيش المكونة من : عبد الحميد كفاي ، ومصطفى نصير ، وجمال منصور ، وسعد عبد الحفيظ (من سلاح الفرسان) هي التي قامت منذ عام ١٩٤٥ ببناء القاعدة الثورية في الجيش .

ثانياً : أن " اللجنة التأسيسية لتنظيم الجيش " هي التي أطلقت اسم " الضباط الأحرار " على الحركة الثورية في الجيش وذلك في أكتوبر ١٩٥٠ ، حينما انضمت مع مجموعة جمال عبد الناصر وخالد محي الدين .

ثالثاً : أن مجموعة جمال عبد الناصر وخالد محي الدين ، لم يكن لها رصيد سابق في العمل الثوري المنظم حتى نهاية عام ١٩٤٩ ، وأن هذه المجموعة حينما اندمجت مع مجموعتنا (اللجنة التأسيسية لتنظيم ضباط الجيش) في عام ١٩٥٠ استندت إلى القاعدة الثورية التي بنتها مجموعتنا منذ عام ١٩٤٥ .

رابعاً : أخفت مجموعة عبد الناصر وخالد محي الدين عن مجموعة الفرسان (نصير ، وكفاي ، وجمال منصور ، وسعد عبد الحفيظ) موعد قيام الثورة ، وكان ذلك بنية مبيتة مع سبق الإصرار .

ونحن ندفع " الحقيقة " التي ذكرها جمال منصور ورفاقه بحقيقة أخرى ، أو ندفع ادعاءهم بادعاء آخر . يذكر أنور السادات أنه " أسس أول تنظيم سري من الضباط وكان ذلك في ١٩٣٩ .. كان ضمن أعضائه عبد المنعم عبد الرؤوف وكان يعتبر الرجل الثاني بعدي .. وعبد اللطيف بغدادي وحسن إبراهيم وخالد محي الدين وأحمد سعودي حسين الله يرحمه .. وحسن عزت والمشير أحمد

إسماعيل .. الذي كان يحضر اجتماعاتنا دون مشاركة سياسية فقد كان يرحمه الله رجل عسكرية كرس حياته لعمله وتخصصه.

لم ألجأ إلى الخلايا السرية للدفع بهذه الثورة المسلحة لبلوغ أهدافها كما فعل عبد الناصر بعد عودته من السودان في ديسمبر سنة ١٩٤٢ وتسلمه التنظيم في أوائل سنة ١٩٤٣ بعد اعتقاله في صيف ١٩٤٢ ففي تلك السنة كان خط هتلر قد بدأ في الانكسار وبالتالي استعاد الإنجليز قوتهم في مصر ، فكان على عبد الناصر أن يخطط للمستقبل^(٣٠).

أيضا - وفي مكان آخر - يقول أنور السادات: " وصدرت النشرة العسكرية بعودتي إلى القوات المسلحة اعتباراً من ١٥ يناير ١٩٥٠ برتبة يوزباشي - وهي الرتبة التي خرجت بها- وكان زملائي في الجيش قد سبقوني في ذلك الوقت برتبتين .. رتبة صاغ ورتبة بكباشي.

كان أول من زارني مهنتاً جمال عبد الناصر ومعه عبد الحكيم عامر .. علمت من عبد الناصر أن تنظيم الضباط الأحرار قد أصبح أوسع انتشاراً ، وأن قوته ، تشتد يوماً بعد يوم .. وكأنما أراد أن يثبت لي مدى قوة التنظيم أو أن يختبر هذه القوة ، طلب مني أن أتقدم لامتحانات الترقية بحيث أستعيد ما فقدت من رتب وأنا خارج الجيش ، وأن لا أهتم بالصعاب التي سوف تواجهني .. فمهما كان شأنها سيذللها التنظيم ويتخطاها .. وفعلاً تم هذا .. وحصلت على رتبة بكباشي في وقت قصير .. طلب مني عبد الناصر أن لا أقوم بأي نشاط سياسي واضح .. لأنني بسبب تاريخي النضالي لا بد أن أكون بطبيعة الحال مراقباً، ولو أن هذا لم يمنع جمال من أن يكشف لي عن خريطة الضباط الأحرار في وحدات الجيش المختلفة، فكنت أزورهم وأتبادل الحديث معهم ولكنها كانت جميعاً أحاديث ودية لا علاقة لها بالسياسة .. فلم يكن من المفروض في التنظيم أن أكشف لهم عن نفسي ، أو أن أشعرهم أنني أعرف أنهم ينتمون إلى الضباط الأحرار.

كانت هذه قاعدة أساسية أرساها عبد الناصر يوم تسلمه التنظيم من بعدي عندما قبضوا علي في صيف ١٩٤٢، وهي أن يظل تشكيل كل خلية سراً لا يعرفه إلا أعضاؤها^(٣١).

من ناحية ثانية ، فإننا نعتد بشهادة خالد محي الدين الذي يقرر ويكرر أنه كانت هناك مجموعات منظمة في الجيش قبل " الضباط الأحرار" ولكنها

كانت شيئاً آخر غير " الضباط الأحرار " . ومن هذه المجموعات مجموعة " جمال منصور " ، ومجموعة " الحرس الحديدي " ومجموعة " أنور السادات " . وفيما يتعلق بانضمام مجموعة جمال منصور إلى الضباط الأحرار ، يذكر خالد محي الدين : " أنهم طلبوا الانضمام كمجموعة ، بينما أصر عبد الناصر - وكان على حق - في عدم قبول أية انضمامات جماعية ، وأن كل من ينضم إلى " الضباط الأحرار " يجب أن ينضم فردياً^(٣٢) .. وبعد أن انضموا إلينا ، لعب جمال منصور دوراً هاماً ، ولم أزل أذكر له أنه هو الذي اختار اسم " الضباط الأحرار " ، وهو الذي رتب عملية شراء " الرونيو " الذي طبعنا عليه منشوراتنا ، وكان صاحب العلاقة مع " شوقي عزيز " الذي كتب لنا على الآلة أول منشوراتنا وهياً مكان طباعتها.. لكنه بعد انضمامه إلى التنظيم بدأ في إثارة القلاقل والمشاكل ، وأكثر هو وزملاؤه من الانتقاد لكل شيء ، بالحق وبالباطل ، وطالبوا بمعرفة أسماء " القيادة " وتحولوا إلى مشكلة حقيقية في التنظيم ، فلما رفضنا الانصياع إلى مطالبتهم بمعرفة أسماء " القيادة " تباعدوا عنا^(٣٣) .

هكذا يتضح من انضم إلى من ! ومن الذي وضع شروط الانضمام . من ناحية ثالثة ، وبالالتفات إلى إشارة خالد محي الدين السابقة عن أسباب ابتعاد مجموعة " جمال منصور " فإن قائمة المجموعة المذكورة ، والتي نشرت كوثيقة في كتاب "ثورة يوليو والحقيقة الغائبة " ، لم تضم من لجنة القيادة^(٣٤) . التي قادت ثورة يوليو إلا خالد محي الدين ، وإذا كانت القائمة قد أرجعت انضمام خالد محي الدين إلى تنظيم جمال منصور في الفترة من ١٩٥٠-١٩٥٢ ، فإن خالد محي الدين يقرر أن التقاءه بجمال عبد الناصر - عن طريق عبد المنعم عبد الرؤوف - إنما كان في نهاية عام ١٩٤٤^(٣٥) .

من ناحية رابعة ، فإن رئاسة جمال عبد الناصر لتنظيم " الضباط الأحرار " من البداية أمر يؤكد خالد محي الدين^(٣٦) ، كما يؤكد أنور السادات لولده (جمال) إذ يقول تحت عنوان (جمال عقل الثورة) : " أما الاعتبار الأول يا بني فهو أن عمك جمال هو عقل الثورة ومدبرها ورائدها.. بمعنى أنه إلى هذه اللحظة - مثلاً - بعد مضي عدة سنوات على قيام الثورة ، فإن أحدا منا نحن الذين كنا في مجلس قيادة الثورة لا يعلم بالضبط عدد الضباط الأحرار ، ومن هم الذين خرجوا يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟ ومن هم الذين لم يخرجوا ؟ إلا فرداً واحداً هو عمك جمال . وما زلنا بين الحين والآخر نسمع أسماء ضباط ولا نعرفهم ، فيقول عمك جمال أن فلاناً هذا خرج يوم ٢٣ يوليو وكان يقود الوحدة الفلانية .

ولكن عمك جمال - والشيء بالشيء يذكر - يرفض إلى يومنا هذا ، وسيظل يرفض ، أن يصرح بأسماء بعض الضباط ممن خانتهم أعصابهم في اللحظة الأخيرة فلم يشتركوا في الثورة ساعة قيامها إيماناً منه بالمبادئ التي جعلت من ثورة ٢٣ يوليو عملاً مجيداً ، ونهجاً مستقيماً يقوم على الحق ويتمسك بالمبادئ^(٣٧).

ومما سبق يتضح الأصل من الفرع ، ومن يمكن الالتفاف حوله ومن يمكن تجاهله ، ويتضح - أيضاً - مبالغة دكتور عبد العظيم رمضان ، إن لم نقل تحيزه ، فغيباب مجموعة جمال منصور لم تؤثر في كثير أو قليل في ثورة يوليو ، وما نشرته من وثائق لم يغير في كثير أو قليل من " الصورة التي رسمت لهذه الثورة ولصناعتها ولأحداثها".

٥- يغفل تقسيم عبد العظيم رمضان تناقض المواقف الشخصية ، أو الانقلاب الشخصي ، وهو أمر تتداخل لحدوثه عوامل كثيرة ، قد يكون منها النفاق ، وقد يكون تغير الجو السياسي ، وقد يكون عودة الوعي . وأياً كان السبب ، فإن هذه "الردة" تمثل تشويهاً للتاريخ ، ونضرب مثلاً عليها بكتاب "عودة الوعي" لتوفيق الحكيم ، وهو الكتاب الذي أثار عاصفة من الأفعال وردود الأفعال في جميع المعسكرات السياسية المتصارعة في مصر وفي العالم العربي. خاصة وأن توفيق الحكيم كان أباً روحياً لثورة يوليو ، وبالذات في الفترة التي تولى فيها عبد الناصر مقاليد الحكم . فتوفيق الحكيم هو القائل عن عبد الناصر : "إنه قرأني وتأثر بي إلى حد وصفته بعض الكتب الأجنبية بأنه تلميذ أفكاري ، وكان من مصلحتي الشخصية - إذن - أن أستغل هذه الصفة وأضخمها بتضخيم منجزاته . لكن توفيق الحكيم هو القائل أيضاً : " إن الاشتراكية التي تحققت كانت هزيلة " ولذلك ما إن صدر الكتاب حتى سارعت قوى اليمين واليسار إلى تحديد موقف من الكتاب وكاتبه . وبين ترحيب اليمين وتهليله ، لما حوى الكتاب من نقد للتجربة الناصرية ، وبين ضيق اليسار وردود فعله الغاضبة ، اهتم الحكيم اهتماماً خاصاً بحركة اليسار ، وشرع يبين أنه بعمله الذي قدمه ، لم يكن يحمل الماء إلى طاحونة اليمين . ثم زاد على ذلك بأن بادر إلى فتح الحوار مع اليسار ، حين وجه على صفحات روز اليوسف - في ٢١/١٠/١٩٧٤ - رسالته المشهورة " من توفيق الحكيم إلى اليسار المصري " ، ونشر الرسالة تحت عنوان " لم أنقد لحساب الماضي ، وإنما لحساب المستقبل"^(٣٨).

وكما غير توفيق الحكيم في أقواله - لا نعرف لحساب من!- فقد غير

السادات في أقواله لحساب نفسه ، ففي حديثه إلى ولده عن شخصية عمه " جمال " قال له : " فقد ذكرت في الفصول السابقة أن الهيئة التأسيسية وافقت قبل قيام الثورة على تعيين قائد مسن للثورة من خارج الهيئة إلا واحداً عارض في هذه الخطوة هو أبوك الذي يكتب لك هذه السطور ، وقلت أيضا إنه كان هناك ثلاثة مرشحون اختير منهم محمد نجيب ، وبعد أن صدر هذا القرار أذكر إنني اجتمعت على انفراد بعمك جمال في شفته بكوبري القبة ، وأخذت أتناقش معه وأبدي له تخوفي الشديد من تسلم رجل غريب لقيادة الثورة التي لم تبدأ بعد ، وكان محور خوفي أن الرجل بحكم سنه وعقليته وجيله الذي نشأ فيه لن يستطيع أن يفهم العمل الثوري ولا يرجي منه بعد هذه السن أن يعيش بعقلية غير عقليته، مما يشكل خطراً جسيماً على الثورة خصوصاً عند البدء .

وأذكر أنه بان على عمك جمال أنه اقتنع ، وأخذ ينفث دخان سيجارته على عادته حين يكون مستغرقاً في التفكير ، ثم لم يلبث أن قطع الصمت قائلاً : " يجب أن تحسب حساب النفس البشرية .. " ولم أفهم أول الأمر، ولكن عمك جمال لم يلبث أن استطرد قائلاً : " نحن جميعاً في الهيئة التأسيسية زملاء وفي سن واحدة ورتبنا تكاد تكون واحدة ، والذي جمعنا في هذا العمل هو الصداقة أولاً ثم الأخوة والمحبة اللتان ولدنا الثقة بدليل أننا نتأمر ليل نهار ولا يحس بنا أحد ، وأخشى ما أخشاه أننا إذا جعلنا قيادة الثورة فينا أن يفتح هذا الأمر ثغرة في نفس واحد منا ونحن بشر ، والنفس البشرية مليئة بالانفعالات ، وأنا لا أريد أن يكون مستقبل الوطن معلقاً على الانفعالات ، بل أريد أن أفرض احتمالاً واحداً في الألف فيه شك من انفعال في نفس أي واحد فينا لأن المسؤولية مسئولية مستقبل شعب ، وبالثقة والمحبة نستطيع أن نحقق المستحيل " .

وهكذا وضع عمك جمال شعار المثل العليا موضع التنفيذ من قبل أن تبدأ الثورة يا بني^(٣٩).

بعدها ، وعندما تمحور السادات حول ذاته في " البحث عن الذات " كان رأيه في جمال عبد الناصر ما يلي : " فلم يكن من السهل أن تزول الغشاوة عن عيني عبد الناصر .. وداخله مليء بتناقضات لا يعلمها إلا الله .. يحتم علي واجبي كصديق أن لا أكشفها أو أفصح عنها .. ولكنها كانت موجودة .. عبد الناصر مات دون أن يستمتع بحياته كما يستمتع الآخرون .. فقد قضاه كلها بين انفعال وانفعال .. القلق يأكله أكلاً فقد كان يفترض الشك في كل إنسان مسبقاً .. وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا أن خلف عبد الناصر وراءه تركة

رهية من الحقد سواء بين زملائه أقرب الناس إليه ، أو داخل البلد نفسها بجميع طبقاتها .." (٤٠).

قبلها ، وتحت عنوان " الحبيب العائد " تغزّل أنور السادات في جمال عبد الناصر أمام ولده : " وجمال يارب من صنعك الرائع ، وإبداعك القاهر ، إنه عبدك المؤمن بك ، المتوكل عليك ، المسير بإلهامك ، الباعث في شعبه وقومه رسالة الحق والعزة والسلام. ولقد نصرتنا به يارب في مواطن كثيرة.. نصرتنا به يوم أن ضاقت علينا أرضنا، وحبس الملك الخليع هو وشركاؤه علينا أنفاسنا ، فشاءت قدرتك أن ينتصر الشعب ، وأن يملي إرادته كفاحاً ونضالاً وخلقاً وابتكاراً وتضحية وفداء وصلابة وإصراراً من خلال جمال ، وعلى يد جمال وبيقين منك يارب وهبته لجمال " (٤١).

الطريف أن خالد محي الدين يذكر أن " لجنة القيادة " عقدت اجتماعاً بمنزل كمال الدين حسين بمنشية البكري لنجري انتخابات الرئيس .. جميعاً منحنا صوتنا لجمال عبد الناصر إلا أنور السادات ، كان غائباً وفوض عبد الحكيم عامر في الإدلاء بصوته ، وطلب منه التصويت لحسن إبراهيم قائلاً : إذا كنا نشكو من سيطرة جمال عبد الناصر فلننتخب شخصاً لا يستطيع السيطرة علينا ويمكننا أن نتحكم فيه ، وطلب منه التصويت باسمه لحسن إبراهيم . والغريب أن حسن إبراهيم نفسه كان قد منح صوته لجمال عبد الناصر (٤٢).

٣- يغفل تقسيم عبد العظيم رمضان التحيز ، وهو أكبر آفة تصيب من يتصدى للتاريخ ، وتشوه التاريخ . ولانتشار الظاهرة مظاهر كثيرة ، فقد لاحظ "طارق البشري " في سماعه التعقيبات على كتابه " الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥- ١٩٥٢ " أن من كان ضد الوفد وصفه بالوفدية ، ومن كان ضد مصر الفتاة وضعه بينهم ، ومن كان ضد الشيوعيين صنّفه فيهم " (٤٣).

وتذكر "سهير إسكندر " في دراستها عن "الصحافة المصرية والقضايا الوطنية ١٩٤٦-١٩٥٢" أن رؤية جريدة أخبار اليوم السياسية - على سبيل المثال - يمكن تبريرها بشكل عام ، في صدد عدائها للوفد ، فكانت تعاديه إن أخطأ وإن أصاب (٤٤). وعلى الجانب الآخر ، فإن جرائد الوفد كالت لأحرار الدستوريين- مثلاً- الأوصاف التالية : " المنشقون .. المتعجلون .. دعاة التردد والهزيمة.. أنصار ملنر في خديعة مصر وتضليلها .. أعوان عدلي في صدع الوحدة وشق الصفوف .. أذئاب ثروت في خرق الإجماع والخروج

على الأمة والتكيد بأبنائها .. الأحرار الوصوليون .." (٤٥).

ولا يخفي مصطفى بهجت بدوي " إنني كلما ذكر اسمي أمام أناس لا أعرفهم معرفة شخصية ولا يعرفونني تصايحوا : هو " ناصري " ! هو " بتاع عبد الناصر " ! وأبتسم فلا أنا ناصري ولا أنا (بتاعه) ، ولا حتى التقيت به عمري في لقاء خاص ، ولا دخلت بيته أبداً أو مكتبه ، رغم أنه كان يعرفني سماعاً ، ويعينني رئيساً لتحرير الجمهورية سنة ١٩٦٥ سماعاً أيضاً" (٤٦).

وحتى في المواقف الثابتة - مثل إنجازات ثورة يوليو - فقد ذهب البعض إلى أن السادات أحياناً مواتها (٤٧) في حين ذهب البعض الآخر إلى أنه - أي السادات - واراها التراب (٤٨) في حين يرى رأي ثالث أن مرحلة عبد الناصر كانت مرحلة قهر سياسي وديمقراطية اجتماعية ، ومرحلة السادات كانت مرحلة قهر سياسي واجتماعي (٤٩).

وحتى في المواقف المصيرية - مثل هزيمة يونيو ١٩٦٧ - تختلف الآراء ويظهر التحزب . فشيعة عبد الناصر يبرئونه من الشبهات ، ويلقون بالمسئولية في وجه المشير عبد الحكيم عامر بصفته المسئول الأول عن القوات المسلحة ، وأتباع المشير يقولون أن رجلهم كان مظلوماً ، ولم يكن يملك من الأمر شيئاً ، لأن كل الخيوط كانت في يد عبد الناصر (٥٠).

وبعد ، لعلنا ننهي هذه المقدمة ببعض الملاحظات الهامة :

- ١- التشوه أو التشويه الحادث في تاريخ مصر الحديث والمعاصر كبير وخطير، أن نجعل من عمالقة مصر أقراماً ، أو نجعل من الأقرام عمالقة.
- ٢- منطلقات هذا التشوه أو التشويه كثيرة ومتعددة ، لكن الأخطر أنها متداخلة.
- ٣- التحيز (مع) يداري بعض الحقيقة ، لكن أن يتحول إلى تحيز (ضد) فإنه يهدد بإخفاء كل الحقيقة.

٤- طبعي أن يدعي كل من يتناول تاريخ مصر الحديث المعاصر الموضوعية، لكن كم من التشويه يرتكب باسم الموضوعية. فبموضوعية يصدر الدكتور عبد العظيم رمضان كتاباً يضم مجموعة المقالات التاريخية التي نشرها في جريدة الوفد ، رداً على فيلم " ناصر ٥٦ " الذي أثار عرضه - كما يقول - ضجة في الرأي العام العربي والمصري ، وكان هدفه من كتابة هذه المقالات " التصدي للأباطيل التي قدمها هذا الفيلم بمحاولته تصوير قرار

تأميم شركة قناة السويس في صورة عمل بطولي خالد ، وإخفاء الأخطاء القاتلة التي ارتكبها عبد الناصر عند اتخاذ هذا القرار^(٥١). ثم هو يقرر أن الثمن الذي دفعته مصر كان فادحاً نتيجة سوء تقدير عبدالناصر للموقف^(٥٢).

وبموضوعية - على الموقف نفسه - يرى محمد حسنين هيكل أن جمال عبدالناصر أجرى حساباته وبنى تقديراته للأثار والعواقب بدقة وبصيرة، وفي الحقيقة - كما يقول هيكل - فقد كانت تلك واحدة من أعظم لحظات حياته^(٥٣)، ثم هو يؤكد بأن الصحفي الأمريكي الكبير (ساي سالزبيرجر) عندما كتب كتابه الشهير " آخر العمالقة " واختار جمال عبد الناصر ، في الصف نفسه مع تشرشل وروزفلت وستالين وإيزنهاور وديجول وماوتسي تونج ونهرو وتيتو ، إنما بنى اختياره لجمال عبد الناصر كواحد منهم على أساس إدارته الكاملة لحرب السويس. وأشار سالزبيرجر إلى أن جمال عبد الناصر أدار هذه الحرب على المستوى الوطني والإقليمي والدولي وعلى المستوى العسكري والسياسي والنفسي بكفاءة تستثير الإعجاب في ظروف شديدة التعقيد ، وفي مواجهة توازن قوي متشابك وخطير^(٥٤).

وبموضوعية يرصد محمد حسنين هيكل تآكل الطبقة المتوسطة في السنوات الأخيرة ، وبموضوعية يتساءل الدكتور عبد العظيم رمضان : أفلا تعيش هذه الطبقة الوسطى - بأجنحتها الثلاثة - عصرها الذهبي الذي لم تشهده في أي عصر من عصور التاريخ المصري؟ أفلا تكسب من المكاسب ما لم تكسبه في حياتها كلها؟^(٥٥).

بل إن ندرة الالتزام والموضوعية في كتابة تاريخ مصر المعاصر^(٥٦) قد انتهت إلى غير ما التزمت به ، وإلى غير الموضوعية .. أنظر شهادة أحد شهودها : "وأما ما أثبتته الندوة من أن التاريخ ما زال يمثل أكبر ميادين الصراع بين القوى السياسية المتصارعة في مصر ، فيتمثل في عدد الصقور الذين وفدوا على الندوة لينهشوا في جسد تاريخ مصر المعاصر ، ويشوهوه بسخائم أحقادهم السياسية ، يحرفون وقائع التاريخ ، ويفترون على الزعماء والأبطال ، ويتخذون من الندوة وليمة يفترسون فيها إيجابيات التجربة الليبرالية وإيجابيات التجربة الناصرية على السواء!

نعم فقد أثير في الندوة أن سعد زغلول خائن ! ومصطفى النحاس أهبل ! ولو كان ممثلو التيار المعادي لعبد الناصر موجودين في الندوة لأثاروا ما أثاروه

من أنه حرامي أو أنه عميل إسرائيلي! ولو كان ممثلو التيار المعادي للسادات موجودين لأثاروا قصة أمه الجارية الزنجية "ست البرين" التي أورثته الخصائص والصفات التي دفعته إلى القيام بمبادرة القدس! (٥٧).

٥- يساعد على تشويه التاريخ - فيما يتعلق بالناس - تعميم يقعون فيه ، واتجاه سالب نحو الحاكمين ، عبر عنه أنور السادات ممتثلاً بحكمة عربية تقول " إن نصف الرعية ضد الحاكم ، هذا إن عدل " (٥٨)، أو هم ينظرون إلى قادتهم إما في صورة شياطين أو في صورة آلهة (٥٩).

٦- لا بد أن تشويه صورة رواد التحرر الوطني المصري الحديث يمثل صدمة، خاصة وقد شارك أكثرهم في هذا التشويه ، هذه الصدمة تخف إذا ما انتبهنا إلى شهادة إسماعيل صدقي (باشا) في الزعيم سعد زغلول : "صحيح أنني اختلفت معه ، وصحيح أنه كان للرجل أخطاء - ومن ذا الذي لا يخطئ - وصحيح أنه كانت فيه عيوب ، ولكنها كما يقول الفرنسيون ، العيوب التي تلازم الصفات الكبيرة" (٦٠). ونحن هنا نؤكد - وبشدة - على هذه المقولة ، ونقول إن ما سبق من تجريح عيوب تلازم صفات كبيرة بحق.

لكن رغم هذا التحفظ أو هذا التخفيف ، يبقى الوضع خطيراً ، خاصة مع ما يذهب إليه البعض من أننا لن ننتصر في أي معركة إلا إذا عرفنا تاريخنا (٦١)، فما بالنا وتاريخنا يتشوه أمام أعيننا وبأيدينا ، وما حالنا ورموز الأمة تتساقط - في عيون النشء - كأوراق الخريف ؟. لا حديث - إذن - عن القدوة والافتداء أو الوطنية والانتماء ، وبالها من خسارة تخسرها الأمة .. بل لا نبالغ كثيراً إذا اعتبرناها " حماقة " ارتكبتها - ويرتكبها - الكبار ليقع فيها الصغار . ومع كثرة الشهادات تنوء الحقيقة ، ومع التحيز تميم ، ومع التشويه تضيع.

في وسط هذا كله كان علينا - وصولاً إلى الحقيقة ، وتقييماً لدور رواد تحررنا الوطني المصري الحديث - أن نستخدم منهجاً يتفق مع خطورة الوضع ، ويناسب الموضوع ، فكان تطبيق المنهج الإحصائي على التاريخ.

وبداية لا بد من تحديد بعض المفاهيم ؛ فالتحرر الوطني المصري مقصود به هنا التحرر بكل أشكاله؛ العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتبويرية، في تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، أي من حكم محمد علي حتى نهاية حكم أنور السادات (٦٢).

والإحصاء التاريخي أحد أساليب البحث التي لا يستخدمها المؤرخون كثيراً، وإن استخدموها فبشكل جزئي، وهو - أي الإحصاء التاريخي - يقدم للباحث الدليل حيث لا يوجد لديه دليل ملموس^(١٣).

والعينة التي استخدمها الباحث في بحثه تمثل ثلاثة مستويات :

المستوى الأول :

عبارة عن الطلائع الذين اشتركوا في المسابقة القومية - عن رواد التحرر الوطني - التي نظمتها وزارة الشباب (٢٠٠٢/٢٠٠٣)، وبلغ عددهم ٧٥٠ طليعيًا تتراوح أعمارهم بين ١٢-١٥ سنة . واعتبرناهم إطاراً تجميعياً ممثلاً لفكر العامة ، فهم يمثلون بداية المعرفة مقابل خبرة أسرهم ومعلميهم الذين اهتموا - لابد - بمسابقة لها عائد مادي ومعنوي.

المستوى الثاني :

عبارة عن مجموعة من طلاب قسم التاريخ بكلية التربية ، جامعة عين شمس عددهم ٦٠٠ طالب ممثلين للسنوات الأربع ، وهم يمثلون مرحلة وسطية من الناحية النفسية والمعرفية.

المستوى الثالث :

أعضاء هيئة تدريس ومؤرخون - بلغ عددهم ٦٢ مشتغلاً بالتاريخ - يمثلون العلم والخبرة ، ويمثلون - بالتالي - إطاراً مرجعياً يمكن قياس رأي واتجاه الآخرين عليه ، لما يتوفر فيهم من موضوعية مفترضة ، خاصة أولئك المتخصصون في التاريخ الحديث والمعاصر.

وقد سارت إجراءات البحث على النحو التالي :

وزعنا استمارات تضم قائمة مفتوحة تشمل أسماء ٢٧ من الرواد - اختارهم الطلائع - 'يختار منهم عشر' مرتبين حسب قيمتهم الريادية عند من يوافق على إجراء الاستبيان ، والذي يكون له الحق أيضاً في أن يضيف من يشاء من رواد ليسوا ممثلين في القائمة ، وأن يضعهم في الترتيب الذي يريده، وطالبنا أن يكون هناك تبرير للاختيار الأول.

وفي المعالجة الإحصائية الأولية يعطى للاختيار الأول في كل استمارة ١٠ درجات ، وللثاني ٩ درجات ، وللثالث ٨ درجات .. وهكذا تنازلياً حتى

العاشر حيث يحصل على درجة واحدة.

وفي المعالجة الإحصائية الثانية تجمع الدرجات ويرتب الرواد في كل مستوى في رتب الأول فالثاني فالثالث ... وهكذا.

وفي المعالجة الإحصائية الثالثة نقوم بجمع الرتب في المستويين الأول والثاني^(*). ونقارنها بالمستوى الثالث الذي يمثل إطاراً مرجعياً ، لنرى مدى اقتراب أو ابتعاد الرأي الشعبي عن الإطار المرجعي.

وفي المعالجة الإحصائية الأخيرة نجمع الرتب في المستويات الثلاث لنصل إلى الرأي العام أو رأي الأغلبية.

وفيما يتعلق بالمستوى الأول فقد كان اختيار الطلائع للرواد اختياراً حراً، مرده إلى الطالب أو ولي أمره أو معلمه ، وقد يكون مرتبطاً بما يوجد - أو لا يوجد - في مكتبة المدرسة من كتب عن رواد التحرر الوطني المصري الحديث ، وقد يتأثر بالمحتوى الدراسي الذي قدم له أثناء سنوات الدراسة ، أو أن الرائد من المحافظة التي ينتمي إليها الطالب.

عموماً - وبعد استبعاد الرئيس محمد حسني مبارك والسيدة حرمه للموضوعية - فقد أسفر إحصاء اختيارات الطلائع ، نتيجةً للتوزيع التكراري ، عن الترتيب التالي:

- | | |
|----------------------|----------------------------|
| ٨- رفاة الطهطاوي | ١- سعد زغلول |
| ٩- الإمام محمد عبده | ٢- مصطفى كامل |
| ١٠- محمد علي | ٣- جمال عبد الناصر |
| ١١- هدى شعراوي | ٤- أحمد عرابي |
| ١٢- قاسم أمين | ٥- محمد أنور السادات |
| ١٣- عباس العقاد | ٦- محمد فريد |
| ١٤- عمر مكرم | ٧- طلعت حرب |
| ٢٢- سيد درويش* | ١٥- عبد الرحمن الكواكبي*** |
| ٢٣- صلاح سالم* | ١٦- محمد كريم*** |
| ٢٤- عبد المنعم رياض* | ١٧- نبوية موسى*** |

(*) حيث يحصل الأول على (٢٧) درجة ، والثاني على (٢٦) درجة ، والثالث على (٢٥) درجة .. وهكذا حتى الأخير (السابع والعشرين) الذي يحصل على درجة واحدة .

٢٥- محمود سامي البارودي*

٢٦- مصطفى النحاس*

٢٧- يوسف صديق* (#)

١٨- عبد الله النديم*

١٩- محمد نجيب*

٢٠- أمين الرفاعي*

٢١- سليمان الحلبي*

وفيما يتعلق بالمستوى الثاني ، والذي يضم طلبة الفرق الأربعة بقسم التاريخ بكلية التربية جامعة عين شمس ، فقد عرضنا عليهم القائمة التي أفرزها اختيار الطلاب (٢٧ رائداً) مرتبين أبجدياً ، ليختاروا منها - بالترتيب - من يروونه أحق بالريادة ، وطلبنا منهم إضافة من يرون من أسماء ، في ترتيبها من وجهة نظرهم، قد يكون الطلاب قد أغفلوها . وقد أسفر التوزيع التكراري لاختيارات الفرق الأربع عن الترتيب التالي:

الترتيب	اختيارات الفرقة الأولى	اختيارات الفرقة الثانية	اختيارات الفرقة الثالثة	اختيارات الفرقة الرابعة
الأول	جمال عبدالناصر	جمال عبدالناصر	جمال عبدالناصر	محمد علي
الثاني	سعد زغول	محمد أنور السادات	محمد أنور السادات	مصطفى كامل
الثالث	مصطفى كامل	سعد زغول	محمد علي	محمد أنور السادات
الرابع	محمد أنور السادات	أحمد عرابي	مصطفى كامل	جمال عبد الناصر
الخامس	أحمد عرابي	مصطفى كامل	أحمد عرابي	طلعت حرب
السادس	قاسم أمين	محمد علي	سعد زغول	سعد زغول
السابع	رفاعة الطهطاوي	رفاعة الطهطاوي	طلعت حرب	أحمد عرابي
الثامن	محمد علي	طلعت حرب	الإمام محمد عبده	قاسم أمين
التاسع	طلعت حرب	قاسم أمين	رفاعة الطهطاوي	رفاعة الطهطاوي
العاشر	الإمام محمد عبده	الإمام محمد عبده	محمد فريد	الإمام محمد عبده
الحادي عشر	محمد فريد	محمد فريد	قاسم أمين	سليمان الحلبي
الثاني عشر	عباس العقاد	محمد كريم	عباس العقاد	عباس العقاد
الثالث عشر	عبد الله النديم	عبد الله النديم	محمد نجيب	محمد فريد
الرابع عشر	محمد كريم	عمر مكرم	محمد كريم	عمر مكرم
الخامس عشر	سليمان الحلبي	عباس العقاد	عمر مكرم	محمد كريم
السادس عشر	عمر مكرم	سليمان الحلبي	عبد المنعم رياض	عبد الله النديم
السابع عشر	محمد نجيب	البارودي	سيد درويش	سيد درويش

(#) اتفاق الإشارات دليل على تساوي التكرارات ، ويكون الترتيب هجائياً.

الثامن عشر	محمود سلمي البارودي	محمد نجيب	سليمان الحلبي	محمد نجيب
التاسع عشر	هدى شعراوي	عبد المنعم رياض	البارودي	هدى شعراوي
العشرون	سيد درويش	هدى شعراوي	هدى شعراوي	عبد المنعم رياض
الواحد والعشرون	مصطفى النحاس	سيد درويش	عبد الله النديم	نبوية موسى
الثاني والعشرون	نبوية موسى	مصطفى النحاس	نبوية موسى	البارودي
الثالث والعشرون	عبد المنعم رياض	الكواكبي	أمين الراجعي	أمين الراجعي
الرابع والعشرون	صلاح سالم	صلاح سالم	صلاح سالم	صلاح سالم
الخامس والعشرون	الكواكبي	نبوية موسى	مصطفى النحاس	مصطفى النحاس
السادس والعشرون	أمين الراجعي	أمين الراجعي	يوسف صديق	الكواكبي
السابع والعشرون	يوسف صديق	يوسف صديق	الكواكبي	يوسف صديق

وباعتبار الفرق الأربعة تمثل مستوى واحداً ، فقد أفرز جمع الرتب

الترتيب التالي :

- | | |
|----------------------|---------------------|
| ١- جمال عبد الناصر | ١٥- سليمان الحلبي |
| ٢- محمد أنور السادات | ١٦- عبد الله النديم |
| ٣- مصطفى كامل | ١٧- محمد نجيب |
| ٤- سعد زغلول | ١٨- سيد درويش |
| ٥- محمد علي | ١٩- البارودي |
| ٦- أحمد عرابي | ٢٠- عبد المنعم رياض |
| ٧- طلعت حرب | ٢١- هدى شعراوي |
| ٨- رفاعة الطهطاوي | ٢٢- نبوية موسى |
| ٩- قاسم أمين | ٢٣- مصطفى النحاس |
| ١٠- الإمام محمد عبده | ٢٤- صلاح سالم |
| ١١- محمد فريد | ٢٥- أمين الراجعي |
| ١٢- عباس العقاد | ٢٦- الكواكبي |
| ١٣- محمد كريم | ٢٧- يوسف صديق |
| ١٤- عمر مكرم | |

أما المستوى الثالث ، مستوى الأساتذة والمتخصصين فقد كررنا معه ما فعلناه مع المستوى الثاني ، وأسفر التوزيع التكراري عن الترتيب التالي :

- | | |
|---------------------|----------------------|
| ١٥- هدى شعراوي | ١- جمال عبد الناصر |
| ١٦- عبد الله النديم | ٢- مصطفى كامل |
| ١٧- سليمان الحلبي | ٣- سعد زغلول |
| ١٨- محمد نجيب | ٤- محمد أنور السادات |
| ١٩- نبوية موسى | ٥- أحمد عرابي |
| ٢٠- سيد درويش | ٦- طلعت حرب |
| ٢١- البارودي | ٧- محمد علي |
| ٢٢- عبد المنعم رياض | ٨- رفاة الطهطاوي |
| ٢٣- الكواكبي | ٩- محمد فريد |
| ٢٤- مصطفى النحاس | ١٠- الإمام محمد عبده |
| ٢٥- صلاح سالم | ١١- قاسم أمين |
| ٢٦- أمين الرافعي | ١٢- عباس العقاد |
| ٢٧- يوسف صديق | ١٣- محمد كريم |
| | ١٤- عمر مكرم |

ويجمع الرتب في المستويات الثلاثة (الطلائع + طلبة قسم التاريخ بكلية التربية جامعة عين شمس + الأساتذة والمتخصصون) لفتش عن اتجاه عام ، يصبح الترتيب على النحو التالي :

- | | |
|---------------------|----------------------|
| ١٤- عمر مكرم | ١- جمال عبد الناصر |
| ١٥- هدى شعراوي | ٢- مصطفى كامل |
| ١٦- عبد الله النديم | ٣- سعد زغلول |
| ١٧- سليمان الحلبي | ٤- محمد أنور السادات |
| ١٨- محمد نجيب | ٥- أحمد عرابي |
| ١٩- سيد درويش | ٦- طلعت حرب |
| ٢٠- نبوية موسى | ٧- محمد علي |
| ٢١- البارودي | ٨- رفاة الطهطاوي |
| ٢٢- عبد المنعم رياض | ٩- محمد فريد |
| ٢٣- الكواكبي | ١٠- الإمام محمد عبده |
| ٢٤- مصطفى النحاس | ١١- قاسم أمين |
| ٢٥- صلاح سالم | ١٢- عباس العقاد |
| ٢٦- أمين الرافعي | ١٣- محمد كريم |
| ٢٧- يوسف صديق | |

ولعله من المناسب قبل أن نسجل بعض الملاحظات على هذا الترتيب ، أن نسجل تبرير اختيار بعض الأساتذة والمتخصصين للرواد العشر الأول من وجهة نظرهم:

- ١- جمال عبد الناصر :
 - إن أحداً لم يحب مصر كما أحبها عبد الناصر .
 - أول حاكم مصري منذ زمن الفراعنة يحدث ثورة اجتماعية بيضاء .
 - قضى على نظام سياسي اقتصادي اجتماعي رجعي ، وأقام نظاماً تقدماً بديلاً ، ولا ينقص من قدره أنه انهزم في معركة عسكرية.
 - أكثر زعماء الأمة تجسداً للشخصية المصرية.
 - كان لديه مشروع وطني كبير ، ولم يأخذ شيئاً في المقابل ، هذا رغم أخطائه ومصدرها غياب الديمقراطية.
- ٢- مصطفى كامل :
 - أعطى دون طلب ، وفجر الثورة الوطنية في وقت ماتت فيه الروح الوطنية، فضلا عن استخدامه لوسيلة جديدة لمحاربة المستعمر وهي الصحافة.
- ٣- سعد زغلول :
 - قائد أول ثورة شعبية من أجل التحرر الوطني بعد الحرب العالمية الأولى ، وقد تمثلت فيه صفات الزعامة الشعبية الحقيقية.
- ٤- محمد أنور السادات :
 - انتشلنا من اليأس للرجاء ومن الظلام للنور بانتصارنا المجيد في معركة أكتوبر المجيدة.
 - استرداد التراب المصري بعد حرب أكتوبر المجيدة.
 - بطل الحرب والسلام.
- ٥- أحمد عرابي :
 - أول من رفع صوت الشعب وأعلى إرادته في العصر الحديث.
 - قاد أول ثورة مصرية صميمة ، ولكن فشلت لأسباب معروفة ، وأدت إلى

تشكيل تاريخ مصر الحديث.

- أول زعيم مصري يقف أمام الخديو والحكومة ، ويحقق كثيراً من مطالب الجيش والشعب في العصر الحديث.

٧- محمد علي :

- صاحب أول مشروع نهضوي قومي شامل في مختلف النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والعسكرية.

- المؤسس الحقيقي لمصر الحديثة.

- مؤسس مصر الحديثة على كل المستويات.

- مفجر حركة التغيير في العصر الحديث أو تاريخ مصر الحديث.

٨- رفاعة الطهطاوي :

- أول من تعرف على الحضارة الأوروبية ، وفهم معظم جوانبها ، وبذل جهداً متواصلاً لنقل إيجابياتها إلى بلاده.

- رائد الفكر الحديث في العالم العربي ، وأول من أدخل الأفكار والمفاهيم الغربية الحديثة في الفكر العربي ، مع ما تجشمه من جهود كبيرة في تعريب هذه المفاهيم واستيعابها في اللغة العربية.

٩- محمد فريد :

- شخصية لا غبار عليها ، إسهاماته في مجال الفكر والاقتصاد كانت أبرز أثراً ، عمل دون دعاية ، وضحي دون مقابل.

- رمز التضحية والفداء.

١٠- الإمام محمد عبده :

- رائد تجديد الفكر الإسلامي.

وملاحظة - أولى- نجد أن طلعت حرب رغم حصوله على المركز السادس بين رواد التحرر الوطني المصري الحديث ، فإن أياً من أساتذة التاريخ لم يضعه في المركز الأول ، وإلا لوجدنا تبريراً لاختياره ، على أن ذلك يعني من ناحية أخرى أنه كان من أكثر الرواد تكراراً ، وبموقع متقدم في اختياراتهم. وعلى عكس الحال اختير بعض الرواد في مركز أول ولم يحصلوا على ترتيب

عام متقدم بين رواد التحرر الوطني. من ذلك عبد الله النديم الذي جاء في الترتيب الأول عند اثنين من المؤرخين وبرروا لاختياره بأنه نبت بين الطبقة الفقيرة من أبناء الشعب المصري، ثم ترعرع بين أفرادها ، وانطلق إلى الزعامة دون أن ينسى أنه عاش بين أبناء هذه الطبقة ولم ينسها. والتبرير الثاني أنه كان الوحيد من زعماء الثورة العرابية الذي لم يستسلم وظل على مبدئه. وقد تكرر الوضع نفسه مع كل من قاسم أمين والكواكبي ، وفي تبرير اختيار الأول أنه ساعد في رفع الظلم الذي وقع على المرأة في عصر الاضمحلال " العصر التركي " وساهم في التخلص من بعض التقاليد البالية ، وعلى رأسها عدم تعليم المرأة . وفي تبرير اختيار الكواكبي قيل أنه حاول كشف الاستبداد في الأمة ومقاومة هذا الاستبداد.

ويلاحظ - ثانياً - أن بعض الأساتذة والمتخصصين قد أضافوا رواداً إلى القائمة التي عرضناها عليهم ، هؤلاء الرواد - بترتيبهم الهجائي - هم :

- ١- أحمد لطفي السيد.
- ٢- إسماعيل مظهر.
- ٣- حسن البنا.
- ٤- حسين المنصوري.
- ٥- سلامه موسى.
- ٦- شبلي شميل.
- ٧- طه حسين.
- ٨- عباس حلمي " الثاني - الخديو " .
- ٩- عدلي يكن.
- ١٠- فرح أنطون.
- ١١- لويس عوض.
- ١٢- مصطفى عبد الرازق " الشيخ " .
- ١٣- ملك حفني ناصف " باحثة البادية " .
- ١٤- مي زيادة.

هذه الاختيارات وإن مثل بعضها استغراباً ، فإنها - على أية حال - لم تحصل إحصائياً على أي ترتيب ، كما أن أغلبها جاء نتيجة اختيار أحدى أقطاب الفكر الماركسي البارزين .

ولأننا حددنا من البداية أن اختيار أساتذة التاريخ والمتخصصين لرواد التحرير الوطني يمثل إطاراً مرجعياً نقيس عليه فكر واتجاه العامة ، فإنه يلاحظ - ثالثاً - وقياس العام على الخاص توافق في المراكز العشر الأولى في المستويات الثلاثة ، باستثناء بسيط هو تدهور مركز محمد فريد لصالح قاسم أمين في المستوى الثاني ، وهو أمر قد يفسره زيادة طالبات هذا المستوى عن البنين ، كذلك تأخر مركز السادات من الثاني في المستوى الثاني إلى الرابع في المستوى الثالث .

لكن التوافق يتأكد بصورة تقريبية مع مركز كل من جمال عبد الناصر ومصطفى كامل وسعد زغلول في المستويات الثلاثة ، وبصورة تأكيديه مع طلعت حرب ، وبصورة مذهلة مع كل من رفاعة رافع الطهطاوي ، وعمر مكرم ، وعبد الله النديم في المستويات الأربعة .

يلاحظ - رابعاً - بقياس الخاص على العام تطابق شبه تام بين اختيارات أساتذة التاريخ والمتخصصين وبين الرأي العام في مصر بمستوياته الثلاثة ، وهو ما يؤكد صدق المقياس - الإحصاء - الذي يصل إلى الموضوعية من خلال الذاتية ، ويصل إلى دليل حين يعز الدليل .

وبناء على الملاحظة السابقة ، وهو ما نعتبره أهم نتيجة لهذا البحث ، فإن عمالقة مصر لن يصبحوا أقزاماً ، ولن يصبح الأقزام عمالقة . وعلى سبيل المثال فإن دعوة الكاتب والصحفي جمال بدوي لإطلاق اسم مصطفى النحاس على محطة مترو الأنفاق بالعتبة^(١٤) ، متجاوزاً كل من سبقه من رواد - بناء على هذه الدراسة - يعتبر تجاوزاً .

كما جانب التوفيق د. عبد العظيم رمضان حينما اعتقد أن "مستشاري الرئيس مبارك قد جانبهم التوفيق في إحدى فقرات الخطاب التاريخي الهام الذي ألقاه الرئيس يوم ٢٦ أبريل الماضي^(١٥) أمام مجلسي الشعب والشورى بمناسبة استكمال تحرير سيناء. وهي الفقرة التي تحدث فيها الرئيس عن "رعيل القادة العظام الذين أثروا التجربة المصرية بالفكر والممارسة .

لقد ذكر الرئيس مبارك بالنص أسماء : محمد علي ، أحمد عرابي ،

مصطفى كامل ، محمد فريد ، سعد زغلول ، جمال عبد الناصر ، أنور السادات، ولم يذكر مصطفى النحاس!"^(٦٦). ودون أن نقلل من دور مصطفى النحاس ، فإن هذه الدراسة " الموضوعية " وليست " الذاتية " أو " الحزبية " تضع هذا الرائد الوطني وتاريخه في مكانه الحقيقي قياساً على الرواد الآخرين^(٦٧). لكننا ننتهز الفرصة لننصف مستشاري الرئيس مبارك ، فإن الرواد الذين جاء ذكرهم في الخطاب المذكور هم غالبية العشر الأوائل الذين صنفتهم هذه الدراسة ، التي نقدمها لهم تدعيماً لما سبق ، ودليلاً لما سيأتي.

ولعل أهم نتيجة تترتب على هذا الجهد أننا لا نعطي - فقط - كل ذي حق حقه، وإنما - في نفس الوقت - نحمي الناشئة من التشويش والتشويه ، ولعل هذه واحدة من أهم القيم الإجرائية لدرس وتدریس التاريخ.

الهوامش

- (١) عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٩٣، ص ١٣.
- (٢) صلاح الشاهد : ذكرياتي في عهدين ، ط٢، دار المعارف ، ١٩٧٦، ص (هـ).
- (٣) رغم تحول عرابي - عند البعض - من " بطل للعدالة إلى رمز وطني لمصر " ، وأنه " كان البطل المنشود للتعبير عن إرادة مصر " ، فقد أكد البعض أنه عاش - بعد عودته من المنفى - " شبه غريب في وطنه ". أنظر الكسندر شولس : مصر للمصريين ، أزمة مصر الاجتماعية والسياسية، ١٨٧٨-١٨٨٢، تعريب رموف عباس ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ١٩٩٩ ، ص ١٩٧. وأنظر أيضا ، حسين فوزي النجار : أحمد عرابي .. مصر للمصريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢، ص ٩. وأنظر أيضا ، لويس جريس : يوميات من التاريخ المصري الحديث .. ١٧٧٥-١٩٥٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨، ص ٢٩٣.
- (٤) اللواء ، ٣ أكتوبر ١٩٠١.
- (٥) ج ٢، ص ٦٨١.
- (٦) المرجع نفسه والجزء ، ص ٦٩٣.
- جنير بالذكر أن جريدة المقطم المعروفة بولاتها للاحتلال دافعت عن أحمد عرابي ، فقد أشارت إلى أنها استتجت مما قيل حول عرابي " أنه مكروه ميفوض عند نوات مصر ومن ينتمي إليهم ، ولكنه لا يزال محبوباً عند السواد الأعظم من الوطنيين ، ولا سيما طلبة العلم والفلاحين". أنظر جريدة المقطم في ٢ أكتوبر ، ١٩٠١.
- (٧) عبد العظيم رمضان : مصطفى كامل في محكمة التاريخ ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤، ص ٨٥.

(٨) نفسه ، ص ص ٤٥-٤٦ .

(٩) في رسالة أرسلها مصطفى كامل إلى محمد فريد من باريس بتاريخ ١٩ يوليو ١٨٩٨ ، قال : " ما بيننا من الود والإخاء يجعل مالك مالي ، ومالي مالك ، وحياتي حياتك ، وحياتك حياتي ، وهذا ما اعتقده وما تعتقده أنت ، فروحي تتاجي روحك بالود والإخلاص في كل لحظة " . أنظر عبد المنعم الجمعي : الخديو عباس الثاني والحزب الوطني ، دار الكتاب الجامعي ، ١٩٨٢ ، ص ٢٤٥ .

(١٠) وحيد عبد المجيد : الوطنية والتكفير السياسي مصر في بداية ونهاية القرن العشرين " ، الأهرام ، ١٩٩٩ ، ص ١٣٧ .

(١١) نفسه ، ص ١٣٧ .

(١٢) عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، ص ١٤٢ .

(١٣) عبد العظيم رمضان : الفكر الثوري في مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو ، مكتبة مدبولي ، ١٩٨١ ، ص ٩١ .

(١٤) عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، ص ١٣٧ .

(١٥) يذكر أحمد حسين ، زعيم مصر الفتاة ، أنه عندما قابل النحاس باشا في أوائل نوفمبر ١٩٣٣ ، واجهه الأخير بأنه دسيسة ، وأنه لابد أن يكون مدفوعاً من جهة من الجهات للقيام بما يقوم به ، ثم قال له : " لا يوجد في مصر إلا راية واحدة هي راية الوفد ، وكل وطني عامل يجب أن يعمل تحت راية الوفد . فكل حركة ، أو كل عمل من الأعمال لا يكون تحت راية الوفد ، لا يمكن إلا أن يكون دخيلاً على الأمة ، ودسيسة من الدساتين . فإذا كنت صادق النوايا وتريد خدمة بلدك ، فعلم إنشاء الجمعيات ، ووضع البرامج ، وإرسال النداءات ؟ وإذا كان كل جندي يخرج على قائده ويؤلف لنفسه جمعية ، ويضع برنامجاً ، إذن تشتتت الجهود ، وعمت البلاد الفوضى ! فإذا كنت تريد أن تكون وطنياً ، فتعال بين إخوانك الشبان في الوفد ، وانمج في صفوفهم ، فالأمة لا ترحم الخوارج " . أنظر ، عبد العظيم رمضان : قضايا في تاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠١ ، ص ٧٩ .

(١٦) عبد العظيم رمضان : الفكر الثوري في مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو ، ص ٩١ .

(١٧) محمد فريد حشيش : حزب الوفد " ١٩٣٦-١٩٥٢ " ، ج ١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ ، ص ٢٠ .

(١٨) صلاح الشاهد : المرجع السابق ، ص ص ٣٧٢-٣٧٣ .

(١٩) يذكر محمد حسنين هيكل أنه ليس هناك دليل مادي يؤكد هذا الإدعاء ضد السادات ، بينما يؤكد عادل حموده الواقعة ، ويضيف " وسواء كان ذلك التصرف براءة أو كان هروباً ، فإنه تحول إلى نكتة ... فعندما كان أحد يسأل : (هوه السادات فين ؟) كان زملاؤه في مجلس قيادة الثورة يقولون : (في السيما) " . أنظر ، محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، الأهرام ، ١٩٨٨ ، ص ٧٥ . وأنظر أيضاً ، عادل حموده : النكتة السياسية ، كيف يسخر المصريون من حكامهم ، سفنكس للطباعة والنشر ، ١٩٩١ ، ص ٢٢٥ .

- (٢٠) خالد محي الدين : والآن أتكلم ، الأهرام ، ١٩٩٢ ، ص ص ١٥٤-١٥٥ .
- (٢١) وحيد عبد المجيد : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .
- (٢٢) قصر د . عبد العظيم رمضان من يزورون تاريخ مصر الحديث عمداً على الناصريين ، في حين يرصد البعض ترويراً في تاريخ مصر قبل جمال عبد الناصر والناصرين ، مصدره مؤرخو القصور الملكية وعملاء الاستعمار الذين شوهوا زعماء الثورة العربية كي يصيبوا الأمة بخيبة أمل في قيمها وزعاماتها ، وحتى لا تطلع الأجيال المقبلة على مواقف البطولة خشية أن يشهدوا الخطى ويرسموا الطريق . أنظر عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، ص ٧ . وأنظر أيضاً ، على الحديدي : عبد الله النديم ، أعلام العرب ، العدد ١٢٥ ، ١٩٨٧ ، ص ٤ .
- (٢٣) عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، ص ٧ .
- (٢٤) عبد الرحمن الراقعي : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ط ٤ ، النهضة المصرية ، ١٩٦٤ ، ص ص ٣٧-٣٨ . وأنظر أيضاً ، عبد المنعم الجميبي : عبد الله النديم ، دار الكتاب الجامعي ، ١٩٨٠ ، ص ص ٢٠٠-٢٠٢ .
- (٢٥) محمد حسنين هيكل : لمصر لا لعبد الناصر ، الأهرام ، ١٩٨٧ ، ص ٢٣ .
- جدير بالذكر أن محمد حسنين هيكل نشر في كتابه " سنوات الغليان " وثيقة بتوقيع الأحرف الأولى من اسم السفير (إيفون كيركباتريك) الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية عن المحادثات مع الحكومة الفرنسية - ١٥ نوفمبر ١٩٥٦ - حول الحكومات البديلة لمصر بعد سقوط جمال عبد الناصر . أنظر ، محمد حسنين هيكل : سنوات الغليان ، ج ١ ، الأهرام ، ١٩٨٨ ، ص ٨٠١ .
- (٢٦) محمد حسنين هيكل : لمصر لا لعبد الناصر ، ص ص ٢٤-٢٥ .
- (٢٧) نفسه ، ص ٤٢ .
- (٢٨) نفسه ، ص ٢١ .
- (٢٩) مصطفى عبد المجيد نصير وآخرون : ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، ص ص ٥-٦ .
- (٣٠) أنور السادات : البحث عن الذات ، المكتب المصري الحديث ، ١٩٧٩ ، ص ٣٠ . وأنظر أيضاً ، أمال السبكي : التيارات السياسية في مصر " ١٩١٩-١٩٥٢ " ، دار المعارف ، ١٩٨٢ ، ص ص ٣٥٦-٣٥٨ .
- (٣١) أنور السادات : المرجع السابق ، ص ص ١١٢-١١٣ .
- (٣٢) اشترط جمال عبد الناصر الشرط نفسه عند انضمام أعضاء التنظيم الشيوعي (حقتو) إلى تنظيم الضباط الأحرار . أنظر ، خالد محي الدين : المرجع السابق ، ص ٦٨ .
- (٣٣) نفسه ، ص ٢٢١ .
- (٣٤) وتتألف من : جمال عبد الناصر ، عبد الحكيم عامر ، حسن إبراهيم ، عبد المنعم عبد الرؤوف ، صلاح سالم ، عبد اللطيف البغدادي ، كمال الدين حسين ، خالد محي الدين ، أنظر ، المرجع نفسه : ص ١٠٧ .

- (٣٥) نفسه ، ص ٤٣ .
- (٣٦) نفسه ، ص ١١١ .
- (٣٧) أنور السادات : يا ولدي هذا عمك جمال ، دار الهلال ، ١٩٥٨ ، ص ص ٨٠-٨١ .
- (٣٨) لطفي الخولي وآخرون : ملف عبد الناصر بين اليسار المصري وتوفيق الحكيم ، دار القضايا ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ص ٥-١٩ .
- (٣٩) أنور السادات : يا ولدي هذا عمك جمال ، ص ص ٥٠-٥١ .
- (٤٠) أنور السادات : البحث عن الذات ، ص ٩٢ .
- (٤١) أنور السادات : يا ولدي هذا عمك جمال ، ص ١٨٧ .
- (٤٢) خالد محي الدين : المرجع السابق ، ص ١١٣ .
- (٤٣) طارق البشري : الحركة السياسية في مصر ، ط ٢ ، دار الشروق ، ١٩٨٣ ، ص ٨ .
- (٤٤) سبهر إسكندر : الصحافة المصرية والقضايا الوطنية ١٩٤٦-١٩٥٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦ ، ص ٢٧٨ .
- (٤٥) نجوى كامل : الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية ١٩١٩-١٩٣٦ ، ج ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦ ، ص ص ٢٣-٢٤ .
- (٤٦) مصطفى بهجت بدوي : حكايات سبتمبر ٤٢ ، على هامش عهد فاروق وعبد الناصر والسادات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ص ١٢٤-١٢٥ .
- (٤٧) رمزي ميخائيل : تاريخ السياسة والصحافة المصرية من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ ، ص ٣١٥ .
- (٤٨) السيد يوسف : مذكرات معتقل سياسي ، صفحة من تاريخ مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ ، ص ٣٤١ .
- (٤٩) أحمد فارس عبد المنعم : السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية ١٨٠٥-١٩٨٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، ص ص ٢٢١-٢٢٢ .
- (٥٠) جمال بدوي : معارك صحفية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ ، ص ص ٣١٦-٣١٧ .
- (٥١) عبد العظيم رمضان : الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠ ، ص ٥ .
- (٥٢) نفسه ، ص ٣١ .
- (٥٣) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، ط ٢ ، الأهرام ، ١٩٩٢ ، ص ٤٥٩ .
- (٥٤) نفسه ، ص ٥٦١ .
- جدير بالذكر أن بعض المحايدين يدعم " موضوعية هيكل " في مواجهة " موضوعية عبد العظيم رمضان " فيحسم الجدل حول الموضوع بقوله : " وهكذا خرج ناصر منتصراً ، محققاً كل ما كان يتمناه " . أنظر ، جايل ماير : الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ ، ترجمة عبد الرؤوف أحمد عمر ، ١٩٩٩ ، ص ٣٤٩ .

(٥٥) عبد العظيم رمضان : هيكل والكهف الناصري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ ، ص ١٢-١٣

(٥٦) نظمها المعهد الهولندي للأثار المصرية والبحوث العربية بالقاهرة ، مع قسم التاريخ بجامعة القاهرة ، والمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، وقسم الدراسات العربية بجامعة أمستردام .

(٥٧) عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، ص ص ١٣٦-١٣٧ .

(٥٨) أنور السادات : البحث عن الذات ، ص ١٥٠ .

(٥٩) عادل ثابت : عبد الناصر والذين غدروا به ، أخبار اليوم ، ١٩٩٧ ، ص ٦ .

(٦٠) إسماعيل صدقي (باشا) : مذكراتي ، مكتبة مدبولي ، ١٩٩١ ، ص ٧٧ .

(٦١) محسن محمد : التاريخ السري لمصر ، دار المعارف ، ١٩٧٩ ، ص ٤٣٢ .

(٦٢) للموضوعية استبعدنا فترة حكم الرئيس محمد حسني مبارك .

(٦٣) من المشكلات التاريخية التي استخدم الإحصاء لحلها قضية من التاريخ الأمريكي تمثلت في جدال نشأ حول مؤلف ١٢ مقالاً فيدرالياً ، حيث ادعى كل من الكسندر هاميلتون Alexander Hamilton وجيمس ماديسون . James Madison تأليفها ، وكانت المقالات الفيدرالية قد نشرت في عام ١٧٨٧ / ١٧٨٨ بواسطة هاميلتون ، ماديسون وجاي Jay ، وكانت المقالات تصدر في صحيفة نيويورك تحت إسم مستعار وبغرض حث المواطنين على الموافقة على الدستور ، وقد أصبح لهذه المقالات فيما بعد أهمية سياسية كما كانت تعد مصدراً للمعلومات بالإضافة إلى اتخاذها مصدراً لتفسير قصد واضعي أو نيتهم الدستور في قضايا معينة .

وقد كان معلوماً مؤلفي هذه المقالات بصورة عامة ولكن دون تخصص ، وبعد وفاة هاميلتون في ١٨٠٧ ، أعلن ماديسون في ١٨١٨ قائمة بمؤلفاته بعد اعتزاله منصب رئاسة الجمهورية ، وبعدها ظهرت قوائم أخرى بادعاءات معارضة لها . وكان الخلاف حول ١٢ مقالاً: وظل النزاع قائماً حول مؤلف هذه المقالات ماديسون أم هاميلتون وذلك لمدة قرن ونصف . ومن الواضح أن سبب ظهور هذه المشكلة هو أن ماديسون وهاملتون لم يسرعا بعرض قوائم مؤلفاتهم حين صدورهما أو بعد سنوات قليلة ، وكذا بسبب إعلان ماديسون لقائمه بعد وفاة هاميلتون . وقد كانت هناك صعوبات كثيرة أدت إلى عدم إمكان تعيين المؤلف الحقيقي لهذه الإثنتي عشرة مقالة . فالمحتوى السياسي لهذه المقالات لم يكف لإعطاء دليل مقنع لترجيح واحد على الآخر ، إذ أنهما في البداية كانت لهما اتجاهات مشتركة ، ولكن بعد فترة أصبحوا أعداء سياسيين لئولين ، لدرجة أنه في مناسبات متعددة كان كلاهما يتخذ موقفاً معارضاً حتى لكتاباته السابقة . وتمت محاولات للتمييز بين طريقتهما في الكتابة ، غير أنها لم تنجح حيث أن طريقتهما في الكتابة كانت متشابهة لدرجة كبيرة ، ففي عام

١٩٤١ قام عالم الإحصاء موستلر Frederick Mosteller مع ويليامز Frederick Williams بعمل مشترك ، تضمن احتساب متوسط طول الجملة للكتابات الأخرى غير المتنازع عليها لكلا المتنافسين ، فكانت ٣٤,٥ ، ٣٤,٦ لكل من هاملتون ومادسون على الترتيب .
ومن المحاولات التي أجريت في هذا المجال ، فحص ٥٠ مقالاً لماديسون و٤٨ مقالاً لهاملتون ، وتم احتساب معدل استخدام بعض الكلمات مثل *While - Whilst* ، ويعد كلا منهما بديلاً للآخر . وقد أفصحت المقارنة عن ترجيح كفة ماديسون باعتباره كاتب هذه المقالات ، غير أنها لم تعد دليلاً قوياً وكافياً . ومن المحاولات الأخرى التي أجريت في هذا المجال ، هو عرض التكرار النسبي لبعض الكلمات الأخرى مثل *War - Innovation - Commonly* وقد تم إعداد توزيع تكراري لكل كلمة ، كما تم حساب معدل تكرار بعض الكلمات الأخرى لتوفير متطلبات الأساليب الإحصائية حيث يشترط بعضها فحص كلمات تكون مستقلة تماماً عن محتوى أو مضمون النص *Non-Contextual Words* ، ولهذا الغرض تم إعداد توزيع تكراري مقارن لكل كلمة من الكلمات *To-From-By* وقد تم إعداد جدول يحوي ٣٠ كلمة تم اختيارها بصورة مختلفة حسب درجة علاقتها بمحتوى النص *degree of contextuality* ، وتم احتساب معدل استخدام كل كلمة مع إجراء المقارنة بين كل من ماديسون وهاملتون ، وباستخدام أساليب الاستقراء الإحصائي مع الاستعانة بالحاسب الآلي تم التوصل إلى النتائج ، وهي تشير إلى ترجيح تأليف هذه المقالات المتنازع عليها بمعرفة ماديسون بدرجة كبيرة . أنظر مصطفى زايد : الإحصاء والبحث التاريخي ، المؤسسة العصرية للنشر والترجمة ، ١٩٨٧ ، ص ص ٦٢-٦٣ .

(٦٤) جريدة الوفد في ٢٧ سبتمبر ١٩٩٧ .

(٦٥) عام ١٩٨٢ .

(٦٦) عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، ص ٥٦ .

(٦٧) ارجع إلى ترتيب النحاس باشا بين الرواد في المستويات الثلاثة ، وفي ملحق الدراسة .

ملحق الدراسة

جدول تمثيلي لاختيارات (٢٧) من الأساتذة والمتخصصين

رتبت فيه أسماؤهم هجائياً، ورتب الرواد حسب رتبهم في المستوى الثالث، والرقم الوارد في الجدول يعبر عن ترتيب الرائد من وجهة نظر الأستاذ أو المتخصص ضمن الاختيارات العشر التي طلبناها منه في الاستبيان

الفصل الحادى عشر

الانتفاضة الفلسطينية من خلال رواية

"حالم بفلسطين" لرائدة غازى

عبدالله عزباوى (*)

تعتبر رواية "حالم بفلسطين" لرائدة غازى من أهم الأعمال الأدبية التى لفتت الأنظار فى الفترة الأخيرة. ورائدة غازى فتاة مصرية تبلغ من العمر ستة عشر عاماً وتعيش فى إيطاليا وقد كتبت روايتها باللغة الإيطالية. وقد هزها مقتل الطفل الفلسطيني محمد الدرة برصاص جنود الاحتلال الإسرائيلي، الذى عرض عبر شاشات التلفزيون فى جميع أرجاء العالم ومنها إيطاليا التى تعيش فيها رائدة. وقد تفاعلت رائدة مع هذا الحدث، ومن ثم فقد بدأت بالبحث عن الحقيقة وفهم ما جرى فى الأراضي الفلسطينية المحتلة "الضفة الغربية وغزة". وبعدما أتمت رائدة ذلك صاغته فى قصة قصيرة دخلت بها إحدى المسابقات الأدبية فى إيطاليا وفازت فيها هذه القصة، ولذا فقد طلب إليها أحد الناشرين الإيطاليين تحويلها إلى قصة طويلة "رواية" وقامت رائدة بتحويل قصتها القصيرة إلى رواية، وقد طبعت هذه الرواية ثلاث مرات حتى الآن.

وعن أسباب تأليفها روايتها تقول رائدة غازى فى آخر الرواية: "أهدى هذه الرواية التى كل شخصياتها وأحداثها باستثناء بعض الأحداث المنقولة عن وسائل الإعلام من صنع خيالي بالكامل إلى محمد جمال الدرة ذى الاثنى عشر عاماً مثل أحمد ومثل وليد- من شخصيات روايتها- بدون سبب.. بشجاعة، أهديه هذه القصة أدعو لأجله أن يحظى أينما كان.. أينما وجد بشئ أفضل من الكراهية والموت فى تلك الحرب".

وقد لاقت هذه الرواية رواجاً كبيراً عند صدورها، وتناولها بالنقد والتعليق أكثر من مائة عرض وتعليق فى الصحف والمجلات المتخصصة. وقد أزعجت الرواية المنظمات الصهيونية المتطرفة فى كل من أوروبا والولايات

(**) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، كلية التربية، جامعة القاهرة بالفيوم.

المتحدة، لما تضمنته هذه الرواية من رصد وانتقادات لسياسة العنف الإسرائيلية ضد الفلسطينيين الأبرياء. وقد طالبت هذه المنظمات الصهيونية بسحب الرواية من الأسواق واعتبارها دعوةً للتحريض ضد اليهود، واتهمت هذه المنظمات مؤلفتها "راندة غازى" باللاسامية ومعاداة اليهود ،وقد ردت المؤلفة على هذه الاتهامات بأنها لم تأت بشيء من عندها وأن كل ما أشارت إليه فى الرواية منشور فى الصحف العالمية.

وتدور رواية "حالم بفلسطين" حول مجموعة من الأصدقاء الفلسطينيين الذين التقوا معاً صدفةً، ومن خلال تفاعلات الأحداث والحوار بين هؤلاء الأصدقاء، تقوم راندة غازى بمعالجة الانتفاضة الفلسطينية والموقف الإسرائيلي تجاهها. والشخصية الرئيسية فى الرواية هى شخصية إبراهيم المتواجد طوال الرواية، بينما تختفى بعض الشخصيات، ثم تعود من جديد أو تظهر شخصيات أخرى جديدة ،وهو المقصود بـ "حالم بفلسطين" وهو الوحيد الذي بقى على قيد الحياة من بين الشخصيات الفلسطينية التى حوتها الرواية ، وكأن راندة غازى تريد أن تقول أن الحلم الفلسطيني بإقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس سوف يتم تحقيقه، طالما أن هناك نضالاً فلسطينياً من أجل تحقيق هذا الحلم وطالما كان هناك فلسطينيون على قيد الحياة، لا يفقدون الأمل فى تحقيق هذا الحلم الفلسطيني.

وتعالج رواية راندة غازى المحاور التالية

- الانتفاضة الفلسطينية ومعنى الجهاد.
- العنف الإسرائيلي إزاء الانتفاضة الفلسطينية.
- الرؤية الإسرائيلية لعملية السلام مع الفلسطينيين.
- الموقف الأمريكي من القضية الفلسطينية.
- عدم اكتراث العالم بما يجرى فى الأراضي الفلسطينية المحتلة وما يمارسه الإسرائيليون فى حق الفلسطينيين.

أولاً: الانتفاضة الفلسطينية

تتعاطف راندة غازى مع الانتفاضة الفلسطينية، وإن لم تحدد أي انتفاضة تتحدث عنها ، هل هى الانتفاضة الأولى ١٩٨٧-١٩٩٢، أم الانتفاضة الثانية

المعروفة بانتفاضة الأقصى التي نشبت في سبتمبر ٢٠٠٠، وقامت بسبب دخول شارون المسجد الأقصى وانتهاك حرمة، في اعتقادي أن الانتفاضة لدى راندة غازی هي معنى ومضمون يدل على رفض الشعب الفلسطيني لواقعه المر تحت الاحتلال الإسرائيلي الغاشم الذي ينتهك حرمانه ومقدساته ويدنس أرضه. وهي ترى أن ما يقوم به الفلسطينيون ضد الإسرائيليين المحتلين من ثورة وتمرد ورد العنف بالعنف هو نوع من الجهاد الشرعي، فتقول على لسان والد إبراهيم- الشخصية المحورية في الرواية "الجهاد شرعي.. شرعي.. تذكروا أن الله قال لنا دافعوا عن أرضكم أهلکم، ولو اعتدى أحد على أرضكم واستولى على داركم وادعى الأكاذيب على ما لكم، قاتلوا .. استعملوا أسلحته ومخططاته وأفعاله واصنعوا به مثل ما يصنع بكم، وستكون تلك حرباً مقدسة^(١).

ولم تشر إلى الآيات الدالة على ذلك في القرآن الكريم. وان لجأت بعد ذلك إلى القرآن الكريم وذكرت الآية القرآنية الكريمة التي تحث المسلمين على الاستشهاد في سبيل الله فتورد الآية الكريمة: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون"^(٢) وذلك على لسان والد إبراهيم الذي كان يعمل واعظاً في أحد المساجد ويحث الفلسطينيين على القتال ضد الإسرائيليين . والذي تم قتله على أيدي هؤلاء الإسرائيليين المحتلين.

تعتمد راندة غازی في تبرير الانتفاضة الفلسطينية على أن إبراهيم رأى في طريقه إلى عمله بعض الأطفال يتصايحون^(٣).

"وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم".

"واقتلوهم حيث تقفتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم".

"فإن قاتلوكم فاقتلوهم، كذلك جزاء الكافرين".

وهي تؤكد أن أرض فلسطين هي أرض العرب وهي كنعان القديمة التي احتلها اليهود في القرن الثالث عشر قبل الميلاد فتقول على لسان والد إبراهيم الذي كان يقول للمصلين "نحن على صواب.. تذكروا ذلك جيداً.. على صواب.. وكان يلوح ظلاً ولو صغيراً.. على أحد الوجوه.. ظل يشك كان يقول: أرض كنعان.. تذكروا أصبحت أرض إسرائيل فيما بعد.. تذكروا بعد انتصار الإسرائيليين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.. تذكروا.. هذه أرضنا.. ملكنا"^(٤).

وهي تشير إلى معانى بعض الأسماء التي يحملها بعض الفلسطينيين والفلسطينيات مثل جهاد ونضال، فنقول على لسان بطل القصة- إبراهيم: "جهاد إنه اسم من تلك الأسماء المستحدثة في وقت الحرب. نضال هو اسم أيضاً من تلك الأسماء المستحدثة في وقت الحرب وهو يعني رجلاً شجاعاً لا يستسلم.. يقاتل"(٥).

تعود رائدة غازى مرة ثانية لتبرير قيام الفلسطينيين بالجهاد والعمليات الاستشهادية ضد الإسرائيليين، فنقول على لسان بطل القصة "إبراهيم" (لو توقفنا يوماً عن القتال وعن الاشتباك مع الجنود الذين يدخلون قرانا؟ لو توقفنا يوماً عن اللجوء للعنف. ماذا سيفعلون؟ أسيقتلونا أيضاً؟ أيسلمون في التقدم بالدبابات والرشاشات؟ وهل يتوقفون عن احتلال أراضينا؟

يا جهاد.. ليست عندهم النية في الانسحاب ولا تتخيل أنهم يرون لنا القتال والمجازفة بأرواحنا كل يوم ،ولكننا نقوم فقط بالدفاع عما أنفسنا يا جهاد... أو على الأقل الدفاع عن بقى لنا. قطعة بأثمة من الأرض ،ولو توقفنا سيأخذونها مناهى الأخرى. لم يحترموا الاتفاقات قط. أبداً بل سعوا دائماً إلى احتلال الأراضي. أراضينا أراضى لبنان.. يريدون الاستحواذ على ما يقدرون عليه.. ليقيموا إسرائيل العظمى.. أرض الميعاد(٦).

وتورد على لسان نضال ((يجب أن نقاتل ننفذ أبناءنا ونسعى لمنحهم مستقبلاً أفضل، بلا جنود صعاليك يعيثون فساداً في المدن، يندسون الجوامع ويلوحون بأسلحتهم)) (٧).

وهي ترى أن هزيمة الإسرائيليين لن تتم إلا بقوة تحمل الفلسطينيين ومواجهة الإسرائيليين بالعنف لا بالشفقة والتسامح أو الضعف، فنقول على لسان نضال أيضاً: "علينا أن نهزمهم بفضل قوة تحملنا ،علينا أن نهزمهم بشجاعتنا ، ببسالتنا ،لا بالشفقة والتسامح أو الضعف ،هؤلاء القلة يقتلون منا كل يوم ،أبناءنا ، نساءنا ،أمهاتنا ،أبائنا ،سنقهرهم ،سنكسر حياتنا لهذه الحرب وسنقهرهم)) (٨).

وهي تحاول أن ترد على أكاذيب الإسرائيليين بأن من يقوم بالعمليات الاستشهادية هم من المتطرفين الفلسطينيين، فتشير إلى شخصية جمال ذى العشرين ربيعاً- وإن لم يكن متطرفاً- الذى فجر نقطة تفتيش إسرائيلية. وفجر معه خمسة جنود إسرائيليين(٩).

وإذا كانت رائدة غازى قد أوردت أو تبنت فيما سبق الأسباب الرئيسية

لقيام الفلسطينيين بانتفاضتهم ومواجهة الإسرائيليين بالعنف ،فهي فى الوقت نفسه تورد الرأى الآخر المطالب بتوقف العنف مع الإسرائيليين حتى يتم التوصل إلى سلام مع الإسرائيليين ،فتقول على لسان محمد وهو سائق لشاحنة إسعاف: "يجب أن نهزمهم بالتحكم فى أنفسنا.. انظر عرفات.. ليس بمفرده عمل شئ.. يقول شينا وشعبه يفعل شينا آخر ،بالاعتداءات والانفجارات لن نصل أبدا للسلام(١٠).

الموقف الإسرائيلى من الانتفاضة والفلسطينيين

ويعتبر هذا المحور من أهم محاور الرواية والذى خصصت له راندة غازى القسط الأكبر من روايتها ،من أجل فضح الاحتلال الإسرائيلى وإظهاره للعالم.

وتصف راندة توقع الفلسطينيين للموت من قبل الإسرائيليين كل يوم فتقول: "هذه البلدة وهذا الخراب والموت القريب من الكل ،كل يوم ،صار الموت شينا عادياً ، بكل ما فيه ،الموت المفاجئ ،والموت غير المتوقع ،والموت القريب والموت الحائر ،والموت المباغت(١١).

وترصد راندة بعض الأحداث التى قتل فيها بعض الفلسطينيين على أيدى الجنود الإسرائيليين، فتقول على لسان إبراهيم: "البلدة المجاورة مات فيها اليوم ثلاثة فتیان ،حيث حضر جنديان وسمعا جلبة فالتفتا وأطلقا النار(١٢).

هكذا يطلق الجنود الإسرائيليون النيران على الفلسطينيين لمجرد أنهم سمعوا جلبة، فهم يخشون من اعتداءات الفلسطينيين أو رميهم بالحجارة ، إن أسهل شئ لديهم إطلاق النيران على الفلسطينيين المساكين.

وتشير راندة إلى كثرة عدد القتلى من الفلسطينيين، فتورد على لسان محمد سائق شاحنة لنقل الجرحى والقتلى من الفلسطينيين إلى المستشفى التى يعمل بها فتقول: "أعتقد أنني لن أحتمل المزيد من الذهاب والإياب بين القرى والمستشفى ،وصلنا قتلى كل يوم يا رامى.. قتلى فوقهم قتلى.. أعدادهم مهولة.. لم أعد قادراً على غسل الدم من فوق شاحنتى (١٣).

كما تورد على لسان محمد لرامى أيضاً: "أنا لم أعد قادراً على رؤية هذه الحرب ،وهى تقتل شعبى يا رامى"(١٤).

وهى تصور مدى بشاعة الإسرائيليين فى تعاملهم مع الفلسطينيين

الأبرياء فتورد مشهداً لجندي إسرائيلي يصوب مدفعه الرشاش إلى إحدى السيدات الفلسطينيات التي وقعت على الأرض أثناء فرارها من الجنود الإسرائيليين الذين هاجموا قريتها وعاثوا فيها عيثاً، وتوسل هذه المرأة إليه ألا يقتلها ، إلا أنه قتلها في النهاية ،فتصوره رائدة بكلماتها على النحو التالي)) حينما خاطبت المرأة الجندي صرخت فيه.. أمك.. أين هي الآن؟ أيروق أن أرسل ابني خلفها حاملاً رشاشاً في يده ؟ أيروق لك ان يطردها ابني من بيتها وأن يهددها" (١٥).

وتفصح رائدة غازي السياسة الإسرائيلية في تخريب بيوت أسر المجاهدين الفلسطينيين، عقاباً لهم لما اقترفه ذوهم في حقهم، وتصور ذلك بأسلوب يجعل القارئ يقشع بدنه من هول العنف الإسرائيلي وهدم بيوت الفلسطينيين ،فتقول: "ذات يوم وصل ثلاثون لاجئاً فلسطينياً إلى البلدة فقد كان لزاماً عليهم أن يهجروا بيوتهم لأن الإسرائيليين قرروا أن بلدتهم كانت مقراً لجماعة إرهابية ،وهكذا هدمت بيوتهم وصارت بلدتهم قاعدة إسرائيلية، في ذلك اليوم دخلت الدبابات بلدتهم ،أطلق الجنود النار على كل الأشخاص الذين وجدوهم نساءً شيوخاً ، أطفالاً ،دخلوا كل البيوت ،أشعلوا النيران في بعضها ، فيما أصحابها لا يزالون بالداخل. في البعض الآخر اغتصبوا النساء ، سرقوا المال ،دمروا كل شيء ،وضربوا الشيوخ وحطموا عظام الأطفال دون أن يقتلهم ، حتى يعانى الناس طويلاً بأطفالهم المعاقين ، يمثلون عبئاً على أسرهم)) (١٦).

وهنا نجد رائدة غازي تشير إلى أسلوب الإسرائيليين في معاقبة أطفال الحجارة بتكسير عظامهم وعدم قتلهم ،حتى يكونوا عالة على أهاليهم وجعل مهمومين بأبنائهم المعوقين ،وحتى يكون ذلك درساً لبقية الأطفال الفلسطينيين .وهي السياسة التي اتبعها رابين ،عندما كان وزيراً للدفاع .

وتشير رائدة إلى عدم احترام الإسرائيليين لمقدسات المسلمين ودخولهم المساجد بالأحذية وتدنيس هذه الأماكن الطاهرة بحجة التفطيش عن بعض العناصر الإرهابية- حسب ادعائهم- وتصف رائدة ذلك فتقول "مخلفين ورائهم- أى الجنود الإسرائيليين- على بساط الصلاة الطاهر ،وحلاً وغباراً ، رافعين أصواتهم ،ومقاطعين مشوشين على المصلين ،لأنهم كان لابد أن يتحكموا. هذا ما قالوه.. هكذا بالضبط.. إنهم لابد أن يفتشوا" (١٧).

وتتحدث رائدة غازي عن إجراءات التفطيش الإسرائيلية لسيارات

الفلسطينيين ، ، وكيف أنهم لا يحترمون سيارات الإسعاف التي تحمل المصابين أو المرضى أو السيدات الحوامل من الفلسطينيين ، وأنهم لا يسمحون لها بالمرور حتى يمكن إسعاف من بداخلها ، وصفت كل ذلك على لسان رامى وهو سائق فلسطيني لإحدى الشاحنات التابعة لأحد المستشفيات الفلسطينية ، كان يتحدث إلى محمد الممرض فى المستشفى التى يعمل بها رامى " ، وأنا قادم إلى المستشفى ، كنت راكباً سيارة أجرة ، وكانت تسبقنا سيارة إسعاف ، وفى لحظة أوقف بعض الجنود الإسرائيليين حركة المرور ووضعوا حاجزاً وبدأ يفحصون كل الأوراق ؟ واحداً واحداً ."

قالوا أنهم يبحثون عن إرهابيين.. ومر الوقت بطيئاً واغتياظ سائق الأجرة ، وصدرت صرخة من سيارة الإسعاف، فانتابني الخوف ونزلت من السيارة ، وذهبت لاستطلاع الأمور فقال لى سائق الإسعاف إنه ينقل امرأة حاملاً ، كانت تتألم ، أتفهم ، كان يجب أن تذهب للمستشفى لتضع طفلها ، جريت إلى الجنود وتوسلت إليهم ، أن يتركونا نمر قلت لهم: إن هناك امرأة حبلى ، كانت على وشك الوضع ، وأنها سوف تموت ألماً. أتعرف ما أجابنى هذا الجندى لعنة الله عليه أتعرف بم أجابني؟ قال لى لتمت هذا ما قاله لى.. بوجه بارد ، بقلب مجرد من المشاعر ، وبيرود ولا مبالاة ولتمت ، جريت لرؤية المرأة. كان معها بالداخل ممرضتان يقولان لها أن تأخذ أنفاساً طويلةً ومنتظمة ، ولكنها كانت تصرخ ، كانت تتألم بشدة ، كانت تطلب أن ننقلها إلى المستشفى.. أن نسرع إنها لم تعد قادرة على الاحتمال.. لكن لم يكن فى استطاعة أى منا نقلها إلى المستشفى ، لا أحد منا قد أماتنى ذلك. وعندما يسأل محمد رامى ماذا حل بتلك المرأة يجيبه رامى يا إلهى صمدت يا محمد لمدة ساعة ، صارخةً باكيةً ثم بدأت تنزف .. تنزف كثيراً ، ثم ماتت بعد أن صفت كل دمها ماتت والطفل أيضاً مات. مات ، ولم استطع فعل شئ بينما كانت المرأة تشد على يدي بآنسة ، وتتظر إلى بتوسل قائلة خذنى إلى المستشفى ، ولم ، لم آخذها" (١٨)

لقد كانت راندا غازى وهو تصور بشاعة الاحتلال الإسرائيلي فى معاملة الفلسطينيين، وكيف أنهم أى الإسرائيليين عديمو الإنسانية، وليس لديهم أى قلب يحمل مشاعر الرحمة ، مما كتبت راندة غازى فى هذا الخصوص يفوق مائة مقال تكتب عن وحشية الإسرائيليين فى التعامل مع الأبرياء من الفلسطينيين، ما كتبت راندة غازى أقرب إلى الفيلم التسجيلي ، وكأنها تحمل كاميرا تصوير ، وصورت به هذا المشهد الذى يهز كل المشاعر الإنسانية

وتفضح الوحشية الإسرائيلية ، ولقد رأينا كيف أن القوات الإسرائيلية التي حاصرت الرئيس عرفات في مارس من العام الماضي (٢٠٠٢) في مقره في رام الله في العملية المعروفة باسم "الجدار الواقي" منعت سيارات الإسعاف من نقل المصابين والقتلى من الفلسطينيين والفلسطينيات.

وبالرغم من أن المسيحيين الفلسطينيين لم يشاركوا إخوانهم المسلمين في العمليات الاستشهادية ، ربما لأسباب تتصل بالعقيدة ، فإنهم لم يسلموا من بطش الإسرائيليين وعدوانهم ، وقد أوضحت راندة غازي هذه الحقيقة على لسان رامي سائق الشاحنة المسيحي الفلسطيني ، فقالت: "لقد فقدت أسرتي في تلك الحرب ، لم يعد يبقى لي شئ أنقذه ، رأيت كل شئ ، رأيت الرصاص يحطم نوافذ كنيسةنا ، أثناء حضورنا للقداس ، رأيت المصلين يرتمون أرضاً ويصرخون فرعاً" (١٩)

وترى راندة غازي أن ما يقوم به الإسرائيليون تجاه الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة ، هو إبادة جماعية لهذا الشعب المسكين ، وأن هذه الإبادة لا تقل بشاعة عما لا قوه من إبادة جماعية على يد هتلر ، وهي تقصد تعذيب اليهود في معسكرات أوشفيتز ، وعملية الهولوكوست "المحارق" التي أقامها هتلر لليهود ، ومن ثم فإن راندة ترى أن ما يحدث لفلسطيني الأراضي المحتلة" الضفة الغربية وغزة" هي ثاني إبادة جماعية لشعب في التاريخ ، فنقول تعقيباً على وحشية الإسرائيليين تجاه فلسطيني الضفة الغربية وغزة تلك هي ثاني إبادة جماعية لشعب في التاريخ ، أصحاب السلطة المسئولون الأوائل عن الموتى. لم يتعلموا درس الألم. لا ، بل قرروا تعذيب شعب آخر مثلما تم تعذيبهم ، وأن يدفعوا ثمن الآمهم بشر بئسون ، بئسون ، فقدوا كل شئ ما عدا شيئاً واحداً إيمانهم.. وها هي معسكرات الاعتقال ، لا لا تبحث عنها بعينيك ، بل تراها. تلك المعسكرات موجودة في ذاكرة اليهود الذين يريدون حكومة شرعية ، الذين يحيون جنون مستشار ألماني سابق ، في عقول هؤلاء اليهود الذين يبدون أنهم يمثلون كل يهود العالم.. حتى ولو لم يكن الوضع كذلك" (٢٠).

ويجب أن نشير إلى أن هناك إبادات جماعية أخرى مشهورة لم تشر إليها راندة غازي وتعنى بها إبادة الهنود الحمر على سكان الولايات المتحدة الأمريكية على أيدي الوافدين الجدد الأمريكان في القرن التاسع عشر فيما يعرف بالاتجاه ناحية الغرب ، وهناك إبادة الصرب في عقد التسعينيات للمسلمين في البوسنة والهرسك بعد انهيار دولة يوجوسلافيا. وهناك مذبحه الأرمن التي وقعت عام ١٩١٥ على أيدي الأتراك.

وتتساءل راندة ،لماذا يفعل الإسرائيليون ذلك بالفلسطينيين فتقول على لسان محمد وهو يتحدث إلى راحي: "لماذا يفعلون بنا ذلك؟ إنهم شعب ملعون ، قاسوا الكثير في الماضي ،لكنهم الآن يريدون أن ندفع ثمن ما حدث لهم ،أعنى أنهم اضطهدوا طويلاً ،لماذا لا يبحثون عن بعض السلام الآن ،لماذا يستمرون في تلطيخ أيديهم بالدم"؟(٢١)

وتعود راندة غازي إلى الإستشهاد بالقرآن الكريم في تذكير اليهود بنعمة الله عليهم فتورد الآية الكريمة: "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي ،التي أنعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين" ثم تتساءل قائلة: "حررهم الله أنقذهم ،وهكذا يشكرونه بقتل أبنائه؟ انهم حقاً ظالمون"(٢٢).

وتوضح راندة حال الفلسطينيين اليوم ،بعد أن استولى الإسرائيليون على الجزء الأكبر من بلدهم في عام ١٩٤٨ ،واستولوا في أعقاب حرب ١٩٦٧ على الضفة الغربية وغزة ،وصادروا معظم أرضى الفلسطينيين، بحيث لم يبق لهم إلا القليل من هذه الأراضي فتقول: "ما الذي يبقى لهذا الشعب الذى تغطيه الكوفيات.. بضع رقع من الأراضي ،وحتى تلك القطع القليلة احتلت ،اغتصبها اليهود، وحتى تلك الرقع القليلة الأرض الطاهرة فى المساجد الموضع الوحيد للسلام المطلق داستها أحمذية الجنود العسكرية".

ولا تنسى راندة غازي فى هذا المجال أن تورد بعض أوصاف شارون الذى أذاق الفلسطينيين المر فتقول على لسان جمال- أحد أشخاص روايتها: "يطلق الشباب على شارون.. سفاح قذر حتى دون أن يعرف شكله"(٢٣). وأن كل الشعب الفلسطيني يكره هذا السفاح القذر"(٢٤).

وتشير راندة غازي إلى أحوال الشعب الفلسطيني الاقتصادية تحت الاحتلال الإسرائيلي إشارة عابرة لكنها تحمل كل معاني الفقر والمعاناة ،حين تقول: "ياكلون الحمص ،لأن المال الذى تعطونهم إياه لا يسمح إلا بشرائه"(٢٥).

وتقارن راندة غازي بين أحوال الفلسطينيين الفقراء فى معسكرات اللاجئين ،الذين هدمت قراهم وبيوتهم وحياة الإسرائيليين المترفة فى المستوطنات الإسرائيلية التى بناها الإسرائيليون فى الضفة الغربية وغزة ،فتقول عن معسكرات اللاجئين من الفلسطينيين "فى إحدى الحقول الحالية والمهجورة عادة نصبت خيام اللاجئين ،وقد تساءل إبراهيم بطل الرواية عندما رأى هذه الخيام: "ترى أي القرى استولوا عليها هذه المرة (٢٦). وأنه رأى على الفور

سراير المعسكر الخشبية الخشنة ذات الملاءات المتسخة. أطفال شيوخ نساء جرحى داميين، محتضرين، باكين، حزانى، منهارين" (٢٧).

أما عن الحياة في المستوطنات اليهودية، فقد وصفتها عندما تحدثت عن إحدى المستوطنات فقالت: "مروا بمستوطنة يهودية تفيض بالحياة، تملؤها محال وحدائق وناس يشترتون ويرحلون ويخرجون من المحال، صبية على الألواح الزلاجية، عشاق في المطاعم، عائلات في الشوارع، هنا لم تكن الحرب، تبدو سوى حادث بعيد، كلمة بلا وزن، مشكلة لا تعنى أحداً. كان الناس يرتدون ملابس جميلة، وتبدو عليهم النعمة مال.. صحة.. سلطة. كان يصعب تصديق أنه على نحو بضعة كيلو مترات قليلة، هناك قرى فقيرة حيث بشر يتألمون، ويموتون من الجوع والبرد، بل أسوأ من ذلك. رمياً بالرصاص. وكان يصعب تصديق أن الحياة الرغدة لهؤلاء الناس يمكنها التعايش مع فقر شعب ممزق بالجراح والآلام" (٢٨).

وتشير راندة إلى نتائج الانتفاضة على لسان إبراهيم، الذي كان متشائماً من نتائجها، فتقول: "مضى عليها عام الآن، لكن الشيء الوحيد الذي حصلنا عليه هو عدد مفرع من القتلى" (٢٩).

ويبدو أن راندة غازی هنا عندما أشارت إلى نتائج الانتفاضة السلبية على سكان الأراضي المحتلة الفلسطينية كانت تشير إلى بشاعة الاحتلال الإسرائيلي في مواجهة هذه الانتفاضة، وأنها من ناحية أخرى تورد الرأي الآخر عن الانتفاضة حيث يعتقد بعض الفلسطينيين أن الانتفاضة الفلسطينية الثانية "انتفاضة الأقصى سبتمبر ٢٠٠٠" لم يكن هناك داع لها.

وبالرغم من رنة التساوم التي أوردتها راندا بشأن انتفاضة الأقصى إلا أنها تؤمن بأن المستقبل ربما يحمل خيراً للفلسطينيين فتقول: "ربما يأتي زمن يمكن أن يحدث فيه شيء ما، ربما يأتي زمن أن يتوقف فيه تقدم الإسرائيليين" (٣٠).

وراندة غازی لا تضع كل الإسرائيليين في سلة واحد، فهناك من اليهود من يرفضون العنف مع الفلسطينيين فتقول على لسان رامي الذي أحب فتاة يهودية "أعتقد أننا في الواقع نحفظ ببعض الأحكام المسبقة عنهم من الخطأ أن تقول أنهم يحبون العنف، كلهم متعجفون، هناك الكثير منهم ممن لا ينطبق عليهم ذلك، وبعضهم يرفضون الحرب" (٣١).

كما تشير -راندة غازی- إلى وجود مجموعة من اليهود المحبين للسلام

ولعلها تقصد بهم جماعة السلام الآن في إسرائيل، فتقول على لسان رامى الذى كان قد تعرف على جماعة من الإسرائيليين المحبين للسلام "قابلت مجموعة من الشباب. لكنهم كانوا أشخاصا شجعاناً أذكر لك. لطالما قلت لى - يقصد ابراهيم- أن اليهود كلهم قساة على حد سواء ،لكن هؤلاء كانوا اناساً شرفاء. كانوا يعرفون ما يفعلونه بنا جنودهم كل يوم إنهم لم يكونوا مثل الآخرين" (٢٢).

كذلك ترى راندة غازى أن يهود إسرائيل ليسوا كل يهود العالم فتشير إلى أن هناك يهوداً آخرين فى العالم يحتجون على العنف الذى يمارسه يهود إسرائيل ضد فلسطيني الأراضي المحتلة وأن حكومة إسرائيل لا تمثلهم وإنما تمثل نفسها فقط، وأنهم أبرياء من أفعالها فتقول: "إبراهيم يعرف ،يؤمن ،بأنهم ليسوا كذلك ، لا يمكن أن يكون شعب بأكمله يؤمن بذلك لازل هناك أشخاص يؤمنون ،أشخاص لا يخفون المأساة خلف قناع من الوهم ،لكنهم يواجهون الواقع ،مثل تلك المرأة التى شاهدها ذات مساء فى التلفزيون فى منزل جاره رباح ، تلك المرأة التى صرحت باسم الجالية اليهودية بسويسرا- وهى تضع يدها على قلبها- إن حكومة إسرائيل لا تمثلهم فى شئ. إنهم يحتجون على العنف الذى يمارس ضد الفلسطينيين ، وليسوا كلهم يريدون القضاء عليهم" (٢٣)

الموقف الأمريكى من الانتفاضة الفلسطينية

توضح راندة غازى الموقف الأمريكى من الانتفاضة الفلسطينية والفلسطينيين، فعلى حين تتغاضى الولايات المتحدة عن عمليات الاغتيال التى تقوم بها إسرائيل ضد القيادات الفلسطينية، فأنها تنتظر إلى الفلسطينيين على أنهم إرهابيون وسفاحون ،وتعالج ذلك بطريقة ساخرة فتقول: "اغتيال زعيم منظمة التحرير الفلسطينية.. ماما أمريكا وبخت إسرائيل حقاً العالم يتطلع ،الفلسطينيون يردون ،ماما أمريكا تصفهم بالإرهابيين "حقاً؟" العالم يتطلع.. واضح ان الإسرائيليين ليسوا إرهابيين- كلا- ليسوا إلا جنوداً مساكين يحملون بعض المدافع الصغيرة وقليلاً من الدبابات. أنظر فى المقاتل الفلسطيني يا لهم من قتلة سفاحين. تلك الأسلحة ذات التقينة العالية فى مقدمة الجيش ،والأجهزة الحديثة شديدة التعقيد -هل هى حجارة- تلك الحصى الفتاكة المصوبة بدقة والكئاتب العسكرية شديدة التنظيم.. العالم يتطلع.. تستمر ماما أمريكا فى إرسال هدايا صغيرة للإسرائيليين نعم هدايا صغيرة مجرد هدايا صغيرة للقتل" (٢٤).

وبالإضافة إلى هذا التهكم فان راندا غازى تشير إلى بندقية خاصة بأحد

الجنود الإسرائيليون تحمل عبارة "صنع في أمريكا" وصلت قبل شهر (٢٥).

العالم والانتفاضة الفلسطينية

تشير راندة غازی فی روايتها فی أكثر من مكان إلى عدم اهتمام العالم بما یرجى فی الأراضي المحتلة من مذابح یقوم بها الإسرائيليون فی حق الشعب الفلسطيني، فتقول فی إحدى الإشارات إلى التجاهل بمناسبة مقتل والد إیراهیم علی أیدی الجنود الإسرائيليین قتل فی الحرب- هو الآخر- إلا أن حادث مقتله لم یظهر علی شاشة التلفزيون، لكن فی الواقع لا یهم أن یعرف العالم بما أن العالم لا یأبه البتة، لیمت واحد أكثر. واحد أقل. ما هی إلا أرقام.. أنها لیست معرکتهم.. وهم لا یعرفون ذلك جیداً لأنهم- هم- الذین اختاروا أن یقتوا بعیداء، وكما تعرف فإن الأمر بالنسبة لهم سیان- ولا یهمهم بتاتا- فهم مشغولون بأمور أخرى(٢٦).

وتشير مرة أخرى إلى عدم إدراك دول العالم بالأطماع الإسرائيلية فتقول: "لكن الإسرائيليین یریدون الأراضي كلها یریدون أرض إسرائيل یریدون تحقیق حلم إسرائيل الكبرى.. لن یرضوا بالسماح للفلسطينیین بإقامة دولتهم.. لم یحترموا المعاهدات.. یحاولون أخذ كل شیء.. رباه. العالم لا یدرك ذلك"(٢٧).

الإسرائيليون وعملية السلام

عالجت راندة غازی الرویة الإسرائيلية للسلام مع الفلسطينيين، هذا السلام غیر العادل والذی یجبر الفلسطينيين علی التنازل عن جزء كبير من أراضيهم فتقول فی تعليقها علی موقف إیراهیم من الفلسطينيين و السلام إیراهیم یعرف جیداً أن الحكومة الإسرائيلية لیست راغبة فی السلام لأن السلام یعنی تسويات، یعنی اهتمام یعنی إنسانية واحساس لكن الإسرائيليین یریدون الأراضي كلها. یریدون أرض إسرائيل، یریدون تحقیق حلم إسرائيل الكبرى لن یرضوا بالسماح للفلسطينیین بإقامة دولتهم ، لم یحترموا المعاهدات.. یحاولون أخذ كل شیء . كل شیء(٢٨).

وتشير مرة أخرى إلى الرویة الإسرائيلية للسلام مع الفلسطينيين عند الحديث عن والد إیراهیم فتقول: "كان والده یقول لتلك الجماعة من المصلین بالمسجد أنه حین یدخل العدو بیتك. ویسلبك ملابسك. وحين یحتل حجرات بیتك ، ویترك لك ركناً بالردهة. فقط ما یسمح لك بالوقوف أنت وعائلتك ثم بعد ذلك

بعد أن يسلبك ما تملك يقول لك ببساطة لنصنع السلام ،إن قلت لا أتكون إرهابيا ، لا تريد السلام؟ بالطبع تريده. كان والده يقول ،لكن لا سلام بدون عدل" (٣٩).

وتوضح راندة رغبة الفلسطينيين فى إقامة السلام العادل مع الإسرائيليين ونقض هؤلاء للاتفاقات التى وقعوها ،ولعل أوضح مثال نقضهم اتفاقات أوسلو فتقول على لسان إبراهيم الذى يوجه خطابه إلى جهاد "لقد حاولنا الحوار ألف مرة.. وألف مرة.. نقضوا الاتفاقيات ،فعلوا ما أرادوا ،متحدين العالم كله" (٤٠).

كما تتحدث عن تشدد الإسرائيليين وصلاقتهم فى المفاوضات وتركهم المفاوضات لإجبار الفلسطينيين على الانصياع لأرائهم وألا فلنؤجل المفاوضات مرة ومرات ،فتقول: "إنهم فاقدون الإحساس بالأم شعبنا ،وحتى بالأمهم ،حتى حين يرجو العالم بأجمعه.. حين يتوسل بعض الاتفاقيات فهم يتركون مائدة المفاوضات بمنتهى الصلابة ويقولون لا .. لا .." (٤١).

وترى راندة أنه نظراً لفشل مساعي السلام وتعنت الإسرائيليين مع الفلسطينيين ، ويأس الآخرين من الحصول على حقوقهم ،فإنهم يلجأون إلى العنف فتقول على لسان إبراهيم: "أترى أن اصحاب المحادثات السلمية قد فعلوا شيئاً ملموساً لأجلنا ،إنه لشيء محزن أن أقول ذلك. لكنه الطريقة الوحيدة لإنقاذنا الآن" (٤٢).

لقد نجحت راندة غازى المصرية الاصل وذات الستة عشر ربيعاً فى فضح الوحشية الاسرائيلية تجاه الشعب الفلسطينى البطل. إن أهمية ما كتبه راندة غازى إنها استطاعت أن توصل الصوت والاستغاثة الفلسطينية إلى العالم الغربى سواء فى الولايات المتحدة أو أوروبا، دون ما أية دعاية مدفوعة الأجر تجعل القارئ الغربى ينأى عنها.

رواية "حالم بفلسطين" تبرز أهمية اللجوء إلى الآداب والفنون فى شرح القضايا العربية أمام الرأى العام الغربى وهو ما حدث مع هذه الرواية، ومن ثم نستطيع القول إن راندة غازى بنشر روايتها بالإيطالية وترجمة هذه الرواية إلى معظم اللغات الأوربية قد خدمت القضية الفلسطينية خدمة كبيرة وجليلة، عجزت عن تأديتها كثير من المؤسسات السياسية والإعلامية العربية.

الأمل أن يقوم العرب المقيمون فى أوروبا بأعمال أدبية مشابهة ومخاطبة الرأى العام الغربى بلغته التى يجيدونها ويؤلفون بها أعمالاً أدبية أخرى ،كما

أرجو ان يقوم الفنانون العرب بعمل بعض الأعمال الفنية من فن تشكيلي وأعمال
 درامية من أفلام تسجيلية وغيرها، تستطيع أن تخاطب الرأي العام العالمي،
 وتشرح قضاياها العربية وفي مقدمتها القضية الفلسطينية التي هي لب مشكلة
 الشرق الأوسط. دونما دعاية مصطنعة . إذا ما قام أدباؤنا وفنانوننا العرب
 المقيمون في الخارج بمثل هذه الأعمال التي على شاكلة رواية "حالم بفلسطين"
 لرائدة غازى فسوف نستطيع شرح وجهة النظر العربية، وكسب هذا الرأي إلى
 جانبنا في معركتنا ضد قوى الظلم والطغيان التي نجحت حتى اليوم في طمس
 الحقائق وتضليل الرأي العام العالمي وضمه إلى جانبها، فهذه القوى الظالمة قد
 استطاعت على سبيل المثال تصوير الانتفاضة الفلسطينية وما صاحبها من
 عمليات استشهادية على أنها أعمال إرهابية. نأمل أن تكون هذه الرواية بداية
 لأعمال مشابهة ونرجو ألا تكون العمل الأخير في هذا المجال.

الهوامش

- (١) الرواية ، ص ٢٩ .
- (٢) السابق ، ص ٣٠ .
- (٣) السابق ص ١٩١ .
- (٤) السابق ، ص ٢٩ .
- (٥) السابق ، ص ٩ .
- (٦) السابق ، ص ٩٢ .
- (٧) السابق ، ص ٥٤ .
- (٨) السابق ، الصفحة نفسها .
- (٩) السابق ، ص ٢٠ .
- (١٠) السابق ، ص ٨٣ .
- (١١) السابق ، ص ٤٨ .
- (١٢) السابق ، ص ١٨ .
- (١٣) السابق ، ص ٨٤ .
- (١٤) السابق ، ص ٨٢ .
- (١٥) السابق ، ص ٧١ .
- (١٦) السابق ، ص ٥٦ .
- (١٧) السابق ، ص ٤٤ .
- (١٨) السابق ، ص ٨٥ .
- (١٩) السابق ، ص ٨٤ .
- (٢٠) السابق ، ص ١٦٩ - ١٦٢ .
- (٢١) السابق ، ص ٨ .

- (٢٢) السابق ، ص ١٤٥ .
(٢٣) ص ١٨٥ .
(٢٤) ص ١٩ .
(٢٥) السابق .
(٢٦) السابق ، ١٢٧ .
(٢٧) السابق ، ١٢٧ .
(٢٨) السابق ، ص ١٥٣ .
(٢٩) السابق ، ص ٢٣ .
(٣٠) ص ١٨٥ .
(٣١) ص ١٧٩ .
(٣٢) ص ١٨٧ .
(٣٣) ص ١٦٢ .
(٣٤) ص ١٦ .
(٣٥) السابق ، ص ٢٣١ .
(٣٦) السابق ، ص ١٥ .
(٣٧) السابق ، ص ١٦١ .
(٣٨) السابق ، الصفحة نفسها .
(٣٩) السابق ، ص ٢٨ .
(٤٠) السابق ، ص ٩٤ ، ٩٥ .
(٤١) السابق ، ص ١٨٩ .
(٤٢) السابق ، ص ٩٣ .

الفصل الثاني عشر

البعد الدينى والتاريخى

للموقف الإسرائيلى من غزو العراق (الجدور والتداعيات)

محمد محمود أبوغدير (*)

تمهيد

ستظل الحرب العراقية بكل تداعياتها المختلفة، ولسنوات طويلة، مثار مناقشات وموضع دراسات، لكشف الجوانب غير المعلنة منها، ومتابعة تأثيراتها المتعاقبة على المنطقة وعلى العالم أيضا. والجانب الذى ستركز عليه هذه الدراسة الموجزة، هو البحث عن جذور الموقف الإسرائيلى تجاه الحرب العراقية التى بدأت شكليا فى العشرين من شهر مارس ٢٠٠٣، ولكنها بدأت فعليا قبل ذلك بأشهر عديدة تعود كما يدعى كثير من المحللين السياسيين والعسكريين إلى ما حدث للولايات المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠١ والذي أصاب الكبرياء الأمريكى فى مقتل ودفع الإدارة الأمريكية إلى البحث عن كبش فداء تكيل له الضربات لكى تثبت للعالم أنها القوة الأعظم على وجه البسيطة. وإذا كانت الخطوات التى قامت بها الولايات المتحدة لشن الحرب على العراق معروفة للجميع، فإن الموقف الإسرائيلى من هذه الحرب منذ كانت فكرة إلى أن تحولت إلى برنامج عمل وإلى استعدادات شملت مناطق شاسعة من الكرة الأرضية وإلى أن سقط النظام العرقى السابق، لم يحظ بعد بالدراسة الكافية بسبب رغبة اللاعب الأول، أى الولايات المتحدة فى إسدال ستار من السرية على الدور الذى لعبته إسرائيل لخدمة المخططات والتجهيزات الأمريكية المتشعبة التى سبقت الاندلاع الفعلى للقتال، وإخفاء ما قامت به إسرائيل من خدمات لوجستية ومخابراتية خلال المعارك ذاتها، لأن الكشف عن أى دور لإسرائيل فى هذه الحرب سيضعف التحالف الذى شكلته واشتطون لتخوض معه أتون الحرب وبخاصة الدول العربية أو الإسلامية التى شاركت بهذه التسهيلات اللوجستية أو تلك قبل الحرب وخلالها. وعلى خلفية

(*) أستاذ اللغة العبرية وآدابها، جامعة الأزهر.

الاستعدادات التي كانت تقوم بها الولايات المتحدة لتنفيذ الهجوم على العراق، تم إعداد حملة إعلامية أمريكية إسرائيلية تتحدث عن ضغوط بذلتها واشنطن لحث إسرائيل على عدم تنفيذ أى هجمات جوية على العراق في حالة حدوث أى قصف عراقى لأهداف فى إسرائيل، كما حدث فى الحرب السابقة. وفى الداخل الإسرائيلى، افتعلت معارك وهمية على صفحات الجرائد المختلفة بين مؤيد للطلب الأمريكى ومعارض له، وفى تلك الأثناء كانت عمليات تخزين الأسلحة والعتاد الحربى الأمريكى تجرى على أشدها فى قواعد إسرائيل الحربية، وكانت أجهزة المخابرات الإسرائيلية بكل ما لديها من أقمار صناعية تتطرق فى فضاء المنطقه، تزود الولايات المتحدة بالمعلومات الخاصة بالعراق وانتشار وحداتها العسكرية وغير ذلك من التعاون العسكرى المباشر وبخاصة فى المناطق الشمالية والغربية للعراق والذي ستكشف عنه الأيام القادمة، وإن بدأت تفاصيله فى الظهور فور سقوط النظام العراقى.

إذن، إذا كانت إسرائيل لم تشارك بصورة معلنة فى الحرب الأمريكية فى العراق للأسباب التى أشرنا إلى بعضها، فإن تواجدها السرى على أرض العراق كان أسبق من الحرب العراقية، ناهيك عن التسهيلات اللوجستية التى قدمتها للمجهود الحربى الأمريكى فى العراق. وقد ذكر المعلق الإسرائيلى "جدعون سامت" فى ذروة القتال على أرض العراق بأن المرء يشعر بأن وحدات المارينز الأمريكية التى وصلت إلى كربلاء فى العراق هى وحدات لواء جولانى الإسرائيلى التى ترابط فى طولكرم". ليس هذا فقط بل إن هذا الصحفى الإسرائيلى نفسه لم يخف تأثير الحرب العراقية على إسرائيل رغم عدم مشاركتها فعليا فيها فيقول "تلك الحرب التى لم تشارك فيها إسرائيل فعليا سيكون لها أعظم الأثر على مصير الدولة".^(١) أى إنه، إذا كانت الحروب التى خاضتها إسرائيل منذ حرب ١٩٤٨ فصاعداً، هى التى بلورت شكل الدولة الحالية وحددت ملامحها، فإن الحرب العراقية التى لم تشارك فيها إسرائيل بصورة مباشرة، يراد لها الآن أن تدخل ضمن منظومة الأحداث والموتيفات التى يجب أن تستغل من أجل تجميع الداخل الإسرائيلى بكل توجهاته السياسية على هدف واحد وهو استغلال الوضع الذى نشأ فى المنطقه بعد الحرب العراقية والذى جعل من الولايات المتحدة كما ذكر الصحفى والمفكر السياسى الإسرائيلى "أورى أفنيرى" إمبراطورية كبرى على غرار الإمبراطورية الرومانية القديمة من أجل إرساء إمبراطورية إسرائيلية صغرى تخضع لسيطرة اليمين

كما برز قبل الحرب العراقية وخلالها ، ما يشبه الاتفاق العام داخل إسرائيل حول ضرورة تأييد المجهود الحربي الأمريكي في المنطقة، بل ويمكن القول بأن الحرب الأمريكية في العراق، وفرت عنصر تقارب بين اليمين واليسار في إسرائيل، وهو تقارب فسره المفكر الإسرائيلي "ميرون بنبنستي" برغبة كل طرف في إسرائيل في اعتبار تلك الحرب بمثابة المخرج المرغوب فيه للجميع، بل وهي عنصر للتقريب بين اليمين واليسار، وإنه إذا كانت الولايات المتحدة قد وصفت كل من يعارض تلك الحرب بأنه يرتكب عملاً مخجلاً وغير أخلاقي أيضاً، لأن الولايات المتحدة تضحى بأرواح أبنائها من أجل حماية الشعوب الصديقة في أوروبا، فإن على الإسرائيليين التقاط هذه الإشارة لأنهم اعتادوا العيش في أجواء تتسم بالعنف، ولذلك فعليهم المشاركة في النضال ضد "الإرهاب الإسلامي" الذي تفوقه الولايات المتحدة. (٣)

لقد برز في إسرائيل من اعتبر تأييد العناصر اليمينية الأمريكية المتطرفة ومعها عناصر يهودية، للحرب ضد العراق، بمثابة وعد بلفور جديد. وفي هذا يقول "أوري أفنيري" بأن "الأيديولوجية الخاصة بالجماعات اليمينية الأمريكية المتطرفة والتي تدعو إلى إقامة إمبراطورية أمريكية عالمية والتي تؤيد أيضاً إقامة أرض إسرائيل الكاملة، تذكرنا بظروف الإعلان عن وعد بلفور. فقد جاء هذا الوعد ثمرة لتزاوج بين شخصين، رجل وإمرأة أما المرأة فهي الصهيونية المسيحية السلفية، والتي ظهرت إلى الوجود قبل ظهور الحركة الصهيونية بسنوات عديدة، والرجل، هو الاستعمار البريطاني. وهكذا ساعد ظهور الفكرة الصهيونية، الإمبراطورية البريطانية على إحباط محاولات فرنسا ضم فلسطين إلى إمبراطوريتها وجرى ضمها إلى الإمبراطورية البريطانية التي كانت في حاجة إلى تأمين قناة السويس والطرق المؤدية إلى الهند. والآن يحدث ذلك مرة أخرى. فقد نظم "ريتشارد برل"، وهو من زعماء اليمين المتطرف في أمريكا، ندوة اقترح فيها عدم الاكتفاء بشن الحرب على العراق، بل دعا إلى شن حرب على السعودية ومصر أيضاً من أجل السيطرة على مصادر البترول ومن أجل تحويل العراق إلى محور تدور حوله المصالح الأمريكية^(٤). تتسع حقاً جذور الموقف الإسرائيلي تجاه العراق الحالي لتشمل جوانب دينية تاريخية، وجوانب ثقافية وسياسية واقتصادية بالإضافة إلى الجوانب العسكرية الأمنية، وتشترك جميعها في رسم مواقف إسرائيل الحالية والمستقبلية وتصرفاتها وهو ما سنلقى

الضوء عليه فى الصفحات التالية.

الدين والتاريخ كأساس لتشكيل الوجودان الإسرائيلي تجاه العراق

رغم أن الغالبية العظمى من السكان الإسرائيليين ليسوا متدينين (٨٠% علمانيون مقابل ٢٠% متدينون) إلا أن الدين والتاريخ القديم يشكلان أحد مكونات الوجودان الإسرائيلي الذي يجعل من الإنسان الإسرائيلي كأننا يعيش فى عالمين متناقضين فى آن واحد فى عالم الماضى بكل ما به من توجهات وموروثات دينية، بالإضافة إلى التجارب التاريخية التى خاضتها الجماعات اليهودية فى أماكن شتاتها وتواجدها، وعالم الحاضر الذى يتطلب منه أن يكون إنسانا طبيعيا يعيش فى دولة طبيعية كسائر دول العالم، وليس فى دولة تربط مبررات وجودها بأسباب دينية ووعود ربانية يشاركون فيها آخرون من غير الإسرائيليين.

وهكذا يلاحظ كل متابع للواقع الإسرائيلي الحالى أنه منذ قيام إسرائيل وحتى الآن، استمرت ظاهرة إخضاع الدين للتاريخ والتى كانت من أهم خصائص التفكير الدين اليهودي على امتداد سنوات الشتات، وذلك فى مجال البحث عن تفسير ديني يلائم الظروف التاريخية التى مرت بها الجماعات اليهودية والتى لازالت تضرب بجذورها فى الواقع الإسرائيلي الحالى. وقد حدد المؤرخ الإسرائيلي المعاصر دكتورى. تلمون، ملامح العقل الإسرائيلي وجذوره الدينية التاريخية بقوله "إن الجماعات اليهودية لازالت غارقة فى التاريخ القديم وفى الموارىث الدينية أكثر من غيرها من الجماعات البشرية الأخرى، ولذلك أصبح الإنسان الإسرائيلي الحالى ممزقا بين التأكيد الذاتى للنفس اليهودية والذى ينبع من تحويل التاريخ إلى صنم جامد يجب عبادته، وبين الرفض الذاتى لنفس هذا التاريخ"^(٥) وقد أثر هذا التوجه على أسلوب تعامل الإنسان الإسرائيلي مع القضايا المختلفة التى تحيط به مع الحرص على ربطها بالماضى اليهودي الذى يعتبره تجربة خاصة به وحده منذ اختصت الإرادة الإلهية، كما يقولون، العبرانيين القدامى وجعلت منهم شعبا خاصا للرب الذى هو رب إسرائيل والإسرائيليون فقط.

بين العراق الحالية وأرض الرافدين قديماً

بناءً على الموروثات الإسرائيلية القائمة على عبادة التاريخ، يجرى التعامل مع العراق الحالية على أساس أنها امتداد لأرض الرافدين القديمة. وتحتفظ

الذاكرة الدينية والتاريخية للإسرائيليين بتجربتين مريرتين مرت بهما الجماعات الإسرائيلية القديمة في أرض العراق حيث تتصل التجربة الأولى بقياس الدولة الأشرورية، التي قامت على أرض العراق الحالية، بتدمير دولة إسرائيل الشمالية وعاصمتها نابلس (التي كانت تشكل الجزء الشمالي من الدولة التي أقامها داود قبل أن تنقسم إلى دولتين بعد وفاة سليمان، إلى دولة إسرائيل في الجزء الشمالي وعاصمتها نابلس ودولة يهوذا في الجزء الجنوبي وعاصمتها القدس) وحدث هذا الدمار للدولة الشمالية في حوالي عام ٧٢٢ ق.م. وترتبط التجربة المريرة الثانية بقيام ملك بابل نبوخذ نصر في عام ٥٨٦ ق.م بغزو دولة يهوذا وتدمير الهيكل وسبى آلاف الإسرائيليين إلى بابل فيما بات يعرف باسم السبى البابلي والذي استمر قرابة ٧٠ عاماً.

ولذلك يقول الصحفي الإسرائيلي "جى معيان" في مقال نشره في صحيفة هآرتس من أن المرء يجد صعوبة في التخلص من الانطباع القائل بأن النظام العراقي الحالي، هو تجسيد لآلاف السنوات التي شكلها تاريخ العراق القديم ابتداء من العصور السحيقة في القدم ومروراً بالفتوحات الإسلامية، وانتهاءً بالحروب التي فجرها صدام حسين.^(١) وليس هذا فقط، بل أن هذا الصحفي نفسه لا يطيق إطلاق أسماء تاريخية وإسلامية على فرق الجيش العراقي فيقول بأن "الوحدات المميزة في الجيش العراقي تحمل أسماء قومية تاريخية إلى جانب حملها أسماء إسلامية، كما أن أسماء بعض المدن مثل: النجف، كربلاء، البصرة وبغداد، ليست مجرد أسماء تطلق على ساحات قتال شهدتها الحرب الأخيرة، بل هي أسماء لمدن تحمل شحنات وجدانية تتصل بالماضي الإسلامي الزاهر، لأن صدام أراد إظهار نظامه وكأنه يدافع عن العروبة والإسلام في حرب متواصلة منذ ١٣٦٦ عاماً.^(٢)

ومع بدء الحرب العراقية الأخيرة عاد الصحفي الإسرائيلي "جى حوجي" ومعه زميلته "داليا فروري" إلى إحدى المقالات التي نشرت في صحيفة الجمهورية العراقية قبل ستة أشهر من إندلاع الحرب وجاء فيه "إن ملك بابل نبوخذ نصر الذي سبى اليهود إلى بلاده تتبأ بظهور زعيم عراقي يشبه صدام حسين وأن ذلك سجل على نقش حجرى يعود إلى عام ٥٧٠ ق.م، وعثر عليه في ثمانينيات القرن العشرين ويعود إلى عهد الدولة البابلية وكتبت عليه العبارات التالية" على كل من يعثر على هذا النقش، أن يمسه بالزيت ثم يسجل اسمه عليه إلى جانب تسجيل قائمة بالأعمال التي نفذها في حياته ثم يعيد النقش

الحجرى إلى مكانه، وكل من يعرف ذلك ستمتد سنوات حكمه. وكتبت في مكان آخر وعلى النقش نفسه عبارات منسوبة إلى الملك البابلي نبوخذ نصر تقول "كل من يقوم بإعادة بناء دولة بابل، سيهزم أعداءه ويقضى عليهم إلى الأبد". وعلق هذان الصحفيان على ما نشرته صحيفة الجمهورية العراقية بقولهما: "هكذا وبعد ٢٦٠٠ عاما تقريبا من وفاة ملك بابل، منحت حكومة العراق وبسبب الشرف الذى يستحقه، حيث أطلق اسمه على إحدى فرق الحرس الجمهورى مثلما أطلق اسم حمورابى على فرقة أخرى، بالإضافة إلى إطلاق اسم المدينة المنورة على فرقة ثالثة. وخلص هذان الصحفيان إلى القول بأن "صدام الذى اعتبر نفسه صلاح الدين العصر الحديث، أراد أن يبث رسالة واضحة تقول بأن هناك خطأ ممتداً ، وبصورة مباشرة، بين موقعه الحالى وبين الإمبراطورية البابلية القديمة.^(٨) ويتخذ الصحفى الإسرائيلي "عاميت كوهين" من المصير الذى تعرضت له الدولة العباسية، جرس إنذار يحذر به شعوب العالم من أن المسلمين الحاليين لن يسكتوا على ما حدث للعراق، فكتب مقالا فى صحيفة معاريف تحت عنوان "حرب عالمية" قال فيه: "من لا يعرف العالم الإسلامى جيدا، يمكنه أن يفترض أن المسلمين سيبتلعون وبهدوء ما تتعرض له العراق حالياً، فكثير من المسلمين يشيرون بانفعال إلى حصار قديم تعرضت له المدينة نفسها وكأنه حدث بالأمس فقط، ونقصد بذلك ما حدث قبل حوالى ٧٥٠ عاما حين حاصر المغول مدينة بغداد.^(٩) ويعرج الصحفى إلى حروب إسرائيل مع العالم العربى ويربط ذلك بما يحدث للعراق الآن فيقول: "لم تختف من الذاكرة العربية نتائج حرب ١٩٤٨ أو حرب ١٩٦٧، بل العكس هو الصحيح، وهذا ما سوف يحدث مع العراق. فتواجد جيش أجنبى، محتل وكافر فى النجف وكربلاء وهما من أكثر المدن قداسة لدى الشيعة، سيزيد من حدة الغضب خاصة وأن الكثير من المسلمين فى أرجاء العالم يشعرون الآن بأن أمريكا لا تحارب العراق فقط بل تحارب الأمة الإسلامية وتحاول سرقة ثرواتها. ومن هنا فإن المخاوف المقرونة بالغضب العظيم، ستدفع المزيد من الناس إلى الاتجاه إلى طريق الجهاد العالمى وإلى المضى فى طريق صدام حسين، إنطلاقا من مقولة أن الطريق الوحيد للتصدى للشيطان الأكبر، هو طريق النضال".

وفى المقال نفسه يحاول "عامير كوهين" توسيع دائرة تناول ردود الفعل المرتقبة للحرب العراقية سعيا لإثارة العالم ضد الإسلام والمسلمين فيقول: "الإسلام هو الذى يجمع بين الأندونيسى، الشيشانى، الفلسطينى والمصرى،

فليست القومية هي التي توحد المسلمين بل الديانة الإسلامية، وإذا كان كل عربي ملتزم بدولته وبجيشها، فالمسلم لا يلتزم بأى حدود سياسية، فهو يستطيع العمل من تلقاء نفسه، لأنه ليس مثل الجندي الذي يمثل للأوامر الصادرة إليه، فالمتطوعون المستعدون للموت على تراب العراق، لا يفعلون ذلك لأنهم عرب أو لأن العراق دولة عربية، ولا يفعلون ذلك من أجل صدام، بل يحاربون باسم الإسلام وعلى أرض الإسلام". ثم يشير كوهين إلى ما حذر منه الرئيس حسنى مبارك من أن "الحرب العراقية ستؤدى إلى ظهور مائة بن لادن جدد".^(١٠)

"من حرب عسكرية ضد العراق إلى غزو ثقافى له جذوره الدينية والتاريخية"

لعل ما تردد فى العالم مؤخراً وسجلته العديد من التقارير الصحفية والإعلامية والعديد من مواقع الإنترنت ومنها موقع "إسلام أون لاين" وغيره فى الخامس عشر من شهر أغسطس ٢٠٠٣ نقلا عن مصادر بحثية عراقية مطلعة فى بغداد، عن افتتاح مركز إسرائيلى للدراسات الشرق أوسطية، يبرز أحد تجليات اهتمام إسرائيل الزائد بالحرب ضد العراق وتوسيع دائرة سعيها من مجرد تمزيق إحدى الدول التى شكلت مصدر قلق وإزعاج لإسرائيل، إلى القيام بغزو ثقافى لتلك الدولة، ليضاف ذلك إلى المخططات الاقتصادية الإسرائيلية فى العراق والتى لم تعد سرية ولا خافية عن الأنظار. وقد بدأ المركز الإسرائيلى العمل اعتباراً من الأول من شهر أغسطس ٢٠٠٣ من مبنى ضخم يقع فى شارع "أبو نواس" المطل على نهر دجلة. وهذا هو أول نشاط ثقافى أعلن لإسرائيل فى العراق حيث حصل على الموافقات اللازمة من سلطات الاحتلال الأمريكية ومن وزارة الدفاع فى واشنطن، كما إن حراسة أمريكية مشددة تفرض حوله. وهذا المركز يتبع مؤسسة إسرائيلية تدعى "ميمرى". وبدأ المركز عمله قبل خمس سنوات فى مقر رئيسى فى واشنطن، وله فروع منتشرة فى لندن وبرلين، والقدس الغربية. ويتلقى المركز الدعم المالى من منظمات يهودية وصهيونية منتشرة فى العالم. ويجئ اهتمام إسرائيل بهذا البعد الثقافى تمشياً مع النهج العام السائد لديها والقائم على ربط الماضى بالحاضر لإثبات استمرارية التواجد اليهودي القديم فى المنطقة، ويضاف إلى ذلك بعد دينى أبرزته صحيفة معاريف بقولها: "إن أرض العراق هى أرض التناخ" وهى الأرض التى وقعت فيها أحداث قصة برج بابل، وهناك توجد مدينة أور" التى ولد فيها إبراهيم (عليه السلام).^(١١) والمعروف أيضاً أن الديانة اليهودية تبلورت بشكلها النهائى الحالى فى أرض بابل خلال سنوات السبى، حيث جمعت أسفار العهد القديم (التناخ) بعد

أن ظلت تروى شفاهة على امتداد أكثر من ٩٠٠ عاماً. وفي العراق القديمة أيضاً وُضع ثانی أهم مصادر الشريعة اليهودية وهو التلمود البابلي.

ولقد بدأ العمل الإسرائيلي لجمع وتهريب المقتنيات الدينية والثقافية اليهودية في العراق، منذ الساعات الأولى لسقوط بغداد. وقد ذكرت صحيفة "هاتسوفيه" أن العمل على تجميع الكتب الدينية اليهودية المقدسة في العراق بدأ فور سقوط نظام صدام حسين.^(١٢) ولم تكف إسرائيل بمطالبة الأمريكيين بأن ينوبوا عنها في مجال تجميع المقتنيات الثقافية والدينية اليهودية بل بادرت الوكالة اليهودية إلى إيفاد مبعوث خاص إلى بغداد وهو "جيف كى" للالتقاء ببقايا يهود العراق وللإشراف على نقل أرشيف الطائفة اليهودية في العراق والموجود في أحد أقبية مبنى المخابرات العراقية إلى إسرائيل.^(١٣) وفي هذا المجال، ذكر عالم الآثار المصري ورئيس هيئة الآثار المصرية د/ زاهى حواس في حديث مع الإذاعة البريطانية الناطقة باللغة العربية، بأن جميع النقوش والمقتنيات الدينية والأثرية التي تؤرخ لفترة تواجد اليهود في العراق القديمة خلال سنوات السبى البابلي قد اختفت من المتاحف العراقية.

إن إسرائيل بسعيها للتواجد على أرض العراق ثقافياً وإعلامياً، تريد تحقيق نوع من القبول لها لدى الشارع العراقي، وهو ما فشلت فيه حتى الآن عسكرياً. فهي لا تجرؤ على الظهور علانية باعتبارها أحد مصادر الدعم اللوجستي والمخابراتي للتواجد الأمريكي في العراق، ومن هنا ترى أن النافذة الثقافية قد تحقّق لها بعض القبول. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف افتتحت إسرائيل في يونيو ٢٠٠٣ قناة "الشرق الأوسط" الفضائية ليصل بثها العراق، إلى سوريا، لبنان، المغرب، مصر، دول الخليج العربي وأوروبا. وفي حينه أكد الوزير عنان كوهين، أن القناة ترمي إلى تقريب الإسرائيليين إلى الشرق الأوسط.^(١٤) إن بدأت خطوات الغزو الثقافي للعراق بتدشين قناة الشرق الأوسط وإفتتاح مركز الدراسات الشرق أوسطية والذي سبق ان أشرنا إليه في سطور سابقة ويديره الجنرال المتقاعد "يجال كارمون"، وهو مستشرق إسرائيلي ومعروف بمواقفه المتطرفة المعادية للعرب وعمل لسنوات طويلة مستشاراً لرئيس الوزراء الإسرائيلي في مجال مكافحة الإرهاب.

البترو، العراق، والماء، ومشروعات اقتصادية إسرائيلية مرتقبة

بدأت إسرائيل في الانتقال إلى مرحلة أخرى من مراحل استغلالها للتغير

الذي حدث في العراق بعد سقوط نظام صدام لتحقيق مصالح متشعبة داخل العراق وخارجه أيضا، ونقصد بذلك الانتقال من مجال المساهمة الفعلية وغير المعلنة في الغالب، في الحرب على العراق، إلى مرحلة الحصول على نصيبها من غنائم تلك الحرب. وللتذكير فقط نقول بأنها أسهمت بقسط وثير ومؤثر في الحرب العراقية بدءاً من التنسيق والتخطيط المشترك مع أمريكا قبل الحرب، وإقامة نظم المعلومات والإنذار المشتركة والتجسس على العراق عن طريق القمر الصناعي الإسرائيلي "أوفيك ٤" ، ثم التدريبات العسكرية الثانية في البحر الأبيض المتوسط، وأيضاً قيام إسرائيل بتدريب الجنود الأمريكيين على حرب المدن العربية الخاطفة بإنشاء بلدين وهميتين على الطراز العربي داخل فلسطين بهدف التدريب على اقتحامهما. ثم طورت إسرائيل شكل التدخل في الحرب العراقية بدفع عناصر من قواتها الخاصة وعناصر من المخابرات إلى مناطق كردية وأخرى تقع في غرب العراق وبخاصة في المنطقة التي تقع فيها القاعدة الجوية العراقية الشهيرة H.3. كما كان لإسرائيل دور بارز في مطاردة صدام حسين ثم أسره في نهاية الأمر . أي أن إسرائيل تريد أن تبرز وتؤكد وجودها في العراق سواء قبل الحرب أو خلالها أو حتى بعد التوقف الرسمي للأعمال القتالية الرئيسية، ومن هنا جاء تأكيد أحد المسؤولين المؤثرين اقتصادياً على سياسات البيت الأبيض وهو البروفيسور "جون تيلور" في مقابلة له مع صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية بأن "بلادنا تدعو الشركات الإسرائيلية للمشاركة في جهود إعادة إعمار العراق، مؤكداً أن العراق مفتوح أمام شركات إسرائيلية".^(١٥) ويبدو أن هذه الدعوة جاءت متأخرة بعض الشيء، إذ ذكرت الأنباء، نقلاً عن مصادر كردية عراقية في مدينة أربيل، أن عدة وفود إسرائيلية وصلت بشكل سري إلى منطقة الشمال العراقي حيث أجرت مباحثات مع قيادات الفصيلين الكرديين بقيادة جلال طالباني ومسعود برزاني. وأشارت تلك المصادر إلى أن الوفود الثلاثة تعمل في مجال البترول والسياحة والبنية التحتية، وأن بعض المسؤولين الإسرائيليين في هذه الوفود بحثوا إعداد خطة لعودة أكراد من أصل يهودي يعيشون الآن في إسرائيل إلى شمالي العراق. كما ناقش أعضاء الوفود، المسائل الفنية المتعلقة بإصلاح خط أنابيب البترول الموصل إلى حيفا لإعادة تشغيله، وبحثت بدائل وصول البترول العراقي إلى إسرائيل.^(١٦)

وقد أفادت صحيفة "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية في عددها الصادر يوم الثلاثاء ٢١/١٠/٢٠٠٣، أن تركيا حذرت إسرائيل مؤخراً من العمل في شمال

العراق، وذلك على خلفية الأنباء التي أفادت أن إسرائيل تعمل على امتلاك قطع أرض غنية بالبترول في منطقة الموصل. وكانت وسائل الإعلام التركية قد نشرت أنباء عن نشاطات إسرائيلية في شمالي العراق واستندت في ذلك على مصادر في المخابرات التركية ذكرت بأن الإسرائيليين يقومون بشراء أراض غنية بالبترول من أصحابها في شمالي العراق وبخاصة من الأكراد. وقد وصفت صحيفة "أشكام" التركية النشاط الإسرائيلي في شمال العراق بأنه احتلال ثان للعراق، وذكرت أيضا بأن السلطات الأمريكية في العراق أصدرت تراخيص تتيح لشركات إسرائيلية بامتلاك الأراضي العراقية بالإضافة إلى نشاطات إسرائيلية أخرى في العراق.

وبررت حكومة إسرائيل ما يحدث بأنه يتم عن طريق شركات إسرائيلية خاصة لا تحتاج إلى مصادقة من الحكومة الإسرائيلية. (١٧)

ولا تغيب مطامع إسرائيل في المياه العراقية عن البال، أو كما ذكر "أحمد الخميسي" بأنه إذا كانت أمريكا تنتظر لحضارة العراق باعتبارها مجرد آبار للنفط فإن إسرائيل ترى العراق مصدرا للمياه، مشيرا إلى ما سبق أن أعلنته رئيسة وزراء إسرائيل السابقة جولدا مئير من أن التحالف الإسرائيلي مع تركيا وأثيوبيا يعني أن أكبر نهريين في المنطقة، النيل والفرات، سيكونان في قبضتنا. (١٨)

من المخططات الإسرائيلية المستقبلية

المطالبة بتمتلكات اليهود العراقيين وشراء أراض عراقية

سارعت صحف إسرائيل الصادرة في الحادي عشر من شهر يوليو ٢٠٠٣ وعلى رأسها صحيفة معاريف إلى نشر ترجمة كاملة لمقال نشرته صحيفة المستقبل اللبنانية ضمنته مجموعة كاملة من الأسماء، الأماكن، والتفصيلات والأوصاف المثيرة وذلك في مجال الحديث عن الأنشطة السرية لإسرائيل في العراق بعد سقوط نظام صدام حسين. وذكرت الصحيفة أن رجال المخابرات الإسرائيلية والوكالة اليهودية يقومون بعملية تمشيط واسعة في العراق لتحديد المجالات التي يمكن لإسرائيل أن تعمل فيها. ويتم هذا تحت إشراف مباشر من الوزير الإسرائيلي "إهود أولمرت". وذكرت الصحيفة اللبنانية أن هناك مجموعات إسرائيلية تقوم بعمل إحصاء وجرد لتمتلكات يهودية في العراق سبق أن صودرت، للمطالبة باستردادها. وبالإضافة إلى ذلك، ذكرت الصحيفة بأن

أحد الفنادق الفاخرة في بغداد تحول إلى مركز لأعمال مجموعة من التجار والسماسة الإسرائيليين الذين زحفوا إلى بغداد لشراء منازل وأراض في العراق.^(١٩)

وكانت صحيفة هاتسوفيه الإسرائيلية قد أشارت، كما ذكرنا، قبل ذلك إلى تنظيم مؤتمر في نيويورك يناقش ترتيب وسائل العمل المطلوبة لاسترجاع ممتلكات اليهود في العراق. وأن المؤتمر عقد تحت رعاية الوكالة اليهودية والمؤتمر اليهودي العالمي. وذكرت هاتسوفيه بأن سقوط صدام قدم الفرصة للتقدم بطلبات للحصول على تعويضات مقابل الثروات اليهودية التي صودرت في العراق. والمطالبة باسترجاع ممتلكات اليهود هناك.^(٢٠) نحن إذن أمام مخطط دقيق ومدروس يجري تنفيذه حالياً مما سيوفر لإسرائيل موطئ قدم في العراق، وهو مخطط متشعب، إذ يشمل الجوانب العسكرية المخابراتية، والاقتصادية والتجارية وينتهي بالمطالبة بالحصول على جزء من مياه العراق وبتروله، بل هناك شركات في الولايات المتحدة وإسرائيل بدأت تتحدث عن حساب تكلفة إعادة تشغيل أنبوب النفط القديم الممتد من العراق إلى حيفا وعن إنشاء أنبوب مواز لنقل مياه من العراق إلى إسرائيل.

ولضمان نجاح واستمرارية تلك المخططات الإسرائيلية، ذكرت مصادر بريطانية بان هناك اتصالات تجرى الآن بين مستثمرين أمريكيين وإسرائيليين من جانب ومستثمرين من بعض الدول العربية والعراق للتسيق فيما بينهم لتنفيذ مشروعات عملاقة في إطار برامج إعادة تعمير العراق.^(٢١)

الخلاصة

نحن إذن أمام سيناريو واضح ومحدد المعالم تسعى إسرائيل من خلاله إلى الاستفادة من التواجد الأمريكي في العراق، ليس فقط من أجل الفوز بموطئ قدم إسرائيلي داخل العراق بل، للوصول إلى ما هو أبعد ذلك ويتمثل في التالي:-

١- تحقيق مكاسب اقتصادية وسياسية داخل العراق ذاته عن طريق مشاركة شركات إسرائيلية عملاقة في مشروعات تعمير العراق، ولضمان استمرارية هذا المخطط يجري الاتصال بأطراف عربية ومستثمرين عرب وعراقيين لتكوين شركات مشتركة مع إسرائيل ومع مستثمرين يهود في الخارج بهدف إضفاء الشرعية على التواجد الإسرائيلي الاقتصادي في العراق، ولتحاشي الحساسية النابعة من الاعتماد فقط على الدعم الأمريكي المرفوض عاطفياً

ووجدانياً من الشارع العربي.

٢- اتخاذ العراق كمنطلق للوصول إلى دول وأسواق عربية أخرى وبخاصة في منطقة الخليج وربما يشمل ذلك إيران ودول إسلامية أخرى مثل أندونيسيا وباكستان وتركيا، وذلك لتفتيت اقتصاديات العالم العربي وإضعافها وللغزو بدعم إسلامي واسع لما يسمى بمشروعات متعددة الأطراف والقوميات، تعمل ليس فقط من أجل تطوير العراق وتحديثه بل من أجل توسيع دائرة مشروعات التطوير والتحديث لتشمل العالم العربي كله. وهذا يتفق مع النهج الأمريكي الذي يتحدث عن تغير مستقبلي في خريطة الشرق الأوسط نحو مزيد من الديمقراطية والتقدم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

٣- القيام بعملية غزو ثقافي واسع لدول المنطقة والدول الإسلامية المحيطة بها انطلاقاً من العراق. وقد بدأ هذا المخطط بإنشاء مركز الدراسات الذي أشرنا إليه مع تسويقه إعلامياً عن طريق إنشاء منظومة من القنوات الفضائية الموجهة أساساً للمشاهد العربي والمسلم والتي بدأت أواخرها في العمل فعلاً. وتخطط وزارة الخارجية الإسرائيلية لإنشاء قناة فضائية عربية أخرى بتمويل من خارج إسرائيل بزعم تسويق صورة إسرائيل في العالم العربي والاتصال بدوائر المثقفين العرب لتحقيق تقارب معهم ودفعهم إلى تفهم حقيقة إسرائيل، كما ذكر سلفان شالوم وزير خارجية إسرائيل خلال زيارته الأخيرة للولايات المتحدة.

٤- يتزامن هذا التوجه مع السعي إلى محاربة بل وإغلاق أي مراكز بحثية عربية تشكل أعمالها وإصداراتها الفكرية والسياسية والثقافية حجر عثرة أمام السعي الأمريكي المدعوم إسرائيلياً لإعادة تشكيل وجدان المواطن العربي والمسلم. وآخر مثال على ذلك ما تعرض له مركز زايد بن سلطان آل نهيان في أبوظبي لمضايقات وهجمات إعلامية واسعة داخل إسرائيل والولايات المتحدة أدت إلى تعطيل وتوقف الموقع الخاص بهذا المركز بل وإلى إغلاق المركز تماماً. الأمر إذن خطير وما هو قادم لن يقل خطورة عما ينفذ الآن.

وهكذا فإن العالم العربي وعلى رأسه مصر أمام حملة شعواء متعددة الأغراض والأهداف والوسائل، مما يحتم أن نتبنى مشروعاً إعلامياً وثقافياً وحضارياً عربياً، يبدأ من القاهرة لما لديها من إمكانيات بشرية وقدرات إعلامية لتوصيل كلمتها إلى كل شبر في المنطقة وفي العالم، حيث ثبت من الحرب الأخيرة في العراق أن الإعلام لا يقل خطورة عن المدفع.

الهوامش

- (١) جدعون سامت "أسرلة أمريكا"، هآرتس ٢٠٠٣/٤/٤.
- (٢) أورى أفنيرى: تأملات فى الحرب العراقية. موقع أفنيرى فى الإنترنت ٢٠٠٣/٤/٤.
- (٣) ميرون بنينستى: "لقد جاءت الحرب"، هآرتس ٢٠٠٣/٢/١٣.
- (٤) اورى أفنيرى. المصدر السابق.
- (٥) ى. تلمون. لقاء معه نشر فى معاريف ١٩٧٦/٥/٤.
- (٦) صحيفة هآرتس ٢٠٠٣/٤/١٣.
- (٧) المصدر السابق.
- (٨) صحيفة معاريف ٢٠٠٣/٤/١.
- (٩) صحيفة معاريف ٢٠٠٣/٤/٤.
- (١٠) المصدر السابق.
- (١١) صحيفة هآرتس ٢٠٠٣/٤/٣.
- (١٢) صحيفة هاتسوفيه ٢٠٠٣/٦/٢٥.
- (١٣) صحيفة هاتسوفيه ٢٠٠٣/٧/٣.
- (١٤) أحمد الخميسى: أخبار الأدب القاهرية عدد ٢٠٠٣/٨/٧.
- (١٥) صحيفة يديعوت أحرونوت ٢٠٠٣/٦/٢٤.
- (١٦) الأهرام المصرية ٢٠٠٣/٧/١.
- (١٧) صحيفة يديعوت أحرونوت ٢٠٠٣/١٠/٢١.
- (١٨) أحمد الخميسى.
- (١٩) صحيفة معاريف ٢٠٠٣/٧/١١.
- (٢٠) صحيفة هاتسوفيه ٢٠٠٣/٧/١٥.
- (٢١) موقع الـ B.B.C ٢٠٠٣/٨/٢٠.

إصدارات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

- ١- البليوجرافيا الشارحة للترجمات العربية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، إشراف أحمد زايد، ١٩٩٧.
- ٢- للملخصات السوسولوجية العربية: من الأول وحتى السابع، إشراف أحمد زايد، ١٩٩٧.
- ٣- الملخصات السوسولوجية العربية: من الثامن وحتى الحادى عشر، إشراف محمد الجوهري فى عامى ١٩٩٩-٢٠٠٠.
- ٤- الإنتاج الفكرى العربى فى علم الفولكلور: قائمة بليوجرافية، إعداد محمد الجوهري وآخرون، ٢٠٠٠.
- ٥- الفولكلور العربى: بحوث ودراسات (المجلد الأول)، إشراف محمد الجوهري، ٢٠٠٠.
- ٦- الفولكلور العربى: بحوث ودراسات (المجلد الثانى)، تحرير محمد الجوهري، وإبراهيم عبدالحافظ، ومصطفى جاد، ٢٠٠١.
- ٧- استخدام الحاسب الآلى فى مجال العلوم الاجتماعية (استخدام برنامج SPSS من خلال Windows)، عبدالحميد عبداللطيف، ٢٠٠٠.
- ٨- البناء السياسى فى إحدى قرى الصعيد، محمود جاد، ٢٠٠٠.
- ٩- آثار القبلية على المزاج الغنائى والموسيقى لأهل الصعيد، تأليف محمود جاد، ٢٠٠١.
- ١٠- العنف فى الأسرة، تذيب مشروع أم لتهالك محذور، تأليف على السمرى، ٢٠٠١.
- ١١- ملاحم التغيير فى القصص الشعبى الغنائى، تأليف إبراهيم عبدالحافظ، ٢٠٠١.
- ١٢- الصحة والبيئة: دراسات اجتماعية وأنثروبولوجية مهداة إلى روح الأستاذ الدكتور نبيل صبحى، تأليف مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بالجامعات المصرية، ٢٠٠١ (ضمن مشروع توثيق الإنتاج العربى فى علم الاجتماع).
- ١٣- الإنتاج الفكرى العربى فى علم الاجتماع: قائمة بليوجرافية مشروحة (١٩٢٤-١٩٩٥) / إشراف أحمد زايد، ومحمد الجوهري، ٢٠٠١، (وهى طبعة منقحة ومزيدة من المجلدات السبعة الأولى من الملخصات السوسولوجية العربية التى سبق أن أصدرها المركز ونفذت).
- ١٤- الشباب ومستقبل مصر: الندوة السنوية السابعة لقسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٩-٣٠ أبريل ٢٠٠٠/ تحرير محمود الكردى، ٢٠٠١.
- ١٥- المجتمع الاستهلاكى ومستقبل التنمية فى مصر: الندوة السنوية الثامنة لقسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة القاهرة ٢٢-٢٣ إبريل ٢٠٠١/ تحرير أحمد مجدى حجازى، ٢٠٠١.
- ١٦- الإدراك البيئى عند الطفل: دراسة مقارنة بين الريف والحضر، تأليف أحمد مصطفى العتيق، ٢٠٠١.

- ١٧- دراسات مصرية فى علم الاجتماع: مهدة إلى روح الأستاذ الدكتور حسن الساعى، ٢٠٠٢.
- ١٨- الجماعات الهامشية: دراسة أنثروبولوجية لجماعات المتسولين بمدينة القاهرة، تأليف ابتسام علام، تقديم: فاروق العادلى، ٢٠٠٢.
- ١٩- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الأول: الإطار النظرى وقراءات تأسيسية، تأليف مجموعة من أساتذة الجامعات، ٢٠٠٢.
- ٢٠- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الثانى: التراث فى عالم متغير: قراءات تأسيسية، تأليف مجموعة من أساتذة الجامعات، ٢٠٠٢.
- ٢١- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الثالث: مقترحات ومحاولات بحثية، تأليف مجموعة من أساتذة الجامعات، ٢٠٠٢.
- ٢٢- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الرابع: عمال مصر بين ثقافة التصنيع والثقافة التقليدية: دراسة ميدانية بمجمع الألومنيوم، تأليف محمود عبدالرشيد بدران، أحمد محمد السيد عسكر، ٢٠٠٢.
- ٢٣- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الخامس: التيار الإسلامى بين التأييد والمعارضة: قراءة فى الصحافة المصرية، تأليف على ليلة، ٢٠٠٢.
- ٢٤- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب السادس: تأثير أنماط العمران على تشكيل بعض عناصر الثقافة الشعبية: دراسة ميدانية لسياقات اجتماعية متباينة بمصر، إشراف وتحرير محمود الكردى، ٢٠٠٢.
- ٢٥- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب السابع: الاحتفالات الشعبية الدينية: دراسة لديناميات التغير وقوى المحافظة والتجديد. تأليف منى الفروانى، ٢٠٠٢.
- ٢٦- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الثامن: الطب الشعبى: دراسة فى اتجاهات التغير الاجتماعى فى المجتمع المصرى، تأليف سعاد عثمان، ٢٠٠٢.
- ٢٧- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب التاسع: قوى المحافظة والتجديد فى بعض عناصر التراث المادى: دراسة حالة للأزياء الشعبية المصرية. تأليف فاتن أحمد على، ٢٠٠٢.
- ٢٨- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب العاشر: ديناميات تغير التراث الشعبى فى المجتمع المصرى: دراسة لعادات الطعام وأداب المائدة. إعداد نجوى عبدالمنعم قاسم، إشراف علياء شكرى.
- ٢٩- علم الاجتماع ودراسات المرأة: تحليل استطلاعى، تأليف محمود عبدالرشيد بدران، ٢٠٠٢.
- ٣٠- المرأة وقضايا المجتمع، تأليف مجموعة من أساتذة الجامعات، ٢٠٠٢.
- ٣١- بحوث فى الأنثروبولوجيا العربية، مهدة إلى الأستاذ الدكتور أحمد أبوزيد، تحرير/ ناهد صالح، ٢٠٠٢.
- ٣٢- دراسات فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، مهدة إلى روح الأستاذ الدكتور أحمد الخشاب، ٢٠٠٢.
- ٣٣- القيم كما تعكسها للصحافة المحلية: تحليل مضمون صفحة (المحليات) بجريدة

- الأهرام، تأليف فاطمة القليني، ٢٠٠٢.
- ٣٤- علم الاجتماع والرعاية الاجتماعية، دراسات مهداة إلى روح الأستاذ الدكتور عبدالمنعم شوقي، تحرير/ عبدالهادى الجوهري، ٢٠٠٢.
- ٣٥- العدالة بين الشريعة والواقع في مصر في العصر العثماني، إشراف رؤوف عباس، تحرير/ ناصر إبراهيم، عماد هلال، ٢٠٠٢.
- ٣٦- علم السكان، تأليف محمد محي الدين، القاهرة، ٢٠٠٢.
- ٣٧- أنتوني جيندز: مقدمة نقدية في علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، القاهرة، ٢٠٠٢.
- ٣٨- دراسات في علم الاجتماع، مهداة إلى روح الأستاذ الدكتور مصطفى الخشاب، تحرير/ أحمد زايد، القاهرة، ٢٠٠٣.
- ٣٩- رشدي صالح والفولكلور المصري. دراسة لأعماله وفصول من تأليفه، محمد الجوهري، القاهرة، ٢٠٠٣.
- ٤٠- الإنتاج العربي في علم الاجتماع، قائمة ببليوجرافية مشروحة (المجلد الثاني): (١٩٩٥-٢٠٠٠)، إشراف محمد الجوهري وأحمد زايد، القاهرة، ٢٠٠٣.
- ٤١- الملخصات السوسولوجية العربية، المجلد الثاني عشر، إشراف محمد الجوهري وأحمد زايد، القاهرة، ٢٠٠٣.
- ٤٢- التقاء الحضارات في عالم متغير، حوار أم صراع، تحرير: عبادة كحيل، القاهرة، ٢٠٠٣.
- ٤٣- الثقافة الثأرية والثقافة المسالمة: تاصيل نظري ودراسة ميدانية للثقافة الفرعية ومحددات السلوك الإجرامي، تأليف محمود عبدالرشيد بدران، أحمد محمد السيد عسكر، ٢٠٠٣.
- ٤٤- قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع، ترجمة مصطفى خلف عبدالجواد، مراجعة وتقديم محمد الجوهري، القاهرة، ٢٠٠٢.
- ٤٥- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب الحادي عشر: التراث والحداثة في منظومة القيم المرتبطة بالعمل الأهلي عند قادة المجتمع المدني، تأليف خالد عبدالفتاح، ٢٠٠٣.
- ٤٦- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب الثاني عشر: التسامح الاجتماعي بين التراث والتغير، تأليف أشرف عبدالوهاب، ٢٠٠٣.
- ٤٧- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب الثالث عشر: قضايا المرأة المصرية بين التراث والواقع: دراسة للثبات والتغير الاجتماعي والثقافي، تأليف علياء شكرى، ٢٠٠٣.
- ٤٨- دراسات بيئية في المجتمع المصري، تأليف نجوى عبدالحميد سعدالله، ٢٠٠٢.
- ٤٩- كتابات اجتماعية معاصرة، مهداة إلى الأستاذ الدكتور السيد محمد بدوي، تحرير: محمد سعيد فرح، ٢٠٠٣.
- ٥٠- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب الرابع عشر: الثابت والمتغير في آليات الضبط الاجتماعي، تأليف: عدلى السمرى، ٢٠٠٣.

- ٥١- الجماعات الهامشية المنحرفة فى تاريخ مصر الاجتماعى الحديث، تأليف: سيد عشاوى، ٢٠٠٣.
- ٥٢- سخريّة الرّفص وتهكم الاحتجاج. عوام أهل مصر وتعسف و عنظظة الأترك. مصر العثمانية ١٥١٧-١٩١٤، تأليف: سيد عشاوى، ٢٠٠٣.
- ٥٣- الطوائف المهنية والاجتماعية فى مصر فى العصر العثمانى، تحرير: ناصر إبراهيم، إشراف رعوّف عباس، ٢٠٠٣.
- ٥٤- الأسرة المصرية وتحديات العولمة: الندوة السنوية التاسعة لقسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٧-٨ مايو ٢٠٠٢/ تحرير أحمد زايد وأحمد مجدى حجازى، ٢٠٠٣.
- ٥٥- الدين والدولة فى العالم العربى، أعمال ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، تحرير: عاصم الدسوقى، ٢٠٠٣.
- ٥٦- العولمة وقضايا المرأة والعمل، أعمال الندوة العلمية لمركز الدراسات والبحوث والخدمات المتكاملة بكلية البنات، جامعة عين شمس، تحرير: عبدالباسط عبدالمعطى واعتماد علام، ٢٠٠٣.
- ٥٧- اختراع التراث: دراسات عن التقاليد بين الأصالة والنقل والاختراع، تحرير/إيريك هويسباوم، تيرنس رينجر، مراجعة وتقديم/ عاصم الدسوقى، ٢٠٠٣.
- ٥٨- إوارد شيلز، التراث.. تأصيل وتحليل من منظور علم الاجتماع، مراجعة وتقديم/ محمد الجوهري، ٢٠٠٤.
- ٥٩- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الخامس عشر: الفنون الأدبية الشعبية.. دراسة فى ديناميات التغير، تأليف: إبراهيم عبدالحافظ، ٢٠٠٤.
- ٦٠- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب السادس عشر: صناعة الولى. دراسة أنثروبولوجية فى الصحراء الغربية، تأليف: فاروق أحمد مصطفى، محمد عباس إبراهيم، ٢٠٠٤.
- ٦١- الرّفص والاحتجاج فى المجتمع المصرى فى العصر العثمانى، تحرير: ناصر إبراهيم، إشراف: رؤوف عباس، ٢٠٠٤.
- ٦٢- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب السابع عشر: الفكاهة وآليات النقد الاجتماعى، تأليف: شاكر عبدالحميد، معتز سيد عبدالله، سيد عشاوى، ٢٠٠٤.
- ٦٣- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الثامن عشر: ثقافة التحايل.. دراسة ميدانية لنماذج من التجمعات العشوائية بالقاهرة الكبرى، تأليف: هناء الجوهري، ٢٠٠٤.
- ٦٤- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب التاسع عشر: الزواج العرفى. واقعه وأثاره النفسية والاجتماعية، تأليف: معتز سيد عبدالله، جمعة سيد يوسف، ٢٠٠٤.
- ٦٥- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب العشرون: أطلس دراسات التراث الشعبى، تأليف: مصطفى جاد، ٢٠٠٤.
- ٦٦- جرائم العنف الأسرى بين الريف والحضر، تأليف: السيد عوض، ٢٠٠٤.
- ٦٧- المخدرات والأزمة الراهنة للشباب المصرى، تأليف: أحمد مجدى حجازى، ٢٠٠٤.
- ٦٨- الثورة والتغيير فى الوطن العربى عبر العصور، تحرير: عبادة كحيلية، القاهرة، ٢٠٠٤.

2004/22340	رقم الايداع
------------	-------------

مطبعة العمرانيه للاوقست

الجيزة - المنيب

ت: 7779398

منتہی سورا الازبکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET